

الدكتور شوقي ضيف

عصر الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران



تاريخ الأدب العربي

٥

مكتبة لسان العرب

عصر
الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

تاريخ
الأدب العربي
٥

عصر
الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

دار المعارف

منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربى (ج ٥)
المؤلف :	شوقى الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولى
تاريخ الطبع :	١٤٢٨
الكمية :	١٠٠٠ نسخة
المطبعة :	ستاره
شابك ج ٥ :	٦ ـ ١٨٨ ـ ٥١٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاول ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ـ٢٥١ـ٩٨+

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وكان المؤرخون للأدب العربى يدخلون منه نحو ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغارَ قُطعان التتار على بغداد وقوّضوا ما كان فيها من مدنية وحضارة . وكان هؤلاء المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى . وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثمانى . وكل ذلك تصور مخطئ ، لأن سلطان الخلافة العباسية تقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من الأمر سوى بغداد ، فقد كانت إيران بيد بنى بويه ونفس العراق أظله سلطانهم ، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة ، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ؛ والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر. وتعاقبت دول كثيرة فى اليمن وفى أنحاء الجزيرة العربية ، وبالمثل فى كل البلدان والأقاليم المذكورة ، بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون : الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية ، وحتى ما بقى لها من اعتراف بالولاء فى بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافاً اسميًّا . لا يدل على أى سلطان وراءه . ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولى ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربى ، وتلك البقية هى الشطر الأكبر منه : الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس ، لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولى فى عصر الدول والإمارات ، لأن هذه التسمية هى الألصق بالعصر ، وهى أكثر دقة ومطابقة للواقع . وبالمثل أدمجنا فيه ما سُمّى بالعصر العثمانى ، لأنه لم يكن عصراً بالمعنى الحقيقى ، وإنما كان حقبة ممتدة ، تتمة لعصر الدول والإمارات ، وثمرة مرة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك .

وحقًّا يكون عصر الدول والإمارات فى تاريخ الأدب العربى بذلك عصراً طويلا ، غير أن طوله لايعنى أى تفاصل روحى أو فكرى بين دوله وإماراته ، فقد كان هناك دائماً شعور عام فى كل مكان بأن هذه الإمارات والدول جميعاً إنما هى وطن عربى واحد ، وطن لاتُحدث فيه الانقسامات أى تقاطع علمى أو أى تنابذ أدبى ، وطن تتواصل أجزاؤه ووحداته تواصل الأفراد فى أسرة واحدة. ولذلك مظاهر شتّى ، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عامًّا يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين فى هذا الوطن الكبير ، وكانوا إذا ألفوا كتاباً فى تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى فى فرع كفقه الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماءه فى جميع البلدان العربية ، وبالمثل حين يؤلفون أحيانا فى تراجم الشعراء يجمعون فى مؤلفاتهم كل الشعراء فى جميع الأقاليم العربية ، متناسين ، بل مهملين ، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان ، وكأنها فى رأيهم أقواس وهمية فى المخطَّطات السياسية والجغرافية ، لاتدل أى دلالة على فوارق علمية أو أدبية . ومظهر ثان ، هو أن الكتاب حين كان يؤلَّف يصبح ملكاً لعلماء العالم العربى جميعهم ، فهم يشرحونه أو يشرحون شرحه أو يكتبون تقارير عليه ، يشترك فى ذلك قاصيهم ودانيهم ومَنْ فى أقصى المشرق ومَنْ فى أقصى المغرب ، ونضرب لذلك مثلا كتاب أو متن التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى الدمشقى المتوفى فى القرن الثامن الهجرى ، فقد شرحه علماء من مصر ومن المغرب ومن أقصى المشرق ، فهو ليس كتاب دمشق وحدها بل هو كتاب البلدان العربية جميعها . ونضرب مثلا ثانياً ديوان المتنبى فإنه لم يكد يبقى بلد عربى إلا وتجرَّد له عالم من علمائه يشرحه ويعرض شرحه على الطلاب ، ومن أهم شروحه شرح ابن جنى والعكبرى فى العراق وشرح ابن المستوفى فى إربل وشرح أبى العلاء المعرى فى الشام وشرح الواحدى فى إيران وشرح الإفليلى وابن سيده فى الأندلس ، غير شروح أخرى ، وغير دراسات نقدية لا تكاد تُحصَى ، وكأن ديوانه ليس ديوان بلد بعينه ، وإنما هو ديوان الأمة العربية جميعها . وليس ذلك فحسب ، فإن ابن هانىء الأندلسى توفى بعده بنحو ثمانية أعوام ، وقد درس شعره وتمثل منهجه تمثلا تامًّا ، بحيث كان ينظم أشعاره على غراره ، وبحيث سماه النقاد متنبى الأندلس . وكل ذلك يصور بقوة وحدةَ الشعور والفكر فى هذا العصر المتطاول عصر الدول والإمارات ، وهى وحدة ظل الشعر كما ظل النثر ، وظل الأدب كما ظل العلم ، مرآتها الصافية .

وقد بدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض الحياة السياسية لأقاليمها الأساسية

فى هذا العصر، وهى الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفار وعُمان والبَحْرين، وعرضنا مجتمعها البدوى والحضرى وما كان فيها من نحل شيعية وخارجية وما شاع فى نجد من الدعوة الوهابية، وما حفّ بذلك من زهد ونسك. وصوّرنا جداول الثقافة التى كانت تجرى فى كل مكان وما رافقها من نشاط العلوم اللغوية والإسلامية. كما صوّرنا نشاط الشعر فى الأقاليم المختلفة للجزيرة وطوائفه المتقابلة من شعراء مديح ورثاء وفخر وهجاء وأهم شعراء الدعوات المختلفة من إسماعيليين وزيديين وخوارج ووهابيين، وبالمثل شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية. وأوضحنا ما كان من نشاط للكتابة فى نجد وغيرها من أقاليم الجزيرة وما كان من نمو كتابة الرسائل الديوانية والشخصية، ونمو الوعظ والمحاورات والرسائل الأدبية.

وبالمثل تحدثنا عن العراق وحياتها السياسية وما تعاقب عليها من دول وكيف أن مجتمعها كان يتألف من ثلاث طبقات : عليا مترفة ، ووسطى على شىء من اليسار ، ودنيا بائسة ، وشيوع المذهب الإمامى الاثنى عشرى بها وشيوع الزهد والتصوف وطرقه ، وما كان من نشاط الحركة العلمية بها وتأسيس جامعتى النظامية والمستنصرية ببغداد ، وكثرة المدارس هناك مع ما كان فى المساجد من نشاط علمى واسع ، بحيث أصبحت الثقافة – حتى الثقافة الفلسفية – غذاء شعبيًّا عامًّا . وتتكاثر ببغداد الندوات الفكرية ، وتتكاثر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية ، كما تتكاثر البحوث اللغوية والنحوية والنقدية ، وتنشط الدراسات الإسلامية والتاريخية . ويكثر الشعراء فى العراق كثرة مفرطة وينظمون فى الرباعيات والموشحات . وتتقابل طوائفهم من شعراء مديح على رأسهم المتنبى إلى شعراء رثاء وهجاء وشكوى ، وشعراء غزل وقد نفذوا إلى ضرب جديد من الشعر الوجدانى . وبجانبهم شعراء لهو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ومدائح نبوية ، وشعراء فلسفة وشعر تعليمى ، وشعراء شعبيون . ويتنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فمن نثر فلسفى إلى نثر علمى ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل شخصية وديوانية ، وتتألق أسماء طائفة من الكتاب النابهين.

وتحدثنا عن إيران وأحوالها السياسية والدول المتقابلة بها والمتعاقبة ، وعن مجتمعها والطبقات التى كانت تكوّنه : العليا والوسطى والدنيا ، وعن نشاط الشيعة بها : الزيدية والإمامية والإسماعيلية وما كان يَسْرِى فيها من زهد وتصوف . وعرضنا الحركة العلمية بها والعناية بالمدارس والمكتبات وما حدث هناك من نشاط فى دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، وفى وضع المعاجم والبحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، وفى الدراسات

الإسلامية والكتابة التاريخية . ويزدهر الشعر بإيران فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . ويظل حيًّا نامياً حتى القرن التاسع ، ويتكاثر شعراء المديح والرثاء والفخر والهجاء والشكوى والغزل واللهو والمجون والزهد والتصوف والفلسفة والحكمة والأمثال وأصحاب الشعر الشعبى . ويتنوع النثر ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ويتكاثر كتّاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ويلمع فى كل دولة وإمارة غير كاتب بارع .

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران طوال حقب ممتدة من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب شعرا ونثرا لأجمع منها المادة العلمية التى تتطلبها الدراسة . ورجعت إلى طائفة من كتب المحدثين من العرب والمستشرقين . وأعترف بأن عقبات كثيرة صادفتنى وخاصة فى المصادر والحصول عليها ، وقلتها أحيانا فى بعض الجوانب . وقد حاولت جهدى أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب فى تلك الأقاليم أثناء هذه الحقب المتطاولة ، ولا أزعم أنى استطعت أن أوفّى هذا الرسم حقه كاملا من الدقة والاستقصاء . والله ولىّ الهدَى والتوفيق .

القاهرة فى أول يونية سنة ١٩٨٠ م.

شوقى ضيف

القسم الأول

الجزيرة العربيّة

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

أقاليم ودول وإمارات

تتعدد الأقاليم فى الجزيرة العربية لاتساع رقعتها ، ففى الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسَّراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هى تِهامة التى تفصل بينها وبين بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نَجْد الفسيحة التى تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العَروض : اليمامة والبَحْرين ، وتظل تنبطح شمالا فى إقليم القَصيم حتى جبلى أجأ وسلمى ، وتلتقى بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج ، وتستدير حول اليمامة منبطحة فى الربع الخالى ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حَضْرَمَوْت وظَفار وعُمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التى تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز. وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حَضْرَمَوْت ومعها ظفار بينها وبين عُمان التى تشرف على المحيط الهندى من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهى رأس الخَيْمة والشارقة ودُبَىّ وأبو ظَبْى . وشمالىّ هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قَطر الحالية وإمارة الكُوَيْت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية فى الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هى الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْتُ وعُمان والبَحْرين ، وسنخص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز[١] وإماراته

كانت فى الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نَخْـلٍ وعُسْفان ومرِّ الظَّهران . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خَيْبر وفَدك ويَنْبع والفَرْع ووادى القُرَى ومَدْين . وكانت إمارة مكة للحسنيين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب فى حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب . وكان الأولون يعتنقون المذهب الزيدى الشيعى ، بينما كان الثانون يعتنقون المذهب الإسماعيلى على الأقل فى عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكانة الأولى ، إذ كان المسلمون – ولا يزالون – يؤمونها سنويا من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج ، وكان مَنْ يُدْعَى له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا العصر هى أسرة بنى سليمان أو بنى موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدى ، وراسله الخليفة المعز الفاطمى كى يقيم باسمه الخطبة فى موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهِّز له عسكراً لحربه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذعن للعزيز الفاطمى ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة : وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدين لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبى الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى أن يحملوه على أن يقرأ سجلا فى المسجد الحرام بالبراءة من أبى بكر وعمر وسَبِّ بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

---

(١) انظر فى أمراء مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والفاسى فى كتابيه : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) وصبح الأعشى للقلقشندى فى مواضع متفرقة والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان لياقوت فى مكة والمدينة ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى (طبع مطبعة المؤيد) وخلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام لابن زينى دحلان وماضى الحجاز وحاضره للشيخ حسين محمد نصيف وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث – الجزء الأول – للدكتور عبد الكريم غرايبة ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور (الترجمة العربية – طبع القاهرة) .

صلته بمصر . ودفعه – فيما بعد – أبو القاسم المغربى حين فرّ من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخُطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيئ حسان بن مفرّج على نُصْرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرّج بالأموال ، فنفض يده من أبى الفتوح وأسلمه إلى المصريين ، وفرّ أبو القاسم المغربى إلى العراق . واضطرّ أبو الفتوح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته فى سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين فى أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدعه وهو يقول : إلى متى نُعْبَدُ ؟ إلى كم تقبَّل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفراً من أصحابه . وما زال أبو الفتوح يلى مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة ترويها كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمى الجازية ، وهى نواة قصص أبى زيد الهلالى . وبشكر انقرضت سلالته وحُكْمها فى مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبد له ، غير أن فرعاً من الأسرة الحسنية من بنى هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بنى سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالىّ اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك فى المخلاف السليمانى المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصُّلَيْحى أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة فى الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يُغْدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ،إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع فى ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقُراهما ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة فى عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . ويخلفه ابنه أبو فُلَيتة ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بنى العباس فى عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخَلَفه ابنه عيسى ، وفى عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . ويظل أبناء عيسى يلون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفى عهده يبطل صلاح الدين المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، ويعوّضه عنها فى كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طُغْتكين الأيوبى مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحَىَّ على خير العمل ، عملا بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكثر سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها فى أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن فى الحرم بحى على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبى أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركى . وعادت مكة إلى بنى قتادة ، ووليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تتنقل بينه وبين أخيه على وجماز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢ . وفى كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولّون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك فى عهد السلاطين المماليك هى التى توليهم ، وكانوا يعيّنون بجانبهم حكاماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبونُمَىّ الأول الذى ولى مكة سنة ٦٥٢ وثبّته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شئونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولا أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته . وروى له الفاسى بترجمته فى كتابه العقد الثمين يميناً أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثّق : أن يحمى الحجاج ويؤمّنهم ، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون فى مقدمتهم الخنديدى. ويخلفه فى سنة ٧٠١ ولداه : رُمَيْثة وعُطَيفة ، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة فى سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحاً تفرّق فى أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُقْبض عليه فى سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويتولاّها أخوه حُمَيْضة . وتُرَدّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر فى سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكراً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة فى الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه : ثَقَبة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمّر الأخوان على مكة ، ويجعلها المصريون لعجلان إذ كان ثقبة يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيديا يخطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفى سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يحب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالمحمل على العادة . وكان

ممدَّحاً ، مدحه النَّشو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد فى الحكم ، وما زال يلى الإمارة حتى توفى سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفى سنة ٧٨٨ . ووليها بعده أخوه على وشركه فى الإمرة أخوه مغامس لمدة سنتين ، وما زال عليها حتى توفى سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أبو نُمَىّ الثانى الذى سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثمانى سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلن تسليم الحرمين إليه .

وكانت إمارة مكة فى العهد العثمانى تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليتها ثلاث أسر من أبناء نُمَىّ : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية فى الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد فى القرن الحادى عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركانى إلى زيدى حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد على للحجاز فى عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصرى الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبى نُمَىّ ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد على من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة ثنائية بينه وبين الوالى العثمانى ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة فى أبنائه حتى استخلصها سعود الثانى من حسين بن على آخرهم لا فى هذا العصر ، وإنما فى العصر الحديث .

وكانت إمارة المدينة أقل شأناً من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبنى المهنَّا أحفاد الحسين ، ويُروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه وأقطعه ما يُغِلّ كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفى سنة ٣٢٩ وانعقدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفى هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته لأحد أبنائه ، فردَّه ، فحنق عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمَّره الحسينيون هناك عليهم ، واستقلَّ بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المؤرخون هل الأمراء بعده من سلالته أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذى يقال إنه وليها بعده . ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمى أمر الحسن بن جعفر السليمانى أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بنى المهنا ، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم ، وظلت فى أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .

وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز فى طاعته ، ويُبْقى على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها فى العهد الأيوبى من قِبل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حينئذ أبو فُلَيْتَه الذى حضر مع صلاح الدين فتح أَنْطاكيَة سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذى الحُلَيفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفى ذلك يقول ملتاعاً :

مصارعُ آل المصطفى عُدْنَ مثلما بَدَأْنَ ولكنْ صِرْنَ بين الأقاربِ

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر فى سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات فى طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جَمَّاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه ، وهو الذى ظلت الإمرة بعده فى بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعمى فى آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته فى أمير ينبع وفى أبى نُمَى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس (هكذا فى ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير) فأشرك بينهما فى الإمرة وفيما عيَّنه من إقطاع لأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمر واستخلف ابنه كبيشة ، فلكها مقبل من يده ، ولحق كبيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قتيلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥. ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقضَّ عليه آخر . ويكفى أن نذكر ممن تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور ، ووَدِّى بن جماز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب جماز ، ثم جماز بن منصور وهبة ابنه ، وهبة آخر من عقب وَدِّى وعُطَيفة بن منصور بن جماز وهبة بن جماز وجماز بن هبة بن جماز ونُعَيْر بن منصور وثابت بن نعير . وكثيراً ما كان يثب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهُبازع بن هبة الله المتوفى بالسجن فى الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقًّا كانت تتبع المماليك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فما يكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كى تخلع عليه وتنصبه أميراً . على كل حال

ساء الحكم فى هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجرى ، وكلما قطعنا شوطاً فى الزمن اشتد سوءه ، حتى لنرى أحد أمرائها من أحفاد نُمَيّر المسمى الحسن بن الزبير يعتدى فى يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوى وينهب ما فى الحجرة النبوية الطاهرة من تحف ونفائس . وتتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز فى حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسينى عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والقلقشندى أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية . ومرَّ بنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلى فى العهد الفاطمى حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحوَّلوا فيما بعد إمامية اثنى عشرية .

نجد وقبائلها وشيوخها [١] وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم فى عصر الفتوح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوَّنته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تتغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيئ التى كانت تحتل منطقة جبلى أجأ وسلمى وتنتشر فى بوادى الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها فى هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية فى هذا العصر يتصل ببنى هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عُقَيْل وربيعة ، وكذلك ببنى سُلَيْم . وكان العامريون ينزلون فى جبل غَزْوان ، بينما كان بنو سليم ينزلون شرقى المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة فى العراق والشام ويغيرون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج فى مواسم الحج ، وكانت البعوث تجهَّز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيَّز كثيرون من العامريين وبنى سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم فى البحرين وعُمان ، وحين أغار الأعصم القرمطى سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمته جيوش

---

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والجزء الرابع من صبح الأعشى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة والخريدة للعماد الأصبهانى وابن خلكان فى أمراء بنى عقيل وبنى أسد وروضة الأفكار لحسين بن غنام وعنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث – الجزء الأول (١٥٠٠ – ١٩١٨ م) للدكتور عبد الكريم غرايبة .

الفاطميين نقل الخليفة الفاطمي العزيز جنده من بنى هلال وبنى سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فخربوا مدن تونس وملكت سليم شرقى البلاد وبنو هلال غربيها . وكان قد انضم إلى الأعصم فى حربه للفاطميين شيخ طيئ : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه، وتظل لبنى الجراح رياستهم لطيئ وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمى ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دَغْفل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طئ بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين فى حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفاميه سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قِرْواش صاحب الموصل .

وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بنى خفاجة من عُقَيل بن عامر وقد توغلوا نحو اليمامة ، وزحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فلكوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة فى ظل أميرهم عِلْيان بن ثِمَال الخفاجى الذى أسس هناك إمارة بنى ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه ، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بنى المنتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجرى وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون يتزلون فى هذه الأنحاء فى بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متنقلين بخيامهم من مكان إلى مكان .

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبنى عُقَيل بن عامر إلى الموصل فى الشمال الشرقى من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أولُ أمرائها ومؤسسها أبا الزَّهَّار محمد ابن المسيب العقيلى الذى تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخَلَفه أخوه المقلَّد العقيلى الذى اتسعت مملكته ، وقد حارب بنى خفاجة واضطرهم إلى الدخول فى طاعته ، وكان شاعراً ومحبًّا لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضى بقصيدتين وجماعة من الشعراء . وخلفه ابنه قِرْواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسِقْى الفرات ، وأدَّب بنى خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نهاباً ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وحبسه فى إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه . وتوفى بعد سنتين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلا ، كما كان ممدَّحاً ، مدحه ابن حَيُّوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجرى حتى ينحسر ملك بنى عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادى ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره فى الآجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها فى أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد فى أنحاء الحِلّة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك على بن مَزْيد المتوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة دُبَيْس ، ويحالف بنى خفاجة على حرب قِرْواش العقيلى ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش ودبيس ويهزمان جموعاً للغُزّ ويمدح ابن الشبل البغدادى قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان دبيس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله فى ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه على بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتكُّ أسرى بنى عُقَيْل حين استولى العسكر السلطانى على حِللهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم ، وقد تغنى الشعراء بهذه المأثرة طويلا وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ مخلفاً ذكرى طيبة ، غير شعر جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس وسطوة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآباؤه قبله فى البيوت العربية (الخيام) فبنى الحِلّة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدّم ابن الهَبَّارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه دُبَيْس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذى عناه الحريرى بقوله فى إحدى مقاماته – وهى المقامة العُمانية – والناس محيطون بأبى زيد يثنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خُيِّل إلىّ أنه القَرَنىّ أُوَيس (واعظ أموى) أو الأسدى دُبَيْس » وقد اشترك فى مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩ . وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الحلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

ونولّى وجوهنا فى العصرين الأيوبى والمملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيئ فى جبل شَمَّر أو جبلى أجَأ وسَلْمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحياء العرب فى بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل مِرّا ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً فى الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهمُّ شُعبهم آل أحمد بن حِجّى المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الخفر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل مِرّا أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويروى القلقشندى عن الشهاب محمود الحلبى أنه حين غزا التتار الشام فى أيامه وكان بحمص أقبل من أهل مِرّا زُهاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسوّمة والجياد المطهّمة مقلدين بالسيوف وفى أيديهم الرماح ومعهم الظعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالحضرمية طائرة السمعة سافرة فى الهودج تغنى أبياتاً حماسية .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبيرالثانى من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بنى تميم واليمامة ، وتشمل منازل غطفان مما يلى وادى القُرى ، كما تشمل منازل بنى أسد ، وكان ينضم إليهم لفيف من قبائل العرب : من مَذْحج وعامر وزَبيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولّون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثة بن عقبة بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثة المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذى حضر مع المظفر قطز قتال التتار فى عين جالوت . وولّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالنواب إن كان حاضراً ويجهّز إليه إن كان غائباً ، وتصدَّر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مِرا . وكانوا يوفّرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفى الجزء الثانى عشر من صبح الأعشى مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه فى سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حجَّ فى اثنى عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة فى طيئ طويلا .

ونسمع فى داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة فى اليمامة والعارض والوشم والقَصِيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدِّرْعية التى تأسست فى منتصف القرن التاسع الهجرى ولا نمضى طويلا فى القرن الثانى عشر حتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥ م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذى تآزر مع محمد بن عبدالوهاب فى سنة ١١٥٨ هـ/١٧٤٥ م على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع ، وأخذا يتعاونان فى ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى بسنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٥م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى فى نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادى السرحان ، وفتح بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شيعى سنة ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م وولى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانه من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى بادية الشام فى أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربى ونهر الفرات إلى بحر القُلْزم (البحر الأحمر) واستولى على الطائف ومكة ، مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد على واليها فى مصر ، كى يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنه ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وسرعان ما توفى سعود فى الدرعية سنه ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفى عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى فى يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نحبه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم فى آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركى ، ويفتح الحسا والقَطيف ، ويعقد صلحا مع صالح بن على أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبلى أجأو سلمى ويغتال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا ، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعقبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع فى خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين ، لولا أن هبَّ لا فى هذا العصر بل فى العصر الحديث التالى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فُقد من إمارة آبائه .

اليمن ودولها[1]

توزعت اليمن فى هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بنى زياد فى زَبيد (٢٠٣–٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢–٥٥٤ هـ) ثم دولة بنى مهدى

---

(١) راجع فى اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصبح الأعشى فى جزءيه الرابع والخامس وابن خلكان فى التراجم المشهورة وتاريخ المستبصر لابن المجاور وتاريخ اليمن لعمارة (نشرة كاى) وبلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام للقاضى العرشى والعقود اللؤلؤية للخزرجى (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع اليمانى (طبع القاهرة) وأنباء الزمن فى أخبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافى (طبع القاهرة) والخلاف السليمانى للعقيلى (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ، الجزء الأول للدكتور عبد الكريم غرايبة ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور .

الخوارج (٥٥٤-٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنعاء دولها هي الأخرى وأولها بنويعفر (٢٥٢-٣٩٣ هـ) وتلتها دولة الصُّلَيْحيين الإسماعيليين (٤٣٩ - ٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهَمْدانيين (٤٩٢ - ٥٦٩ هـ) . وفى صعدة مستقر الزيدية دولة الرَّسيين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا المخلاف السليمانى سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدى دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفى عدن دولة بنى زُرَيْع الإسماعيلية (٤٦٧-٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصَعْدة عاصمة الرسيين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم ننتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبنى طاهر والعصر العثمانى ومقاومة الرسيين فى صَعْدة للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

ونبدأ بدول زَبيد قبل الفتح الأيوبى ، وأولها دولة بنى زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تِهامة وحَضْرَموت ، ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيش إسحق بن إبراهيم (٢٩١-٣١٧ هـ) . وفى عهده استولى القرامطة على زبيد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنويَعْفر وصَعْدة وحكامها الرسّيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يجبيه من مراكب السند ومن العنبر المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن الغَوْص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . ومازال الحكم فى أسرته حتى تشاجر حَجَبَتُهم على الحكم ، وتغلب عليهم نجاح الحبشى سنة ٤١٢ وأسس دولة بنى نجاح ، ومازال يحكمها حتى دسَّ له بعض أنصار على بن الصُّلَيْحى صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحى على زبيد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دَهْلك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحى فى طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جياش بن نجاح أن يستعيد زبيد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتبا بليغا ، وصنَّف المفيد فى أخبار زبيد ، وبعث هو وأسرته ووزراؤهم نهضة فى زبيد أدبية وعلمية ، ومن وزرائهم مَنّ الله الفاتكى وسرور وكانا ممدَّحين عالبى الهمة . وتوارث أبناء جياش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدى وزال ملك بنى نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بنى مهدى - وهو على بن مهدى الحميرى - فى سواحل زبيد على النسك والدين ، ولما شبَّ أخذ فى الوعظ فأحبه الناس والتفوا حوله ، وفكر فى إقامة دولة لنفسه فاستولى على زبيد وتسمى الإمام المهدى أمير

المؤمنين وقامع الكفرة والملحدين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفّر بالمعاصى ، ويقتل من يقترف كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسترق أبناءهم وذراريهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفى بعد استيلائه على زبيد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قتل قاضيها محمد بن أبى عَقامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدى ثم أخوه عبد النبى . وقد أغار فى سنة ٥٦١ على المخلاف السليمانى وقتل فى الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأنشد فى ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب المخلاف السليمانى ، ومازال على زبيد حتّى تسلمها منه توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ للهجرة .

وأول دول صنعاء دولة بنى يَعْفر التى أنشأها يَعْفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناؤه ، وحدث فى سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وحطّ عن الناس – بزعمه – أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفى سنة ٣٠٣ هلك على يد حسنى حجّام ، جعل له السم فى المبضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واستردّ صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتّى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ تنتهى دولة آل يعفر .

وتخلف دولة اليعفريين بصنعاء دولة الصُّلَيحيين ، أسسها على بن محمد الصُّلَيحى ، وقد نشأ فقيها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو فى مقره بِجُبْلَة منذ سنة ٤٣٩ وربما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يستأذنه فى الدعوة للمذهب الإسماعيلى ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زبيد ، كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرته ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسنية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجه أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدّحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جُبْلة عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، ففوّض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحى إلى أن توفى سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور ، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحى بأمر المستنصر الفاطمى ، وتوفى سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان ، واستولى بنوحاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشيم الهمدانى حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناؤه

عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبى . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولا والدولة الصليحية تتفكك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة . وقد خرجت أكثر الحصون فى الجنوب إلى بنى زُرَيْع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية .

وحرى بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرَّسِّيين الزيدية بصَعْدة فى اليمن ، ومؤسسها هناك الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرَّسّ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ فى زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته فى المذهب الزيدى وفى الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن فى سنة ٢٨٤ واستولى على صَعْدة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد ، فالإمام الهادى إلى الحق وهو المؤسس الحقيقى للدولة . ومازال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمى سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب المخلاف السليمانى الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة ، وتدخل صنعاء فى حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢-٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم فى العهد الأيوبى الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهوريهم فى عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهّاس ، والموطئ الرسى الذى بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما عالما فقيها ، وظل الحكم بعده فى أبنائه وتتوالى أئمتهم فى عهد الدولتين : الرسولية والطاهرية ، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر.

أما عدن فكانت قديما داراً لبنى معن بن زائدة منذ ولايته عليها فى عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بنى زياد أصحاب زَبيد ، ولما استولى عليها الصُّلَيْحى داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانيين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بنى زُرَيْع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية ، ومن أهم أمرائهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جِبْلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيْذى (٥٥٠-٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنيه ياسر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بنى زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت فى عهد الأيوبيين إلى

ستمائة ألف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نوابا فى مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماماً لصلاح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحَيَّ على خير العمل ، وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة ، وتوفى سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان ، وَظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأناب عنه فى بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن على بن رسول أحد قواده ، فمكّن لنفسه فيها ، ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن فى قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعزّ بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسى سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسوليين وبين الأئمة فى صَعْدة . وقتله مماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتَعِزّ ، وبنى جوامع ومدارس كثيرة فى مدن اليمن ، وفتح ظَفار فى أقصى بلاد حضرموت ونشبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفى سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة فى العلوم والفنون ، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجى كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ فى التدهور ، وينتهز بنو طاهر ولاتهم وأمناؤهم فى عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر « زَبيد » حاضرة لهم ، وأول أمرائهم عامر بن طاهر الذى استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفى سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كَمران فى البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغورى صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردون من الجزيرة وتنزل الحملة اليمن وتستولى على زبيد وتعز وتقضى على دولة بنى طاهر

وتدخل اليمن فى حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وتترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى فى أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ) وقد ظلت الإمامة فى عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن فى ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظَفار وجمع بلاد اليمن وتوالى الأئمة من بعده . وحدث فى عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدى أن زاره القبطان الإنجليزى ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائعا عن جزيرة ميُون المسماة ببريم فى مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهى تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليز سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحَج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوربية فى اليمن ، وأحس أئمتها بحاجتهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م بينما مضى الإنجليز يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا فى هذا العصر ولا فى أو اخره بل فى العصر الحديث الإمام الزيدى يحيى بن محمد حميد الدين

حَضْرَمَوْت [1] وظَفار وتاريخها

تقع حضرموت فى جنوبى الجزيرة على بحر العرب ، وهى إقليم جبلى يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديما باسم أرض اللُّبان ، وأهم مدنها فى الداخل شَبْوة وشِبام وَتريم وسيُّون وعلى الساحل الشِّحْر والمُكَلاّ ، وكانت تسكنها قديما قبيلة كِنْدة ، ومازال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء فى صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنيه نفوذ فيها ، حتى ولى بنو يعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها ، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تتبعهم ، وحاول الحضارمة الثورة عليهم ، ولكن ثورتهم أخفقت ، وقدمها فى أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى ، متسبا نسبا شريفا إلى الحسين بن على ، ونزل بتَريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهى زعامة أتاحت للشيعة

---

(١) انظر فى حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن خلدون فى مواضع متفرقة ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ حضرموت السياسى لصلاح البكرى وتاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

أن يتنفسوا هناك وكانت النحلة الغالبة فى حضرموت نحلة الخوارج ولذلك كان أهلها دائما يثورون ثورات متعاقبة . ونزلها القرامطة فى أوائل القرن الرابع الهجرى مدة ثم تركوها ، ويلمع بها فى القرن الخامس أبو إسحق الحضرمى الخارجى ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج فى عمان على أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستطاع أن يردّ الصليحى عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولى شئونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبى قحطان الكندى المولود بتريم سنة ٥٥٣ وقد حكمها وسنّه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجيلى فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولى من آل النعمان على شبام ، وتمضى البلاد فى أمن حتى يغزوها عمر بن مهدى اليمنى بجيش أيوبى سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا : على الشّحْر وشِبام وَتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهى بذلك عهد الأيوبيين فى حضرموت ، ويخلفهم دولة الرسوليين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نوابا عنهم . وحين دانت ظَفَار شرقى حضرموت لسالم بن إدريس الحبوظى استولى بجموعه على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسوليين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل فى البلاد وفى مقدمتهم بنوراشد وبنو نهد يتناحرون على حكم المدن ، ويشتهر آل باكثير باستيلائهم على الشّحْرْ سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم فى كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكِنْديين ولكن آل باكثير ظفروا بهم وبغيرهم من العشائر أو قل ظهروا عليهم . وخلف الرسوليين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستشعر الولاء لهم ، وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدى سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكثير ، واشتهر من بينهم بوطويرق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزا لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطويرق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلاده . وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونه وكاتبه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكثير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأئمتهم بصنعاء وينشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك ، ويقبض عليه ويعتقل . فيغضب الإمام الزيدى المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل فى سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولى عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل باكثير . ويصبح ليافع وعشائرها الكلمة العليا فى البلاد . ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آله ويستولى على تريم . غير أن الشحر وأكثر البلاد تظل فى قبضة اليافعيين ، ويشتهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافعى ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً فى حق بلده وأمته بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م أصبحت بها حضرموت إحدى حامياتهم على بحر العرب ، وصمة فى جبينه ما بعدها وصمة .

وظَفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكُنْدُر (اللُّبان) الذى يستعمله الهنود فى معابدهم ، وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى ، وخلفه سالم بن إدريس الحبوظى الذى مر بنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسوليين عليه ، وكانوا يولون عليها نائبا لهم . وفى القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام الغسانى وهو من صنعاء ، وكانت قلعة بَلِد مقر حكمه ، وفى القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنوكثير الحضرميون ، ولا يعرف عنها شىء فى القرن الثامن عشر ، وحكمها علوى فى القرن التاسع عشر ، وقتله بنو قرا ، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن فى هذا القرن فرض سيادتهم عليها . وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان ، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم .

عُمان وأمراؤها(١)

تمتد عُمان على الشاطىء الجنوبى الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وقد ثار بها الخوارج الإباضية منذ زمن الحجاج فى عصر بنى أمية ، وكانوا يتخذون مدينة نَزْوى فى الداخل جنوبى الجبل الأخضر مركزا لهم ، وكانوا يستولون عليها فى أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى ، وتغلَّب على عمان أبو طاهر القرمطى عند اقتلاعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدى ، وترددت عليها ولاة القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الإباضية سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن . يدل على ذلك أننا نجد

---

(١) انظر فى عمان وتاريخها وأمرائها ودولها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت فى مواضع متفرقة وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمى وعمان تاريخ يتكلم لمحمد ابن عبد الله السالمى وعمان قديماً وحديثاً لمحمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد البورينى ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرايبة .

نفرا من أعيانها هم بنوم مكرم وكانوا شيعة إمامية يسيرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي . ويملكونها فعلا فى عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم ، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم فى نزوى وحولها ، ويخطب لبنى العباس . وظل الإباضية فى عهد بنى مكرم يولون عليهم أئمة منهم ، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره فى حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمى على غزوها والاستيلاء عليها . وتوارث بنو مكرم ملك عمان ، ومن أهم أمرائهم ناصر الدولة على بن الحسين بن مكرم ، وكان جوادا ممدحا ، ومدحه مهيار الديلمى وغيره وتوفى سنة ٤٢٨ بعد استئثاره بالإمارة مدة طويلة .

وفى سنة ٤٤٢ ضعف ملك بنى مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد ، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد ، وله حروب مع قبيلتى نهد وعُقَيل سحقهما فيها ، وامتدحه بذلك أبو إسحق الحضرمى منوها ببسالته وبطولة جنوده . ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذى تملكها بعد أبيه وتظل فى أيدى خلفائه .

وفى القرن السادس الهجرى تملك عمان من أيدى الإباضية بنو نبهان سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م وهم عشيرة من العتيك من الأزْد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها ، وكانوا سنيين ، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع ، وقد غزا الفرس عمان فى عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها فى عهد عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا فى الغزوتين مدحورين ، كما يصور ذلك شاعر النبهانيين أحمد بن سعيد الستالى الخروصى ، ويشنُّ المؤرخ نور الدين السالمى حملة على هذه الدولة النبهانية قائلا كانت دولة بنى نبهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالى . وقد زار ابن بطوطة عمان فى عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة ، وأشاد بأميرها النبهانى وحسن ضيافته ثم ذكر نزْوى عاصمة الخوارج ، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة . ومن أئمة الإباضية المهمين فى القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذى بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النبهانى أمير عمان ، وهزمه واضطره أن يفر إلى هُرْمز وتوفى عمر ، فعاد سليمان ونازل الإمام التالى للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام ، وباء بهزيمة منكرة ، فرحل ثانية إلى هرمز ، وتوفى أبو الحسن فاسترد سلطانه ، ونازل خليفته الإمام الإباضى

محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للإباضية ، ويستردها سلطان بن محسن النبهاني سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجي ناصر بن مرشد اليعربي (١٠٢٤- ١٠٥٠ هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ يناوشهم ، وظلت مدينتا صحار ومسقط في أيديهم وقبيل بل سقطت في يده صحار ،وخلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) وهو أهم اليعربيين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهّر البلاد منهم . وبنى لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطىء إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه مُمْباسة في كينيا على ساحل إفريقيا الشرقي وجزيرة زَنْجبار [1] وجزيرة سُقُطرة في بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره اليَعْربيين في حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذى جمع زمام الحكم في عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ/ ١٧٤١م ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ/١٧٤٩ م حين حاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذى ولى عمان سنة ١٢٢١ هـ/١٨٠٦ م وظل في الحكم خمسين عاما . وقبيل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة في مدخل الخليج العربي بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزى يظهر في هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ماتزعم «دُبىّ» آل بوفلاسا سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبى» آلُ فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

البحرين ودولها [2]

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

---

(١) زنجبار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا سكانها عرب مهاجرون من منطقة الخليج العربي وكانت تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي .

(٢) انظر في البحرين ودولها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وصبح الأعشى والضوء اللامع في =

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدَّهْناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهى بذلك كانت تشمل إقليم قَطر والإقليم الشرقى للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقطيف وهجر ، ومجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولا ونحو عشرة أميال عرضا .

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجنَّابى بقيادة أبى سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القَطيف . وفى سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية.وقد تحدثنا فى العصر العباسى الثانى عن هذه العقيدة وعن أبى سعيد وابنه أبى طاهر وإغارته على مكة واستباحته دماء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله فى جسده ، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفى سنة ٣٣٩ رُدَّ الحجر الكريم إلى موضعه . وفى عقيدتهم – كما صورناها فى كتاب العصر العباسى الثانى – ضلال كثير . ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين – وكانوا لا يزالون فى المهدية بجوار تونس – أخذت فى الفتور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبى طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق فى السنة التالية مع الخليفة العباسى المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمده بالمال والسلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلى الفاطمى أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، واتجه بجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة فى عين شمس ، وكاد ينتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومر بنا فى حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمى لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفى سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومى مولى البويهيين ضد جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

= أعيان القرن التاسع للسخاوى وديوان ابن مقرب العيونى وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد للشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض) وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١ / ٢٤٩ وما بعدها .

وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم فى الاضمحلال . ولا نصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بنى المتفق بن عامر بن عُقَيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

وعمَّت الفوضى فى البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفر بن أبى الحسن الثعلبى سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسى ، واستقرت الدولة له . واختلفت فى أيامه قبيلة بنو تغلب مع بنى عُقَيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به طموحه ، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنو عقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقى الملك فى البحرين بعده متوارثا فى بنيه إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتخلفهم دولة بنى العيونى بزعامة مؤسسها عبد الله بن على . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوقى سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها فى البحرين أتباع كثيرون . وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليها بعده ابنه محمد المكنى بأبى سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . ووليها بعده ابنه أبوفراس غَرِير ، وولى الأحساء فى أيامه عمه عبد الله بن على وولى ابنه أبو الحسن القَطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذى يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاة البحرين العامِّين من العيونيين وولاة مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض فى الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبى الحسين الذى تولى زمام الأمور فى البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتى ثوب أكثرها من الإبريسم . وسمع فى سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع فى طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة . ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبى الحسين و يفتك به ثأراً لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ فى الضعف تدريجا ، و يستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال (البحرين الحالية) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين .

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بنى عصفور من بنى عامر بن عوف العقيليين ، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم للتتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته ، ويظلون يفدون على المماليك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغامس من بنى جبر ، وينتزعها منه بنو جروان من بنى عامر بن عوف العقيليين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفى عهدهم استولى المغول على جزيرة أوال وظلت فى أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خلّصها من بنى جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه فى نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودبّ الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مغامس . وفى هذه الأثناء وفى غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون فى سنة ٩٢٢ على جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقَطيف وقطر ، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ .

وقد انفصلت قَطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجرى بزعامة آل ثانى ، وكانوا من يَبْرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرقى من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ هـ/ ١٧٨٢ م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقّع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها فى حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل يلى الأحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليهما منهم براك بن غَرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف فى الروايات ، فسعدون بن محمد ، فسليمان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليهما بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهم دويحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م فى حروب رجحت فيها كفة سعود . وتتطور الظروف وتنشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودى تركى بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصها منها فى العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف فى حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م وظل آل ثانى رؤساءها إلى أن نفض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم فى العصر الحديث ، واستقل ببلاده سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م وتظل أسرته متولية أمرها ومدبرة شئونها إلى اليوم .

٢

المجتمع (١)

يتقابل فى الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خُلَّص ، وقد دخل على الثانين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربى فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التى كثر إليها نزوح الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامى ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحبشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين ينزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح فى زبيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشى . ومن قديم كان الفرس ينزلون فى عمان ومدن الخليج ، وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان ينزل فى مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة فى القرن الثالث الهجرى مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا فى البحرين ، وكانوا كثيرين فى عُمان منذ أخذت تستولى فى القرن الثالث على سُقُطرة وبعض الجزر ، ونراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والأغنام ، ويحفّها غير

---

(١) انظر فى مجتمع الجزيرة صبح الأعشى والنجوم الزاهرة فى مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعمارة ومروج الذهب للمسعودى : الفصل الخاص بالغناء والموسيقى فى الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للخزرجى وعنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم (نشر وطبع دار الكاتب العربى ببيروت) ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العيونى وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمى وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

قليل من شظف العيش ، مما جعلهم أو بعبارة أدق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنهبهم ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج فى قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبنى عُقَيل أو لبنى أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح فى العهد الفاطمى وآل فضل فى العهدين الأيوبى والمملوكى بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة فى الحجاز مدن وقرى كثيرة على شىء من التحضر ، نجد ذلك فى الطائف وفى جدة وفى يَنْبع وفى خَيْبر وفى وادى القرى ، حيث يقيم الناس فى دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر والعمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أَوَد حياتهم ، وكان الزراعةَ ، إذ نجدها فى كل هذه المدن . وطبيعى أن ينشأ فى المدن بجانب الزراع صناع ينهضون بالحرف المختلفة من عمارة ونجارة وحياكة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنهم كالتمر مثلا ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . وتشتهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمى ترسل إليها وإلى مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك فى زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم فى زمن المماليك . وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيهما الرخاء ، وأهَّل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسنيين فى مكة وإمارة أخرى للحسينيين فى المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جنَّتان عن يمين وشمال) . ومعروف أنه تهبّ عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتهطل بها أمطار غزيرة تغذى المروج والزروع والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها فى الأودية والسهول الحنطة والشعير والذُّرة والأرز والسمسم ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطِّيخ والسفرجل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقِردة . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن ميناؤها ، ويقول القدماء إنه «لم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها فى مكاسب وافرة وتجارة مربحة» . ومر بنا فى حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هى زَبيد وصنعاء وصَعْدة وتَعِزّ ، وزبيد بتهامة اليمن فى سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسوَّرة وبها قلعة ، وصنعاء فى منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهى كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة فى منطقة جبلية وعرة شمالا ، أما تعزّ فحصن فى الجبال جنوبى اليمن مطل على تهامة وأراضى زبيد . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفا وبزبيد شتاء . واليمن بها قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم ، وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها فى هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعيم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : «لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن فى المأكل : يُطَبخ فى بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطيَّب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفى بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، ولهم الدور الجليلة والمبانى الأنيقة ، إلا الرُّخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا» . ويدل من بعض الوجوه على ما كان فى اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بنى نجاح فى زبيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه فى شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار .

ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عمارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإماء والجوارى فى قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب . والغناء قديم فى اليمن ، وأشار المسعودى إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميرى وحنفى ، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حنفيًّا أو حنيفيًّا . ولا نسمع بعد زمن المسعودى المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة فى زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين فى صَعْدة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص فى بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسولى الأشرف لسنة ٧٩٤ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجى فى كتابه العقود اللؤلؤية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ فى شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعدِّد الخزرجى أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يحمل معها المغانى والرياحين والبوَّاقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سماطات : سماط الطعام وسماط الحلوى وسماط المكسرات من اللوز والجوز والفستق والبندق وسماط رابع خاص بالعطور والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والعنبر والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجى أنه كان هناك من المغانى والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفى ذلك ما قد يدل

على أن الرسوليين لم يحاربوا الغناء فى دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه. ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعانى العربى التى اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ فى أواسط العصر الرسولى أو فى أواخره . وفى رأيى أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية فى صنعاء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولى ، كما تدل على ذلك المغانى والراقصات فى الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمن النجاحيين فى القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعانى ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم فى كتابه ، وأيضا فإننا نجد للشاعر اليمنى ابن هتيمل شاعر القرن السابع الهجرى أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعى الشاعر اليمنى الصوفى المشهور فى القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغانى فى شعر القاضى موسى بن يحيى بهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغانى الشعبية الصنعانية ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجى فى الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المُحْصَنات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المقدَّمين. ولعل فى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تحظى فى اليمن بغير قليل من الحرية . ومرَّ بنا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصُّلَيحى كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتبرُّهم ، وكان ابنها المكرَّم يجلُّها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وَجْهَها من الحاضرين ، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحين مرض ابنها المكرَّم بالفالج فوَّض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحى سنة ٤٦٧ فأحسنت القيام عليها وتدبيرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولَّت بعده شئون الحكم ، كما مر بنا ، إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهى التى أمرت ببناء جامع جِبْلة والجناح الشرقى فى جامع صنعاء .

وكانت حَضْرَمَوْتُ من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءاً منها ، وكان واليها فى القديم هو نفس والى اليمن . وقد يعيِّن عليها نائبا له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مرَّ بنا فى تاريخها السياسى . ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطاً فى الخصب وكثرة الزروع . وهى بلاد جبلية يشقّها واد عظيم تتفرع منه أودية مختلفة ، كما مر بنا . وأهم حاصلاتها اللُّبان (الكُنْدر) والحنطة والذرة والتمور ، وأهلها يهبطون فى التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشظف العيش بديارهم ، وهم ملاّحون ممتازون وجعلت الملاحة شطراً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر فى نشر الإسلام بشرق إفريقيا وبالملايو وإندونسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندى ، جابوه شرقا وغربا ، ونزلوا فى أقاليمه ، وعايشوا سكانها ، ولهم فى كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . وبجانب حَضْرَمَوْت ظَفار ، وطبيعتها واحدة ، فهى الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والحنطة والذرة معتمدين فى ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بتربية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعى أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندى أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التى رأيناها فى اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمرائهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير فى الجنوب الشرقى من الجزيرة ، وهى تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند وإندونيسيا ، وينزلها إيرانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربى . وبداخلها جبل عظيم الارتفاع تتشعب منه تسعة أودية جميعها لبنى رئام وبجنوبيه مدينة نَزْوى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانى عُمان صُحار وكانت عاصمتها قديماً ، ومَسْقط وهى عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ ، وهى كثيرة التمـــور والفواكه والزروع من الحنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف نَزْوَى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت فى سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل فى صحون المساجد ، يأتى كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلا : «لهم نجدة وشجاعة» . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبى محمد بن نبهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحدا من الدخول عليه سواء أكان مواطنا أم غريبا ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعيّن له مدة الضيافة ويعطيه حسب قَدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هى نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ فى تصوره وملاحظته . وكل شئ يؤكد أن هذا الإقليم كان على شئ غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف اليَعْربى فى القرن الحادى

عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندى وبعض شواطئ الهند.

والبَحْرين شديدة الخصب ، وهي كثيرة العيون والفواكه والنخيل وبها من التمور أنواع لا تُحْصَى ومن زروعها الحنطة والأرُزّ ، وكان يرد إلى موانيها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية. وأخبار كثيرة تصور ماكان فيها من رواج وانتعاش اقتصادى ، من ذلك ما يروى من أن تجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أُوال (البحرين الحالية) والقَطيف ، وسقط فى الخليج كل ماكان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين العيونى الفضل بن عبد الله (٥٠٠ - ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ماكان يحمله وقيمته نقدا ، وأعطى كلا منهم ما فقده كاملا ، وكان بينهم جوهرى ، قال إنه كان يحمل عقودا من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاها له. وهى مأثرة جليلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت فى يسر. ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصا بأمير البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه فى عهد أميرها غَرير الذى تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة ، فأمر حاكمها على بن عبد الله العيونى بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحطّ الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم. وكان يحكم القَطِيف فى نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن على ، فلجأ إليه سبعون فارسا من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم ، سوى إقطاعات مختلفة.

وفى كل البلدان السالفة كانوا يفتَنُّون فى المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعا بكثرة الأسماك ، ويكثر السردين فى حضرموت ، ووراءه فى شواطئ الشحر واليمن وعُمان والبَحْرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر فى الخليج الآمور (الوقار) والرُّبْيان (الجنبرى). وكانت المرأة تتفنن فى زينتها وثيابها وفيما تتخذ من حلى. وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى. وكان الغناء منتشرا وخاصة فى اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرد فى الصحراء من حولهم فرادى وجماعات.

٣

التشيع [١]

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية ، وهى الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمرا وأكثرها بقاء وأوسعها انتشارا نحلة الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ وقتل وصُلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوِّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك جوَّز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على بن أبى طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونحلهم ، فكانت نحلته معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل يعيِّن الأئمة . وكان يشترط فى الإمام أربعة شروط : العلم والزهد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة فى عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المختفى مثل الاثنى عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد الله «النفس الزكية» الذى أعلن ثورته فى المدينة على المنصور العباسى سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبُّوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن على الحسنى فى مكة والحجاز ، ويُهزَم هو ومن معه لعصر الهادى سنة ١٦٩ فى مكان يقال له «فخّ» ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقبض عليه ، ويلقى به فى غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسنى المعروف بابن طباطبا فى الكوفة لعهد المأمون ، ويُقضَى على ثورته . وينشط الزيديون فى طبرستان

(١) انظر فى التشيع ونحله مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى والملل والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى وفرق الشيعة للنوبختى والتبصير فى الدين للإسفرايينى وفضائح الباطنية للغزالى ورسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد تحقيق د . وداد القاضى (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر .

بالنصف الثانى من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك فى الجزء الرابع من هذه السلسة الخاص بالعصر العباسى الثانى .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان فى اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادى إلى الحق ، واتخذ مقرا له –كما مرَّبنا– «صَعْدة» فى الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده فى صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمى الحسنى كما مرَّ بنا ، ووليها بعده أصحاب المخلاف السليمانى ، وتعود إلى الأسرة الرَّسِّية : أسرة الإمام الهادى إلى الحق وتظل فى أبناء المتوكل على الله الرسىِّ ، كما أسلفنا . وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فتتسع رقعتها وتستولى على صنعاء أحيانا . ولا يزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والطاهريين ، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرَّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة فى التضعضع والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه فى القرن العاشر الهجرى .

ومرَّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى حديث مفصل عن نحلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النحلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته المنية فى حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها – فى رأيهم – تتوارث فى الابن الأكبر حتى لو توفى قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه –فى عقيدتهم– ابنه محمد ، ويخلف محمدا ثلاثة أئمة مستورون جاء فى إثرهم عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيبه بالمهدى يشير إلى عقيدتهم فى المهدى المنتظر . وعرضنا فى العصر العباسى الثانى تفصيلا لتلك النحلة وأهم مبادئها وأن الذى نظَّمها وكوَّن حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان ينزل فى سَلَمِيَّة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا ويلقَّب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو فى جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة ، وهى الشركة فى الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادى «أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبُّوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بِنِيرَنْجات (ضروب من السحر) واستعبدوهم بشرائعهم» وقالوا : «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والحج

والجهاد» . ومن هنا كانوا يحلّون أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم . والقرامطة – بهذا التصوير للبغدادى – كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنّابى أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما . وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيرا ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيرا ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيهما السلب والنهب . وفى سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورَمْى كثير من جثثهم فى بئر زمزم واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مرَّ بنا ، وهو فى أثناء ذلك ينشد أشعارا كافرة مارقة . ونرى القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومر بنا كيف أن الأعصم (٣٥٩ – ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده – كما مرَّ بنا – حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عنى مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى عادة الماشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ، ويشعلون الشموع والمصابيح ويغنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائيا ، فقد ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه «قلب جزيرة العرب» ! إنها لا تعدم فى الأحساء – إن صح ما يقول – من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعاته ، هما المنصور بن حوشب وعلى ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة اليمن النجدية ، غير أن دعوتهما اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفض يده من القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور اليمن ، وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحى ، كما سنرى عما قليل . ونَفَضَ على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يَدْعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادّعى أنه من بنى يَعْرُب أو قحطان ، كما مرَّ بنا ،

واستحلّ المحارم ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا .

وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استمالوا على بن محمد الصليحى للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع – كما رأينا فى غير هذا الموضع – أن يؤسس الدولة الصُّلَيْحِيَّة ، وأن يستولى على زَبيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمى الإسماعيلى الذى كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلى ضلَّ هداه . وقد اتخذ هذا المذهب فى أول أمره شكل جمعية سرية كوّن مبادئها عبد الله بن ميمون القدّاح ، وهى مبادئ غُمست غمساً فى نظرية الفيض الأفلاطونية التى سكبوها فى نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون فى أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلى الناطق عن القوى الخارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفى مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلى أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع فى كل دور ، ولذلك يوصف – عندهم – بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفى عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبغى أن تفهم فهماً باطناً مجازيا ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤوّلوها كما يشاءون . والمنتظم فى سلك الدعوة – عندهم – يتدرّج فى سبع مراتب وبلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة – كما أسلفنا – حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها فى اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية فى المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر فى اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نحلة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقىّ الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى فى اثنى عشر إماما . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثنى عشرية ، وآخرهم المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة فى الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر فى الخليج العربى ، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولاة كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسي وبالتالي للبويهيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثنى عشرية ، وفى نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان فى عُمان بيت إمامى اثنا عشرى هو بيت بنى المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البويهيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدى خوارج نَزْوَى ؛ وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين فى التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثانى عشر المختفى كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون فى الخليج العربى وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرَّأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يمت ، بل غاب فى جبل رَضْوى ، ويقول فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » يوجد فى الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون فى جبل رَضْوَى بالقرب من يَنْبع وهم على شىء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

٤

الخوارج : الإباضية[١]

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمى أحد أربعة كانوا رءوس الخوارج فى منتصف القرن الأول الهجرى وحولهم تكونت فرقهم الأساسية : الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان ، والنَّجَدات أتباع نجدة بن عامر الحنفى وكان مسرح نشاطهم اليمامة والبحرين ، والصُّفْرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضرموت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أو كادت بانتهاء العصر الأموى ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لا فى بيئتها الأصلية عمان وحضرموت فحسب ، بل أيضا فى بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون فى

---

(١) انظر فى الإباضية الكتب المذكورة فى تاريخ عمان وأمرائها والملل والنحل للشهرستانى ومقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى وفجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين وحاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان ومختصر تاريخ الإباضية لأبى ربيع سليمان البارونى (طبع المطبعة السلفية بالقاهرة) .

العصر الأموى أو بعبارة أدق فى أواخره ، ومازالت الدعوة تنمو فى المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية فى تيهرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة فى جنوبى الجزائر وليبيا .

أما فى عُمَان وحَضْرَمَوْت فقد اتخذ الإباضية نَزْوَى جنوبى الجبل الأخضر فى داخل إقليم عمان مركزا وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسى ، وكثيراً ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدى العباسيين. وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بنى مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ و يضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نَزْوى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم فى القرن السادس ويتملكها بنو نبهان ، وتعود إلى الإباضية فترة فى أول القرن العاشر الهجرى ، ثم تعود إليهم نهائيًّا ويتولاها أئمة الإباضية اليعاربة منذ سنة ١٠٢٤ . وتخلفهم أسرة إباضية أخرى هى أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وتترك السلطة الدينية لأئمة نزوى وتكتفى بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية ، ومرَّ بنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى وقد نشر فيها مذهب الشافعى ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلا مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمى وأدبى كبير فى حضرموت ، ومرَّ بنا أن أبا إسحق الخارجى الحضرمى استقل بها فى القرن الخامس ، وكان خارجيًّا يدين بالولاء لإباضية نزوى وإمامهم الخليل ابن شاذان ، وكثيرا ما كانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية فى نزوى أو فيها وفى عُمان . وقد نشر العمانيون المذهب الإباضى فى زنجبار والبلاد التى كانت تتبعهم فى شرق إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصى كافرا ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفيهم من المسلمين وأن يتوارث الإباضى معهم . ولم يستحلّوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرَّموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سَبْيهم سرًّا . وقالوا إنه لا يجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضى وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا

فى مرتكبى الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكفى فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لا بد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة فى نفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة وينزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستانى كانوا يتفقون مع الأشعرية فى رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثًا وإبداعًا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا . ولا يتسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال فى مذهب الإباضية يجعلنا ننفى عنهم نفيا باتًّا دولة بنى مهدى الخارجية التى استولت على زبيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسسها بأمير المؤمنين كما تسمى بالمهدى ، وكأنه جمع بين فكرتى الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغالين معا مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان – كما أسلفنا – يكفِّر بالمعاصى ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمّى دارهم دار حرب . وهو فى ذلك كله غال غلوا شديدا حتى ليتقدم الأزارقة خطوة فى الغلو ، ثم هو يدّعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو فى ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه ليعد نفسه المهدىّ المنتظر ، ولم يلبث توران شاه – كما مرَّ بنا – أن قضى على من خَلَفَه ودولتهم الخارجية الشيعية .

٥

الدعوة الوهابية السلفية(١)

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبذ البدع التى شابت العقيدة الإسلامية ونبذ تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات ، كالبركة فى الزروع أو فى الأغنام والأنعام أو فى برء المرضى وشفائهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمـــل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات فى التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة ولمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب للريكى وعنوان المجد فى تاريخ نجد لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر

والأحجار ، وكان حنبليًّا يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالى قد وصل بين التصوف والشريعة محاولا تخليصه من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفا سنيا . وقد شَنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة . وناهض المذهب الأشعرى وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التى وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ/١٧٠٣م بالعُيَيْنة فى إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضيا للعيينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكبَّ على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلى وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولى أو شفيع ونَبْذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف فى ذلك كله ، ولذلك يسمى الوهابيون أنفسهم سلفية . وكُتب لهذه الدعوة أن تعم وتنتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدِّرْعيَّة (١١٣٧ - ١١٧٩ هـ .) يده فى يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث.

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة فى الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التى تُظِلُّ نجد والأحساء والحجاز اليوم . وفى الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م فى الدرعية يبث تعاليمه وينشرها فى أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفى مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادى بعبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك. وبالغ أتباعه فى هذا المبدأ فمنعوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا فى قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . ولذلك دعت إلى نبذ كل

ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف فى العهد الإسلامى الأول . ونادت بأنه يجب إزالته ، حتى لوكانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباحته ، بل حتى لو حبذته . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقا فى الوقت نفسه للمذهب الحنبلى ، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فللأولين الحكم والسياسة وللثانين الإفتاء والتعليم والقضاء .

٦

الزهد والتصوف[١]

لم تكن نجد تعرف شيئا عن الترف والنعيم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبيعى أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحقا كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج فى بعض السنوات طلباً لما فى أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون فى متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان فى الحجاز ، ولا تزالان ، موئلا للنساك والعباد ، ومن قديم كان يجاور فيهما وخاصة فى مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيها بضع سنوات ، وقد ينفقون فيها العمر كله . ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن فؤاد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعيًّا أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور فى العالم الإسلامى دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألموا بمكة وجاوروا فيها الحلاَّج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومرَّ بنا فى العصر العباسى الثانى ترجمة له وعرض لشعره الصوفى وبيان لتصوفه وأنه كان تصوفاً فلسفيًّا ، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد

---

(١) انظر العقد الثمين فى مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية ، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلو (نشر مكتبة دار العروبة) .

والحلول . وممن جاور فى مكة بعده القشيرى المتصوف السنى المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذى رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، فنحّى عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفناء ، وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية . وجاور بمكة بعده شهاب الدين السُّهْروردى شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقى ابن الفارض المتصوف المصرى المشهور الذى كان يجاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طوالا ، وهو يطوف المشاعر مبتهلا إلى الله متغنيا بالحب الصوفى الإلهى ناظما أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيرى لميميته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفى «ترجمان الأشواق» سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : «الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق» وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسى المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنما هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحصر والاستقصاء ، ولنأخذ مثلا كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين «مكة» فإن من يتصفح تراجمه فى مجلداته الثمانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدى لا يزال يتحدث عن زهدِ كثير من هؤلاء الفقهاء وإعراضهم عن متاع الدنيا الفانى ، وحقًّا أكثرهم من فقهاء زَبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يحيى فى كل البيئات وفى كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية فى صَعْدة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره فى إمارتهم ، فأكبَّ فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكامهم . ولم تكتف اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السنى وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفى كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم فى اليمن المجاذيب ، وهم يطوفون فى البلدان اليمنية مرددين أغانى وأناشيد فى مديح قطبهم الربانى ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التى شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يُرى عند أتباعه إلى اليوم من احتمال الآلام الجسمانية ، مصورين بذلك مقدرتهم الخارقة . ومرَّ بنا فى حديثنا عن المجتمع اليمنى والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل فى ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمنى بالتصوف السنى المصرى عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيرى فى مدائح الرسول ﷺ وصلتهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجرى حتى يلقانا عندهم شاعر صوفى سنى هو عبد الرحيم البرعى المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهى والمدائح النبوية . وعلى غراره محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعى صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفيا على شاكلته وصحب الصالحين ببلاد كثيرة . وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران فى اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت فى عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن فى مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة فى البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين فى اليمن كانا أيضا منتشرين فى حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف فى كتابه عن شعرائها يقول فى مقدمته : إنك ترى فى شعرهم جميعا طلاء صوفيا . وفى الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفى كثير فى محبة الله ومحبة رسوله ومديحه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بلقب الصوفى الزاهد التقى الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العيدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حفَّ به مريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون ، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء . وممن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوى المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسيول من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارجى شبابهم قديما بأنهم «غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر» وطبيعى أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائل ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بنى نبهان لمعة من الزهد والمديح النبوى .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف فى عصر القرامطة ، وفى ديوان ابن مقرب العيونى بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهى تشيع فى كتابى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبى ، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفى وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا فى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية[١].

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى فى الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الحنيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تتدفق فى كل ركن من أركان الجزيرة ، وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامى . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية فى جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتعهده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية فى الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعا من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقى فى كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا فى بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهيراته تجرى فى كل مكان وفى كل دار من أقصى الشرق فى خراسان إلى أقصى الغرب فى الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى فى نجد : البيئة التى يُظَنّ أنها كانت بعيدة عن الحركة

(١) انظر فى الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيرافى فى ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة اليمنى والعقود اللؤلؤية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزبارة والبدر الطالع للشوكانى والنور السافر للعيدروس وتاريخ مكة لأحمد السباعى (مطابع دار قريش بمكة) وثغر عدن لبامخرمة والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافى وتاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف وصفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير وتحفة الأعيان لنور الدين السالمى وعمان تاريخ يتكلم لمحمد السالمى وعساف وشعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم .

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تُتْلَى فيها كتب الشريعة وأيضا كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلا أو كثيرا من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث فى بنى مَزْيد وقبيلتهم بنى أسد حين أسسوا مدينة الحِلَّة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث فى بنى عُقَيْل حين اتخذوا لهم إمارة فى الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتا حركة علمية فى ديارهما ، وقد عادتا جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجرى . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) وبُرَيْدَةَ وحائل والعُيَيْنة والدِّرْعية لم تخلُ فى أى عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقى كتب الفقه والتفسير والحديث النبوى . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية ولمدارسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين فى الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكى والمدنى يتحولان فى عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية فى البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء النابهين بالأقطار العربية فى كل عصر كانوا ينزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طوالاً ، وقد يمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا ينزلون المدينة ، غير من كان فيها وفى مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفى أن تتصفح مثلاً كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين : مكة لترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقته ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقته وكذلك للمفسر والمحدث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى لتُعَد بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دارة . وتعاقب بعده بناء المدارس فى مكة والمدينة ، يبنيها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباى التى بناها بجوار الحرم المكى ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعُنى العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتتكاثر المدارس فى المدينتين المقدستين وتتكاثر الكتاتيب وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجرى .

ونشطت الحركة العلمية فى اليمن من قديم ، بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علميا وأدبيا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصُّلَيحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عمارة : «كان عالما وفقيها مستبصرا فى علم التأويل وخطيبا بليغا» وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية ، ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخارى مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جياش من آل نجاح أمراء زبيد مؤرخا وصنف «المفيد فى أخبار زبيد» واختصره عمارة اليمنى ونُشر مختصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكى ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عمارة اليمنى إنه رأى جريدة هذه الرواتب التى كانت تُدْفَعُ إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة . وبالمثل عُرِف بنو زُرَيْع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم فى ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى فى تعزّ عاصمته الصيفية مدرستين وفى عدن مدرسة وفى زبيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوى ، ورتب فى كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفايتها وتسدّ حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية فى تعزّ وجوامع أخرى فى أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعزّ ، وأخرى بظفار وكانت تتبعه . وابتنى أحد رجاله المسمى بدراً المظفرى بزبيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوى ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما فى فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب فى التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق فى علوم الأوائل ، وله كتاب فى الأسطرلاب وكتاب الجامع فى الطب ، وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوى المصرى وكتاب الجمل فى النحو للزجاجى وكفاية المتحفظ فى اللغة ، ودرس كتاب التنبيه فى الفقه الشافعى لأبى إسحق الشيرازى وسمع الحديث النبوى من حفاظه الأعلام وأجازه منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبرى شيخ السنة بالحرم المكى وأذن له فى رواية البخارى والترمذى عنه وناوله صحيح مسلم . وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحْصَى ، واختصر كتاب الجمهرة فى البيزرة وألف فى الطب كتاب

العمدة . وأشتهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة العلمية ، وحين علم فى سنة ٧٨٨ بتأليف القاضى جمال الدين محمد بن عبد الله الريمى كتابه « التفقيه فى شرح التنبيه » فى أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رءوس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مزفوفاً بالطبلخانة ، وحين وصل الكتاب ومصنفه منحه مكافأة لجهده العلمى : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورَفْعاً لدرجة الشيخ . ويقول الخزرجى إنه طرَّز كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رتَّب فى سنة ٧٩١ بجامع المملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومحدِّثاً ومدرِّسين : شافعياً وحنفيا ومدرسين : فى النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقيِّمين وخطيباً ومعلماً وأيتاماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيًّا . وكان الخزرجى نفسه أحد المرتَّبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعدِّ المساجد والمدارس فى سنة ٧٩٥ بزبيد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين . ومعروف أن المساجد فى العالم الإسلامى كانت مدارس تُعْقَدُ فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل فى هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن فى عهد الرسوليين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن اشترك معهم نساؤهم فى بناء المدارس والجوامع والمساجد . وقصد اليمن حينئذ كثير من العلماء ، ومن أهمهم الفيروزابادى صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه فى زَبيد ، ونوّه فى مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما ألَّف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحْمَل الكتاب إلى بابه مزفوفاً بالطبول فى موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزابادى تواباً بثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة فى تعزّ . وفى الحق أن دولة الرسوليين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة فى اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتى ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . وأهتم بنو طاهر الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم فى العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرَّسيُّون صَعْدة مركزاً لدعوتهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها ، فكثيرون منهم ألفوا فى الفقه الزيدى وفى علم الكلام وفى غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية فى اليمن . وللإمام المهدى المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبى الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى

سنة ٥٩٨ وللإمام المهدى أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠ . وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن فى النهضة العلمية . ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس فى صنعاء وذمار وكوكبان . ومرّ بنا أن الإمارة الزيدية اتسعت فى العصر العثمانى وشملت صنعاء وغيرها من المدن ، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين .

ويلقانا فى حَضْرَمَوت كثير من العلماء النابهين ، وهم منبثون فى كتب التراجم ، ولهم دلالتهم على ما كان وراءهم من حركة علمية ، وفى كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك فى كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاوروا فى مكة . وفى كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمى ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمى وازدهاره بحضرموت ومدنها : تريم وغير تريم .

وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة فى عصره أزدى عُمانى وقد أمضى بعمان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر فى تكوينه اللغوى ، ومن آثارها فى معجمه « الجمهرة » أنه يحمل كثيراً من لغة الأزد العُمانيين وخصائص لهجتهم ، ومعروف أنه توفى قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤ . وشهرة عُمان العلمية فى القرن الرابع الهجرى هى التى جعلت أبا سعيد السيرافى ، كما قال الرواة ، يخرج من بلدته سيراف فى طلب العلم إلى عُمان ، ويتفقه بها ويتعلم العربية ، ثم يدخل بغداد بعد ذلك ، ويروى أنه تتلمذ لابن دُرَيْد . وقد عُنى حكام عُمان من بنى مكرم وخلفائهم من بنى نبهان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم ، فكثر فى عمان الأدباء والعلماء والشعراء . وكان للخوارج فى عاصمتهم نَزْوَى ثم فى عمان حين استولوا عليها نهائيا فى العصور المتأخرة نشاطهم الخاص فى مذهبهم الإباضى والتأليف فيه مع العناية بالعربية .

ومنطقة البَحْرين هى منطقة قبائل عبد القيس وتميم قديماً ، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين ، وأنجبت عبد القيس فى الجاهلية والعصر الإسلامى غير شاعر وخطيب ، وأشاد بخطبائها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ونوّه بهم طويلاً . ونشعر حين استولى القرامطة على البحرين بخمود الحركة العلمية فيها ، غير أنها أخذت تنتعش سريعاً فى زمن العيونيين وبنى عصفور وبنى جبر ، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة وتفقيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم فى القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سليمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة فى المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علميا وأدبيا واسعاً فى أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : فى الأحساء وقطر والقَطيف وجزيرة أُوال (البحرين الحالية) .

٢

علوم الأوائل (١)

من مفاخر جزيرة العرب وحَضْرَمَوْت خاصة أنها قدَّمت إلى الفكر العربى فى نهاية العصر العباسى الأول ومفتتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثَّل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلا رائعا ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء فى العلوم الطبيعية أو الرياضية أو فى المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن النديم فى الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول ألدوميلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر أثراً بعيداً فى روجر بيكون .

والكندى ثمرة الحركة العلمية فى البصرة التى نشأ بها وفى بغداد التى عاش فيها ، وطبيعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون فى هذا العصر بإيران وبمصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة فى علوم الأوائل أو على الأقل فى تعلُّمها تعلماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أبا محمد الحسن الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفات جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

---

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميلى وترجمة الهمدانى فى مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ١٦٣ وديوان السلطان الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار المعارف - المقدمة) وترجمة ابن سينا فى ابن أبى أصيبعة وترجمة زيد بن عطية فى إنباه الرواة وكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة العصر لابن معصوم .

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب ، وبيّن علم أحكام النجوم واستوفى ضروبه ، وكذلك كتابه « القوى » فى الطب ، وكتابه « الإكليل » الذى ألفه فى ملوك حمير وأنسابها وهو فى عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل « جُمَل من القرانات » فى النجوم وأوقاتها – كما يقول القفطى – ونُبَذٌ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوثه واختلافهم فى أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيجه المعروف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية فى عصر الدولة الصُّلَيْحية (٤٣٩ – ٥٣٢ هـ) هيأت من بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت ترتكز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها ، وهى من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها فى الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرضٌ لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين فى اليمن المسمى الداعى الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منهما رسالة فى النفس ، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية ، وهى تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحث فى الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات .

وفى ترجمة ابن سينا ذُكر شخص همدانى يشدو الفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم نقع على اسم هذا الهمدانى . وفى الجزء الثانى من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصَّعدى اللغوى ، وفيها أنه «كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسيا ، يسلّم إليه المنجمون فى ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف فى ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت فى اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة فى عهد سلطانها المظفر (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) . وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منهما فى الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة فى الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طبيبا قائلا : « ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشبيبة ، وولدنا عمر – يقصد السلطان الأشرف – من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومرّ بنا أن للسلطان المؤيد فيه كتابا سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن فى القرن الحادى عشر طبيبا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه فى تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما فى الطب والثانية فى علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر باعخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة فى علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه النزعة فى عمان والبحرين وفى مكة والمدينة . ومما يدل على رغبة المثقفين فى الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد فى كتاب لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عنى بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس فى الهندسة وكتاب المجسطى فى الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشراقية . ونؤمن بأن المنطق ظل يدرس فى كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء فى كل مكان بضرورة درسه .

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مر بنا آنفاً ، ولأبى على الهجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية ، ومعروف أن الأمم القديمة فى أفريقيا وآسيا وأوربا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القُلْزُم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندى إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له فى أواخر القرن الأول الهجرى سبباً فى أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها فى سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمّما ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبه وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربى . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

علم الملاحة البحرية (١)

كان ربابنة السفن فى البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

---

(١) انظر فى هذا العلم وفى ابن ماجد وسليمان المهرى كتاب العرب والملاحة فى المحيط الهندى لجورج فضلو حورانى ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة الأنجلو) بالقاهرة . وراجع فران فى مادتى شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهرى فى دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهار فى معرفة البحار لأحمد بن ماجا –

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر فى المحيط الهندى وما يتصل به من المحيط الهادى ، مما كان سبباً مباشراً فى نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك فى هذه الملاحة سكان الخليج العربى وجنوبى الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربابنة كثيرون .

وأشهر ربابنة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود فى عُمان حوالى سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جبرييل فران فى باريس سنة ١٩٢١ – ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله النثرية والشعرية أنشأها فى نحو ثلاثين عاماً بين سنتى ٨٦٥ و٨٩٥ ولفران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره فى دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسى تيودور شوموفسكى فى موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بهذه الأراجيز الثلاث ونشرها فى القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكى ، وردّ الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل فى ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التى نشرها فران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة فى باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . وبجانب هذه الأشعار فى المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو فى اثنى عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد فى الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات فى الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربابنة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً فى ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية ، وليس

– تحقيق تيودور شوموفسكى ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد العليم (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدوميلى ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالاً للأستاذ حسن الصيرفى فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان « علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية » .

بصحيح ماذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها – كما يظن – سنة ٣١٥ للهجرة وكأن هؤلاء الربابنة الثلاثة – فى رأيه – كانوا يعيشون فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا فى النصف الأول من القرن السادس. ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابنة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربى ، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظريا كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده ، فقد كانا رُبّانين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية فى ألف بيت تُعَدّ دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة فى البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبيه من معارف فى الملاحة يسميهم الليوث ، ويسمى نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة . ويذكر فى الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التى تطابق تقاسيم البوصلة الاثنين والثلاثين والطرق البحرية فى المحيط الهندى وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانى فى المحيطين : الهندى والهادى والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندى والخليج العربى والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول فرّان إن وصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر فى الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل ربان لابد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه (واسمها عند ابن ماجد بُلُد) ومزاول لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبى .

ومن سوء طالع هذا العالم العربى الفذ فى علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا أن تعرّف عليه فى « مالندى » بشرقى إفريقيا ڤاسكودى جاما البرتغالى ، وكان قد يئس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحرى إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت فى المحيط الهندى واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق فى سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا فى الهند . وبذلك يكون – لغفلته – أداة للاستعمار البغيض : البرتغالى أولا ، ثم الإنجليزى والفرنسى والهولندى ، من شاطئ إفريقيا الشرقى إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصوّر ذلك مرارا

فى ألم ومرارة عن فاسكودى جاما وأصحابه البرتغاليين فى الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » :

وجَا لكاليكوتَ خُذْ ذى الفائده لعام تسْعمِاْيَهْ وستٌّ زائده
وسار فيها مبغضُ الإسلامِ والناسُ فى خَوْفٍ وفى اهتمامِ
واشتَرَوْا البيوت ثم سكنوا وصاحَبوا وللسَّوامرْ ركنوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامرىّ الذى صنع العجل وعبده بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبَهم حكام ثغر كاليكوت فى الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يختل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ربان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهرى من مَهْرة فى الشِّحْر بين حضرموت وعمان ، عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ، وله فى الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل فى بيانها لأحوال الملاحة فى المحيطين الهندى والهادى حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » و « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية » و « المنهج الفاخر فى علم البحر الزاخر » وتاريخها جميعاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر ، وقد درس فران أعمال سليمان المهرى البحرية دراسة وافية .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة فى التراث اللغوى والنحوى والبلاغى والنقدى ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم فى بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطيارات ، لا نبلغ مبلغ أسلافنا فى سرعة التواصل بينهم فى الكتب ، لا فى مجالات الفقه والحديث وما إليهما من الدراسات الدينية فحسب بل أيضا فى جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتابا ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطوافه فى البلدان لجأ إلى النداء عليه فى الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه فى مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم فى أى علم أو فن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد فى رحلته ليلقى العلماء ويقرأ كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذى يريد التعمق فيه . ونقلوا فى أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات فى كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزى حَمَلَتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط فى علم بأى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهى أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى فى العالم العربى جميعه ، إذ كانت كتبه ومصنفاته تُصَبُّ فى كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها فى كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيداً لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله فى بلد يتحول فى التوّ محاضرا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل فى هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التى أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هَجَّرَتْ أو كادت الإعراب فى القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لها دائما مدرسون ينهضون بهما سوى من كان ينزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكفى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة [١] الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب فى الحرم المكى ، مما جعل الزمخشرى [٢] يرحل فى شيبته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذه عنه ، وقد جاور بمكة – بدوره – مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه ، وكان لا يبارَى فى اللغة والنحو وألف فيهما مؤلفات دَوَّتْ شهرتها فى العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب مواده بحسب الحرف الأول ، وأدخل فيها كثيرا

(١) انظره فى التكملة لابن الأبار ٢/٨١٥ والعقد الثمين ٥/١٨٢ وبغية الوعاة والبحر المحيط لأبى حيان ٤/٣٧٢ .

(٢) راجع فى الزمخشرى ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٥ / ١٦٨ وانظر بقية مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من القسم الخاص بإيران .

من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول فى ختام المادة : « ومن المجاز » فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف فى غريب الحديث النبوى كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغريبة ، وصنف فى تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشاف » وشهرته تملأ الخافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيبويه والمستقصى فى أمثال العرب والقسطاس فى العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله فى أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشترك وأراد به الإمالة والوقف والإبدال والإعلال ، ولابن يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . وللزمخشرى بجانبه فى النحو كتاب سماه الأنموذج . ولا ريب فى أن هذا العالم النحوى اللغوى العظيم بعث فى مكة حركة علمية مباركة فى فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شَدُّوا الرحال إليه فى مكة ليتلقوا عنه مصنفاته ، وليحملوا عنه الإجازات بروايتها سماعاً واللقاء . وممن نَزَل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغانى الحسن[1] بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقصُّ ما قلناه من وحدة الثقافة فى العالمين العربى والإسلامى ، فقد ولد سنة ٥٧٧ فى لاهور عاصمة إقليم بنْجاب فى الهند ، ونشأ فى إقليم صغان كورة من بلاد السُّغد ، ويذكر مترجموه شيخين له فى الهند ، فالشيوخ ومعلمو العربية والشريعة منبثون فى أنحاء العالم الإسلامى ، حتى فى أبعد ديّاره . ورحل فى طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها ستتين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ فى موطنه وغير موطنه ، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث ، أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله موئلاً للطلاب فى كل مكان نزل به وخاصة فى مكة . وعُنى بوضع المعاجم والكتب فى اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين فى اثنى عشر مجلداً ويقول فى مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهرى ومعجم له سماه « التكملة والذيل والصلة » . وعادة يفصل فى مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكملة والذيل والصلة » المذكور فى ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهرى فى صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب فى الأضداد ، وكتاب سماه النوادر فى اللغة روى فيه غرائب اللغة التى نصَّ عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفى دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

---

(١) انظره فى العقد الثمين ١٧٦/٤ والجواهر المضية ٢٠١/١ وشذرات الذهب ٢٥٠/٥ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٦/٧ .

يؤلف فى اللغة معجماً كبيراً سماه العباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك فى أن هذا الإنتاج الغزير يصور عالماً لغويا كبيراً ، وهو لم ينشأ فى الجزيرة ولا فى بلد عربى ، وإنما نشأ فى الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفذاذ فى العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربى كان ملقًى بكل مكان فى العالم العربى والعالم الإسلامى الكبير . وممن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد [1] المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحوىّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربى مصرى تتلمذ فى العربية على أبى حيان الغرناطى عالمها المشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوى المعروف ، ثم جاور بمكة إلى أن توفى بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد [2] بن أبى بكر المرجانى المكى المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب فى أن دراستها ظلت نشطة فى العصر العثمانى وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية فى مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر فى الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح فى سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوى يمنى مهم ، هو الهمدانى [3] المذكور فيما مرّ ، وفيه يقول القفطى فى إنباه الرواة «هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها» . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو فى سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثانى والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو فى أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى «اليعسوب فى فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار» يقول القفطى عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرّ بنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامغة افتخر فيها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكاتب ابن الأنبارى وغيره من لغويى بغداد ويعترفون بفضله ، ومن أجله رحل العالم النحوى المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخريجه ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضى اليمن فى نشاطها اللغوى والنحوى طوال أزمنة الدول التى مرت بنا فى زبيد وصنعاء وعدن وصَعْدة إذ كان أمراؤها يتنافسون فى جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

---

(١) انظره فى العقد الثمين ٣/١٤٩ والدرر الكامنة لابن حجر ١/٢٧٧ .

(٢) العقد الثمين ١/٤٢٩ .

(٣) إنباه الرواة ١/٢٧٩ وأخبار الحكماء ص١٦٣ ومعجم الأدباء ٧/٢٣٠ وروضات الجنات ٢٣٨ .

منهم فى زبيدببلاط جياش بن نجاح زيد بن عطية الذى سبق أن تحدثنا عن حذقه لعلوم الأوائل ، وكان يعاصره فى بلاط الصليحيين إسماعيل (١) بن إبراهيم الربعى النحوى اللغوى الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليحيين ، وله قصيدة فى غريب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قيد الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نحاة اليمن القاضى أبو بكر اليافعى المتوفى سنة ٥٥٢ وله فى النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان (٢) بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ وله فى اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس (٣) العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » فى ثمانية مجلدات ، رتبه على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا فى ذلك الزمخشرى فى معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حرف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال ، وعُنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات اليمنية التى لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوى والشعر والأمثال . وكان يعاصره الحسن (٤) بن أبى عباد المتوفى سنة ٥٩٠ ويقول القفطى إن له مختصراً فى النحو مشهوراً فى اليمن يقرؤه المبتدئون ، ويقول السيوطى فى البغية عنه : « إمام النحاة فى قطر اليمن كانت الرحلة فى علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرهما على (٥) بن سليمان اليمنى النحوى المتوفى سنة ٥٩٩ وله مصنف فى النحو سماه كشف المشكل فى مجلدين ، وروى له ياقوت أبياتاً يحصر فيها جموع التكسير .

وتنهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومرَّ بنا أن الفيروزابادى (٦) مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ بزبيد وفد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها فى سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : فى الحديث وفقه مالك وفقه الشافعى ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضى

---

(١) إنباه الرواة ١/١٩١ .

(٢) انظر مصادره فى ترجمته بالفصل الثالث .

(٣) طبع الجزء الأول منه فى بريل ثم طبع بالقاهرة .

(٤) انظره فى معجم الأدباء ٨/٥٣ وإنباه الرواة ١/٢٩٠ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر فى ابن أخيه الآتى ذكره معجم الأدباء ١/١٦٤ وله فى النحو مصنفات .

(٥) راجعه فى معجم الأدباء ١٣/٢٤٣ .

(٦) راجعه فى الضوء اللامع للسخاوى ١٠/٧٩ وفى العقد الثمين ٢/٣٩٢ وبغية الوعاة والروض العاطر للنعمانى ٢/٢٤٩ والبدر الطالع للشوكانى ٢/٢٨٠ والشقائق النعمانية على هامش ابن خلكان ١/٣٢ .

القضاة باليمن ، وظل يليها أكثر من عشرين سنة فى عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدركته الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزبيد ، وأقام مدة بتعزّ ، لما كان فُوِّض إليه من التدريس بمدارس البلدتين . وله مصنفات كثيرة فى الحديث وفى الفقه ، ومرت بنا المنحة التى أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف فى الفقه كتابه الإسعاد ، وله فى النحو كتاب سماه « مقصود ذوى الألباب فى علم الإعراب » . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره ، ومن مصنفاته فيها مصنف فى الترادف سماه : « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » . وله كتاب فى غريب الذكر الحكيم سماه « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس « القاموس المحيط » الذى ألفه فى زَبيد ، ولا نغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو فى أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع فى ترتيب مواده طريقة الصحاح للجوهرى فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشرى فى أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير فى المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاته من بعض المواد أو ما سبق خطأً إلى وهمه ، وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق فى كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية المعربة ، وهى جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاسة المعجم تعهده بمنى بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى[١] الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ/ ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه « تاج العروس فى شرح جواهر القاموس » وهو مطبوع فى عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس فى المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع فى الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بعلوم العربية فى اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين فى صَعْدة وفيما يتبعهم أحيانا من البلدان مثل صنعاء وَزبيد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين

---

(١) انظره فى فهرس الكتانى ١/١٩٨ والجبرتى ٢/١٩٦ والخطط التوفيقية ٣/٩٤ ونشر العرف لزبارة (طبع المكتبة السلفية) ٢/٢١ .

نشروا هذه النهضة فى كل مكان . وكان العثمانيون فى أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية ، وكان الزيديون ينافسونهم فى هذا المضمار والزبيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر فى اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب .

ولم يكن هذا النشاط قاصرا على اليمن والحجاز بل كان عاما فى حضرموت وعُمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولا بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطا من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك فى أن كل ما نقرأ من شعر وأدب فى هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، ونتخذ لهذه العناية مثالا هو الشيخ عبد الله البيتوشى [1] ، وأصله شهرزورى تثقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفى سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام ، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة فى اللغة والنحو والدين . وكان فى كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة فى الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . ويدل على ذلك ما نجده فى كتاب « لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب » من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمّى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بُرَيْدَة إحدى القرى المتعمقة فى بوادى نجد . وإنه ليكفى من نشاط الجزيرة العربية فى هذا العصر فيما يخصّ الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التى خلفها الصغانى والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزبيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطا جما مثمرا .

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغى أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تنتجه بيئة عربية فى علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاجأ من حين إلى حين بكتاب فى بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة فى شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التى قدم بها كمال الدين ميثم [2] بن على بن مَيْثَمَ البَحْرَانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتبريز إذ له وراءه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان فى النهج ووزع

---

(١) انظر فيه كتاب البيتوشى لمحمد الخال قاضى السليمانية (طبع بغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلو ص ١٧ وما بعدها .

(٢) راجع فى ميثم كتاب سليمان البحرانى عنه باسم السلافة البهية فى الترجمة الميثمية .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعانى ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغى فى الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى[1] بن حمزة العلوى ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول فى مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هى ، المثل السائر لابن الأثير والتبيان فى علم البيان لابن الزملكانى ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى والمصباح فى البيان والبديع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بعبد القاهر وكتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : «أول من أسس فى هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين عبد القاهر الجرجانى» غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفاً ، إنما اطلع على شذرات منهما فى كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكى مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه «المفتاح» ويقول إن الحافز الذى دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم فى البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثَّر ابن الأثير والفخر الرازى والسكاكى بيِّن فى الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسمى كل فرع من هذه الفروع فنا ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسَلَكَ فى الفصاحة والبلاغة علمى المعانى والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر ، ويستوحى الفخر الرازى فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . ويطيل فى الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثره بعلم أصول الفقه . ويعرض المجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز اللغوى أو المرسل وعلاقاته ويسمى المجاز العقلى باسم المجاز المركب وينقل عن الرازى بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد ويطيل مستضيئاً بابن الأثير فى بيان وجوه الحسن فى أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازى من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوط وبعضها غير منقوط ويذكر آراءه فى معنى

---

(١) انظره فى البدر الطالع للشوكانى ٢/٣٣١ وكتابه «الطراز» نشرته دار الكتب المصرية فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩١٤ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز . ويخرج إلى بيان مواقع الغلط فى اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويترك الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثانى فى الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالمجاز وأنواعه من الاستعارة والكناية والتمثيل ، ويفصل القول فى الاستعارة وتعريفاتها عند الرمانى والفخر الرازى وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازى وبدر الدين بن مالك ، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتنقسم إلى حقيقية وخيالية ، وباعتبار لازمتها تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول . ويخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله فى المجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويجعله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام والليونة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجمال فى التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف . ويعود إلى تقسيمات أخرى فى التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أداته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير فى عدّها ضرباً من المجاز قائلاً إنها «اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح» ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . وينتقل إلى الكلام عن علم المعانى ، مازجاً فيه بين مباحث الرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزملكانى ، وقد ذكر فيه – على هدى الأخير – المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفى ، وأيضاً ذكر على هداه وهدى ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو فى كل ذلك يستلهم

ابن الأثير. وفصّل القول فى علم البديع « على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، وينتظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعَدَّ من هذا النوع الطباق ومردّه إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية وينتظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغيًّا . وينتقل إلى التكميلات الملحقة بالكتاب ، وهى الفن الثالث من فنونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة فى القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته فى حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبّق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعانى والبيان البديع ، ويتحدث فى إفاضة عن إعجازه البلاغى وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوى البديعيات وهى قصائد فى مديح الرسول ﷺ تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية فى أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صفى الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات فى جميع الأقطار العربية . وممن شارك فى هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم[١] الحسينى من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته :

حُسْنُ ابتدائى بذكرى جيرة الحَرَمِ   له براعةُ شوقٍ تستهلُّ دمى

وألف عليها شرحا سماه « أنوار الربيع فى أنواع البديع » وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية ، وذكر فى مقدمة شرحه أسماء من سبقوه إلى نظم البديعيات والتأليف محاكيا بذلك أصحاب البديعيات وشروحها قبله .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة فى الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما فى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب لعبد[٢] الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمى المكى قاضى جدة المتوفى حوالى سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح بابا لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبى مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم يعرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة ، ويعقد بابا ثانيا يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبى من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة فى

---

(١) انظره فى البدر الطالع ١ / ٤٢٨ وأمل الآمل ص ٥٢ .

(٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر عن المؤلف .

بيان وجوه من محاسن المتنبي فى إرسال الأمثال والحكم وينيه بالثناء عليه وعلى شعره. والكتاب يدل على بصر جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمى المكى وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبي قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة فى بيان محاسن شعره ومعايبه ، وهو يشيد به فى فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك فى تضاعيفه وفى خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التى تحدث فيها عن السرقات إذ عرض فيها أسماء شعراء متأخرين نابهين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى زمنه .

٤

علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوى والنحوى والبلاغى وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس فى كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس فى كل أنحاء العالم العربى ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون بأخذه عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النابهين فى كل بلد وخاصة فى العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفى الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد ولقاء علمائها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا فى أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد المعرفة فى علم بعينه أو فى مجموعة من العلوم .

وجعل الحجُّ والزيارةُ النبوية مكةَ والمدينةَ قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو ما مرَّ بنا فى علوم العربية فكان يفد عليهما أنبه العلماء فى العالم الإسلامى ، وكثيرا ما ينزلون بهما سنة أو سنوات ، وطلاب البلدتين ينهلون من ينابيع علومهم الغزيرة . ونضرب مثلا فى الفقه بالجوينى[١] عبد الملك بن عبد الله النيسابورى شيخ الإسلام العلامة الأصولى الفقيه المتكلم المتوفى سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا فى المدينة ولذلك سُمِّى إمام الحرمين ، وكان يدرس هناك ويفتى ويجتهد فى نشر العلم بفقه الشافعى ، وكان علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه فى موطنه وحين نزل بغداد ولقى علماءها وناظروه ، ويقولون عنه : وقفَ علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقول

(١) انظر مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من القسم الخاص بإيران .

السبكي : «لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقة والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقا . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرا ، مما جعل اسمه يطير فى الأقطار وذكره يملأ الديار» . ومن تصانيفه فى الفقه الشافعى النهاية فى الفقه ويقول السبكى : «لم يصنف فى مذهب الشافعى مثلها فيما أجزم به» ويذكر له فى أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له فى أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام فى مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضا الوافدون على البلدتين من أقطار العالم الإسلامى ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبنى له نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقى مدرسة ليلقى بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقته تضم نحوا من أربعمائة طالب ، وحين توفى طافوا ببلده ينوحون عليه وكسروا المحابر والأقلام حزنا وجزعا . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلا إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب[١] التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيثمى المتوفى سنه ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووى ومصنفات كثيرة .

ونلتقى فى مكة بمحدث من كبار المحدثين فى العالم الإسلامى هو محب[٢] الدين الطبرى المكى المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهى مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبى الحسن على بن المقيّر ، ومما قرأه عليه سنن أبى داود عن أبى الفضل بن سهل الإسفرايينى وعن الخطيب البغدادى وسنن النسائى أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على عن البزدى عن عبد الرحمن بن محمد الدونىّ . وكانوا يدققون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلابد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ نابهين على نحو ما حمل ابن المقير سنن أبى داود

(١) راجع مثلاً فى إمام للحنفية بالمسجد الحرام المنهل الصافى ١/٤٠٤ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن على بن يوسف ، وفى إمام للمالكية العقد الثمين ٤/٣٢٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلانى المكى ، وفى إمام للشافعية العقد الثمين ١/٢٨٠ وهو الرضى الطبرى المكى ، وفى إمام للحنابلة العقد الثمين ٧/١١٩ وهو ابن الطباخ الحنبلى .

(٢) انظره فى طبقات الشافعية للسبكى ٨/١٨ والمنهل الصافى ١/٣٢٠ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٧٤ وشذرات الذهب ٥/٤٢٦ ومرآة الجنان ٤/٢٢٤ والنجوم الزاهرة ٨/٧٤ .

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفرايينى والبغدادى ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عمن أخذه لصحة السند وللثقة بالرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقولون سمعه من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفى أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يجمعون الحسنيين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعا وقراءة . وقرأ محب الدين الطبرى صحيح البخارى على عبد الرحمن بن حرمى سبط السلفى الحافظ المشهور ، وقرأه أيضا على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذى على يعقوب بن أبى بكر الطبرى وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبى الفضل المرسى ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقفى على أبى الحسن بن الجُمَّيْزى وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفى ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفرانى ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدى عن ابن البَطِّى ، وقرأ على ابن العديم وريحان السُّكينى وشيخ الحرم نجم الدين التبريزى جزء الأنصارى . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبيه المشهور فى الفقه الشافعى والذى ألفه أبو إسحق الشيرازى على ابن سكينة وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغريب لأبى عبيدة عن شُهدة ، وهى إحدى المحدثات الكبيرات . وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التى أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكى بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونقف قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تتلمذوا له فنهم القاضى جمال الدين الطبرى قاضى مكة قرأ عليه فى سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوى . وهذا يعنى أنه كان يدرس فى المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدوى والقطب القسطلانى المصرى ثم المكى ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضى المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطى المصرى المشهور وعلم الدين البِرْزالى الدمشقى المصرى وقاضى مكة نجم الدين الطبرى وقطب الدين الحلبى وأبو حيان الغرناطى وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخرهم وفاة عثمان بن الصفى الطبرى ، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفى . وأساتذته وتلامذته هم أعلام الحديث فى عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به فى الفقه الشافعى ، واستدعاه المظفر السلطان الرسولى مِرَاراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتآليفه ولابد أنه كان يلقى فى أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزبيد . ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها فى الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو فى خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره فى كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض النضرة فى فضائل العشرة المبشرين بجنة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ، وتقريب المرام فى غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القِرَى من ساكن أم القُرَى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك ، وصفة حجة النبى ﷺ على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبى إسحق الشيرازى فى عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه فى أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبيه فى تلخيص التنبيه ، وكتاب مختصر المهذب ، مجلدان . ومما يتصل بالقرآن الكريم : القبس الأسنَى فى كشف الغريب والمعنى ، والكافى فى غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثمانى المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التى كانت منبثة فى الحجاز والتى كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات فى الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة فى رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيرى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلّة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبيعى أن تنشط دراسة التفسير فى مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى بجانب عمله فى الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنِّف بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنفه الزمخشرى فى أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراءه الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته ، ويلقبه الفاسى المالكى بأنه « الإمام الكبير فى التفسير . . كان إمام عصره غير مدافع » ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يمليه فى مكة على الطلاب ، وممن رواه عنه قاضيها أبو المعالى يحيى ابن عبد الرحمن الشيبانى ، أخذه عنه بالحرم المكى الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشرى يعنون بالكشاف فى التفسير ، كما يعنون برواية كتب الزمخشرى المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكى ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشَّعْرية خاتمة الرواة عن الزمخشرى وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول الفاسى فى العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته فى الحرمين المكى والمدنى ، ويختار ابن مجاهد فى القرن الرابع قراءة ابن كثير التى كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التى كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منهما تتداول فى بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا فى كتاب طبقات القراء لابن الجزرى أسماء طائفة منهم مثل أبى يحيى المكى المتوفى سنة ٣٤٤ وأبى عبد الله البلخى المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء فى مكة والمدينة . وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بهما كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقه فيها نشاطاً من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثورى وابن عُيَيْنة ، وخلفه تلميذه عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرة موسى بن طارق . وكان الغالبُ فى اليمن حتى القرن الثالث مذهبى أبى حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعى ، وفى مقدمتهم موسى بن عمران المَعَافِرىّ وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقه الشافعى . ويقول الجعدى فى كتابه «طبقات فقهاء اليمن» : وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية فى صنعاء وعدن القاسم بن محمد القرشى المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذى نشر مذهب الشافعى فى مخلاف الجَنَد وفى صنعاء وعدن وَزبيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقة علم القراءات . وكان يعاصره الصعبى أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزنى المصرى صاحب الشافعى – كما يقول الجعدى – فى أربع سنوات مقابلاً الكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعى وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازى كتابيه : المهذب والتنبيه فى الفقة الشافعى ، وأخذهما عنه حسين بن على الطبرى وأبو نصر البندنيجى وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنهما الكتابين ، كما حملوهما عن تلميذه محمد بن عَبْدويه الذى سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زَبيد ، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدى . وينشط الفقه الشافعى أو المذهب الشافعى فى الفقه بتهامة وزبيد نشاطاً واسعاً .

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى[١] بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمرانى وزيد بن عبد الله اليفاعى ، وقد قرأ كتاب التنبيه للشيرازى على موسى بن على الصعبى ، وحفظ كتاب الشيرازى : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمدانى ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايشى تعليق الشيخ الشيرازى فى أصول الفقة مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضى مسلم بن أبي بكر الصعبى كتاب الحروف السبعة فى علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغى ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذى ، ومما قرأه ونصَّ عليه الجعدى شروح المزنى والمجموع للمحاملى والشامل لابن الصباغ والفروع لسليم وشروح المولدات لأبي الطيب والعدة للقاضى حسين بن على الطبرى تلميذ الشيرازى كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي على السِّنجى وكتاب التبصرة لأبي الفتوح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء فى اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة ويناظر الفقهاء فى مذهب الأشعرى المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها فى الفقه الشافعى كتابه الزوائد ألفه فى أربع سنوات وكتابه البيان ألفه فى ست ، وكتابه استخراج المسائل المشكلة فى المهذب .

ومن الطريف أن الجعدى فى كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا فى بيت بعينه ، من ذلك أسرة بنى أبي عَقامة ، ويقول عنهم الجعدى : «وفضائل بنى أبي عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعى فى تهامة» ومن أهمهم أبو الفتوح [٢] عبد الله بن محمد بن على بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده وعلى أبي الغنائم الفارقى ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الخنائى وفيه نفائس حسنة ، قال النووى : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد العماد الأصبهانى لهذه الأسرة فصلاً فى الخريدة ، ويقول الجندى فى كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضى أبو محمد الحسن بن أبي عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التى يستشنعها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب فى اليمن قليل الوجود ، لأن الحنفية

---

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكى (الطبعة الثانية) ٣٣٦/٧ وشذرات الذهب ١٨٥/٤ .

(٢) انظره فى طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكى ١٣٠/٧ وتهذيب الأسماء واللغات ٢٦٢/٢ وقسم الشام من كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى ٢٤٦/٣ .

اجتهدت بتحصيله وإذهابه (١) » .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم فى القرن الخامس فى اليمن القاضى محمد بن أبى عوف، ويعقد لهم الجندى فصلاً قصيراً فى كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضى المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضى » وهو مشهور فى اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم فى القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش (٢) المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رياسة الحنفية فى اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لمات مذهب أبى حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولى على بناء مدرسة للحنفية بزبيد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية فى تهامة وزَبيد فقه الزيدية فى صَعْدة من قديم ، وكان الأئمة الرسِّيون كلما غلبوا على بلد فى اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة فى العصر العثمانى أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية فى زبيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدى نشأ مبكرا . فإن زيد بن على زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذى أرسى قواعده فى كتاب فقهى له اشتهر باسم المجموع الفقهى (٣) ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طُبع فى القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النضير للحسين الخيمى فى أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضا بشرح شرف الدين السباعى ، والشرحان مطبوعان فى القاهرة . وعُنى أئمة الزيدية فى اليمن – منذ تأسيس الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم – بهذا الكتاب فهو عمدتهم فى الفقه والتأليف فيه ، وللإمام الهادى كتاب يسمى كتاب جامع (٤) الأحكام فى الحلال والحرام . ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه فى اليمن ، ونذكر من كتبهم أطرافا ، فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلى شرح مجموع الإمام زيد بن على . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطراز الذى تحدثنا عنه فى النشاط البلاغى له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار فى ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدى أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طُبع مع تخريج أحاديثه فى خمسة أجزاء ، وله أيضا كتاب

---

(١) كتاب (السلوك – النكت) للجندى ص ٦٣٢ .

(٢) العقود اللؤلؤية للخزرجى ١ / ١٥٥ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٣٢٣ .

(٤) بروكلمان ٣ / ٣٢٨ .

الأزهار فى فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحا سماه « الغيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا فى الفقه الزيدى وألفوا فيه وحوله كتبا ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية فى القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » فى أربعة مجلدات ، واختصره فى كتابه « الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم » وهو مطبوع .

وبجانب هذا النشاط الفقهى فى اليمن كان هناك نشاط واسع فى علم الحديث ، وهو يبدأ فى الحديث كما بدأ فى الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور فى السنن ، ونمضى بعده فى كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعانى كتاب المتقى فى السنن ، وقلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيرا مايقول الجعدى عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخارى ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذى أو صحيح مسلم أو سنن أبى داود أو سنن النسائى . ومن حين لآخر نجد الجعدى ينعت الفقيه الذى يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبنفس النشاط فى هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين تنشط فى روايته وللإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب فى الحديث يسمى الشفاء ، وللإمام القاسم المتوفى سنه ١٠٢٩ فى الحديث كتاب الاعتصام .

وعُنيت اليمن بالتفسير والقراءات كما عنيت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديما طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبرى أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادى لعهد الرسوليين فى هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر للإمام الهادى مؤسس العقيدة فى اليمن تفسيرا لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبى الفتح الديلمى المتوفى سنه ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، وللإمام المهدى محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن فى عصورها جميعا على الإطلاق تفسير محمد[1]

(١) انظره فى كتابه البدر الطالع ٢/٢١٤ وترجم له ابن زبارة فى كتابه (نيل الوطر من تراجم اليمن فى القرن الثالث عشر) وقال إنه أستاذه .

ابن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية فى التفسير» وكان قد بدأ حياته زيديا ونزع إلى الدعوة الوهابية . وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات فى الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .

واهتمت اليمن من قديم بالقراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذى حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التى كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها فى اليمن ، ومن أعلام القراء هنالك زيد[1] بن الحسن الفايشى المتوفى سنة ٤٥٨ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير . ومنها القراءات أخذها عن أبى معشر الطبرى بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبى الخير المار ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزرى فى طبقاته ابن شداد البرعى على بن أبى بكر الزبيدى شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزبيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفى سنة ٧٧٠ وخلفه أحمد بن محمد الأشعرى العبدلى شيخ زبيد فى القراءات ، ويقول ابن الجزرى : لما دخلت اليمن لازمنى كثيرا وسمع منى نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر[2] . ومعروف نشاط ابن الجزرى فى القراءات ، ولاشك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط فى القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن فى هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين منزعان : منزع أشعرى ومنزع أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع المنزع السنى ، ونجد ذلك واضحا فى تأليف الكتب التى تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل «كتاب الحروف السبعة فى الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة» للمراغى[3] ومثل كتاب يحيى بن أبى الخير الذى تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : «الانتصار فى الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» وفى مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبى الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ فى التحذير من القدرية . ولم يكد يقرأ رسالته شمس

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ والسبكى ٧/٨٥ .

(٢) غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ١/١٠٣ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

الدين حتى نقضها بكتاب سماه « الدامغ للباطل من مذهب الحنابل » فأثار حفيظة يحيى ابن أبي الخير ، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا ، وأضاف إلى المعتزلة في الكتاب الأشعرية وأجحف بهم ، مما جعل الشريف العثمانى الأشعرى يناظره ويجادله فى مذهب الحنابلة أهل السنة(١) .

ومعروف أن زيد بن على زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا ينتظمون فى المعتزلة ، مما جعل الاعتزال يستقر فى مباحثهم ، كما جعلهم يكثرون من هذه المباحث ، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسى جد الإمام الهادى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونفى الجبر والتشبيه ، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضى عبد الجبار أكبر معتزلى فى نهاية القرن الرابع الهجرى شرحا مطولا ، وللإمام الهادى كتاب المسترشد فى التوحيد ، وللإمام المهدى المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر فى التوحيد . وتتوالى كتب كلامية كثيرة فى بيئة الزيدية ، من ذلك شرح القلائد فى علم الكلام للإمام المهدى أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس فى علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩ . ولم تؤلف هذه البيئة فى الاعتزال وحده ، بل ألفت أيضا كتبا فى رجاله ، وكتاب ابن المرتضى فى المعتزلة مشهور .

ولم تكن حَضْرَمَوْت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية فى اليمن والحجاز ، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يفدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقينه ، ويلقانا منهم كثيرون فى كتب التراجم ، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم فى تَرِيم وشِبام وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت فى تلقينه للشباب . وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين ، بل منهم من كان يرحل فى طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد ، ويعود محملا بالكتب وبالإجازات العلمية التى تتيح له روايتها ونشرها . ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعى اليمنى المتوفى سنه ٥١٤ كان يغصّ بالفقهاء من حضرموت(٢) ، ويذكر الجعدى من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبي الخير الذى مر بنا فى الحديث عن فقهاء اليمن محمد(٣) بن عبد الله الحضرمى من تَرِيم حاضرة حَضْرَموت وأيضا محمد بن مفلح الحضرمى وهو الذى طلب إليه تأليف كتابه

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ – ١٨٠ .
(٢) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

« استخراج المسائل المشكلة فى المهذب » لأبى إسحق الشيرازى وأجابه إلى طلبه[١] .

ويذكر الجعدى من فقهاء حضرموت أبا زُنَيج وأبا جحوش وأبا أكدر قاضى تَريم وقد جمع بين الفقه والقراءات السبع [٢] ، وفى كتاب الجعدى فقيهان من شبْوة بحضرموت هما عيسى بن مفلح وأحمد[٣] بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقُرّائها فى الحملة التى وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكى بقطب[٤] الدين الحضرمى شارح المهذب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول « تفقه به خلائق » وله مصنفات كثيرة . وفى ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك بالحديث والتفسير . ويحدثنا السقاف فى كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين ترجم لهم ، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى فى عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبى بكر السقاف المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم باكثير المتوفى سنه ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . وممن ذكرهم السقاف من المحدّثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعزّ فى سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان يقرأ للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . وممن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن ابن على السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئيها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبى مشيرح الحضرمى المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد فى القراءات الثمان ، وقد أشاد به وبكتابه ابن الجزرى ، وقال إنه توفى فى سنه ٥٦٠ وإنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ المصريين[٥] وممن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢ وقال : له مختصر نهاية الناشرى فى القراءات وشرح الجزرية . ويذكر السقاف ممن عنوا بعلم الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات فى علم التوحيد ، وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .

وهذه الصورة من النشاط العلمى لحضرموت هى صورة ظَفار وعمان والبحرين ، ونجد لظفار فقيها ينسب إلى مينائها مرباط هو مفتيها محمد بن على القلعى ، ويقول الجعدى : له مصنفات حسنة ، منها قواعد المهذب وغيره[٦] . ولا ريب فى أن النشاط العلمى فى دراسة

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص ٢٠٢ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى ٨ / ١٣٠ .

(٥) انظر طبقات القراء لابن الجزرى ٢ / ٤٦ وكتابه : « النشر فى القراءات العشر ١ / ٩٣ .

(٦) الجعدى ص ٢٢٠ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدما فى عُمان لزمن بنى مكرم وبنى نبهان ، أما فى نزوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان فى العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عنوا طويلا بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدى الإباضى المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المسانيد المعروفة فى الحديث النبوى ، وانصبّت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف فى عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونَصْبُ إمام المسلمين عندهم واجب ، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم فى الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة فى دراسة علوم الدين الحنيف ، وكانت تدخل فى دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلماؤها لا يزالون ذاهبين آيبين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة فى كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة فى المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازانى وكتاب إيساغوجى[١] وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء فى المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل فى عصرنا إنما يدخل فى العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة فى البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس فى قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد فى قريته تَريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيحى البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التميمى فى قرى القَصِيم حيث تتلمذ عليه فى علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

---

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٨ .

وتتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر فى الفصل الماضى ، على نشر عقيدته . وهى ليست عقيدة جديدة بل هى عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته فى محاضراته ومؤلفاته ، ومرّ بنا كتاب التوحيد ، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكبائر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول فى معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه ، ولسليمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف فى الدعوة مبكرا وراء نجد ، إذ نجد محمد بن على الشوكانى اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخيار .

٥

التاريخ

نشطت كتابة التاريخ فى الجزيرة العربية كما نشطت فى كل بلد عربى ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط فى الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرقى «أخبار مكة» وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التى تلقانا عنها فى هذا العصر مصنفات الفاسى [١] أبى الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكوّن علمياً حتى أصبح من علمائها الأفذاذ ، وسرعان ما تحول مدرساً يفيد الطلاب من علمه . وتقلد منصب شيخ الحرم المكى إلى أن توفى سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» فى مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» الذى نرجع إليه ، وهو فى ثمان مجلدات ، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخيًّا وجغرافيًّا ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالمحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذناً ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب فى الترجمة له ،

---

(١) انظره فى الضوء اللامع ١٨/٧ والشذرات ١٩٩/٧ ومقدمة كتابه «العقد الثمين» وقد ترجم لنفسه فيه انظر ٣٣١/١

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللدبار (١) بكرى المكى المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين (٢) النهروالى المكى ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحى (٣) بن العماد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زبالة الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصدده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السمهودى (٤) المصرى المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طُبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم «خلاصة الوفا» . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المدنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى (٥) المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكتظ اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسىّ المتوفى سنة٣٩٣ للهجرة . وتنشط الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقانا من مؤرخيها جياش بن نجاح أمير زبيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيد» فُقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

---

(١) راجعه فى الشذرات ٨/٤١٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظره فى الشذرات ٨/٤٢٠ والنور السافر ص ٣٨٣ والبدر الطالع ٢/٥٧ .

(٣) راجعه فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ٢/٣٤٠ .

(٤) انظره فى الضوء اللامع ٥/٢٤٥ والشذرات ٨/٥٠ والبدر الطالع ١/٤٧٠ .

(٥) راجعه فى سلك الدرر ٢/٩ والجبرتى ١/٣٦٣ .

كتاب سماه « مختصر المفيد فى أخبار زبيد » وقد طبع فى القاهرة . ويشتهر عمارة [١] بكتاب له فى تاريخ اليمن نشره كاى ثم نشر فى القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » تحدث فيه عن الوزراء فى آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك وشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون فى آخر القرن الماضى وطبع معه ديوانه . ومرّ بنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر[٢] بن على بن سمرة الجعدى المتوفى لأواخر القرن السادس الهجرى . وللقاضى حميد [٣] بن أحمد المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحدائق الوردية فى سير الأئمة الزيدية » و « محاسن الأزهار فى فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخى اليمن الجندى [٤] بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك فى طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومرّ بنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه ، وللسلطان الأفضل عباس [٥] الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية » . ومن مؤرخى اليمن اليافعى عبد الله بن أسعد بن عفيف نزيل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان فى التراجم العامة وهو مطبوع . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجى [٦] المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدّثين فى عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلاطين الرسوليين ترجمات دقيقة . وهو لا يعرض فى الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً التاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الدّيبع [٧] أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث فى الجامع الأعظم بزبيد وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قرة العيون بأخبار اليمن الميمون

---

(١) انظره فى ابن خلكان ٣/ ٤٣١ والخريدة قسم الشام ٣/١٠١ وستأتى مصادر ترجمته بين الشعراء .

(٢) انظر فى التعريف به وبكتابه مقدمة المحقق له : فؤاد السيد .

(٣) تاريخ اليمن للجرافى ص ١٢١ .

(٤) انظره فى إعلان التوبيخ للسخاوى ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجى فى كتابه العقود اللؤلؤية .

(٥) راجعه فى العقود اللؤلؤية للخزرجى وفى الشذرات ٦/ ٢٥٧ وفى هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ٨٨ .

(٦) انظر ترجمته فى الضوء اللامع ٥/ ٢١٠ والشذرات ٧/ ٩٧ .

(٧) انظر فى ابن الديبع ترجمته لنفسه فى آخر كتابه بغية المستفيد والنور السافر ص ٢١٢ والشذرات ٨/ ٢٥٥ والبدر الطالع ١/ ٣٣٦ والكواكب السائرة ٢/ ١٥٨ .

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجى فى دولة الرسوليين ، ثم أضاف إليه دولة بنى طاهر التى خلفتهم ويعد أول من عُنى بالتاريخ لها . ومن كتبه التاريخية بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الجيدة التى ألفت فى القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) . وتلقانا بعـــــده كتب كثيرة فى أئمة اليمن وفى الحكام العثمانيين ، من ذلك ماكتبه الجرموزى المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه «الجوهرة المضية فى تاريخ الخلافة المؤيدية» وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه «النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة» . وصنّف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمنى فى أواخر القرن الحادى عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أنباء الزمن فى أخبار اليمن» . وليوسف بن يحيى الصنعانى المتوفى حوالى سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب «نسمة السحر فيمن تشيّع وشعر» ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن على الشوكانى العالم النابه كتاب فى التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره فى القرن الثالث عشر سماه «البدر الطالع» وهو أحد المراجع التى يتكرر ذكرها فى هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات فى أخبار اليمن للهمدانى ، ومثل النور السافر فى تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيّل عليه جمال الدين الشلى الحضرمى بكتاب سماه «السناء الباهر بتكميل النور السافر» .

ولنجد كتب تاريخية مختلفة فى الحقب المتأخرة منها «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام» لحسين بن غنام الأحسائى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال فى سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع فى كتابه . ويليه فى الأهمية كتاب عنوان المجد فى تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات يبتدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهى بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أى من حين نزول محمد بن عبد الوهاب فى «الدرعية» ووضع الأمير محمد بن سعود يده فى يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركى . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم فى الدرعية بمنتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين فى الأهمية كتاب «عقد الدرر فيما وقع فى نجد من الحوادث فى آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر» لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يبتدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ/ ١٩٢١ موزعاً حديثه التاريخى على السنوات .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر على كل لسان

ظل الشعر حيا يجرى على الألسنة فى الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً وأن ينابيعه كانت تمتد فى شمالى الجزيرة وشرقيها وغربيها ، أو قل فى الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن فى العصر الجاهلى أوبعبارة ادق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت فى التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر فى اليمن بإزاء الحجاز وفى نجران وفى حضرموت وبين أزد عُمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ماكان قد بقى منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذى نؤرخ له والذى يبتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء فى كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز – وخاصة مكة – دارا كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين وُلدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقيم فيها بين ظهرانيهم . فكان ذلك غذاء سائغاً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هى نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة فى القرنين الثانى والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لنزول كثير من الموالى بهما ومعيشتهم فيهما ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر الإسلامى أن عدد القتلى من الموالى فى موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين فى هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، فما بالنا فى هذا العصر؟ إن المعقول الذى يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب فى المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهى زيادة أحدثت فى هذا العصر لشيوع لغة عامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف فى مقاطع الكلمات ونبراتها . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هنالك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحَرَمان جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتاتيب، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربى الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية فى اليمن كثيرة . ومع ذلك كان ينزلها الأحباش والإفريقيون بكثرة ، ومرَّ بنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم فى حقبة إمارةً فى زَبيد ، وكان ينزل فى عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية — وهى الكثيرة — كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون فى اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجرى على الأقل فى بعض أنحائها ، فعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكى فى كتاب المفيد فى أخبار زَبيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زَبيد فى سنة ٥٣٠ ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء فى جميع المدارس التى ألمَّ بها فى تلك البلدة من أنه لا يلحن فى شىء من الكلام ، ومن قوله : «وجبلا عُكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . ولما زارنى والدى وسبعة من إخوتى فى زبيد تحدَّثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه»[1] . ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زبيد كان أهلها يلحنون فى لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجرى ، أما تهامة والبوادى وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها فى بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب المخلاف السليمانى إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير فى هذا المخلاف الذى يطلق عليه الآن اسم عَسير ، وقد ضُمَّ إلى

(١) المفيد فى أخبار زبيد ص ٥٤ .

المملكة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مسهباً فؤاد حمزة إذ يقول : «أفصح اللهجات (في الجزيرة) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين جنوبي الحجاز وشمالي اليمن (عَسير) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصيح من سواه . وبعض البدو من أهل هذه المنطقة يخرجون جُمَلا يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على ذلك النحو بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ، فيجيء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها في الأقطار العربية المتمدنةمهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البداهة»[١] .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية الأخرى، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت في إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجرى ، كما يدل كلام عمارة السابق فقد عجب فقهاء زبيد من أنه يوجد في بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها ، مما يدل بوضوح على أن اللحن كان قد فشا على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوّن بسرعة هناك لغة يمنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهما في أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم الإسلامية ومرَّبنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن ، وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زَبيد وتعزّ وصنعاء وعَدن ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجرى على الألسنة . غير أنه يلاحظ أنه أخذت تُنظَمُ هناك ، كما كان الشأن في البلاد العربية الأخرى أشعار عامية . ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط ، وإذا احتكمنا إلى تاريخ أول أغنية عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس : «شعر الغناء الصنعانى» وجدنا هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وهى للشاعر شهاب الدين أبي محمد أحمد بن فُلَيْته ، وقد اشتهر زمن السلطان الرسولى المجاهد على الذى حكم من سنة ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم في بيان خصائص هذه الأغانى اليمنية العامية من زمن ابن فليتة إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى . ويقول إنها جميعاً من الشعر الحُمَيْنى وهو اسم خاص بالشعر العامى اليمنى الذى لا يلتزم قواعد الفصحى النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها . وتكثر فيه المسمَّطات والموشحات ، وتبدو المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

(١) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٩٩ .

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحُمَيْنى أو العامى اليمنى يرتفع فى لهجته عن اللغة اليمنية العامية ويهبط فى الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعَدّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطى الذى أخذ يشيع فى الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجرى ، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا فى كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه فى الحجاز وحضرموت وفى عمان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامية لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات عن الفُصحى . شعر بلغة بين العامية والفصحى ، ويسمونه باسم الشعر النبطى ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ فى الجزيرة محل الشعر الجاهلى فيها قديماً ، فقد كان شِعْرَ جميع القَبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكأن الموقف فى هذا الشعر يتعاكس مع ماكان فى الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى وألحان عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكُّون عنها أبداً ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطى يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دنوًّا من قبيله ولغتها العامية ، ومع ذلك يظلون يرفدونه بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح ، وكأنما فى دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغى أن يظل مرتفعاً قليلاً أو كثيراً عن اللغة العامية اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة .

ومهما يكن فإن هذا الشعر العامى أو قل الحُمَيْنى اليمنى لم تَعْلُ كِفَّته يوما على الشعر الفصيح الذى ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره فى اليمن إلى اليوم . ومايَصْدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحُمَيْنى العامى ، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحمينى ونمثّل لذلك بأبى بكر العيدروس الحضرمى المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغانى حُمَيْنِيَّة عامية ولكن شعره الفصيح هو الذى ذاع وشاع أو قل هو الذى غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : «محجة السالك وحجة الناسك» . على أن شعره الحمينى يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً .

وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ، ومما هيأ للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هُرْمز الإيرانية أو قل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان ، وكانت أحياناً تتبعهم ، فكثر نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة فى لغة العمانيين اليومية ، وطبيعى أن يتبع ذلك تغيرات فى الألفاظ العربية ذاتها فى بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن «كلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا ، فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التي ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِّفت ومُدَّت قليلاً أو لعلها لام التوكيد . وينبغي أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى في عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخذونها لغة للعلم وللشعر ، وكثيراً ما نقرأ في ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها في عُمان ، وقل ذلك نفسه في نَزْوَى وفي صُحار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فمواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزلها ، وكان لذلك بعض التأثير في اللغة العامية التي نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية في عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما نزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر ، وكأن سيل الشعر كان لا يمكن رَدُّه ولا صده في أي إقليم عربي ، فهو دائماً زاد للعرب وعُدَّة وعتاد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية في نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأقطار المجاورة ، إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهيأة ، ونقصد وسائله الأولى من الأقلام والحبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يَدُلُّوننا على ما كان من نشاط شعري وراءهم ، وقد نشط الشعر في عهد بني مزيد الأسديين الذين شادوا الحِلَّة على حدود العراق وكذلك في عهد بني عُقَيْل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر في نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري .

٢

كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها في أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً في الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحفَّ بهم جمهرة من الشعراء ، وخاصة في اليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجري قليلة ، وكان المظنون أن يترجم الثعالبي في اليتيمة وتتمتها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُعْنَ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامى ، وسنترجم له فى غير هذا الموضع ، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران مثل ابن أبى مرّة المكى وينشد له قوله فى أبى الفتوح أمير مكة الآتى ذكره[١]:

ياسيِّدًا فَدَيْتُه بروحى خوَّلك اللهُ أبا الفتوحِ
مُلْكَ سليمانٍ وعُمْرَ نوحِ

وإذا كان الثعالبى قصرَّ فى الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عُنى بهم فى فاتحة كتابه «دُمْيَة القَصْر وعُصْرة أهل العصر» إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ماطلعت من أبيات الأشعار[٢] ، ورعت مع الظِّباء الشِّيح ، وتزوَّدت مع الضِّباب[٣] الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والتعمل ، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل . . وقد وقع لى من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الزُّلال ، وأرقُّ من الشَّمول صُفِّقت بالشمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخرزى من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى فى الجزيرة العربية ، فنهم المكى والمدنى والطائفى الثقفى واليمنى ، ومنهم العامرى والأسدى والبكرى والطائى والغسَّانى والرَّبَعى والشيبانى والهَمْدانى . وهم بذلك يمثلون الجزيرة فى جميع أنحائها غرّباً وشرقاً ووسطاً وشمالاً وجنوباً . وفى ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب فى نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخرزى وما ساقه لأصحابها من أشعار ، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد ، ومنهم من لقيه فى هاتين المدينتين أو فى مدينة الرَّىّ حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام الملك الذى وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم يلقهم الباخرزى ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتوح[٤] الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة المتوفى سنة

(١) تتمة اليتيمة للثعالبى ١/٨٣ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخرزى الخيام المتخذة من أوبار الإبل رمزاً للبادية .

(٣) الضب : من الزواحف فى نجد وذنبه كثير العقد .

(٤) انظره فى العقد الثمين ٤/٦٩ .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَتْنِي الهمومُ وَصْلَ هواكِ   وجَفانى الرُّقادُ مثلَ جَفاكِ
وحكى لى الرسولُ أنكِ غَضْبَى   يا كَفَى اللهُ شَرَّ ما هو حاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبهما العماد فى الخريدة لابن أبى الفتوح شكر [١] الذى خلفه على إمارة مكة إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وهو الذى حاك بعض بنى هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مرَّ بنا ، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالى ، ثم حدثت بينه وبين عشيرتها مغاضَبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم فى نجد ، فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهى معهم ، ومضوا فى رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بنى هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تَكَلَّفُ به إلى أن ماتت وهى هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بنى هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجرى فيها خلل الإعراب كما يجرى فى بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزعم هذا الزعم ، لما رواه الباخرزى من أشعار النجديين فى هذا التاريخ ، وهى تدل على أن الخلل الإعرابى لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وفى تقديرنا أن ذلك إنما حدث فى القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله [٢] :

قَوِّضْ خيامك عن أرضٍ تُضام بها   وجانب الذُّلَّ إن الذُّلَّ يُجتَنَبُ
وارْحَلْ إذا كان فى الأوطان منقصةٌ   فالمَنْدَل الرَّطْبُ فى أوطانه حَطَبُ

والبيتان يصوران إباء العربى وشعوره بالكرامة ورفضه للضيم مهما احتمل فى هذا الرفض من العناء الشاق . ويترجم الباخرزى لشاعر يسمى الهاشمى ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة فى نظام الملك ، ويتلوه بأبى الحسن العبشمى المكى ثم بأبى الفضل جعفر بن الحسين الشيبى ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه فى مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً فى النسيب ، ويترجم لعم له يسمى جعفر بن يحيى الحكَّاك وشعره متوسط . ويترجم الباخرزى بجانب هؤلاء الشعراء المكيين لشاعرين من المدينة : خزرجى وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، وينشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً يمنيًّا يسلكه فيهم هو على بن محمد الصُّلَيحى مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة فى تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه فى القتال من مثل قوله [٣] .

---

(١) الخريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩/٣ وانظر العقد الثمين ١٥/٥

(٢) العقد الثمين ١٦/٥ . والمندل : عود الطيب .

(٣) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٢٢٥/٣ .

زَوَّجْتُ بِيضَ الهند سُمْرَ رماحهم   فرءوسُهم عِوَضَ النِّثارِ نِثارُ
وكذا العُلا لا يُسْتباح زواجُها   إلا بحيث تطلَّق الأعمارُ

والنثار ما ينثر على العروسين فى الزفاف من الدراهم والدنانير والورود ، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفراحاً ، نثارها رءوس خصومه التى تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا دائماً مهر العلا وصَداقها .

ويترك الباخرزى شعراء غربى الجزيرة إلى شرقيها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة بنى عُقَيل العامريين الذين أسسوها فى الموصل وبوادى نجد العراقية فى القرن الرابع الهجرى ، ويترجم الباخرزى لأمير منهم هو قِرْواش بن المقلَّد الذى ولى الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو خمسين عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفى فى سجنه ، كما مرَّ بنا ، بسنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون : «كان كريماً وهاباً نهاباً» وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه . من مثل قوله الذى أنشده الباخرزى :

لى أشقرٌ سَمْحُ العِنان مغاورٌ   يُعْطيك ما يُرضيك من مجهودِهِ
ومهنَّدٌ عَضْبٌ إذا جرَّدتَهُ   خِلْتَ البروقَ تموج فى تجريدِهِ
ومثقَّفٌ لَدْنُ السِّنان كأنما   أمُّ المنايا رُكِّبَتْ فى عوده
وبذا حويتُ المال إلا أننى   سلَّطتُ جودَ يدى على تبديدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو مما أنعم به عليه فرسه الذى لا يُشَقّ غباره فى الغارات ، وسيفه القاطع المسلول دائماً للنزال ورمحه الذى يفتك بالرجال ، وتلك أدوات جلبه للمال وسرعان ما تبدده يداه فى الناس . ويترجم الباخرزى لابن عم له يسمى أبا جوّنة ، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادى الحِلَّة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بنى مَزْيد الأسديين التى أسستها قبيلتهم بنو أسد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ويترجم لدُبَيْس بن على بن مَزْيد الذى ولى إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بنى خفاجة ، واستنجد به قرواش ضد الغُزّ حين أغاروا على بلاده ، فنَجدَه . وينشد له الباخرزى بيتين يدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة

ويأخذ الباخرزى بعد ذلك فى الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يبتدئهم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر ، ومما أنشده له فى كرم الضيافة الذى يشتهر به العرب من قديم قوله :

لا يرفع الضيفُ عيْناً فى منازلنا   إلا إلى ضاحكٍ منا ومبتسمِ

ويطيل الباخرزى فى الوقوف عند شاعر طائى ، هو أبو كامل تميم بن المفرجِ ، وفيه يقول : «كاملٌ» وبالكمال قد كُنِى ، وإذا وُصف تمام الفضل فتميم عُنِى ، وناهيك بذاك الألمعى» .

ويذكر الباخرزى أنه مدح الوزراء فى إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعد فى الرحلة حتى غَزْنة . ويلم ببعض مدائحه وخمرياته ، وينشد له أشعاراً فى الغزل تذوب رقة ، من مثل قوله :

ودِّعينا – إن كنت أزمعتِ – جارَه قبل أن يمنع الفراقُ الزيارَهْ
زوِّدِى وامقاً أجَدَّ ارتحالاً ما قَضَى فى مُقامه أوطارَهْ
لم يزل يَحْذَرُ التفرقَ حتَّى حققوا يوم رَامَتَيْنِ حِذارَه
كان يكفيه – والمحبُّ قَنوعٌ – وَقْفَةٌ أو تحيَّةٌ أو إشاره
كاعبٌ فى الحِجال يمنعها الزَّوْ رَ حَياءٌ يصونها وغَـرَارَهْ
ذاتُ ثَغْرٍ كأنه حين يبدو عِقْدُ دُرٍّ أو أُقْحُوان قَراره

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحمة أوثق التحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ، بل شطراً ، أحسسنا بجمال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقرابة ، وما أجمل قوله : «والمحب قنوع» فأى شيء يقنعه : وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد . وقد عبَّر عن حجابها وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها فى الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها وخجلها . والمعانى رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر وامق يعبِّر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد والصبابة دون أى أثر للحب الحسى المادى وأدْرَانه ، بل هو حب عذرى طاهر يخلو من كل إثم ووزْرٍ سوى اللوعة . ويترجم الباخرزى لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث هَمْدانى يسمى المنيع ، وينشد له قطعة غزلية فى ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ، وفيها يقول :

كأنَّ ذُؤابَةَ فى القَزِّ تمشى رِبيبُ مَهاً تَرَدَّى بالظِّلالِ

وهى صورة بديعة ، إذ يصور صاحبته وثوبها المفهاف بمهاة فى يوم قيظ شديد الحرارة ، وقد أوت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حمارَّة القيظ . ويمضى الباخرزى ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامرى يسمى قيساً ، وكأنما يعيد لنا ذكرى قيس مجنون ليلى ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبته ومعاهدها من مثل قوله :

قِفا صاحبىَّ قليلاً عَلَيَّا ولا تُعْجِلانىَ يا صاحبيَّا
وعُوجا علىَ طَلَلٍ داثرٍ لِرَيَّا وأين من العين ريَّا
معاهدُ لم يُبْقِ صَرْفُ الزما ن منها ومنّىَ إلا شُوَيَّا

«وشُوَيَّا» تصغير شيء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما نستعملها فى عاميتنا المصرية ، وكأن لها أصلاً صحيحاً فى العربية ، والأبيات تفيض بالوجد والحنين . ويترجم الباخرزى لشاعر شيبانى

من مدّاح نظام الملك الوزير السلجوقى ولشاعر من بنى عِجْل من شيبان من مدّاحه أيضاً ، ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعهما الباخرزى بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف وقفة طويلة عند شاعر من اليمامة يسمى على بن الأزهر ، ويقول : «ومما سحر لُبِّى من لُبّ كلامه قوله :

دِيارَهمُ بالرَّقْمَتين سُقِيتِ سَحاباً من الوَسْمِىّ ثم وُلِيتِ (١)
وما لكِ فى رِىّ السحائب حاجةٌ فقد طالما من مُقْلتىّ رَوِيتِ
وكم قد سَبَتْنى فيكِ من ذات بُرْقُعٍ بأحسن عينٍ للمهَاة وِليتِ (٢)
أيا بأبى الفَوْرانِ طُنِّبتِ فيهما وأرضٌ من الفَوْرين كنتِ وطيتِ (٣)
وماءٌ حللتيه وإن كان آجناً وروضٌ رعيتِ العُشْبَ فيه رُعيتِ

والصورة فى البيت الثانى بديعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسُّقيا ، أنها ليست فى حاجة إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه ، وقد سبته صاحبته بعينيها وصفحة جيدها . ويذكر فى البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان باليمامة كثيراً ما التقيا فيهما ، ويهتف مفديا الأرض التى وطئتها قدماها وكل مامرت به أو نزلت عنده من مياه ورياض . وفى البيت الخامس يشبع الكسرة فى كلمة «حللتِه» فتمتد تاء التأنيث على نحو ما تمتد فى عاميتنا المصرية . والكلمات محبوكة ، وكل بيت يستدعى ما يليه فى سلاسة وعذوبة ، ويستطيب الماء الذى حلت به وإن كان آجناً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخرزى : «ما أحسن ما جمع بين قوله : «رعيت العشب» على الإخبار و«رُعيت» على الدعاء» . ويستعجل الشاعر الركب معه فى السير ، وينشأ بينه وبين صاحبته حوار طريف على هذا النمط :

فقلت لهم سيروا ولا تتروَّحوا فليس لنا وادى الغَضا بمبيتِ
فقالتْ : ولِمْ أمسيتَ تطوى بلادنا فقلتُ أمرتِينى غداةَ نَهيتِ
وقد كنتِ لا تَرْضِينَ منهم بما أرى من الضَّيْم لى فاليومَ كيف رَضيتِ
وأقسمتِ أن لا تَقْبلى قولَ كاشحٍ كذوبٍ فكم أقسمتِ ثم نَسيتِ

والحوار مع صاحبته طبيعى ، ولكل بيت رقته وعذوبته ودقته ، فلم يعد الغضا مبيتاً صالحاً لها ، وقد أمرته بالمسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضيم والهوان فرضيت ، وكم أقسمت له وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشح كاذب ، ولم يقل لها – كما لاحظ الباخرزى – نقضت

---

(١) الرقمة : جانب الوادى والروضة . الوسمى : أول مطر الربيع .
(٢) الليت : صفحة العنق .
(٣) طنبت : أقمت . وطيت : سرت فيها .

العهد وحنثت فى يمينك ، بل قال لها متلطفاً « نسيت » القسم والعهد بل الأقسام والعهود . وهو لطف ورقة حسٍّ ما بعدها رقة ، ويترجم الباخرزى بعده لشاعر بدوى نجدى يسمى على بن حسان ، وينشد له قوله :

سَقْياً لأيام التصابِى مع كلِّ خَرْعَبَةٍ كَعَابِ (١)
إذ نحن نَرْتَعُ فى الهوى ونجُرُّ أرديةَ الشَّبابِ
والدَّهرُ عنا غافلٌ كالسيف يُوْمَنُ فى القِرابِ

والأبيات سلسة سائغة . والصور والأخيلة فيها طريفة ، وخاصة الصورة الأخيرة التى صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخيفهم ولا يرهبهم ، فالسيف فى غمده ، والدهر بهمومه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . وينشد له الباخرزى من قصيدة قافية :

وحقَّ لى وَجْدى على شادنٍ أدقُّ جِسْمِى منه خَصْرٌ دقيقْ
وشاهدٌ يشهد فى خَدِّهِ أن ليس فى الحسن لهذا رفيقْ
فكلما عـــــذَّبنى هَجْرُهُ صحتُ من الوَجْد الحريقَ الحريق

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نحولاً وضَنىً ، وما أجمل البيت الثانى الذى جعل فيه من الخدِّ شاهدا يشهد بحسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى فؤاده ويلذعه ، وكأنه جمرات نار يصلى بها قلبه بل يحترق ، وهو ينادى ، الحريق الحريق . ويترجم الباخرزى بعده لشاعر أسدى من شعراء المديح ولمغنية بدوية تسمى أم كلثوم .

وإنما أطلنا عرض شعراء البدو فى الدُّمْية لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة فى الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادى كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العماد الأصبهانى وزير صلاح الدين الأيوبى وشاعره الذى عُنِى مثل الباخرزى بالترجمة لشعر العالم العربى جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً فى خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عُقَيْل أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم فى قسم الشام والجزيرة ، وكذلك ما ذكره من شعراء بنى مزيد الأسديين أصحاب الحِلَّة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن فى القسم الخاص بالشام ، أو قل ألحقهم به ، ولم يعن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعَدّ المصدر العام الثانى بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنفه فى مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرِّح بذلك مراراً فى تضاعيفه .

---

(١) الخرعبة : الشابة الحسنة

ولم يذكر العماد لبنى عُقَيل أصحاب الموصل وبوادى الجزيرة سوى مسلم [١] بن قريش ابن أخى قِرْواش الذى مرّ ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومضر فى نجْد . وملك حلب من بنى مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائيا ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعدلها ، وعمَّ الأمن دياره ، وكان يصرف الجزية فى جميع بلاده إلى الطالبيين من أبناء على بن أبى طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، ومما يدل على ذلك أن قرواشاً عمه خطب فى بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حُكَّام بغداد السلاجقة . وعُنِى هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يجزل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حَيّوس شاعر الشام وأنشده مدائحه فيه بالغ فى إكرامه . ويقول العماد الأصبهانى إنه أقطعه الموصل ، غير أن ابن حيوس لم يلبث أن توفى ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحُمل ذلك إلى خزانة مسلم فردَّه ، وقال : لا يَتحدَّث الناس عنى أننى أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرهت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاه بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه من أهل قرية المعرَّة رعيتك ، فقال : أَوْصوا به الوالى ليحسن إليه ، وحذِّروه أن يجنى عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكاية من والينا ما قال هذا القول [٢] . وفى ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورصفه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدى أمير بَوادى الحِلَّة وأنشد له العماد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشد له شعراً شيعيًّا ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية . ويُرْوَى له [٣] :

وما كنتُ مِجْزاعَ الفؤاد وإنما … فؤادى على بَيْنِ الحبيب جَزُوعُ
وكانتْ سُلَيْمى للمحبين رَوْضَةً … ووَصْلُ سُلَيْمى روضةٌ وربيعُ

والصورة فى البيت الثانى بديعة وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله فى ذلك مهوِّنا من أهل عصره ومصغِّراً :

وإنى لأَحْقِر هذا الزمانَ … ولا سيما أهل هذا الزَمَنْ
يريدون نَيْلَ العلا بالمُنَى … ونَيْلُ العُلا برغيبِ الثَّمَنْ

وكانت وقفة العماد عند بنى مَزْيد الأسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة

(١) انظر فى ترجمة مسلم الخريدة (قسم الشام) ٢/٢٥٥ وابن خلكان ٥/٢٦٧ والنجوم الزاهرة ٥/١١٩ .

(٢) الخريدة قسم الشام ٢/١٢٨ .

(٣) انظر فى هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريدة فى ترجمة مسلم نقلا عن الوافى للصفدى .

منصور [١] بن دُبَيْس الذى خلف أباه على رياسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيليًّا رافضيًّا مثل آبائه ، وله – كما ذكرنا آنفاً – مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رياسة قبيلته الأسدية حتى توفى سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبيا فى بيئتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يجيد الشعر وله فى رثاء صاحب له يُكْنى أبا مالك :

فإن كان أُوْدَى خِدْنُنا ونديمنا ... أبو مالكٍ فالنائباتُ تنوبُ
وكلُّ ابنِ أُنثى لا محالة ميِّتٌ ... وفى كلِّ حَيٍّ للمَنُون نصيبُ
ولو ردَّ حُزْنٌ أوبكاءٌ لهالكٍ ... بكيناه ما هبَّتْ صَباً وجَنُوبُ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة [٢] ، وهو الذى بنى مدينة الحِلَّة لقبيلته ، كى تنتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العماد : «كان جليل القدر ، جميل الذكر . . له دار الضيافة التى ينفق عليها الأموال الألوف . .المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف» وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهَبَّاريَّة – كما مرَّ بنا – كتابه «الصادح والباغم» الذى نظمه فى عشر سنوات على غرار كليلة ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوقى سنة ٥٠١ وقُتل فى المعركة ، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين فى الرَّىِّ خبر موته قال : مات أجلُّ صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً فى رعيته ، كما كان محسناً للآداب حافظاً أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العماد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإصغاء وجزيل العطاء» وكان يرتب لهم سنويا مكافآت ، كل حسب طبقته . واستطاع ابنه دُبَيس [٣] أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرَّق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودى السلجوقى صبرا سنة ٥٢٩ وهو الذى يشير إليه الحريرى – كما مرَّ بنا – فى مقامته «العُمانية» واصفاً كيف أقبل الناس يثنون على أبى زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : «حتى كأنه الأسدى دُبيس» فى إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنشد له العماد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ علىِّ بن أبى طالبٍ ... للنـاس مقيـاسٌ ومِعْيـارُ
يُخْرِج ما فى أصلهم مثلما ... تُخرج غِشَّ الذهب النارُ

---

(١) ترجمته فى الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٥٧ وابن خلكان ٢/٤٩١ والنجوم الزاهرة ٥/١٢٢ .

(٢) انظر فى صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٦٣ وابن خلكان ٢/٤٩٠ والنجوم الزاهرة ٥/١٩٦ .

(٣) راجعه فى الخريدة ٤/١/١٧٠ والمنتظم ١٠/٥٢ وابن خلكان ٢/٢٦٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢٥٦ .

ولم يستقم لآل مزيد بعد دُبَيس سلطان ، وأبدلت العزة بالذلة ، كما يقول العماد . ويترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحِلّة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفى سنة ٥٣٠ وروى له العماد أشعاراً يحنُّ فيها إلى الحِلّةِ باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أو شيعية ، أو يذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذى قصَد الحجيجُ على بُزْلٍ وما يَقْطَعْنَ من جَدَدٍ (٢)
لاكنتُ بالراضى بمنقصةٍ يوماً وإلا لستُ من أسَدِ
لأُقَلْقِلَنَّ العِيسَ دامِيَةَ الـ أخفاف من بلدٍ إلى بلدِ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه . ولا يلقانا بعده شاعر لبنى مزيد فى الحلة ، وأغلب الظن أن قبيلة بنى أسد عادت أو عاد معظمها إلى البوادى ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاء بنى مزيد وانتقاض سلطانهم .

ويترجم العماد لشعراء الحجاز وتِهامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تهامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكر بن أبى الفتوح ، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخرزى . وتلاه بترجمة لجعفر (٤) بن محمد بن إسماعيل الحسنى ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرفدهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعانى إنه كانت فى رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً فى علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألمَّ بواسط والبصرة فى سنة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم للمسير إلى بلاد فارس ، وأنشد له العماد قطعتين : حائية ولامية ، ومن قوله فى أولاهما :

أما لظلام لَيْلِى من صباحٍ أما للنجم فيه من بَراحٍ
كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ فليس يُرْجَى له نَهْجٌ إلى كل النواحى
كأنَّ الصبحَ منفىٌّ طريدٌ كأن الليلَ بات صريعَ راحٍ

ويتلوه العماد بأبى عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدى الحجازى ، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز ، وإنه لقى أبا الحسن التِّهامى شاعر مكة المشهور فى صباه ، ويبدو أنه عُمِّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفى سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزنه ، وينسب له البيتان المشهوران :

---

(١) الخريدة ٤/١/١٧٧ وابن خلكان ٢/ ٢٦٤ .
(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوى المتين ، والجدد : الأرض المستوية .
(٣) العيس : الإبل .
(٤) انظر ترجمته فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٠ والعقد الثمين ٣/ ٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطى ١/ ٢٦٦ .
(٥) انظره فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣ والوافى بالوفيات للصفدى ١/ ٣٥٦ والعقد الثمين ٣/ ٣٩٨ والمنتظم لابن الجوزى ٩/ ١٥٣ .

قلت : ثَقَّلتُ إذ أتيتُ مراراً قال : ثقّلتَ كاهلى بالأيادى
قلت : طوّلتُ قال : لا بل تطوّلْ ـتَ . وأبرمتُ قال : حبْلَ الودادِ

وتداول البيتين كتب البلاغة . إذ يصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب . وهو توجيه الكلام فى الحوار وجهة طريفة . تنفى ظاهره المراد . ويترجم العماد عقبه لشاعر يسمى أبابكر(١) محمد بن عتيق السَّوارِقىّ الذى توفى بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العماد أشعاراً منها قوله :

أيا ساكنى نَجْدٍ سلامٌ عليكمٍ وإن كنت لا أرجو إيابا إليكمْ
وإن كان جسمى فى خُراسانَ ثاوياً فقلبى بنَجْدٍ لا يزال لديكم

ويترجم العماد بعده لشاعر من خُدَّام سُدَّة المصطفى ﷺ يسمى كافوراً النبوى . ويقول إنه رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل فى رحلته حتى بُخارى ، وينشد له العماد بعض شعره ، ثم يترجم لشريف سليمانى هو عَلِىّ(٢) بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على المخلاف السليمانى وقتله أخوه أبو غانم يحيى ، ففرّ ابنه على إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول العماد : «وله تصانيف مفيدة وقريحته فى النظم والنثر مجيدة» ويقول القفطى : «لما نزل الزمخشرى مكة وجد بها الشريف على بن عيسى بن حمزة الحسنى فعرف قدره ، ورفع أمره وتتلمذ عليه ، ونشَّطه لتصنيف ما صنَّف» وقد ألف له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه يقول على مادحاً ومنوِّهاً :

جميعُ قُرَى الدنيا سوى القرية التى تبوَّأها داراً فِداءُ زَمَخْشَرَا
وأحْرِ بأن تُزْهَى زمخشرٌ بامرئٍ إذا عُدَّ فى أُسْدِ الشَّرَى زَمَخ الشَّرا(٣)

وينشد له العماد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة ويعرف أساليبها السويَّة المونقة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإباءه الضيم ومروءته ، ومن قوله فى رثاء بعض آبائه :

غاضَ النَّميرُ العَذْبُ يا وارداً وحَالَ عن عهدِكَ ذاك الزُّلالْ

ويترجم العماد عقبه لابن عم له يسمى دَهْمش(٤) بن وَهَّاس ، يظهر أنه فارق المخلاف السليمانى مثله وأقام بمكة ، فترجم له العماد بين أبنائها ، ويقول إنه وفد على صلاح الدين فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٦ .

(٢) راجع ترجمته فى الخريدة (قسم الشام ٣/٣٢ والعقد الثمين ٦/٢١٧ . ومادة زمخشر فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) الشرى : مأسدة . زمخ : ترفع عليا وتكبر .

(٤) راجعه فى الخريدة (قسم الشام) ٣/٣٥ والعقد الثمين ٤/٣٦١ .

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، ثم يتلوه بابن الريحانى (١) على بن الحسن المكى الذى وفد على صلاح الدين فى سنة سبعين ، ويذكر له قطعة فى مدح أمير المدينة قاسم الحسينى ، وفيه يقول :

سمَا بكرامٍ من ذؤابةِ هاشمٍ غطاريفَ صِيدٍ ماجدين جَحَاجِحِ

ويلقانا بعد ذلك فى مكة القائد سالم بن أبى سليمان ، وهو مَغربىُّ الأصل ، وينشد له العماد قصيدة فى المديح لعيسى بن فُلَيْتة أمير مكة ، تزخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها فى موضع آخر ، حين نتحدث فى الفصل التالى عن شعر العقيدة الزيدية . و ينتقل العماد من شعراء الحجاز إلى شعراء اليمن ، ويترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم يصورون ما بَثَّتْ دويلات اليمن من نهضة شعرية فى بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدويلات شاعراً ، وترجم العماد لأربعة منهم ، هم على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام زَبيد وحاتم بن أحمد الهمدانى أمير صنعاء والمهدى بن على بن مهدى أمير زَبيد الذى قضى على دولة آل نجاح . ومر بنا حديث عن الصليحى عند الباخرزى ، وكان جياش شاعراً مجيداً ، ويروى أن ابن القِمِّ شاعر اليمن فى عصره أرسل إليه عاتباً (٢) .

يأيها الملكُ الذى خَرَّتْ له غُلْبُ الملوكِ نواكسَ الأذقانِ
أترى الذى وَسِع الخلائقَ كلَّها يابنَ النصيرِ يضيقُ عن إنسانِ

فأجابه جياش :

لا ، والذى أرْسَى الجبالَ قواعداً ذى القُوَّةِ الباقى ، وكلٌّ فانِ
ما إن يضيق بِرَحْبِنا لك منزلٌ ولو انَّه فى باطنِ الأجفانِ

ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بنى زُريع والأمراء الزيديين وأئمتهم . وممن ترجم له العماد من شعراء الصُّلَيْحيين ابن القِمِّ وعمارة اليمنى وسنخص كلا منهما بكلمة فى حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر إسماعيلى ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الهيثمى شاعر الداعى على بن محمد الصليحى . ومعروف أن آل زُرَيْع حكام عدن خلفوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت الملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلهم وأموالهم ، كما صاروا هم القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ويترجم العماد لشاعرهم أبى بكر العَيْذِىّ وسنخصه بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زَبيد ودولة آل نجاح كثيرون ، وعلى رأسهم جياش كما

---

(١) انظره فى الخريدة (قسم الشام) ٣/٣٢ والعقد الثمين ٦/١٤٩ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٢٤ .

أسلفنا ، وله فضل تخليد أسمائهم فى كتابه «المفيد فى أخبار زبيد» والكتاب مفقود ، غير أن عمارة اليمنى كتب له مختصراً كما مرَّ بنا وهو الذى رجع إليه العماد فى الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زَكَرِىَّ [1] بن شكيل وله مدائح بديعة فى جياش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْقِنِى الرَّاحَ إنها تجلبُ الرَّوْ حَ وريحانَها إلى الأرواحِ
بَزَلوها فامتَدَّ منها لجوِّ اللَّـ ـيْلِ نورٌ أغنى عن المصباحِ [2]
ما يُزيل الهمومَ مثلُ اصطباحٍ فى صبَاحٍ لدى وجوهٍ صِباحِ
إذ ترى الدِّيكَ كالبَعير ، وكالأرْ ضِ السمواتِ ، أو فإنك صاحِ
وَارْعَ عينيك فى عيونٍ من الزَّهـ ـرِ جلاها نَوْرٌ كنوْرِ الأقاحى
شفتاها نُقْلِى وماءُ ثنايا ها عُقَارى وخدُّها تُفَّاحى [3]
هذه الجنَّةُ التى وعد اللَّـ ـهُ وما عَنْ نعيمها من بَراحِ

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابكين فى الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرها أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخمر فى البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظير فى البيتين الخامس والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحى ، كما قرن الشفاه والرضاب والخدود إلى النُّقل من الفستق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً فى الخيال . ويلقانا بعده من شعراء آل نجاح القاضى العثمانى [4] ، وله فى الصليحى حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتماجن فيهما ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أرنبا ، وأما الثانية فيستوفى فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهى عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متماجناً :

قم فاسْقِنِى بالكأس من تلك التى أهلُ النُّهَى فى وَصْفها قد حاروا
واشربْ ولا يلحقْك خَوْفُ عقوبةٍ فيها فربُّ حِسابِها غفَّارُ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جياش ، وأهم من ترجمته ترجماته لبنى أبى عَقَامةَ قضاة زبيد فى عهد آل نجاح ، وفى مقدمتهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أبى عَقَامة

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢١٨ .

(٢) بزل الدن : ثقبه .

(٣) العقار : الخمر . النقل : مايرافق الشراب من المشهيات .

(٤) انظر الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣١ ولعله الشريف العثمانى المذكور فى طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧

الحفائلى [١] الذى قتله على بن مهدى حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له العماد أشعاراً رائعة ، منها قوله فى مديح قوم راحلين :

للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارُ ... وللعُلا نحوكم حاجٌ وأوطارُ
تشتاقكم. كلُّ أرضٍ تنزلون بها ... كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ
فحيث كنتم فثغر الرَّوض مبتسمٌ ... وأين سِرتُم فدَمْع المُزْن مِدْرارُ
لله قومٌ إذا حلُّوا بمنزلةٍ ... حَلَّ النَّدَى وبسير الجود إن ساروا
لا يَعْجب الناسُ منكم فى مسيركمُ ... كذلك الفَلَكُ العُلْوىُّ دوَّارُ
والبَدْرُ مذ صِيغَ لا يَرْضَى بمنزلةٍ ... فيها بجُمٍّ فَهْو الدَّهْرَ سيَّار

وهو مديح رائع ، فالمجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للعلا منهم أمانىُّ موصولة ، وكل أرض تشتاقهم وتتلهف عليهم ، كأنهم غيث جَذْبها المُمْحل ، وكل مكان ينزلون يصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شمائلهم وكرمهم الذى يتبعهم أينما حلوا وساروا . وتصويره فى البيتين الأخيرين لهم فى رحيلهم بالفلك الدوار والبدر السيار تصوير دقيق بارع . ومن شعره فى الحداثة قوله يصف روضة :

وروضةٍ مارأى الراءون مُشْبِهَها ... كأنما سُرِقَتْ سِرًّا من الزمَنِ
غَيْمٌ وظِلٌّ وروضٌ مونقٌ وهوًى ... يجرى من الروح مَجْرَى الروح فى البدنِ
غَنَّتْ بها الطَّيْرُ ألحاناً وساعدها ... رَقْصُ الغصون على إيقاعها الحسنِ
لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائرةٌ ... فيها ولا نغمات العود فى أُذنى

وتصوير فتنته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدرى لما يرى فيها من اجتماع جمال الطبيعة وجمال صاحبته التى تأسر لبه ، ويتخيل الروض كله من حوله يتغنى ويرقص ، تتغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحس فتنة وجمالاً ، حتى لكأنما هو فى مشهد غناء ورقص حقيقى . وكل شىء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم العماد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدى ، سنعرض له فى حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجى من شعراء على بن مهدى هو ابن الهَبِّيِّيِّ ، وسنلم به فى حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لنشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عنيف بأصوله اليمنية ، وسنتحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن فى الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

---

(١) راجع فى ترجمة محمد بن أبى عقامة الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٤٠ . وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٠ .

أو دون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر فى أخبار زبيد لعمارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الخريدة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائهما حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء ممن جاوروا بمكة كثيرون ، وبه مكيُّون ، ولدوا فى مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية فى حكام مكة وأمرائها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية فى هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو فى المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . ويلى هذا المصدر فى الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم فى مكة لأكثر من ثلاثين شاعرا من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمراء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين النابهين ويلاحظ ذلك ابن معصوم فى غير موضع من كتابه، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ . وتكثر فى أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً ونجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوبيت . ويلقانا بعض شعراء الحجاز فى كتاب ريحانة الألبا للخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذيلا له المحبى سماه نفحة الريحانة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرتى ، ففيهما بعض تراجم لمكيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بَعْد من ترجم لهم العماد فى خريدته وجدنا توران شاه الأيوبى يفتتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفى مقدمتهم أبو بكر العيْدى شاعر دولة الزُّرَيْعيين . ويتولاها بعده أمراء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفى مقدمتهم أبو الغنائم الشيزرى ، ولخزانته وباسمه ألف فى اليمن كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، وختم كل كتاب ببعض أشعاره فى مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود فى سنة ٦٢٥ وأناب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتهز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بنى رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجى تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهى السنة التى توفى فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه فى مجلدين ، وهو كما قلنا فى غير هذا الموضع تاريخ حضارى وسياسى وأدبى ، إذ عُنى بوصف احتفالات الرسوليين وبأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظم فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمر بن على بن رسول الذى تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذى لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائحه ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيمل وأضرابهما ، وبالمثل من خلفهما من السلاطين . ويلقانا بعد الخزرجى وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّيبع وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغورى ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفى رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّيبع :

أخلاَّى ضاع الدِّينُ من بعد عامرٍ   وبعد أخيه أعدلِ الناسِ بالناسِ

وينزلها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظلون بها نحو قرن . وتتحول اليمن إلى الزَّيديين أصحاب صَعْدة ، وينزلها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥ هـ /١٨٤٩ م ويظلون بها حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م . وكل المصادر العامة التى ذكرناها للشعراء فى الحجاز تفرد فصولاً طويلة لشعراء اليمن ، ومرّ بنا ذكر كتاب «نسمة السحر فيمن تشيع وشعر» وهو كتاب نفيس غير أنه لم يطبع . ومن الكتب التى تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء فى اليمن كتاب سلافة العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحبى وكتاب البدر الطالع للشوكانى وكتاب نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لابن زبارة الصنعانى وكتاب المخلاف السليمانى لمحمد بن أحمد العقيلى ، وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ، غير الدواوين المطبوعة مثل ديوان ابن هُتَيْمَل وديوان البرعى وديوان مدائح إلهية لمحمد بن إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعانى محمد بن إسماعيل .

ولحضرموت نشاط شعرى غزير . وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف كتاباً من ثلاثة أجزاء فى تاريخ الشعراء الحضرميين ، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر الذى نؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعراً ، ويقول فى مقدمته : «ولا أكتم أن شعراء حضرموت ليسوا فى رتبة المجيدين من الشعراء ولا المفلقين . . ولما كانت حضرموت تسودها الروح الصوفية والنزعة الفقهية فإنك ترى على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية ، ومع هذا

الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً .

ولعل السيد السقاف بالغ فى حكمه حين جعله عاما ، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهين يمكن أن يُعَدّوا فى رتبة المجيدين ، مثل أبى بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين فى الجزيرة العربية لهذا العصر بعامة وسنترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضى الخارجي فى حضرموت ، ومن أهمهم أبو إسحق الهمدانى وسنترجم له فى الحديث عن شعراء الإباضية .

ولم يكن للشعر فى عمان هذا النشاط جميعه الذى رأيناه فى حضرموت ، ولكن لا ريب فى أن الشعراء كانوا كثيرين فى هذا الإقليم كثرتهم فى الأقاليم الأخرى ، وممن يلقانا منهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى أبو على أبزون المجوسى الملقب بالكافى العمانى ، وقد ترجم له الباخرزى فى دمية القصر (١) ، وأنشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله :

وصَحْراء ردَّتْها الظِّباء حَفائراً بأظلافها أُحْبِبْ بها من حَفائِرِ
فهبَّتْ رياحٌ للصَّبا فملأْنها بمسكٍ فعادتْ نُزْهةً للنواظِرِ

وقد عُنِى نور الدين السالمى فى كتابه تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج فى نزوى شعراؤهم وأيضاً للدول السُّنّيّة حين كانت قائمة فى عمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر غنى بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصى الستالى وسنترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخرة من زمنها شاعر هو سليمان النبهانى ، وسنترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج الحبسى شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضى (١١٠٤ - ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذى خلف الإمام السابق ، ومن شعره (٢) :

ولما بلوتُ الناسَ لم أر صاحباً أخا ثقةٍ فى النائبات العظائم

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلّصوها من أيدى اليعاربة سنة ١١٥٤ هـ وظلوا فى دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله يتغزل (٣) :

---

(١) دمية القصر ١/٩٨ . إطفيش الجزائرى ٢/٩٣ .
(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم (٣) التحفة ٢/١٦٦ .

يا من هواه أعزّه وأذلّنى ... كيف السبيلُ إلى وصالك دُلّنى
وتركتَنى حيرانَ صَبًّا هائماً ... أرْعَى النجوم وأنت فى نوم هَنى
عاهدتَنى أن لا تَميل عن الهَوَى ... وحلفتَ لى يا غُصْنُ أن لا تنثنى
جادَ الزمانُ وأنت ما واصَلْتنى ... يا باخلاً بالوصل أنت قتلتنى
واصلتنى حتى ملكتَ حُشَاشتى ... ورجعتَ من بعد الوصال هجرتنى
لما ملكتَ قِياد سِرِّىَ بالهوى ... وعلمت أنى عاشق لك خُنْتَنى

والأبيات جيدة والألفاظ فيها تتعانق فى خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة الغُصْنِ بانثنائه كناية عن جفاء صاحبته وإقبالها على غيره . وهو يأسى لنفسه أنها هجرته بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثّر فى شباك حبّها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً فى عهد البوسعيديين ويلقانا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفى سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشعراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من نلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذى ولى أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومرَّ بنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إنى امرؤ ليس من شأنى ولا أربى ... طَبْلٌ يَرِنُّ ولا ناىٌ ولا عودُ
ولا اعتكافٌ على خَمْرٍ ومَخْمَرةٍ ... وذات دَلٍّ لها بالدَّلِّ تأويدُ(١)

وتوفى بالرملة فى فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر (٢) بن أبى الفتح كشاجم كاتباً بين يديه ، وكان شاعراً محسناً ، وأنشد له الثعالبى فى اليتيمة طائفة من أشعاره فى الأطعمة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله فى وصف كتاب :

وصاحبٍ مؤنسٍ إذا حَضَرا ... جـالَسَنى بـالملوك والكُبَرا
جسمٌ مَوَاتٌ تَحْيَا النفوسُ به ... يَجِلُّ معنى وإن دَنَا خَطَرا
أخلَّ منه فى مجلسٍ حَفِلٍ ... بالناس طُرًّا ولا أرى بشرَا

وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخلفهم بنو الأصفر ، ولا يظلون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيونى منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علميا وأدبيا ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو على بن مقرّب العيونى ، وسنترجم له بين شعراء المديح . ويخلف

---

(١) تأويد : انعطاف . وانظر فى الأعصم وشعره ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٨/ ٦١٤ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته فى اليتيمة ١/ ٢٨٥ .

العيونيين – كما مرّ بنا – بنو عصفور وبنو جبر العقيليون ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد فى سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون فى سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر فى كتب التراجم الأدبية التى ذكرناها فى حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة فى «سلافة العصر» و «نفحة الريحانة» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظلون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعوديون فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، ومن الكتب التى تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو ، وقد أنشد شعراً كثيراً من منظومات لهم نحوية وفقهية . ومن الشعراء فى أواخر العصر على نقى الأحسانى وهو شيعى إمامى وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة فى العقيدة الإمامية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى جميع أقاليم الجزيرة ، وقد عرض الباخرزى فى دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد فى الوزير نظام الملك السلجوقى ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذى غمر الشعراء بجوائزه وعطاياه ، ولهُذّاب بن دَهْثَم الشيبانى من قصيدة فى مديحه[١] :

ما خلق الله تعالى وجَلّْ مثلَ وزيرِ الوزراء الأجَلّْ
أروعُ كالنَّصْلِ ولكنَّهُ أمضى من النَّصْلِ إذا ما يُسَلّْ

وقد بعث بنو عُقَيْل فى الموصل وبواديها حركة أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يدبجون القصائد فى مديحهم ، وقصدهم الشعراء من العراق والشام ، وفى مقدمتهم أبو على بن الشِّبْل البغدادى مادح قِرْواش والمشيد بنصره على الغُزّ بمثل قوله[٢] :

نَزِهَتْ أرْضَكَ عن قبور جُسومهم فغدتْ قبورهمُ بطونَ الأنْسُرِ

ومن شعراء قِرْواش الطاهر[٣] الجزرى . وكان مسلم بن قريش – ابن أخيه – ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءوه من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم ابن حَيُّوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحه فيه أن أقطعه – فيما قيل – الموصل على نحو ما مربنا فى غير هذا الموضع ، وله يقول من قصيدة طويلة[٤] :

(١) دمية القصر ١/٦٠ .
(٢) ابن خلكان ٥/٢٦٣ – ٢٦٤ .
(٣) انظره فى دمية القصر ١/١٢٦ .
(٤) خريدة القصر للعماد (قسم الشام) ٢/٢٥٧ .

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استجمعتْ   يَفْنَى الزمانُ وذكرُها لم يَهْرَمِ
كرماً يُبيح حِمَى الغِنَى ومآثِرًا   وُضُحاً تُبيح بلاغةً للمُفْحَمِ

ولم يكن بنو مَزْيد الأسديون فى الحِلَّة وبواديها أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بنى عُقَيْل فى الموصل وبواديه ، وكانوا قريبين من بغداد ، فكثر إلمام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزهم ، غير من كانوا يَنْشئون بينهم وفى مقدمتهم على[1] بن أفلح العَبْسى الشاعر ، ويقال إنه كتب بين يدى دُبيس بن مَزْيد فى شبيبته . وكان ابنه منصور ممدحا ، ومن مدّاحه البندنيجى[2] الشاعر البغدادى ، ومحمد[3] بن خليفة أبو عبد الله السِّنْبِسى ، وكان ابنه سيف الدولة صدقة مفزعاً للشعراء . وكان السنبسى شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ، ومن مدّاحه أيضاً المطاميرى[4] وأبو طاهر[5] البغدادى وابن أبى الجبر.[6] وممن زار الحِلَّة عاصمة المزيديين ومدح أمراءها الأبيوردى الشاعر الإيرانى المشهور. ويغمر نجدا وراء دولتى المزيديين والعقيليين الظل ، فلا نكاد نتبيَّن شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن عبد الوهاب وأصداؤها فى الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح فى سلافة العصر لابن معصوم و «نفحة الريحانة» وفى كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة فى مكة زيدية شيعية وفى المدينة إسماعيلية على الأقل فى الحقب الأولى وسنفرد لشعراء هاتين النحلتين فى الجزيرة دراسة خاصة فى الفصل التالى :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر ، وكان لتنافس الإمارات والدويلات الكثيرة فى أوائله أثر بعيد فى ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا دعاة لها ، وفى سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم فى العطاء ، وتلقانا فيه إمارة الزيديين فى صَعْدة ، وستحدث عن شعرائها فى الفصل التالى . وبالمثل إمارة الصُّلَيْحيين الإسماعيلية كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم فى الفصل التالى أيضاً . وقل ذلك نفسه فى إمارة بنى مهدى الخوارج فستحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُنيت بالشعر فى القرن الخامس إمارة آل نجاح فى زبيد ، وكان جياش (٤٨٢ – ٤٩٨ هـ) أهم أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه «المفيد» الذى مرَّ بنا

---

(١) انظره فى الخريدة القسم العراقى ٢/٥٢ .
(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩ .
(٤) الخريدة ، القسم العراقى ٢/١٩٥ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ .
(٦) نفس المصدر ٥٢٥/٢/٤ .

ذكره ، ويذكر عمارة فى المختصر الذى صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخم وعدة مجلدات تجمع نثراً ونظماً ، ومن أهم شعرائه زَكرِى بن شكيل المارّ ذكره ، وفيه يقول من مدحة طويلة[1] :

المُشتَرِى حُلَلَ الثناء بما حوتْ كفّاه والحامى لها أن تُشترى
والموقدُ النارين : ناراً للوَغى لا تنطفى أبداً وناراً لِلْقِرَا

وكان بنو زُرَيْع فى عدن مورداً عذباً للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى نفسه الداعى أى للمذهب الفاطمى ، ولذلك ستؤخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء المذهب الإسماعيلى فى اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تخلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن على بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبى بكر العَيْذِى يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول[2] .

أعساكراً سَيَّرتَها وجنوداً أم أنجُماً أطْلَعْتَهُنّ سُعودا
أم تلك ماضيةُ العزائم أُرهِفَتْ بالرأى منك وجُرِّدَتْ تجريداً
أم تلك أقدارُ الإله ونصره رفعتْ عليك لواءَها المعقودا

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزى وصنف له كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» كما مرّ ، وهو منتخبات شعرية ونثرية ، وكان شاعراً . ويؤسس نور الدين عمر بن على بن رسول منذ سنة ٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، ويبعث هو وأسرته فى اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من النهضة العلمية على نحو ما مرّبنا فى غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء فى الأعياد وفى المناسبات المختلفة حين ينتصر فى بعض المعارك ، وحين يفضى إلى بعض مجالس أنسه وشرابه ، ولأبى الغنائم الشيزرى فيه مديح[3] يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير عنده محمد[4] بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائحه من مثل قوله[5] :

قد قيل جاوزْ– لتَغْنَى – البحرَ أو ملكا أنتَ المليكُ وأنت البحرُ يا عمرُ
ما حاز ما حُزْتَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمٌ ما شاد ما شِدْتَ لاجِنٌّ ولا بشَرُ

---

(١) الخريدة قسم الشام ٣ / ٢١٩ .
(٢) تاريخ ثغر عدن لباغرمة ٢ / ٣٧ .
(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ٣٦ .
(٤) الخزرجى ١ / ١١٠ وفى مواضع متفرقة .
(٥) الخزرجى ١ / ٨٧ .

إذا الجدودُ بهم أبناؤهم شرُفوا أو فاخروا فبك الأجداد تفتخر
عَزُّوا بعِزِّك أولاهم وآخرُهم كما بأحمدَ عزّت كلها مُضَرُ

ويقول الخزرجي : كان ابن حمير أوحد شعراء عصره وقد توفى سنة ٦٥١ وبذلك لحق عصر المظفر الرسولى (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) . وشاعره غير مدافع القاسم بن هُتَيمل ، وسنخصه بكلمة ، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهلّ عليه عيد أو انتصر فى موقعة حربية أكثروا من مديحه وتهنئاته ، ومن المحقق أن كثيرين منهم كانوا يرددون معانى الشعراء العباسيين النابهين من أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبى ، ومن الطريف فى هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين – وهو ابن دَعَّاس – كان معاصروه من أهل زبيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون – متندرين عليه – إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى بابن دعاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقيه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر لفلان وهذا العجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . ويذكر له الخزرجي مدحة فى المظفر يصفها بأنها باهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله :

ليس فى قدرةٍ ولا إمكانِ نَيْلُ ما نلتَ يامليكَ الزمانِ

ويقول إنه لابن الحجاج البغدادى (١) ، ويعرض الخزرجي فى أثناء حديثه عن السلطان المؤيد (٦٩٦ – ٧٢١ هـ.) أسماء جماعة من شعرائه ومداِئحهم فيه ، وفى مقدمتهم العَنْسى والعفيف عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير (٢) :

ساد الملوكَ فلا تكون مثالَهُ أبدَ الزمان ولا يكونُ مثالَها
وحَوى الخلافَةَ لم تكُنْ إلا له طولَ الزمان ولم يكنْ إلا لها

ومن الرسوليين الممدَّحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨ – ٨٠٣ هـ.) ومن مُدَّاحه الخزرجي صاحب العقود اللؤلؤية ، وله فيه مدحتان أولاهما فى بيان (٣) ازدهار الدراسات الدينية التى أقامها السلطان الأشرف فى الجامع المبارك الأشرفى ، وقد مضى الخزرجي يسمى القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القُرّاء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب والجبر ، والثانية (٤) فى وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته وأمجاده . ونمضى إلى عصرينى طاهر غير أنهم لا يُعْنونَ بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعنى الرسوليون ، وبانتهاء دولتهم ، يُظِلُّ اليمن حكم الزيديين أصحاب صَعْدة ، وسنخصهم بحديث مستقل .

---

(١) الخزرجى ١/ ٢٨٣ .
(٢) الخزرجى ١/ ٣٣٤ .
(٣) الخزرجى ٢/ ٢٠٢ .
(٤) الخزرجى ٢/ ٢٣٦ .

وتكثر فى حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعى لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلئ كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوى فى شيخه محمد بن عبدالرحمن الأسقع [1] :

فقيهٌ شريفٌ حاز فَضْلاً ورفعةً   له نِسْبَةٌ تَعْلُو على كل نسبةِ

وأكبر الشعراء المدّاحين فى حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثير، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً فى عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السّتالى . وبالمثل كان الشعراء فى البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفى مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع على بن مقرب العيونى :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن فى بلدانهم فى حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هتّيمل اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصى السّتالى العُمانى وعلى بن مقرّب العيونى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمى .

القاسم بن هتّيمل [2]

هو القاسم بن على بن هتيمل أكبر شعراء اليمن فى القرن السابع الهجرى ، وهو من نَجْران بوادى ضِمَدْ فى المخلاف السليمانى وهى غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجّه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء المخلاف السليمانى وكانوا يتبعون الدولة الرَّسُولية ، كما وجهه إلى الرسوليين وأمرائهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين فى جهة صَنْعاء وصَعْدة . ولا تُعْرَف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد فى العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد فى أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً فى السلطان عمر بن على بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينما يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفى لزمنه إذ لا نجد له مديحاً فى أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢١ هـ) الذى استولى على صولجان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٤٤ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن هتيمل مقدمة تحقيق ديوانه لمحمد بن أحمد عيسى العقيلى . وانظر العقود اللؤلؤية للخزرجى فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان مطبوع بدار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

متجراً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعماله ، كما يمدح أمراء المخلاف السليمانى وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء ظَفار ، وأمراء قبائل حلى بن يعقوب ، ويروى أنه قال فى أميرهم أحمد بن على الحرامى الكنانى من مدحة طويلة :

إن الملوك بنو يعقوبَ قاطبةً قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سُوَقُ

والسوق جمع سوقة وهى الرعيَّة وبلغت المدحة سَمْعَ المظفر الرسولى ، فاستشاط غضباً حين سمع هذا البيت وطلب ابن هتيمل ليطير به طيرة بطيئاً سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده البيت حَنِقاً ، تخلَّص تخلصاً لطيفاً ، قائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت : «وكل ملوك غيرهم سُبق» فاستحسن تخلصه [١] ، وله فيه كثير من المدائح البديعة من مثل قوله

أغرُّ رسوليٌّ يَزُرُّ قميصَهُ على القمر التِّمِّ الخِضَمِّ الغَضَنْفَرِ
أعمّ سماحاً من سماحةِ حاتمٍ وأعظم بأساً من بَسالةِ عنترِ

وقوله [٢] :

هَدْىٌ كَهَدْىِ رسولِ الله مُتَّبَعٌ ما سار آلُ رسول الله فى السِّيَر
وعزمةٌ كلُّ حدٍّ من صَرامتها أمضى من الموت أو أمضى من القدَر
لو أن هَيْبته أو بعضَ هيبتِهِ تُلْقَى على الفلك الدوّار لم يَدُر

ونسيجه اللفظى متين قوى ، وكلماته تروق السمع بجرسها وبحسن انتقائها ، إذ كان يعرف كيف يصطفى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر . وممدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائحه [٣]

حفظ الله أحمداً حيثما كا نَ وجادتْه دِيمةٌ مِـدْرارُ
الشريفُ الشريفُ والجوهرُ الجو هر والخالص النُّضارِ النُّضارُ
سيِّدٌ أمُّه البَتولُ وجَدَّا هُ المُثَنَّى وأحمد المختارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء . والمثنى : الحسن بن الحسن بن على جد الممدوح وأحمد المختار الرسول ﷺ . وواضح ما فى لفظ ابن هتيمل من سهولة وعذوبة . وهو عادة يقدم لمدائحه بغزليات تسيل رقة وخفة . كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

---

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .
(٢) الخزرجى ١٠٩/١ .
(٣) الديوان ص ١٥٥ وشعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم ص ١٧٩ .

يا قضيباً من فضة يقطف النر جس من وجنتيه والجلنار
قرّ طوّقه الهلال ومن شمـ ـس الدياجى فى ساعديه سوار
عجباً منك تحت برقعك النا ر وفيه الجنّات والأزهار
والليالى الطوال تنحت من جسـ ـمىَ ما أبقت الليالى القصار

وبيّن ما يتضمن هذا الغزل من روعة التصاوير ، فالقد الرشيق لصاحبته قضيب أو غصن من فضة يقطف منه النرجس والجلنار إشارة إلى جمال عينيها وخدودها ، وقلادة الفضة تطوّق جيدها ، بينما نور الشمس يلتف حول ساعديها سواراً ، ويعجب أن تتوهج النار نار وجنتيها تحت برقعها بينما بجانبها الجنات من النرجس والجلنار والأزهار . وتطول به الليالى سهراً وسهاداً ، حتى لتُضنيه ، بل حتى كأنما تنحت جسمه ، مخلّفة له الألم والشحوب . ودائماً يلقانا هذا الغزل والنسيب الرائع فى مقدماته لمدائحه على شاكلة قوله فى استهلال مدحة ثانية لأحمد بن الحسين :

إذا جئتَ الغَضَا– ولك السلامَهْ فصارِحْ بالتحية رِيمَ رامَهْ (١)
وقل للوائلية هل لروحى وما أتلفتِ من جسدى غرامه
حَللتِ تهامةً وحللتُ نجداً فأينَ وأين نَجْدٌ من تِهامَهْ

وسارت القصيدة مسيرة أختها السابقة وعارضها كثير من الشعراء ، ولا ريب فى أنه كان يغنّى بها كما كان يغنى بأختها الرائية السالفة . ومن طريف نسيبه :

أراك تروحُ ما ودَّعتَ نَجْدا ولا أحدثتَ بالعَلَمَيْن عَهْدا
ولا صافحتَ أهل الرَّمْل كفًّا فكفًّا فيه أو خدًّا فخدًّا
ضلالٌ ما أتيتَ من التجافى ألا بُعْدًا لما أضمرتَ بُعْدا
وكيف سلوتَ عن أرضٍ بأرضٍ يَفُوحُ تُرابُها مِسكاً ونَدًّا (٢)

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، ويُرْوَى أن بعض الوجهاء فى اليمن جاءه طلب عاجل من أحد الأمراء بأن يفد عليه لأمر مهم ، وكانت زوجه اتخذت زينتها له أوشيئاً من زينتها ، فلما رأته يهم بالخروج تعرضت له منشدة قول ابن هتيمل .

أراك تروح ماودَّعتَ نَجْدَا ولا جَدَّدتَ بالعَلَمَيْن عَهْدا

فابتسم الزوج وأجّل زيارة الأمير (٣). وفى هذا الخبر ما يشير بوضوح إلى أن أهل اليمن رجالاً ونساء كانوا يتداولون شعرابن هُتَيمل فى حياته وبعد مماته . وكان المغنون يتغنون فى بعض

(١) الغضا : من شجر نجد وبواديها . الريم : الظباء . ورامة : موضع بنجد .
(٢) الند : عود يتطيب به ، طيب الرائحة .
(٣) مقدمة الديوان ص ٨ .

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تذبج من ثناء ومديح . وله مراثٍ لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة الممضة كقوله فى أخ وأخت له ماتا فى أسبوع واحد :

مضتْ ما ابيضَّت الصُّفِراتُ منها ... وماتَ وما بدا شَعَرُ العِذارِ
فأيُّهما على الخلوات أُبكى ... أبدرُ التِّمِّ أم شمسُ النهارِ

وفى الحق أن ابن هتيمل كان شاعراً مجيداً سواء فى مراثيه أو فى غزله ونسيبه أو فى مدائحه ، وهو فى المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حربية ، وخاصة حروب السلطان المظفر ، مما جعل الخزرجى ينشد كثيراً من أشعاره فى العقود اللؤلؤية .

أحمد بن سعيد الخروصىّ الستالىّ (١)

عُمانى من وادى خَروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفى هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت منتشرة فى كل ركن من أركان الجزيرة ، بل فى كل قرية ، ومثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان الناشئة يبدءون بحفظ القرآن ، ويقعدون فى حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشىء من التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولما شب الستالى عن الطوق غادر قريته إلى عُمان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء فى عصره . وحين أنس من نفسه تدبيج المدائح قصد بها حكام عمان السنيين من بنى نبهان ، وسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة ما كان بين بنى نبهان وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ، غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالى فى مديحه للأمير النبهانى كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك فى مديحه للأمير النبهانى عُمر بن نبهان بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نبهان وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسماؤهم فى مدائحه ومراثيه فى الديوان ، من ذلك قوله فى أبى القاسم على مادحاً ومهنئاً بالعيد :

أبا القاسمِ الميمونَ أوتيتَ فى الدُّنَى ... من الفضل ما لم يُؤتَ عُجْمٌ ولا عُرْبُ (٢)
لك الشِّيَمُ الغَرَّاءُ والهمم العُلا ... وأنتَ السِّنانُ الصَّدْقُ والمُرْهَفُ العَضْبُ (٣)
أبا القاسم اسْلَمْ وَابْقَ للمجد وادعاً ... وحَلَّ بشانيك المخافةُ والرُّعْبُ

(١) انظره فى تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمى ١ / ٣٠٣ وراجع مقدمة ديوانه .

(٢) الدُّنَى : جمع دنيا .

(٣) المرهف : السيف . العضب : القاطع .

وعِشْ سعيداً في علاءٍ ورفعةٍ وطول يدٍ مالاحتِ السَّبْعَةَ الشُّهْبُ (١)

وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكم كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أي نبوٍّ والتواء ، وله يمدح نبهان بن عمر من قصيدة طويلة :

أنبهانُ إنك من عصبةٍ نَماها إلى المجد قَحْطَانُها
همُ العين في يَعْرُبٍ كلُّها وأنت من العَيْن إنْسانُها
إذا طُلِبَتْ مكرُمات العلا بدا في جَبينك عُنْوانُها
فعشتَ وبُلِّغْتَ من سيِّدٍ مُنَـــاكَ وسرَّك لُقْيانها
ولازال يغدوك في نعمةٍ شبابُ الحياة ورَيْعانُها

والأبيات تصافح الآذان في خفة ، وهي تموج بالحركة ، وكأنما أعدَّها لكي تغنَّى وتملأ الحلوق بحلاوة رناتها ، وانظر إلى تكملة البيت الرابع : «وسرَّك لقيانها» فإنك تحس القدرة على تكملة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتي بها .

ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففي أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرقي تنزانيا ، ونراه يمدح سَبُخْت وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إذا أنت أبصرتَ في الدَّسْتِ سَبْخْـ ـتَ كالشمس أنكرتَ خلقَ العبادِ
سما بمعالٍ وفضلٍ كمالٍ وحُسْنِ فعالٍ وصَفْوِ اعتقادِ
جريءُ القتال غداةَ النِّزالِ ببيض النِّصال وسُمْرِ الصِّعادِ (٢)

ويكثر من تقديمه لمدائحه بالنسيب ، وهو — كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من التغزل بالأعرابيات ووصف جمالهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين يرحلن ، فتتبعهن الأفئدة ، من مثل قوله :

لمن الظعائنُ طُلَّعُ الأحْدَاجِ وقفتْ لشأنٍ وانثنتْ لمعاجِ (٣)
رفعوا هوادجَ كالسُّفين وكِلَّةً محفوفةً بالوشْيِ والدِّيبَاجِ (٤)
فيهن كلُّ معيدةٍ عُلَقَ الهوى بجمالها ودلالها الخَلاَّجِ (٥)

وهو يبدئ ويعيد في وصف هذا الترحال الذي يقف أسباب المودة والحب ، والذي

---

(١) السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .
(٢) الصعاد : جمع صعدة وهي القناة .
(٣) الأحداج : الهوادج . معاج : انعطاف
(٤) الكلة : ستارة الهودج .
(٥) علق : جمع علقة وهي التعلق . الخلاج : الخلاب .

يملأ قلوبَ العشاق فى البوادى فتنة وإغراء وصبابة ، ويذيبها أسى وحسرة ، فتذكر العهود والأطلال والربوع وأكناف الحمى ، وقد غابت الأقمار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين اليأس وتعمقهم الحزن . وقد يجعل الستالى المقدمة لقاء بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصَرْنَ الخُطا وهَزَزْنَ الغُصونا   وَرَقْرَقْنَ تحت النِّقاب العُيونا
ووشَّيْنَ بالتِّبر بيضَ التراقى   وغَشَّيْنَ سودَ الفروع المتونا
وأقبلن يَخْطِرْنَ مَشْىَ الهُوَيْنَى   ويُبْدين من كل حسنٍ فنونا
فلما عَرَضْنَ لنا سافراتٍ   أَعَدْنَ الهوى وبَعثْنَ الشُّجونا

والأبيات تصور فرحة الستالى باللقاء وبرؤية صاحبته تسير وسط صواحبها ، وقد ترقرقت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن ليبدين زينتهن ، ويخطرن دلالاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتتلألأ الدنيا بجمالهن من حول الستالى ، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلاتاً منه ولا خلاصاً . وللستالى خمريات ، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هاتِ اسقنى الرَّاحَ فى راووقِها عَلَلا   وعاطِنى فى الحديث اللَّهوَ والغزلا
أما ترى نفحاتِ الصيف قد نشرتْ   من النبات على وَجْه الثَّرى حُلَلا
والروضُ يختال فى زَهْر البهاء وقد   غدا الثَّرى بفنون الوَشْى مشتملا
وشادنٍ يتهادى فى الصِّبا غَيَداً   مَيْسَ القضيب تثَنَّى ثُمَّت اعتدلا[١]
يَسْعَى علينا بنورٍ فى زجاجته   لولا حدوثُ مزاجِ الماء لاشتعلا
وقينةٍ أنطقتْ صوتَ الكِران وقد   غنَّتْ بَسيطاً على الأوتار أو رَمَلاً[٢]
والشَّرْبُ قد مزجوا صَفْواً خلائقهم   كما مزجتَ بماء المُزْنة العَسلا

ونحس بروح أبى نواس تطلّ علينا من خلال هذه الخمرية التى تصور مجلس أنس فى بستان وساقية تتثنى جمالاً ، تسعى على الشَّرْب بدَنّ الخمر أو دنانها ، وقينة تشدُّ أوتار العود وتغنى عليه ألواناً من الغناء . وكأننا فى مجلس من مجالس أبى نواس التى كانت تزخر باللهو والقصف . وهذا الجانب فى ديوان الشاعر يلتقى بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، ويتضح ذلك فى مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه ، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

---

(١) غيدا : ليناً وتثنيا . ميس : تمايل .

(٢) الكران : من أدوات الطرب ويسمى به العود والصنج . والبسيط والرمل من أوزان الشعر .

وتكثر فى أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفى غزله بالأعرابيات البدويات بالمتنبى . وربما كان يأتسى به أيضاً فى شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبُّه عليه وعلى الناس من فواجع وكوارث . وفى ديوانه بعض مخمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثيرٌ يلتزم فى نهايتها أو قافيتها اللام قبل التاء ، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً فى أشعاره ولا متكلفاً ، وكأن ما وُهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن تكون أشعاره سلسة سائغة .

علىّ بن المقرَّب العُيونى(١)

شاعر من أسرة العُيونيِّين حكام الأحْساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفى سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية وإسلامية ، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم وملوكهم وملوك الفرس الأولين . ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته لقصائد المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، مما يؤكِّد أنه أكبَّ على دواوين الشعراء النابهين وخاصة هؤلاء الثلاثة يتزود منها ويتخلَّق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه فى باكورة حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبى الحسين (٥٨٤ - ٦٠٣) وهو أهم أمراء الأسرة العيونية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء وجزرها مثل أُوال التى يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ، ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسمٍ سَنِىٍّ فَرَضَه له . وفيه يقول على بن المقرب :

رِماحُ الأعادى عن حماك قصارُ ... وفى حَدِّها عما تروم عِثارُ
وكلُّ امرئٍ ليستْ له منك ذِمَّةٌ ... يُضامُ على رَغْمٍ له ويُضَارُ
فَعِشْ فى عظيم الملك مالاح كوكبٌ ... وأظلم ليلٌ أو أضاء نهارُ

ويحدث أن تفكر طيئٌ فى قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته فى الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها فى يد طيئ وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيمزقهم محمد بن أبى الحسين شر ممزق . ويعم الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن يداً آثمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع ،

(١) انظر ترجمته فى ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد ومقدمات طبعات ديوانه وقد طبع فى الهند ودمشق والقاهرة . وراجع مقالاتنا عنه فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الثامن والثلاثين .

فتغتاله ، ويبكيه شاعره ويندبه ندباً حاراً بمثل قوله :

لِيَبْكِ العُلا والمجد والبأسُ والنَّدَى لقد صَلَّ واديها وَجَفَّتْ مسايلُه(١)
وتَنْدُبه البِيض الصوارمُ والقَنا لما أَنهلتْها كفُّه وأناملُهْ
لقد مُنِيَتْ منه الأعادى بثائرٍ هُمامٍ أَبَى أن يَحْمل الضَّيْمَ كاهلُه

وطبيعى أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه فى دست الحكم لابن المقرَّب . بل لقد زَجُّوا به فى السجن وصادروا أمواله ، ورُدَّت إليه حريته وخرج من السجن فرحل إلى العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومى فى سنة ٦٠٥ ودخل بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرَّف على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للاتّجار فيها . وألمَّ بواسط فى طريقه فطالبه ابن الدبيثى ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته . فصبَّ عليه جام هجائه بمثل قوله :

يابن الدُّبيثىِّ اللعين لقد رمتَ المحال فغُصتَ فى بَحْرِ
خُنْتَ الخليفةَ فى رعيَّته وعَصَيْته فى السرِّ والجَهْرِ

ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ، فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :

يا شمسَ دينِ الله كم لك من يدٍ يُثْنِى بها بادٍ ويشهد حاضرُ
ادْفَعْ بجاهك أو بمالك مُنْعماً عنِّى فمالُك للعُفَاةِ ذخائر

ويعود إلى موطنه ويقدم مدائحه إلى أمير الأحساء محمد بن على بن عبد الله الذى ردَّ إليه حريته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبى الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتلته ، ويصبح الحاكم العام للبحرين ، ويقدِّم إليه على بن المقرب مدائح كثيرة ، ولا يَحْظَى منه بشىء أو بما كان يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه على بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسمائة دينار له سنويًّا ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويدبج فى على بن ماجد مدائح كثيرة من مثل قوله :

أضحتْ بك الأحساء ساكنةً وقد رجفتْ بمن فيها وكادتْ تُقْلَبُ
وملأتَها عَدْلاً وكانت عُمِّمَتْ جَوْراً تغورُ به الدِّيارُ وتَخْرَبُ

(١) صل : أجدب .

ويثور مقدم بن غُرير العيونى ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . وييئس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم . فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والى البصرة والخليفة ببغداد فى سنتى ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذى تحولت إليه مقاليد الأمور بعده ، بمثل قوله :

رفعتَ عمادَ المجد من بعد ما وَهَى ... ورَثّ وأضحى رُكْنُهُ وهْوَ مائلُ
وقمتَ بأحكام الشريعة فاستوتْ ... لديك ذوو الأجبال : طَيٌّ ووائلُ

ويترك البحرين إلى العراق فى سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين فى طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل فى رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤا مدبِّر الحكم فيها لسلطانها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أرسى قواعدَ ملكٍ لو يدبِّرهُ ... كسرى وإسكندرٌ أعيتْهما الحِيَلُ

ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبى صاحب حرّان وديار الجزيرة ، ويشيد ببلائه مع أخيه سلطان مصر الكامل فى قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقاً ذريعاً حين أغاروا عليها فى السنوات ٦١٥ – ٦١٨ وفيه يقول من مدحة طويلة :

سل الكُفْرَ من أوْهَى بدمياطَ كفرَه ... وقصَّر أعْلَى فرعه وهْو باسقُ
وقد جاءت الإفرنجُ من كلِّ وِجْهَةٍ ... كأنَّ تَداعيها السيولُ الدوافق
فولَّوا فمكبوبٌ على أمِّ رأسِهِ ... لَدُنْ ذاكَ لم يَنْفُقْ وآخر نافق (١)

ويعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بنى عُقَيل ، فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذى تبلغ قيمته مائتى دينار يباع بدينار واحد أو بثوب أو بشاة ، ويأسى لذلك فى شعره أسى عميقاً . وشعر ابن المقرّب يعدُّ بحق سجلاً تاريخيًّا لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاصرهم صوَّر حكمهم وأحوال البلاد فى أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجَّل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مفاخراً مباهياً . وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن على قضى على القرامطة وما أذاعوا فى البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلِ القرامطَ من شَظَّى جَماجِمهم ... فَلْقاً وغادرهم بعد العُلا خَدَما (٢)

(١) ينفق : يهلك .
(٢) شظى : حطم .

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فطهر البلاد منهم ، ويمضى فى القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والديوان يمتلىء بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بنى بالبصرة الفَيْحاء سُوراً ... يُضاهى السَّدَّ سَبْكاً وانعقادا
وزيّنها بأسواقٍ أرانا ... بها كلَّ البِلاد لها سوادا[1]
وكم من مشهدٍ ورباط زُهدٍ ... ومدرسةٍ بَنَى وهُدًى أفادا

ويردد فى مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة فى تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هى الوثائق الوحيدة فى تاريخ الدولة العيونية ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

عبد الصمد بن عبد الله باكثير[2]

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجرى ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثير فمن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمى ، ولد فى تَرِيس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحَضْرَموت فى سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم فى مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء فى المدن الحضرمية . وحين سال الشعر على لسانه اتجه به أولا اتجاهاً صوفيًّا على عادة أهل إقليمه ، وأخذ يستغله فى مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم فى حضرموت إلى عمر بن بدر أبى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ، بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل فى عهده ، وكذلك فى عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ - ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل ، ولم يكد يدور العام حتى لبى نداء ربه . وجمهور مدائحه فى عمر بن بدر من مثل قوله :

---

(١) السواد : الريف بزروعة وقراه .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبى ٢ / ٤١٨ وكتابه نفحة الريحانة ٣ / ٥٤٦ وملحق البدر الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ حضرموت السياسى ١ / ١٣٣ . و ٢ / ١٧١ وتاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٩٠ وله ديوان كبير لما يطبع .

عُمَرٌ الذى أَحْيا المكارمَ وابتَنَى ... للمجد بيتاً دونه الجوزاء
فيه الزمانُ تفاخرتْ أيامُه ... وتعطَّرتْ بوجوده الأحياء
ملكٌ تفجَّر من منابع مجدهِ ... كرمٌ وحلمٌ واسعٌ ووَفاء

وكان لا يزال يروح ويغدو عليه بمدائحه وخاصة فى أعياده وفى الاحتفال بانتصاراته ، مردداً دائماً الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه ، ومن مدحة له فيه :

إذا نابنى خَطْبُ الزمان فإننى ... إلى عُمر الخيرات بى ينتهى السَّيْرُ
مواهبُه موصولةٌ بمواهبٍ ... إذا ضَنَّتِ الأنواءُ واحتبَس القَطْرُ (١)
له فى النَّدا أيدٍ تَسُحُّ بَنانُها ... لُجَيْناً وإبْريزاً ونائلُه غَمْرُ (٢)

ومن مدحه الرصينى فى عمر بن بدر تهنئة له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال القبائل الثائرين عليه وعلى حكمه ، وفيها يقول مهنئاً :

نصرٌ عزيزٌ من الرحمن قارنَه ... فَتْحٌ وطالِعُه بالسَّعْد يبْتَدرُ
من كان معتصماً بالله كان له ... عَوْناً وسار بما يختاره القَدَرُ
لما تألَّبتِ الأعداءُ واعتصموا ... بحَبْل غدرهمُ باءوا بما غدروا
فأمكن الله منهم فانثَنَوا هَرَباً ... كمثل مانفرتْ من قَسْوَرٍ حُمُرٌ (٣)

وكان يخلص للسلطان عمر بن بدر إخلاصاً مصفى ، ولذلك أكثر من مديحه ، حتى إذا توفى أحس بحزن بالغ ولوعة ممضة ، مما جعله يرثيه مراثى حارة يبكى فيها خصاله الكريمة وما فقدته رعيته فيه وعجبوه من جود وعون وعفو عند المقدرة من مثل قوله :

هَوَى من سماء المجد كوكبُها القُطْبُ ... فأظلمَ فى أقطارنا الشَّرْقُ والغربُ
تضعضَع طَوْدُ المجد وانهدَّ ركنُه ... فيالك رُكْناً قد تضمَّنه التُّرْبُ
ثَوَى عُمَرُ الخيرات أكرمُ من سعى ... إلى ساحِهِ تَطْوِى سَبَاسِبَها النُّجْبُ (٤)
لقد كان للعافين ظِلاًّ وملجأً ... وللجاهل الإغضاءُ والصَّفْحُ والعَتْبُ (٥)

وله مرثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته . وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة ، تدل على أنه كان يجد أحياناً وجداً شديداً ، حتى ليقع فى شباك بعض النساء ،

---

(١) الأنواء : الأمطار .
(٢) تسح : تهطل . اللجين : الفضة ويريد الدراهم . الإبريز : الذهب ، ويريد الدنانير . والنائل : العطاء . غمر : كثير .
(٣) قسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .
(٤) ساح : جمع ساحة . السباسب : المفاوز . النجب : الإبل الكريمة .
(٥) العافون : طلاب المعروف .

ويطول تعثره فيها ، وقد انقطعت به الحيل فى الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْىَ وادى الأجْرَعِ رِفْقاً بصبٍّ مولَعِ
يبكى أسًى وصَبابةً بكــــآبــةٍ وتوجُّــعِ
ودموعُه فوق المحَا جِرِ كالغيوث الهُمَّعِ (١)
ويقول من وجدٍ ومن كمَدٍ بقلبٍ موجَعِ
حيَّا المرابعَ والرُّبَا غيثٌ كفائض أدمعى
يَهْمى على تلك الدِّيا رِ بوابلٍ لا يُقْلِعِ

فهو يبكى بدموع غزار لا تزال تنهمر كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العُرْبِ ظَبْىٌ ما رأى بصَرِى شِبْهًا له فى الورى بَدْواً ولا حَضَرا
الوردُ فى خَدِّه المحمرِّ من خَجَلٍ يدعو إلى حُسْنه الفتَّانِ مَنْ نظَرا
كم ليلةٍ زارنى فيها على وَجَلٍ مستعجلاً خائفاً مستوفزاً حَذِرا (٢)

وتصويره لخوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حذرة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة «مستوفزاً» ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكأنها دائماً مستوفزة تتهيأ لفراقه وتتأهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنسه كقوله :

تلاعبتْ مَرَحاً فى روضها القُضُبُ كشاربى خَنْدَريسٍ هزَّهم طَرَبُ (٣)
قُمْ يا نديمى فقد نادى الهَزَازُ إلى صَهْبَا مُشَعْشَعةٍ تُجْلَى بها الكُرَبُ (٤)
يديرها رَشَأٌ كالشمس طَلْعَتُهُ وكفُّه بِدَمِ الصَّهْباء مختضِبُ
فى روضةٍ أخذتْ بالزَّهْر زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وتَجلَّتْ كلُّها عجَبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فمثل هذه الخمرية ومَيضٌ كان يلمع حيناً فى سمائها وسرعان ما يخبو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بائساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمر بن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العاثر ، نذكر منها قوله :

(١) الهمع : الهاطلة السائلة .
(٢) مستوفزا : متحفزا للقيام .
(٣) القضب : الأغصان . الخندريس : الخمر .
(٤) الهزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت . الصهباء : الخمر . المشعشعة : الممزوجة بالماء .

أرانى إذا ما الليلُ جاشتْ كتائبُهْ أبيتُ وقلبى حائرُ الفكر ذاهبُهْ
تبيتُ أفاعى الهم فى غَيْهب الدُّجَى تُساوِرُ قلبى بالعَنا وتُواثِبُهْ (١)
ومالىَ فيما قد دهانىَ حيلةٌ أُدارى بها دهرى إذا ازورَّ جانبه (٢)
فيارbُّ ياذا المَنِّ والفضل والعَطا أغثْنى فموجُ الهمِّ فاضتْ غَواربُهْ (٣)

وتصوير عبد الصمد الهم بأفاع لا تزال تواثبه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعذوبة ويجنح كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية ، ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامية موطنه بعض أشعاره ، وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته .

٤

شعراء المراثى

بجانب مجرى المديح الذى كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق مجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض فى أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبيناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثُر فى هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤبنهم تلاميذهم وزملاؤهم ويبكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكّن القرشى الفهرى لشيخه نجم الدين الطبرى قاضى مكة ، وفيه يقول (٤) :

ما للجفون بها التَّسْهيدُ قد نزلا وما لطيب الكَرَى عن مُقْلتى رَحلا
ما بالُ قلبِى بتَذْكار الهموم له شُغْلٌ ودمعىَ إن كَفَفْتُه هَملا
نجمٌ أضاء علينا صُبْحُ طُرَّتِه حتى إذا ما انجلتْ أيامه أَفَلا
مفتاحُ كنزِ علوم الدين كم فُتِحتَ بهِ بصائرُ قومٍ للوَرَى ذُلُلاَ

ووراء مراثى الشيوخ والعلماء فى الحجاز مراث كثيرة فى أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مراثٍ كثيرة للأئمة الزيديين فى اليمن ، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع ، وسنعرض لها فى حديثنا عن

---

(١) تساور : تواثب .
(٢) ازور : مال وانحرف .
(٣) غواربه : أعاليه .
(٤) العقد الثمين ٣ / ٣٢ .

شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفى كل زمن وكل دولة تلقانا مراثى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مراثى كثيرة على نحو ما نجد فى ديوان ابن هُتَيْمل ففيه باب خاص بالمراثى ، وهى تتردد عنده بين الندب والتأبين ، أما الندب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكاها فى مرثيتين ، يقول فى إحداهما(١) :

يعزّ علىّ أنْ عَظُمَ المصابُ ... ولا صَبْرٌ لدىّ ولا احتسابُ
بنفسى عَصْرَ يوم السَّبْت نَعْشٌ ... تداولهُ المناكبُ والرِّقابُ
من الخَفِرات يُخْفِى الليلُ منها ... إذا ما جَنَّ مالا يُسْتَرابُ
تكفَّنُ فى الثياب فليت جلْدى ... لها كَفَنٌ وليت دمى خِضاب

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اكتوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصبابة . وله تأبين لبعض أمراء المخلاف السليمانى وحكام مسقط رأسه «نَجْران» بوادى «ضِمْد» من ذلك تأبينه لحاكمها «سلطان» صاحب ضِمْد جميعها بمثل قوله(٢) :

الرُّزْء أكبر أن يقوم بيومه ... جَزَعُ الرجال ورَنَّةُ النسْوانِ
ويلٌ لأمِّ الأرضِ ماذا ضُمِّنَتْ ... من أعْظُمٍ أُدْرِجْنَ فى الأكفانِ
ذاك النَّدى والبأسُ بين حَفِيرةٍ ... أطباقُها طُوِيَتْ على نَهْلانِ
إن التمسُّك بالسماح وبالوَفا ... من بعده ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسوليين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به فى دولته ، وربما بالغوا فى بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لرثائه السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول(٣) :

بكتِ الخلافةُ والمقامُ الأعظمُ ... والمُلْك والدِّين الحنيفُ القَيِّمُ
والشمسُ والقمر المنير كلاهما ... والأرضُ تبكى والسَّما والأنجم
والبيْتُ والحرَمُ الشريف بمكةٍ ... والحِجْرُ والحَجَرُ اليمانى الأسْحم(٤)

---

(١) الديوان ص ٨٣ .

(٢) الديوان ص ٩٧ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٢ / ١٦٠ .

(٤) الحجر بكسر الحاء : ماحواه الحطيم بالكعبة . الأسحم : الأسود .

ومدارسُ العلم الشريف وأهْلُه والمسلمون فصيحهُم والأعجَمُ

فالعالم كله يبكى الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذى عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتز والجو مغبرّاً مظلما وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل بيت مأتم . وكل هذا إسراف فى التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتتوفى زوجه فى سنة ٧٩٦ فيرثيها جماعة من الشعراء ، وهى ظاهرة كانت تشيع فى اليمن منذ عصر الصليحيين ، إذ تؤبَّن سيدات الأمراء ، وتُعْقد لتأبينها الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء فى وصف فضائلها وبكائها وندبها ندباً حارًّا ، بمثل قول الخزرجى (١) :

بكتْها السما والأرضُ يومَ وفاتها وأمسى سحابُ الأفْق أدمعُه تَسْرِى
على وجهكِ الميمون حيًّا وميِّتا سلامٌ يزيد العِطْرَ عطراً إلى العطرِ
سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةٌ على شخصك المدفون فى ذلك القبر

ويتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبى بكر المقرئ فيه مرثية بديعة (٢) . ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهى تتردد بين الندب والتأبين والعزاء ، أما الندب فإننا نجد فى الكتاب شعراء كَثيرين يبكون آباءهم مشيدين بتقواهم وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الخولانى فى رثاء والده (٣) :

تبكى عليه منابرٌ ومَحابرٌ تبكى عليه محاجرٌ بدماء
فالله يُسكنه الجِنانَ بفضله ويعمُّه بسوابغ النَّعْماء

وقد أطال فى وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالواحدى وقتادة وعطاء بن أبى رباح ، ومتصوفاً كمكى والغزالى ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك ، وفقيهاً شافعيا يتقن درس أمهات الفقه الشافعى من مثل الوسيط فى المذهب للغزالى والمهذب للشيرازى والروضة للنووى . ويكثر تأبين التلاميذ لشيوخهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوى فى شيخه عبد الله بن أبى بكر باحسن (٤) :

---

(١) العقود اللؤلؤية ٢ / ٢٥٤ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٣١٨ .
(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ٢ / ١٤٤
(٤) نفس المصدر ٢ / ١١٣ .

خطبٌ ألمَّ وهولٌ هائلٌ وردَا ... ونازلٌ فتّتَ الأحشاء والكَبِدَا
وقد شُغفنا بدارٍ لا وفاء لها ... وشَمْلُ سكانها أضحى بها بَدَدَا (١)
والمرء فيها كظلٍّ زائلٍ نَسَخَت ... أفياءه ظلماتُ الليل إذ وفدا (٢)
والطَّرْف باكٍ وإن الأرض تبكى أسًى ... كلاهما يَنْدُبان السيِّد السَّنَدا
تاجُ الكرام شريفٌ طاب عُنْصره ... لمطلب المجد فى الآفاق كم وردا
نَسْلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل ... كنزُ الأماثل خيرُ الأكرمين ندَا

وللشاعر نفسه مرثية ثانية فى شيخ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدنيا دار زوال وانتقال ، والأيام تمضى بالناس جميعاً إلى وادى الفناء والعدم ، والسعيد من سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم ، واتجه إلى ربه وعمل لآخرته . وهذه الصورة من المراثى كانت تعم فى كل مكان : فى عمان والبحرين ونجد . فالمراثى دائماً ندب أو تأبين أو عزاء ، وقد تمتزج الصور الثلاثة ، ومن طريف ما نقرؤه للستالى شاعر عمان من رثاء قوله فى أبى محمد بن نبهان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤبنه :

رُزِئْنا هُمَاماً يَعْلم الأزدُ أنه ... إذا خطرتْ صِيدُ الملوك خَطيرُها (٣)
تبوَّأ من قحطانَ بيْتاً تُقِلُّهُ ... قواعدُ بنيانِ العَتيك وسورُها (٤)
فطال به أَصْلُ المعالى وفَرْعها ... وطاب له خَيْرُ المساعى وخِيرُها (٥)

ولابن المقرب العيونى مراثٍ مختلفة فى بعض القضاة وبعض أهله ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثى هما : محمد بن على التهامى وجعفر الخَطِّى البَحْرانى .

التهامى (٦)

هو أبو الحسن على بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامى أى المكى ، إذ تسمى مكة باسم تهامة . ولذلك يقال الرسول ﷺ تهامى . لأنه من مكة . وتطلق تهامة على الساحل الممتد على طول الجزيرة شرقى الحجاز بين مكة واليمن ، ولكن نسبة الشاعر إنما هى إلى مكة

(١) بددا : متفرقاً .
(٢) أفياءه : ظلاله .
(٣) الصيد : السادة .
(٤) العتيك : عشيرة ابن نبهان الأزدية .
(٥) خيرها بكسر الخاء : خيارها .
(٦) انظر ترجمة التهامى فى تتمة اليتيمة ١ / ٣٧ ودمية القصر ١ / ١١٠ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٦٣ وشذرات الذهب ٣ / ٢٠٤ وابن خلكان ٣ / ٣٧٨ وعبر الذهبى ٣ / ١٢٢ وديوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية سنة ١٨٩٣ .

إذ ينسب نفسه إليها فى بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن فى آخر حياته كما سيأتى قائلاً عن نفسه :

وهذا التّهامىُّ من مكةٍ برجليه يَسْعَى إلى حتْفِهِ

ولا يُعْرَفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه فى الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد ومَيَّا فارقين وآمِد ونَصيبين ، وأيضاً بينهم قِرْواش (٣٩١ - ٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديه . ويلاحظ أن ديوانه يخلو من مدائح أمراء مكة ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك الأنحاء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه فى الرملة عند آل الجراح أمراء طيئ ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفى ديوانه مدائح مختلفة لأميرهم المفَرِّج دَغْفل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش فى رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤ - ٤٦٧ هـ) . وكانت نفسه حدثته بالشغب على الفاطميين - على عادة آبائه - فرأى أن يرسل التّهامى إلى بنى قُرَّة فى صعيد مصر كى يحدثوا شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً فى سنة ٤١٦ غير أن الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه فى سجن خزانة البنود فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وظل به إلى أن توفى - أو قُتل - فى تاسع جمادى الأولى من نفس السنة .

والتّهامى يُعَدّ فى الذروة من شعراء الجزيرة فى هذا العصر ، وفيه يقول صاحب الدمية : «له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأنما رُوِّح بالشَّمال (الريح) أو عُلِّلَ بالشَّمول (الخمر) فجاء كَنَيْل البغية ودرك المأمول» وقال ابن تغرى بردى : «كان من الشعراء المجيدين وشعره فى غاية الحسن» ونقل ابن خلكان عن ابن بسام قوله عنه فى كتابه الذخيرة : «كان مشتهر الإحسان ، ذرب اللسان ، مخلَّى بينه وبين ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة بَرْد النسيم على الصبح ، ويُعْرِب عن مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم» . وقد اشتهر بمرثيات له فى ابنه أبى الفضل الذى هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المراثى رائيته ، وهو يستهلها واعظاً ، بقوله :

حُكْمُ المنيَّة فى البَرِيَّة جارِى ما هذه الدنيا بدارِ قَرارِ
طُبِعَتْ على كدَرٍ وأنت تريدها صَفْواً من الأقذاء والأكدارِ
ومكلِّفُ الأيام ضِدَّ طباعها متطلِّبٌ فى الماء جذوة نارِ
والعيشُ نَوْمٌ والمنيَّة يَقْظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ سارى

فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ
ليس الزمانُ وإن حَرَصْتَ مسالماً خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرار

وبمثل هذه العظات التى تمس دخائل القلوب وأعماق النفوس يفتتح التّهامى مرثيته لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكئوسها المليئة بالأقذاء وأيامها التى تدنى الآجال وتقطع الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقى لا يدرى الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستنقطع دون غايته ، فتخرج منه النَّفْس ويحل فى الرَّمْس ويتجه بعد هذا العزاء الذى يذيب فؤاده حسرات إلى بكاء ابنه الذى اختطفه الموت منه وهو لا يزال غَضًّا فى كِمِّه :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمرَه وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأسْحارِ
وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ بَدْراً ولم يُمْهَلْ لوقت سِرَارِ[1]
جَاورتُ أعدائى وجاور ربّه شتّانَ بين جِواره وجِوارى
أُخْفِى من الرُّقباء ناراً مثلما يُخْفِى من النار الزِّنادُ الوارى
وتلهُّبُ الأحشاء شَيَّبَ مَفْرِقى هذا الضياءُ شعاعُ تلك النارِ

ويمضى فى وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع فؤاده ، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممضًّا ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه لهى نفس هذه الآلام الثقال ، وإنه ليحس إزاءها بحريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها فى الطول مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

محاك الرَّدَى من رأْىِ عينى وما محا خيالَك من قلبى وذكرَك من ذكرى

وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه ، وهو فيه طويل النفس ، ومن خير مدائحه ما قدمه للمفرِّج الطائى وابنه حسان ، وفيه يقول :

فتًى جُبِلَتْ يداه على العطايا كما جُبِل اللِّسانُ على الكلامِ
ويُسْراهُ لنَيْــــلٍ أو عِنـــانٍ ويُمْناه لرُمْحٍ أو حُسامِ[2]
لقد أحيا المكارمَ بعد موتٍ وشادَ بناءها بعد انهدامِ
بصَفْحة خَدِّه للبِشْر ماءٌ كمثل الماء فى صَفْحِ الحُسَامِ[3]

---

(١) السرار : ليالى آخر الشهر التى لا يظهر فيها القمر . (٣) الماء هنا : الرونق .
(٢) النيل : العطاء . والعنان : عنان الفرس .

سواءٌ عنده قولُ المنادى هَلُمَّ إلى الطِّعان أو الطعامِ

وواضح فى مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطْلِق نفسه على سجيتها ، فيأتى بكثير من المعانى الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ فى صورة البيت الأول ، فهى صورة بسيطة ، فالعطايا فى يد مفرج كالكلام فى لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة فى الطرافة صورة البيت الأخير ، فممدوحه لا يزال فى حشد من جوده وبأسه على طعامه وطعانه . وفيه يقول فى مدحة ثانية :

هو السالبُ الأعداء فى ساحة الوغَى ويَسْلُبه فى ساعة السِّلْم زائرُهْ
يخبِّرنا عن جوده بِشْرُ وجهِهِ وقبلَ انصداع الفَجْر تبدو بشائره
ويَصدُق فيه المَدْحُ حتى كأنما يسبِّح مِنْ صِدْق المقالة شاعرُهْ

والبيتان الأخيران تتضح فيهما الفكرة التى أشرنا إليها آنفاً وهى سهولة كلمه مع طرافة صوره ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله فى مديح حسان بن المفرج من مدحة طويلة :

هو المَلْك يُبْلى بُسْطَهُ قبْل وقتها سجودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها
بعيدٌ مَداه ليس تألف كفُّه من المكرمات الغُرِّ إلا جِسامُها
ولو أن للأقمار ضوءَ جَبينه لما زال عنها نُورها .وتمامُها
وليس بمشغولِ البَنان عن النَّدَى إذا شَغَلَ الكفَّ اليمينَ حُسامُها

وواضح تخلصه فى البيت الأخير من أن تكون بنان الممدوح مشغولة دائماً بالسيف ، فتُشْغَلَ عن العطايا والكرم ، وتكثر فى أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله نسيب بالديار وغزل رقيقان ، وكثير منهما يقدِّم به مدائحه ، على شاكلة قوله فى إحدى مقدمات مدحة دالية :

أترومُ تغطيةَ الهوى بجحودِهِ ونحولُ جسمك من أدلِّ شهودِهِ
كم قلتُ إياك الحجازَ فإنَّه ضَرِيَتْ جآذرُهُ بِصَيْد أسوده
وأردتَ صَيْدَ مَهَا الحجازِ فلم يُسا عدك القضاءُ فصرتَ بعض صُيودِهِ
أُخْفِى هواه وهْو نارٌ مثلما يُخْفِى الزنادُ ضِرامه فى عوده

والصورة فى البيت الثانى بديعة فظباء الحجاز أو جآذره تصيد أسوده ، ويحاول صيد المها فيصبح من صيودها ، ونار الحب كامنة فى فؤاده كمون نار الزناد فى عوده . ونحس دائما بأن الصور والمعانى طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهى سلسة سائغة عذبة . وفى أشعاره حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعبها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدَّهْرُ وهْو أبو الوَرَى طُرًّا فلا تَعْتِبْ على أولادهِ

فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المجن ينبغى أن لا ينزل جام غضبه على الناس ، لأن ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم ، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه . والحق أنه كان شاعراً مبدعاً . وكان الشعر طوع لسانه ومدّ خيالاته ومشاعره .

جعفر الخَطِّىّ (١)

من قبيلة عبد القيس التى نزلت فى الأحساء والقَطيف وبواديها منذ العصر الجاهلى ، والخَطِّىّ نسبة إلى الخَطّ وكان يطلق على مدينة القَطيف وعلى ساحل الإقليم كله ، ولا يُعْرَفُ زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ فى القطيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقّن على الشيوخ مبادئ الكتابة والقراءة والعربية ، وسال ينبوع الشعر على لسانه ، واتخذه – مثل لداته – حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجرى ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة أوال التى تسمى فى عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدائحه إلى بعض أمرائها وقضاتها وعلمائها ، واستقبلوه استقبالاً حسناً ، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيها عبد الرءوف البحرانى . ولا توافى سنة ١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران وينزل شيراز ، ويتردد بينها وبين أصفهان ، ويلتقى فى الأخيرة ببهاء الدين العاملى صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب بهاء الدين به وبشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له فى العطاء مما جعله يفضل الإقامة فى إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» قائلاً فى نعته : «البديع الأثر والعيان ، المحكم الشعر الساحر البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، ومخترع فى حسنه مغرب . وقد وقفت على فرائده التى لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت» . ومن محاسن مراثيه مرثيته فى الشيخ أبى محمد حسين البحرانى سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَذَّ الرَّدَى سببَ الإسلام فانْجذما وهدَّ شامخَ دين الله فانهدما
نبكى فَتًى لم يحلَّ الضَّيْمُ ساحته ولا أباحَ له غَيْرُ الحِمام حِمًى
ذا منظرٍ يُبْصر الأعمى برؤيتهِ هُدًى وذا منطقٍ يستنطق البُكَمَا

(١) انظر فى ترجمة جعفر الخطى سلافة العصر لابن معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ١ / ٤٨٣ ونفحة الريحانة ٣ / ٢٠٤ وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥ وديوانه طبع فى إيران سنة ١٣٧٣ هـ .

لو علَّم الوحشَ ما يُنْشبه من حكمٍ لراحتِ الوحشُ من تعليمه عُلَما
ما راح حتى حَشا أسماعنا دُرَراً من لفظه وسَقى أذهاننا حِكَما

والتكلف فى هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى فى البيت الأول والثالث والرابع ، وكان يكفى الشاعر أن يعلِّم صاحبه الناس فيصبحوا علماء ، أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفَّى فى نفس السنة الشيخ أبو على عبد الله بن ناصر الخطى ، فيشيِّعه بمرثية ، يقول فى تضاعيفها :

فتًى كرمتْ آباؤه وجُدودهُ وطابتْ مساعيه فتمَّ له الفخْرُ
جوادٌ له فى كلِّ أنْمُلةٍ مجدٌ بصيرٌ له فى كلِّ جارحةٍ فكْرٌ
ويا بلدَ الخطِّ اعتراك لفقده مدى الدهر كَسْرٌ لا يُرامُ له جبْرٌ
من الآن بَدْءُ الشرِّ فيك وإنه لمتصلٌ باقٍ وآخره الحَشْرُ
ولو خلَّد المعروفُ فى الناس واحدا لخلَّد عبدَ الله نائلُه الغَمْرُ

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من معان وصور ، فهنا طواعية ومرونة فى التعبير ، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع فى الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب فى ذلك أن الشاعر لم يصدر فى المرثية الأولى عن تأثر حقيقى بخلاف الثانية التى رثى فيها مواطنه الخطى . وطبيعى أن تكون أكثر أشعاره مدائح ، مثله فى ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله فى وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها فى سنة إحدى وألف للهجرة .

ملكٌ رقَى دَرَجَ الفخار فلم يَدَعْ فيها لراقٍ بعده من مَطْمَعِ
وتناولتْ كفَّاه أشرفَ رتبةٍ لو قام يلمِسُها السُّهَا لَم يَسْطَعِ[1]
أندى من الغيث الملثِّ إذا اجتُدِى أحمَى من اللَّيْث الهِزبْرِ إذا دُعِى[2]
حُيِّيتَ ياكسْرى الملوك تحيَّةً تُربِى على كسرى الملوك وتُبَّعِ

والتكلف واضح فى هذا المديح ، وتبدو فى الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة « قام يلمسها » وكلمة « اجتُدى » أى طُلبت جداوه وفائدته ، بالإضافة إلى كلمة « كسرى » المكررة فى البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنغمة أبى نواس المعروفة من الدعوة إلى الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرية حالية يقول فيها :

---

(١) السها : كوكب صغير من بنات نعش الصغرى . القوى .

(٢) الملث : الدائم الملح . الهزبر : الأسد الضخم

عاطنيها قبل ابتسام الصباحِ   فَهْى تُغْنيكَ عن سَنَا المصباحِ
أنت تدرى أن المُدامةَ نارٌ   فاقتدحْها بالصبِّ فى الأقداحِ
فَهْى تمحو بضوئها صِبْغَةَ الليـ   ـل فيغدو وَجْهُ الدُّجى وهْو ضاحِ
أرْسِلَنْها وَرْدِيَّةً كدمِ الكَبْـ   ـشِ أسالتْه مُدْيَةُ الذَّباحِ

وواضح أن التكلف يسرى فى هذه الأبيات ، وأن كلمة : «أنت تدرى» فى البيت الثانى أفسدت النَّسقَ فيه . والشطر الثانى فى البيت الثالث تكرار للشطر الأول ، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكبش ولا يضيف كلمة «أسالته مدية الذباح» . ومع ذلك كله يعد جعفر الخَطِّى أهم شاعر ظهر فى زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له ابن معصوم فى سلافة العصر والمحبى فى نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنيه .

٥

شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين فى هذا العصر نشاطهما فى العصور السابقة ، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء ، ومرَّ بنا أن الطاهر الجزرى كان من شعراء قِرْواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف فى أولها وثانيها الليل وظلماته وفى الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه فى كل بيت إلى هجاء شخص يقول [١] :

وليلٍ كوجه البَرْقَعيدىِّ ظُلْمَةً   وبَرْدِ أغانيه وطولِ قُرونهِ [٢]
قطعتُ دَياجيهِ بنومٍ مشرَّدٍ   كعقل سليمانَ بنِ فَهْدٍ ودِينه
على أَوْلَقٍ فيهِ التفاتٌ كأنه   أبو جابرٍ فى خَبْطه وجُنونهِ [٣]

ويبدو أن البرقعيدى كان مغنياً ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قواداً ، والهجاء فى البيتين التاليين مقذع كما هو واضح . ومن الهجَّائين المقذعين القاضى العثمانى اليمنى وله مدائح فى أمراء زَبيد آل نجاح وفى غيرهم من أمراء الدول اليمنية ، ومن أقذع هجائه قصيدته فى الداعى على بن محمد الصليحى حين قتله سعيد بن نجاح أمير زَبيد ، وفيها

---

(١) اليتيمة ١ / ١٢٨ .
(٢) البرقعيدى : نسبة إلى برقعيد قرية بالموصل .
(٣) الفرس الأولق : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

يصف مظلته التي كان يحتمي بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول [١] :

بكرتْ مِظلَّتهُ عليه فلم تَرُحْ ... إلا على الملك الأجلِّ سعيدِها
ما كان أقبحَ شخصَه فى ظلِّها ... ما كان أحسنَ رأسَه فى عودها
وأرادَ مُلْكَ الأرض قاطبةً فلم ... يَظفَرْ بغير الباع من مَلْحودها
سودُ الأراقم قاتلتْ أُسْدَ الشَّرَى ... يا رحمةً لأسُودها من سُودها

وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كنى عنهم بسود الأراقم أى الأفاعى ، والقصيدة مليئة بالتشفى من الصليحى وبهجاء مرير . وللشيخ محمد بن سعيد المكى فى هجاء بعض أهل عصره [٢] :

اترُكِ العُجْبَ فما أنت سوى ... رجلٍ إما لضحْكٍ أو لغمّْ
كغُرابِ السَّوء يَمْشى مَرِحاً ... مُعْجَباً وهْو أخو الشُّؤْم الأذمّْ
يَغْسِلُ الثَّوبَ وفى أكتافهِ ... وسَخُ العِرْض وآلاتُ التُّهَمْ

ويلقانا الفخر فى كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم لِقرْواش أمير الموصل وبواديه . ولبهاء الدولة منصور بن دبيس المزيدى (٤٧٤ - ٤٧٩ هـ) أمير بوادى الحِلَّة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله [٣] :

أولئك قومى إن أعُدَّ الذى لهم ... أُكرَّمْ وإنْ أفخرْ بهم لا أُكَذَّبِ
همُ ملجأُ الجانى إذا كان خائفا ... ومأوى الضَّرِيك والفقير المعصَّبِ [٤]
بطاءٌ عن الفحشاء لا يحضرونها ... سِراعٌ إلى داعى الصَّباح المثوِّبِ [٥]
مناعيشُ للمولى مَساميحُ بالقِرَى ... مَصاليتُ تحت العارض المتلهِّبِ [٦]

وهو يفتخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجانى يلوذ بحماهم ، فلا تمتد إليه يد ، ومأوى الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقترفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة فى الفجر وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ فى الشدائد . ومن طريف ما للرسوليين من فخرٍ موشحٌ للسلطان المجاهد الرسولى يستهله بقوله [٧] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣٣ ، ٣٧٧ .
(٢) سلافة العصر ص ٢٢٥ .
(٣) الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٥٨ .
(٤) الضريك : البائس . المعصب : الذى لا يجد قوته .
(٥) داعى الصباح : المؤذن . المثوب : الداعى إلى الفرائض والنوافل .
(٦) مناعيش : يمنعون من الهلاك . القرى : الضيافة . مصاليت : نافذون فى الأمور .
(٧) الخزرجى ٢/١٢٤ .

نلت أنا العزَّ بأطراف القَنا
ليس بالعجز المعالى تُجتَنى
نحن بالسيف ملكنا اليَمنا
كلُّ فخر تَدّعى الناسُ لنا أعرق العالم فى المُلْك أنا

وهو يفاخر بأسرته فخراً شديداً ، ويمضى فيسمى آباءه متحدثاً أو مفاخراً بشجاعته وجوده وبذله للمال وانتجاع العُفاة السائلين له وصَفْحه الجميل وعفوه . والفخر كثير فى اليمن ، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يموج بالفخر من مثل قوله (١) :

إنى امرؤٌ عَفٌ الإزار عن الخَنَا لم أغْشَ مُنْذ نشأتُ بابَ المنكَرِ
إنى على كَسْب العلوم مخيِّمٌ وبُكاىَ فى طلب العُلا وتحسُّرى
إنى من العَرب الذين نِجارُهم من خالص العِقْيان لبُّ الجوْهَرِ
وتخذتُ أصحاباً إذا نادمتهم لم أخْشَ منهم من يَنُمُّ ويَفْترِى
عِلْمى وحِلْمىَ والحصانُ وصارمى ونَدَى يمينى والعفافُ ودفترى

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلى بالعلم فهو حبُّه الذى يقف نفسه عليه ويبكيه بكاء المحبين لصواحبهم ، ويفاخر بأصله العربى ، ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفروسية والبأس والجود والعفاف ودفاتر الدراسة ، ويطيل فى الفخر بقومه من خوْلان وكَهْلان وكندة وملوكها الأقدمين . ويكتظ ديوان ابن مقرب العيونى بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من أمجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ بى فتكتّبتْ علىَّ بأنواع البَلايا كتائبُهْ
وإنى وإن أبدَى اصْعِراراً بخدِّهِ وأوْجَفَ بى وازورَّ للبغض جانبه (٢)
لأُغضِى على بغضائِه وازْوِرارِهِ وأعجبُ من حرٍّ كريمٍ يعاتبه
وأستقبل الخطبَ الجليل بثاقبٍ من العزم يعلو لاهبَ النار لاهبُهْ

وكأنه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مهما ألح عليه ببلاياه أن ينال منه شيئاً ، مهما أبْدَى من تكبر واستعلاء ومهما عدا عليه بكوارثه ، ومهما انحرف عنه وأظهر من

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٦٧ وتاريخ حضرموت السياسى ٢ / ١٦٩ .

(٢) اصعرارا بخده : ميلا ، كناية عن الكبر . أوجف بالخيل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .

بفضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلو ناره على نيرانه وتخمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والهجاء ، هما نَشْوان بن سعيد الحميرى وسليمان النَّبْهانى العُمانى .

نشوان بن سعيد الحِمْيَرى[1]

من أهل جبلٍ شامخٍ مطلٍّ على «تعِزّ» اسمه صَبِر ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقيال والأذواء ، ونراه ينسب نفسه فى قصيدته الحميرية إلى قَيْل يُدْعَى ذا سَحر ، يقول :

أو ذو مراشدَ جَدُّنا القَيْل ابن ذى سَحَرٍ أبوالأذواء رَحْبُ الساحِ

ويبدو أنه أكبَّ منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح علماً فى اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزليا . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء فى بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له فى الفرائض (المواريث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» فى نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا فى الفصل الثانى أنه معجم لغوى ، وهو فيه لا يكتفى بالحديث عن اللغة بل يتسع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف الثاء فى ليدن ، ثم طبع منه جزآن فى القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى «خلاصة» السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة ، وهى فى أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الأمرُ جِدٌّ وهْو غيرُ مزاحِ فاعْمَلْ لنفسك صالحاً ياصاحِ

ومضى قليلاً فى الوعظ ثم خرجَ إلى تعداد ملوك التبابعة والأقيال والأذواء ، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمى التاريخى . وقد نال شهرة مدوية فى وطنه

---

(١) انظر فى ترجمة نشوان معجم الأدباء ١٩ / ٢١٧ وإنباه الرواة للقفطى ٣ / ٣٤٢ والخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٨ و ٣٨٥ وبغية الوعاة للسيوطى ومقدمات محقق كتبه ومقالة المستشرق ستر ستين عنه فى الجزء الأول من كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع القاهرة) ص ٧٥ .

لعصره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتف بالمجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبِر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعتزازه اعتزازاً لا حدَّ له بقحطانيته . وهو يسوق أشعاره جميعها فى هذه العصبية المفرقة لقحطان من مثل قوله :

منا التَّبابعةُ اليمانون الأُلَى ... ملكوا البَسيطةَ ، سَلْ بذلك تُخْبَرِ
من كلِّ مرهوبِ اللقاء مُعَصَّبٍ ... بالتاج غازٍ بالجيوش مظفَّرِ
تَعْنُو الوجوهُ لسيفه ولرمحِهِ ... بعد السجود لتاجه والمِغْفَرِ[١]
فافخَرْ بقحطانٍ على كل الوَرَى ... فالناس من صَدَفٍ وهم من جَوْهَرِ
وإذا غَضبنا غضبةً يمنيَّةً ... قطرتْ صَوارِمُنا بموتٍ أحمرِ
فغَدَتْ وِهادُ الأرْض مُتْرَعةً دماً ... وغدتْ شِباعاً جائعاتُ الأنْسُرِ

والأبيات تحمل عصبية عنيفة ، وهى عصبية لا يشيد فيها بالملوك والتبابعة الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الحماسة تشتد به وتتأجج فى صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولا كغضبهم ، فغضبهم يملأ الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النسور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتف بهذه العصبية الجامحة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع فى نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صَعْدة ، وشاع أنه قال :

أما الحسينُ فقد حواه المُلحَدُ ... واغتاله الزمنُ الخئونُ الأنكَدُ
فتبصَّروا يا غافلين فإنه ... فى ذى عَرارٍ وَيْحكم مُسْتَشْهَدُ[٢]

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرَّسِّيِّين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بعنف ، مهددين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :

أما الصحيحُ فإن أصلك فاسدٌ ... وجزَاك منا ذابِلٌ ومهنَّدُ[٣]

فى قصيدة طويلة . ووصلت أسماع نشوان ، فلم يخلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى يردُّ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يأتينى الفسادُ وليس لى ... نسبٌ خبيثٌ فى الأعاجم يوجدُ
لا فى علوج الروم جَدٌّ أزرقٌ ... أبداً ولا فى السُّود خالٌ أسود

---

(١) تعنو : تنقاد. المغفر : زرد ينسجه المحارب تحت القلنسوة.

(٢) العرار : زهر بدوى ويقصد بذى العرار أن الحسين استشهد بالفلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية

(٣) ذابل : رمح . مهند : سيف .

ومضى يتنصّل من البيتين السالفين . غير أنه ساق تنصله فى تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه ، قائلاً :

فدَعِ التهدُّدَ بالحسام جهالةً فحُسامُك القَطّاع ليس له يَدُ
من قد تركتَ به قتيلاً ؟ ! أنبِنى، ممن توعّدُه ومن تتهدّدُ
إن لم أمتْ إلا بسيفك إننى لقَرِيرُ عينٍ بالبقاء مخلَّدُ

وكل هذا يمكن أن يحتمل من نشوان فى سبيل دفاعه عن نفسه ، ولكنه لم يلبث أن وصم جبينه وصمة لا تمحى بالأبيات التالية :

مُوتِى قريشُ فكلُّ حَىٍّ ميّتٌ للموت منا كلُّ حَىٍّ يولَدُ
قلتم لكم إرْثُ النُّبوّة دوننا أزعمتمُ أن النبوةَ سرْمَدُ
منكم نبىٌّ قد مَضَى لسبيلِهِ قِدْماً فهل منكم نبىٌّ يُعْبَدُ

وهذه سفاهة وخُرْق وحماقة ، ويقول العماد الأصبهانى تعليقاً على هذه الأبيات : «قاتله الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراه على الله وأجراه ، وأية فضيحةٍ فوق هذا ولولا النبى المصطفى الذى اختاره الله واجتباه ، وجعله الوسيلة إلى نَيْل رضاه ، صلوات الله عليه وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا» وحقاً إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزى وبوار ، ولو أن الشاعر وجّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصبية الخرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

سليمان النبهانى(١)

آخر سلاطين بنى نبهان العُمانيين ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته فى الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نَزْوَى ، منها وقعة «حَمت» بينه وبين خوارج نزوى لعهد إمامهم عمر بن الخطاب ، وفيها انهزم عمر ، ودارت الأيام وانتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفى فتنفّس سليمان الصعداء وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحاربه الخوارج فى «واقعة أزكى» ودارت الدوائر عليه . ومازال به أبو الحسن بن عبد السلام الذى ولى أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هُرْمُز فى أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه ، غير أن العمانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصى سنة ٩٠٦

---

(١) انظر فى ترجمة سليمان النبهانى تحفة الأعيان لنور الدين السالمى ٣٢١/١ وما بعدها ومقدمة محقق ديوانه عز الدين التنوخى ، وهى مقدمة بديعة . والديوان مطبوع بدمشق .

ونشبت بينهما موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة النبهانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائيا . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهى ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابغة والأعشى وأشعار الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذى الرمة وكثيّر وقَطرىّ بن الفُجاءة وأشعار العباسيين من أمثال أبى نواس وأبى العتاهية وأبى تمام والبحترى وابن دريد والمتنبى وأبى العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخى ذكره للمواطن والأماكن التى نثرها امرؤ القيس فى أشعاره ، كما تتبع أخذه من عنترة ومعارضته لطرفة فى معلقته وعمرو بن معد يكرب فى داليته وابن دريد فى مقصورته وأبى نواس فى خمرياته وما تطوى من معان وصور وأوزان وقواف ، ولاحظ معارضته لأبى العلاء فى قصيدته (ألا فى سبيل المجد) وأنه استعار منه المعانى وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة قوله :

ألا فى سبيل المجْدِ ما أنا صانعُ ... نَفُوعٌ وضَرَّارٌ ومُعْطٍ ومانعُ
وإنى لذو طَعْمين شَهْدٌ يشوبه ... رحيقٌ وسمٌّ دونه السُّمُّ ناقع

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة فى ديوانه وإغاراته على معانى الأسلاف وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رَصْف الكلم . والموضوع الأساسى فى ديوانه هو الفخر ، وهو شىء طبيعى ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذى يصور فيه بسالته وشجاعته :

يميناً بالصَّــوارم والحِرابِ ... وبالخيل المسوَّمةِ العِرابِ (١)
وكُلِّ مُفاضةٍ كالنِّهْىِ سَرْدٍ ... تَرُدُّ العَضْبَ مفلولَ الذُّباب (٢)
أنا ابنُ السابقين إلى المعالى ... ورغمُ الصِّيد والشُّوسِ الغِضابِ (٣)
أنا الملكُ الذى ساد البَرايا ... مَقَرُّ الفخر والحسب اللُّبابِ
ولى يومان من نُعْمَى وبُؤْسَى ... ولى طعمان من أَرْىٍ وصابِ (٤)

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته فى الفخر ، فهو يُقْسم بأدوات الحرب والبأس أنه

(١) المسوَّمة : المعلمة . العراب : الجيدة .
(٢) المفاضة : الدرع . النهى : الغدير . والشعراء يشبهون الدروع وغضونها بمياه الآبار حين تمر بها الريح فتحدث فيها حركات وغضونا . سرد . منسوجة . العضب : السيف . الذباب : حده .
(٣) الصيد : السادة . الشوس : جمع أشوس وهو المتعاظم الذى يتيه بنفسه زهواً .
(٤) الأرى : عسل النحل . الصاب : المر .

سليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كالمنذر بن ماء السماء الذى كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم بؤسى وأن له طعمين حلواً ومرًّا . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد فى الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقيالها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجنَّتين بمأربٍ ودُسْنا برغمٍ أنْفَ كِسْرَى وقَيْصَرِ

ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقيال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على نزار حين يردِّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد فى سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى فى قوله :

ولولا الملوكُ الصِّيدُ قومىَ لم يُقِمْ لعمرىَ قومٌ قِبْلَةَ الصَّلواتِ
ضَرَبْنا على الإسلام أبناءَ هاجرٍ فدانوا وأدَّوا واجبَ الزَّكواتِ

ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهى أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبالغ مبالغات مفرطة فى فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإلهُ لىَ الفضائلَ مثلما أعطى الكليمَ الصُّحْفَ والألْواحا

والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويُكثر فى ديوانه من ذكر الأطلال والغزل ، وهو فيهما مقلد يحتذى على معانى الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة ، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه ، غير أنه لا يأتى فى الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبيعى لأمير يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتنه ومسيرته معها فى الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمَّ به أرسل عليه وعلى الأتن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتنه عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثان لمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور ومبيته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه فى الفلوات مثيراً للغبار من حوله . والمشهدان منقولان حرفيًّا من بائية ذى الرمة المشهورة التى عرضنا لها فى كتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ولم يلتمس الشاعر منه المشهدين فحسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند النبهانى إذ يقول :

واعتاده أَنَفُ الكريـ ـم فكرَّ كالبطل المحامى

وللخمر حيِّز كبير فى الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخى أنه كان يطلق لنفسه العنان فى مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرية لأبى نواس ، ويبين مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره فى الخمر قوله :

وكم جنَّةٍ فى الأرض دانٍ قطُوفُها ... بها غُرُفاتٌ أيَّما غُرُفاتِ
قضينا بها أيامنا بمُدامةٍ ... لدى قاصرات الطَّرْفِ بين سُقَاةِ
وحُورٍ كأمثال الدُّمَى وبَراغزٍ ... يُطَرِّبْنَنَا بالنَّايِ والنَّغماتِ

وواضح أنه لكى يحمِّل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللائى يقصرن عيونهن على صواحبهن ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالحور العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز وهن يطرِّبنهم بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر فى الدنيا ونوائبها إذ نرى له بعض مواعظ فى ديوانه – وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقتله – ولعل من الطريف أن نجده يختم بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة قوله فى خاتمة إحدى قصائده :

وأختمُ شعرى بذكر الرسولِ ... نبىٌّ البريَّة نورِ الظلامِ

وفى الحق أنه كان شاعراً مجيداً ، وتكثُر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين . غير أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية فى الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذى ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة فى سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعاته المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنّابى إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع فى سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائيا – ودخلوا فى طاعة الخليفة العباسى وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين – كما مرَّ بنا – تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعاته إلى اليمن أحدهما يمنى هو على بن الفضل والثانى كوفى هو منصور بن حوشب ، واستطاع علىّ أن يستولى على صنعاء ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبى وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأنشد له أو لبعض شعرائه (١) .

خُذى العودَ يا هذِه واضْرِبِى ... نُقيمُ شرائعَ هذا النَّبِى
تولَّى نبىٌّ بنى هاشمٍ ... وجاء نبىٌّ بنى يَعْرُب
أحلَّ البناتِ مع الأمهاتِ ... ومن فضله زادَ حِلَّ الصَّبِى
وقد حطَّ عنا فروضَ الصلاةِ ... وحَطَّ الصيامَ فلم نتعب

(١) الخلاف السليمانى ١ / ١٤٢ .

ولانطلب السَّعْىَ عند الصَّفا ولا زورةَ القَبْرِ فى يَثْرِبِ

فهو نبىٌّ يَعْرُب أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عدو الله والإسلام أن لقى حتفه -كما مرَّ بنا- فى سنة ٣٠٣ بمشرط حَسَنىّ متطبب ظل يترصده حتى وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة بالفاطميين حين كانوا لا يزالون فى المهدية بالقرب من تونس ، واتخذوه داعية لهم فى اليمن فاستولى على بعض الحصون ، وتوفى سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفى وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعى الكبير على بن محمد الصُّلَيْحى (٤٣٩ - ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا ، وكان قد تتلمذ على داع فاطمى يمنى يسمى سليمان بن عبد الله الزواحى ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته فى اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء مختلفة . وبايعه رؤساء قبيلة هَمْدان على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم على صنعاء وعدن وزَبيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين فى مستهل حديثنا عن كثرة الشعراء فى الفصل الماضى ، ويشك بعض القدماء فيما ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض الشعراء على لسانه [1] . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر الفاطمى من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذره فيها بحرب مُبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمى أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه [2] :

دَمُ الأبطال فى اليوم العَبوسِ مُدامى لاشرابُ الخَنْدَرِيسِ
وكم ملكٍ أسرتُ وكم خميسٍ أباد سَراتَهُ قَتْلاً خَميسى [3]

وكان الهيثمى مابنى يشيد بعلى الصليحى وحروبه وماسجَّل فيها من انتصارات . وكان لاينهض بعمل دون أن ينشده بعض مدائحه ، من ذلك أنه لما عزم على الحج فى سنة ٤٥٩ وأناب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمى ينشد [4] :

إنَّ سيْفَ الإمامِ كالبَحْرِ ذى المو جِ له فى البلاد مَدٌّ وجَزْرُ
ولئن ساءنا فراقُ علىٍّ فبِحَمْدٍ ابنه لنا ما يَسُرُّ

ولم تكتب لعلى الصليحى العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٦ .
(٢) الخلاف السليمانى ٢ / ٢٧ .
(٣) الخميس : الجيش . السراة : السادة .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٧ .

آل نجاح على زَبيد ، فرصده سعيد بن نجاح – وكان معه أخوه جياش – فى عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الشعراء يعزُّون فيه ابنه المكرَّم ويرثونه ، من ذلك قول الهيثمى[١] :

وأنشأ الحجَّ إلى مكَّةٍ   يبغى رضا الله وأجرًا جزيلْ
وارتجَّت الأرضُ له هيبةً   بمن بها بين فُراتٍ ونيلْ
فإن يكن نِيلَ على غِرَّةٍ   فالبدرُ لابُدَّ له من أفولْ

وظلت السيدة أسماء فى الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرَّم فى سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفى العام التالى فتك بسعيد وهرب أخوه جيَّاش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمال برٍّ كثيرة ، وكان يُخْطَبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصُّلَيْحى[٢] ، وفيها يقول الهيثمى[٣] :

رسمتْ فى السماح سُنَّةَ جودٍ   لم تَدَعْ من معالم البُخْل رَسْمَا
قلتُ إذ عظَّموا لبلقيسَ عرْشاً   دَسْتُ أسماء من ذُرَى النَّجْم أسْمَى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لاتقلّ عنها فضلا ، وقد نشأت فى حجر السيدة أسماء وعُنيت بتربيتها وأحضرت لها الدعاة كى يعلِّموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفِّى زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدبير شئون الدولة الصليحية ، فكان يُخْطَبُ لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يستَرد زبيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانه على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليها الصليحى ووزيره على بن القِمّ ، ويقال ان ابن القِمّ أحسن استقبال جيَّاش حين دخل زبيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعى سبأ بن أحمد الصليحى وأشركته معها فى الحكم وكان شاعرا جواداً ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة[٤]

ولما مدحتُ الهِبرزىَّ ابن أحمدٍ   أجاز وكافانى على المَدْح بالمدحِ
فعوَّضنى شعرا بشعرٍ وزادنى   عطاءً فهذا رأسُ مالى وذا رِبْحى

وتوفى سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمَّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وتزعَّم الدعوة فى اليمن بعدها آل زُرَيْع أصحاب عدن وكانوا يُجْزلون العطايا للشعراء حتى عُدُّوا عند بعض أمرائهم بالعشرات ، وأكبر

---

(١) الهمدانى ص ١٠٣ والخلاف السليمانى ٢ / ٣٢ .

(٢) الهمدانى ص ٦٧ .

(٣) تاريخ اليمن لعمارة طبعة كاى ١٦ والشاعر يسمى فيه خطأ أسعد بن نجى . انظر الهمدانى ص ٦٧ .

(٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة ببيروت) ٢ / ٣٣٧

والهبرزى : الأسد .

شعرائهم غير منازع أبوبكر العَيْذى . وله مدائح طنانة فى الداعى الزريعى عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله [١] :

ما إن تَخُطُّ يَدُ العُلَى أوْصافَهُ ... إلا بِسُمْرِ الخطِّ لا بِيرَاعِ [٢]
لو أن تُبَّعَ كان أدرك عصرَهُ ... أضحى له من جُمْلة الأتباعِ
خضعتْ له غُلْبُ الملوكِ وإنما ... خضعتْ لضَرَّارٍ لها نَفَّاعِ
وعنتْ لعالى القَدْرِ منه مؤيَّدٍ ... ماضى الأوامر فى الزمان مطاعِ
والمالُ مقتَسمٌ مُشاعٌ عنده ... بِيَدِ النَّدى والجدُ غيرُ مشاعِ

وروى له العماد فى الخريدة مدائح كثيرة مُعْجَباً بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة اليمنى إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العماد من مدائحه للداعى الزُّرَيْعى لانجد فيها إشارات للمذهب الإسماعيلى ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعماد فى خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ماجاء عفوا على نحو مايلاحظ فى القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية فى مصر ، واتخذتْ موقفه أكثر كتب التراجم فى عصره وبعد عصره ، وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين اليمنيين فى العصر ، وهم ابن القم ، والسلطان الخطاب ، وعُمارة اليمنى .

ابن القُم [٣] .

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن القم ، وُلد بزَبيد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستيقظت موهبته الأدبية مبكرة على مايظهر ، وكان أبوه على من أنصار على بن محمد الصليحى وشيعته ، فحين ولَّى الأسعد بن شهاب على زبيد وتهامة بعد استيلائه عليهما سنة ٤٥٢ جعله وزيره . ويبدو أن الأب ألحق ابنه بدواوين على الصليحى فى صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهنئ المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرَّة فى هذه السنة منشداً :

وكريمةِ الحَسَبَيْنِ تَكْنفُ قَصْرَها ... أُسْدٌ تخاف الأُسْدُ من صَوْلاتِها
ظفرتْ يداك بها فَبَخٍّ إنما ... لك تَدَّخرُ العلياءُ مَضْنوناتِها

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٢ .

(٢) سمر الخط : الرماح . اليراع : القلم .

(٣) انظر ترجمته وأشعاره فى الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٧٤ ومعجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ وفوات الوفيات (نشر مكتبة النهضة المصرية) ١ / ٢٧٨ ومعجم البلدان : مادة أشيح وكتاب «الصليحيون» للهمدانى فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والخلاف السلمانى ٢ / ٤١ . وراجع أيضاً فى ترجمته وشعره المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد لعمارة اليمنى تحقيق محمد بن على الأكوع .

ولما توفى على الصليحى رثاه على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرِّضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حُبْشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن على بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعلى الصليحى بمثل قوله :

أقَحْطانُ هُزِّى البيضَ واعتقلى السُّمْرا ... ورُدِّى العَوالى من دماء العِدَا حُمْرا[١]
ولا تُهْـــدِرِى ثــأرَ المظفَّر إنَّهُ ... بَنى لكمُ مجداً وشاد لكم فخرا[٢]

وليس فى المصادر التى بين أيدينا مدائح له فى المكرم ، ولكن أُثرت له بعض رسائل وجَّهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمى ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء فى عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب فى زَبيد . كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جيَّاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زبيد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زبيد . وأكبر الظن أن الحسين لم يَشْرك أباه فى خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أرْوَى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول فى تضاعيفها :

أعلمتَ أن من الرماح قُدُودَا ... ومن الصِّفاح محاجراً ونُهُودا
أعْلى الأنام أباً وأكرمُ طينةً ... وأتمّ أعراقا وأصلبُ عودا
لو كان يُعْبَدُ للجلالة فى الوَرَى ... بَشرٌ لكانتْ ذلك المعبودا
هى نعمةُ الله التى ما ماؤها ... ثَمْداً ولامعروفُها مجحودا[٣]

والبيت الأول رائع فى تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان المكرم[٤] وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفى سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه فى حصن أشْيح حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إن ضامَك الدهرُ فاستعصمْ بأشْيَحَ أو ... أزْرَى بك الفقرُ فاستمطرْ بنانَ سبَا
تَخالُ صارمَه يوم الوَغَى نَهَراً ... تَضرَّمتْ حافَتاهُ من دمٍ لهبا

والصورة فى البيت الثانى طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعانى ، مع جزالة الأسلوب ونصاعته ، وفى سبأ يقول من قصيدة ثانية :

---

(١) البيض : السيوف . السمر : الرماح . العوالى : أسنة السيوف والرماح .
(٢) المظفر : لقب على الصليحى .
(٣) ثمداً : قليلاً .
(٤) فى الخريدة لعمارة أنه (كان شاعراً ومترسلاً يكتب عن السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .

كريمٌ إذا جادتْ فواضلُ كفِّهِ ... تيقَّنتَ أن البُخْلَ ماتفْعلُ السُّحْبُ
وما كنت أدرى قبل قَطْعِ هباتهِ ... إلىَّ الفيافى أنَّ أنْعُمَهُ ركْبُ

والصورتان طريفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجى معاصره ابتكر معناه كما يقول العماد -نقلا عن نجم الدين بن مَصَال -وقد أحسن صياغة مغزاه ، وهو :

طـويتُ إلـيك الباخلين كأننى ... سَرَيْتُ إلى شمس الضُّحَى فى الغَياهبِ

وهو بيت من قصيدة له فى ناصر الدولة أبى على بن ناصر الدولة بن حمدان ، فأعجب به إعجابا شديدا وقال : والله لآخذن هذا البيت منه ، وما هى إلا أن مدح سبأ ابن أحمد فقال فيه :

لفظتُ ملوكَ الأرضِ حتى رأيتهُ ... فكنتُ كمن شَقَّ الظلامَ إلى الصُّبْحِ

يقول العماد : « ولم يقصِّر فى هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » . وربما لم تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى فى بيت ابن سنان على الصبح فى بيت ابن القم ، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغى ، ومن المؤكد أن بيت ابن القم بديع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل فى تعليقاته على أبياته فى الخريدة أنه كان يتأثر غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله فى جيَّاش بن نجاح :

ومأأنت إلا البدرُ أظلم مَنْزِلى ... وكلُّ مكانٍ نورُه فيه ساطعُ

إلى قول البحترى فى مديح الفتح بن خاقان :

وبدرٌ أضاء الأرض شرْقاً ومغربا ... وموضعُ رجْلى منه أسودُ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا فى الصورة بحيث تُنسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة فى عتاب جياش وقصائد أخرى فى عتابه على أنه حاول الاتصال - أو اتصل - به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط عليه ، وكأنما انضم ذلك إلى صنيع أبيه الذى أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد معتذرا مستعطفا . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضاً أبياتا مختلفة له فى مدحة ميمية إلى المتنبى ، من ذلك قوله فيها :

كأن مَواضيه طُبِعْنَ من الشَّجَا ... فَهنَّ من الأعداء بين الغَلاصِمِ

فقد ردَّه إلى قول المتنبى فى مديح على بن إبراهيم التنوخى :

وقد صُغْتَ الأسنة من هموم ... فما يَخْطُرن إلا فى الفؤادِ

وبيت المتنبى أروع إذ أين الشجا والهموم من الغلاصم التى تصل بين الرأس والعنق . بينما موضعها القلب والفؤاد . وردّ قوله فى نفس القصيدة يصف الإبل التى ركبوها إلى الممدوح :

قَصَدْن بنا مَنْ لو نجنّبْنَ قَصْدَهُ　　سَرَتْ نحونا جَدْواه مَسْرى الغَمائمِ

إلى قول أبى تمام :

كالغيث إن جئتَهَ وافاك ريِّقُهُ　　وإن ترحَّلتَ عنه لَجَّ فى الطَّلَبِ

وأيضا بيت أبى تمام أكثر روعة . وقد ردَّ العماد قديما قوله فى تصوير بأس البطل المحارب الذى يبلغ من شجاعته أن يُشْغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبّله ، ولايزال يعانقه :

يظن هِنْديَّه هِنْداً فَيَلْثِمهُ　　فما يزال بليلٍ مُغْرِس الضَّرَبِ[1]

إلى قول أبى العلاء فى تصويره البطولة :

يقبِّل الرُّمْحَ حبًّا للطعَان بهِ　　كأنما هو مجموعٌ من اللَّعَسِ[2]

وبيت أبى العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعا وهو فرق مابين كبار الشعراء وشاعر مثل ابن القمّ : وبدون شك يُشْكر ابن القم لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذه إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار مختلفة فى الهجاء والرثاء والغزل ، ونسب إليه ياقوت البيتين التاليين فى تحمل مشقات الحب والمتاع بلذاته :

تشكّى المحبون الصبابة ليتنى　　تحملتُ مايلقون من بيْنهم وَحْدِى

فكانتْ لنفسى لذةُ الحب كلُّها　　فلم يَدْرِها قبلى محبٌّ ولابَعْدى

ولايُعرف تاريخ مولده ولاتاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة ٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجرى لاالقرن السادس ، وقد أنشدنا له أشعارا نظمها فى سنة ٤٥٨ وفيما تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد الصليحى سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زبيد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال شيئا من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره فى الخريدة . والجزء الأخير من حياته أوقل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن السادس .

---

(١) هنديه : سيفه . الضرب : عسل النحل .　(٢) اللعس : سمرة فى الشفة .

السلطان الخطّاب (١) :

هو الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحَجْوِيرِىْ الهَمْدانى ، كان أبوه الحسن حاكما لوادى الجُرَيب ومدينته فى إقليم الحجور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطاب كان أخا فى الرضاعة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان فى حكم الجريب ، ودان له أخوه الخطاب بالطاعة ، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت فى سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أرْوَى له . وظل الخطاب يستدرج أخاه ، حتى أمن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمهله القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية فى سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثانى وهو الخطاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعى اليمن الفاطمى فى عصره الذُّوَيْب بن إسماعيل ، وكان من مريديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا فى نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أوكما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الآمر الخليفة الفاطمى فى سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقساما ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة فى إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الآمر حاملا ، فرأى بعض المتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الآمر . وأعلنت الملكة الحرة أرْوَى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية فى اليمن عن مركزها فى مصر ، وانفصل معها داعيها الذُّوَيب ونائبه السلطان الخطاب حاكم الجريب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراته للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمى وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية فى أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وسنقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية فى الديوان من خلال مديح السلطان

(١) انظر فى ترجمة السلطان الخطاب الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٠٧ وكتاب « الصليحيون » للهمدانى ومقدمة إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاطمية .

الخطاب للآمر الخليفة الفاطمى ، من ذلك قوله فى قصيدته الأولى التى يمدح بها الآمر :

يامَنْ أسمِّيه بالألفاظ معترفاً أنَّ المعانىَ فيها عنْه تَقْصِيرُ
وما ظهرتَ من النَّاسُوت أنت بِهِ تجلِّياً لهُدانا فهْو مشكورُ
صَفْوٌ من الصَّفْوِ شَفَّافٌ تَقَدَّسَ أَنْ يَشُوبَ جوهرَه الشفَّافَ تكديرُ

وهو يصرح فى الأبيات بأن الآمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر ، ويقول إنه فى الظاهر ناسوتٌ أى جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، هـو شبح يكمن فيه اللاهوت وهـو الجانب النورانى . وفكرة الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين فى المسيح . ويقول الخطاب عن الآمر إنه صفو شفاف لاتشوبه الأكدار أى أنه نورانى خالص . ونمضى معه إلى القصيدة الثالثة ، وهى أيضا فى الآمر :

يامَنْ نسمِّيه تعريفا نقرِّرُهُ بشَخْصه فى نفوس القوم تقريرا
ولونشاءُ لقلنا فى النداء له بالصِّدْقِ ياحَىُّ ياقيُّوم مشهورا
ياعالِمَ الغَيب منا والشهادةِ يا بارى البريَّةِ تركيباً وتصويرا
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ صَمَدٌ شهادةً لم تكن مَيْناً ولا زُورا

والخطاب يشير فى الأبيات إلى مازعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لايجوز أن يسمى باسم لأنه أسمى من كل اسم ، ومن ثَمَّ يُضْفُون أسماءه الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم ، غلوا مذموما ، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته ، على نحو مانرى الآن عند الخطاب ، إذ لايجد بأسا من أن ينادى على الآمر بأنه الحى القيوم وأنه الفرد الواحد الصمد ، كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين . ويزعم أنه عالم الغيب والشهادة . ويمضى فى هذا الغلو الشنيع قائلاً للآمر :

أنت الذى كلُّ شىءٍ نحن نعلَمُه فانٍ سوى وَجْهِه عكساً وتغييرا
أنت الذى فَطَرَ الأشياء قاطبةً خلْقاً وأمْرا وإيماراً ومأمورا
أنت الذى سَمَكَ السَّبْعَ الشِّداد على علمٍ أدار بها الأفلاكَ تَدْويرا
أنت الذى سَطَح الأرضَ المِهادَ لنا فَرْشا وقدَّر فيها الرزْقَ تقديرا

وهو يزعم أن الآمر سرمدى الحياة ، لايلحقه فناء ، وكأنه إلهى الذات ، ويشير فى البيت الثانى إلى وصف القرآن للذات العلية فى مثل قوله : (فاطر السموات والأرض) وقوله : (ألا له الخلق والأمر) . ويجعله فى البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبرَّ الأفلاك فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : (والأرض فرشْنَاها فنِعْمَ الماهدون)

وقوله : (قُلْ إن ربى يَبْسُطُ الرزق لِمن يشاء ويقدر) . ويقول أيضا فى مديح الآمر :

يا عِلَّةً لوجود الشىء من عَدَمٍ   وكاشفاً عنه بالأنوار للظُّلَمِ
وعالماً بخفيَّات الأمور غَدَا   للناس أشهَرَ من نارٍ على عَلَمِ
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ نطقتْ   بفضلهِ سُوَرُ القرآن عن أَمَمِ
وجَّهْتُ وجهىَ فى سِرِّى وفى عَلَنِى   إليك إذْ أنتَ مَعْنَى البَيْتِ والحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام ممثول العقل الأول الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه ، بحيث يصبح العقل الكلى وجوهر الملكوت وعنه تصدر جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ماسواه . ويزعم الخطاب أنه : (يعلم السر وأخفى) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضله من أَمَم أى قريب ، يشير إلى مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيرا) . وكلمة « البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو حِمى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء فى الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدر فيه عن عقيدته الفاطمية منشدا مثل قوله :

أمولاتنا يا مَنْ بباهرِ نورها   تجلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ
ويا حجَّةَ المَوْلَى التى ببيانها   هَدَى الله مَنْ حيَّرَتْهُ الشبهاتُ
أُجِلُّكِ عن موتٍ بروحكِ نازلٍ   وأنتِ لأرواح الأنام حَيَاةُ

وهو يصفها فى البيت الثانى بأنها حُجَّة الإمام ، والحجة فى الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مرتبة تلى مرتبة داعى الدعاة فى المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة فى إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والآمر فى اليمن وزعيمة الدعوة الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب فى البيت الأخير أنها لم تمت ، وكأن حياتها سرمدية كحياة الأئمة . وكل ما قدمنا غلو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله . وفيه كثير من المديح والهجاء والفخر . وأجود مدائحه فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجعله تعمقه فى العقيدة الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة فى بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية . وعرض إسماعيل قربان حسين لطائفة منها بالتحليل والتعريف .

عمارة اليمني [١]

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمني ، من أهل الجبال في تهامة . من قرية يقال لها مُرّطان في وادي وَساع ، وهو قحطاني مَذْحجي من سلالة الحكم بن سعد العشيرة . ولد في سنة ٥١٥ في أسرة تهتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافى سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زبيد فتثقف فيها الفقهَ الشافعي ، وقُرئَ عليه مدة ، وله في الفرائض مصنف مشهور في اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زَبيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زُرَيْع حكام عدن وبعلى بن مهدى الذى خلف آل نجاح على زبيد ، وكان الأولون سُنّيين والثانون إسماعيليين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فُليتة الزيدى ، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفائز الفاطمى ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رُزّيك وزير الفائز في قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول في تضاعيفها :

قد رُحْتُ من كَعْبة البَطْحاء والحَرَمِ   وَفْداً إلى كَعْبة المعروف والكرمِ
فهل دَرَى البيتِ أنى بعد فُرْقتهِ   ماسِرْتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ

ولم يكد يفرغَ من إنشاد القصيدة حتى أُفيضت عليه الخلع ، وأُغدق عليه طلائع خمسمائة دينارٍ وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زَبيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالغ طلائع وبنوه في إكرامه ، وله فيهم مَدائح كثيرة . وقُتل طلائع بعد قدومه الثانى بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظى بعده بجوائز الوزيرين شاوَر وضرغام ، وله في شاور وطلائع مراث بديعة ، وكان قريبا منَ نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وزر أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . ومازالت العطايا تُسْبغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبى ، وله ميمية حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولها :

---

(١) انظر في عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٠١ وابن خلكان ٣ / ٤٣١ والروضتين ١ / ٢ / ٥٧٢ ومفرج الكروب ١ / ٢١٢ ، ٢٣٨ والسلوك للمقريزى ١ / ١ / ٥٣ والنجوم الزاهرة ٦ / ٧٠ والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندى وتاريخ ثغر عدن لباعزمة والشذرات ٤ / ٢٣٤ وتاريخ ابن الأثير ١١ / ٣٩٨ وصبح الأعشى ٣ / ٥٢٦ والاعتبار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ص ٩٤ وكتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت وبه ديوانه .

العِلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ   وشَفْرَةُ السيف تَسْتغنى عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعيا شديد التعصب للسنة ، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعى فى زبيد . أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بآل زُرَيْع الإسماعيليين وبأمير مكة الزيدى . ولعل السبب فى أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعمّمه أنه وجده فى كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن رزّيك عرض عليه أن يدخل فى العقيدة الإسماعيلية ، فأجابه بأن يمنّ عليه بسدّ هذا الباب . ولكن كتاب النكت - فيما يبدو - أُلّف فى عصر الأيوبيين ، فكان طبيعيا أن يُخْفِى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته فى تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه فى قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين وسماها « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » يصف كثرة ما كان يصله من عطايا الفائز والعاضد ووزرائهما بمثل قوله :

مذاهبهم فى الجود مذهبُ سُنّةٍ   وإن خالفونى فى اعتقاد التشيُّعِ

وهذا وأمثاله كان - فى رأينا - سبب ضلال ابن خلكان فى الحكم عليه ، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائحه فى الخليفة الفاطمى العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لايشك فى أنه اعتنق المذهب الفاطمى الإسماعيلى ، من ذلك قوله من قصيدة فى مديح العاضد وطلائع :

لا يبلغ البلغاء وَصْفَ مناقبٍ   أثْنى على إحسانها التنزيلُ
شِيَمٌ لكم غُرٌّ أتى بمديحها الـ   ـفُرْقان والتّوراةُ والإنجيل
سِيَرٌ نَسَخْناها من السُّورِ التى   ما شانها نَسْخٌ ولا تبديلُ

وهو يشير إلى ماجاء فى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيهما من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء فى سورة الصفّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) وهذه الفكرة التى تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين فى التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطاب فى الخليفة الآمر :

هو الذى كَتَبتِ التّوراةُ عنْهُ وفى   الإنجيل ما ضُمّنَتْ فيه المزاميرُ

ودائماً يقرّر عمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول فى نفس اللامية السالفة ، ونراه يقول فى دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن رزّيك :

أغنى عن التّقْليد نَصُّ إمامةٍ   والنّصُّ يَبْطُلُ عنده التّقْليدُ

لاشيء من حَلٍّ وعَقْدٍ فى الوَرَى إلا إلى تدبيره مردودُ
ملكٌ أغاثَ المسلمين وحَاطَهُمْ منه وُجودٌ فى الزمان وَجودُ

وهو يردِّد ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة فى الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهى ليست مفوضة للأمة ، بل هى من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة فى البيت الثانى إلى نظرية العقل الفعال التى يمثلها الإمام والتى تجعله - كما مر بنا عند السلطان الخطاب - يدبِّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حَلٍّ وعقْد . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفَيض الأفلاطونى المعروفة عند الإسماعيليين والتى تجعل الأئمة ماثلين فى كل وجود إنسانى . ويقول فى مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كم آيةٍ رُوِيَتْ لكم أسرارُها آلَ الوَصىِّ وللوَرَى إعلانُها
فكأنما تأويلُكم أرواحُهـا وكأنما تفسيركم أبْدَانُها
وكأنَّ عِلْمَ الكائنات وديعـةٌ مخزونـةٌ وصدوركم خزَّانُها

وهو هنا يردِّد ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لايعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بينة على أن عمارة تحول فى مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يُحَدّ ولا يوصف حين دالتْ دولة الفاطميين ، وبثَّ هذا الحزنَ الغاضب غضبا عنيفا فى لامية له مشهورة استهلّها بقوله :

رميتَ - يا دهرُ - كفَّ المجدِ بالشَّللِ وجيدَه بعد حُسْنِ الحَلْىِ بالعَطَلِ
هَدَمْتَ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ سُقِيتَ مُهْلاً أما تمشى على مَهَلِ
يا عاذلى فى هوَى أبناء فاطمةٍ لك الملامةُ إنْ قصَّرتَ فى عَذَلى

وهو فى هذا الاستهلال ملتاع لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسبُّ الدهر الذى أطاح بها ويدعو عليه أن يُسقَى المُهْل شراب أهل الجحيم . ويدعو عُذّاله على حب الأئمة الفاطميين أن يظلوا فى عذلهم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لغليل نفسه . ويمضى فيدعو رفيقه أن يبكى معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل ، وكأن النكبة هنا أكثر أسى وفجيعة ، ويقول إن الجرح الذى أصاب فؤاده بزوال الدولة الفاطمية لا يندمل ، وما يلبث أن يقول عجبا ينزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوان لهم فى الدين ، ويقول :

لربَّما عادتِ الدُّنيا لمَعْقِلِها ... منكمْ وأضحت بكم محلولةَ العُقُلِ(١)
والله لا فازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغِضكم ... ولا نجا من عذاب النار غيرُ وَلِى

وهو فى البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمعقلها ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم فى هذا المعقل كانت قد فسدت فساداً لاحدَّ له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُرَدَّ القَوْسُ إلى باريها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمى إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بَصَرَ عُمارة بغشاوة ، فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعَّد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتمادى فى هذا الغىّ والضلال ملوِّحًا بيده فى وجه صلاح الدين زاعما أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حبهم أصل الدين ، يقول :

أئمةٌ خُلقوا نورا فنورهُمُ ... من نور خالصِ نور الله لم يَفِلِ(٢)
والله لازُلْتُ عن حبِّى لهم أبدا ... ما أخَّر الله لى فى مدَّة الأجَلِ

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهو فيض من نور الله ، لا تشوبه أى مادة ، وهو غلو واضح فى تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتب لعمارة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلن أنه سيظل على حبهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسوَّل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين ، فى مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكاتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم مددا ، وعُرفت نيتهم ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأُعدموا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة ٥٦٩ بالقاهرة . وكان لابد لعمارة أن ينتهى هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد للدولة صلاح الدين بلسانه وهمَّ أن يكيد بيده ، وكأنما غطَّى القدر – كما يقول العماد – على بصره . وقد طُبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشر كاى ، ومنها مختصر المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ، ومنها النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٢

شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا فى الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

---

(١) العقل : جمع عقال . (٢) يفل : يأفل : يغرب .

وهى تُنْسَبُ إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لاتعرف نحلتهم التستر والتخفى للإمام فى الدعوة ، وهى لا تشارك نحلتى الإسماعيلية والإمامية فى العلم الباطنى ، ولا تتغلغل فى فكرة العقل الفعال التى مرت بنا عند الإسماعيلية والتى تعطى الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتى تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه . وهى لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفى أن يكون الإمام الكفء الداعى لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشريعة ورعا شجاعا جوادا ، وتجوِّز هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحَّحت خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على ، ولم تجوِّز القَدْحَ فيهما كما تصنع الإسماعيلية والشيعة الغالية . وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين فى الحجاز والعراق وإيران أخفقت فى القرن الثانى للهجرة فإنها نجحت فى المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التى أسسها إدريس بن عبد الله الحسنى بفاس فى عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاما . ونجحت كذلك فى طبرستان فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاما . واستطاعت أسرة بنى سليمان أو بنى موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم فى مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرهم الهواشم من أسرتهم أن يغادروا مكة إلى المخلاف السليمانى ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب فى دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسنى عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية .

وقامت فى صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم فى سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء فى حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجرى انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية فى الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هى مكة والمخلاف السليمانى وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وعنى الأمراء والأئمة فى كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم أقلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعيا أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتوح وقد أنشدنا له أبياتا طريفة فى غير هذا الموضع ، وكان عيسى بن فُلَيْتة أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعرائه وفى مقدمتهم قائده النوبى الأصل سالم بن أبى سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة[١] :

هو نورُ ربٍّ العرش بين عبادهِ ... فليعلموا والحجَّةُ البيضاءُ
لله يأمر باطنا أو ظاهراً ... فتصرُّفُ الأقدار كيف يشاءُ
يوماه يومٌ للنَّوال وآخَرٌ ... تُرْدَى بسَطْوة بأسِهِ الأعداءُ
إن الثناء عليك من ربِّ السَّما ... أغناك عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو فى مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو فى مديح الآمر الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحجة القائم على رعيته ، وتجرى الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناءه على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا ، ومن قوله[٢] :

وأذَّنْتُ حين تجلِّى الصباحُ ... بحيٍّ على خيْرِ هذا العمَلْ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والمخلاف السليمانى ينادون فى الأذان : « حيَّ على خير العمل » . ويمتلئْ كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة ، ويكفى أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحَنْديدى فى حُمَيْضة أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة[٣] :

خليفةٌ لا يُخْلف الوَعْدَ ولا ... يَضَنُّ عن سائله بما اقتنَى
إمام حَقٍّ جَدَّ فى الله فما ... فى الله مُذْ جَدَّ وَهَى ولاوَنَى
أخاف فى الله تعالى مَنْ بَغَى ... وأمَّن الخائفَ حتى أمِنَا
هو ابنُ مَنْ أَسْرَى به الله ومَنْ ... مِنْ قابِ قوسين تدلَّى ودَنا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البغى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسراء بالرسول ومعراجه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : (ثم دَنا فتدلَّى فكان قابَ قوسَيْن أو أدْنَى) . وللحَنديدى فى مديح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٤٦ .
(٢) العقد الثمين ٤ / ١٦٢ .
(٣) العقد الثمين ٤ / ٢٤٨ .

أخيه رُميثة أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة[1] :

نَسَبٌ كمشتقٌ الشموس ومفخرٌ باعُ الكواكب قاصرٌ عن طوله
أما الفروعُ فليس مثلُ فروعه وكذا الأصولُ فليس مثلُ أصوله
يابنَ المظلَّل بالغمامة والذى قد أُنزل القرآن فى تفضيله
ماذا عَسَى مَدْحى وقد نَزل الثّنا فيكم من الرَّحمن فى تنزيله

ووراء الحنديدى كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا فى زمنه فحسب ، بل فى جميع الأزمنة ، وفى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبى طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء فى القرن العاشر الهجرى ، من ذلك قول عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة فى حسن بن أبى نُمَىّ أمير مكة من مدحة طويلة ، عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة[2] :

ملكٌ إذا ما جال يومَ كريهةٍ لم تَلْقَ غير مُجَدَّلٍ ومُعَفَّر
ملكٌ نَداه البَحْرُ إلا أنه عَذْبٌ أهذا البحرُ نهرُ الكوثر
ذو الهمة العَلْيا الذى قد نال ما عنه تقصِّر همَّةُ الإسكندر
أعْظِمْ بها من نِسْبَةٍ نبويَّةٍ عَلَوِيَّةٍ تُنْمى لأصلٍ أطْهَرِ

وكثيرون من أمراء المخلاف السليمانى وأشرافه كانوا شعراء مثل ابن وهّاس ودهمش وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدَّحين غانم بن يحيى بن حمزة السليمانى المتوفى سنة ٥٦٠ ويروى أن ابن مَكْرُمان مدحه بقصيدة لامية أعطاه عليها ألف دينار ، وفيها يقول[3] :

علوىٌّ متــــوَّجٌ هاشمىٌّ حسنىٌّ نوالُه مبـــذولُ
يا سليلَ البَطينِ والحرّةِ الزّهْـ ـرا هىَ الطُّهْر والحَصَانُ البَتُول[4]
خمسةٌ خصَّهم بتخصيصه الحنا نُ ربِّى وهْو اللطيف الجليلُ
مالهم سادسٌ غداةَ الذى مَـ ـدَّ عليهم كساءه جِبْريلُ

وهو يشير فى البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ ألقى عليه وعلى علىٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساه وقال : نحن أهل البيت إيماء إلى قوله تعالى : (إنما يريد الله لِيُذْهب عنكم الرِّجسَ أهلَ البيت ويطهِّركم تطهيرا) . ومعروف

---

(١) العقد الثمين ٤ / ٤١٩ .
(٢) سلافة العصر ص ٧٩ .
(٣) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٢ وما بعدها .
(٤) الحصان البتول : العفيفة الطاهرة .

أن المخلاف السليمانى أصبح جزءا من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسليمانيين ، وكانوا يصلون الشعراء ، ويقدمون لهم مدائحهم ، على نحو ما نجد عند ابن هتيمل فى مديحه للأمير قاسم بن على صاحب صُبيا ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله[1] :

حسنىٌّ للسائلين وللمحْـ ... ـروم فيما حوتْ يداه نَصيبُ
ساحةٌ لا يزال فيها رئيسٌ ... مستجيرٌ وسائلٌ لا يَخيب
عزّ فى ظلّ رعلك القاسميّو ... نَ ومنهم قبائلٌ وشُعُوبُ
وسِنانُ القناة لولاه فى طَـ ... ـىِّ العَوالى لم ينفع الأنبوبُ[2]

والمركز الثالث للزيدية فى الجزيرة أهم مراكزهم ، وكانت صَعْدة نقطة الدائرة فيه ، فنها انبعث النحلة ، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع ، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجرى تحت رايتها . ومؤسس هذه الإمامة الزيدية – كما أسلفنا – يحيى بن الحسين بن القاسم ، وله مصنفات مختلفة فى الفقه والعقيدة والتفسير ، ويقول فيه ابن حزم : « له رأى فى الفقه وقد رأيته ، ولم يبعد فيه عن الجماعة » وكان شاعرا ، وله وصية شعرية ذكرها فى كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد ، ومن شعره[3] :

بنى حَسَنٍ إنى نهضتُ بثأركمْ ... وثأرِ كتابِ الله والحقِّ والسُّنَنْ
وصيَّرتُ نفسى للحوادثِ عُرْضَةً ... وغبتُ عن الإخوان والأهل والوطنْ

ويتوالى أبناؤه على صَعْدة من بعده ، حتى يقدم أبو الفتح الديلمى الحسنى فى القرن الخامس فينتزعها منهم ، وينسحبون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك ، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة . ومن أهم أئمتهم وأشهرهم فى القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ – ٥٦٦ هـ) وكان شاعرا مجيدا وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميرى الذى مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء ، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها[4] :

دعينىَ أُطفِى عبْرتى مابدا ليا ... وأبكى ذُنوبى اليوم إن كنتُ باكيا

واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم ، ولم يكد يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردّ عليه بقصيدة وعظية مماثلة مطلعها :

ذكرتَ دياراً دارِساتٍ خَوَاليا ... رُسُوماً عَفَتْ عن أهلها ومغانيا

---

(١) ديوان ابن هتيمل ص ٣٥ .

(٢) العوالى : جمع عالية وهى النصف الذى يلى السنان من القناة . الأنبوب ما بين الكعبين من القناة .

(٣) صبح الأعشى ٥ / ٤٧ .

(٤) انظر فى هذا البيت والبيتين التاليين الجرافى ص ١١٥ .

وهى قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومما كتبه إلى المتوكل قوله فى أبيات :

وأنت تصلح للرّايات تَعْقِدُها ... وفى المواكب تُحْيِى الدِّينَ والسُّنَنَا

ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب فى اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة . أما فى عهد الرسوليين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدى أحمد بن الحسين المكنى بأبى طير (٦٤٦ – ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولى ، انتهت بمقتله فى معركة الحُصَبات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن هُتَيْمل ، ويقال إنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا فى ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية فى عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢ – ٩٦٥ هـ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وسنترجم له . أما أئمتهم فى عهد الاحتلال العثمانى الأول (٩٤٥ – ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ – ١٠٥٤) وهو الذى قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن على بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها[1] :

بلغتْ بنو الزَّهْرا بك المأمولا ... وبطولِ سَيْف عُلاك زادوا طولا

وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ – ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظَفار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهتدى من ميمية طويلة[2] :

إمامٌ عظيمُ السرِّ أمّا نهارُهُ ... فصومٌ وأمّا لَيْلُه فقيامُ

رياضُ الأمانى فى حِماه نَضِيرَةٌ ... وسُحْبُ النَّدى من راحتَيْهِ سِجَامُ[3]

تحمَّل سِرَّ المصطفى بِسريرةٍ ... وسيرةِ عَدْلٍ لا تكاد تُرَامُ

تدفقَ بَحْرُ العلم فى طىِّ صَدْرِه ... أواذىَّ لُجٍّ دُرُّهُنَّ تُؤامُ[4]

ويموج كتاب « نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف » وهو فى مجلدين ضخمين بشعر زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية فى نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسنى اليمنى المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف

(١) الجرافى ص ١٤٨ .
(٢) سلافة العصر ص ٤٧٩ .
(٣) سجام : سائلة كثيرة والانصباب .
(٤) أواذى : أمواج . تؤام : مزدوج .

لها ذيول كثيرة تشير إلى الأئمة التالين فى اليمن [١] . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشو ، والآخران يمنيان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العنّسى الصنعانى .

يحيى بن يوسف النَّشْو [٢]

مكى مولدا ومنشأ وحياة ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبى العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدِّث ، ونال فى الحديث إجازات مختلفة . وعُنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمراء مكة فى زمنه : عُطَيفة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمها عَجْلان بن رُمَيْثة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجا به جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده يكثر من مدائح أمراء مكة الزيديين وفى مقدمتهم من سميناهم آنفا ، وفى عُطَيْفة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول فى بعض مدائحه له :

له هِمَّةٌ تَسْمو إلى كلِّ غايةٍ ... هو الطَّاهِرُ الأَنْسابِ والعَلَمُ الفَرْدُ
هو الملكُ الماحى لمن كان قبله ... فما فى ملوك الأرض طُرًّا لَهُ نِدُّ
هو المنعم المُولى الجميلَ تفضلاً ... فمن سَيْبِه قد أَوْرَقَ الحَجَرُ الصَّلْدُ [٣]
تَخِرُّ له كلُّ الملوكِ مهابةً ... وتَخْرَسُ من إجْلاله الأَلْسُنُ اللُّدُّ [٤]

وواضح أنه يبالغ فى مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجرى بما يشاء ، وينعته بالكرم والعدل ، ويشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفَّى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

ورثَ الفخرَ عن جدودٍ كرامٍ ... قد بَنَى فوق ما بَنَى أمثالهْ
شَرَفٌ ما استفاده من بعيدٍ ... مَلِكٌ أَرْفعُ الملوكِ جَلاله
نَسَبٌ بين أحمدٍ وعلىٍّ ... فَهْوَ من خير [آلٍ] تلك السُّلالَهْ
وهْوَ كالشمس مُدْرِكٌ آمالَهْ ... وجميعُ البلاد تَهْوَى وِصاله

---

(١) انظر فى البسامة وذيولها نشر العرف لزبارة ٢ / ١١٣ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمة يحيى وأشعاره العقد الثمين ٧ / ٤٥٢ وكذلك ترجمة عطيفة فى ٦ / ١٠٢ وابنه مبارك فى ٧ / ١٢٤ وابنه محمد فى ٢ / ١٤٤ وابن أخيه عجلان فى ٦ / ٧٢ .

(٣) السيب : العطاء . الصلد : الصلب .

(٤) اللد : شديدة العداوة .

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان ، وهي شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلذ الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة في محمد بن عُطَيفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عظيمٌ على الوَرَى ... كريمُ الأيادى بالسَّماحة أَوْحَدُ
يجودُ بما تَحْوِى يداه تكرُّماً ... ويعلَمُ أن المال ليس يُخَلِّدُ
فتى لم يَرَ الرامون مثلَ صفاتِه ... إذا قيل هذا حاتمٌ فَهْو أجود
أجلُّ الوَرَى جَاهاً وقَدْراً ورفعةً ... وأكرمُ مَنْ يُرْجَى عَطاهُ ويُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام في كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملاءمات دقيقة ، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء في الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما في هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما في الأبيات السالفة . ومن قوله في مديح عجلان بن رُميثة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

ماذا يقولُ المدحُ فيه وما عسى ... إذ كان يخدم جَدَّهُ جبْريلُهُ
أما الملوك فكلُّهم من دونهِ ... كالبدر في أفق السماء حُلولُه
سلطانُ مكةَ والمشاعرِ والصَّفَا ... منْ لا يخاف من الزمان نزيلُهُ
لو حاول النَّجْمَ العظيمَ لنالَهُ ... تُنْبيك عنه رِماحُهُ ونُصُولُهُ
سكنتْ محبَّتُه القلوبَ جميعَها ... لما تقارنَ سَعْدُهُ وقَبولُه

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسنيين من آبائه وأقاربه يحِبُّ أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعي المذهب(١) . وقصيدة النَّشو فيه بديعة ، وقد افتتحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لولا الغرامُ ووَجْدُهُ ونُحولُهُ ... ما كنت تَرْحمه وأنت عَذُولُهُ
إن كنتَ تنكره فسَلْ عن حالهِ ... فالحبُّ داءٌ لا يُفيق عَليلُهُ
يامَنْ يلومُ على الهَوَى أهلَ الهَوَى ... دَعْ لَوْمَهُمْ فالصَّبْر مات جَميلُهُ

وأنشد صاحب العقد الثمين في ترجمته للنشو مدائح له جيدة في الشريف طُفَيْل بن منصور الحسيني أمير المدينة ، استهلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بمحبوبته وجدا لا يشبهه وجد ، إذ نزلت مع صواحبها بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٣٩ .

أينَ المفرُّ لمن هواكِ طَلِيبُهُ ... وسِهامُ لَحْظِكَ بالسَّقام نُصِيبُهُ
يشكو ولا أحدٌ يرقُّ لما بِهِ ... وارحمتاهُ لمن جفاهُ حَبِيبُهُ
أتكون ساكنَه وأنت تُذيبُه ... وجميعُ ما فى القلب منك عرفتُه
حَنَّ العذولُ عليه حين هَجرْتَه ... ورَثَا له الواشى ورقَّ رقيبُهُ
يا وَيْحَ من يَرْثى لـه أعداؤه ... فشُجونُه لا تنقضى ونحيبُه

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يترقرق فيه الشوق واللهفة والحنان ، حتى ليحنّ على المحب العذولُ والواشى الرقيب ، فكلهم يأسى له ، وهو يلتاع بحبه وشجونه ، ولا يكفُّ عن النحيب ، إذ يحب صاحبته كما لم يحب فتاة قط ، ويحتمل فى ذلك آلاما ثقالا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستهلها بنسيب رائع ، من مثل قوله :

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ اللِّوى والمُنْحَنَى ... فعساك تَظْفَرُ مِنْ لِقاهم بالمُنَى
أهواهُمُ وهواهُمُ لا ينقضى ... أبداً وإن شَطَّ التباعُد بيننا
فلئن ظفِرتُ بزورةٍ أحيَا بهـا ... فلىَ السعادَةُ والمسرَّة والهَنا
يا أهلَ طَيْبَةَ إنَّ لى فى حيِّكم ... قمراً لَهُ كلُّ المحاسن والسَّنا
بَدْرٌ به قد نَوَّرتْ كلُّ الدُّنَا ... أنوارُهُ منهـا الدَّياجى أشرقتْ
ولهُ الفضائِل والمآثِرُ والعُلا ... ولـه المفاخرُ والمحامد والثَّنا

والنسيب كالمديح النبوى يذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهافة الحس بحيث تحسن اختيار القوافى واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

موسى بن يحيى بَهْران(1)

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ .) وليس بيْنَ أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مَدَّ يده إلى المصريين مُعينا حين أرسل قانصوه الغورى طائفة من الجراكسة فى سنة ٩٢١ إلى جنوبى البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت فى جزيرة كَمَران ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بنى طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر فى ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب شعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٩٩ - ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة السلفية) ص ٤٩ . وللشاعر ديوان نظمه فى مديح الإمام شرف الدين .

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدها معه على حربه ، وقضيا عليه وعلى حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها فى طاعته وأكثرت الشعراء من تهنئته بهذا النصر المبين ، وفى مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هنأه بقصيدة رائعة ، فيها يقول :

خليفةُ الرحمن فى أرضــهِ مبارَكُ الوَجْه كريمُ الجدُودْ
برٌّ كَريمٌ من بنى المُصْطفى إمامُ حَقٍّ ساعدتْه الجُدود
قالتْ له الأيام إذ أقبلتْ ما أحسنَ الوَصْلَ عقيبَ الصُّدودْ
وأهلَك الباغين حتى ثَوَوْا واستبدلوا بعدَ القصور اللُّحودْ
واستبشرَ العدلُ بأيامهِ فامتلأ الغَوْرُ بــهِ والنُّجُودْ
وأصبحتْ صنعاءُ من عُجْبِها ترفُل فى مُسْتحسنات البُرودْ

وقد ورَّى الشاعر فى البيت الثانى بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما فى البيت الأول – وكما قد يتبادر – وإنما يريد بها الحظوظ . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله فى كل مكان للعدل الذى لا تصلح حياة الأمم بدونه ، ويشير فى البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل فى القصيدة منشدا :

يا شرفَ الدين وُقيتَ الرَّدَى ودمتَ تَحْمى بالحِداد الحدودْ
لا غَرْوَ أنْ سُدْتَ جميعَ الوَرَى مثلُك يا بَحْرَ النَّدَى مَنْ يسود
علمُك بحرٌ ماله ساحلٌ زَنْدُكَ أَوْرَى من جميع الزنودْ[1]
وجودُ كفَّيك إذا ما همَى غيثٌ مُغيثٌ ما له منْ رعُود

وفى البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس فى شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكثرون من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشريعة . وفى الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية فى الإمامة الزيدية كما مر بنا فى صدر هذا الكلام . ومضى فى القصيدة مبالغا فى مديحه خاتما لها بالدعاء له . ولموسى قصيدة بائية بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حَوى شرفُ الهدى والدين مَجداً رفيعاً وابتَنى شرَفاً عَليًّا

(١) أورى : من ورى الزند إذا خرجت ناره .

بَراه إلٰهنـا بَرًّا صَفيًا ولم يخلقه جبّاراً عَصيًّا
سَرى سِرُّ النبوّة فيه حتى حكى عن جَدِّه خُلُقاً سَنِيًّا
حَوَى علمَ الذين مضوا جميعاً وأصبح وارثا لهمُ وليًّا
تأزّرَ وارتدى بالحكْم كهْلاً وأوتىَ حُكْمَ خالقِه صَبيًّا

وواضح أن قوافى الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكتف بذلك ، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء فى السورة من نعوت للنبى يحيى ، وقارن بين البيت الثانى وقوله تعالى فى نعت يحيى بن زكريا : (وبرًّا بوالديه ولم يكن جبّارا عَصِيًّا) . ويشير الشاعر فى البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التى جاءت فى السورة على لسان زكريا إذ يدعو ربه أن يهبه غلاما : (فَهَبْ لى من لَدُنْك وَليًّا يرثنى ويرث من آل يعقوبَ واجعلْهُ ربِّ رَضِيًّا) . ويكمل الفكرة فى البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك فى البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : (يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة وآتيناه الحكم صَبياً) . وهو غلو واضح . ويمضى فى القصيدة قائلاً :

وقُلْ يابنَ الأكارمِ من قريشٍ وأحْسَنَهم — إذا ذُكِرُوا — نَدِيًّا
ومن دَنَتِ الملوك له وذلّتْ وخرّتْ من مهابته جثيًّا
بفضلك تُتّقَى نُوَبُ الليالى . فكُنْ فى النائبات بنا حَفِيًّا

والشطر الثانى فى البيت الأول مستمد من قوله تعالى فى السورة : (أىُّ الفريقين خير مقاماً وأحسن نَدِيًّا) أى مجلسا وجماعة . والبيت الثانى يستضىء بالفاصلة (جثيًّا) الواردة فى السورة أى تَخِرُّ الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هيبة له وإجلالا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم فى السورة لأبيه : (سأستَغْفِرُ لك ربى إنه كان بى حفيًّا) أى رءوفاً يرعانى . ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، يقول :

عليك سلامُ رَبك ما تَغَنّتْ حَمامُ الأَيْك صُبْحا أو عَشيًّا
وصلىٌّ الله خالقُنا على مَنْ تَـخَيّره نَبِيًّا هاشميًّا
محمدٍ المشفَّعِ فى البَرايا صلاة تُبْلغ الأمدَ القَصِيًّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة فى القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله لأمته يوم القيامة . ولهذه القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله فى مقدمة القصيدة الأولى :

لمقلتى فى خَدّهِ جَنّـةٌ محفوفةٌ بالنّار ذات الوَقُودْ

له سيوفٌ طالما سَلَّها ... من لَحْظه يَحْمى ورودَ الخدودْ
سبحانَ من صوَّره فتنةً ... لخلقهِ وهْو الرحيمُ الوَدُودْ
لم أدْرِ أين الثَّغْرُ من عِقْدِهِ ... لما تساوى ثَغْرُهُ والعقودْ
وفى المَها ضِدَّان لم يَبْرحا ... قساوةُ القَلْبِ ولِينُ القُدودْ

والأبيات تكتظ بالصور وبعنصر المفاجأة الذى يجعلها طريفة كل الطرافة ، فالورود فى خَدِّ صاحبته جنة محفوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حامٍ بسيوفه لورود الخدود ، وإنها لفتنة لا تُحاكيها فتنة . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدرى أين ثغرها ولآلئ أسنانها وأين العقود ولآلئها فقد اختلط عليه الأمر . ويخالها تحمل من المهَا قساوة قلبه ولين قدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نقطتف منه هذه الأبيات :

فقلتُ له ونحن بخير حالٍ ... أتفقدُ من جنان الخُلْد شيَّا
فقال وقد تعجَّب من مقالى ... جِنانُ الخُلْد قد جُمِعَتْ لديَّا
فقلت : فسِحْرُ بابلَ أين أضْحَى ... فقال : أما تَراه بمُقْلتيَّا
فقلتُ : الورْد أين يكون ؟ قل لى ... فقال : أما تراه بوَجْنَتَيَّا
فقلت الشَّهْد أين ؟ فقال : هَذِى ... شِفاهى قد حوتْ شَهْداً جَنِيَّا

ويستمر فى حواره مع صاحبته سائلا عن البرق ، فتذكر له أنه يطلّ من مبسمها الوضىء ويسألها عن المرآة وجيد الغزال والثريا فتبدى له خدَّها الباهى وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه ، وفى الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجابا بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونغمه الموسيقى المصفَّى ، ولعل ذلك ما دفع المغنين فى اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتيهما الغزليتين البديعتين .

على بن محمد العَنْسى[1]

يمنى صنعانى ، نشأ بمدينة صنعاء فى بيت علم وفضل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

---

(١) انظر فى ترجمة العنسى وأشعاره البدر الطالع للشوكانى ١ / ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزبارة ٢ / ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن الحسين والسيد عبد الله بن على الوزير ومصطفى الحموى وأحمد بن عبد الله الجربى وصلاح بن الحسين .

زادا كافيا قُلّد القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ - ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غربى زَبيد. وفى سنة ١١٣٦ وُشى إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة: «سماعا عبادَ الله أهلَ البصائرِ» وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه. فقبض عليه القاسم وألقى به فى غياهب السجون، وأخذ العَنْسىّ يرسل إليه قصائد مستعطفا بمثل قوله:

إمامَ الوَرَى عَطفاً على خائفٍ عَطْفا   بحق الذى أبقاك فى خَلْقِه كَهْفا
فو الله مالى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتُه   وهذا الذى أُبْدِى وقه ما يخفى
إمامَ الهدى هَبْنِى جنيتُ جنايةً   فهبنى لأطفالٍ كطيرِ القَطَا ضَعْفا

وتحقق القاسم من براءته، فردَّ إليه حريته، وعينه حاكما بالحَيْمَة من بلاد صنعاء، وظل بها إلى أن لبىَّ نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م. ويكتظ كتاب نشر العرف بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء فى ترجمته وتراجمهم. وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث فى عهد المتوكل القاسم بن الحسين، من ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب السبحة فى صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها:

أما قيل فى البستان وهْو بأهلهِ   وبالمَلْك سامٍ لا يدانيه غُمْدانُ[1]
ويَعْمُره من يَعْمُر الدينَ عدلُه   ويَحْيى بهِ معنى الفخار ويزدانُ

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم فى صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه، ففتك بهم فتكا ذريعا. وصوَّر ذلك العنسى فى ميمية عارض بها ميمية المتنبى فى سيف الدولة التى وصف فيها واقعة الحَدَث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة. وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه، من مثل قوله:

نثرتَ دنانيرَ الوجوهِ على الثَّرى   كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ
هنيئاً لضَرْب الهام والمجد والنَّدى   وراجيك والإسلام أنك سالم
وقوفُك ما بين الخميسين باسماً   وموجُ المنايا حولك المتلاطم
ولستَ مليكا هازما لنظيره   ولكنك الإسلامُ للشرك هازم

والأبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبى: «على قدر أهل العزم تأتى العزائم». وهى ظاهرة تلاحظ فى شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثرون من معارضة الشعراء النابهين لا فى المديح

---

(١) غمدان: قصر عتيق باليمن.

فحسب ، بل فى كل الأغراض الشعرية . ونرى العنسى يقول فى افتتاح قصيدة روضية :

يا سَميرى وللفتوة قومٌ خُلقوا من سُلالة الإنسجامِ
بطراز الرفّا بتشبيب مِهْيا رِ بِلُطْف البَها بطبع السّلامى

وهو يصرح فى البيتين بأنه من قوم يعنون فى شعرهم بالانسجام الموسيقى على شاكلة السَّرِىّ الرَّفاء المشهور بعذوبة ألفاظه ومهيار الذى يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرقة والسلامى المعروف بجمال نغمه . وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العَنْسى وحاكاهم وعارضهم فى شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية فى نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما بادئا بعلى بن أبى طالب الذى اقتلع باب الحصن فى خَيْبر ، فاستؤصلت شأفة الكفر ، ويذكر قتله لعمرو بن ودّ فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وبابنيها الحسن والحسين ريحانتى أهل الجنة وبعلى زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشدا :

ويا خيرَ من سَلّ الحُسامَ وقد طغَى لئيمُ بنى مَرْوانَ أشْقَى بنى الدَّهْرِ
فأصبح مِنْه الجِذْعِ قد عانق العُلا ولكنها فى الدين قاصِمَةُ الظَّهْرِ

وهو يشير إلى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك فى الكوفة ومقتله هناكِ وصلبه ، ويذكر أخاه محمدًا الباقر وابنه جعفراً الصادق . ويذكر ثورات الحسنيين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن على الحسنى على الخليفة العباسى الهادى فى الحجاز ومقتله بفَخّ بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخى النفس الزكية فى يد الرشيد وإلقائه به فى غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية فى طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن ، ويستعرض الأئمة التالين له منوها بهم ومشيدا بأمجادهم ، حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذى تغلب على العثمانيين وردّهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

ويا حُجَّةَ اللهِ الذى قام داعياً إلى الله فرداً لا بزيدٍ ولا عَمْرو
وبشَّرَتِ الناسَ الهواتفُ باسمِهِ كما بَشّرَتْ بالمصطفى مبدأ الأمر
فأخلا عُلوجَ الترك عن يَمن الهُدَى بِضَرْبٍ كما هاج الوَهِيجُ من الجَمْر

ويلاحظ أن العنسى لا يقف عند مبادئ الزيدية فى مديحه ، إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية فى أئمتهم . وقد ساق فى أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الخفىّ من علم الجفر ، وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أنباء المستقبل وأحداثه ، ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل ،

والزيدية لا يؤمنون فى إمامهم بمعرفته لهـــــذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسى يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون فى هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها نحلتهم ، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومرَّ بنا أنه اصطلاح إسماعيلى وأن المراد به أنه الداعى للمذهب فى بلاده . ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدى الشيعى المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ فى تصوُّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم ، كما يفعل الإسماعيلية . وَربما كتب العنسى هذه القصيدة فى سجنه تقربا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة .

وقبل أن نختم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن على الوزير الذى التزم فى جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسى إلى التماس التورية بدوره فى كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسى قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلى مثل : (قضاها لغيرى وابتلانى بحبها) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبى فى كافور مثل : (كفى بك داء أن ترى الموت شافيا) وكان هذا التضمين فى الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعَدّ من الطُّرَف البديعة .

٣

شعراء الخوارج

مرَّ بنا فى الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والنَّجَدات والصُّفْرية ، وكان نشاط الأزارقة فى فارس وكرمان والصفرية فى الموصل والنجدات فى اليمامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموى . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التيمى فقد ظلت حية طوال عصر بنى أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها فى مدينة نَزْوَى داخل إقليم عُمان جنوبى الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى أظلت البلاد جميعها

راية الإباضية إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا فى أيديهم ، واستطاعوا فى حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجى الإباضى على حضر موت ، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمى ، وكان شاعرا ، وله فى الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالى والحربى ضد خصومه ، وفيه يقول[1] .

هذا الخليلُ إمامُ المسْلمين حَكَتْ ... أنوارُ سيرته فى العَدْلِ نيرانا

ويكتظُّ ديوانه بمدائحه ، ولا تكاد تمر حادثة أو يمر له انتصار حربى إلا ويرسل إليه القصائد مهنئا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقى على أبى إسحق عاملا له على حضر موت ، ويُعَدُّ راشد أهم إمام خارجى فى الحقب الأولى لهذا العصر ، إذ استولى على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظِلُّها لواء الإباضية إلى أن استطاع بنونبهان فى القرن السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستمر الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النبهانيين فترة فى القرن العاشر ، ثم يستولى عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربى (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ فى أيدى الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزلوا فى شواطئها ، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صُحار ومسقط فى أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربى (١٠٥٠-١٠٩١ هـ) أن يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله ينكِّل بهم وبأسطولهم فى شرقى إفريقية وغربى الهند . وفى ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافرى ممجداً[2] .

ثُمَّ أَوْرَى لمَسْقَطٍ سِقْطَ عَزْمٍ ... أسقط الظالمين منه ضِرامُ[3]
وغدَتْ من عُمانَ كفُّ بنى الأصْـ ... ـفَرِ صِفْرًا قد هزَّها الانهزامُ[4]
وبِمِمْباسَةٍ أذاقهمُ بَأْ ... سًا بَئِيسًا سِيئَتْ بهِ الأصْنام
ولدى زَنْجِبارَ زَمْجَرَ فيهم ... وَعْدُ زَجْرٍ لم يُنْجِ منه اعتصام
وبِبُمْباىَ نابهم منه نابٌ ... لم يَشُبْهُ عن المَضىِّ انهتامُ[5]

وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالى فى ممباسه وزنجبار وفى بمبى بالهند . وهى انتصارات جديرة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

---

(١) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .
(٢) التحفة ٢ / ٦٠ .
(٣) أورى : أوقد . سقط النار : شرارة أو شعلة منه .
(٤) يريد بنى الأصفر البرتغاليين .
(٥) انهتام : تكسر ثنايا الأسنان من أصولها .

بلعرّب ، وكان شاعرا . وقد تربى فى كنفه شاعر خارجى مهم يسمى الحَبْسى ، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة فى بلعرب بن سلطان ، وفيه يقول [١] :

يا مَنْ إذا ثارَ فى الهَيجْاء يفعل فى | أعدائه فِعْلَةَ الجزّار فى البُدُنِ [٢]
ومَن إذا فاخر الأشراف فى مَلأٍ | شاعتْ مفاخرُه فى الشام واليمن
هذا الكريم الذى تَشْفيك رؤيتهُ | من كل داءٍ ومن هَمٍّ ومن حزَنِ
بلْعرّب نجْلٌ لسلطانَ الذى حَسُنَتْ | أخلاقهُ وهْو ربٌّ المنظر الحسنِ

وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان فى أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرّواحىّ العُمانى . وهو شاعر بارع ، توفى سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠م ولذلك نرى أن نؤخره إلى العصر الحديث فى عمان .

ولابد أن نعرض لدولة بنى مهدى الخارجية التى استولت على زَبيد من يد بنى نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها على بن مهدى الحميرى يعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه ، ويسترقّ ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخلط آراءه بشىء من مبادئ الإسماعيلية ، فادّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدى . واستطاع الاستيلاء على زبيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدى ، وسار سيرة أبيه فى سفك الدماء وسَبْى المسلمين ، واستولى على تعزّ والجَنَد ، ويقول العماد الأصبهانى إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفى سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبى ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسبح [٣] وعبد الله [٤] بن أبى الفتوح الحرازى ومحمد بن عمر العمرانى وله من قصيدة يمدح بها عبد النبى [٥] :

وضحتْ شموسُ الحق بعد أُفُولِهِ | ورَسَتْ هنالك قاعداتُ أُصولِهِ

ونقف قليلا عند شاعر من شعراء الإباضية ، هو أبو إسحق الحضرمى ، وشاعر من شعراء دولة بنى مهدى الخارجية ، هو ابن الهَبِّنى .

---

(١) التحفة ٢ / ٨٧ .

(٢) البدن : النوق والبقر المهيأ للذبح .

(٣) الخريدة قسم الشام ٣ / ٢٧٢ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ٢٧٣ .

(٥) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص ١٩٣ .

أبو إسحق الحضرمى[١]

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهَمْدانى الحَضْرمى ، وُلد بحضر موت ولا يُعرَفُ بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد فى مستَهل القرن الخامس الهجرى أو فى أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل ،كان أبوه -كما يقول مقدم ديوانه- عالما ورعا زاهدا متقشفا . ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت ، ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شبَّ أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها فى الناس من حوله ، وفى نسبه وإباضيته يقول :

فإنْ تَسْألى عِنِىَ وعن أهل مذهبى ... ومن أين دارى أنت يا أمَّ حازمِ
فَإنِىَ من هَمْدانَ أصلى وقُنْوتى ... فرداسُ والأوطان أرضُ الحضارِمِ
أنا الرجلُ الدَّاعى إلى الحقِّ والذى ... أبتْ نفسُه تَشَتُّمَ الطُّغاة الأشائمِ
أنا الرجلُ الشارِى الذى باع نفسَهُ ... وأصبح يرجو الموتَ عند التصادم

وهو فى الأبيات يصرح بأنه حَضرمى من همدان ، وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الشُّراة ، وقد سمى الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يَشْرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد فى سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا ، مما جعله يخلف ديوانا ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما ، وهى حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية فى نَزْوى إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم لخلفه راشد بن سعيد الذى مَدَّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان فى قصائد كثيرة ، بمثل قوله :

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذى كملتْ ... له الخصالُ مُروءاتٍ وإيمانا
إنى أحبُّك والرَّحمن يعلمُـه ... حبَّ احتسابٍ إلى ذى الطَّوْل قُرْبانا

ويطلب فى القصيدة منه معونة ليحطم الغواة الضالين . وكانت لاتزال تأتيه المعونات ولايزال يحارب أعداء عقيدته فى حضر موت ، ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين

---

(١) انظر فى ترجمة أبى إسحق الحضرمى وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير ص ٦٦ وتحفة الأعيان ١ / ٢٥١ وفى مواضع متفرقة . وقد طبع ديوانه مع مقدمة لسليمان البارونى .

البدو وفى المدن الحضرمية ، فكان لايزال يرسل إليهم الحملات ، ولا يزال بهم حتى يُلْقوا له عن يدٍ وهم صاغرون ، وصوّر ذلك فى قصائد كثيرة ذاكرا نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه فى كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مذعنة مستسلمة ، يقول للخليل فى إحدى قصائده :

سلِ الخُطَبَا لما دَعَوْا لك جهرةً ... على رَغْم أهل الجَوْر بعد التصادمِ
وسَلْ عَرَب البَيْداء لما أذقتهم ... عشيّةَ خانوا العهد سُمَّ الأراقم
وأمّا نواحى حَضْرموتَ فإنها ... بحَوْل إلهى طوعُ أمرى كخاتمى
ولم يبْق لى إلا الصُّلَيْحىُّ قائما ... وها هو أيضاً سَعْدُه غيرُ قائم
ونحن إليه واردون بجيشنا ... فما هُوَ أدهَى من ملوك الدَّيالِم

وهو فى البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحى مؤسس الدولة الصليحية فى اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرّش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحى يهدده بالخليفة الفاطمى وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يخوّفنى أنّ المعزَّ مَلاذُهُ ... بمصرٍ وما خوفى لأهل المظالمِ
إذا وَفْده ولّى إلى مصْرَ رائداً ... مَضَى وَفْدُنا قَصْداً لخير المعالم
ليعلَم أىُّ الحزب أسبقُ نُصْرةً ... وأيُّهما أولَى بفعل المكارمِ

وواضح أنه سمى المستنصر خليفة مصر حينئذ المعز كأنه لا يعرف لقبه الحقيقى . وخرج هُوَ وخصمه الصليحى من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامه الخليل بن شاذان كى يغيثه وينصره ضد الصليحى ، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته نونية :

انصُرْ أخاك فإن الحرب قائمةٌ ... والحق يطْلُبُ من أهليه أرْكانا
اجْعَلْه أوّل ما تَحْيا البلادُ بهِ ... إنا نؤمّل جيشاً منك يَغْشانا
واعلمْ بأنك قد أثَّرتَ مأثُرةً ... فارْفَعْ لها شَرَفاً فالأمرُ قد هانا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحى وأن ينزل بها خسائر فادحة . ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، ويبقيه والياً له على حضر موت . ويظل يرسل له بقصائد المديح ، وكان قد استولى على عُمان كما أسلفنا ، وله يقول :

أيا راشدُ إنا لعمرُك نَزْدَهى ... بذكراكمُ فى حَضْرموتَ تعاظُما

إذا ما عُمانىٌّ ألمَّ بأرضنا أَحَطْنا به نسألْه عنكم تزاحما

وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ، وكيف أنه أصبح إماما لهم وقيِّما عليهم . يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :

إباضيَّةٌ زُهْـرٌ كرامٌ أفاضلٌ مناقبهم فى كل سامى عُلاً تَبْدُو
وأنت لنا من بعدهم صِرْتَ قَيِّماً حَمولا لِثقْل الخطْب يُورِى بك الزَّند[1]

ونراه فى نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يبعث إليه بنجدة تعينه فى حربه مع قبيلتى نَهْد وعُقَيل إن هما لم تستكينا نهائيا ، ولم تُلْقيا السلاح وهما صاغرتان ، يقول :

وإن عدلوا عـن بَغْيهم وتراجعوا إلى عَسكر الإسلام والحقّ وارتَدُّوا
فأهلاً وسَهْلاً بالعشيرة إنهم إليكم بإخلاصٍ لربِّ السَّما أَدُّوا
وإن هم أَبَوْا فاستَصْرِخونا فإننا قريبٌ وما للقوم من صَحْبهم بُدُّ
وما بين وادى حضرموت وبينكم إذا سرَّكم إتيانُنا نحوكم بُعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قديم كانوا يقولون إن معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، ويَصفون خصومهم بالبغى والجور وأنهم خرجوا على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وليس فى الديوان ما يدل على أنه ظل عاملا لأئمة نَزْوى بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه بالإمامة ونستبعد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية فى نزوى ، وحقا نراه فى بعض شعره يصرِّح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه فى كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلِقَ الفؤادُ بأن أكون أنا الذى يُحْيِى الهُدَى بقواضبٍ ورماحِ
وعلى السيوف يموت كلُّ مكرَّمٍ وعَلَىَ السيوف قِيادُ كلِّ فلاحِ
وعلى السيوف ينال من طلب العلا غُرَفَ الجنان وَقَصْدُهنَّ كفاحى

وهو يقصد بالهدى نحلته الإباضية ، ويقول إنه يشعر فى أعماقه أن عليه نشر دعوتها وإشاعتها فى كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من محبتهم للاستشهاد فى سبيل الله ، وكأنه أصبح شعارا لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم ونعيمه . ولسنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى .

---

(١) يورى هنا : يتقد .

ابن الهبينى (١)

من شعراء تهامة فى القرن السادس الهجرى ، تَبِعَ على بن مهدى حين استولى على زَبيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يحمل شعره شركة بينه وبين على بن مهدى وولديه المهدى وعبد النبى ، فتارة ينظمه مستقلا ، وتارة ينظمه بلسانهم ، ونصّ على ذلك القدماء . وقد وصفه عمارة اليمنى فقال : « هو أمتن كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله على لسان ابن مهدى يهدِّد قبائل خَوْلان وجَنْب وسِنْحان وهَمْدان :

ما بالُ خَوْلانَ لا توفى بما تَعِدُ ... يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ
وما لِجَنْبٍ وسِنْحانٍ وأختِها ... هَمْدان تلك الأعاريبُ التى حشدوا

وتسميته لهم بالأعاريب كأنه يشير إلى شطر فى خمرية لأبى نواس يهزأ فيها بالأعراب قائلاً : « ليس الأعاريب عند الله من أحد » . وابن الهبينى يحمِّل الكلمة نفس المعنى . وله قصيدة ميمية طويلة على لسان علىّ بن مهدى وجَّه بها إلى أهل حصن تَعْكُر وقبيلة خَوْلان منذرا لها نذيرا شديدا ، وهو يفتتحها بقوله :

أبلغْ قُرَى تَعْكُرٍ ولا جَرَما ... أن الذى تكرهون قد دَهَمَا
وقُلْ لجنَّاتها سأبدلُها ... سَيْلاً كأيام مَأْرِبٍ عَرِما
ظنَّتْ خُوَيْلانُ أنْ ستشغلنى ... عَمَّى لما ظَنَّتِ اللئامُ عَمَى
هل تَنْقُصُ البحر كفُّ غارفِهِ ... أو يُخْمِدُ النارَ قابِسٌ ضَرَما
تَعْساً لخولانَ لا أباً لهمُ ... أمْسَوا وُجوداً وأصبحوا عدما
إذ نفخوا من صَوارمى ضَرَماً ... واسْتَسْمنوا من ظنونهم وَرَما
وشمَّرتْ سَاقَهَا الحروبُ وما ... ألفُها الليلُ سائقاً حُطَمَا

وهو يهدِّد فى أول قصيدته قرى تَعْكُر بأنه سينزل بها ما أنزله الله بقرى سبأ ومدنها من سَيْل عَرِم ، يقول جلَّ شأنه : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبة وربٌّ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبَدَّلْنَاهم بجنَّتيهم جنَّتين ذَواتى أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليل) والأبيات تدل على براعة شعرية حقيقية فى الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر فى البيت الأخير

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبينى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٦٥ وما بعدها و ٣ / ٢٨٤ وما بعدها .

بشطرين وردا فى خطبة الحجاج المشهورة التى خطبها فى الكوفة أول قدومه واليا على العراق ، وقد حمّلها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحَى » ثم أنشد هذا الشطر فى وصف الحرب وشدتها : « قد شَمَّرتْ عن ساقها فَشمِّروا » وتلاه ببيت عاصف من الشعر :

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّى زِيَمْ ... قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ

والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للماشية . وواضح أن ابن الهَبِّينى كوّن بيته من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثانى فى البيت ، ليصور ما سيتزله بخولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر فى وصف جنوده ووعيده .

إنَّ نسورَ الوَغَى إذا وقعتْ ... بأرضِ قومٍ أطارت الرَّخَما[1]

ترمِى بنيرانها قُرَى عَـدَنٍ ... صُبْحاً فيُمْسى شرارُها الحرَما

أيَشْرَبُ الخَمْرَ فى ذُرَى عَدَنٍ ... والمَشْرِفيَّاتُ بالحُصَيْبِ ظِما

ويُلْجَم الدينُ فى محافلها ... والخيل من حَولى تَعْلُكُ اللُّجُما

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير مأكول ، ويضيف إلى تهديد خولان تهديد عدن وأمرائها من آل زُرَيْع ، وكانت تعزّ والجنَد وتَعْكَر فى حوزتهم ، فكان طبيعيا أن يصطدم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدى أن أهل عدن غارقون فى الخمر إلى آذانهم ، ويقول إن السيوف فى الحصيب وادى زَبيد ظامئة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تَعْلُكُ اللجم ، تريد أن تهمّ بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدى وولديه من جهة وعدن وأمرائها بنى زُرَيْع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهبينى شاعر بنى مهدِى بأبى بكر العَيْدى شاعر الزريعيين ، وأن يأخذا فى التهاجى وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ العماد فى خريدته للشاعرين بنقيضتين من هذا الطِّراز ، أولاهما لابن الهَبِّينى ونراه يستهلها بالإشادة بجنود على بن مهدى إمامه ، يقول :

أُسْدٌ إذا ما أبصرتْ أُسْدَ الشَّرَى ... ورأتْ حِياضَ الموت لم تتجهْجَهِ[2]

تعدو أمام متوَّجٍ مُتَبَلِّجٍ ... متيقِّظٍ متوقِّدٍ متنبِّهِ

متفقِّهٍ فى الدين لكنْ لم يكن ... من عند غير الله بالمتفقِّهِ

ملكٌ إذا اشتبه الملوكُ فما لـه ... فى ملكه وصلاحه من مُشْبِهِ

(١) الرخم : طائر غزير الريش كبير الجناح طويل الذنب . (٢) تتجهجه : ترتد .

ومنزّهُ الدين الحنيفىُّ الـذى لولا الإمامُ القطبُ لم يتنزّه
بصوارمٍ ولهـاذمٍ وضراغمٍ وملاحمٍ بلغتْ به ما يشتهى[١]

وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام فى رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عليه صفات التفقه فى الدين وحمايته بسيوف قاطعة وأسود ضارية وملاحم ساحقة . ويمجد انتصارات على بن مهدى على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشى ، ويعود إلى الإشادة به . قائلا :

أخبارُ أيّام الإمـام فواكهٌ فأصِخْ بِسَمْعك نحوها وتفكّهِ
سِيَرُ الإمام قديمُها وحديثها فَرَحُ القلوب وروضةُ المتنزّهِ
أشهى من الماء الزُّلال على الظَّما وألذُّ من عَصْر الشباب الأمْوَهِ[٢]

ولا شك أن ابن الهبينى يجور جورا فظيعا على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدى ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكفى وصمة لا تفارق جبينه أنه استباح نساء المسلمين واسترقَّ الذرارى ، فكان ينبغى على ابن الهبينى أن لا يسخِّر شعره فى مديحه هذا المدح المفرط فى الثناء . وتُنسب لابن مهدى دالية لا شك أنها من نظم ابن الهَبِّيني ، وفيها يقول على لسانه :

قسمتُ الرَّدَى والجودَ قسمين فى الوَرَى فللمعتدى حَدْى وللمُجْتدِى رِفْدى[٣]
ومالىَ من مالى الذى كسبتْ يدى تُراثٌ أُبقّيه سوى الشكر والحَمد
تخوّفنى جَنْبٌ بِكُثْر عديدها وما لجنود الله حولىَ من عَدّ
تُقَعْقِعُ نحوى بالشّنان وهل ترى عوّا الكلب يُخْشِى زَأْرَةَ الأسدِ الوَرْدِ[٤]

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهَبِّينى ، إذ جلب فيه عبارة من عبارات الحجاج فى خطبته التى أشرنا إليها آنفا فقد قال فى تضاعيفها : إنى لا أُغمَز تغماز التين ولا يُقَعْقَع لى بالشنان ، وهى القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل على السير لتفزع فتسرع . وابن الهَبِّينى مثل أبى إسحق الحضرمى لا يُعْرَفُ زمن مولده ولا زمن وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش فى زمن دولة بنى مهدى ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها فى نهاية العقد السابع من القرن السادس .

---

(١) الصوارم واللهاذم : السيوف . الضراغم : جمع ضرغام :
(٢) الأموه هنا : الناضر .
(٣) رفدى : عطائى .
(٤) الورد : الشجاع الجرىء .

٤

شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرَّ بنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل مادخل عليه من شوائب ، كتقديس الأولياء ، والاعتقاد فيهم أنهم -كما يقولون- ينفعون الناس حتى فى قوتهم ، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا زروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم . وينبغى - فى رأى ابن عبد الوهاب - أن يكفَّ المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه ، والمدار فى الدين إنما هو على النقل ، أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما . وهذه الدعوة - كما قدمنا - تستضىء بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذى كان يقدم المنقول على المعقول ، فالمنقول من الكتاب والسنة أولا ، والمعقول يليه ويأتى ثانيا ، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولى الصالح ، فضلا عن زيارة جَدثه ورفاته . وتشدد ابن عبد الوهاب قائلا إن ذلك يعنى الشرك بالله أنْ يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها ، طالبا جَلْب منفعة أو دَفْع أذى ، إذ يظن أن الولىَّ من شأنه أنْ يُعينه على ذلك ، والله يقول لرسوله ﷺ فى كتابه : (قل لا أملك لنفسى نَفْعا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله) . وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب فى أنه لايجوز إشراك غير الله معه فى الدعاء ، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه : أسألك بحق فلان من الصالحين ، بينما الله عز وجل يقول : (فلا تدعوا مع الله أحدا) . وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولى أو غيره ، لمثل قوله تعالى : (من ذا الذى يَشْفع عنده إلا بإذنه) . وينبغى أن تُلْغى النذور للأولياء جملة ، إذ النذور إنما تكون لله ولا يصح إشراك أحد معه فيها ، ومن أكبر صور الشرك - فى رأى محمد بن عبد الوهاب - الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة ، والله يقول : (ولله غيب السموات والأرض) ويقول : (فلا يُظْهر على غَيْبه أحدا) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا فى صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه . ومدَّ حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية ، فأنكرها ودعا إلى إلغائها إلغاء باتا وإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات ، فكل هذه - فى رأيه - بِدعٌ لم يعرفها الإسلام فى عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه ، وينبغى أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والاقتداء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفزع أحد إلى التأويل فى آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لتتبين الأسس التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتى صدر عنها بالتالى شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمنى من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى ، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه فى هذا العصر هو ابن مشرف الأحسائى . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفى مقدمتهم سليمان بن سَحْمان وابن عُثَيمين ، ولن نعرض لهما لأنهما يدخلان فى العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحسائى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مرثية فى ابن عبد الوهاب حين لبى نداء ربه افتتحها بقوله[1] :

إلى الله فى كَشْف الشدائد نفزعُ   وليس إلى غير المهيمن مَفْزَعُ

وقصائد كثيرة نظمت فى الإشادة بابن عبد االوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن على الشوكانى اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى[2]

ولد بحصن كُحْلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فأتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس فى الفقه وفى النحو وفى غيرهما ، وأخذ يَدْرس كتب الحديثَ الكبرى على كبار الحفَّاظ المحدثين من مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وسُنَن أبى داود ، ونال فى ذلك إجازات مختلفة لا فى صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين فى مكة والمدينة ، وعنى بالتبحُّر فى فقه الشافعى وفى الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح فى أربعة مجلدات ، وله فى الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وله شرح فى علوم الحديث

---

(١) شعراء هجر ص ٥٠ .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره البدر الطالع للشوكانى ٢ / ١٣٣ ونشر العرف لزبارة ٢ / ٥٠٥ و ٢ / ٧٦٤ وفى مواضع مختلفة. وديوانه طبع بمطبعة المدنى بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعانى . وراجع مقدمة على السيد صبح المدنى للديوان .

والآثار فى مجلدين ، غير كتب كثيرة فى الأصول وفى النحو وفى بعض الفتاوى . ومن كتبه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه فى الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجّح أدلّة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجْمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهدا ينفر من التقليد ومن كل رأى فقهى لا دليل عليه ، ويقول الشوكانى إنه كان « من الأئمة المجددين لمعالم الدين » وكان الشوكانى مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومر بنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده فى يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثانى وذريته السلطة الروحية . وما نتقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين ، حتى نجد صوتا مدويا ينطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيدا وممجدا لدعوته استهلها بقوله :

سلامٌ على نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ فى نَجْدِ ... وإن كان تَسليمى على البُعْد لا يُجْدِى

وقد مضى فيها يعلن إعجابه بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين لدلائل الخيرات ، يقول مبرراً صنيعهم :

غلوٌّ نَهَى عنـه الرسولُ وفِرْيَةٌ ... بلا مِرْيةٍ فاتركْه إن كنت تَسْتَهدى

أحاديثُ لاتُعْزَى إلى عَالمٍ ولا ... تُسَاوى لفَلْسٍ إن رجعتَ إلى النَّقْد

وهو يضع بذلك دليلين يجوِّزان حرقها فى رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان ماينى ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الإيذاء تصديقهم للمنجمين وإيمانهم بأنهم يطّلعون على الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدى العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهاه عن الاستماع إلى المنجمين وافتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

ولا تستمعْ من عابدٍ لنجومهِ ... تقاويمُ زورٍ ليس تُغْنى ولا تُجْدى

أكاذيبُ يُمْليها لكلِّ مغفَّلٍ ... يصدِّقُها من ضلَّ عن طُرق الرُّشْدِ

ووالله ما عند النجومِ دلالةٌ ... على نَحْسِ يومٍ فى الزمان ولا سَعْدِ

وولله ما غيرُ الإلـه بعالمٍ ... بما فى غَدٍ مما يُسِرّ وما يُبْدِى

وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل مقدمتها فى ديوانه على هـــذا النمط : « هذه نفثة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محزور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويُحْيِي شريعة سيد المرسلين ، وفيها إيقاظ للهمم لوكانت نائمة ، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة . والجهاد باللسان أحد الأقسام . نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام » . وفيها يصور جهاد المصلح الديني المنتظر هو وأنصاره في سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غمار الحروب ، حتى تبسط سلطانها على الناس ، يقول :

يَحُفُّ به قومٌ على كلِّ سابحٍ تُعَدُّ المنايا في الحروب مُناها
ولا جمعوا مالاً ولا كسبوا لهم قُصورا ولا باهوا برَفْعِ بُناها
وما ادَّخروا إلا حُساما وذابلاً ومُهْراً يبارى الرِّيحَ عند سُراها
وما قصدوا من سَفْكهم لدمِ العِدا وتَطْويقهم بالسَّيف بِيضَ طُلاها[1]
سوى أنهم يُحيون شِرْعَةَ أحمدٍ ويَنْفون عنها داءها بِدوَائها
سيغسل عنها السيفُ أدْرانَ بِدْعةٍ فيُشْرِق في الآفاق نورُ سَناها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة في سن مبكرة ، ولكن مقدمتها وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدران البدع المستحدثة في الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليحملون في سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا الغي والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود في القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره بزعامة محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس في الجزيرة العربية على الدعوة الوهابية . وفي الديوان دالية يعلن فيها تبرءه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقربا للأمراء الزيديين من بيته ، وفي الحق أنه كان يحمل نفساً ثائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُونَ به لأئمته مما أدى أحيانا إلى سجنه على نحو ما نرى في قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حبسوني أنني جئتُ مُنكراً ولا أنني نافستُ في الملك والكُرْسِي
ولكنني أحيَيْتُ سُنَّةَ أحمدٍ وأبرزْتُها شمساً على العُرْب والفُرْسِ

وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة ، وقد لا يكتفي الإمام بلقب واحد بل يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدي لدين

---

(١) الطلى : جمع طلية وهي أصل العنق .

الله ، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالا حميدة ، بل يرى أعمالا ذميمة فقال :

تسمَّى بنور الدين وهْو ظَلَامهُ وهذا بشمس الدين وهْو له خَسْفُ
وذا شرفُ الإسلام يدعوه قومُه وقد نالهم من جَوْره كلَّهم عَسْفُ
رُوَيْدك يا مسكينُ سوف ترى غداً إذا نُصب الميزانُ وانتشر الصُّحْفُ
بماذا تُسَمَّى هل سعيدٌ فحبَّذا أو اسمُ شقىٌّ بِئْس ذا ذلك الوَصْفُ

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته فى عصره وقبل عصره . وكان لا يخشى فى الله لومة لائم. وديوانه يكتظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة فى التقوى ختم جميع أبياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة فى مديح على سماها « التحفة العلوية » وكتب عليها شرحاً سماه « الروضة الندية » . وله أشعار فى فنون البديع المختلفة وخاصة فى التورية وهو يكثر من التضمين فى أشعاره وخاصة من شعر المتنبى . وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب فى الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

ابن مشرف الأحسائى (١)

هو أحمد بن على بن حسين بن مشرف الوهيبى التميمى الأحسائى ، وُلد وعاش فى الأحساء ولا يُعْرف تاريخ مولده . وبدأ فى نعومة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى موطنه ، والتهم كل ماوجده فى هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكى مثل آبائه . وليس فى ديوانه ما ينبئنا عن أحواله فى فواتح حياته أو فى شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهى تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها فى مديح فيصل بن تركى ، والسنة الأولى هى نفس السنة التى استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكأن شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفى سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨ م. وهو فى ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهى كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء فى سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

(١) انظر فى ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (طبع الرياض) .

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تغنّى بابن عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بفيصل وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمى أول قصيدة فى الديوان باسم جوهرة التوحيد وهو يستضىء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ، ويستهلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الخيرُ والشرُّ جميعُه صَدَرْ من أمر ربنا وذا هُوَ القدَرْ

ومرَّ بنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شىء مقدر على الإنسان منذ الأزل ولاصحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية فى تصرفاته يأتى ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره . ويرد على ذلك ابن مشرف بعبارة أوضح فى موضع آخر منشدا :

وكلّ شىءٍ قضاهُ الله فى أزلٍ طرًّا وفى لوحهِ المحفوظ قد سُطِرا
والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما يَجْرى عليهم فمنْ أمرِ الإله جرَى
فليس فى مُلْكِهِ شىءٌ يكون سِوَى ماشاءه اللهُ نَفْعاً كان أو ضَرَرا

ويعقد فصلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب الوحدانية ثلاثة ويعدّها على هذا النمط :

توحيدُ ربِّ الناس فى المُلْك وفى صفاتِهِ وفى العبادة اقْتَفِ

فالأولى وحدانية الربوبية وهى اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء والصفات ، من مثل الحى الباقى القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم البصير المريد القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويثير ابن مشرف تبعا لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتصم والواثق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهى المشكلة التى ورّط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفى مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظا ومعنى والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا به قد استقاموا
فاللفظ والمعنى من القرآنِ قد نَزَلا من ربنا الرحمنِ
ومن يَقُلْ بخلقهِ أو سَطْرِه فهو مُضلٌّ فاستعِذْ من شرِّه

وكان المعتزلة ينزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسما ولا عرضا ولا مادة ولا جوهرا ولا يحيط به مكان ولا زمان ، وأوّلوا الآيات التي قد تفيد مشابهة مثل (ثم استوى على العرش) بأن الاستواء فى الآية بمعنى الاستيلاء ومثل (يدُ الله فوق أيديهم) أوّلوا اليد فى الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام فى رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك ردَّه محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن حنبل ، وأخذ مثلها فى الآيات التى تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها فى القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرّف :

اللهُ ذو العَرْشِ على العرش استوى وعلمهُ لكلِّ شيء قد حوَى
وما اقتضى التشبيهُ مثلَ العينِ والوَجْه والإصبع واليديْنِ
نؤمنْ به لكن مع التنزيهِ له عن التمثيل والتشبيهِ
من شبَّه الله بخلقهِ كفرَ ومن نَفَى صفاته أُصْلِى سَقَرَ

وهو فى البيت الأخير يحكم على من ينفى الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسبا وكل امرئ يحاسَب على ما كسبت يداه ، ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبى ﷺ ومعجزاته من القرآن كالمعراج ويشيد بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وباقى العشرة المبشرين بالجنة وبأصحاب المذاهب الأربعة وبسفيان الثورى وداود الظاهرى . ويطيل فى الحديث عن البعث والمعاد والحساب . وبذلك يختم الحديث عن النوع الثانى من أنواع الوحدانية وهى وحدانية الأسماء والصفات ويأخذ فى الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوحدانية وهو وحدانية العبادة ، فالله وحده هو الذى يُعبَدُ دون سواه ، وهو وحده الذى تقدَّم إليه النذور ، ومن الشرك تقديمها لسواه وأيضاً من الشرك القَسَمُ بغيره يقول :

الحَلْفُ مطلَقَ بغير اللهِ شِرْكٌ بلاشكٌّ ولا اشتباهِ

ويهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُنى عليها وشُيِّد من قُبب والطواف حول تلك القبور تقربا . وسؤال الناس أصحابها أن يدفعوا عنهم الأذى ويجلبوا لهم النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء ، كلما أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :

ألم تنظر الشركَ الذى فيهمُ فَشا فكَمْ قُبَّةٍ قد شيَّدوها على قَبرِ

وطافوا عليها خاضعين تقرُّبا ... إلى ذلك المقبور بالذَّبح والنَّذْرِ
وكم سألوا الأموات كَشْفَ كروبهم ... ولا سيَّما فى الفُلْك فى لُججِ البَحْر
فزادوا على شِرْكِ الأوائل إذ دعوْا ... سِوَى الله فى حالِ الرَّخاء وفى العُسْر

وعلى هدى من الدعوة الوهابية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدث فى الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعنَّفت الدعوة الوهابية المؤذنين على هذا التذكير ، ورأت منعه منعاً باتا ، واصفة له بأنه بدعة وينبغى الكف عنها ، وفى إثرها يقول ابن مشرف :

وسلْ فاعلَ التذكير عند أذانهِ ... أهذا هُدًى أم أنت بالدِّين تلعبُ
وهل سَنَّ هذا المصْطَفَى فى زمانهِ ... أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحَبُ

واستمر يتساءل هل سنَّهُ التابعون أو سنَّه أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى أنه من الأمور المحدثات التى ينبغى أن تُجتنَب ، قائلا إن العلم ينبغى أن لايؤخذ إلا من الكتاب والسنة . ويخص هذه الفكرة بقصيدة يحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث النبوى وآيات الذكر الحكيم ، ويسميهما وحيين ، وتسميته الذكر الحكيم وحيا واضحة ، أما تسميته الحديث بالوحى فلأنه إلهام وهدى ربانى ، يقول :

وقدِّمْ أحاديث الرَّسولِ ونَصَّه ... على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائهِ
وإن جاء رأىٌ للحديث معارضٌ ... فللرأى فاطْرَحْ واسترح من عنائهِ
ومَنْ يكنِ الوَحْىُ المطهَّر علمَه ... فلاريب فى توفيقه واهتدائه
وكلُّ فقيهٍ فى الحقيقة مُدَّعٍ ... ويثبت بالوحْيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين الحنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحا ومفسرا ومبينا ، لا موجها ولا متحكما ولا مؤولا . . وعلى هذا النحو تتجلى فى شعر ابن مشرف دائما الدعوة الوهابية بكل ما اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هى بيئة مكة والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ويحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مادح للرسول ﷺ . إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العطر وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم فى البلدتين المقدستين من أهلها النساك . وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا ينزلون فى مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عربى وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفى «ترجمان الأشواق» وفيه يقول :

مَرضِى من مريضة الأجفانِ عَلِّلانى بذكرها عَلِّلانى
هَفَتِ الوُرْقُ بالرياض وناحتْ شَجْوُ هذا الحمامِ مما شجانى [١]

وشاع الديوان فى مكة والمدينة وفى اليمن وتناقله الحجاج . ومن متفلسفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاوروا فى مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفى سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول ، ومن شعره [٢] :

من كان يُبصر شأن الله فى الصُّوَرِ فإنه شاخصٌ فى أكمل الصُّوَرِ
بل شأنه كَوْنه بل كونه كُنْهُهُ فإنه جملةٌ من بعضها وَطَرى

ووراء ابن سبعين وابن عربى والحلاج كان ينزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفى مقدمتهم القشيرى الذى لمَّ شعث الفُرْقة بين الصوفية وأهل السنة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ونزلها الغزالى وشهاب الدين السُّهْرَوَرْدِىُّ العراقى وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحشَا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنًى بهِ وله عقْلُ
وعِشْ خاليا فالحبُّ راحتُه عَناً وأوَّلُهُ سُقْمٌ وآخِرُهُ قَتْلُ
وإن شِئْتَ أن تحيا سعيداً فَمُتْ بهِ شهيداً وإلا فالغرامُ له أهلُ

ولم يبق مادح للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتأرج روحه بعطر قبره ، وقد زارها البوصيرى أكبر مداح الرسول ، وفيه نظم همزيته فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا ، وسماها «أم القرى فى مدح خير الورى» وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه إعجاباً وافتتاناً . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد فى مطالع القرن الرابع الهجرى . ولكن لم تنل قصيدة فى مديح الرسول حُظْوة هاتين القصيدتين .

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زهد كثيرة ، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد فى

(١) هفت الورق : خفق الحمام بأجنحته . (٢) العقد الثمين ٥ / ٣٢٩ .

ديوان الزمخشرى الذى جاور فى مكة طويلا ، حتى لُقِّب «جار الله» . وكان هؤلاء المجاورون الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التى يؤلفونها فى مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشرى الذى ألف بمكة والذى سماه الكشاف يجده عند تفسير الآية الكريمة : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً مابعوضةً فمافوقها) [١] ينشد توسلاً لطيفاً لشاعر على هذه الصورة :

يا من يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها ... فى ظُلْمة الليل البهيم الألْيَلِ [٢]
ويرى عروقَ نِياطها فى نَحْرِها ... والمخَّ فى تلك العظام النُّحَّل
اغفرْ لعبدٍ تاب من فَرَطاته ... ما كان منه فى الزمان الأوَّل

ومن المجاورين بالحرمين الشريفين ابن ظفر المولود بصقلية فى شعبان سنة ٤٩٧ رحل من بلده يافعا فى طلب العلم إلى مكة ونهل من حلقات علمائها، وارتحل إلى مصر ثم إلى المهدية بتونس، وعاد إلى موطنه صقلية، وبها ألف لحاكمها فى سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، ويمتلئ بأشعاره، وهى تصور زهده وتقشفه مع براعة فى نسج الشعر ونظمه من مثل قوله [٤] :

يا مُتْعَباً كَدَّهُ الحِرْ ... صُ فى الفُضول وكادَهْ
لو حُزْتَ ما حاز كِسْرَى ... وما حَوَى وأفاده
ما كنت إلا مُعَنًّى ... ومُغْرَماً بالزِّياده
لم يَصْفُ فى الأرض عَيْشٌ ... إلا لأهل الزَّهادَه

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيهم الكِسْرة . وكان يتحول واعظا كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته [٥] :

راقَكَ الزهدُ إنما الزُّهد رَفْضٌ ... لفضولٍ تُلْهِى وتُطْغِى وتُرْدِى [٦]
مَرْحَباً بالكفاف عيشا هنيئاً ... ثم لا مرحبا بحرصٍ وكَدٍّ
لا يزال الحريصُ يَسْتامُه الحِرْ ... صُ بِنُصْبٍ من الشقاء ونكْدِ [٧]

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .
(٢) الأليل : شديد السواد .
(٣) انظر فى ابن ظفر الخريدة (قسم الشام) ٣/٤٩ وابن خلكان ٤ / ٣٩٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ٤٨ والوافى ١ / ١٤١ والعقد الثمين ٢ / ٣٤٤ .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٥٥ .
(٥) نفس المصدر ٣ / ٥٦ .
(٦) تردى : تهلك .
(٧) يستامه : يذله ويصرفه .

ثم لا يستطيع أن يتعدَّى قَدرا ما لحكمِهِ من مَرَدٌ

فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد فى كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا تفيد إلا اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحدا . ولا يزال الحريص يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والنكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدو ما كتبه له القضاء .

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النَّشو ، وقد سُقنا له فى ترجمته مثالا ، ولمحب الدين الطبرى المكى المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استهلها بقوله : «رحلت إلى المختار خير البرية» ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد مدحة نبوية بارعة يقول فى أولها [١] :

أَنِخْ أيها الصَّادى الشديدُ ظَمَاؤهُ   وَرِدْ مَنْهَلاً أَحْلَى من الشَّهْد ماؤهُ
وسَلْ عند باب المصطفى أىَّ حاجةٍ   أردتَ وما تَهْوَى فرَحْبٌ فِناؤهُ

ووراء هاتين المدحتين عشرات من المدائح يكفى أن نشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى عبد العزيز الزمزمى المكى ديوان مديح فى الرسول والصحابة .

وكثر بجانب ذلك الغزلُ الصوفى فى مكة والمدينة ، من مثل قول أبى إسحق المكى المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة [٢] :

مُعَذِّبَتِى كم ذا الصُّدودُ إلى متى   مَضَى عُمُرى والوَصْل منكِ أرومُ
فجودى ورِقِّى أو فَجُورِى وعَذِّبِى   فما القلبُ إلا فى هواكِ مُقيمُ

وفى كتابَىْ سلافة العصر ونَفْحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة فى القرن الحادى عشر الهجرى مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة [٣] .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبى بكر العيذى ابتدأها بوصف غرام له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ فى وصف مكة ويذكر مناسك الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله [٤] :

وفى رُبَى يَثْربٍ غاياتُ كلِّ هَوًى   يَجِلُّ عن مَوْقع الأشواق مَوْقِعُهُ
حيث النبوَّة مضروبٌ سُرادِقُها   والفضلُ شامخٌ طَوْدِ الفخر أَفْرَعُه
وخاتمُ الأنبياء المصطفى شرفاً   محمدٌ باهرُ الإشراق مَضْجِعه
صلى الإلهُ عليه ما تكرَّر بالصَّـ   ـلاة فَرْضُ مُصلٍّ أو تطوُّعه

---

(١) العقد الثمين ١ / ٢٩٥ .
(٢) العقد الثمين ٣ / ٢٤٥ .
(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٤ .

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حنينا يشمل كل المواضع هناك ، وكأنما يريد أن يعانقها ، فهى هواه وحبه وأماكن افتتانه وصبابته . وتكثر فى اليمن كما كثرت فى مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفى والمديح النبوى ، وممن اشتهر بهما عبد الله (١) بن أسعد اليافعى اليمنى نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج فى سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة فى الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشى ، فسلكه فى الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها فى القرافة فى مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشى . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله فى الصوفية وتراجمهم كما مر بنا كتاب «روض الرياحين وحكايات الصالحين» ومن غزله الصوفى قوله (٢) :

قفا حدِّثانى فالفؤادُ عَليلُ عَسَى منه يُشفَى بالحديث غَليلُ
أحاديثُ نَجْدٍ عَلِّلانى بذكرها فقلبى إلى نجدٍ أراه يميلُ
ولا تذكرا لى العامريَّة إنها يولِّه عقلى ذكرُها ويُزيل
ولكنْ بذِكْرى عرِّضا عندها فإنْ تقلْ كيفَ هُوَ قُولا بذاك غَليلُ
فإن تَعْطِفى يُشْفَى وإن تُعْرضى فَفى هواكِ المعنَّى المستهامُ قَتيلُ

وهو يصور حبه ووجده وهيامه بليلى العامرية رامزا بها إلى الذات الإلهية دون تغلغل فى حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب موله ، وحسبه أن يصور وَلَهه وحبه . وله بجانب هذا الغزل الصوفى مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله فى إحدى مدائحه (٣) :

نبىٌّ عَلا فوق السَّموات مَنْصِباً بَدا نُورهُ من قبل نَشْأةِ آدمِ
به الدَّهْرُ أضحى ضاحكا متبسِّماً عَبوسا على أعدائه غيرَ باسمِ
علا فوق كل المصْطَفَيْنَ مُقَرَّباً بأعلى مقامٍ ماله من مُزاحمِ

وهو فى البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور المحمدى . وابنه عبد الرحمن يحاكيه فى الجانبين من شعر التصوف

---

(١) انظره فى العقد الثمين ٥/١٠٤ والنجوم الزاهرة ١١ / ٩٣ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب المصرية) ٢ / ٣٥٢ والبدر الطالع ١ / ٣٧٨ وتاريخ ثغر عدن لبامخرمة ٢ / ١٠٩ .

(٢) العقد الثمين ٥ / ١١١ .

(٣) العقد الثمين ٥ / ١١٤ .

ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير [١] ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرقائق فى ممادح رب الخلائق» . وقد نشر فى القاهرة باسم مدائح إلهية ، وعُنى محمد بن إسماعيل الصنعانى الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح : «فتح الخالق فى شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكانى فى كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عُنى بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م . والديوان جميعه شعر صوفى سنى ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة فى التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله فى التضرع والرجاء والتوكل :

أرجِّيك إذ كنتَ أهلَ الرَّجا ... وأخشاك إنى من الظالمينا
وأسألك العفوَ إذ كنت قد ... علمتُ بحبِّك للسائلينا
وفوَّضتُ أمرىَ بعد الدُّعا ... بحقٍّ إلى أحكم الحاكمينا
إذا شئتَ أعفيْتَنى من ذنوبى ... وسامحتَ يا أرحمَ الرَّاحمينا
وهذا الذى أنت أهلٌ له ... وأنت تحثُّ به المُحْسنينا
وأنت الذى قلت لا تَقْنطوا ... خطَابَاً خصَصْتَ بِهِ المُسْرفينا

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تَقْنطوا من رحمة الله) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية فى الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض . وربما كان الذى دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة فى شعر التصوف معاصره إسماعيل [٢] بن أبى بكر المعروف بالمقرئ الشافعى شيخ الفقهاء فى زَبيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَبيد أوهموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربى ونَفْى العيب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء فى الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد فى اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم فى عصره – كما يبدو – عن الشعر الصوفى القائم على تصوير

---

(١) انظر البدر الطالع ٢ / ٨١ وراجع ديوانه «مدائح إلهية» طبع المطبعة السلفية بالقاهرة .

(٢) انظر فى ترجمته البدر الطالع ١ / ١٤٢ .

المحبة الإلهية ، تصويرا ينتهى إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المنزع الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه ينبغى أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجوّل بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطّار والطّبْل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهما وبزهديات كثيرة ، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمديح الرسول ﷺ وببعض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العيدروس [1] المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعامية اليمنية ، فهو - كما يسمونه - شعر حُمَيْنى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نعم لوصحّ تحقيق شهودى لأشغلنى الشُّهودُ عن المقالِ
ولوحلّ اليقينُ صميمَ قلبى لكنت هجرتُ فى الموْلَى الموالى
ولو كان الحضورُ نزيلَ صدرى لما بالغيرِ لذَّ لىَ اتصالى

وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء فى الذات العلية وانفصاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنّى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يُعَد من كبار الصوفية الحضارمة . ولعمر [2] بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م شعر صوفى تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللهُ يا من لا إله نؤمُّهُ إلا هو انظُرْنى بِعَيْنِ تَفَضُّلِ
يامَنْ هو الله العظيمُ ومن له الـ ـعرشُ العظيمُ ومن عليه توكلى
يامن يُغيث المستغيثَ بِغوثِهِ غَوْثاه أدْركنى علمتُ تَحمُّلى

ومن متصوفة حضرموت عبد الله [3] الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواعظ وفى

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٠٥ وما بعدها
(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر ٢ / ٢٤ .

المناجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله فى استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا ‏ ‏ يا عظيم الخلق يا بَحْرَ الصَّفا
أنت بعدَ اللهِ نعمَ المُرْتجَى ‏ ‏ واللُّجا يا مُجتَبى يا مصطفى
يا خِتامَ الرُّسْلِ يا خيرَ الوَرى ‏ ‏ يا سَريعَ الغَوْث أدركْ من هَفَا

وفى كتاب السقاف مالا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه فى غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفى لم يشع فى هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ المعقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتقشف لا شعر التصوف بفرعيه السنى والفلسفى . ونفس مدينة عُمان الإمامية حينا والسنية حينا آخر لم تعن بالشعر الصوفى الخالص . ونجد لشاعر النبهانيين السنيين حكام عمان أحمد ابن سعيد الستالى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ، ويختمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف . ومن متأخرى الشعراء هناك الحبسى وقد ذكرنا أن له ديوانا افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

ونتحول إلى البحرين وطبيعى أن تسهم فى شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية من مثل قول أبى عبد الله محمد بن أبى شَبابة البحرانى [1] :

لعمرى لقد ضلَّ الدليلُ عن القَصْدِ ‏ ‏ وما لاح لى برقٌ يدلُّ على نَجْدِ
فبِتُّ بليلٍ لا ينامُ ومهجةٍ ‏ ‏ تقلَّب فى نارٍ من الهمِّ والوَجْدِ
وقلتُ عسى أن أهتدى لسبيلها ‏ ‏ بِنَفْحة طيبٍ من عَرارٍ ومن رَنْدِ [2]
وكم طامعٍ فى حبِّهم مات غُصَّةً ‏ ‏ وقد كان يرْضَى بالمحال من الوَعْدِ

ولابن مشرَّف الأحسائى الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار فى الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُضْحكُ وسرعان ما تُبكى ، وما سرورها إلا أضغاث أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعا له بيديه نصب عينيه ، فكل من عليها فان ، ولن ينفع المرء إلا ما قدمت يداه . وله مدحة نبوية يشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعى اليمنى وعبد الرحيم بن مصطفى العيدروس الحضْرمى .

---

(١) سلافة العصر ص ٥١٣ . ونفحة الريحانة ٣ / ١٨٩ .

(٢) العرار والرند : من أزهار البادية .

عبد الرحيم البُرَعى (١)

شاعر صوفى سُنِّىّ يمنى ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته ، ويقول ابن زباره : «هو عبد الرحيم بن على البُرَعى الهاجرى اليمنى سكن فى النيابتين من جبل بُرَع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر ، وتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م . وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجرى وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثانى عشر الميلادى . والديوان فى جمهوره مقسوم بين تسبيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثة به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو فى القسم الأول يعبِّر تعبيرا حارا عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفى بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية فى المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الربانى وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو مانجد عند ابن الفارض مثلا ، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التخلص من عالمه المادى ليستغرق فى العالم الربانى بل ليُمْحَى فيه محوا وليفنى فيه فناء مطلقا . وكأنما فَنِيت فيه أو مُحيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحسّ شيئا إلا الذات العلية وجمالها الذى تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعى إذن ليس شاعرا صوفيا بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفى ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهى وعلم الله الذى وسع كل شىء وقدرته التى تسيطر على كل ذرة فى الكون ، مع حَمْده على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء فى القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بالخضوع ونادِ ربَّك ياهُوَ ... إن الكريم يُجيب من ناداهُ
واقصدْه منقطعاً إليه فكلّ مَنْ ... يرجوه منقطعا إليه كفاهُ
هو أوّلٌ هو آخرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ ليس العيونُ تراه
سَلْ عنه ذَرَّات الوجود فإنها ... تدعوه مَعْبُوداً لها ربَّاه

وهو يستخدم كلمة «هو» فى التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) انظر فى البرعى وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥ / ٥٨ وقد أخطأ فى اسمه واسم أبيه فسماه عبد الرحمن بن أحمد وانظر : «فى التصوف الإسلامى» لنيكلسون (ترجمة عفيفى) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

الصوفية وخاصة فى شعر الذكر ، إذ يهتفون : «هو هو» بسكون الواو وكأن كل ما فى الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعيِّنه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء فى اليمن [١] . ويستمر البرعى فى القصيدة بمثل قوله :

أبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ من نُطْفَةٍ بَشراً سويًّا جَلَّ مَنْ سوَّاهُ
وبنىَ السموات العُلَى والعرْش وال ـكرسىَّ ثم علا الجميعَ عُلاَهُ
ودَحَا بَسيطَ الأرضِ فَرْشا مُثْبَتاً بالرَّاسيات وبالنباتِ حَلاه [٢]
تجرى الرياحُ على اختلاف هبوبها عن إذنه والفُلْكُ والأمواهُ

وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقه للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض وتثبيتها برواسٍ من الجبال وتزيينها بنبات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك فى البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمده من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم كما قال جَلَّ شأنه : (وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ) فقدرته لا تحدُّها حدود . ويختم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمله برحمته وكرمه وغُفْرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

ياذا الجلالِ وذا الجمال وذا الكرمْ يامُنْتَها عمّ الأنامَ نَداهُ
اقْبلْ توسُّلنا بفضْل محمدٍ ومَن له فضلٌ لديك وجاهُ
واشْدُدْ عُرَى عبدِ الرَّحيم برحمةٍ إن الحوادث قد فَصَمْنَ عُرَاهُ
وأنِلْهُ فى دُنْياه كلَّ كرامةٍ وقِهِ الذى يخشاه فى أُخْراه
وأذِقْه بَرْدَ رضاك عنه فلم يَخِبْ من كان عيْنُك بالرِّضــا تَرْعاهُ

وتكثر هذه التوسلات فى الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذللَ لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرها وعواطفها فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حِوَلا . ويقابل هذا القسم فى الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوى ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بعفوه ويرعاه فى دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

والله ما حملتْ أُنْثَى ولا رضَعتْ كمثل أحمدَ من قاصٍ ولا دانى

(١) انظر شعر الغناء الصنعانى ص ١٨١ .
(٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

مهذَّبٌ شرَّف اللهُ الوجودَ به وخصَّهُ بِدلالاتٍ وبُرهانِ
ومعجزاتٍ بِعَدِّ الرَّملِ لو كُتِبَتْ لم يُحْصِها ماءُ سيحانٍ وجيحانِ
محمدٌ سيِّدُ الكوْنَيْنِ والثَّقلَيـ ـن والفريقين من عُجْمٍ وعُرْبانِ

وسيحان وجيحان نهران فى آسيا الصغرى . والأبيات عذبة ، ومدائح البرعى للرسول ﷺ من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعاً على الآذان ، بل إنها لتمتع الأسماع حين تُصْغِى إليها كما تمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن روائع توسلاته قوله فى خواتيم هذه المدحة :

ياسيِّدى يارسولَ اللهِ يا أملى يامَوْئلى يامَلاذى يومَ يَلْقانى
هَبْنى بجاهك ماقدَّمتُ من زَللٍ جوداً ورَجِّحْ بفضلٍ منك ميزانى
واسْمَعْ دعائىَ واكشفْ ما يُساورنى من الخطوب ونَفِّسْ كلَّ أحزانى
وامنعْ حِمایَ وأكرمْنى وصِلْ نَسَبى برحمةٍ وكراماتٍ وغُفْرانِ

وكل أمله فى هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله فى ساحته وأن يكون ملاذه وأن يغفر له زلله وعثراته ، وأن يجعله ممن ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه ونعيمه وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يوائبه من الخطوب وينازله ، وأن يدفع عنه كل أحزانه وهمومه ، وأن يحمى حِمَاه . وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز بالجنان ، كما يمنحهم العون فى الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم الهموم ، إنه الإنسان الكامل الذى يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال فى الخلق والشيم لا يزال البرعى يتغنى به وبما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كانتْ نبوتُه وآدمُ صورةً فى الماء والطِّين المصوَّر منهما
وبه وجودُ الكوْن من عَدَمٍ فقد ملأ الزمانَ تفضُّلاً وتكرُّما

ونحس فى البيتين إيمانه بالحقيقة المحمدية التى تغنى بها البوصيرى وغيره ، إذ يستلهمون الأثر المشهور : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من خلق آدم ، وإن الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعى فى البيت الثانى ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذى يسرى فى كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

من نور ذى العَرْش معناهُ وصورتُهُ ومَنْشأُ النورِ من نورٍ يُجسِّمُهُ

فهو من نور الله ، وكل نور فى الوجود ناشئٌ من نوره ، فنوره يشاهَد فى كل نور . ويردد البرعى دائما فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله مخمسان بديعان فى وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بمحمدٍ خَطَرَ الحامدِ يَعْظُمُ وعُقودُ تيجانِ العقودِ تنظَّمُ
وله الشفاعةُ والمقامُ الأعظمُ يومَ القلوب لدى الحناجرِ كُظَّمُ
فبحقِّهِ صَلُّوا عليه وسلِّموا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تاليين ، وبذلك جعل المخمس صالحا لأن ينشده منشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس . وعلى شاكلة هذا المخمس مخمسه الثانى ، وقد جعل الشطر المكرر فيه : «صلوا عليه وسلموا تسليما» . ونبوياته بحق رائعة وقد شُغف بها المغنون الجوَّالون فى اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطَّارات أزمنة متطاولة .

عبد الرحمن العَيْدَروس[1]

حَضْرمى من بيت علم وفضل ، ولد بمدينة تَرِيم فى سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣م ، وبها نشأ فى رعاية أبيه وجده فحفظ القرآن الكريم وشَدَا العربية ، وتفقه على الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه . وسافر مع أبيه إلى الهند ، وكثرت رحلاته بعد ذلك ، فقد عاد منها ، بعد أن تزوَّد من علمائها زاداً حسنا . وذهب إلى مكة للحج وأخذ عن شيوخ الحجاز ، وزار مصر سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م وعاد إلى مكة وسكن الطائف ، ثم زار مصر سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م فكث بها عاما واحداً وعاد إلى الطائف ، ثم رأى أخيرا أن يستوطن مصر فنزلها بأسرته سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م وفى أثناء استيطانه مصر زار دمشق سنة ١١٨٢ وزار الآستانة سنة ١١٩١ وعاد إلى مصر وتوفى بها سنة ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م ودُفن فى مقام العتريس إلى جانب مسجد السيدة زينب . وكانت قد طارت شهرته بالصلاح والنسك فى حياته . وتعلق به شيوخ الطرق الصوفية . وله مصنفات كثيرة ، تغلب عليه فيها النزعة الصوفية ، ويذكرون له شرحا على بيتى ابن العربى :

إنما الكَوْنُ خَيــــالٌ وهْو حَقٌّ فى الحقيقَهْ
كلُّ مَنْ يفهم هذا حازَ أسْرارَ الطريقَهْ

وهو لا يغلو غلوه فى التصوف الفلسفى ، فليس فى أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات العلية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الربانى . وحقا نجد

---

(١) انظر فى عبد الرحمن العيدروس وشعره تاريخ الجبرتى ٢ / ٢٧ وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الشعراء الحضرميين ٢ / ١٨٩ ونشر العرف لزبارة ٢ / ٥٠ وشعر الغناء الصنعانى ص ١٩١ وديوانه تنميق الأسفار مطبوع بالقاهرة .

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْوِ والصَّحْوِ ، ولكن لا تظن أنه يستغرق فى ذلك استغراق ابن عربى ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلم بالخمر ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أَنْعَشَتْنِى خمرةٌ للغير تَمْحُو ... فاعْتِلالى بالهوى القُدْسىِّ شَطْحُ
عاذلى كُنْ عاذِرى أو عاذلى ... أنا مِن خَمْرِ التجلِّى لستُ أَصْحُو
أنا فانٍ والفَنا عَيْنُ البقا ... فى رَشاً مِن دونه سَيْفٌ ورُمْحُ
هَامَ شَخصُ القلب من خمر الفَنا ... فَهْوَ مِن تلك الحُمَيَّا ليس يَصْحُو
أنا فى مَحْوٍ وصَحْوٍ دائما ... حيثُ لى فى مَجْمع البَحْرين سَبْحُ

وكل مايمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية ومايتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول فى المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضا فكرة الصحو وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر، كل ذلك نجد ظاهرا منه عند العيدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقا فى لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمنيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله :

شَرَحَ الدمعُ على مَتْن الخدودْ ... ما أُلاقيهِ من الظَّبْىِ الشَّرودْ
يالَقومِى من غزالٍ صادنى ... وعجيبٌ رشأٌ صادَ الأسودْ
أهْيَفُ القامة فى وَجنَتِهِ ... جنَّةُ الخُلْدِ ونيرانُ الخلودْ
غُصْنُ حُسْنٍ قد سُقِى ماءَ البَهَا ... مُثمراً - أَضْحى بِرُمَّان النُّهُودْ

وواضح أن هذا الغزل الإلهى لا يفترق فى شىء عن غزل الحب الإنسانى ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل فى فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجمالها المغرى . وكأنى به يتأثر فى هذا الغزل المادى بديوان ابن عربى : «ترجمان الأشواق» الذى يكتظ بالوصف الحسى لجمال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلا إنسانيا ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الربانى . ويمضى العيدروس منشداً :

أيها الظَّبْىُ التَفِتْ نحو الحَشا ... أيها الشمس أزِلْ نارَ الصدودْ
عَطْفَةً بالقَدِّ من هذا الجَفا ... وأبيك العَطْفُ من شأن القُدودْ
كم أرى بارقَ وَعْدٍ أوْمَضا ... قد مَضَى وقتُ المعنَّى فى وعود
وصلاةُ الله تَغْشَى المصطفى ... ماتَلألا البرق من أقصى النُّجُودْ

وهو يتمنى لفتة من الظبى الشرود أو قبسا من الشمس الهادية يطفئ غليل ظمئه :

ويأمل فى عطفة نحوه أو فى وصل طالما رأى بُروق وعوده ، وكأنه دائما فى هجر وفراق ومَطْل وبيْنٍ وإنه ليتوسل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائما من الضَّنِّ بالوصال ، يقول :

أتسألُ عن عَيْنى لما هىَ تَدْمَعُ ... وجِسْمى نحيلٌ والحَشَا يتقطَّعُ
ولَوْنى كئيبٌ والفؤادُ بِحَسْرَةٍ ... ومالى سهيرَ الطَّرْف والقلبُ موجَعُ
فما نالنى هذا سوى مِنْ فراقِ مَنْ ... له النُّورُ يَبْدُو فى البقاع وَيلْمَعُ

فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تَقطَّعت أحشاؤه واكتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائما مسهَّد الطرف ساهره ، وقلبه مكتظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوبه الذى يملأ العالم بنوره ، وهو ما ينى يذكره ويرسل دموعه ، لعل محبوبه -كما يقول- يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهيْتَنى عن جهاتى ... يا راحتى يا حياتى
ما ضرَّ يا مَنْ سبَانى ... لوجُدْتَ لى بالْتِفاتِ
باللهِ يا مَنْ رمانى ... بِأسْهُمٍ صائباتِ
عَطْفاً على الصَّبِّ عَطْفاً ... من قَبْلِ كأسِ المَماتِ

وهو يصرِّح فى الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، ونتأهب لكى يتحدث لنا عن وجوده الإنسانى وفنائه فى الوجود الربانى ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتى ، أوكأنه يدخل عالم الفناء الصوفى أوعالم الشهود الإلهى ، ولكنه لا يستمر فى بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربى وأمثاله ، ولم يفكر فى الشهود ولا فى الفناء . ولا نريد أن ننفى بذلك عنه صفة التصوف ، فهو متصوف سنى ، لا يتعمق فى تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن وجوده ومن كيانه المادى .وله يائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول فى فواتحها :

صاحبى عَرِّجْ على نَجْدٍ وحَىْ ... أهلَ حَىٍّ لم يكن يحكيه حَىْ

وهو إنما يعارض بيائيته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عنده وجده ولا التياعه ولا مجاهداته فى الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية . لم يكن العيدروس يتعمق فى تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون ولهٍ جارف .

الفصل الخامس

النثر وأنواعه

١

تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإمارتين اللتين تأسستا فى شرقيها لأوائل هذا العصر : إمارة بنى مَزْيَد فى الحِلَّه وبنى عُقَيْل فى الموصل كانتا تعنيان بالكتابة . فابن خلكان يذكر أن على بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدى أمير من أمراء بنى مزيد فى شبيبته [١] ونظن أنه كان لأمراء بنى عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بنى مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابى فيهما كان محدوداً . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نشأت فى الشمال الغربى للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مِرا وآل على ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفى صبح الأعشَى مراسيم كثيرة صادرة من مصر بإمرة أمرائهم ، وكذلك لآل مهدى فى البلقاء ، غير أننا لا نعثر بردٍّ من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بداوة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندى يقول : «إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يُكتَبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد عُلم اللسان وعليهم فيه يعوَّل [٢] » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجدا إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كُتّاباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل فى مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٤٩١ .　　(٢) صبح الأعشى ٨ / ٧٦ .

وفى صبح الأعشى عهد فى صورة يمين لأبى نُمَىّ أمير مكة حلف بها لقلاوون . وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المماليك فى هذا التنصيب[١] ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم ، فقد كانتا تتبعان مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل فى حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر فى أثناء ذلك هى التى تعيِّن أصحاب الوظائف الكبرى فى البلدتين ، وخاصة فى القضاء وفى مشيخة الحرم النبوى ، وفى صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذْكر فيها واجبات الوظيفة[٢] .

ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء فى مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا فى كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه خُطَبُ زَواج طريفة إذ ظلوا يحتفظون فى عَقْد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهى خطب منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله فى خطبة زواج : «إن الزواج جُنّة تُتّقى بها الفتنة ، وجَنّةٌ يُتّلى على متفيِّئ ظلالها : (اسكُنْ أنتَ وزوجُك الجنّةَ) تُثْمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينةَ الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسُه ثمرةَ الفؤاد ، وتُسْفر ليلته عن طرَّة صبح تحت أذيال الدُّجَى ، ويتبلَّج يومه عن شمس تتوارى بحجاب الحِجال[٣] والحِجا ، وهو الغرض الذى لا يخطئ قاصده الإصابة ، والعَرَض الذى لا يقوم إلا بجوهر أفخر عصابة ، والحصن الذى يُعْتَصَمُ به عن الوقوع فى حمى الحَرَج ، ويُحتَمى به من مصارع الرجال التى هى ما بين معترك الأحداق والمهج ، والوسيلة التى يتوسَّل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُنْشده بلبل الأفراح هنيئا لمن أمسى سمير حبيبه ، وناهيك فى فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة فى صحيح الروايات[٤] » والتنميق فى الخطبة واضح .

ومرَّ بنا فى الحديث عن الثقافة كيف تحول الحرَمان : المكى والمدنى إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف فى البلدتين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامى . وشاعت منذ القرن الخامس الهجرى كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب فى صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . وبجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقريظ

---

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدها .

(٣) الحجال : ستر أو أستار تضرب للعروس فى جوف البيت . الحجا : العقل .

(٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين طائفة من التقريظات لمصنفاته فى ترجمته بالجزء الأول من كتابه[١] ، وهى تصور مدى ما كان يأخذ به المقرِّظون لكتابٍ أنفسَهم بتنميق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جمال فى الجرس والأداء .

ولعل قطراً فى الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت فى اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ - ٥٣٢هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن على بن القِمِّ الشاعر النابه الذى ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمدانى كتابه «الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن» بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهى رسائل نفيسة لا لما تصور من شئون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها فى اليمن منذ القرن الخامس الهجرى . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح فى زبيد ، ونجد بين أمرائها أديبا نابها هو جيَّاش بن نجاح صاحب كتاب المفيد فى أخبار زبيد الذى اختصره عمارة اليمنى ، وكان يضم شعراء زَبيد وأدباءها ، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكلفة وإنه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عمل ممتع ، مقدماً بذلك لترجمته فى المختصر. ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبى عَقامة كما مرَّ بنا . وكان شاعراً قتله جياش بن نجاح ، ويقول الجَنَدى عنه «وإليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق ، وترسل رائق»[٢] . وبالمثل بعث بنوزُرَيْع بعدن (٤٧٦ - ٥٦٩هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبى بكر العَيْذى ، وفيه يقول عمارة اليمنى فى صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : «سمعت الشيخ الموفق أبا الخلال فى الأيام الفائزية (أيام الخليفة الفائز الفاطمى) والقاضى الجليس أبا المعالى عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منهما إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق ، ولا رأينا لكتَّاب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبى العتيق أبى بكر بن محمد العيذى بعدن فإن له بلاغة تشهد عذوبة مطبوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها» وكان شاعراً

(١) العقد الثمين ١ / ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) انظر الجندى فى السلوك - النكت ٦٣٢ .

بارعاً ، ومرَّ بنا بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذه كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش ، ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وندخل فى عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ) وتُعْنَى بالكتابة الديوانية ، ويحتفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وببعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين المماليك ، وفى صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين[1] .

ويبدو أن الكتابة كانت نشطة فى بيئة الأئمة الزيدية ، وفى صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتبة بينهم وبين سلاطين المماليك ، إذ ينص على رسم المكاتبة إليهم وأنها كانت ، «أدام الله تعالى - أو ضاعف الله تعالى - نعمةَ - أو جلالَ - الجانب الكريم العالى السيدىّ الإمامى الشريفى النسيبى الحسنىّ العلامىّ سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوىّ ، فخر النسب العلوىّ ، مؤيِّد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلياء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مُرْبِعاً ، وغيله مُسْبِعاً ، وقِراه مُشْبِعاً ، وكرمه لفيض نداه مَنْبعاً ، وهُداه حيث أمَّ بالصفوف متَّبعاً[2] . . .» وفى ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبيعى أن تكثر الإجازات فى اليمن كما كثرت فى المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقاريظ الكتب ، من مثل تقريظ القاضى شرف الدين إسماعيل بن أبى بكر المعروف بالمقرئ اليمنى لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالى فوائد العبر ، والآتى بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فللّه در مصنفه من إمام حافظ ، وبحر بجواهر العلوم لافظ ، ولا حق ، برَّز على السابق ، وبَذَّل فى علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلَّغه الله غاية الأمنية ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبيعى أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله فى الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزى ، وله فى التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة[3] . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

---

(١) انظر صبح الأعشى ٧ / ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ .

(٢) صبح الأعشى ٧/ ٣٣٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ - ١٦٢ .

بكتابات أدبية فكهة سنعقد لها حديثاً مستقلاً فى غير هذا الموضع .

وكل ما لقيناه فى اليمن من نشاط كتابى نلتقى به فى حضرموت . فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيدروس بن عمر ، وقد جاء فى صدرها : «الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها الستائر ، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر ، وتُقْبل بكليتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقى بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر ، ولم تزل تحتلى بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتتجلّى وراء ما هو آفل وغابر ، حتى تشاهد الجمال المطلق بقيمومية مَنْ هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها النداء : إنَّ هذا جمال لا أول له ولا آخر[1] » . ويظل طويلا فى هذه النغمة الروحية الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق الذى تعم الوجود أضواؤه .

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابى طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمى بعرضه فى كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» . وفى طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضى الذى دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بنى مكرم الشيعة الإماميين ولاة البويهيين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستهله على هذا النمط : «إنى أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك فى زواجره ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفعك أو ضرَّك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكفّ [الناس] عن فعله ، وَلْتحذر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان[2] » . وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضى راشد بن على المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السرى يكتب له شروطاً بها أسجاع[3] . ويخلفه محمد بن أبى غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل قولهم : «الله تعالى يحرس علينا شريف بقائه ، ويزيد فى رفعته وارتقائه ، ويديم عليه ما اتسع من نعمائه ، وينعم علينا عاجلاً بكريم لقائه[4] » : ويتولى بعده موسى بن أبى المعالى بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتابا إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٥٤ .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .

(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

مسجوع[1] . وقلما يورد نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بنى مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلما يورد شيئاً من رسائل بنى نبهان السنيين الذين حكموها من القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهى رسائل منمقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع فى رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم فى شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة .

وليس بين أيدينا نشاط كتابى كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد فى صبح الأعشى فى رسم المكاتبة إليهم فصلاً[2] طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة فى عهد المماليك . ودوّن ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد .

٢

رسائل ديوانية

مرّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة فى العصرين الأيوبى والمملوكى بل لا شك فى أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك فى العصر الفاطمى ، غير أن ما بقى من هذه الرسائل فى المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبى نُمَىّ أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم[3] :

«من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبى نُمَىّ محمد بن أبى سعد : أما بعد فإن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أوحش . وقد بلغنى عنك أيها السيد : أنك آويت المجرم ، واستحللت دم المحْرِم ، ومن يُهن الله فما له من مُكْرِم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك ، والسلام» . فكتب إليه أبو نُمَىّ :

«من محمد بن أبى سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه ،

---

(١) التحفة ١ / ٢٩٥ .
(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٧٠ .
(٣) العقد الثمين ١ / ٤٦٥ .

تائب إلى ربه ، فإن تأخذ فبذلك الأقوى ، وإن تَعْفُ فهو أقرب للتقوى . والسلام » .

وكان سلاطين المماليك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا فى حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قويمة ملتزما فيها بما عاهدهم عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج ، مع ذكرهم فى الخطبة ، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم ، وفيما يلى عهد أبى نُمَىّ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضى على هذا النمط [١] :

«أخلصت يقينى وأصفيت طويّتى وساويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإنى عدوٌّ لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سِلْمٌ لمن سالمهم . . وإننى ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرَّفة فى كل موسم وأن لا يتقدم عَلَمَه عَلَمُ غيره ، وإننى أُسبِّلُ زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللائذين بحرمه والحاجِّين والواقفين ، وإننى أجتهد فى حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ، وإننى أؤمنهم فى شربهم ، وأُعْذب لهم مناهل شربهم ، وأننى أستمر – والله – بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى . وإننى – والله – أمتثل مراسيمه امتثال التائب للمستنيب ، وأكون لداعى أمره أول سميع مجيب» .

وواضح أن أبانمى لم يستخدم فى هذا العهد السجع كما استخدمه فى الخطاب الذى رد به على بيبرس ، وكأنه عنى هنا بالمضمون أكثر من عنايته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهده ، أما العهد فمن صنعه هو وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التنميق .

والرسائل الديوانية فى اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بياناً رسالة الحسين ابن على بن القِمّ كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على الصُّلَيحى سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لعلى بن محمد الصليحى فى طريقه إلى الحج فى ذى القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزبيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكنه أن ينقضّ على آل نجاح فى السنة التالية ، ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند ، وتدخل زبيد فى طاعته . ويصور ابن القِمّ فى الرسالة انتصارات الملك

---

(١) العقد الثمين ١ / ٤٦٢ .

المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محقها محقاً . والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغَمْسه أو صَبْغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روعتها البيانية[1] :

« المملوك يناجي حضرة الإمامة ، ويناهي سُدَّة الخلافة ، جعل الله عزهما باقيا على الأيام ، ومجدهما غير منقطع الدوام ، عالماً أنه يَلْبَسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحُسْنَيَيْن ، شائماً (متطلعاً) من مولاه بَرْقاً مُضِيًّا ، ومستظلا من سحاب الإكرام وَدْقا (غيثاً) رَوِيًّا ، ومتبوِّئًا من رُتَب الاختصاص مكانا عَلِيًّا ، ومتعرضاً لمنزلة من أدناه وقرَّبه نَجِيًّا . إنه قد كان قدَّم خدمة يطالع بها بأنباء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر المحن ، التى ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كامنا مستورا ، وقال الذين فى قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسولُه إلا غُروراً) . . . وجَدَّ عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خِيرة الله تعالى وخِيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زَبيد . . فوردها فى التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زبيد) وألفاه المملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان فى أنفه ، وأراه الحياة فى حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجا ظن أن الله لا يستطيع له نَزْعا ، وتجلبَبَ من الجبروت بثوب لا يروم له ما عاش خلعا . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جَمعا) . فدلَف إليه المملوك فى جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصارا ، واتخذوا الصبر شعارا ، والله - عز وجلَّ - جارُ المتمسكين بسبب الله الذى لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم فى ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزحوف ، ولمعت السيوف ، ووكفت (سالت) الحتوف ، وتزلزلت الأقدام ، وصال الحِمام ، واغبرَّ القَتام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانت الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشِّفار (السيوف) وطُلِبت الأوتار ، وأعْوز الفرار . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأيدى المؤمنين تقتسمهم ، فتركوهم بين صَريع بدمه ، وهاوٍ ليديه وفمه ، وشاردٍ لم يُنْجه سعى قدمه ، ونادم لم ينتفع بندمه . . . ومعفور نطيح ، ومطعون جريح ، قد عادوا فرصةً لكل واثب ، وأُكْلة لكل ناهب ، مصرَّعين

(١) انظر الرسالة فى كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » للدكتور حسين الهمدانى ص ٣٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، وواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبتَّ من حبله حبالهم ».

والرسالة طويلة وابن القِمّ يلتزم فيها السجع ، وواضح أنه يعنى باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجَرْس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبوًّا ولا نشازا فى عبارة من عباراته . ومما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التى يقتبسها تلتقى فواصلها مع قوافيه التقاء طبيعيا ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جَرْس النغم فى الرسالة التحاما تاما .

وكأنَّ ابن القم كان استهلالا قويا لأن تأخذ اليمن منذ عصره فى العناية برسائلها الديوانية عناية يعمّ فيها غير قليل من التنميق ورَصْف السجع وتدبيجه . ويلاحظ ذلك بوضوح فى الرسائل والعهود المكتوبة فى الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ فى العهد الذى فوَّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ – ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء[١] :

« أما بعد فقد مَلَّكْنا عليكم مَنْ لا نؤثر فيه – والله – داعى التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التمحيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبصيرنا الذى نرجو به صلاح البلاد والعباد ، ونؤمِّل فيه من الله الفوز والنجاة فى المعاد ، وقد رسمنا له من وجوب الذبِّ والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمسئول فى إعانته مَنْ لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفشا من قِبَلكم فى كل لسان »

وواضح ما فى العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلسا سلاسة الماء النمير ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة « داعى التقريب » توضع على وزنها كلمة « باعث التجريب » وكلمة « عاجل التخصيص » تليها موازنة لها كلمة « آجل التمحيص » وكلمة « ملازمة الهوى والإيثار » توازنها كلمة « مداومة البلوى والاختبار » وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالمترادفات فى نهاية السجعة مثل « الذب والحماية » و « الرفق والرعاية » و « حميد خصاله » و « سديد فعاله » مما يدل بوضوح على الرغبة فى اكتمال نغم الكلام .

وتلقانا فى عهد السلطان الأشرف وربما كان فى عهد أخيه المؤيد (٦٩٦ – ٧٢٠ هـ)

---

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ٢٧٤ .

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن قلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسولى الذى طالت بينهما الحروب ، معددا قبائحه ، مؤملا أن يسعفه بجيش لإجلائه عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا فى تعجيل دَماره . وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيَّدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أُنعم عليه ببعضه ، وأُعطى منه ما هو إلى جانب أرضه . ثم قال : «وكتبت إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤدياً إليه ما يقتضى إعجابه . . ولا رغبة لنـا فى السـلب ، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب» . واقتطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة [١] ، وكأن السجع أصبح منذ ابن القم صفة عامة فى الرسائل والعهود اليمنية . ونمضى إلى زمن السلطان الرسولى الأشرف إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣هـ) فيرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ، يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عُروض التجارة ، ويبادله الأشرف إسماعيل هدية بهدية ، وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة . ويطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجرا وغير تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام . ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كى يخفضها ، لأنه تابعه ، وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشرف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول [٢] :

«لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعزَّ الله أنصاره ، بمقدار همته الشريفة العالية ، ورتبته المُنيفة السامية ، لاستُصغرت الأفلاكُ الدائرة ، والشهب السائرة ، واستُقِلّت السبعةُ الأقاليم تحفة ، والأرض وما أقلته طُرْفة ، ولم نَرْض أن نبعث إليـه الأنـام مماليك وخَولا (عبيـدا) ، ونجبى إليـه ثمرات كـل شىء قُبُلاً ، ولو رام محبُّ المقام (يقصد نفسه) هذه القضية لقَصُرَ عنها حوْلُه ، ولم يصل إليها طَوْلُه (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلصُ فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد» .

والرسالة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ، حتى يروق الأسماع ، بل حتى يبهرها ، بحسن تنسيقه وجمال رَصفه ونسجه . وكان كتّاب الإنشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب

(١) صبح الأعشى ٧ / ٣٣٧ .
(٢) صبح الأعشى ٨ / ٧٣ .

الموسيقى ، حتى تلذ ألفاظه الألسنة ، وحتى تقع موقعاً حسناً من القارئين لها والسامعين .

ومربنا فى عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عمالهم ، يأمرونهم فيها بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسيروا فى الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى إذا كنا فى القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهودا كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله فى « الباطنة »[١] :

« إنى قد وليتك على قرية لوىً من الباطنة . . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ، وتنهاهم عن المنكر المخوف ، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين ، وتُحْيِى فيهم سنة النبى الأمين ، وآثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ، وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . . ولا تَخَفْ فى الله لومة لائم ، ولا عَذْل مجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . . فالله ! الله يا أبا الحسن فى اكتساب الحسنات ، وإنكار المنكرات ، بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجبه الله فى الجدّ والتشمير ، وترك التهاون والتقصير » .

ولا يطّرد السجع دائماً فى عهود ناصر بن مرشد ، وحتى فى العهد الواحد يستعمله حيناً وحينا لا يستعمله . ويغلب فى سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شىء من الرَّيْث فى اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم يقبلون ما يفد عليهم عفو الخاطر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) ويفتتح ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة[٢] :

« الحمد لله العزيز عزّ أن تعوم فى بحور صفاته جوارى (سفن) الفِكَر ، وأن تروم تنظر كواكب تكيُّفه بصائرُ أولى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق العيان والنظر ، العالم بدبيب النملة والذر . . الذى (لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ فى السموات ولا فى الأرض) ولا (فى ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسماع والخبر ، أو أن تجرى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمده على ماصبٍّ برياض قلوبنا من سلسال العبر ، وحَسم عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما خوّلنا من يانع نعمه وقدّر ، وسقانا من عصير كَرَم كرمه وعزّ وتكبّر . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أعدها جُنّةً ليوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وَزر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

---

(١) تحفة الأعيان ٢ / ٢٦ .

(٢) التحفة ٢ / ٤٧ .

دعا إلى الله وأنذر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكّر» .

وأكبر الظن أن كاتب هـــذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر فى أول العهد عن عقيدة الإباضية التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفى التجسيم عن الله بكل صورة من صوره وتنزيهه تنزيها مطلقاً عن الشبه بالمخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كَيْفٌ أو جهة أو أى صفة من صفات البشر . والكاتب أديب بارع ، فقد التزم فى نحو صحيفة كبيرة صدّر بها الرسالة قافية الراء ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناصية الكلام . وهو يعنى بالتنميق فى عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتصاوير والاقتباس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح فى اقتباسه لقوله جَلّ شأنه : (لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرّةٍ فى السموات ولا فى الأرض) وقوله (فى ظلمات البر والبحر) . وتكثر الاقتباسات والجناسات فى العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا فى الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليعربيين الإباضيين قَبض على صولجان الحكم فى دياره ومدينتا صُحار ومَسْقط فى أيدى البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منهما ومن سواحل بلاده شر طردة مستعيناً فى ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم فى كل موقع ، ويبدو أن سفنا منه حاولت الإلمام باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، فى أولاهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه [١] :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا فى العام الماضى رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم . ولعمرى إنا لندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائدٌ مَحْضَ المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ مخالبنا ، لمشارّة (لمخاصمة) رعيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمك وأقضيتك (أقاليمك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهاذم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديّان

(١) التحفة ٢ / ٥٦ .

تعرُّضاً منا لرضا رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة فى إدراك أجر الصابرين المجاهدين . وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عَبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألستَ من سلالة على بن أبى طالب ، الساقى المشركين وَبِيء المشارب ، وأنت تدرى ما جرى بيننا وإياهم من قبلُ فى سواحل عُمان ، وفى سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة الصِّيال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم فى كل موضع تحلّ به مراكبهم وتغشاه ، حتى من كنبج وجيرون بتَدَرى الشاه (ملك فارس) ولم يُظْهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً ، وإن كنت فى شك من ذلك فاسْألْ به خبيراً »

ويذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك فى تعقب البرتغاليين مدافع فى ظَفار التابعة له وأنه حرىّ أن يردها عليه . وتمتلئْ قلوبنا أسى حين نقرأ رسالة إسماعيل بن القاسم التى ردَّ بها على سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصفح عن كبوته وعثرته المُّردية ، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته ، يُبْرق له ويُرْعد ، ويَتهدد ويتوعد ، إذ تمضى رسالته على هذه الشاكلة [1] .

« وصل كتابك الذى شحنته بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب ، إلى تخشين الخطاب ، ظنا منك إن هذيان وعيدك ، وطنين ذباب تهديدك ، يزعزع من بأسنا صخرةً صمَّاء ، أو يحرِّك من وقارنا جبالاً شَمَّاء ، وكيف يكون ذلك :

وأسيافُنا فى كل شرقٍ ومغربٍ بها من قِراعِ الدارعين فلولُ

أين ذهب حِجاك حتى طلبت منا المدافع ،بهذه الأراجيف والفقاقع ، وإنما تقطع أعناقَ الرجال المطامع . أما علمت أن الليث إذا هيج على فريسة كان أشد إقداماً ، وأعظم جرأة واعتزاماً ، لا جرم أنها لما نأت بنا وبك الديار ، وحالت دوننا ودونك الأمصار ، استرسلت فى لفظك ، وجاوزت فى سوء المقدار حَدَّك ، وانفردت بأرضك ، فطلبت الطعن والنزال وحدك :

يا سالكا بين الصوارمِ والقَنا إنى أَشُمُّ عليك رائحةَ الدَّمِ

فاقطع عُرى آمالك عن هذه المدافع ، فهى أول غنيمة – إن شاء الله – من قطرك الشاسع »

والكتاب حقاً محزن ، إذكان المنتظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده فى يد سلطان بن سيف حين جاءه كتابه ، ويعود إليه صوابه ، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآثمين . وعلى العكس من ذلك مضى فى غيِّه يتوعد سلطان بن سيف بمعركة كمعركة النهروان التى

---

(١) التحفة ٢ / ٥٨ .

تعقب فيها على بن أبى طالب الخوارج ومزّق جموعهم ، وكان حريا أن يحيّى فيه جهاده للبرتغاليين ويشدّ إزْرَه ، لا برد المدافع والأسلحة التى تركها فى ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمده بالفرسان والرجال ! . والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مهما شرقنا أو غربنا فى الجزيرة العربية .

٣

رسائل شخصية

طبيعى أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلم بهما كثير من العلماء والأدباء ، وكانوا يتكاتبون ويتراسلون مع علماء البلدتين وأدبائهما ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتى مكة الحنفى وأحد أعلامها العلماء فى نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمرى إلى أبى المواهب البكرى مفتى الديار المصرية ، وذلك فى سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج فى السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط [١] :

«إنّ أشرفَ ما تتوّج به المفارق والرءوس ، وأبهرَ ما تبتهج به المهارق والطّروس ، وأبهى ما يُنْظَمُ فى سلك السطور ، من الدُّرَرِ الباهرة لدرر النحور ، وأنهى ما يُرَقَمُ (يكتب) فى صكوك الصدور ، من الغُرر المضاهية للآلئ البحور ، تحيات نُظمت بأنامل الإخلاص عقودُها ، وتسليمات رُقمت بطراز الاختصاص بُرودها ، تشفعها الأدعية التى على ألسن المقربين تُتلى . . صادرة من قلب منيب أوّاه ، ناظرة أن ليس فى الوجود إلا الله ، فيها ملائكةُ الإجابة ، تحفُّها بالقبول والإنابة ، بأن يديم الله للعلم وأهله ، ويُبْقى للفرع وأصله ، بقاء مولانا الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأعصم ، والجهبذ النقاد ، والكوكب الوقاد ، والبحر الزخار ، والليث الزءّار ، عالم الإسلام على الحقيقة ، الجامع للشريعة والطريقة ، كشاف مشكلات العلوم ، حلال معضلات الفهوم :

عَلاّمةُ العلماء واللُّجُّ الذى   لا ينتهى ولكلِّ لُجٍّ ساحلُ

الإمام العلامة ، الهمام الفهامة ، شيخ الإسلام ، ملجأ الأنام ، مفتى المسلمين ، صدر المدرسين ، الحبْر النّحْرير ، إمام الفقه والتفسير . . مفتى السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

---

(١) سلافة العصر ص ٧٣ .

العثمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة » . وإذا تساءلنا ماذا قرأنا فى الرسالة حتى الآن لاحظنا توًّا أننا لم نقرأ إلا سلاما وتحية ودعاء وثناء . وهذه المعانى البسيطة تتحول إلى ما يشبه خيطا تنشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة ، صيغت فى أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع ، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً ، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكى من رسالة كتب بها إلى صديق له فى الطائف ردا على رسالة كان بعث بها إليه ، وهو يمضى فيها على هذا النحو[1] :

« ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها ، وما حديقة حسناء تصادحتْ أطيارها ، وما دَوْحةٌ أمال أغصانها النسيم ، وما سَرْحةٌ (شجرة) غرَّدتْ بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم ، وما هيفاء قد برزت متلثّمة بالجمال ، وطلعت بأفق الحسن كالهلال ، وما الخزامى والمندل (العود) الرطب ، وما العنبر والعبير إذا فاح وشبَّ (سطع).وما الدر المكنون فى الصَّدف ، وما ساعات السرور المعلومة من الصُّدف ، بأجل من كتاب ورد فبرَّد بوروده غليل مشتاق ، وأخجل بورده وعُوده روائحَ النرجس الغَضّ وما يُنْثر فى الأطباق ، قد نظمتْ قلائدَ عِقْيانه أناملُ مولى تسنّم ذروة المجد ، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد ، تختال فى رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلحق جواده ، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كى لا تضل جادّة الإصابة والإجادة ، قد هبَّ من خلال سطوره نسيمه الرطب فأشفى العليل ، وجرى من بحر منثوره شهده العذب ، فبرَّد اللوعة وأطفأ الغليل »

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة ، وكأن ليس الغرض أن تؤدى الرسالة طائفة من المعانى ، إنما هى تؤدى طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس . وحاول الشيخ أن يظهر تفننه فى صنع العبارة المسجوعة ، فأطالها فى آخر هذه القطعة ، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخليا ، فكلمة « فرسان البلاغة » فى عبارة يقابلها « أرباب الفصاحة والبراعة » فى العبارة التالية ، وكذلك كلمة « نسيمه الرطب » فى عبارة يتلوها فى العبارة التالية « شهده العذب » وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن على بن القِمّ وجّه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصُّلَيحى (٤٨٦ – ٤٩١ هـ) يستعطفه ،

(١) سلافة العصر ص ٩٩ .

ولا ندرى بالضبط ما سبب هذا الاستعطاف وخاصة أنه كان – كما مر بنا فى ترجمته بين الشعراء – القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكاتب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده فى يد جياش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية . وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فألم بزبيد فأغضبه ذلك منه ، والرسالة تمضى على هذا النمط[1] :

«كتب عَبْدُ حضرةِ السلطان الأجلّ مولاى ربيعِ المُجْدِبين، وقَرِيع المتأدبين ، جِلْوة الملتبس ، وجذوة المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمناقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوّه وارتقاءه ، ما قُدِّمت العارية للمستعير ، ولزمت الياء للتصغير ، وجعل رتبته فى الأوّلية عالية المقام كحرف الاستفهام ، وكالمبتدأ إن تأخر فى البِنْية ، فإنه مقدم فى النيّة . ولا زالت حضرته من الحادثات حِمًى ، وللوفود مُزْدَحماً وملتزَما ، حتى يكون فى العُلا ، بمنزلة حرف الاستعلا . . ولا زال عدوُّه كالألف ، حالها يختلف ، تسقط فى صلة الكلام ، ولا سيما مع اللام ، فإنه – أدام الله علوه – أحسن إلىّ ابتداء ، ونشر علىّ من فضله رداء ، أراد أن يخفى ، وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان – كالمفعول رُفع رَفْع الفاعل الكامل لما حُذف من الكلام ذكرُ الفاعل – وأنا أُهْدِى إليه سلامًا ما الروض ضاحكه النّوْض[2] ، غُرِس ، وحُرِس ، وسُقى ، ووُقى ، وغِيب ، وصِيب[3] ، فأخذ من كل نَوْءٍ[4] بنصيب ، زهاه الزَّهر ، وسقّاه النّهر ، جاور الأضا[5] فحَسُن وأضا ، رتّع فيه الشُّحْرور[6] ، ومرّح العصفور ، فنظر إلى أقاحيه ، تفترّ فى نواحيه ، وإلى البَهار ، يضاحك شمس النهار ، فجعل يَلْثِمُ من ورده خدوداً ، ويضم من أغصانه قدوداً ، ويقتبس النارَ ، من الجُلّنار[7] ، ويلتمس العقيق من الشقيق[8] فثنّى ثَمِلاً ، وغنّى خفيفاً ورَملاً ، بأطيب من نفحته المسكية ، وأعطر من رائحته الذكية ، وإنى وإن أهديته فى كل أوان ، من أداء ما يجب غيرَ وان ، أعُدُّ نفسى السُّكّيت[9] فى السبق ، لتقصيرى لما وجب علىّ من الحق» .

وكل من يقرأ رسائل أبى العلاء المعرى يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومرّ بنا فى حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه فى بعض أبياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع فى

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ .

(٢) النوض : مجرى الماء ، ويريد الماء نفسه .

(٣) غيب : غاب بذره فى الأرض . وصيب : أمطر .

(٤) النوء : المطر .

(٥) الأضا : الغدير .

(٦) الشحرور : طائر كالعصفور رخيم الصوت .

(٧) الجلنار : زهر الرمان .

(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(٩) السكيت : آخر خيل الحلبة .

رسائله تصنعاً واسعا لجلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهّدها لمن جاءوا بعده [1] ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتّاب ، وها هو ابن القم اليمنى الذى يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره فى هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسبا بن أحمد بدوام علوه وارتقائه دوام لزوم الياء عند الصرفيين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملته أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليتمنى له أن يظل دائماً متسنماً ذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القِمّ وراء أبى العلاء وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغريب ، فقد وشّاها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القِمّ أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتى به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : «جَلْوة الملتبس» و«جَذْوة المقتبس» و«اليهار» و«النهار» إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يمضى فيها مستعطفاً محاولا بكل ما فى وسعه أن يستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله :

«وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلَد ، فحال أم تسعة من الولد ، ذكور ، كأنهم عِقبان وصقور ، كَنّوا [2] فى وُكور ، اخترُم [3] منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُريان فى البادية ، للعادية ، باللّعادية [4] ، فلما سمعت الدّاعىَ ، ورأت الخيل وهى سراع ، جعلت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهو ينادى العُداة ! العداة :

---

(١) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (نشر دار المعارف – الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٢) كنوا : استتروا وأظلموا .

(٣) اخترم : مات .

(٤) العادية الأولى : الداهية ، والثانية : الخيل .

بَطَلٌ كأن ثيابه فى سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوءمِ (١)

فحين رأته يختال فى غضون الزَّرد المصون (٢) أنشأت تقول :

نَشَدْتُ أَضْبَطاً يَمبـ ... ـلُ بين طَرْفاء وغِيلْ (٣)

لباسُه من نسج دا ... ودَ كَضَحْضاحٍ يَسِيلْ (٤)

فعرض له فى البادية أسدٌ هَصُور ، كأن ذَرْعه مَسَدٌ (٥) مضفور :

فَتطَاعَنا وتواقفتْ خيلاهما ... وكلاهما بطلُ اللقاء مقنّعُ

فلما سمعتْ صياحَ الرَّعيل (٦) ، بَرَزَتْ من الخِدْر بِصَبْرٍ قد عِيل (٧) . فسألت عن الواحد ، فقيل لها : لحَده اللاحد :

فكرَّت تبتغيه فصادفتْهُ ... على دمهِ ومصرعه السِّباعا

عَبِثْنَ به فلم يتركن إلَّا ... أديماً قَدْ تمزَّق أو كُراعا (٨)

وما هذه الأم الثكلى بأشدَّ من عبدك تأسفاً ، ولا أعظم كمداً وتلهفاً ، وإنه ليعنِّف نفسه دائماً ، ويقول لها لائماً : لو فَطِنْتِ لَفَطَنْتِ (٩) ولو عقَلْتِ لما انتقلتِ ، ولو قَنِعْتِ لرجعتِ ، وما هَجَعْتِ :

يُقيم الرجالُ الموسِرون بأرضهم ... وترمى النَّوى بالمُقْتِرِينَ المراميا (١٠)

وما تركوا أوطانهم عن ملالةٍ ... ولكنْ حذاراً من شَماتِ الأعاديا

أيها السيد ! أمن العدل والإنصاف ، ومحاسن الشِّيم والأوصاف ، إكرامٌ لمهان ، وإذلال جواد الرِّهان ، يَشْبع فى ساجُورة (١١) كلبُ الزِّبْلِ ، ويَسْغَبُ فى خِيسه أبو الشِّبْل (١٢) :

إذا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مكانةَ فاضلٍ ... وأصبح ربُّ الجاه غيرَ وجيهِ

فإن حياةَ الحرِّ غيرُ شهيَّةٍ ... إليه وطعمُ الموت غيرُ كريه

---

(١) البيت لعنترة والسرحة : شجرة طويلة . يصف خصمه بالبطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة ويصفه بالترف إذ ينتعل بنعال السبت الجيدة ، كما يصفه بالقوة إذ ليس توأما شركه غيره فى بطن أمه .

(٢) غضون : ثنايا . ويريد بالزرد المصون الدرع .

(٣) الأضبط : العامل أو المقاتل بيمينه ويساره . والطرفاء : شجر . الغيل : الغابة .

(٤) تصف درعه وأنه متين من نسج داود ، ويشبهون كثيراً الدروع وثناياها بغدران المياه حين هبوب الرياح

عليا .

(٥) هصور : شديد . ذرع : طول . مسد : حبل .

(٦) الرعيل : القطعة من الخيل .

(٧) عيل : نفد .

(٨) الكراع : الساق .

(٩) فطنت : أفقت .

(١٠) المقترون : أصحاب العيش الضيق .

(١١) الساجور : خشبة صغيرة تعلق فى عنق الكلب .

(١٢) يسغب : يجوع . الخيس : غيل الأسد .

أقول لنفسى الدنيّةِ هبّى طال نَوْمُكِ ، واستيقظى لاعزّ قومك ، أرضيتِ بالعطاء المتزور[١] وقنعتِ بالمواعيد الزور ، يقظةً فإن الجدَّ قد هَجع ، ونُجْعَة فمن أجْدَب انتجع » .

ويتشبه ابن القم فى هذه القطعة بأبى العلاء من ناحية وبيديع الزمان الهمدانى من ناحية أخرى ، أما تشبهه بأبى العلاء أو محاكاته له فتتضح فى الألفاظ الغريبة التى يحشدها فى نثره ، وحتى الشعر يرى أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه فى ذلك وفى تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية ، حين شبّه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب سبأ وقيامه على ديوانه بأم لتسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقى لها ولد واحد ، هو كل أملها فى الحياة ، فإذا غارة على الحى ، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحريم . وهى تصيح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده ، ويتراءى لها فى بطولته وبأسه وسلاحه ، وعبثا تحاول ردّه . ويلقاه من الأعداء فارس ، بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر ، وتسمع صياح الخيل حين عودتها ، فتبرز من بينها تسأل عن فلذة كبدها ، وتعرف أنه سُفك دمه ، فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجده أشلاء ممزقة . فياللهول ويا للكارثة المقضّة للمضاجع . ويقول إنه ليس أشد أسفاً منها ولا كمدا وتلهفا على فقده لعمله عند سبأ ولعطفه ورعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتاباً رقيقاً ، كله لطف ، ملوّحا له بحقه عليه ، وأنه قرّب إليه واصطفى من هم دونه فى المنزلة الأدبية ، وكأنه يَعْرِض عليه الصفح عنه والعفو ، آملا فى العودة ، إلى سابق مكانته ، وإنه ليصرح بأنه أجدب ، وخليق به أن ينتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كعهده .

وإذا كنا قد وجدنا فى اليمن كاتبا مبكرا يحاكى أبا العلاء وبديع الزمان فى بعض رسائلها فإننا نجد فى حضرموت كاتباً يحاكى الحريرى لا فى مقاماته ، ولكن فى بعض رسائله ، وكان الحريرى قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقاً أخلَّ به فى دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمى رسالة سينية طويلة نقتطف من مطلعها قوله[٢] :

« باسم السلام[٣] أستبدى ، وبإسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفثات سره

---

(١) المتزور : القليل .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٤ .

(٣) السلام : من أسماء الله .

أستنشد ، وبإسبال ستره أستظل ، وبإسدال أستاره أستقلّ . . . تقدس سبحانه ، وسما إحسانه ، واستطال سلطانه ، وأستعينه وأستنصره ، وأستقيله وأستغفره ، وأستعيذه من دسائس إبليس ، وسائر التلابيس ، وسطوة النفوس ، وسؤال المنحوس . . وأسأله التيسير ، وسكون الفردوس لا السعير ، وأسلم سلاما مستمرا ، يتلمّس سيد السادات سنيّ السيرة ، حسن السريرة ، المخرس بلَسَنه المُلْسِنين ، السالك سبيل أسلافه السائدين » .

وتمضى الرسالة فى ألفاظ مبعدة فى الغرابة ، كى يدل الكاتب على مهارته ، وهى ليست مهارة أدبية ، ولكنها مهارة لغوية ، وكانوا يعدُّونها زخرفاً وتنميقاً ، ونحس كأن الكلمات يُرَصّ بعضها بجوار بعض فى الرسالة ، فهى صفوف سينية ، أو هى صناديق سينية ، نقرأ فيها سينيات ، ولكن لا نقرأ فكرا ولا شعورا ، وقد كثر فيها الجناس كثرة مفرطة . وكل ذلك محاكاة للحريرى ومحاولة للدنو من طريقته فى رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين ، مع ما يطوى فى ذلك من التصعيب والتعقيد . ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دويّ بعيد فى الأوساط الأدبية الحضرمية ، إذ عدوها طرفة غريبة وظلوا يتداولونها طويلاً . على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضرميين لم تكن تُغْرب هذا الإغراب ، بل كانت تكتفى بالسجع ، وقلما اصطنعت الألفاظ الغريبة الآبدة .

ونترك حضرموت إلى البحرين ، ونلتقى فى كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها ، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبى شبابة البحرانى إلى ابن معصوم صاحب الكتاب ، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها ، يقول [1] :

« أنهى أبْهَى سلام ، شَدَتْ بنغمات السرور أطياره ، وبَدَتْ على صفحات الدهور أنواره ، وأصلحَ دعاءٍ تعاضدت شرائط إجابته ، وترادفت وسائط إصابته ، وسمت مصاعد قبوله ، ونمت فوائد فروعه وأصوله ، وأنفس ثناء ثُنيت بالوفاء وسائده ومسانده ، وبُنِيت على الولاء قواعده ومقاعده ، وخالص إخلاصٍ حديث خلوصه قديم ، وحظ خصوصه مستقيم ، أخدم به . . شمس سماء المحامد والفضائل ، وغُرّة سماء الأماجد والأفاضل ، ديباجة صفحتى الشرف والفتوة ، ونتيجة مقدمتى الولاية والنبوة ، صاحب ذيول العز الشامخ ، وصاحب أصول المجد الباذخ ، مربع الكرم والجود ، ومرتع الآمال والمقصود ، الذى نيطت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة ، وأصبحت كعوب أعراقه فى الكرم متناسقة ، وشعوب أخلاقه فى الهمم متوافقة » .

---

(١) سلافة العصر ص ٥٠٦ .

وتطَّرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وَشْيْ الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشيا ، وماهو بوشي ، بل هو ألفاظ متراصَّة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازِنة لها موازَنة تامة ، فكلمة « شدت بنغمات السرور أطياره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تعاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائط إصابته » وفى أثناء ذلك تُرَصُّ الجناسات رصًّا ، فالوسائد تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد ، ويلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المحامد والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتى الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتى الولاية والنبوة » . وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى فى الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفِرْجار ، وقد حُشد الجناس بجميع صوره : جناس الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحَظ فى وسائد الثناء ومسانده وكعوب الأعراق وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التى يسودها التصنع كانت شائعة فى البلاد العربية وخاصة فى حقب هذا العصر المتأخرة .

٤

مواعظ وخطب دينية

لا ريب فى أن المواعظ كانت مزدهرة فى مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سَفْر وقوف ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفع أحداً إلا ما قدمت يداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامى ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإلمام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدى فريضة الحج ، وكان كثير منهم يجاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً فى الحرم المكى أو الحرم المدنى . وكم كان الأدب العربى يثْرَى ويَغْنَى لو أن الوعظ فى المدينتين سُجِّل فى الكتب وعُنى به من يحفظ عيونه. ولعله من الطبيعى أن نجد ابن ظفر الذى

مَر بنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحول بكتابه « سلوان المطاع فى عُدوان الأتباع » واعظا ، وعادة يذكر المعنى ثم يتلوه بموعظة مسجوعة ، تعقبها أحياناً أبيات حكمية .

والمعنى الذى يلم به « سلْوانة » أو سلْوة ومن هنا جاء اسم الكتاب . وكثيرا ما تجرى سلواناته فى شكل حكم ، كقوله فى سلوانة التأسى : « التأسِّى جُنَّةُ البلاء ، وسُنَّة النُّبلاء . التأسِّى دَرَج الاصطبار ، كما أن الجزع دَرَك التَّبار (الهلاك) . ومن قوله فى سلوانة الرِّضا : من رَضِى ، حَظِىَ . من تَركَ الاقتراح ، أفلح واستراح . كن بالرِّضا عاملا قبل أن تكون له معمولا ، وسِرْ إليه عادلا وإلا صرتَ نحوه معدولا » . والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله : « ما أحرى الملول ، بأن يُحرَمَ المأمول . من لزم الرُّقاد ، حُرِم المراد . التنعم فى الدنيا يضاعف حسرة زيالها (مفارقتها) ويؤكِّد غُصَّة اغتيالها . الهوى طاغية فمن ملكه ، أهلكه . الهوى كالنار إذا استحكم اتِّقادها عَسُرَ إخمادها . الغريب ميت الأحياء قد أعاده البيْن ، أثراً بعد عين » .

ونتحول من الحجاز إلى اليمن ، وتلقانا فيها المواعظ فى كل مكان وزمان ونجدها فى الرسائل وفى الوصايا على شاكلة ما نقرأ فى وصية الملكة الحرة الصليحية أرْوَى بنت أحمد ، وهى لا شك من عمل بعض الوعاظ ، وقد جاء فى فواتحها [1] :

« لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات ، وخالق المخلوقات ، جَلَّ وعلا أن تناله صفة ، أو تدركه معرفة ، الخلائق فى قبضته ، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا رادَّ لأمره ، إنه العدل الذى لا يجور ، والحكم الذى لا يَحيف ، والصادق الذى لا يُخْلف ، والعفوُّ الذى لا يؤاخذ ، خالق السموات والأرضين ، وإله الأولين والآخرين ، ذو الأسماء الحسنى ، والكلمات التامَّة صدقا وعدلا . له ملائكة انتخبهم من بريته ، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته (يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرون) و(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وإن الجنة حق ، خلقها الله للمطيعين من بريته ، الخائفين من سطوته ، المؤمنين به ، المصدقين لوعده ، الموفين بعهده ، المتبعين لرسله ، العاملين بمقتضى آياته وكتبه . وإن النار حق أعدها الله لمن جحد أنبياءه ، وخالف أولياءه . . وتمادى فى غيِّه وأسرف فى أمره ، وأصرَّ على كفره » .

وهذه الموعظة فى مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة ، لا فى بيئة الدولة الصليحية

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٣٢٣ .

وحدها ، بل فى بيئات كل الدول والإمارات التى كانت تعاصرها ، وأيضا فى الدول التى جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزيديين ودولتى الرسوليين والطاهريين ، حتى إذا أصبح الصولجان فى اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة فى المساجد والجوامع أسبوعيا ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم فى عهد الرسوليين أبوالغيث[1] بن جميل الملقب بشمس الشموس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسُئل عن الصوفى من هو ؟ فقال : « هو مَنْ صَفَاسِرُّه من الكدر ، وامتلأ قلبه من العِبَر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدَر[2] » . ومن دعائه : « اللهم إنى أسألك يا روح روح الروح ، ويالبَّ لُبِّ اللبِّ ، ويا قَلْب قلب القلب ، هَبْ لى قلباً أعيش به معك ، فقد خَلَقت كلَّ ما هو دونك لأجلك ، فاجعلْنى ممن شئت من هذه الجملة » . وكان يعاصره أحمد بن علوان الذى مرَّ ذكره وله فى الوعظ كتاب نَحَى فيه منحى ابن الجوزى فلذلك يقال له جَوْزىّ اليمن وله فى التصوف فصول كثيرة[3] ، وله أتباع من الدراويش المعروفين فى اليمن بالمجاذيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعى نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفى ومواعظ كثيرة . وصنف فى الصوفية وتراجمهم – كما مر بنا – كتابا سماه « روض الرياحين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً فى حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم فى المساجد وفى خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفيها أبو بكر العيدروس ، ومرَّ بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية فى حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفى ووعظ كثير ، ومن قوله فى الفرق بين الشريعة والحقيقة[4] :

« الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود ، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له قام عليه أمره ونهيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فناداه : (وأنْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى) وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصلت الحيرة ، وعَمِيت الأبصار والبصيرة . فوفَّق من شاء من عباده للوقوف عند مكنون علمه ، فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ١٠٧ .

(٢) المدر : القطعة من الطين .

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ .

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١١٨ .

الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفى عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُعل له ترجمان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة » .

وأبو بكر العيدروس يشير فى أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شىء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولاحول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحريته وأن كل شىء إنما هو بمشيئته . ويقول إنهما جميعاً حائران ، ويضع فوقهما أهل الحقيقة من الصوفية القائمين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذى لا ينضب معينه إذ يستمد من المحبة الإلهية ورحيقها الصافى . وتصوفه بذلك تصوف سنى كتصوف الغزالى وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعى أن يكثر الوعظ فى خطابة الخوارج الإباضية بعُمان ، وقد وقف الجاحظ فى كتاب البيان والتبين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبى حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندى ، وروى بعض خطبه ، وهى تمتاز بألفاظها الطلية ومعانيها القوية . ولا شك فى أنه ظلت شعاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إباض تدور فى ألسنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة فى عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وهى تمضى على هذا النمط [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى هدم بالموت مشيَّد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكَّل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ، وتجرى منهم مجرى الدماء فى الأبشار ، لا يعتصم منهم معتصم بالحِذار ، ولا يختص بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هى آيات عَدْلٍ عدل الله بها فى البادين والحُضَّار ، أحمده على نعمه المُسْبَلة الغِزار ، وأعوذ به من العتوّ والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، مبوِّئة مَنْ شَهِد بها دار القَرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأيمن شِعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأطهر إعلان وإسرار ، وأظهر

(١) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٢ / ٣٦ .

برهان وإنذار ، من صميم العرب فى النضار[1] ، وأكرمها فى الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة الأبرار ، ﷺ ، وعلى آله الأطهار ، آناء الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية ، وإن مطامع الآمال كاذبة فهل همة إلى التنزه عنها داعية ، وإن طوالع الآجال واجبة فهل قدمٌ إلى التزود من الدنيا ساعية » .

وتستمر الخطبة فى الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغوابر ، وابتلعتهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلف . عظة ينبغى أن يتعظ بها العاقل ، فينفق ساعاته فى التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : « اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ما ذرَّ شارق[2] ، وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما فى السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق » . ثم تستنزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول فى الغار ورفيقه فى الأسفار ، معدن الجود والفخار ، وسيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف التصديق ، أبى بكر الصديق ، وأيضا على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشئها تكلف فى الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الراء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ فى الوعظ بنى قوافى أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية فى العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة فى السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها فى السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكأن السجعات المتوالية لا تتوازن خارجيًّا فى القوافى النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها فى العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية فى البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبِّجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين فى ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية فى الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة فى المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت فى جملتها مواعظ خالصة .

---

(١) النضار : الذهب والخالص من كل شىء .

(٢) الشارق : الشمس .

٥

محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا فى الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك محاورة لعلى بن صالح بن أبى الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية [١] ، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح فى حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح ، فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصابيح البيوت ، وفوّض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التى يراها كُفْؤاً له ، وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكيرية فريدة العصر ، أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكيرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدلّة ، وقالت له : اخرج يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُصْفَع وتُضْرب . وخرجا ، وجناح يتمثل بقول ذى الرمة :

على وجه مَىٍّ مسْحةٌ من ملاحةٍ وتحت الثياب الخِزْىُ لو كان باديا

ونهضا إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نعم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستتر بهما وتتجمل ، وقنديلاً تنتفع به ليلة تتأهل . ويمضى على بن صالح قائلا :

« فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر ، فلست على تحصيلهما بقادر ، فالمفارش غالية ، وليس عندى غير بُسُطٍ بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المفارش كسوة أمثالها ، وأنه لا يخطر البساط ببالها ، وسأشير عليك بما يأسو جراحك ، ويَريش جناحك ، فقال : سَمْعاً لأمرك ، وطوعاً لحكمك . فأمُرْنى بما تراه ، فإنى لا أتعدّاه ، فقال : قد علمت أن البكيرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعّدتك ، فإذا كان جُنْح الظلام ، وقد هجع النُّوَّام ، انسلتَ انسلال الخائف الذليل ، وأخذت منها مفرشتين وقنديل [٢] فقال : قد أشرت بما فى النفس ، فإنى مُهَمْهِمٌ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدّ على الأنام جلبابه ، خرج من محلّه وانسلّ ، وسقط عليها سقوط الطَّلّ ، فأخذ المفرشتين والقنديل ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر ضوء

(١) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة ٢ / ٢٢٤ .

(٢) الكلمة منصوبة وترك نصبها للسجع .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهضْ بنا لتمام العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . »

وتمضى المحاورة ، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توسل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب له مفرشةً وقنديلاً . يقول على بن صالح :

« فقال له جناح : عاودْ ذلك المحل ، فلعلك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرية جمعت مَنْ حولها من المساجد القريبة ، وطلبت منها الرأى فى دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس[1] فقالت : علىّ تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والنزيل . فلما جَنّ الظلام وهجع النُوّام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يترقّب ، فخرج عقيل ومَنْ حوله من المساجد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفرّ ، فما قعد فى مجلسه ولا استقرّ ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عُقيلاً ومن معه يغيرون عليه ، فأقبلوا يُهْرَعون إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثُر الكلام والزّحام ، فقال : اعلموا ياجيرانى ، أنى راقد بمكانى ، فأتت المساجد فى جنح الدياجى ، تريد[2] تسرق بساطى وسراجى ، فأعينونى على الحق ، وأدركونى ولما أمزّق ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ، ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة فى أرض ، بقدر طوله والعرض ، وأن يربطوا الشّباك إلى جانب المئذنة والشُّباك . فسكت عنهم أيام[3] ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . فوقع فى تلك الشّباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك » .

ويمضى على بن صالح فى المحاورة ذاكرا أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظرا انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركله ، وافدة عليه رَعيلا فى إثر رعيل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية فى الحال . وأقبلت تتبختر فى ثيابها تائهة على أترابها . ويهجم عليها فى غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، ويأسى مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبزر وطلحة والأبهر أن تتوسط له

---

(١) لم ينصب كلمة حارس للسجع .

(٢) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

(٣) ترك النصب للسجع .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندى ، وكاد الهوى أن يخرجنى عن جلدى . . وإنى كنت لا أصلح لمثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشىء خير من جهله ، واشهدوا بأنى قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لى بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهّب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين» .

والمحاورة طريفة فى فكاهتها خفيفة فى ألفاظها وأسجاعها ، وهى تمتد إلى نحو اثنتى عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية ، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء فى عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصابيحها وتجصيصها أو طلائها بالجِصّ وترميم جدرانها وما تآكل من حيطانها ، ولعلى بن محمد العنسى المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدى القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهوانى أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعير ، وقد سماها : الروض الأقحوانى فى الشعير الزُّهوانى . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يمطله ويؤجله فى البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها[1] :

« مولاى حامى حمى الدين ، وحافظ بَيْضة المسلمين ، خلّد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوَّلتم للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزُّهوانى ، الذى لا تُقْبَضُ الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلّم للمملوك منها أربعة أقداح شعيركان قدسّها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشِّراك[2] . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابه ، وزان جَبِينه بأشرف عِصابه . وقد صار ذلك الشعير دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب لُبّه لطول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على المخزن أيدى الخُزّان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المَرْضىّ والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهمل المثل السائر : كم فى الزوايا من الخبايا ، فعثر فى بعض لفتاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتَلاًّ مرفوعاً . . فلاحت له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره[3] ، فأمر بإثارة ذلك الكنز

(١) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٢) الشراك : الحذاء .

(٣) تصحيف سروره : يقصد شروره .

المدفون ، والدفين المخزون . ثم عيَّر[1] ، فحصل منه أربعة أقداح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لسوء الحظ حضور الرسول الغَرير[2] ، حال بُعث من مرقده ذلك الشعير ، فكيل له فى الغرائر[3] على غِرَّة ، وقيل له : خُذها ، واحذر العَوْد بعد هذه المرَّة» .

والفكاهة واضحة فى الرسالة ، وهى تلسع ولا تجرح ولا تدمى ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذى ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يُلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحَّاف يسوق سؤالا[4] عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبتسم له هو الدنيا ، وتعبس فى وجه صديقه ، فإنه حينئذ يمد له يد العون ولا يتركه لمحن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بعهده : وإنه ليسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون فى صديقين تغذَّيا بلبان المحبة واستظلا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التى هى أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتناساه وأهمله ، فما حكمه ؟ يقول : «فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولمعت له لمعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . وبقى الثانى فى ظل العفو وروض العافية . . يسبح من حسن الظن فى غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . إن التفت يمنة وجد محنة . أو نظر يَسرة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق احتاج إلى البُراق . وقد كان يقسم بالله الذى وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أُثنيت له الوسادة ، ولاحظته عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأفول . . ليُبلغنَّه من الخيرات ما لا قلبٌ فكَّر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلَّفته ولا عين رأته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذى يجب فى شريعة المودة ، ويُسَنُّ فى دين الفتوة ، ويُندَب فى ملة الوفاء ، ويباح فى فقه العرف . . وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب» . .

والقضية طريفة ، وهى قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعانى بؤس الحياة ومرارتها ،

---

(١) عيَّر : كال من الكيل .

(٢) الغرير : الغر الذى لا تجربة له .

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهى وعاء من الخيش يحمل فيه الشعير ونحوه .

(٤) نشر العرف ٢ / ٨١٣ .

بل سيأخذ بيده ، ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن . حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينهما عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .

وتلقانا – من حين إلى حين – مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التى تركها الحريرى وإنما بالصورة التى تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء ، قصداً لبيان القدرة الأدبية ، وفى الجزء الرابع من نفحة الريحانة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى فى العلم وتحصيله .

القسم الثانى

العِـــرَاق

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

البويهيون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

البويهيون [١] أسرة فارسية تُنْسب إلى بُويه ، وهو فارسي ديلمي ، ويقال إنه كان صَيَّاداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يَحْتَطِبون . ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون - مَلقاً لهم فيما يبدو - إلى الملك الساسانى بهرام جور . ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ما كان بن كاكى ، حتى إذا انتصر عليه مَرْداويج الزِّيارى صاحب جُرْجان تحولوا إليه ، وأيدوه فى حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطَبَرِستان ، فولَّى عليا الكَرَج فى الجنوب الشرقى من هَمَذان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرَّجان واتخذ شيراز مقرا له . وقُتل مرداويج فى سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصْفهان والرَّىّ اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شئونهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوهما أحمد على كَرْمان ، وظل يتقدم تدريجا نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط . وفى هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها فى جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكفى منقذاً ومخلِّصا ، ومنحه إمرة الأمراء ولقَّبه معز الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز عماد الدَّولة والحسن صاحب بلاد

---

(١) انظر فى الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبى شجاع والمنتظم لابن الجوزى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وأحسن التقاسيم للمقدسى فى مواضع متفرقة وابن خلكان فى تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثانى من كتاب اليتيمة للثعالبى وابن طباطبا (الفخرى فى الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ومادة بنى بويه فى دائرة المعارف الإسلامية .

الجيل ركن الدولة ، وضُربت ألقابهم على السكَّة ، وذُكرت أسماؤهم وألقابهم مع الخليفة فى خطبة الجمعة . ومن حينئذ بالغ البويهيون فى الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزرائهم . . ولم يكد الشهر التالى لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خُلع المستكفى وسُملت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين فى عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم فى خطبة الجمعة وعلى السكَّة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع فى أيدى البويهيين يسبغون عليهم الرواتب بالمقدار الذى يريدون .

وظل معز الدولة يلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكَرْمان إلى أن توفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بَخْتيار ، وكان شديد البأس شجاعاً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان فى سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . فآلت ولايته إلى أخيه ركن الدولة ، فمنحها ابنه عضد الدولة . وتوفِّى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الرىَّ وأصفهان ، ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينور ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبكا فى حروب ، قُتل فيها بختيار فى شوال سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق فى حوزة عضد الدولة منذ هذا التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بنى بويه ، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خُطب له – فيما يقال – على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقِّب بشاهنشاه (ملك الملوك) فى الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقَّبون بهذا اللقب ، وكانت فيه قسوة شديدة ، ومما يصور ذلك رميه بابن بقية الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلَّمه إليه بختيار لأمور ساءته ، فقتلته بأرجلها شر قتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرما وأعاد الأمن إلى نصابه فى صحراء كَرْمان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الجباية واحتفر لهم الآبار فى سُبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصينا ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقرض من قصرت يداه من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعُنى بالبساتين فامتلأت خرابات بغداد بالزهر والخضرة ، وجلب

إلى بغداد الفروس فى سائر البلاد ، وعُنى بجداولها وجسورها ، وأنشأ سوقاً للبزّازين . وبنى مارستانا كبيراً ببغداد ، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف ، وكان عادلا سَيوسا يحسن اختيار ولاته وعماله ، وكانت جِراياته متصلة على الفقراء والمساكين . غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل ، فقد توفى سنة ٣٧٢ ، وكأنهما لم تنعما بحكمه إلا خمس سنوات متصلة . وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، وهو تقسيم أثبتت الأيام دائما أنه نذير بضياع الدولة واختلال شئونها . وتولى شئون بغداد والعراق صَمْصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سَعْدان صاحب أبى حيان ، ولم ينجح أمر صمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٦ وقهره وحبسه وأخذ بغداد منه ، ويتوفىَّ شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضياء الملة الذى ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣ وكان – كما يقول المؤرخون – ظالما غَشوما سفاكا للدماء ، وقد قبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١ وخلعه من الخلافة ، وولاها القادر بالله ، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة ، ويقال إنه جمع من المال ما لم يجمعه أحد . وتوزعت الدولة بعده بين أبنائه الأربعة : مشرّف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبى شجاع سلطان الدولة وهو الذى ولى بغداد بعد أبيه بعهد منه ، وظل يلى شئون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كفّته ، فخُطب له ببغدادَ فى المحرّم وخوطب بشاهنشاه . ويدور العام ، فيتم الصلح بين الأخوين ، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة ، ويتوفى سلطان الدولة فى سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده فى سنة ٤١٦ وتصبح بغداد خالصة هى والعراق لأخيهما جلال الدولة ، ويستوزر أباسعيد بن ماكولا ، ويلقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك ، مما يصور مدى تغالى البويهيين فى الألقاب . ويطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم فى أيامه ويختل السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيّارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالا قبيحة ، واختلّت الشئون المالية ، ويبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعون بيته وآلاته فى الأسواق ، وخلت داره – كما يقول ابن الجوزى – من الحجّاب والفراشين والبوابين . وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز ، وكان شجاعا فاتكا مشغولا باللهو ، وفى عهده أخذ المدُّ السلجوقى يزداد حتى شمل أكثر إيران ، مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم ، ويبلغ من ضعفه أن جرّده أحد قواده الأتراك ، ويسمى البساسيرى ، من سلطانه

كله ، وأحسَّ الخليفة العباسى القائم بأمر الله بخطره ، وعرف أنه يكاتب سِرًّا الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر ، وأنه يدبِّر أمرا خطيرا . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذ يعظم شأنها فى خراسان بقيادة طُغْرُلْبَكْ ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل فى الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البويهية .

والسلاجقة[1] شعبة من الأتراك الغُزّ الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سَلْجوق منذ سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشتاهم بالقرب من بخارى ومصيفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السنى وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محموداً الغزنوى دعاهم إلى الإقامة فى الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فتوجَّس منهم شرا ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحَبسه فى قلعة ببلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفى محمود . وفكر السلاجقة فى الثأر فانقضّوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طُغْرُلْبَك نفسه ملكاً على خراسان فى صيف سنة ٤٣٠ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفى سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طَبَرستان وسِجِسْتان وهَرَاة وبُسْت وأخذ طُغْرُل يولِّى أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرَّىّ حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كى يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا ، فدخلها فى سنة ٤٤٧ وهرب منها البساسيرى ، وخلع عليه الخليفة خلعاً سنية وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان البساسيرى قد فرَّ إلى الشمال فتعقبه طُغْرُلْبَك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن يَنال خرج عليه فى همذان ، وعرف البساسيرى كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده فى يد أحد أمراء بنى عُقَيْل ، وهو قريش بن بدران ، واستوليا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة ، وكذلك صنعا بما استوليا عليه من

---

(١) انظر فى السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور فى تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى والدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسما بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى (مختصر البندارى) ووفيات الأعيان لابن خلكان فى تراجم سلاطينهم وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى (ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى) وسلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة فى دائرة المعارف الإسلامية .

المدن . وأخرج البساسيرى الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطُغْرُل هو أول ملوك الدولة السَّلْجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفِّى بمدينة الرَّىِّ سنة ٤٥٥ فخلفه ابن أخيه ألْب أرْسلان بن جُغْرى بَكْ ، كان اسمه بالعربية محمداً ، ولُقِّبَ بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لُقب بالسلطان من بنى سَلْجوق ، وذُكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بنى سلجوق فى الرعية ، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ فى موقعة دمَّر فيها الجيش الرومى تدميراً . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومى فى تلك الموقعة يتألف من مائتى ألف رجل من يونان وأرمن وقوقاز وروس وغيرهم . وفَدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبيه جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُرَدَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم .

وكان مدبِّر مملكته وزيرَه نظام الملك ، وكان حصيفاً وافر العقل ، وسياسيا حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محبا للعلم ، وقد بعث فى دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها فى كثير من البلدان ، وعُنِى خاصة بمدرسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نَيْسابور وغيرها وفى مقدمتهم أبو إسحق الشيرازى والغزالى وغيرهما من كبار العلماء . وخلف ألب أرْسلان حين توفى سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرَّق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشتمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتدّ من مدينة كاشْغر – وهى أقصى مدينة للترك – إلى بيت المقدس طولا – كما يقول ابن تغرى بردى – ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلطن خرج عليه عمه « قاورد بك » صاحب كَرْمان ، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراؤك كاتبونى وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاها إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها فى موقد نار كان بين يدى ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعمائر ، فعمّر الأسوار والقناطر وحفر الأنهار ، وأبطل المكوس فى جميع بلاده ، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذى عمّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق فى أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى مملكته وليس معها خفير .

وتزوج الخليفة المقتدى بابنته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلكان : كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرته ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير . وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفى ببغداد فى شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن فى مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بَرْكْيارُوق ، وكان أخوه السلطان سِنْجَر نائبه على خراسان ، ودخل فى حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ، وحاربه عمه تُتُش صاحب دمشق ، وقُتل فى بعض المعارك . ودوّخ الإسماعيلية الباطنية فى إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان عالى الهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفى سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم ، ويقول ابن خلكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يريد الإسماعيلية) والنظر فى أمور الرعية » . وتوفى سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ فى سن الحلُم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسِّيَر شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حَيْص بَيْص الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت فى أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفُقَّاعى أو الشَّرابى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها فى حاجته .

وتوفى سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير فى المهد ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طُغْرل ، وتوفى سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سنقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال باللذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ وقتل من الأمراء خلقاً كثيراً ، وممن قتلهم الخليفتان لعهده المسترشد بالله والراشد . وفى هذا ما يدل على أن السلاجقة استهانوا بخلفاء بنى العباس ولم يَدعوا لهم حَوْلا ولا طَوْلا ، إذ استخلصوا منهم كل شىء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه يختم دولتهم فى العراق ، أو قل كأن قتله للخليفتين المسترشد والراشد كان إيذاناً بانتهاء الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده فى الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفى بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقى يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأميره الذى فى رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم فى وجوه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت فى الضعف سريعاً .

وكانت تُمْنَحُ لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ؛ حتى يساعدوها بما تحتاج إليه من مال وجُنْد . وانتهز بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية فى أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية فى ديار بكر والجزيرة وبلدانها ميَّافارِقين وآمِد وحصن كَيْفا وحرَّان وماردين ، كما نذكر منهم بنى زنكى فى الموصل ولهم الفضل الأكبر فى القضاء على الصليبيين فإن « زنكى » الملقب بعماد الدين هو الذى افتتح سلسلة دَحْرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرُّهَا » من جوسلين الصليبى ، وبذلك سقطت أولى ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين يمحقهم محقاً فى الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سِنْجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعيا أن تهبط الدولة السلجوقية بعد صعود ويأفل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقى فى سنة ٥٥٢ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتفى وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى هَمَذان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبى الموصل استقلالها ، ورُدَّت إلى الخلفاء حريتهم وسلطانهم

وللمقتفى[1] (٥٣٢ – ٥٥٥هـ) الفضل فى عودة صولجان الحكم إلى أيدى الخلفاء العباسيين . وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولى أو التتارى سنة ٦٥٦ وكان المتقى عالماً أديباً دمث الأخلاق .

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) وكان عادلا محبوباً فى الرعية أزال المظالم والمكوس . وولى الخلافة بعده ابنه المستضىء (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب فى أيام خلافته . وفى أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه فى مصر والثغور الشامية ، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها ، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد . وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) وفى عهده سحق صلاح الدين الصليبيين فى الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون . واستطاع عبد الجبار البغدادى فى أيامه أن يحوِّل جماعة الفتاك الذين كانوا يُرهبون الناس فى بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة ، واتخذ لهم سراويل مخصوصة ، وبذلك أحالهم إلى جماعة حربية ، واستنفر فئات منهم كثيرة لجهاد الصليبيين فى الشام مع الأيوبيين ، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية ، وانضم إليها ولبس سراويلها ، وأرسل بها إلى ولاته كى يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين . وممن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناؤه ، فلبسوها ، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند .

ويتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر ، ولا يدور العام حتى يتوفى ، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة . ونشر السنن وكفَّ الفتن . وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاظم فى عهده ويكتسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة . وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك ، استوزر مؤيد الدين بن العلقمى ، وكان رافضياً حريصاً على زوال الدولة ، فكاتب هولاكو وأرسل إليه أخاه وغلامه ، وسهَّل عليه فتح العراق وأخْذَ بغداد .

وسارع هولاكو ، وهاجم بغداد ، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد ،

---

(١) انظر فى المقتفى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن تغرى بردى وابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير والعبر فى خبر من غبر للذهبى (طبع الكويت) وخلاصة الذهب المسبوك للإربلى (طبع بغداد) ومآثر الإنافة فى معالم الخلافة للقلقشندى وتاريخ الخلفاء للسيوطى (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمدانى ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) .

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التتار بغداد وظلوا يُعملون السيف فى أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائة ألف ، وخربت بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب . وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، ورثاها الشعراء مراثى كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقى الدين التنوخى ، وفيها يقول :

يا زائرين إلى الزَّوْراء لا تَفِدوا فما بذاك الحِمى والدارِ ديَّارُ

وذاق ابن العلقمى الذل والهوان من التتار ، كما ذاقها أيضاً مَنْ مالأهما من حكام الموصل والجزيرة ، وفى مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكى أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفى سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات ، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكا له ، ولم يلبث نور الدين أن توفى ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، ومازال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك الموصل فى سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التتار نحو أذْرَبيجان حتى أخذ يمدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلا ، فما كان من هولاكو إلا أن حزّ رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلعاً فزعاً يحمل الهدايا ، وتوفى بدر الدين فى سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاكو أن اجتاح الموصل بجيوشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتهما المتكررة ، وأصبحت العراق كلها فى حوزة التتار .

٢

الدول : المغولية والتركمانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التتار قبائل رُحّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين . واستطاع أحد أبنائها وهو جنكيز خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصين وبكين ، حتى إذا تم له ذلك وجّه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى ومملكة خوارزم وزحفت سيولها إلى الرَّىّ وهمذان ، مستولية على شمالى فارس فيما بين سنتى ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفى فى السنة الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدى (٦٢٥ - ٦٣٩) الذى استطاع أن يُخضع روسيا وبولندة لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذى أرسل بأخيه هُولاكو إلى إيران ، فقضى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكتف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرّب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الإيلخانية ، بينما انتسب المد المغولى الثانى فى إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية .

الدولة المغولية الإيلخانية[1]

تنتسب هذه الدولة إلى هُولاكو (إيلخان) الذى أطبقت جموعه على بغداد والعراق فى سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا فى سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين فى الجنوب ، فلقيهم الجيش المصرى بقيادة قُطز والظاهر بيبرس فى عَيْن جالوت بالقرب من نابلس ، فزق جموعهم تمزيقا ، وقُتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام فى الشمال . وبذلك رُدَّ سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هُولاكو - كما قدمنا - ملكاً مستقلا فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلا سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثنيا كأجداده وقومه ، غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجه النصرانية : « دُقوز خاتون » ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أَبْغَا » .

ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر فى بكين ووجه أخاه مَنْكوتَمُر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص « بقيادة قلاوون وهُزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همذان فمات بها غَماً وكمدا . وخلفه مَنْكوتَمُر ، وكان نصرانيا ، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم . وملك بعدهما

---

(١) انظر فى هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة والجزء الثانى من دول الإسلام للذهبى (طبع حيدر آباد) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمدانى (الترجمة العربية) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون (ترجمة الشواربى) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر ص٦٥ والعراق فى عهد المغول الإيلخانيين لجعفر خصباك (طبع بغداد) .

أخوهما بوكدار بن هولاكو سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد ، وبنى بممالكه الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فرح بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه « أرْغُون بن أبْغا » حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه « كَيْخَتُو » فأفحش فى الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه بَيْدو بن طَرْغاى بن هولاكو وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره فى أواخر هذه السنة ، وملك بعده غازان بن أرْغون بن أبْغا بن هولاكو ، وأسلم فى سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً ، واحتفلَ بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه فى ممالك التتار ، وقد اختار المذهب السنّى .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاكو ، ودخلت جيوشه الشام فى سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا نمضى إلى سنة ٧٠٢ حتى يكيل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمِّر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات فى ديارهم – حين بلغهم الخبر – شهرين . واغتم غازان غما عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان مَنْ قبله منذ هولاكو يحكمون باسم الخان الكبير فى بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُفْرضُ قبله حسب أهواء الجباة من حكام المغول فأمر بأن تُمْسَحَ الأراضى وأن يتَّخذ ذلك أساساً فى فرض الضرائب حتى لا يُظْلَمَ أحد ، وأصلح النظام النقدى فى الدولة وجعله نقداً معدنيا صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينها بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلكيا عظيماً . وتوفى سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه « خُدابندا » والعامة تسمية « خَرْبَنْدا » وكان سنيا ثم أصبح شيعياً غالياً وأظهر الرفض فى بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفى سنة ٧١٦ .

وخلفه بو سعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفى وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنَّف فى ذلك ، وكان حسن السيرة ، أبطل عدة مكوس فى مملكته وأراق الخمور فى بلاده ومنع الناس من شربها وهدَم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفى سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاكو ، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدى حكّام

مختلفين ، وأصبحوا شبيهين بملوك الطوائف من الفرس . وفى مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثم هم (أى التتار فى إيران والعراق) بعده فى دهياء مظلمة وعمياء مقتمة ، لا يُفضى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولا فسادهم إلى صلاح ، وفى كل ناحية هاتف ، يُدْعَى باسمه ، وخائف أخذ جانبا إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولا تتحقق دعوته حتى يُدْعَى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفى سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أَقْبغا ، كان جده رفيقاً لهولاكو . وتوفى سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سِبْط أرغـــــون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفى سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين ، وكان قد ولاه مكانه فى أواخر أيامه ، وكانت العراق فى عهده مطمئنة معمورة ، وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف فى قتل أمرائه وبالغ فى ظلم الرعية وانهمك فى الفجور والفساد ، فكاتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد ، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقها فأعانه على استردادها فى السنة التالية ، وسنرى فى حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

الدولتان : المغولية التيمورية[1] والتركمانية

قاد للموجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود فى « كش » من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جنِكِزّ خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه واليا لكش وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور فى يده لا فى كش وحدها ، بل فى كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً فى قبضته ، ثم أخذ يُعدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى فى سنة ٧٨٤ يستولى على مازنْدران وسِجِسْتان وجُرّجان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذْرَبيجان سنة

---

(١) انظر فى تيمور وحكام بغداد بعده احمد بن أويس والتركمان ابن عربشاه فى كتابه « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » وابن تغرى بردى فى الجزء بين الثانى عشر والثالث عشر وخاصة فى ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس ترجمة فى المنهل الصافى ٢٣٢/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية فى تيمور وأوزون حسن التركمانى ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر .

٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان فى شمالى العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق فى الشام وخرّب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام فى سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغلت فى روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند فى سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهى بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفا . وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قَرَا يوسف عاد إلى نيابته على الرُّها فى الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر بَرقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربى من آسيا الصغرى ، فَرأى أن الظفر بمملكتيهما أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً ، فاستناب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً فى أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرا يوسف التركمانى صاحب تبريز والرُّها وديار بكر ، وعاد معه إلى بغداد . وصيَّف تيمور فى بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخرَّبها ومَحَا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف فى جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى ، وعمل تيمور – فيما يقال – من رءوس القتلى منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديدا ووعيدا . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقعتْه جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلا ، ولم يلبث أن وقَّع مع أهل دمشق صلحا ، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموى ، وصارت أطلالا بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها فى شعبان سنة ٨٠٣ وظل فى انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استناب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرا يوسف صاحب الرُّها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة فى يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف فى البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبنى من رءوسهم – على عادته كلما دخل

مدينة عنوة – مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحرّب بايزيد العثمانى ، وانضم إلى جيشه التركمان فى قيسارية وسيواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب مَنْ مع بايزيد من التتار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعدوه أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان فى الشمال الشرقى من أنقرة فى التاسع عشر من ذى الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التتار منضمين إلى تيمور كما وعدوه وكانوا معظم عسكره ، وتلاهم ولده عثمان الذى عاد بجنده إلى مدينة بروسة ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فثبت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته فى شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له فى جامع بروسة .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قَشْتالة . وزيّن عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من بنّائى الفرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلماً على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النَّقْشَبندية وقد استطاع فعلا أن يستعيد مملكة جنكِزْخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة فى سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفى فى شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر ، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها فى ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكَرج أو جورجيا ، وكان يخضع لسلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل فى حربه مع قرايوسف التركمانى صاحب تبريز سنة ٨١٠ هـ/١٤٠٧م فدخلت بلاده فى حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعربستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلا حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٧م وكان يرعى العلوم والآداب فى مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه أُلُغ بَك وكان عَالما فلكيا واهتم برعاية الأدبين الفارسى والتركى غير أنه قتل بعد سنتين بيد ابنه عبد اللطيف . ويتتاب الدولة التيمورية اضمحلال سريع ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بو سعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم فى يده ويقتل فى حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية فى سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيبانى زعيم الأوزبك فى سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبى سعيد عن عرشه فى سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادتا بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركمانى صاحب تبريز ويخرّ فى ميدانها صريعا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد فى قبضة التركمانيين بزعامة قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثهما عنه أبناؤه وأحفاده ، وفى أيامهم ودولتهم عمّها الخراب لفساد حكمهم حتى ليقول ابن تغرى بردى : لا أعلم فى طوائف التركمان أقبح طريقة ولا أسوأ سيرة من أولاد قرايوسف وينتزعها منهم فى سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م أوزون حسن المار ذكره وكان تركمانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفى فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية و إيران والعراق ، ودخل فى حروب طويلة مع العثمانيين . وفى هذه الأثناء كانت أسرة صوفية فى أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صفى الدين ، وبلغ حفيده خوجا على من الشهرة بالتقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد العثمانى يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن ، وزوّجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذى أتيح له أن ينشىء لأسرته الصفوية دولة وطيدة فى إيران .

الدولة الصفوية (١)

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آبائه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عمامةً سُمِّيت تاج حيدر الأحمر ، وهى عمامة ذات اثنتى عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعى إمامى اثنى عشرى . وما وافت سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك فى سنة ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٨ م فى حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلاً فى المعركة ،

---

(١) انظر فى الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايغ وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية فى العراق لنعمان الأعظمى وأربعة قرون من تاريخ العراق لسبفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان . وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر .

وتوفى يعقوب بعده بنحو سنتين وتصارع أولاده واشتبكوا فى حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كى يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بثأر أبيه ، ويمد سلطانه تدريجاً على شيروان وأذْرَبيجان ويأخذ فى تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تبريز فى سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢ م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثنى عشرية مذهب الدولة الرسمى. ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبى بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعِدُّ العدة لمنازلة مراد خان التركمانى صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه ألْوَنْد هزيمة ساحقة فى أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توافى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفرّ مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثمانى. ومضى فى سنة ٩١٦هـ/١٥١١إلى الشرق لمحاربة شيبانى زعيم الأوزبك والتقيا قرب مَرْو ، ودارت الدوائر على شيبانى وجنده وسقط صريعاً فى الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لابد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعى الإمامى وبين دولة السلطان سليم العثمانى السنى ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ فى اضطهاد أهل السنة ، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعة . والتقى الجيشان الصفوى والعثمانى بالقرب من تبريز بوادى جالداران فى المحرم سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ومنى الشاه بهزيمة منكرة ، وفَتحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطُر الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك فى حرب العثمانيين إلى أن توفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهماسب وهو فى العاشرة من عمره ، وطالت مدته فى الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين فى الشرق والعثمانيين فى الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهماسب سنة ٩٣٠ وتظل فى حوزته حتى سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهماسب ومضى فى اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثمانى يوجّه فى أواخر سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فتستولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها فى أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهى عهد الدولة الصفوية فى العراق .

الدولة العثمانية (١)

تم للسلطان سليمان العثمانى الاستيلاء على العراق وبغداد فى سنة ٩٤١ ورفرف العلم العثمانى على البصرة فى سنة ٩٤٦ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسّم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفى حقب متفاوتة عُدّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالى يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشئون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، فى مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و « الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدبِّر الشئون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامه أى ديوان الدفتر اليومى ، وكان به كثير من الكتّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام .

وكان يوجد بجانب الوالى قاض كبير يتبع قاضى القضاة فى الأناضول ، وكان للقاضى نواب كثيرون فى كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضى على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالى قوة عسكرية أساسية تحمى المدن والقلاع ، وتُعَدُّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم فى حروبها بأوربا ، وهم لا يزالون غلماناً وتربِّيهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمْنحون إقطاعيات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُرَدّ إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذُون الناس فى بغداد والعراق ويتعلّون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاة جند يحصلون عليهم بطريق الأَسْر أو الشراء .

ويمر حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث فى هذا العهد فتن الجند كما حدث فى عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والى بغداد بزعامة ضابط يسمى بكراً برتبة

---

(١) انظر فى الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ البصرة لنعمان الأعظمى وعشائر العراق لعباس العزاوى (طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصرى (طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان . والمماليك فى العراق لأحمد على الصوفى (طبع الموصل) والعراق : دراسة فى تطوره السياسى لفيليب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وإمارة العمادية للدملوجى (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ – ١٩١٨ الجزء الأول - للدكتور عبد الكريم محمود غرايبة (طبع دمشق) .

سوباشى وقتلوا الوالى يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربته الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكراً ونكل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استعصت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالا ذاتيا عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الايرانيين نحوخمسة عشرعاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م وفى هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز فى سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ .

وينتهى الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ/١٧٠٤ م كما مرّ بنا ، ويبتدئ دور ثان سُمى دور المماليك ، وفيه تعرّضت العراق لخطر إيرانى كبير ، أدّى إلى أن يتسلّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكها الذين أخذوهما بضرب من التربية يشبه صنيع الدولة فى إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرّج فى مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد فى سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بحروبها فى أوربا مع الروس والبلقان ، فتركت لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكها إدارة بغداد والعراق .

وطبيعى أن تصبح المناصب العليا فيها وقفاً على المماليك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الوالى منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجه ابنته واتخذه «كتخدا» أو أميرا للأمراء ، حتى إذا توفى خلفه فى الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقا أن يسمى دور المماليك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا فى سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثرون من التآمر ، مما زاد الأمن فى بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد .

ولما ساءت الأمور وتفاقم سوءُ ها رأى الباب العالى فى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لابد من ردّ الأمور إلى نصابها فى العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المماليك قضاء نهائيا . وبذلك تدخل بغداد والعراق فى الدور الثالث من أدوار الحكم العثمانى الذى أظلّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن ندخل الشطر الأكبر من هذا الدور فى حقب العصر الحديث فى العراق ، إذ هبَّ جماعة من المصلحين فى تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة .

وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد فى تركيا والولايات التابعة لها فى العراق وغير العراق ، غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م لم يصدروا عن ذلك فى حكمهم ، فظل الظلام والفساد مخيِّمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا فى السنة آنفة الذكر ، وكان معروفاً بنزعته الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة فى ولايته على بلغاريا . ولم يكد يستلم مقاليد الولاية فى العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة فى إدارة الحكم ، فألغى نظام الالتزام وردَّ الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب ، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدَّ بها خطا للبرق ، وأصلح نظام الموازين والنقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقى للعصر الحديث فى العراق . وقد ظل العثمانيون فى العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أى عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

٣

المجتمع

كان المجتمع فى بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوهما حواشيهما من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل فى هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحِسْبة ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف . ويُسْلَك أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث فى عهد عضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذى ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدبر لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش فى رخاء بل فى ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ فى حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التى كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التى تجبى على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التى كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهيون ثم مَنْ خلَفهم من السلاجقة والمسئولين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى بِرُمَّتها . وهذه الإقطاعات العسكرية هى التى كانت شائعة ، وإحدى اثنتين إما أن تكون إقطاع تمليك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة ، وإما إقطاع يُستَغَلُّ طالما كان صاحبه حيا ، وكأنه كان منحة تُعْطَى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويُلْزَمُون بإصلاح القنوات التى تمرُّ بأرضهم . وطبيعى أن كانت هناك ضِياعٌ سلطانية للخليفة وللأمير البويهى وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراض موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضى هو الذى يشرف على إدارة الأراضى الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضى السواد الموقوفة[1] ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادَر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى[2] وزير معز الدولة البويهى . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويُرْوَى أنه فى سنة ٣٥١ توفِّى رجل اسمه دَعْلج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمسّ أى مسٍّ ما خلَّفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التى يُخْزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التى كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُنْفق على القصر ومماليكه وحجّابه وخدمه وحرسه وكانوا يُعَدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيوش . وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفى أعْراسهم ، كما حدث فى زواج الخليفة الطائع لابنة بَختيار ، وكان صداقها مائة[3] ألف

(١) أبو شجاع ص ٧١ .
(٢) مسكويه ٦ / ٢٥٨ .
(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر ببيروت) ١ / ٢٦٧ .

دينار . واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويُرْوَى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بنتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً فى موكب كبير كانت تُدَقّ فيـــــه الطبول والبوقات وتنثر الأموال على الرعية [١] . وبالمثل حين زُفّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيّنَتْ بغـــداد ، وقد حَمل جهازها ١٦٢ بعيراً و ٢٧ بغلاً [٢] سارت فى شوارع بغداد بينما جماهير الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبتهجين . وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأوانى الذهب والفضة ، ويُرْوَى أنه حدث حريق فى أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخْرِج بعد إطفائه من تلك الأوانى ما تزيد قيمته على مائتى ألف دينار ، وسبقه حريق فى سنة ٦٠١ فبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار [٣] .

وكانت نساء الخلفاء وجواريهم يبالغن فى زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضىء كانت تزين نعالها باللآلئ الكبار [٤] ، فما بالنا بما كانت تتخذه وراء ذلك من الحلى والجواهر . ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته فى شهر للزراكشة والصاغة والبزّازين (تجار الملابس) والجوهريين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم [٥] . ويُرْوَى عن هذا الخليفة أنه نفح كبير حرسه علاء الدين الطيبرسى ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهداه إليه [٦] ، ويقال إنه أُحْصِيت فى عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التى وهبها الطيبرسى لمماليكه وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة [٧] . فقصرُ الخلافة بل كلُّ حواشى القصر كانوا يعيشون فى ترف شديد . وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصَبّ فى حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم . ويقال إن ميزانية الدولة بلغت فى عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير . وكان يُعْنَى ببناء القصور وعمارتها ، ويُرْوى أن ميزانية الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى بلغت عشرين مليوناً من الدنانير [٨] ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول فى قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ٩/٣٦ وانظر كتاب العامة البدرى فهد ص ٢١٣ .

(٢) المنتظم ٩/١٦٥ .

(٣) دول الإسلام للذهبى (طبع حيدر آباد) ٢/٨٠ .

(٤) انظر مضمار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقى الدين الأيوبى ١٢٣ — وراجع تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى فهد (طبع بغداد) ص ٣٨٢ .

(٥) مضمار الحقائق ١٨٣ وبدرى فهد ص ٣٨٢ .

(٦) بدرى فهد ص ٢٥٢ .

(٧) بدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٨) المنتظم ٩/٧ .

وظل ذلك بقصور الخلفاء فى العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفا . ولا شك فى أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولى ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبّر شئونها الايلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم ، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقا إلى بغداد شيء من النشاط فى عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك فى عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت فى هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات فى الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها وإنها أصبحت كالطلل الدارس والأثر الطامس[1] فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ فى عهد بوسعيد الإيلخانى أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبى تمام . قائلاً كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بَغْدادَ ناعيها فليَبْكها لخراب الدَّهْر باكيها[2]

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذى أصابها مع غزو هولاكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقتها ، وظلت منزلاً للعلم والعلماء ، بفضل ما كان يجبيه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء . وكان الأخيرون خاصة يدبرون شئون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا فى الترف والنعيم. ويلقانا فى أول العصر المهلبى وزير البويهيين ، وكان يشتهر بمآدبه وكثرة ما كان يقدّم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان « إذا أراد أن يأكل شيئاً بملعقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة

---

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص ٢١٧ . ١/١٣٩ .

(٢) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ثانية »[١] . وفى هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد فى الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة وإنما يؤكل بملاعق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذى غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه « ابتيع له فى ثلاثة أيام وَرْدٌ بألف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة فى بركة عظيمة كانت فى داره ، ولها فوّارات عجيبة يطرح الورد فى مائها وينفضه »[٢] وإذا كان يَشترى من الورد وحده فى ثلاثة أيام بألف دينار كى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فماذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف . لابد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنسه التى كان يعقدها بقصره ليلتين فى كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : « كان يجتمع فيها عنده ندماؤه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسُّط فى القصف والخلاعة ، وهم القاضى أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعُقار وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووُضع فى يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قُطْرُبُلِّيًّا أو عُكْبَرِيا ، فيغمس لحيته فيه ، بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرشّ بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبَّغات ومخانق المنثور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء »[٣] .

وظل هذا الترف طويلاً فى مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه فى بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب ، ويقال إنه غُنِّى يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه[٤] وكأن الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغانى كما مر بنا فى العصر العباسى الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التى لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيون وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبى المطهر الأزدرى — فى حكايته الطريفة عن

---

(١) معجم الأدباء ١٥٣/٥ وانظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٣٨/٩ .

(٣) ابن خلكان ٣٦٩/٣ .

(٤) معجم الأدباء ١٠١/١٧ وما بعدها .

أبي القاسم البغدادي التي تقص حياة شيخ طفيلي بغدادي في يوم ببغداد في القرن الخامس للهجرة – ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بديباج الذهب المنسوج وكأنما نُسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشّيت بالساج وزيّنت تعاريجها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادّ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير المندية والديباج التُّستَريّ المقصّب الذهبي . ثم يُفيض في القول في الأطعمة من كل صنف والأفواه والعطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيَّب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة ، واصفاً أطعمتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيِّب وماء الورد والتفاح وحبَّ الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعي أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يُرفَعُ الطعام يأتي فراش متهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خِلال سلطاني مطيّب ، ويغسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القزّ وأنعم من الخزّ . ويطيل الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزيَّن به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمور وكئوسها ودِنانها معطباً مطيلاً . ويذكر ما في مجالس السَّراة من المغنين الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدحون في القلوب نوراً[1]

وكانت المغنيات يغنين في مجالس السلاطين والخلفاء من وراء ستارة ، أما في مجالس السراة وعلية القوم والنوادي فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويطيل ابن أبي المطهر الأزدي في الإشادة بمغنيات بغداد وَزمّاراتها وطبّالاتها وصنّاجاتها ورقّاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضربن على العود قائلاً : تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجرى عليها غِلالةٌ جَرِّيَّ الماء ورداء قصبٍ مزين مرصَّع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفي عنقها سُبْحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجوارى يحملن ذيول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متنقِّبة لا يُرَى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتُلْقي بحديث كزهر الجنان أو صوب الغمام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

---

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي (نشر ميتز في هايدلبرج) ص ٣٥ – ٤٦ .

النقاب وتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وجسَّ أوتاره وتفتتح غناء – كما يقول أبو القاسم – أعذب من تيار الفرات وتُفتِّته فى مجارى الحلق وتكسُّره فى مجارى النَّفَس . يقول : وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية ، ومقلة باكية ، وجَيْباً مشقوقاً ، وفؤاداً يطير خفوقاً[١] .

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبى القاسم لهذه الجارية المغنية ، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، ونظن ظنا أن هذا الازدهار ظل له طويلاً . وغاية ما فى الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهانى كتابه الأغانى عن المغنين والمغنيات فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وفى كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى فى أوائل هذا العصر نص طويل[٢] يصور ازدهاراً عظيماً للغناء فى زمنه ومدى تأثر الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين ، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البَرْدانى يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى عَلْوة جارية ابن عَلُّوية ، وهى تغنّى بأبيات للسَّروىّ يقول فيها :

بِالوَرْدِ فى وَجنَتيْكَ مَنْ لَطَمَكْ ... ومَنْ سَقَاكَ الُمدامَ لِمْ ظَلَمكْ

ويسترسل أبو حيان فى وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد فى عصره ، من مثل ابن فَهْم ، وكان يَطْرب إذا اندفعتْ « نِهاية » جارية ابن السَّلْمىّ بِشَدْوها :

أستودعُ اللهَ فى بغدادَ لى قَمَراً ... بالكَرْخ من فَلَكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ
ودَّعتُه وبُودِّى لو يودِّعنى ... صَفْوُ الحياة وأنى لا أُودِّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبى محمد على بن زريق وسَنُنْشِدُ منها أبياتاً أخرى فى الفصل الثالث . ولما سمعهما منها ضرب بنفسه الأرض وتمرّغ فى التراب وهاج وأزبَد وتعفّر شعره ، وهيهات من الرجال مَنْ يَضْبطه ويُمْسكه ومَنْ يَجْسُرُ على الدنوّ منه ، فإنه يَعَضّ بنابه ، ويَخْمِش بظفره ، ويَرْكُل برجله ويخرّق للمرقّعة (رداء الصوفية) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة ، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق . وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفى ، فتنقلب حماليق عيونهم ، ويسقطون مغشيا عليهم ، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد – كما يقول أبو حيان – ويقرءون فى آذانهم آية الكرسى والمعوِّذتين ، ويرقونهم رُقًى مختلفة ، حتى يفيقوا من سكرتهم ، منهم أبو الحسن الجرّاحى قاضى الكَرْخ ، فإنه كان إذا سمع الجارية «شُعْلة» وهى تغنى أغنيتها :

لابدّ للمشتاقِ من ذِكْرِ الوطَنْ ... واليأسِ والسلوةِ من بعد الحزَنْ

---

(١) حكاية أبى القاسم ص ٥٠ وما بعدها .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٦٥–١٨٣ .

ابتلّت شيبته بالدموع ، مع شجن قد ثقب القلب وأوهن الروح وفتّت الصخر وأذاب الحديد ، يقول أبو حيان : «وهناك ترى - والله - أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدِّرة ، وشهيقهم قد علاً رحمةً له ، ورقّةً عليه ، ومساعدةً لحاله . وهذه صورة إذا استولت على أهل المجلس وجدت لها عَدْوَى لا تُمْلَك ، وغاية لا تُدْرَكُ ، لأنه قلما يخلو إنسان من صَبْوَةٍ أو صَبابةٍ ، أوحسرةٍ على فائت ، أو فكرٍ فى متمنىً ، أو خوفٍ من قطيعة ، أو رجاء لمنتظَرٍ ، أوحُزْنٍ على حال» . ويسوق أبو حيان لنا صوراً من طرب الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمّى «خاطف» وهذا ابن حجاج يطرب على غناء قَنْوةَ البصرية ، وهى جارته وعشيقته . ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بابن صُبْر القاضى كل مأخذ ، حين يستمع إلى «دُرَّة» جارية أبى بكر الجرّاحى وهى تغنىٌ :

لستُ أَنْسىَ تلك الزيارةَ لما ... طرقَتْنا وأقبلتْ تَتَثَنّى
كم ليالٍ بِتْنا نَلذُّ ونَلْهو ... ونُسَقَّى شرابَنا ونُغَنَّى
هجرتْنا فما إليها سبيلٌ ... غيْرَ أنا نقول : كانتْ وكنّا

يقول أبو حيان : «وإذا بلغتْ : «كانت وكنا» رأيت الَجيْبَ مشقوقاً ، والذَّيْلَ مخروقاً ، والدمع منهملاً ، والبال منخذلاً ، ومكتوم السر فى الهوى بادياً ، ودليل العشق على صاحبه منادياً» . ويعرض علينا أبو حيان صوراً مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم غلام الحُصْرى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سَمْعون أكبر واعظ شهدته بغداد فى زمنه ، فإن الطرب كان يقيمه ويقعده حين يستمع إلى ابن بَهْلول ، وهو يزلزل الدنيا بصوته الناعم وغُنّته الرخيمة وظرفه البارع ودماثته الحلوة . ويذكر أبو حيان جَارية كانت تنوح تسمّى حَبابَه كانت فى النَّوح واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها ، يقول : ورأيت لها أختا يقال لها «صَبابة» كانت فى الحسن والجمال فوقها . . وزلزلت هذه بغداد فى وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان فى ختام هذا الفصل الطريف .

«ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين والأغانى من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لأطلت وأمللت وزاحمت كل من صنّف كتاباً فى الأغانى والألحان . وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجماعة فى الكرخ - أربعمائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائةً وعشرين حرة يجمعن بين الحسن والحذق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزّته وحرسه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو ثَمِل (سكِرَ) فى حال ، وخلع العِذار فى هوى قد حالفه وأضناه » .

ولا ريب فى أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين ، وكم كنا نتمنى لو أن أبا حيان أطال وأملّ وصنف فى أغانى عصره كتاباً ككتاب أبى الفرج الأصبهانى ، ولكنه لم يُعْنَ بذلك فخَسر الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف فى الأغانى والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهانى . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب فى الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الايلخانى بو سعيد فى سفينة بدجلة يتنزّه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان فى أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكرُه وطبوله ، وكان يتقدم الموكب الحجاَّب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون فى مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى ينزل بو سعيد ، فإذا ركب عادت الجاميع إلى الطرب والغناء[1] .

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشيء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعمون به فى الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزيَّن بالأعلام ذات الألوان الزاهية فى عيدى الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج فى رحيلها وقدومها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتنزهات وسماع المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان فى السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتى بعده عيد السَّذَق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشْعَلُ النار فى السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، ويلى هذا العيد عيد النيروز فى أول الربيع ، ويبتدئ فى الحادى والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصارى ويخرجون فيها للمتنزهات والأديرة ، وكان لكل دير عيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعانى كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التى كانت تُجبَى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

---

(١) ابن بطوطة ١/١٤٣ وما بعدها .

الطبيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم [١] ، ويذكر التنوخى أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم [٢] . والخبران من أخبار أوائل العصر فى القرن الرابع الهجرى ، فما بالنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة ، وهذا هو السبب فى كثرة العيّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرّغون فى الترف والنّعيم وهم محرومون يتجرّعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا فى شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق [٣] ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزّبَد [٤] . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهبوها وعينوا عريفاً لهم فى كل محلة [٥] . وأخذ ينتظم مع الزمن فى صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث فى فتنتهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونمضى فى القرن السادس الهجرى فنجد فتنهم تشتعل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم فى عهد السلطان مسعود السلجوقى (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ) وينهبون بغداد مراراً . ومازالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كنا فى عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وجدناه فى سنة ٥٧٨ يستدعى شيخاً من بينهم عُرف بأن له أتباعاً كثيرين ، فعرض عليه أن ينتظم معه ومع أتباعه فى الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للفتن ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ فى تنظيم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجاً ، وعمد إلى نشرها فى الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام فى سلكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغورى سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

---

(١) مسكويه ٢ / ١٩٨ .

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١٥٥ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ فى المنتظم وابن الأثير وابن تغرى بردى .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣/١٦٠ .

(٥) راجع فى السنة المذكورة المنتظم وابن الأثير .

العادل الأيوبي وأبناؤه كما مرّ بنا . وكان هذا عملاً جليلاً ، لا لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب ، بل لأنه وجّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً فى حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين ، وقد تحولت إلى نظام عظيم ، كتب فيه العلماء كتباً ، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادى المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومنزلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على ألسنة الفتيان النبيلة [١] . غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التتار هى والعراق ، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعثمانيين ، وأخذت أحوال أهلها هى والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر . لكثرة ما كان يفرض على الناس فى المدن والريف من الضرائب الفادحة .

ولم نتحدث عن أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئة واليهود ، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية ، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامة ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء ، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطنى ، إذ لم يكن يؤديها إلا مَن يقدرون على حمل السلاح ، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات . وكانت الدولة وخاصة فى الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى فى الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيرا - كما مرّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون فى مختلف الحقب ، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن ، فكان منهم الصّباغون والخرّازون وأمثالهم كالأساكفة .

وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة ، وكان من أجناس مختلفة ، فمنه الإفريقى ومنه التركى الآسيوى ومنه الأوربى وخاصة الصقلبى والرومى . وكانت له سوق رائجة فى بغداد من قديم ، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النخاسين ، وكانت لهم حِيَل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعامة ، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها « شراء الرقيق وتقليب العبيد » وفيها يصور حِيَل النخاسين فى تحسين الجوارى وطرق خداعهم فى إزالة آثار الجدرى والوشم والنمش من أجسادهن وصبغهن بألوان تُخْفِى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصبغ عيونهن بألوان تجعلها كحلاء أو زرقاء ، ويصور بعض مقاييس الحسن فى الجارية من أخمص قدمها إلى

---

(١) انظر فى الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التى كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب . وانظر الفتوة والخليفة الناصر للمستشرق الألمانى فرانزتيشنر فى كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

مفرق شعرها[١] وكانت المحظوظات منهن تُجْلَبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية[٢] ، وابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) كانت أمة جارية أرمنية[٣] . وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) من الجوارى[٤] . وكان منهن كثيرات فى قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكن وصيفات لهن[٥] .

وكانت الجارية المغنية تباع بأغلى الأثمان ، وكان فى بغداد بعض نوادٍ بها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو[٦] . واشتهر كثيرات منهن باللطف والظرف والبديهة الحاضرة ونظم الشعر[٧] وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام والعصائب والمناديل ، وكان لذلك تأثير فى رقىّ الأذواق ببغداد من قديم .

وكان شرب الخمر معتاداً فى كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسَراة القوم ، على نحو ما مرَّ بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه «كان يحب أن يقضى أوقاته فى الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفِتاخ (العقبان)»[٨] . ومرَّ حديثنا عن عضد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوقى منهمكاً فى اللذات والانعكاف على الخمور والراحات[٩] . ويكثر وصف الخمر على ألسنة الشعراء وفى حكاية أبى القاسم البغدادى وصف كثير لها فى غير موضع ، وفيه تُساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد فى القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان بغداد - إن لم يكن كل البلدان العربية - على مرِّ التاريخ .

وكان الصيد لهواً عاما للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواته ملكشاه السلجوقى ، ويقول ابن خلكان : «كان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدَّق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . . وصاد فى طريقه وحشاً كثيراً ، وبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء مما صاده»[١٠] . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

(١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التى نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات .

(٢) المنتظم ٨/٥٨ .

(٣) المنتظم ٨/٢٩١ و ٩/٢٠٠ .

(٤) المنتظم ٩/٨١ .

(٥) المنتظم ٨/٢٣٠ والمستجاد من فعلات الأجواد للتنوخى ٢٣ .

(٦) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى (طبع دمشق) ص ٩٧ .

(٧) نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨/٣١ .

(٨) مسكويه ٦/٣٨٦ .

(٩) ابن خلكان ٥/٢٠٢ .

(١٠) ابن خلكان ٥/٢٨٤ .

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمي بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يمرِّن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولمعاصره الفتى عمر بن السفت مخمس طويل فى وصف قوس البندق وإحكام الصيد [١] .

واستمر من هواياتهم فى هذا العصر اللعب بالنَّرْد وكذلك اللعب بالشطرنج وفى حكاية أبي القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسلياتهم القديمة مهارشة الديكة ولُعْبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه فى البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمرنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالخِتان وبختم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلى للظهور بالمظهر الكريم فى حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يجثم على صدر بغداد حزن كئيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

٤

التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية فى إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهى نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية فى على بن أبي طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لايسمون الحاكم الأعلى للمسلمين فى رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو على الذى اختاره الرسول ﷺ فى اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلى بالإمامة بجوار غَدير خُمّ بين مكة والمدينة . فهو وصىٌّ النبى وكل إمام بعده وصىٌّ لسلفه ، عيَّنه بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهى . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بَثَّ علياً علوماً خصَّه بها ، وهى علوم تجعل له – فى عقيدتهم – قدسية وصفات روحية خاصة ،

(١) مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص ٧٥ .

وهى صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشيعة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرفت بالعراق لهذا العصر ، هى الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والنُّصَيْرية . والأولى[1] هى التى يدين بها جمهور الشيعة فى العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فعُرفتا فى بعض البيئات والمدن ، ولم تَعُما فى العراق إنما التى عَمَّت الامامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغى أن نفصِّل القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة على وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨ فى كتابه الأصول من الجامع الكافى : «ليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومَنْ لا يفوِّض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله» والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية – فى عقيدتهم – الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر[2] ويضفى الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أُودع من العلوم ، وهى صفات يعلو بها على المستوى البشرى للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجِّها ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكلُّ ما يجدّ يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيئة الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله[3] . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتراجمة وحيه وأركان توحيده وخزّان معرفته . . أمْرُهم أمْرُ الله ، ونَهْيُهم نَهْيُه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته[4] . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولوا الأمر ليسوا هم –كما يدل ظاهر الآية – علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأئمتهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتُعَدّ هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية فى العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم – على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم – والله لا يختار لعباده

---

(١) انظر فى الإمامية الملل والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكلينى ص ١٠٥ و٣٦٨ وجولد تسيهر ص ١٨١ وفى مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر (طبع القاهرة) ص ٧٢ والكلينى ص ١٤٦ – ١٤٨ .

(٤) انظر المظفر ص ٧٤

فى رأيهم إلا المعصومين[١] .

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر ، ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، وهم – على الترتيب – على بن أبى طالب ، فابنه الحسن ، فأخوه الحسين ، فابنه على زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فابنه موسى الكاظم ، فابنه على الرضا ، فابنه محمد الجواد ، فابنه على الهادى ، فابنه الحسن العسكرى ، فابنه محمد المهدى المولود سنة ٢٥٦ للهجرة ، وقد اختفى عندما كان طفلاً . ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حى وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً ، ويعيد سنن الرسول ﷺ ويسترد حقَّ أسرته فى الولاية على الأمة فى يوم موعود به من الله ،هو سر من الأسرار الإلهية . ويقولون إن هذا حقا مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حيا ، ولكنها – كما يعتقدون – معجزة ستُحقَّق ، إذ يعود إليهم هذا المهدى المنتظر الذى يحرِّر – فى عقيدتهم – العالم من مفاسده وشروره ، ويُشيع فى الناس العدالة . وهو بذلك حَىّ ، وكل ما فى الأمر أنه غائب خفى عن الأعين[٢] . وهو عندهم فى أثناء غيابه واختفائه « قائم الزمان » يسير بين الأحياء ولا يرونه ، ويرعى شئونهم ، ويدبر مصالحهم[٣] .

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة ، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقرُّوا بين البشر نواميس العدالة الإلهية ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت ، وكأنها بعث موقوت فى الدنيا ، وهى طبعاً غير التناسخ ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن ، أما الرجعة فمعاد جسمانى فى الدنيا بنفس الصورة والشخصية . ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام فى الذكر الحكيم : (وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَص وأُحْيِى المَوْتَى بإذن الله) وما جاء عن قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم ، وأيضاً عن صاحب القصة فى قوله تعالى : (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) . غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدى الذى سيأتى آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول ، ويقول الشيخ المظفر : « على كل حال الرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها ، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام[٤] » . وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

---

(١) انظر فى عصمة الإمام لدى الاثنى عشرية جولدتسيهر ص ١٨٨ .

(٢) انظر فى نظرية المهدى الكتب الشيعية السابقة وجولدتسيهر ص ١٩١ وما بعدها وراجع فى الغيبة عقائد الإمامية للمظفر ص ٨٠ .

(٣) انظر جولدتسيهر ص ١٩٦ .

(٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع فى عقيدة الرجعة لدى الاثنى عشرية جولدتسيهر ص ١٩١ .

الروايات المنسوبة إلى الأئمة فى البيئة الإمامية فهى أقوى عندهم من كل برهان لأنهم فى رأيهم معصومون منزهون عن الخطأ .

وتلتقى العقيدة الإمامية مع الاعتزال فى كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا بعلم . وكذلك بقية صفاته ، ويرْوون عن جعفر الصادق : «العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور[1]» . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو منزه عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسما ولا عرضاً ولا جوهراً ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة فى تأويل الآيات القرآنية التى قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات فى مثل (يد الله فوق أيديهم) فعنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة فى إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهى بين بين ، أو هى بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر .

وقد أخذ المذهب الإمامى الاثنا عشرى ينتشر فى العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر فى سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكَتَبَ بَعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فمحا الكتابةَ أهلُ السنة[2] . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء فى سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذى استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغْلَقَ الأسواق ويعطَّل البيع والشراء ولا يَذْبح القصَّابون ولا يَطْبخ الطبَّاخون وأصحابُ الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسوَّدات الوجوه مشقوقات الثياب وَيَدُرْن فى بغداد نائحات لاطمات وجوههن على الحسين[3] . وفى هذا اليوم يُزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها عليه مأتم كبير كمأتم بغداد ، ويقام أيضاً فى المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للنائحين ببغداد ، وتُتلَى سيرة الحسين فى البيوت والنوادى وتنشد مراث كثيرة فيه وفى أبيه وفى الأئمة المستشهدين ، يصوِّر فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ . وبجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

---

(١) الفصول المهمة فى أصول الأئمة للعامل (طبع النجف) ص ٥٣ وانظر جولدتسيهر ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا فى حوادث عام ٣٥١ .

(٣) المنتظم ٧ / ١٥ وابن الأثير وابن تغرى بردى فى حوادث عام ٣٥٢ .

وسرور فَرَضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدير خُمّ الذى يذهب الشيعة -كما أسلفنا- إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونَصْب القباب وتعليق الثياب ، وأُشعلت النيران ليلاً وضُربت الدبادب والبوقات [1] . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين بإزاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حِراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير [2] .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حَىّ الشيعة الإمامية [3] ، ويقول هلال الصابى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى [4] ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة ، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الحِلّة ويقول إن أهلها لزمنه فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية [5] ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحِلّة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكتساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كَرْبلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن «الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجّاب والقَومة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبِّل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير» [6] . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغطِّى الضريح ومئذنة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحضُّ العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أُتيح لتلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

---

(١) ابن الأثير والمنتظم فى حوادث عام ٣٥٢ .

(٢) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ٣٧١ .

(٣) انظر مادة كرخ فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر المنتظم فى حوادث عام ٣٨٩ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ١ / ١٣٨ .

(٦) ابن بطوطة ١ / ١٣٩ .

وكان بجانب العقيدة الاثنى عشرية فى العراق عقيدتان أخريان شيعيتان، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى ليتبرأ منها الشيعة الاثنا عشرية، والثانية معتدلة غاية الاعتدال، أما المتطرفة ففرقة النُّصَيْرية كان لها أتباع فى مدينتى عانة والحديثة، وهم فى الحق مسلمون اسماً فحسب، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عَدُّوا على بن أبى طالب وأبناءه آلهة وعبدوهم من دون الله، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عَدّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه. وطبيعى، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة على، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة، ويقول جولدتسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة[١]. وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندسُّ بين الإمامية بعض النُّصيرية وبعض الشيعة الغالين أوبعبارة أدق الرافضة، وخاصةً من يرفعون عليا إلى مرتبة ربّانية. ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد فى عام ٤٢٠ للهجرة يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى ﷺ فيقول: «وعلى أخيه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب مكلم الجمجمة، ومحيى الأموات، البشرى، الإلهى، مكلم فتية أصحاب الكهف[٢]». وكأنه يؤمن بأن عليا صورة جديدة لعيسى عليه السلام، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له فى رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان. وهى نفس عقيدة النصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهيا وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه[٣] إلى غير ذلك من كفرٍ ما وراءه كفر.

وعلى عكس النصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال، هى فرقة الزيدية التى نشأت فى الكوفة على يد زيد بن على زين العابدين بن الحسين، وقد ظل لها فى هذا العصر أنصار عديدون فى تلك المدينة، وكانوا لا يَقْصُرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية، بل يرونها حق كل علوى فاطمى ما دام له من الاستعداد الروحى ما يؤهله للإمامة، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التى آمنت بها الإمامية وما يُطْوَى فيها من نظرية الرجعة وأيضا فكرة العصمة، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطنى المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُضْفَى على الإمام، فيكفى

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر ص ١٨٤، ٢٢١.

(٢) المنتظم فى حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/٨٢.

(٣) الملل والنحل للشهرستانى بتحقيق محمد سيد كيلانى (نشر مكتبة مصطفى الحلبى) ١/١٨٨ وما بعدها.

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً ، ولكن دون تصور علم لدنّى يهبط عليه . واشترطوا فى الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونهوا عن ذم الصحابة وأبى بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا عليا بالخلافة ، وجوّزوا إمامة المفضول من غير ذرية على بن أبى طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً (١) .

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد فى هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها فى العصور السابقة ، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول فى أحاديثه النبوية إلى الزهد فى عَرَض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة فى الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين ينبذون وراء ظهورهم مباهج الحياة ويتجردون لعبادة ربهم . ونراهم فى هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامى يُعَدّون بالعشرات بل بالمئات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ فى طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينه النفس القانعة مع ما يُذْكَر من أن هذا الفقيه أو ذاك اعتكف فى بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزى وابن الأثير وابن تغرى بردى سيراهم يذكرون فى وفيات السنوات أسماء كثرةٍ من الزهاد ، فمثلاً فى سنة ٣٤٨ توفى جعفر بن حرب وكان فى نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : (ألم يأنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذكرِ الله وما نزل من الحق) فصاح : بلى والله قد آن . ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفى نفس السنة توفِّى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفْطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التى استفضلها . وفى سنة ٣٨٤ توفِّى

---

(١) الشهرستانى ١ / ١٥٤ .

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لا يستند إلى حائط ولا إلى وسادة أو غيرها . وكانوا يكرهون فى الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالا[١] ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله[٢] . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً ما نقرأ عن هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان فى وجهه أثر صُفْرة من قيام الليل [٣] . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فينصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التى بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزى واعظ بغداد المشهور ، فأخذه الوَجْد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزى والناس من حوله أنه قد أعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر[٤] . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون فى الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة فى الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذى لا يريد للزاهد أن ينفصل عن المجتمع والحياة ، وقد رُوى أن جماعة من الصحابة كانوا فى سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه فى ركوبه مصلياً له فى نزوله فقال لهم «فمن كان يكفيه عَلَف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه[٥]» . فالزهد الإسلامى ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى[٦] . ونرى ابن الجوزى يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمضون الليل والنهار فى العبادة والنسك وقد نحلت أجسامهم وشحبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة[٧] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/١١٧ .

(٢) النجوم ٥/٥٧ .

(٣) النجوم ٥/٩٨ .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة (طبع بغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير لبدرى فهد ص ٣٩٧ .

(٥) أعلام النبوة للماوردى (طبع القاهرة) ص ١٥٣ وراجع طبقات ابن سعد ج٣ق١ ص ٢٨٧ وج ٤ق٢ ص٩ .

(٦) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب المصرية) ٤/١٨ وروض الرياحين لليافعى (طبع القاهرة) ص ٣٨ .

(٧) صيد الخاطر لابن الجوزى (طبع القاهرة) ص ١٣٨ .

وكان طبيعيًّا أن يتحوَّل كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكِسْرة ومن الثياب بالخِرْقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تُبْنَى لهم الرِّباطات والخانقاهات فى العالم الإسلامى ، تَبْنيها الدولة أحياناً ، ويبنيها ذوو اليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتى عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحَبَّسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسْمَحُ بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيخوخة بحيث تُقْعده عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان فى الأربطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الخلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل مَنْ فيه من أتباعه . والمحور الأساسى للتصوف هو محبة الله محبة يفنى فيها الصوفى المحب فى الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهىّ ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير فى هذه العقيدة . ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أنه بلغ من غلو الحلاَّج فى هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرِّح بفكرة الحلول من مثل قوله : «أنا الله وأنا الحق» مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقتله . غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الحلاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عتاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغى أن يُظهِروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون بالملامتيَّة أى المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح .

وكان ذلك سبباً فى أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيعون من أفكار الحلول ومايتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الحنيف . وتفاقمت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورةٌ أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . وسرعان ما ظهر أبو نصر السرَّاج الصوفى الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه «اللمع» وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفى وشطح صوفى يؤدى إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد

الرحمن السُّلَمىّ صاحب طبقات الصوفية ، ولقَّنها بدوره تلميذه عبد الكريم القُشَيْرى المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رَأَبَ بها هذا الصدع الذى حدث بين الفقهاء والمتصوفة . ودوَّت الرسالة منذ عصره فى العالم الإسلامى ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه فى وئام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التى تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفُّون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميِّزون بين الحلال والحرام مدَّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالى حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشريعة وصلاً وثيقاً لم يصبه وَهنٌ بعده ، بحيث أصبح التصوف فى صورته العامة سُنِّياً ، وحقا انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربى وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السنى على نحو ما رسمه الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» وهو فى النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتهجد والأدعية . ويبدأ الحديث فى النصف الثانى بما ينبغى من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحى الذى يتطلبه الصوفى وما ينبغى له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكر وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالى والقشيرى وأبى نصر السراج الطوسى فى القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السنى القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلبَ كثرةٍ من الناس فى العالم الإسلامى جميعه . والغزالى لا يضع أصوله فحسب ، بل يُعِدّ العدة لكى تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث فى الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفى وتلميذه أو مريده ، وقال إنه ينبغى أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشى على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية فى الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محيى الدين أبى محمد عبد القادر[1] الجيلانى مولداً الحسينى نسباً المتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد فى شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدِّثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر فى الجيلانى الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والنجوم الزاهرة ٥/٣٧١ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى (طبع لاهور) ٥/٣٨١ .

الناس بعد سنة ٥٢٠ وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لبّى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَغْرى بَرْدى : «كان ممن جمع بين العلم والعمل أفتى ودرّس ووعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان فى التحقيق وبيان فى الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طنّ ذكرهم فى الشرق والغرب» . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغُنْية لطالبى طريق الحق ، وهو فيهما يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت فى مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى مناقب القطب الربانى سيدى محيى الدين أبى محمد عبد القادر الجيلانى ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التى ذاعت فى العالم الإسلامى الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربى الأصل أبى العباس أحمد[1] بن أبى الحسن على المعروف بالرفاعى «إمام وقته فى الزهد والصلاح والعبادة» وقد شاعت طريقته فى عصره وكثر أتباعه . ويُقال إن شخصاً زاره فى ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان «وكان متواضعاً مجرّداً من الدنيا» . وكان مولده سنة ٥٠٠ ووفاته سنة ٥٧٨ . ومن قوله : «سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والاقتداء بِسنَّة سيدى رسول الله ﷺ» . وله كتاب سماه «حالة أهل الحقيقة مع الله» حققه وقدم له محمد نجيب خياطة ، وهو مطبوع بحلب ، وقد بناه الرفاعى على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووَصْف المتصوفة أهلِ الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن وِرْدِه ، فقال : كان يصلى أربع ركعات بألف (قل هو الله أحَد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سبْحانك إنى كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسى وأسرفت فى أمرى ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى ، وتُبْ علىَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، ياحىّ ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت» – ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية والنزول فى التنانير وهى تتضرّم ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

---

(١) راجع فى الرفاعى مرآة الزمان ٨ / ٣٧٠ والشذرات (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٦ /٢٣ :وابن خلكان ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ٩٢/٦ وطبقات السبكى ١ / ١٧١ وطبقات الشعرانى ١ / ١٤٠ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزورى ، وشهاب الدين أبو حفص [١] عمر السُّهَرَوَرْدى البغدادى ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلانى ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه ينزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التى يقطعها المريد حتى يتهيأ لانتظامه فى طريقة شيخه ويصبح مُعَداً أو مهيأً لأن يخلع عليه « الخِرْقة » شعار الصوفية وهى ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته فى إرادة شيخه ، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلم منه الخرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه فى الطريقة . ويقول السهروردى إن « المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد . . . وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال » [٢] . ويتحدث السهروردى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقْضَى فى الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك ينبغى على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكى ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته [٣] . وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه فى المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن ينتشرا لا فى العراق فحسب بل أيضاً فى كل العالم الإسلامى .

ومنذ القرن الخامس الهجرى أخذ يشيع فى التصوف وبين المتصوفة ما سُمِّى بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية فى صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً ، ويقوم بين الصفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التى تدلع المحبة الإلهية فى القلوب ، وقد عَمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدهما من طرق صوفية . ولابُدَّ أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ فى الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجوِّلون كانوا يطوفون العالم الإسلامى ، وأخذت تظهر بينهم

---

(١) انظر فى ترجمته ابن خلكان ٣/٤٤٦ وعبر الذهبى ٥/١٢٩ وطبقات الشافعية ٨/٣٣٨ ومرآة الزمان ٨/٦٧٩ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨٤ .

(٢) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب العربى ببيروت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأً إلى عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردى .

(٣) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

فى القرن الثامن الهجرى وما بعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقْشَبَنْدية ، وقد رعاها تيمورلنك فى دولته ، والبكطاشية ، وقد نشأت فى جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهى تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتنقيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تتفرع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش السائحين أو الجوالين أثر بعيد فى نشر الإسلام بشرق إفريقيا وغربيها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم فى أن تظل للعالم الإسلامى وحدته على الرغم من توزعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم فى بث الروح الدينية فى نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة فى أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكتاتيب للصِّبْية يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبى لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمذانى ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريرى . وكان يستظهر أيضا بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحترى والمتنبى . وكان الناشئة يتحولون من الكتاتيب إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومَنْ يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد فى بغداد تحل محل التعليم الثانوى والجامعات فى عصرنا ، وبالمثل فى البصرة والموصل وغيرهما من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند فى المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يملى على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستمليا يردِّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحيانا ما ألَّفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد يعنُّ له أن يدخل فى القراءة الثانية شيئاً من التصحيح أو التهذيب على ما صنَّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يُرْوَى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المطرِّز من أنه أملى كتابه الياقوت فى اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيفا بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١ - وبها نشره تلاميذه[١] . وكان جامع

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩ وراجع إنباه الرواة ٣/١٧٥ .

المنصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ نابغ يتمنى أن تكون له فيه حلقة ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن الخطيب البغدادى حافظ بغداد – المتوفى سنة ٤٦٣– من أنه حين حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدِّث بكتابه «تاريخ بغداد» والثانية أن يُملى على الطلاب بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدْفَن إذا مات عند قبر بشر الحافى . وتحققت له الأمنيات الثلاث [١] . وكان الأساتذة والشيوخ فى المساجد أحيانا لا يُمْلون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجرى بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية فى العصر قرون الشروح ، وقد تُشْرح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشى ملاحظات تسمَّى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجرى بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتُلْحَقُ بها مكتبات ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير سابوربن أردشير فى سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربى بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتبا كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثّقة التى كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس [٢] . وأسس الشريف الرضى الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه [٣] .

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بنى بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبِّر الحكم فى زمن ألب أرسلان السلجوقى عُنِى ببناء طائفة من المدارس فى بلدان مختلفة فى العراق وإيران ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعى فى الفقه ومذهب الأشعرى فى علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها فى بغداد والموصل والبصرة [٤] وقف عليها أوقافا كثيرة ، وبنى فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكتبات نفيسة . وكان فى هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون – بجانب

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى (الطبعة الثانية بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى) ٤/٣٥ .

(٢) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار فى قصيدة مشهورة له وانظر شروح سقط الزند ص ١٢٣٩ .

(٣) ديوان الشريف الرضى طبعة سنة ١٣٠٧ ببيروت ص ٣ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى ٤/٣١٣ .

أساتذة علم الكلام والفقه – فى علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك يبنون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ بباب أبْرز إحدى محالّ بغداد وأحيائها مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية[١] ، وأخذ بعض الموسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابتنى المستوفى الخوارزمى – وكان متعصبا لأبى حنيفة – المدرسة الكبيرة بباب الطاق[٢] وأخذت المدارس تتكاثر فى بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرقى ، وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية وهى التى ابتناها نظام الملك وقد جُدِّدت سنة أربع وخمسمائة ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويُجْرون منها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلَّد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم مَنْ تبع ذلك السَّنَن الصالح[٣] .

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان فى وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مرارا ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دَرَّس فى النظامية . وقل مثل ذلك فى نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُنِى بجوار النظامية الأخيرة فى الموصل تسع مدارس ، هى : القاهرية والأتابكية والعتيقة والنورية والعِزِّية والبَقْشية والعلائية والكمالية والبدرية[٤] . وبُنيت مدارس كثيرة فى المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها فى إربل ثلاثا هى المظفرية والقلعة والعقيلية[٥] . وبنى الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هى المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجى معروف كتابا ، عرض فيه أساتذتها ونشاطها العلمى وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقه وحده عشرون فقيها ، يتقاضى كل منهم اثنى عشر دينارا فى كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهريا . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهريا . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخَزَنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدِّم للشيوخ والطلاب يوميا جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

---

(١) النجوم الزاهرة ١٢٥/٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٧/٥ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

(٤) انظر ابن خلكان ١٠٨/١ ، ١٩٣ ، ٤/٤ ، ٢٥٣ ، ٥/٣١١ ، ٣١٣ .

(٥) ابن خلكان ١٠٨/١ ، ٨٧/٧ ، ٣٣٨ .

ما يقدم للطلاب من الحبر والورق والأقلام [١] . وعاد إلى هذه المدرسة، أوقل الجامعة، نشاطها بعد الغزو التتارى، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله : «بها المذاهب الأربعة – يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية – ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب، صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد المد رس وعليه السكينة والوقار ، لابساً ثياب السواد ، معتمًا ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ، وفى داخل هذه المدرسة الحمّام للطلبة ودار الوضوء [٢] .

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية فى بغداد خمدت خموداً تاما بعد الغزو التتارى غير صحيح ، يمكن أن يَصْدُقَ ذلك على العهد التتارى الوثنى أما منذ دخول غازان والتتار فى الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمى ، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها فى العصر العباسى والمعروف أن هولاكو دمّر كثيرا من مدارسها وقد أُعيد بناء بعض هذه المدارس ، وعُنى غازان – كما أشرنا – وخلفاؤه الايلخانيون بها .

ولاشك فى أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام فى العهدين التركمانى والعثمانى ، غير أن النشاط أخذ يدبُّ فيها أواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد فى نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية .

ولابد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمى بعد الغزو التتارى ، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء ، ويقول إنه سمع فيه على مُسنِد العراق – سراج الدين أبى حفص عمر القزوينى – جميع مسند الدرامى [٣] . وكانت الدراسة فى مساجد بغداد ومدارسها بالمجان ، بل كان الطلاب فى المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا . وربما كانت المساجد أهم من المدارس فى نشر العلم ، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائما لكل قاصد ، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا ، مما جعل العلم بحق شعبيا لجميع أفراد الشعب ، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم . وكثيرا ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره فى علم من العلوم ، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذى يريده حتى يصبح من أقطابه ، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة فى ابن خلكان وغيره .

---

(١) انظر تاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف ٥٧/١ ، ٧١–٨٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) ابن بطوطة ١ / ١٤١ .

(٣) ابن بطوطة ١ / ١٤٢ .

وعلى هذا النحو لم يكن العلم فى بغداد احتكارا لطبقة بعينها ، بل كان مباحا لجميع الناس ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة فى كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذُكر فيها أنه قال لشاب بغدادى فى تضاعيف حديث وجَّهه إليه : « قدمَنَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبَّرت جميع الأشياء وركبتها » . ولم تكن العامة من الرجال فقط هى التى تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضا الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد فى ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلَّة العلماء فى مختلف العلوم والفنون وتُظْهر براعة فائقة فى ليال كثيرة ماتزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنهن يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادى وحمله أو أخذه صحيح البخارى عن كريمة المروزية [(١)] .

وطبيعى أن تنشط الوراقة فى هذا العصر الذى كان مكتظا بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نَسْخ الكتب والأجور التى كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتفلسف المتوفى سنة ٣٦٤ ويروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبرى [(٢)] ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته فى هذا النسخ ، مما جعل الصاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية [(٣)] . وكان للوراقين سوق معروفة فى بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون فى هذا العصر مقام أصحاب المطابع فى عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويجلدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها فى كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير فى كتابه « الفهرست » وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجما لأصحابها ، ولم يترك كتابا إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفا كثيرة . والكتاب طرفة من أروع الطرف ، وهو يموج

---

(١) السبكى ٤/٣٠ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ .

(٣) معجم الأدباء ١٥/٢٦ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية فى هذا العصر.

وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء فى كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهَّلت فيما بعد لتأليف كتب فى تراجم كل مجموعة على حدة ، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووُضعت كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن شخص فى بغداد– مددا متطاولة من هذا العصر الذى امتدَّ قرونا متعاقبة– إلا وهو يلمُّ بعلم أو بطائفة من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين فى عصرنا ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا فى كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهيأ ذلك لندوات كثيرة كانت تُعْقَدُ أحيانا فى قصور السلاطين والوزراء وعِلْية القوم ، وكثيرا ما دارت فى هذه الندوات مناظرات خصبة ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بختيار وما أثير فيه من مناظرات فى مسائل كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم[1] . ولعل مجلسا لم تحتدم فيه المناظرات كما احتدمت فى مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصَّ علينا منها أطرافا كثيرة أبو حيان فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعْرَضُ فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون فى كل ذلك محاورات بديعة . وكانت تثار مناظرات كثيرة فى المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين المتكلمين واللغويين . وبلغ بن اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ، فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت فى سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسى ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسى وزملاؤه من الصلة بين الفلسفة والدين[2] . ومن الندوات المشهورة فى القرن الرابع ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى صاحب صِوان الحكمة المتوفى بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة الفارابى وامتاز بعقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان فى كتابه « المقابسات » كثيرا مما كان يدور فى ندوته من شعب الفكر فى الإلهيات والطبيعيات والنفس والروح والأخلاق . ونذهل حين نقرأ الحوار فى المسائل الكثيرة التى كانت تدار فى هذه الندوة وكذلك فى ندوة ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تَصْنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

---

(١) مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى (طبع دمشق) ص ١٣٩ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/٣ وما بعدها .

عجيبة ، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة فى أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

رأينا فى كتاب العصر العباسى الثانى كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحوّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلى للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مهما فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقا واسعا ، ومَنْ يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطى أو طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة يبهره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية فى الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسى الأول لا يكتفى النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى فى كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجرّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بفطنهم . وقد افتتح العصر العباسى الثانى بعالم رياضى عظيم هو الخوارزمى مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربى هو الكندى . ومضت الترجمة فى النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتى ثمارها حتى ظهر الفارابى الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثانى .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أوْجَها فى القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيرونى فى إيران وابن الهيثم فى العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى [1] بن عدى النصرانى اليعقوبى المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة ، تتلمذ على الفارابى ومتّى بن يونس ، ويقول القفطى : «إليه انتهت رياسة أهل المنطق فى زمانه» ويذكر له كتباً عدة ترجمها لأرسطاليس وشراحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدى «تخرج

---

(١) انظره فى صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (طبع طهران) ص ٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى (طبع القاهرة) ١/٣٧ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليزج) ص ٣٦١ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدوميلى (الترجمة العربية طبع القاهرة) ص ١٨٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٤/١٢٠

عليه كثير من المترجمين والمتفلسفة » مثل عيسى [١] بن على بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقا فى الترجمة قيما بعلم الأوائل ، ويقول القفطى : رأيت نسخته من السماع الطبيعى التى قرأها على يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق » . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى [٢] بن زُرْعة ، وكان نصرانيا يعقوبيا مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطى عنه : « أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجوِّدين » ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وينوه بما ينقله إلى العربية تنويها كبيرا ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن [٣] بن سُوار النصرانى المعروف بابن الخمّار البغدادى وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية ، وكان متفلسفاً وطبيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكنا فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطَّت به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف [٤] الرومى الشيرازى القَسّ ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس ، وكان طبيباً حاذقاً .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم تبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائلَ هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعو له دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة – كما وصفها أبو حيان – تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القُدْس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنّته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غَسْلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية : وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفةُ اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميِّها وعمليِّها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها « رسائل إخوان الصفا

(١) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٦ والقفطى ص ٢٤٤ .

(٢) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ والفهرست ص ٣٨٣ والقفطى ص ٢٤٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٨ وبروكلمان ٤/١٢٢ .

(٣) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع والمؤانسة ١ / ٣٣ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطى ص ١٦٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٢٨ وبروكلمان ٤/١٥٨ .

(٤) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع والمؤانسة ١/٣٧ والمقابسات لأبى حيان التوحيدى (طبع بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية وراجع القفطى ص ٣٣٧ وبروكلمان ٤/١٨٣ .

وخلان الوفا ، وكتموا أسماءهم وبثوها فى الوراقين[١] » . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفى هذه الرسائل هم زيد بن رفاعة وأبو سليمان المقدسى وأبو الحسن على بن هرون الريحانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم[٢] . ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعِدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسى هو الذى أخرجها وأعطاها صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقى السجستانى أكبر متفلسفة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا[٣] » . والمظنون أنه أضيفت إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة فى الرياضيات والمنطق و١٧ فى العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ فى الميتافيزيقا والإلهيات و١١ فى التصوف والتنجيم والسحر. وهى مغموسة فى الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها نُتَفٌ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد عزَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبى سليمان المنطقى السجستانى فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردَّها عليه قائلاً : « تعبوا وما أغنوا . . وحاموا وما وَردوا » . ويردّ أبو سليمان على نظريتهم فى وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلاً سنلخصه فى الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعيات ومنطق وموسيقى[٤])

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة فى كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا فى هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدى المختفى أن العصابة التى اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطىء حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدى المختفى ، ولكنهم كانوا أكثر إيغالا فى التشيع إذ كانوا يعتنقون المذهب الإسماعيلى . يدل على ذلك مثل قولهم فى أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيتِ الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبِّرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم . . إن هو إلا علم إلهى وتنزيل ربانى ، تنزل به

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٥ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٤ .
(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .
(٤) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته فى أرضه»[١] . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم فى طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقى السجستانى حين يقتبس نَصًّا من الرسائل لأبى سليمان المقدسى يقتبس له النص الذى رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم فى أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . والمرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . والمرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهى . والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهى مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عيانا . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم فى كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذاكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون فى العراق وسط أصحاب المذهب الإمامى الاثنى عشرى ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعى كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم فى بغداد ، إذ يحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لأحدهم ، وهو زيد بن رفاعة . وينقل مناقشة طويلة بين أبى سليمان المقدسى والحريرى فى وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هيأ لهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه . وكان يتخذ أحيانا لنفسه منهم وزيرا أو نائبا ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة[٢] . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسى وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان فى بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هـــــذه الرسائل - كما مر بنا - إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة فى مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة فى بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبى سليمان[٣] المنطقى السجستانى ، الذى نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد فى شبابه ، ولزم يحيى بن عدى وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرعان

---

(١) رسائل إخوان الصفا ١٠٣/٤ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٢/٤ .

(٣) انظر فى أبى سليمان المنطقى القفطى ص ٢٨٢ والإمتاع والمؤانسة فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وكذلك المقابسات ، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٢٧ والفهرست ص ٣٨٣ وبروكلمان ص ١٥١ ومقدمة عبد الرحمن بدوى لصوان الحكمة .

ما عُرِف فضله وتألق نجمه ، وكان دميم الخلقة وبه وضَحٌ ظاهر فلزم داره ، وتحوَّلت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمثقفون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا مختلفى المشارب ، فمنهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف ، مثل الطبيب المجوسى المعروف بفيروز[١] وأبى إسحق[٢] الصابئ الكاتب وابن زرعه[٣] النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح النوشجانى وأبى محمد العروضى المتفلسفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل المنجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفا . يقول أبو حيان : «وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة[٤] » . وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعيات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلقى كل فيلسوف بدلوه ، ثم يُرَدّ الرأى النهائى إلى أبى سليمان ، فيسمعه الجميع خاشعين مُكْبِرين ، وبلسانهم يقول له فيروز : «عيَّنُ الله عليك أيها السيد ، فوالله ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك ، ولا نظفر بقوت النفس إلا على لسانك ، ولا نعلم يقينا أنا لا نحسن شيئا إلا إذا فاتحناك ، ولا يحصل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك ، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتى بها على هذه الطلاوة والحسن ، أمتع الله الأرواح برؤيتك ، والعقول بهدايتك[٥] » . ولأبى حيان التوحيدى يَدٌ لا تجحد ، لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس «المقابسات» وهى تَعْنى مجالس أبى سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصرِّح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجها فى صورتها المكتوبة[٦] ، وينبغى أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً «بلُكْنة ناشئة من العجمة[٧] » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

---

(١) المقابسات (طبع بغداد) ص ٤٣٧ .
(٢) المقابسات ص ٢٧٢ .
(٣) المقابسات ص ٢٤٢ وهنا أيضا يذكر أن عيسى ابن على بن عيسى كان حاضراً .
(٤) المقابسات ص ٥٧ وقد توقف أبو حيان فى هذا الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليعرف بهم (انظر فهرسيهما) .
(٥) المقابسات ص ٤٢٩ .
(٦) انظر المقابستين : الثانية والرابعة .
(٧) الإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ .

آخر ، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطبيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يخرم حرفاً من كلام أبي سليمان ! [(١)] . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن على بن عيسى وأبي الحسن العامرى وغيرهما .

ومنتدى ثان ببغداد لم يكن عاما مثل المنتدى السابق ، فقد كان خاصا بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلا بداره ، هو ابن سَعْدان الذى وزر لصمصام الدولة فى سنة ٣٧٣ ولم يكد يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانتا سنتين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرْعة النصرانى المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبى الوفاء الرياضى الفلكى المهندس وبهرام بن أردشير المجوسى وابن عبيد وأبى بكر القومسى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه [(٢)] . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلا : «والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل [(٣)]» . وكان أبو الوفاء قريبا من ابن سعدان فوصله بأبى حيان التوحيدى ، ليعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة فى عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسنا ، وأخذ يُلْقى عليه فى ليال متصلة أسئلة فى مختلف فروع الفكر واللغة والأدب ، ويتلقى من أبى حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث فى مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، ويروى له أحيانا أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة فى بغداد . وبحق يقول القفطى عن الكتاب إنه «كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص فى كل لُجَّة» [(٤)] . ولم يَرْوِ أبو حيان فى الكتاب الذى يقع فى ثلاث مجلدات كل الليالى التى قضاها محاورا مناقشا فى منتدى ابن سعدان ، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبى الوفاء المهندس ، ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبى الوفاء فى

(١) قارن المقابسة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٢) انظر فى هؤلاء الجلساء الصداقة والصديق لأبى حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وراجع النجوم الزاهرة ٤/١٢٥ .

(٣) الصداقة والصديق ص ٨٣ .

(٤) القفطى ص ٢٨٣ .

حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسوّدات هذه الليالى ، حتى إذا رأى إهداءها لأبى الوفاء عُنى أحياناً بتقويم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام المنقوص ، ومع سبكها بناصع اللفظ[١] وما عُرف من ميله فى كتابته إلى الأزدواج .

وكان وراء هذين المتندين الفلسفيين العلميين منتديات كثيرة فى دور العلماء والمتفلسفة مثل دار يحيى بن عدى وفى المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابور بن أردشير . ونذكر نفرا من الرياضيين والفلكيين فى القرن الرابع الهجرى لندل على النهضة العلمية حينئذ ، وأول من نقف عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم[٢] المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد الدولة يرعاه واشتهر بزيجه الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره وَيْجَن[٣] بن رُسْتَم الكوهى وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء[٤] محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى صديق أبى حيان التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ فى وصف كتبه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع » . ويقول عنه ألدوميلى : «كان أحد المترجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو كذلك عالم أصيل رفيع المنزلة ، ويقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ، والمسائل الهندسية التى عالجها بخبرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين » .

وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبى على الحسن[٥] بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة ثلاثة وأربعين كتابا فى الفلسفة والعلم الطبيعى وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢ .

(٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .

(٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١ وبروكلمان ٢١٩/٤ وألدوميلى ص ٢١٢ .

(٤) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧ وابن خلكان ١٦٧/٥ والوافى بالوفيات للصفدى ١ / ٢٠٩ وتتمة البيهقى ٧٦ وبروكلمان ٤ / ٢٢٢ وألدوميلى ص ٢١١ ، ٢١٥ .

(٥) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميلى ص ٢٠٦ وما به من مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

والهندسة . وهو يُعَدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه «المناظر» فى البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيرا عميقا فى كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديما إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره فى كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك ألدوميلى . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمى بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه فى النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبى أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسطاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس فى الطب . وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر . وكان يقتات من نَسْخه سنويًّا أقليدسَ والمجسطيَّ . ويضيف إليهما القفطى كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسى إنشاء البيمارستانات فى بغداد ، ومن البيمارستانات المهمة التى أنشئت فى القرن الرابع الهجرى البيمارستان العضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه فى الجانب الغربى لبغداد وأنفق عليه أموالا عظيمة ، ويقول ابن خلكان : «ليس فى الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه» ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيَّن به أربعة وعشرين طبيبا رتَّبهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومى وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجرائحى وأبو يعقوب الأهوازى وابن مندويه»[1] .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية فى القرن الرابع اطردت فى القرنين التاليين إذ يلقانا بهما متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون فى كتابى القفطى وابن أبى أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله[2] بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطى «فيلسوف فاضل . . اعتنى بشرح الكتب القديمة فى المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطاليس وبشرح كتب جالينوس فى الطب ، ويقال إنه بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بُطْلان[3] النصرانى المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا فى الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقى الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، ونشبت بينهما مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

---

(١) انظر القفطى ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ .

وراجع ابن خلكان ٤/٥٤ .

(٢) القفطى ص ٢٢٣ .

(٣) القفطى ص ٢٩٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ . وألدوميلى ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية فى عصر النهضة . ومن الأطباء النابهين بعده أبو الحسن سعيد[١] بن هبة الله طبيب الخليفتين المقتدى والمستظهر ، وكان لايزال على قيد الحياة فى سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفى سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير فى الطب صنفه للمقتدى ، سماه المغنى فى تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى[٢] بن جزّلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان ، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأنبه الأطباء فى القرن السادس هبة[٣] الله بن التلميذ النصرانى المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتفى ، ويقول ألدوميلى إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهى صفة تشمل أطباء العراق بعامة بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيمارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيمارستان ووصفه بقوله : إنه «على دجلة وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية»[٤] .

وتمضى الحركة العلمية والفلسفية فى نشاطها بالعراق إلى أن يكتسحه قُطْعان المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى . إذ قوّضوا صرحها فى بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنبه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثير الدين الأبهرى[٥] الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر فى علم الهيئة ورسالة فى الإسطرلاب وشرح لإيساغوجى وكتاب هداية الحكمة فى المنطق والطبيعيات والإلهيات . ويَضْعُف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ فى الضعف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، ويلقانا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبى القاسم محمد بن أحمد السماوى[٦] العراقى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة فى الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب فى زراعة الذهب ، وممن نلتقى بهم فى القرن التاسع الهجرى بدر

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٢ وألدوميلى ص ٢٤٢ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٣ والقفطى ٣٦٥ وألدوميلى ص ٢٤١ ، ٢٥٣ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ والقفطى ص ٣٤٠ وألدوميلى ص ٣٢١ .

(٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

(٥) راجع فيه ابن خلكان ٣١٣/٥ فى ترجمة كمال الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وبروكلمان (فى الطبعة الألمانية) ٤٦٤/١ .

(٦) انظر ألدوميلى ص ٣٠٨ .

الدين محمد سبط الماردينى [1] المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة فى الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل فى الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولابد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم فى السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحُكْم والسياسة ، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف فى السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للماوردى [2] أبى الحسن على بن محمد البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيا ، وتولى القضاء فى بلدان كثيرة بالعراق ، وهو فى كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية فى النظم الإسلامية ، وبذلك يصبح الكتاب فى سياسة الحكم الإسلامى ، وهو يستهله بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة فى سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفىء والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر فى الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسى الإصطخرى [3] الكرخى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ويبدو أنه عاش طويلاً فى بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخى ، وله كتاب جغرافى سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها وسُهوبها وجبالها . وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التى بثها أبو زيد البلخى فى كتابه المعروف بهذا الاسم ، ولابن حوقل البغدادى [4] معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخرى . وكان شيعيا إسماعيليا ، واستغله الفاطميون فى الدعوة لهم على مايظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزءا من الهند .

(١) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/٣٥٧ .

(٢) انظره فى ابن خلكان ٣/٢٨٢ والمنتظم ٨/١٩٩ وطبقات الشافعية ٥/٢٦٧ وتاريخ بغداد ١٢/١٠٢ ومعجم الأدباء ١٥/٥٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٣) انظره فى إصطخر بمعجم ياقوت وفى دائرة المعارف الإسلامية . وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ١/١٩٩ .

(٤) راجعه فى ألدوميلى ص ٢٢٧ وفى دائرة المعارف الإسلامية . وفى كراتشكوفسكى ١/٢٠٠ .

وأهم جغرافي ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموى البغدادى [١] المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو فى ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر فى مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لايترك كتابا فى المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكتف بتلك الكتب التى كوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها ، وألمَّ فى كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتابًا وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالها حتى عصره. وله أيضا فى الجغرافيا كتاب ثان بعنوان «المشترك وضعا المختلف صقعا». ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار لعبد اللطيف [٢] البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوَّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وتُرجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبع مرارا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة فى المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالى أن نفصل بين مباحثهما ، إذ يكثر أن ينهض اللغوى بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوى بمباحث لغوية . ويلقانا ابن [٣] دُرُسْتَوَيه المتوفى سنة ٣٤٧ معنيا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن ناقيا والعكبرى وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادى بعدهما ذيلا . وتكثر العناية بكتاب لغوى ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافى [٤] الحسن بن عبد الله

---

(١) انظره فى النجوم الزاهرة ٦/٢٨٣ وشذرات الذهب ٥/١٢١ وابن خلكان ٦/١٢٧ ومرآة الجنان ٤/٥٩ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ١/٣٣٥ .

(٢) ترجم له ابن أبى أصيبعة فى طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها من كتاب له ، تحدث فيه عن سيرته ، وقد لخصت هذه السيرة فى كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٩/٤٢٨ وإنباه الرواة ٢/١١٣ وابن خلكان ٣/٤٤ .

(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٧/٣٤١ ومعجم الأدباء ٨/١٤٥ وإنباه الرواة ١/٣١٣ ونزهة الألباء لابن الأنبارى (طبعة أبى الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ واللباب ١/٥٨٦ وشذرات الذهب ٣/٦٥ ومرآة الجنان ٢/٣٩٠ . وابن خلكان ٢/٧٨ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهده ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته ، منها مختصر يسمى المنخل لأبي القاسم الوزير المغربي المار ذكره ، ومنها تهذيب للخطيب التبريزى[1] يحيى بن على المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة لعلى[2] بن حمزة البصرى المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بنزول المتنبي عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة. وهو فى كتابه يصحح الأغلاط التى وردت فى طائفة من كتب لغوية مهمة ، هى نوادر أبى زياد الأعرابى ، ونوادر أبى عمرو الشيبانى ، وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبى ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبي عليه من نقد بالفسطاط . وتكثر الكتابة فى الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جنى فى القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر فى العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جنى لديوان المتنبي مشهور وقد سماه الفَسْر ، ويعد التبريزى المذكور آنفا – وكان يدرس الأدب فى المدرسة النظامية – من أكثر شراح الشعر آثارا ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المساة بالمفضليات للمفضل الضبى ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حماسة أبى تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبى العلاء المعرى . وله شروح موجزة على لامية العرب للشنفرى ، وقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزى وضع شرحا مطولا لديوان أبى تمام فإن العكبرى أبا البقاء فى القرن السادس الهجرى وضع شرحا مطولا بدوره للمتنبي . وعُنِى ابن المستوفى الإربلى[3] المتوفى سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديوانى أبى تمام والمتنبي سماه النظام فى شرح شعر المتنبي وأبى تمام فى عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريرى مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها فى القرن السادس بالعراق شرح القاسم[4] بن القاسم الواسطى ، وشرح العكبرى النحوى شارح المتنبي ، ولابن

---

(١) انظره فى معجم الأدباء ٧/٢٨٦ وبغية الوعاة والأنساب للسمعانى الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص ٣٧٢ والمنتظم ٩/١٦١ ومرآة الجنان ٣/١٧٣ والشذرات ٤/٥ وابن خلكان ٦/١٩١ ودمية القصر ١/٢٣٧ .

(٢) راجعه فى بغية الوعاة ومعجم الأدباء ١٣/٢٠٨ .

(٣) انظره فى ابن خلكان ٤/١٤٧ وبغية الوعاة والشذرات ٥/١٨٦ . وعبر الذهبى ٥/١٥٥ .

(٤) راجعه فى إنباه الرواة ٣/٣١ وقد ذكر القفطى أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبي اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المنصف لابن وكيع .

الخشاب [١] البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحث لغوى فى أغلاط الحريرى فى مقاماته ورد عليه ابن برى العالم المصرى اللغوى المتوفى سنة ٥٨٢ بمبحث لغوى دقيق انتصر فيه للحريرى ، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريرى نشر مكتبة ومطبعة الحلبى بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبى طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولابن الساعى [٢] على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريرى : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط فى خمس مجلدات . وقد عنى محمود [٣] بن أحمد الزنجانى المتوفى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهرى سماه «ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح» . ومنذ السيرافى تكثر الشروح لشواهد الشعر فى كتب النحو على غرار كتابه فى شرح شواهد سيبويه ، بل إننا نجد عبد القادر [٤] البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ يحوّل شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، ويحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر فى مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب .ومما ذكره من كتب اللغة : الجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهرى والعباب للصاغانى والقاموس المحيط للفيروزابادى واليواقيت للمطرز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنبارى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغير مؤلف والفروق لأبى هلال العسكرى وخلق الإنسان للزجاج والمعرب للجواليقى والمثلثات لابن السيد البطليوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطى .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب فى اللغة بأى بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربى واحد ، وكل ماينتجه بلد

---

(١) انظره فى معجم الأدباء ١٢/٤٧ وإنباه الرواة ٢/٩٩ وبغية الوعاة والمنتظم ١٠/٢٣٨ والنجوم الزاهرة ٦/٦٥ وابن خلكان ٣/١٠٢ .

(٢) انظر فيه تذكرة الحفاظ ٤/٢٥٠ وشذرات الذهب ٥/٣٤٣ ومقدمة مصطفى جواد لكتاب نساء الخلفاء (طبع دار المعارف) وما ذكره من مصادر .

(٣) انظره فى الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع بغداد) ص ٢٣٧ وطبقات الشافعية للسبكى ٨/٣٦٨ والنجوم الزاهرة ٧/٦٨ وتاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف .

(٤) انظره فى خلاصة الأثر للمحبى ٢/٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية فى كلمة البغدادى .

فى علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادى منهم من عاش فى أقصى الشرق من العالم العربى ، ومنهم من عاش فى أقصى الغرب منه أو فى أواسطه ، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أى بلد إنتاجا مستقلا هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يموج بإنتاج البلدان الأخرى فى كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط ، بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تشرح شروحا عدة ، نذكر من ذلك رَشْف الضَّرب فى شرح لامية العرب للشيخ عبد الله [١] السويدى المتوفى سنه ١١٧٤ للهجرة وشرح بانت سعاد للسيد [٢] عبد الله الفخرى المتوفى سنه ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن [٣] القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح فى رسائل مختلفة . ولشهاب الدين الألوسى [٤] المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريرى باسم كشف الطُّرّة عن الغرة وللشيخ إبراهيم [٥] الحيدرى المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبى تمام ومقامات الحريرى وسقط الزند لأبى العلاء . وكأن النشاط اللغوى لم يتوقف بالعراق فى حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب بحوثهم فى لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى ينقّوها من أوضار العامية التى أخذت تنتشر بقوة منذ مطالع العصر ، ونجد القاضى أبا الحسن عليا المؤيدى يضع سنة ٤٢٠ كتاباً فى الأمثال البغدادية العامية [٦] وأهم من ذلك كتاب الحريرى : « دُرّة الغواص فى أوهام الخواص » وهو فى أغلاط المثقفين ، ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى [٧] المتوفى سنة ٥٣٩ تكملة أو تتمة سماها « التكملة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المعرَّب »

---

(١) راجعه فى المسك الأذفر فى نشر مزايا القرن الثانى عشر والثالث عشر لمحمود شكرى الألوسى (طبع بغداد) ص ٦٠ .

(٢) راجعه فى تاريخ الأدب العربى فى العراق للعزاوى ٣٨/٢ .

(٣) العزاوى ٥٧/٢ وماضى النجف وحاضرها ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩ .

(٤) انظر فى الشهاب أعلام العراق لمحمد بهجت الأثرى والآداب العربية فى القرن التاسع عشر لشيخو ٨٩/١ ونهضة العراق لمحمد مهدى البصير ٢١٩ ومقدمة تفسيره والعزاوى ٥٢/٢ وفى مواضع مختلفة .

(٥) العزاوى ٥٨/٢ .

(٦) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الترجمة العربية) ١٦٠/٥ وقد نشر ماسينيون كتابه فى القاهرة سنة ١٩١١ .

(٧) انظر ترجمته فى إنباه الرواة ٣٣٥/٣ ومعجم الأدباء ٢٠٥/١٩ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ٢٤٤/١ وابن خلكان ٣٤٢/٥ ومرآة الجنان ٢٧١/٣ وبغية الوعاة وشذرات الذهب ١٢٧/٤ .

وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية ، ولم يؤلف فى موضوعه أكبر منه ، وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجرى [١] هبة الله بن على المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام ، وهو مطبوع فى حيدر آباد ، وله كتاب الأمالى وهو أيضاً مطبوع فى حيدر آباد ، وهو أكثر تآليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون [٢] ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو فى الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنّف على بن أبى الفرج البصرى فى القرن السابع الهجرى الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأُعدّتْ للطبع . .

ولعل نشاط بغداد فى النحو لهذا العصر كان أكبر من نشاطها فى اللغة ، فقد استحدثت فيه المذهب النحوى البغدادى على نحو ماصورنا ذلك فى كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصرى والكوفى آراءهم ، ويضيفون إلى ماينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوى بغدادى نلقاه فى القرن الرابع الهجرى هو ابن جنى [٣] المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيما ، فصنع فيه شرحا نفيسا لكتاب التصريف للمازنى سماه المنصف ، وهو فى ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحا وافيا ، وأضاف إليها كثيرا من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضا فى الصرف كتاب التصريف الملوكى ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء ، وفيه وضع للصرف قضاياه الكلية ، وذكر فيه ماأسماه الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هى أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك فى معنى واحد ، فكلمة قول . ومتقلباتها : قلو ، ووقل ، وولق ، ولقو ، ولوق ، جميعها تفيد أوتعنى الخفة والحركة . وبجانب وَضْعه لأصول علم الصرف نراه فى النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعا ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعته لأستاذه

(١) انظره فى نزهة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدباء ١٩ / ٢٨٢ وإنباه الرواة ٣ / ٣٥٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٦ / ٤٥ ومرآة الجنان ٣ / ٢٧٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٣٢ .

(٢) انظر بركلمان ٥ / ١٦٩ .

(٣) انظر فى ترجمة ابن جنى نزهة الألبا ص ٣٣٢ وتاريخ بغداد ١١ / ٣١١ ومعجم الأدباء ١٢ / ٨١ وإنباه الرواة ٢ / ٣٣٥ وابن خلكان ٣ / ٢٤٦ ويتيمة الدهر ١ / ١٠٨ ومرآة الجنان ٢ / ٤٤٥ والشذرات ٣ / ١٤٠ وروضات الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

أبى على الفارسى ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهبه النحوى ، وكل ذلك مصوَّر فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيبويه والرمّانى وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنهما لا ينتظمان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعدادهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليلاته وتخريجاته النحوية .

ويُعنَى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، ويشرحه ابن جنى ، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبرى ، ويعنون بشرح اللمع فى النحو لابن جنى ، وممن شرحوه عمر بن ثابت الثمانينى [1] تلميذه ، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومن شراحه العكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنبارى [2] المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تلمذ بدوره لأبى على الفارسى ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عنى بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألّف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان ينتخب آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسى أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء العكبرى [3] الضرير ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبى على الفارسى وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى أبيات الإيضاح » و « تلخيص أبيات الشعر لأبى على الفارسى » وتلخيص التنبيه لابن جنى و « المنتخب من كتاب المحتسب فى

---

(١) راجع فى الثمانينى معجم الأدباء ١٦/٥٧ وابن خلكان ٣/٤٤٣ ونزهة الألباء ص ٣٥٠ ونكت الهميان ص ٢٢٠ والشذرات ٣/٢٦٩ .

(٢) انظر فى ابن الأنبارى إنباه الرواة ٢/١٦٩ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣/١٣٩ والسبكى ٧/١٥٥ ومرآة الجنان ٣/٤٠٨ والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثى (طبع بغداد) ص ٢٠٩ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٨ .

(٣) راجعه فى إنباه الرواة ٢/١١٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣/١٠٠ والشذرات ٥/٦٧ وابن الدبيثى ص ١٤٠ ونكت الهميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٩ .

شواذ القراءات » لابن جنى أيضا ، ومن كتبه « إملاء مامنّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن » . وله كتاب اللباب فى علل البناء والإعراب . وقد حققه بعض الطلاب وأعده للنشر . وله أيضاً إعراب مشكل الحديث . ذيّل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزى . ومن كتبه المسائل الخلافية فى النحو وعُنى بنشره بعض المستشرقين . وقد صورنا فى كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعوّل على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين . ومن نحاة بغداد فى القرن السابع الهجرى عز الدين عبد الوهاب[1] ابن إبراهيم الزنجانى وله كتاب باسم تصريف الزنجانى أوالعزى أومبادىء التصريف ، وقد طارت شهرته فى الآفاق وصُنعت له شروح وحواش كثيرة ، عدّدها بروكلمان فى تاريخه ، ومنها طائفة كبيرة فى دار الكتب المصرية . وقد طُبع فى روما مع ترجمته إلى اللاتينية ، وطُبع فى الآستانة والقاهرة ودلهى بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوى فى لكنو . ومن نحاة القرن السابع أيضا جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أياز[2] البغدادى المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو فى المدرسة المستنصرية ، وله كتاب القواعد فى النحو ، ولاتوجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ فى حياته ، وله أيضا المحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف فى النحو . ومن النحاة المهمين ببغداد بدر الدين[3] الإربلى المتوفى سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية . وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على مغنى اللبيب[4] . ويَكْثُر الشارحون للألفية ولقَطْر ابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشى . ونكتفى بذكر مثال هو إبراهيم الحيدرى المار ذكره فى النشاط اللغوى ، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطى وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجار بردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندى على حاشية عبد الغفور اللارى على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطى[5] .

وكان للنشاط فى الدراسات البلاغية دوره فى العصر ، ومن خير هذه الدراسات كتاب

---

(١) انظره فى بغية الوعاة للسيوطى وفى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/١٧٩ .

(٢) راجعه فى بغيه الوعاة للسيوطى وبروكلمان ٥/١٨٥ والعزاوى ١/١٦١ .

(٣) هدية العارفين ٢/١٣٥ والعزاوى ١/١٧١ .

(٤) المسك الأذفر ص ٦٠ والعزاوى ٢/١٢٨ .

(٥) هدية العارفين ١/٤٢ والعزاوى ٢/١٤٢ .

النكت فى إعجاز القرآن للرمانى[١] شارح كتاب سيبويه ، كما أسلفنا ، وقد توفى سنة ٣٨٤ للهجرة ، ويهمنا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها فى ثلاث طبقات[٢] : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم فى البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هى الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان ، ويفصّل القول فى كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسطاً تفريعاته . وللحاتمى[٣] أبى على محمد بن الحسن البغدادى المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب فى البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيق اعتمادا واسعا فى كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحى والتصدير والتسهيم والترصيع والتوشيح والمماثلة والمبالغة والالتفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلانى الذى ستحدث عنه فى علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » ويهمنا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإرداف ثم المماثلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة ، فالمساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإيغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتتميم ، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك[٤]. وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصناعتين فى كثير من مصطلحاته ، ونلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما فى مجازات القرآن ، والثانى فى المجازات النبوية ، وهو يعرض فى الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقا لترتيبها فى آياتها مبينا مافيها من استعارة أومجاز أوكناية . وبالمثل علّق فى الكتاب الثانى على نحو ثلاثمائة وستين حديثا ، والكتابان بحث تطبيقى عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حرّرت حتى زمنه[٥] .

وعُنيت طائفة من البلاغيين بالكتابة فى بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبى عون المتوفى سنة ٣٢٢ وقد نشره عبد المعيد خان فى سلسلة جب التذكارية

---

(١) انظر فى على بن عيسى الرمانى تاريخ بغداد ١٢/١٦/ومعجم الأدباء ١٤/٧٣ وإنباه الرواة ٢/٢٩٤ والأنساب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ٣/١٠٩ .

(٢) انظر تحليل هذا الكتاب فى كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣ .

(٣) انظر فى الحاتمى تاريخ بغداد ٢/٢١٤ وإنباه الرواة ٣/١٠٣ والأنساب ١٤٨ وابن خلكان ٤/٣٦٢ ومعجم الأدباء ١٨/١٥٤ والوافى بالوفيات ٢/٣٤٣ والشذرات ٣/١٢٩ . واليتيمة ٣/١٠٣

(٤) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .

(٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

بلندن ، وهو فى التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب «الجمان فى تشبيهات القرآن» لابن ناقيا[1] البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ والعناية بالتشبيه قديمة نجدها فى كتابات الجاحظ وابن المعتز[2] . وقد نُشر كتاب الجمان فى دمشق تحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة فى تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير فى القرآن ذكره ، ودائماً يذكر الأشعار التى اقتبسته ، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : «وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معانى القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً» .

ويُعْنَى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة فى الجناس ، مثل شُمَيْم[3] الحِلِّىّ المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس فى التجنيس كما جاء فى معجم الأدباء ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس فى غرر التجنيس .

ولانلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بنى كتابه على مقدمة[4] ومقالتين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعانى والبديع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التى لابد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعانى يتحدث فى أولها عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يُفْهَمَ البيت أفهاما كثيرة . وفى الفصل الثانى يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . ونحس صلته فى هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات ومايداخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

---

(١) راجع فى عبد الله بن محمد بن ناقيا إنباه الرواة ١٣٣/٢ وابن خلكان ٩٨/٣ والجواهر المضية ٢٨٣/١ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ ولسان الميزان ٢٨٤/٣ والخريدة (قسم العراق) ١٤٢/١ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر فى على بن الحسن بن عنتر الملقب بشميم الحلى معجم الأدباء ٥٠/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٣/٢ وبغية الوعاة والشذرات ٥/٤ وميزان الاعتدال ٨٢/٢ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢٨٣/١ وابن خلكان ٣٣٩/٣ .

(٤) راجع فى تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٣ .

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطْنب فى بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا فى وضوح بابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يتأثر به فى حديثه عن صفات الحسن فى الألفاظ المركبة مفصلا القول فى السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم مالايلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . وينتقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسرقات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض ، ولجَّ فى بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاقتباس ، وفتح فصلا للسرقات ، وختم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ونلتقى فى أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب فى علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخى [1] سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القُرَب فى صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفى سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ فى سنة وفاته ولا يُعَرّفُ موطنه ، وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة فى مباحثه . وواضح من عنوان الكتاب [2] أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا فى ذلك ابن الأثير ، وهو يفتح الكتاب ببحث منطقى فى التصور والتصديق وفى القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض فى مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعانى ويبتدئ حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفى والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر فى كل ذلك بابن الأثير فى كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزوينى صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره فى مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته فى بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سنرجىء الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر فى التنوخى بروكلمان ٥/١٨٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة (طبع إستانبول) ١/ ١٣٧ وكتابه نشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٦ .

ونُسهم العراق فى نظم القصائد المعروفة بالبديعيات . وعلى [1] بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه ، فقد نظم قصيدة فى مديح بعض معاصريه وضمَّن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذى يُطْوى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة فى مديح الرسول ﷺ على شاكلة بردة البوصيرى مفتتحاً لها بقوله :

إن جئتَ سَلْعاً فسَلْ عن جيرة العَلَمِ واقْرَ السلامَ على عُرْبٍ بذِى سَلَمِ

وهى مائة وخمسة وأربعون بيتا من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسنا من محسنات البديع ، وهى تضم نحو مائة وخمسين محسنا ، إذ جعل للجناس فيها اثنى عشر لونا صورها فى الأبيات الخمسة الأولى ، وواضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَم وسلم . وقدسماها الكافية البديعية فى المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية . ويذكر فى مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتابا قبل تأليفه لبديعيته وأنه زاد على ماقرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صفى الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة ، ويستمر العلماء فى صنع هذه التلخيصات والشروح لافى أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً فى زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب فى الاستعارة ولمحمد أمين الخطيب العمرى بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدرى كتاب فى البديع ولشهاب الدين الألوسى أبى الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عصام .

وإذا تركنا النشاط البلاغى إلى النشاط النقدى وجدناه على أتمه فى مطالع هذا العصر ، وأول مايلقانا منه كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى [2] الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب [3] بالحديث عن مذهبين مختلفين فى فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبى تمام أصحاب المعانى والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحترى الذين يتمسكون بعمود الشعر العربى

---

(١) انظر فى ترجمة على بن عثمان كتاب فوات الوفيات (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٢/١١٨ والنجوم الزاهرة ٧/٢٣٦ .

(٢) انظر فى الآمدى معجم الأدباء ٨/٧٥ وإنباه الرواة ١/٢٨٥ وما به من مراجع وروضيات الجنات ٢١٩ .

(٣) راجع فى تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٨ .

وتقاليده مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه . ويمضى الآمدى فيصور جدلا بين أصحاب المذهبين فى فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أبى تمام وردود أصحاب البحترى عليهم ، ومن أطرف ما احتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدى بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائهما ، وهو يتحيز فى الموازنة للبحترى تحيزاً واضحا .

وكان يعاصره المرزبانى [1] محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراسانى الأصل بغدادى المولد والموطن ، وله كتاب الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لنقد اللغويين من القرن الثانى حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث ، متخللا ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقيه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبى نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبى تمام ، وقد دوّن فيه رسالة ابن المعتز فى بيان محاسن شعر أبى تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطربُلى المتوفى سنة ٣١٩ فى رسالته التى كتبها فى أخطاء أبى تمام ، وكذلك الآمدى فى موازنته السالفة . وقد رأينا أن هذه الرسالة هى التى دفعت الصولى للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبى تمام . وحينما يتحدث الآمدى عن أنصار أبى تمام إنما يريده . ونلتقى بناقد مهم للمتنبى سبق أن عرضنا له فى حديثنا عن النشاط البلاغى وهو أبو على الحاتمى البغدادى الذى تصدى للشاعر الكبير ينقده نقدا مجحفا فى كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيرا من حِكَمه إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبى على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفى الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمى فيه رسالة ثانية أو كتاب ثان هو الموضحة [2] وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبى ، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبى حين لقيه ، ويصور فى الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت فى عدة مجالس ، كان أولها فى الدار التى نزل فيها المتنبى ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمى الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيّد فيه ، وهو

---

(١) انظر فى المرزبانى تاريخ بغداد ٣/١٣٥ ومعجم الأدباء ١٨/٢٦٨ وابن خلكان ٤/٣٥٤ والشذرات ٣/١١١ وميزان الاعتدال ٣/٦٧٢ والوافى بالوفيات ٤/٢٣ وعبر الذهبى ٣/٢٧ ولسان الميزان ٥/٢٣٦ .

(٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره فى بيروت .

يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحتري . والتجني على المتنبي واضح في الكتاب ، فلم يكن يمسك في يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه في كتبهم ودراساتهم . ويُشْغَل كثيرون بالمتنبي في جميع البلدان العربية ، وسنرى في إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا في العراق ابن الدهان [1] سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة في سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أبي تمام الطائي ، وعُنِي ببيان سرقاته من البحتري الطائي أيضاً ، ولذلك قد تسمى في بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ، عنى فيها بالرد على ابن الدهان في مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبي تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبي تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان في مبحثه ، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبي تمام مثلما أخذ ، وأنه قد يَعُدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، وبتأمله يلاحَظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبي تمام والبحتري أبياتاً ليست لهم ، وأنه أطال مقدمة كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير في الكتاب – شأنه في كتاب المثل السائر – نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبي الحديد رسالة في نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهي إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أي نقد آخر ، ورد عليه كثيرون متصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجاري المتوفى سنة ٦٤٠ في كتابه « نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر » .

ولصفي الدين الحلي المار ذكره في البديعيات كتاب نفيس في الأشعار العامية الشعبية سماه « العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي » عرض فيه فنون الشعر العامي من الزجل والمواليا والقوما والكان وكان موضحا نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها ومايجوز فيها وما لايجوز . ويلاحِظ أنه سبقت الأزجال في الأندلس قصائدُ عامية ذات قافية واحدة

---

(١) انظر في ابن الدهان معجم الأدباء ١١/٢١٩ خلكان ٢/٣٨٢ والشذرات ٤/٢٢٣ . ونكت الهميان ص ١٥٨ وإنباه الرواة ٢/٤٧ وابن

كقصائد « الشعر الفصيح » كانت تسمى بالقصائد الزجلية ، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافى على شاكلة الموشح . وهو يقوم فى ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصرى فى ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض صفى الدين الحلى لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوى ذاهبا إلى أنه لما قلد الأندلسيين فى موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر فى نظمه استخدام اللفظ العامى ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة — فى رأيه — من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردَّها الصفدى فى شرحه للامية العجم الذى سماه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم فى النقد بالعراق بعد كتاب العاطل الحالى ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى نشاط العراق فى روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هى قراءات الأئمة : نافع فى المدينة وعبد الله ابن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، وشاعت فى العالم الإسلامى إلى اليوم مدوَّنة بكتابه السبعة الذى مضى العلماء منذ عصره يتدارسونه[1] وألَّف كتابا ثانيا فى شواذ القراءات عنى بالتعليق عليه ابن جنى مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تقل عن القراءات السبع التى دوَّنها بكتابه قراءة أبى جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمى البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادى المتوفى سنة ٢٢٩ . وبضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشرا وتؤلف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هى قراءة ابن مُحَيْصِن المكى معاصر ابن كثير وقراءة الأعمش الكوفى وقراءة اليزيدى البصرى تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصرى . وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة . وتنشط العراق فى التأليف فيها ، تارة يؤلف العلماء فى السبع وتارة يؤلفون فى العشر أو فى الأربع عشرة . فمن ذلك كتاب الجامع فى القراءات العشر لعلى بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادى فى إحدى عشرة قراءة وقد توفى

---

(١) حققتْ ونشرت فى دار المعارف هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد فى القراءات العشر لأبى نصر البغدادى المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار فى القراءات العشر لابن شيطا البغدادى المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن على بن سوار البغدادى المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا فى القراءات العشر وكتاب المهذب فى القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الخياط البغدادى المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد فى العشر للواسطى المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح فى القراءات العشر لابن خيرون البغدادى المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج فى القراءات الثمان لسبط الخياط البغدادى المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية فى القراءات الست ، وكتاب المصباح فى القراءات العشر لأبى الكرم البغدادى المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكنز فى القراءات العشر لأبى محمد عبد الله الواسطى المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهى قصيدة فى القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورويها ، وكذلك لمعاصره أبى الحسن على الديوانى الواسطى المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة مماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزرى فى كتابه «النشر»[1] فى القراءات العشر» وترجم لأصحابها فى كتابه غاية النهاية فى طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط فى التفسير الفقهى والاعتزالى والسنى والشيعى ، وقلما عنيت بالتفسير الصوفى ، وكأنما تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبى عبد الرحمن السلمى والقشيرى ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربى . وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهى ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص[2] أحمد بن على المتوفى سنة ٣٧٠ فى كتابه أحكام القرآن ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيا[3] الهرّاسى المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إيرانى ، ولكنهما نزلا بغداد ، واستقرا فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم . ثم أصبح مدرسا للفقه الحنفى وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفى فيها . وأما الكيا الهراسى فقد درس فى نيسابور وعلم فى إحدى قراها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد حتى توفى ، وكان فى خدمته بها الشاعر الغزّى المشهور . وأُلفت فى أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين . وقد ذكرنا فى العصر

---

(١) انظر فى الكتب السالفة وأصحابها النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (طبع القاهرة) ٧٤/١ - ٩٥

(٢) راجع فى ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية ٨٤/١ وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا رقم ١١ وبستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوى ١٢٦ و«النجوم الزاهرة» ١٣٨/٤ والفوائد البهية ص ٢٧

(٣) انظر فى الكيا الهراسى المنتظم ١٦٧/٩ وتبيين كذب المفترى ٢٨٨ والسبكى ٢٣١/٧ وعبر الذهبى ٨/٤ والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٢٨٦/٣

العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، ويستمر نشاط المعتزلة في تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة في أوائله ، ويلقانا فيه تفسير لعلي بن عيسى الرماني المعتزلي ، ومر بنا أنه توفي سنة ٣٨٤ وكان يقول : تفسيري بستان يُجتنَى منه ما يشتهى . وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيرا ؟ فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئا[١] ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه»[٢]. ومن هذا الاتجاه الاعتزالي كتاب التفسير الكبير لعبد السلام[٣] بن محمد القزويني نزيل بغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعاني إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات في سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفا في مشهد أبي حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف في تفسير القرآن .

ويظل التفسير السني مزدهرا بعد تفسير الطبري الذي عرضنا له في العصر العباسي الثاني ، ومن التفسيرات السنية المهمة في العصر تفسير النقاش[٤] البغدادي محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير ، وقد سمى تفسيره شفاء الصدور ، وطوّف من مصر إلى ما وراء النهر في لقاء المشايخ ولكنهم ضعّفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبله . ولأبي الحسن الماوردي إمام الشافعية في عصره المتوفى كما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير . ويلقانا تفسير سني لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو لأحمد[٥] بن محمد الغزالي أخي الإمام الغزالي مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠. واشتهر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذي سماه «زاد المسير في علم التفسير» . ومن أصحاب التفاسير السنية الرَّسْعَني[٦] عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطي : «صنف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيده» . ومنهم علاء الدين علي بن محمد البغدادي صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن[٧] المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو مليء

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١١٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٨/٤

(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٥ وتذكرة الحفاظ ٨/٤ ولسان الميزان ١١/٤ والسبكي ١٢١/٥ والشذرات ٣٨٥/٣ .

(٤) راجعه في تاريخ بغداد ٢٠١/٢ ومعجم الأدباء ١٤٦/١٨ وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) ١١٥/٣ وطبقات القراء لابن الجزري ١١٩/٢ وميزان الاعتدال ٥٢١/٣ وابن خلكان ٢٩٨/٤ والسبكي ١٤٥/٣ .

(٥) انظره في المنتظم ٢٦٠/٩ وميزان الاعتدال ١٥٠/١ وابن خلكان ٩٧/١ والسبكي ٦٠/٦ والشذرات ٦٠/٤ ومرآة الجنان ٢٢٤/٣ ولسان الميزان ٢٩٣/١ .

(٦) راجعه في طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٥٦

(٧) انظره في طبقات المفسرين للداودي والدرر الكامنة ١٧١/٣

بالإسرائيليات . ومن خير التفاسير السنية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه فى القرن الماضى ، وهو كتاب «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى» لشهاب الدين محمود الألوسى الذى مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م ، وهو يعنى فى تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحديث النبوى ، ويُعنَى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير فى القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى ، وهو يخوض مثل الفخر فى مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عُنى عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى فى تفسيره ، وخاصة فى مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد فى مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يثيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى فى تفسيره . ومع أنه كان حنفياً ، والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية ، نراه فى تفسيره أشعريا، وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى فى نصرته للمذهب الأشعرى . ويذكر ابن عربى مراراً فى تفسيره ، ويتضح تأثره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه فى كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغلغل فى معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْر مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتمادى فيها ، وكان حرياً أن يخلى تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تامًّا .

وقد ذكرنا فى العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر فى ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقا لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى [1] على بن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو فى جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وبتفسيره الذى سماه «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» وقد نشر منه فى بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين : أولهما البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل ، وهو احتكام وصَلَ تفسيرَه بتفاسير المعتزلة ،

---

(١) انظره فى طبقات المفسرين للداودى ٣٨٥/١ مطبوع بالنجف . والذريعة إلى تصانيف الشيعة لأغابزرك ٣٠٢/٤ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة ، وتتردد فى التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبى على الجبّائى وعلى بن عيسى الرمّانى والقاضى عبد الجبار . واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى[1] فى كتابه « الأمالى » إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤولها على طريقة المعتزلة ، وفى الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعِدّان للتفسير بالرأى والعقل فى بيئة الإمامية ، واستضاء بعملها فى هذا الاتجاه الطوسى[2] أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفى سنة ٤٦٠ واشتهر بتفسير للذكر الحكيم سماه « التبيان فى تفسير القرآن » وهو مطبوع بالنجف فى عشرة أجزاء ، وقد عُنى فى تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى فى تفسيره عن الصحابة من أمثال أبى بكر الصديق وعمر . وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبى ، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة فى عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبرى السنى هادياً له فى تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالى لابن بابويه القمى وأمالى ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة . وعلى ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضى عُنى بالتفسير العقلى وفسح للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلص فى تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها فى مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم فى الإمام وأنه معصوم وحجة الله فى أرضه وصاحب علم باطنى متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطَّبْرِسى فى تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبحفّاظه طوال هذا العصر ، وأول من نلقاه من أعلامه البزّاز محمد[3] بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالى فى الحديث وهى مجموعة يمتاز سندها بقلة رواته ، وكان يعاصره الآجرى[4] أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

---

(١) راجع فى الشريف المرتضى تاريخ بغداد ٤٠٢/١٢ وتتمة اليتيمة ٥٣/١ وابن خلكان ٣١٣/٣ ومعجم الأدباء ١٤٦/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٩/٢ وما به من مراجع

(٢) انظر فى الطوسى المنتظم ٢٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ٨٢/٥ ولسان الميزان ١٣٥/٥ وروضات الجنات ٥٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظره فى تذكرة الحفاظ ٩٦/٣ وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٢١ . وبروكلمان ٣ ٢٠٧ .

(٤) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد ٢٠٣/٢ والسبكى ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩٢/٤ والشذرات ٣٥/٣ والمنتظم ٥٥/٧ والوافى ٣٧٣/٢ .

ويخلفها الدارقُطْنى (١) على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دار قطن . وله كتاب «السنن» وقد نُشر قديماً فى دلهى ، واشتهر الدارقطنى بأنه تعقب فى كتابه الاستدراكات وجوه الضعف فى بعض أحاديث رواها الشيخان : البخارى ومسلم . وله كتاب فى الضعفاء والمتروكين من الرواة «وكتاب فى العلل ، وآخر فى غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذى (٢) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب فى رجال البخارى ، وجاء بعده اللالكائى (٣) هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب فى رجال الصحيحين وكتاب فى السنن ، وكان يعاصره البَرْقانى (٤) أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة فى الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخارى ومسلم . ثم يلقانا الخطيب (٥) البغدادى أحمد بن على بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان فى وقته حافظ المشرق الذى لا يدافَع ، وله مصنفات كثيرة فى الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونوه . وكان يعاصره ابن ماكولا (٦) المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشتبهة فى أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هو فى غاية الإفادة فى رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان . ومن محدِّثى القرن السادس ابن الجوزى عبد الرحمن ابن على المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات فى الحديث من أهمها كتابه «الموضوعات» فى أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعة . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن (٧) الأثير الجزرى الموصلى المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول فى أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية فى

---

(١) انظره فى تاريخ بغداد ٣٤/١٢ والمنتظم ١٨٣/٧ أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ٥٥٨/١ والسبكى ٤٦٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٨٦/٣ وابن خلكان ٢٩٧/٣ وعبر الذهبى ٢٨/٣ واللباب ٤٠٤/١ .

(٢) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢١٦/٣ وتاريخ بغداد ٤٣٤/٤ وبروكلمان ٢٢٨/٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٢٦٧/٣ وتاريخ بغداد ٧٠/١٤

(٤) تذكرة الحفاظ ٢٥٩/٣ وتاريخ بغداد ٣٧٣/٤ والسبكى ٤٧/٤ والمنتظم ٧٩/٨ .

(٥) انظره فى تذكرة الحفاظ ٣١٢/٣ وتهذيب ابن عساكر ٣٩٨/١ ومعجم الأدباء ١٣/٤ والمنتظم ٢٦٥/٨ والعبر ٢٥٣/٣ والشذرات ٣١١/٣ والسبكى ٢٩/٤ وابن خلكان ٩٢/١ وكتاب الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد ومحدثها ليوسف العش .

(٦) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١/٤ والمنتظم ٥/٩ ومعجم الأدباء ١٠٢/١٥ وابن خلكان ٣٠٥/٣ وعبر الذهبى ٣١٧/٣ والشذرات ٣١٨/٢ وفوات الوفيات ١٨٥/٢ .

(٧) انظره فى تذكرة الحفاظ ١٨٥/٤ وابن خلكان ١٤١/٤ ومعجم الأدباء ٧١/١٧ وإنباه الرواة ٢٥٧/٣ ومرآة الجنان ١١/٤ والسبكى ٣٦٦/٨ والعبر ١٩/٥ وروضات الجنات ٥٨٥ .

غريب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة [١] محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا فى مجلدين ، وله كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد . وكان يعاصره ابن الدبيثى وابن النجار وسنعرض لهما فى حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفوطى المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معهما . وجاء بعده صفى الدين الحسين [٢] بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرمانى شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقى الدين [٣] يحيى البغدادى المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيحى البخارى ومسلم .

وحتى الآن لم نعرض لكتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأمالى لابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمالى للمفيد [٤] محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماليه مطبوعة بالنجف ، وهى تشتمل على اثنين وأربعين مجلساً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودائماً كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المطهر [٥] الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحِلّة ، ولازم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية - كما يقول ابن حجر - فمهر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشريعة ، ردّ عليه فيها ابن تيمية وأظهر - كما يقول ابن حجر - أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقه والفقهاء ، وأول مذهب فقهى نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حنفى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القدورى [٦] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

---

(١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٩٧/٤ والعبر ١١٧/٥ وابن خلكان ٣٩٢/٤ والشذرات ١٣٢/٥ .

(٢) انظره فى الدرر الكامنة ١٣٩/٢ والشذرات ١٦٣/١ .

(٣) راجعه فى الضوء اللامع ٢٥/١٠ والعزاوى ٦٧/١

(٤) انظره فى كتاب الرجال للنجاشى ٢٨٣ ومنهج المقال للاسترابادى ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣ وبروكلمان ٣٤٩/٣ .

(٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار الكتب الحديثة) ١٥٨/٢ والعزاوى ١٦٦/١ .

(٦) انظره فى تاريخ بغداد ٣٧٧/٤ وابن خلكان ٧٨/١ والعبر ١٦٤/٣ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر المضية ٩٣/١ والفوائد البهية للكنوى ١٧ وبروكلمان ٢٦٩/٣ .

يدرس إلى اليوم وقد طُبع طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الدبوسى [١] عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر فى الخلاف ، وهو مطبوع فى القاهرة ، ويقال إنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبى يوسف فى عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف فى بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفى فى العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التى بناها المستوفى الخوارزمى فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى للحنفية[٢] عند مشهد الإمام أبى حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى إيواناً فيه المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر[٣] الدين بن الساعاتى المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه فى مجلدين . ومنهم أبوالبركات[٤] النسفى ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصنفات مختلفة فى الفقه الحنفى ، من أهمها الكنز وله شهرة كبيرة فى تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة ونلتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة فى الفقه الحنفى .

وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكى ، وأكثر من كانوا يعتنقون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكيا كبيراً بغداديا أو عراقيا مثل الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائى مالكيا مثله[٥] . وممن وفدوا على العراق أبو العباس المالكى أحمد[٦] بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب فى المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً فى أن يظل حيًّا بالعراق ، ويظل له شيوخه وفقهاؤه .

وكان الفقه الشافعى أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكى والحنفى ، ومن أهم فقهائه أبو[٧] حامد المرّوَرُّوذى أستاذ أبى حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقانا بعده فى بغداد أبو حامد الإسفراينى[٨] المتوفى سنة ٤٠٦ وله فى

---

(١) راجع فى الدبوسى الفوائد البهية ٢٥ والجواهر المضية ٢/٢٥٢ وابن خلكان ٣/٤٨ وتاج التراجم رقم ١٠٧ وبروكلمان ٣/٢٧٣ .

(٢) ابن خلكان ٥/٤١٤ .

(٣) انظره فى تاج التراجم ص ٦ والجواهر المضية ١/٨٠ والفوائد البهية ١٦ . وبروكلمان ٦/٣٥٧ .

(٤) سنذكر مصادر ترجمته فى القسم الخاص بإيران

(٥) السبكى ٣/٣٦٨

(٦) المنتظم ٩/١٧٥

(٧) انظره فى السبكى ٣/١٢ وابن خلكان ١/٦٩ والعبر ٢/٣٢٦ والشذرات ٣/٤٠

(٨) راجعه فى السبكى ٤/٦١ وتاريخ بغداد ٤/٣٦٨ وابن خلكان ١/٧٢ والعبر ٣/٩٢ والشذرات ٣/١٧٨

المذهب التعليقة الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابهى فقهاء المذهب ببغداد المحَامِلى (١) الضَّبِّى المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب فى الفقه الشافعى واختصره أبو زرْعة العراقى المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصرى زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ . ومر بنا حديث عن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درَّس المذهب فى البصرة وبغداد ، وله فى الفقه كتابان هما الحاوى والإقناع ونشر له فى العراق كتاب أدب القاضى فى مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً فى التفسير . ويزدهر المذهب الشافعى فى العراق منذ تأسيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين فى البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة ، وجعل التدريس فيها خاصا بفقهاء الشافعية لا فى الفقه وحده بل فى مختلف العلوم ، وقد أسند تدريس المذهب فى نظامية بغداد لأبى إسحق الشيرازى أحد أئمته المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء فى المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقيا لا فى بغداد وحدها بل أيضاً فى البصرة والموصل ، ويُعْنَى السبكى فى طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية فى العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفى بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشَّهْرزورى (٢) قاضى القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فَضْلان (٣) محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس (٤) الموصلى عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ ، وله التعجيز : مختصر الوجيز والنبيه فى اختصار التنبيه ومختصر المحصول فى أصول الفقه . ويقول السبكى : «كان آية فى القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته فى الفقه كتاب سماه «نهاية النفاسة» قلَّ أن رأيت مثله فى عذوبة منطقه وكثرة المعنى وصغر الحجم ، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدورى» أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعى ناشطا فى العراق بفضل مدارسه وفقهائه . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية فى ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلى كان أكثر المذاهب الفقهية أشياعاً وأنصاراً فى بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل ، وقد جعله موقفه من الدولة فى إنكار الفكرة القائلة

---

(١) انظره فى السبكى ٤/٤٨ والربيع ببغداد ٣٧٢/٤ والعبر ١١٩/٣ والمنتظم ١٧/٨ وابن خلكان ٧٤/١ والشذرات ٢٠٢/٣ .

(٢) راجعه فى السبكى ١٨٥/٦ والعبر ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١١٢/٦

(٣) انظره فى السبكى ١٠٧/٨ والشذرات ١٤٦/٥ والعبر ١٢٦/٥

(٤) راجعه فى السبكى ١٩١/٨ والشذرات ٣٣٢/٥ ومرآة الجنان ١٧١/٤ وذيل مرآة الزمان ١٤/٣ .

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبيا ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكفى أن نمثل بطائفة من فقهائه ، وممن يلقانا منهم فى مطالع العصر ابن [١] بطة عبيد الله بن محمد العكبرى المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن نابهيهم فى القرن الخامس الشريف أبو [٢] جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة فى عصره ، وله رءوس المسائل وشرح المذهب ، وجزء فى أدب الفقه . ومنهم فى القرن السادس أبو الخطاب محفوظ [٣] الكلواذانى المتوفى سنة ٥١٠ هـ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية فى الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار فى المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل ، وكان يعاصره يحيى [٤] بن منده المتوفى سنة ٥١٢ هـ صنّف مناقب الإمام أحمد بن حنبل فى مجلد كبير ، وكان يعاصرهما أبو [٥] الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ هـ ، وله فى الفقه الحنبلى كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتى ، فى عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جدًّا ، يقال إنه كان فى مائتى مجلد ، وهو فى الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالسه ، وقال الحافظ الذهبى فى تاريخه : لم يصنّف فى الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبى يَعْلَى الفرّاء [٦] المتوفى سنة ٥٢٦ هـ وله تصانيف كثيرة فى الفقه والأصول ، منها المجموع فى الفقه ، ورءوس المسائل ، والمفردات فى الفقه ، وأيضاً المفردات فى أصول الفقه . ونلتقى فى أواخر القرن السادس بعلم حنبلى كبير هو ابن الجوزى . وظل الفقه الحنبلى مزدهراً فى العراق طوال العصر ، ومن فقهائه ابن [٧] البرزالى الحنبلى المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفى [٨] الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه فى المستنصرية ، وممن درسوا فيها ابن العاقولى [٩] محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . وبجانب هذه المدرسة كان

---

(١) انظره فى تاريخ بغداد ٣٧١/١٠ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٤٦ .

(٢) راجعه فى ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسى بدمشق) ٢٠/١

(٣) انظره فى ابن رجب ١٤٣/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٥

(٤) راجعه فى ابن رجب ١ / ١٥٤ وابن خلكان ٦ / ١٦٨ والشذرات ٤ / ٣٢ والعبر ٤ / ٢٥ ومرآة الجنان ٢٠٢/٣ .

(٥) انظره فى ابن رجب ١ / ١٧١ والنجوم الزاهرة ٢١٩/٥ .

(٦) راجعه فى ابن رجب ١ / ٢١٢ .

(٧) الدرر الكامنة ٣/٥ والشذرات ١١١/٦ .

(٨) ذكر ابن حجر فى الدرر الكامنة ٣٢/٣ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة وقال : أخذ عنه عمر بن على معيد الحنابلة

(٩) انظره فى الشذرات ٣٥١/٦ والدرر الكامنة ٣١٤/٤ وراجع ابن حجر فى إنباء الغمر بأبناء العمر (طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١ / ٥٠٤ حيث يقول إنه انتهت إليه رياسة المذهب الحنبلى ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً .

كثير من الحنابلة يدرسون فى جامع المنصور وفى بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهرى فى الفقه الذى تحدثنا عنه فى العصر العباسى الثانى لا يزال له أنصار فى القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأى فى الفقه ، وتبعه كثيرون فى المائتين الرابعة والخامسة فى الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إذاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرته ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدى[١] محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا نزال نسمع فى العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهرى حتى أوائل القرن السابع الهجرى ، إذ نجد من معتنقيه أبا سليمان[٢] الداودى الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبرى مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهيا يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهرى ، ومع ذلك نجد من أتباعه فى أواخر القرن الرابع الهجرى المعافى[٣] بن زكريا النهروانى المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان فى ترجمته : إنه كان للطبرى أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعافى المذكور . وعلى كل حال لم يعش هذا المذهب الفقهى طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهرى فى بغداد ، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل .

وكان الفقه الشيعى يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهان : فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول فى القرن الرابع الهجرى ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع[٤] الكافى فى فقه الزيدية لأبى عبد الله محمد بن على الحسنى المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدى هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذ استغرق الكوفةَ وبغداد المذهبُ الإمامى عند الشيعة ، وكأن نشاط الفقه الزيدى انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامى فيأخذ فى النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكلينى[٥] الرازى محمد بن يعقوب كتابه الكافى فى علم الدين ، وقد توفى ببغداد

---

(١) انظره فى ابن خلكان ٢٨٢/٤ وتذكرة الحفاظ ١٧/٤ والمنتظم ٩٦/٩ والصلة لابن بشكوال (طبع القاهرة) ٥٣٠ والوافى ٣١٧/٤ .

(٢) راجعه فى طبقات القراء ٢٧٨/١ .

(٣) انظره فى ابن خلكان ٥ /٢٢١ وما به من مراجع

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (طبع دار المعارف) ٣٣٤/٣

(٥) راجعه فى الأنساب ٤٨٦ والرجال للنجاشى ٢٦٦ وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤة البحرين ليوسف البحرانى ٣١٤ وبروكلمان ٣٣٩/٣

سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن [١] بابويه القمي نزيل بغداد الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه فى تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقنعة فى أسس التشريع ، وهى مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسى فى تبريز . وللطوسى كما مر بنا فى الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهى ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً فى استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية ، وأحاديثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه فى الفقه « المبسوط » وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية فى مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذه الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله فى العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله فى عشرة أبواب ، وزاد عليه فى القرن الثامن المطهر الحلى المار ذكره بابا سماه الباب الحادى عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلى .

ومرّ بنا فى العصر العباسى الثانى حديث مفصل عن الاعتزال وأئمته وانبثاق مذهب الأشعرى منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه فى هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية فى خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامى يعتنقونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أخص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية فى بغداد ، أما فى خراسان فقد اعتنقت كثرتهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدى السمرقندى المتوفى سنة ٣٣٣ وهو يقترب فى عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعرى معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار فى خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعرى يقول – كما مربنا فى كتاب العصر العباسى الثانى – إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريدها والله يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعرى فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدى ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعرى . ويروى السبكى أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشبيه [٢] أخذًا

---

(١) انظره عند النجاشى ٢٧٦ وفى لؤلؤة البحرين ٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وبروكلمان ٣/٣٤٣ وما به من مراجع

(٢) السبكى ٣/٣٦٥ - ٣٧٤ وما بعدها .

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشرى ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلانى [١] محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحجة والبرهنة على آرائه [٢] ، ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتمهيد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسَبّغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسَبّغ عليه ووافقه الباقلانى [٣] . وكان الأشعرى كما مر بنا آنفاً ينفى الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً ، بينما كان الماتريدى يجعله اختياراً ، ويفهم من كلام الباقلانى أنه يأخذ برأى الماتريدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكى : «ولإمام الحرمين والغزالى فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلانى والأشعرى ويدنو كل الدنو من الاعتزال» أو بعبارة أدق من رأى الماتريدى [٤] . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لابد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلانى ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : «يجب شكر المنعم عقلاً» [٥] إذ كان ينبغى أن يقولوا : يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويكفى أن نعد منهم أبا حامد الإسفراينى وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالى ، وعدَّ منهم السبكى فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى [٦] . وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة فى

---

(١) وانظر فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ وابن خلكان ٤/٢٦٩ والأنساب للسمعانى ٦١ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢١٧ والمنتظم ٧/٢٦٥ والوافى ٣/١٧٧ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧ والشذرات ٣/١٦٨ وترجمة القاضى عياض له الملحقة بكتابه «التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة» تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) مما كان يذهب إليه الباقلانى إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن خلدون : فصل علم الكلام) وانظر فى بقية آراء الباقلانى الملل والنحل للشهرستانى : الفصل الخاص بالأشعرية .

(٣) السبكى ٣ / ٣٨٤ .

(٤) السبكى ٣/٣٨٦ وانظر الملل والنحل للشهرستانى (تحقيق محمد سيد كيلانى نشر مكتبة مصطفى الحلبى) ٩٧/١

(٥) السبكى ٣/٢٠٢

(٦) السبكى ٣/٣٦٨ ومابعدها

عقيدتهم السنية ، وهى منبثة فى تراجم فقهائهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومرَّ بنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله إيضاح الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشيعة مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى – كما أسلفنا – كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتابا الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسى .

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو نبير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ما هو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وسنقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو[1] شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذيل له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم لابن[2] الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يبتدئ بأول الخليفة حتى آخر أيام المستضىء بالله العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم مَنْ قضى نحبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يُعنَى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها السياسى والاجتماعى تصوراً بيّناً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز[3] الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المنتظم ٩/٩٠ والخريدة قسم العراق ١/٧٧ والوافى ٣/٣ والسبكى ٤/١٣٦ وابن خلكان ٥/١٣٤ .

(٢) ترجم ابن الجوزى لنفسه فى سياق رسالة نصح فيها ابنه سماها : « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى مطبوعة ، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب وابن خلكان ٣/١٤٠ والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٩٧ والشذرات ٤/٣٢٩ وغير الذهبى ٤/٢٩٧ وكتابنا الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٣) راجعه فى ابن خلكان ٣/٣٤٨ وغير الذهبى ٥/١٢٠ والشذرات ٥/١٣٧ والسبكى ٨/٢٩٩ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨١ .

ابن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب فى التاريخ الإسلامى حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسْهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجرَّده من السند ، ودعاه ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد فى تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسِّه التاريخى الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدَّى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامى ، بل خدمة رائعة. وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهومطبوع . وخلفه سبط [1] ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» وهو كتاب ضخم كان يقع فى أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لمناكير الأخبار ، ويقول الذهبى إنه يترفض فى تاريخه وقد نشر منه بحيدر آباد قسمان من الجزء الثامن طُبعا بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبرى [2] المتوفى سنة ٦٨٥ كتبه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى [3] المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة فى السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى فى أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى فى تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنِى على السجع ، وبذلك سنَّ مؤلفه أبو إسحق الصابئ المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بالتحليل التاريخى كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده العماد الأصبهانى كتاباً فى تاريخ السلاجقة يسميه نُصْرة الفطرة وسنترجم له فى مصر . ويعنى ابن الساعى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدولة العباسية ويؤلف فى ذلك تاريخاً جامعا ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشر له الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه « نساء الخلفاء » ويمكن أن نلحق بهذه

(١) انظره فى ابن خلكان فى ترجمة جده ٣ / ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٩ والشذرات ٥ / ٢٦٦ والجواهر المضية ٢ / ٢٣٠ والفوائد البهية ٩٦ .

(٢) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه فى بيروت وبروكلمان ٦ / ١٤٩ .

(٣) انظر فيه الغزاوى ١ / ٢٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر .

الكتب الخاصة بالتاريخ السياسى كتاب الوزراء لهلال[١] بن المحسن الصابىء المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طُبعت منه قطعة فى مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر ، وهى حافلة بالأخبار السياسية والأجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسى ترجمة بهاء[٢] الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حِطّين وقد سماها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو موصلى تعلم فى بغداد وعين معيداً بها فى المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء فى بعض مدن الشام حتى توفى سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وعُنى بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها فى مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولابن النجار[٣] المؤرخ المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه فى ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدمياطى باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفى دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن[٤] الدُّبيثى المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعانى ترجم فيه للمتوفّين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبى انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثى نشر منه الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد . ولابن المستوفى المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبى تاريخ إربل .

وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزرى المار ذكّره ، وهو معجم أبجدى لتراجمهم ، وهو مطبوع فى خمسة مجلدات . وله كتاب اللبـــاب مختصر كتاب الأنساب للسمعانى وهو مطبوع . وألف الدارقطنى كتاباً سماه « المختلف والمؤتلف » وقد جمع بينه الخطيب البغدادى

---

(١) راجعه فى تاريخ بغداد ١٤ / ٧٦ والمنتظم ٨/ ١٧٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٩٤ وابن خلكان ٦/ ١٠١ .

(٢) انظره فى ابن خلكان ٧/ ٨٤ وعبر الذهبى ٥/ ١٣٢ ومرآة الجنان ٤/ ٨٢ والشذرات ٥/ ١٥٨ والسبكى ٨/ ٣٦٠ .

(٣) راجعه فى تذكرة الحفاظ ٤/ ٢١٢ ومعجم الأدباء ١٩/ ٤٩ والشذرات ٥/ ٢٢٦ والسبكى ٨/ ٩٨ والفوات ٢/ ٥٢٢

(٤) انظره فى ابن خلكان ٤/ ٣٩٤ وعبر الذهبى ٥/ ١٥٤ والسبكى ٨/ ٦١ والوافى ٣/ ١٠٢ وطبقات القراء ٢/ ١٤٥ والشذرات ٥/ ١٨٥ ومرآة الجنان ٤/ ٩٥ .

وبين مشتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليهما وسمى كتابه « المؤتنف تكملة المختلف » . ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا – كما مر بنا – وزاد على هذا الكتاب زيادات فى كتاب مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلاً لم يقصّر فيه . ولابن النجار كتب مختلفة فى الرجال ، منها : المؤتلف والمختلف ، والمتفق والمفترق فى نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنّة الناظرين فى معرفة التابعين . وللزين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبى فى الرجال .

وهناك كتب كثيرة وُضعت فى تراجم العلماء والأدباء من كل صنف . ومن الكتب الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع ، ونتحدث الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع فى الفقهاء بعامة مثل كتاب أبى إسحق الشيرازى أول المدرسين فى نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم فى كتابه إلى فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهرى . وأول من وضع كتاباً فى طبقات الشافعية أبو حفص عمر المطوعى المتوفى سنة ٤٤٠ سماه « المُذْهب فى فقهاء المذهب » ، ووضع فيهم أبو النجيب السهروردى البغدادى المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيهم إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش [1] الموصلى المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر السبكى فى طبقات الشافعية . واهتم الحنابلة بالكتابة فى تراجم فقهائهم ، من ذلك كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى الفراء الذى مرّ ذكره ، ووضع له ابن رجب [2] البغدادى ذيلاً طويلاً فى مجلدين ، وقد توفى سنة ٧٩٥ . وعُنى الشيعة بالكتابة فى رجالهم ، وكتاب الرجال للنجاشى أحمد بن على المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

ووضع أحمد بن بختيار الواسطى المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً [3] فى القضاة . ومما وضع فى اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى وكتاب نزهة الألباء لابن الأنبارى وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى المار ذكره وهو فى تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له فى طهران حققه الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان وأطبائهم وقسم خاص بالمشتغلين بالفلسفة فى الإسلام ، وهو كتاب نفيس .

ووُضعت فى الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء

---

(١) انظره فى السبكى ٨/١٣١ والشذرات ٥/٢٦٧ والعبر ٥/٢٢١

(٢) راجعه فى الدرر لابن حجر ٢/٤٢٨

(٣) انظره فى معجم الأدباء ٢/٢٣١ والسبكى ٦/١٤

للآمدى المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمرزبانى معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالى [١] الحظيرى المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً فى الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزى ويتيمة الدهر للثعالبى سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر فى ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده العماد الأصبهانى دائرة معارف كبرى فى شعراء العالم العربى سماها خريدة القصر وجريدة العصر . ويشتهر ابن الجوزى بكتابه فى الصوفية « صفة الصفوة » وهو مطبوع فى أربع مجلدات وله كتاب فى الأذكياء وكتاب فى الظرفاء وكتاب فى أخبار المغفلين . ولياقوت الحموى البغدادى المار ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع فى عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار [٢] الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب فى شعراء القرن السابع سماه « عقود الجمان فى شعراء الزمان » . ولابن الفُوَطىّ المار ذكره [٣] المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة فى شعراء المائة السابعة ، وله معجم رتّبه حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ – ٤) ونشر القاسمى فى لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن [٤] خلكان الموصلى المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه « وفيات الأعيان » وهو غاية فى الدقة والتحرى .

---

(١) راجعه فى معجم الأدباء ١١/١٩٤ وابن خلكان ٢/٣٦٦ وخريدة القصر (قسم العراق) ٤/١/٢٨ .

(٢) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

(٣) انظره فى تذكرة الحفاظ ٤ / ٢٧٤ والدرر الكامنة ٢ / ٤٧٤ .

(٤) انظر فى ابن خلكان العبر ٥ / ٣٣٤ وفوات الوفيات ١ / ١٠٠ والسبكى ٨/٣٣ والشذرات ٥/٣٧١ ومرآة الجنان ٤/١٩٣ والنجوم الزاهرة ٧/٣٥٣ والوافى بالوفيات ٧/٣٠٨ وحسن المحاضرة للسيوطى (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ١ / ٥٥٥ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى (طبع دمشق) ١ / ١٩١ وروضات الجنات ٨٧ وراجع ترجمته فى أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التى مرت بنا فى العصرين العباسى الأول والثانى حادة طوال القرن الرابع الهجرى ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكفى للدلالة على ذلك أن يبزغ فى مستهله المتنبى وفى أواخره الشريف الرضى ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم الثعالبى فى كتابة اليتيمة ثم فى تتمة اليتيمة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم فى العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هيأت له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمراء بنى بويه ولاتهم ووزرائهم للشعراء ، فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم فى مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أدبية .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد رُوى أن معزّ الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى [١] ، غير أن الجيل التالى له أكبّ على الثقافة العربية والتمرين على نظم الشعر ، حتى لنجد صاحب اليتيمة يسلك فى الشعراء ابنه بَخْتيار، غير أمراء آخرين من بيته [٢] . وكان وزراء بنى بويه يتنافسون فى جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادى شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزرائهم فى العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غيثا مدراراً للشعراء ، فأكبُّوا على مجالسه يمدحونه ، ويفيض كتاب اليتيمة بمدائحه . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب اليتيمة لمدّاحه باباً مستقلا عَرَض فيه خمس عشرة مدحة لنابهيهم [٣] .وكان يرعى

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ٢٨/١

(٢) اليتيمة ٢١٦/٢

(٣) اليتيمة ١٢٤/٣

الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفى مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولابد أن نلاحظ أن الثعالبى فاته الوقوف عند بعض الشعراء ، فى عصر البويهيين مثل مُدْرِك بن محمد الشيبانى ، وهو بدوى قدم بغداد فى شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها فى غلام نصرانى فى نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً[١] ، ومثل أبى الحسن محمد بن عمر الأنبارى ، وكان صديقاً للوزير ابن بقية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بمرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتتمتها موجه ثانية من الشعراء فى كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبى بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً فى الحديث عن بعض الشعراء . وفى الحق أن شعراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل فى عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية فى العصر السلجوقى ، لسبب طبيعى ، وهو أنها إنما ألمَّت بأوائله . ومرَّ بنا فى الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألْب أرْسلان نظام الملك (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى فى مواضع كثيرة بعض مدائحه . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصْرة أهل العصر للحظيرى نُشر لسدَّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره وَمَن تقدمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحرى بنا أن نذكر صُرَّدُرّ (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد فى أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة فى ابن خلكان ، وبالمثل ابن السرَّاج البغدادى (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥٠٠ وله ترجمة فى ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العماد الأصبهانى بكتابه الخريدة التى ترجم فيها لشعراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة ، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا فى الثغرة التى تحدثنا عنها آنفاً . والمنشور حتى الآن من قسم العراق فى الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهى تتناول فى العراق ، كما فى الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٣٥ وانظر تاريخ بغداد للخطيب ١٢/٢٧٣

القرن الخامس . والعماد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية تبتدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة فى بغداد والعراق . والعماد يفتتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) حتى المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضيء ، منشداً ما عرفه من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح ، ويُمْضى فى ذلك كله نحو مائتى صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْص بَيْص ترجمة ضافية ، يَعْرض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف فى نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويتْبعه فى المجلد الثانى بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم على بن أفلح وابن المبَّارية وابن جَلِّينا . ونلتقى فى المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً ، لعل أهمهم الحَظِيرى والبَنْدنيجى ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحِلَّة والكوفة وهيت والأنبار .

وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد فى القسم الأول من هذا الكتاب فى تضاعيف حديثنا عن شعراء البدو ، وينتهى المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادى ، وهو ماجن من طراز ابن سُكَّرة وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع فى عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريرى ويحيى بن سعيد بن مارى النصرانى ، وله ستون مقامة حاكى فيها الحريرى ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد . مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان لابن الشعَّار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسدَّ الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى فى العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصوَّرة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتيمة ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التى تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرَّف على بعض الشعراء النابهين فى تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصبهانى ترجم لهما فى المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراقى بالخريدة ، ومثلهما الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩ . وتلقانا فى النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدِىّ البغدادى الصوفى والحاجرى المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرْصَرِىّ وابن أبى الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكتسح التتار بغداد والعراق ، ويجف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شئ من نشاطه فى زمن المغول الإيلخانيين ، ويلقانا ابن رشيد البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التَّلَّعْفرى والواعظ الكوفى البغدادى المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونمضى إلى القرن الثامن ونلتقى بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر فى الدرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعرى كبير وسط الدياجى التى أخذت تطبق على الحياة الأدبية فى العراق ونقصد صفى الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحى الواسطى المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة فى الدرر الكامنة ، ومثله على بن الثَّردة المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقى بشاعر مهم فى زمن التركمان ، بين من ترجم لهم السخاوى فى كتابة « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرٌ نابه فى زمن العثمانيين سواء فى دورة حكمهم الأولى أو فى دورة المماليك . وحقا يوجد بعض شعراء عراقيين فى كتب التراجم مثل « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى وكتابة « نفحة الريحانة » ومثل « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى . وممن لمع اسمه فى الدورتين المذكورتين شهاب الدين الموسوى المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط : ومثله الشيخ محمد كاظم الأزرى المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه فى بومباى . وقد يكون من الطريف أن نفرا من الشعراء كانوا يقدِّمون لدواوينهم [1] ، ولكن على كل حال كانوا جميعا نظامين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقى لكلمة شعراء .

٢

رُبَاعِيَّات وتعقيدات وموشحات

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نهض به الشعراء من تجديد فى الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر فى القوافى [2] ، ولعل أول ما شاع من صوره اللونُ

(١) راجع تاريخ الأدب العربى فى العراق لعباس العزاوى (طبع بغداد) ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ .

(٢) انظر فى ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ ومابعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتسع فى الشعر التعليمى منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذى سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطرى كل بيت مع تغيرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذى ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة فى موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه فى أرجوزة مزدوجة ، وتموج المكتبات العربية بهذه المزدوجات فى كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسمطات منذ فواتح العصر العباسى الأول ، وهى قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر فى جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسمَّط مشتق من السِّمْط ، وهو قلادة تنتظم فيها عدةُ سلوك تلتقى عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور فى المسمَّط الشعرى سلكٌ يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى فى قافية الشطر الأخير . وقد مثّلنا فى كتاب العصر العباسى الأول بمسمَّطين لأبى نواس يتألف الدور فى أحدهما من أربعة شطور وفى الثانى من خمسة . وتظل المسمطات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعُنى كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخفتها على اللسان ورشاقتها على نحو ما نجد فى هذه الأدوار من مسمَّط [1] أنشده العماد الأصبهانى فى الخريدة لأبى المعالى بن مسلم :

يارِيمُ كم تجنِّى ؟ لِمْ قد صددتَ عنَّا صِلْ عاشقاً معنَّى
بالوَصْلِ ما تَهنَّا

السَّلْسَبِيلُ رِيقُ والشَّهْدُ والرَّحيقُ والوَرْدُ والشَّقِيقُ
مِنْ وَجنَتَيهِ يُجنَا

قد غيَّروا ولاموا من شَفَّه السَّقامُ ما ينفع الملامُ
مَنْ فى هواكَ جُنَّا

والدور فى هذا المسمط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذى تدور عليه ، ومثله المسمَّطات ذات الشطور الخمسة وتسمى المخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٣٠٩

والسبعة وتسمَّى المسمَّطات والمسبَّعات . وشاع فى الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل همزية البوصيرى وبُرْدته

وتظهر الرُّباعيَّات مع المسمَّطات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وحماد عجرد وأنها كثرت عند أبى نواس وأبى العتاهية ، وضربنا لها بعض الأمثلة ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلِّف بيتين ، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رُباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثانى والرابع فى القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً فى اليتيمة والدمية والخريدة ، وفى كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومرَّ بنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن على الشيبانى ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدورى فى العربية .

ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يَخُصُّون الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها فى جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرَكُونَ العرب فى استخدامها متخذين لها اسم « دوبيت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مُتَفاعلن فَعُولُنْ فَعْلُنْ » وهو الذى ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مستفعلن مستفعلن » . وتصور ذلك رسالتان[1] فريدتان فى عروض الدوبيت » نشرهما هلال ناجى ببغداد ، وهما لمالك بن المرحِّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت ، والثانية تعنى بالوزن الثانى ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجى أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس فى القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات من العرب على نحو ما هو معروف عن الخيام فى رباعياته ، وتلقانا فى الخريدة رباعيات كثيرة ، ويترجم العماد فيها لشاعر من موظفى الخلافة العباسية وعمالها فى الستينيات من القرن السادس الهجرى ، يسمى أبا المحاسن[2] بن البوشَنْجى ، ويقول إنه كان لَهِجاً بنظم الرباعيات ، ويسوق له طائفة منها فى الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً :

ما أطيبَ ما زارَ بلا ميعادِ يَخْتالُ كغُصْنِ بانةٍ ميَّادِ

---

(١) انظر الرسالتين فى العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد .

(٢) انظر ترجمته فى الخريدة ٢ / ٢٥٧ .

ماطَلَ ، ولابَلَّ غَليلَ الصَّادِى   حتى قَرُبَ البَيْنُ ونادى الحادِى

فصاحبته زارته دون موعد ، مختالة بجمالها كغصن متمايل ، ويقول إنها ماطلت وزارت ، ولابلَّت غليله المتقد الظامئ للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادى الركب ، فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلَّمت حتى ودَّعت . ومن رُباعياته الخمرية قوله :

رقَّتْ وصَفَتْ واسترقَتْ ألبابَا   راحٌ لَبِسَتْ من الضَّنا جِلْبابا
يا بَدْرُ أدِرْ وعَدِّ عَمَّنْ يَأبَى   كأساً ، طُرِدَ الهمُّ بها فانْجابا

والرُّباعية فيها شىء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تنتعش النفس ، كما يقول ، وتطرح عنها بؤس الحياة بما تَعُبُّ من دِنان الخمر وما تجد فى مجلسها من أنس وطرب . ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد الأصبهانى صاحب الخريدة ، ويستهلها بالرباعية التالية :

الوَرْدُ على خدِّك مَنْ أنبتَهُ   والمسك على وَرْدك مَنْ فتَّتَهُ
والقلب على نَأيك من ثبتهُ   اجمعْ شَمْلاً هَوَاك قد شَتَّتَهُ

وهى رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين يجعل صاحبها الخد ورداً حقيقيا ، ويعود فيجعله ناشراً لأريج عطرٍ حوله ، وكأن مسكاً ذُرَّ عليه ونُثر ، ويعجب أن تنأى صاحبته وقلبه لا يزال فى صدره . وإن فؤاده ليتوزع فرقاً ، ويضرع لصاحبته أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يُرَدُّ إليه . ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزى نَيَّفت على عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفى ، فقد كان ابن الجوزى من كبار الوعاظ وكان سنى التصوف ، ومما أنشده :

الحِبُّ يقولُ لا تُشِعْ أسرارى   والدمع يسيلُ هاتكا أستارى
والشوق يزيد ،لا على المقدار   وَانارىَ ! من هذا الهوى وَانارى

فحبيبه يطلب إليه أن يكتم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً يبكى طالباً الوصال ، ملحاً فى طلبه وفى بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق يلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذى يُضْنى ويسقم والمحب يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية . ومما أنشده

ابن الجوزى فى تلك الرباعيات :

ما أصنع ؟ هكذا جرى المقدورُ　　الجَبْرُ لغيرى وأنا المكسورُ
مأسورُ هوًى متيَّمٌ مهجورُ　　هل يمكن أن يغيِّر المسْطورُ

والرباعية تفيض بيأس محب مهجور ، يقول ما أصنع والحِجاب يقوم بينى وبين محبوبى ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمتثل ويذعن ، وإنه ليأسى أسى عميقاً لنفسه ، فغيره يُجبَّر ويوصَلُ وهو يُحرَمُ ويُبْعَدُ ويُكَسَّر كزجاج مصدوع لا يُشْعَبُ ، وإنه لأسير هذا الهوى الذى يبرّح به والذى يتعثَّر فى شباكه ، قدرٌ أزلى كُتب عليه ، لا مفرَّ منه ولا مهرب . وابن الجوزى توفِّى سنة ٥٩٧ وتوفى العماد فى نفس السنة ، وفى كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت فى عصرهما وانتشرت انتشاراً واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجرى وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب فى الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب فى الغناء فحسب بل كانت تستعذب أيضاً فى أناشيد المتصوفة بحلقات الذكر ، وقد جمع كامل الشيبى طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدوبيت .

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذى صورناه بالتفصيل فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البديعية فى مذهب التصنيع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر ، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبى للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء فى هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبى الجوائز الواسطى [1] المتوفى سنة ٤٦٢ :

واحَزَنى مِنْ قولها　　خانَ عهودى ولَهــا
وحقٌ من صـيَّرنى　　وَقْفاً عليها ولها
ما خطرتْ بخاطرى　　إلا كسَتْنى وَلَهــا

ولها فى نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور فى نهاية البيت الثانى ثم جانس بينهما وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد فى نهاية البيت الثالث . وقد يقبل هذا الجناس المعقد فى تلك الأبيات لخفته ، غير أننا لا نكاد نمضى بعد

(١) انظر فى أبى الجوائز ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ بغداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والخريدة ٤/ ١/ ٣٤٣ والمنتظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ٢٣٨/١ .

صاحبه حتى نلتقى بالحسن[١] بن أسد الفارقى المتوفى سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظ العماد الأصبهانى وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها مختوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهى تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظنا أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوُّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً فى مثل قوله :

تُرَاك يا متلفَ جسمى ويا مُكْثِرَ إعلالى وأمراضى
من بعد ما أضْنَيْتَنِى ساخطا علىَّ فى حبك أم راضى

وواضح أن كلمتى «أم راضى» فى البيت الثانى تقابلان أو تجانسان كلمة «أمراضى» فى البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات فى نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم فى القوافى إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول العماد إنه كان يلتزم مالا يلزم فى قوافيه . وفى الحق أن أبا العلاء هو الذى فتح فى لزومياته لمثل هذه الكلف فى الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين فى البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريرى يستلهم صنيعه فى المقامة الحلبية قائلاً :

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثارُها واشكُرْ لمن أعطى ولو سِمْسِمَهْ
والمكرُ مهما اسطعْتَ لا تأتهِ لتقتنى السُّؤْدُدَ والمكرُمَهْ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو فى البيت الثانى جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليتها وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعيب وتعقيد فى التماس الجناس . ويخلف الحريرى يحيى بن سلامة الحَصْكَفى نزيل ميَّافارقين المتوفى سنة ٥٥٣ فنراه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله[٢] :

أطِعِ الهوى فالعقلُ خازٍ خازمُ والجهلُ يُغْرِى وهْو هازٍ هازمُ

وخاز : قاهر . وهاز : ساخر . ويمضى فى القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر ، إذ حلت محلها

(١) راجع فى الحسن بن أسد الفارقى الخريدة (قسم الشام) ٢/٤١٦ ومعجم الأدباء ٨/٥٤ وإنباه الرواة ١/٢٩٤ وشذرات الذهب ٣/٣٨ وفوات الوفيات ١/٢٢٩ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٢/٥٠٨ .

حاجة إلى التعقيد فى الشعر وتصعيب ممراته التى يسلكها الشاعر إلى صناعته .

وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صفى الدين الحلى وجدنا الشعراء دائماً يعقّدون فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء . وقد أكثروا من الاقتباس ، وحَسَنٌ أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم ، مما يعطل الحركة الوجدانية فى أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم فى هذا اللون أن نجد شاعراً يسمى الشيخ أحمد النجفى الحِلِّىّ المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائحه شطوراً من ألفية ابن مالك المشهورة فى النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر[١] .

ودفع المتنبى الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » فصورنا تصنعه لبعض مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية وللألفاظ اللغة الغريبة وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو العلاء يكثر فى لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء فى العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد فى الأساليب بما يُطْوَى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيوداً ، حتى يصعّب الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم فى السلوك إليه من أضيق الممرات والدروب .

وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية فى الشعر ، وكأن الشاعرية لم تعد تقاس بالأثر الوجدانى الذى يحدثه الكلام فى نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن أن يستحدثه الشاعر من عُقَد ، وربما كان الحريرى أهم من فتح هذه الأبواب ، إذ نراه فى مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقْرَأ الأبيات طَرْداً وعكساً كما جاء فى المقامة المغربية من مثل قوله :

اسْلُ جنابَ غاشمٍ مشاغبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقْرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أى اختلاف فى لفظ أو حرف ، ومن الغريب أن من جاءوا ابعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه « ما لا يستحيل بالانعكاس » . وتمرين هندسى ثان عرضه فى المقامة الشعرية ، وهى أبيات التزم فى داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّة إنها شَرَكُ الرَّدَى وقرارةُ الأكْدار

---

(١) عباس العزاوى ٢/٢٧٣

دارٌ متى ما أضحكتْ فى يومها أبكتْ غدًا بُعْداً لها من دارِ

فإننا إذ اوقفنا عند الكلمة الدالية فى الشطر الثانى أصبح البيتان من مجزوء الكامل على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الدَّنيِّـ ـة إنها شَرَك الرَّدَى
دارٌ متى ما أضحكتْ فى يومها أبكتْ غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسى الذى لا يضيف معنى نجده فى مقامته التى سماها بالرَّقطاء يبتكر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :

مخلفٌ متلفٌ أغرُّ فريدٌ نابهٌ فاضلٌ ذكيٌّ أنوفُ

ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل فى نفس المقامة ، وكرر ذلك فى المقامتين المرويَّة والبكرية . ونراه فى المقامة الحلبية يبتدع تمرينا شعرياً من طراز خَطِّيٍّ آخر ، هو طراز الحروف الخالية من النقط فى مثل قوله :

أعْدِدْ لحسَّادِك حَدَّ السِّلاحْ وأوردِ الآمل وِرْدَ السَّماحْ

ولا يكتفى بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خَطِّيًّا ثانياً ، كل كلماته مؤلفة من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فَتَنَتْنِى فجنَّنَتْنِى (تَجنِّى) بتَجَنٍّ يفتَنُّ غِبَّ تَجنِّى

وكأن هذين التمرينين الهندسيين فى تلك المقامة لم يُقنعاه ، أو كأنه أحسَّ أنه من الممكن محاكاتهما فجاء بتمرين خطى ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متماثلة مثل :

زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بِقَدٍّ يَقُدُّ وتلاه – وَيْلاه – نَهْدٌ يَهُدُّ

وواضح أن بين كل لفظين متواليين تجنيسا خطيًّا واضحا . وكل ذلك ليس شعراً وإنما هو تمارين أو لُعَبٌ هندسية[1] ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى الشعراء – وخاصة المتأخرين – ينظمون منها كثيراً . ومن ثمة هذه التمارين الهندسية فى العصر كثرة الألغاز والأحاجى فى الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك كتاب الإعجاز فى الأحاجى والألغاز للحظيرى وعنه ينقل العماد فى الخريدة[2] ، ولا يلبث أن يترجم لشاعر شُغف بها هو الحكيم[3] النيلى الطبيب ، ويذكر له طائفة من

---

(١) من هذه اللعب ماروله العماد من قصائد أولها تاء وآخرها تاء أو أولها جيم وآخرها جيم أو أولها دال وآخرها دال انظر الخريدة (قسم العراق) ٧٤٩/٢/٤ وقسم الشام ٥٤٦/٢

(٢) الخريدة (قسم العراق) ١٧٥/٢/٤

(٣) نفس المصدر ص ٤٩٨ ومابعدها

ألغازه الشعرية فى العقل والرمّانة وكيزان الفَخّار والنّاى وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جِسْماً بلا رِجْلٍ فقِسْ فيما تقيسُ
يئنُّ أنينَ صَبٍّ مستهامٍ مشوقٍ قد نأى عنه أنيسُ
وليس بذى صَبابات فيَهْوَى ولكنَّ الهوى فيه حَبيسُ

غير ألغاز أخرى ذكرها العماد ، وألغازه طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء فى الحقب المتأخرة من التواريخ فى الشعر ، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمّل مؤرخين للسنة التى نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العُرْس الذى هنّأوا به أو للسنة التى وُلد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً نابهين ، وسنفرد لهم بعض الصحف التالية .

ومن أهم ما تمتاز به أقاليمنا فى العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها فى الأدب وفى العلم وحدة ، جعلت كل شاعر نابه فى إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر فى إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدها تظهر فى الأندلس ويضع لها قوانينها فى القرن السادس شاعر مصرى هو ابن سناء الملك ، ونراها على ألسنة الشعراء فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية ، ومن أمثلتها فى الخريدة موشحة[1] لشاعر موصلى هو التاج البلطى المتوفى سنة ٥٩٩ . ويلقانا فى القرن السابع وشاح عراقى كبير ترجم له ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى باسم شهاب الدين الموصلى[2] أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها فى المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضى الفاضل عبد الرحيم ، تجرى على هذا النحو :

لى مَنْ حَوَى الحسنَ كلّه وفاق غِيدَ الأَكِلَّهْ[3]
بَـدْرُ تمامٍ مصَـوَّر ما فيه نَقْصُ الأَهِلَّهْ
فشعرُه لليالى وفَرْقهُ للصباحْ
وجَفْنُهُ للنِّصالِ وقَدُّهُ للرِّماح
وريقُه للزُّلالِ وثَغْرُهُ للأقاحْ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢/٣٨٩

(٢) انظر ترجمته فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١/٢٥١

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة وهى الستر أولعلها جمع إكليل وهى عصابة تزدان بالجواهر

وقد بدأ موشحته بالقفل وتلاه بالدور ، ثم تتابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف ينتخب كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكي تتكامل رشاقة الموشح يحسن أن تكون الشطور فى الأدوار قصيرة وأن يَسْرى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تَغْرى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظَفَّر الأعمى المصرى :

كَـلِّلى   يا سُحْبُ تيجانَ الرُّبَى بالحُلِى

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن مخطىء وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلى فى هذه الصورة :

جَلِّلى   يا راحُ كأسى ولما كَلِّلى
بالحُلِى   سِوارَها ثم لما خَلْخِلى
من غُرَرْ   حَبابِك المنظوم مثل الدُّرَرْ
بالخَمَرْ   كأنه الياقوتُ فوق الجَمَرْ
والزَّهَرْ   فى الرَّوْضِ أمثالُ النجومِ الزُّهُرْ

ومهارته واضحة فى انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها فى الجَرْس والنغمة ، وبحق يصف ابن تَغْرى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائق . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفى الدين الحلى ، ونلتقى فى ديوانه باثنتى عشرة موشحة منها ست فى مديح الملوك والأمراء وخمس فى الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط فى موشحاته درجة أو درجات عن الموصلى وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله فى فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بقى الأندلسى المشهور فى موشحة بديعة له :

صاحبَ السيفِ الصقيل المحلَّى   جَرِّدِ اللَّحْظَ وأَلْقِ السِّلاحا
لك يا ربَّ العيونِ   القواتـــلْ
ما كفى عن حمل سيفٍ   وذابِـــل (١)
أعيُنٌ تبـــدو لديها   المقـــاتـــل
ما سرى فى جَفْنها الحسنُ إلا   أوثقتْ منا قلوباً جِراحا

وربما كانت المعارضة هى التى جعلته يتفوق فى هذه الموشحة ، كما جعلته يصفِّى لفظه تصفية شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسبيل ، وخاصة فى هذا المطلع البديع .

(١) الذابل : الرمح

٣

شعراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من نلقاهم من عشرات الشعراء – إلا مَنْ ندر – عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، وينبغى أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع مَنْ يذهبون إلى أن هذا الشعر كان فى مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهى فكرة مخطئة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلى وهم يتغنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأمجاد الحربية لقبائلهم ومثاليتهم الخلقية الكريمة ، مُذْكين بذلك الحماسة فى نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم أو بعبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشعاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدَّثون عن العدل أو العدالة التى لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم فى الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجَّلوا مجدنا الحربى فيها ليدفعوا الشباب إلى سَلِّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحقهم محقا . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يجد فيها الشباب القدوة الحسنة فى العمل المجيد وفى الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصوِّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلَّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصْبَ عيون الشباب شعارات تعبِّر عن آمال الأمة التى حققوها والأخرى التى تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون فى تصويرهم كأنما يريدون أن يحملوهم على النهج الصحيح الذى تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم فى صورهم الحقيقية ، بل يصورونهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح فى العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفى الحق أن البويهيين ووزراءهم – كما مرَّ بنا – بعثوا فى هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

ابن عبد الله السّلامى وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم الببّغاء وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نُباتة المعروف باسم ابن نباتة السعدى . والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السّلامى بكَرْخ بغداد[١] وتوفى سنة ٣٩٣ وله مديح رائع فى عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طَوَى عَرْضَ البَسيطة جاعلٌ ... قُصَارى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزمى فى الظلام وصارمى ... ثلاثةَ أشباهٍ كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرتُ آمالى بمَلْكٍ هو الوَرى ... ودارٍ هى الدنيا ويومٍ هو الدهرُ

وأبو الفرج الببّغاء[٢] من نَصيبين فى الموصل ، توفى سنة ٣٩٨ وذكر له الثعالبى طائفة من أشعاره كان يُتغَنّى بها فى عصره ، وله مدائح مختلفة فى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لا غَيْثُ نُعْماهُ فى الوَرَى خُلَّبُ الـ ... ـبَرْقِ ولا وِرْدُ جُودِهِ وَشَلُ[٣]
جاد إلى أن لم يُبق نائِلُهُ ... مالاً ولم يُبْقِ للوَرَى أملُ

وابنُ نباتة السَّعْدى[٤] من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفى سنة ٤٠٥ وهو من مدّاح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف فى إحداها نار السَّذق ، وكان عيدا مشهورا للنار عند الفرس فى الإسلام كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وله فى سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة فى وصف فرس أغر محجل أهداه إليه ، وفيها يقول :

مختالُ منه على أغرَّ محجَّلٍ ... ماءُ الدياجى قَطْرَةٌ من مائهِ
فكأنما لَطَمَ الصباحُ جبينَهُ ... فاقتصَّ منه فخاضَ فى أحْشائهِ

وهو تعليل بديع لبياض الغُرّة والساقين معاً ، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الدياجى قطرة من سواده ، وله فى سيف الدولة بيته المشهور :

لم يُبْقِ جودُك لى شيئاً أؤمِّلُهُ ... تركتَنى أصحبُ الدنيا بلا أمَلِ

وكان يحذو حذو المتنبى فى كثرة الفخر والحماسة والشكوى من الدهر والزمن ، وايضاً كان يحاكيه فى نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة السلامى اليتيمة ٢/٣٩٥ . ٣/١٢٤ وابن خلكان ٤/٤٠٣ وتاريخ بغداد ٢/٣٣٥ والمنتظم ٧/٢٢٥ والوافى ٣/٣١٧

(٢) راجع فى ترجمة الببغاء اليتيمة ١/٢٣٦ وتاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٧/٢٤١ والشذرات ٣/١٥٢ وابن خلكان ٣/١٩٩

(٣) وشل : ضحل

(٤) انظر فى ترجمة ابن نباتة السعدى اليتيمة ٢/٣٧٩ وتاريخ بغداد ١٠/٤٦٦ وابن خلكان ٣/١٩٠ وعبر الذهبى ٣/٩١ والشذرات ٣/١٧٥ .

ومَنْ لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِهِ ... تنوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحِدُ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهى بين شعراء التشيع هما الشريف الرضى ومهيار . ولا يلقانا فى الدمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس : على [1] بن الحسن الرئيس أبى منصور المشهور بلقبه صُرَّدُرّ المتوفى سنة ٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة . وديوانه يموج بالمدائح البديعة ، ومن قوله فى الخليفة القائم :

كأنَّ رسولَ الله ألْقَى رداءه ... من « القائم » الهادى على جبَلٍ راسى
زمانُ الوَرَى فى ظلِّهِ وجنَابِهِ ... كأيام تشريقٍ وليلاتِ أعراسِ
هو المصطفى التَّقْوىَ متاعاً لنفسِهِ ... بجوهرها حالٍ بِسُنْدسها كاسِ
من الخلفاء الرافعين بناءهم ... بأطول أعْمارٍ وأثبتِ آساسِ

وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة ، وقد جعل زمان الناس فى أيام القائم أعراسا وأيام تشريق وهى أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع فيها من عدل وأمن . وله فى فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حين تولى الوزارة سنة ٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان فى ترجمة ابن جهير ، وسننشد بعض غزلها فى حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أعدتَ إلى جسْم الوزارة رُوحَهُ ... وما كان يُرْجَى بَعْثُها ونُشُورُها

وهى قصيدة بديعة ، ولايقل عنها إبداعا قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهير حين أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قد رجع الحقُّ إلى نِصابهِ ... وأنت من كل الوَرَى أولى بهِ
ماكنتَ إلا السيفَ سلَّتْه يَدٌ ... ثم أعــادتْه إلى قِــرَابــهِ
أكرِمْ بها وزارةً ما سلَّمتْ ... ما استُودِعَتْ إلا إلى أربابهِ
مشوقةٌ إليك مذ فارقْتَها ... شوقَ أخى الشيبِ إلى شبابه

وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأختها رائعة . ويموج كتاب الخريدة بشعراء كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحَيْصَ [2] بَيْصَ أبا الفوارس سعد بن محمد التميمى

(١) انظر فى صرّدُرّ المنتظم ٢٨١/٨ وابن خلكان ٣٨٥/٣ ، ١٢٩/٥ وعبر الذهبى ٢٥٩/٣ والشذرات ٣٢٢/٣ والنجوم الزاهرة ٩٤/٥ .

(٢) راجع ترجمة الحيص بيص فى الخريدة (قسم العراق) ٢٠٢/١ ومعجم الأدباء ١٩٩/١١ والمنتظم ٢٨٨/١٠ وابن خلكان ٣٦٢/٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ، ص ٣٨٠ والسبكى ٩١/٧ وقد نشر ديوانه ببغداد .

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرف باسم الحَيْص بَيْص لأنه رأى الناس يوما فى حركة شديدة فقال : ما للناس فى حَيْص بَيْص ، فلصقت به الكلمة لقبا له ، وهو يشغل فى المجلد الأول من القسم العراقى فى الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكثم ابن صيفى الحكيم الجاهلى ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله فى أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع فى نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف فى الافتخار والمديح ، ويذكر له ثلاثة أبيات هنأ بها الخليفة المستضىء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نُعْطَى إماما نَعيش به فأعطانا نَجِيًّا
بَلَغْنا فوق ما كنا نرجِّى هنيًّا يا بنى الدنيا هَنِيًّا
وقد كُشِف الظلامُ بمستضىء غَدَا بالناس كلِّهم حَفِيًّا

وسُرَّ المستضىء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلعة ودارا ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ولعل فى ذلك مايدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضئْ الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأ له ديوانا خاصا وسمى الشعراء المدونة أسماؤهم فيه باسم شعراء الديوان [1] ، وأكبر الظن أنه كان يُجْرى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولىَّ خليفة وحين يُقْبِل عيد أو يُولَدُ ولد أو يُختَنُ ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألمَّ به. وبالمثل كان للوزراء وذوى البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سِبْط ابن التَّعاويذى ، وسنترجم له . ويقال إن محيى الدين بن الجوزى كان ينظم فى كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر [2] ، فما بالنا بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتمسون المناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشاتانى [3] الموصلى المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

---

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعى تحقيق د. مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ ومراجع الجامع المختصر لابن الساعى (طبع بغداد) ٦٩/٩ ، ١٥٣ ، والوافى ١٠١/٢ و٣٧٩/٤ .

(٢) ذيل مرآة الزمان لليونينى (طبع حيدر آباد) ٣٣٧/١ .

(٣) انظر فى ترجمة الشاتانى الخريدة (قسم الشام) ٣٦١/٢ وابن خلكان ١١٣/٢ وتهذيب ابن عساكر ١٧٧/٤ والسبكى ٦١/٧

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصُّفْرا   فسِرْ وافتحِ الدنيا فأنت بها أحْرَى

ونوّه صاحب النجوم الزاهرة بابن الشُّحْنة الموصلى أبى حفص عمر بن محمد لمدحة قافيةٍ له فى صلاح الدين [1] . ومن مداحه بالموصل أيضا ابن الدهان [2] أبوالفرج عبد الله ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ ، وقد نشر ديوانه ببغداد أخيرا ، وقصد مصر زمن الوزير الفاطمى طلائع بن رُزِّيك وأنشده فى مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه فكافأه عليها بجائزة سَنِيَّة وفى تخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لانلتُ وصلكِ إن كان الذى زعموا   ولاسَقَى ظَمئى جودُ ابنِ رُزِّيكا
القاتلُ الألف يلقاهم فَيغْلبهم   والواهبُ الألف تلقاه فيُغْنيكا

ونمضى فى القرن السابع الهجرى ، فتلتقى براجح [3] الحِلِّى المتوفى سنة ٦٢٧ وتهنئةٍ أنشدها الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ وردَّهم مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه فى دَحْرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى ، وإلى ذلك يشير راجح فى قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تهلَّل وَجْهُ الدهر بعد قُطوبهِ   وأصبح وَجْهُ الشِّرْك بالظلم أسودَا
أعبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَه   وموسى جميعا يَخْدمون محمدَا

وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان فى خدمة أخيهما الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفى الخليفة الناصر ، ويخلفه ابنه الظاهر لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ وقد نظم فيه مجموعة من المدائح طبعت باسم المستنصريات ، وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضا مجد الدين النشابى [4] أسعد بن إبراهيم الإربلى المتوفى سنة ٦٥٧ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

وَرِثَ النبوةَ طاهراً عن طاهرٍ   إرْثاً ينزِّهُهُ عن مقالة مُفْتَرِى
وإذا رأى الرامون نُورَ جلالهِ   لم تَلْقَ غير مهلِّلٍ ومُكَبِّر

---

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

(٢) راجع ترجمته فى الخريدة (قسم الشام) ٢٧٩/٢ وابن خلكان ٥٧/٣ والسبكى ١٢٠/٧ وتهذيب ابن عساكر ٢٩٢/٧ والشذرات ٢٧٠/٤

(٣) انظر ترجمة راجح وشعره فى ابن خلكان ٧/٤ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٤٢ ، ٢٧٣ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١ / ٣١٨ والشذرات ٥ / ١٢٣ .

(٤) راجعه فى فوات الوفيات ١ / ١٧ وقد روى له مواليا وانظره فى ذيل مرآة الزمان ١١١/١ – ١٢٣ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى (طبعة الهند) ٥ / ١٠٢ .

ويكثر مثل هذا الغلو فى المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأئمتهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً ألفى ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونمضى فى القرن السابع فنلتقى بفخر الدين مظفر بن الطرّاح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة فى علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد [١] . وكان يعاصره ابن نعيم الحلى ، وله ديوان [٢] سماه « شرف المزية فى المدائح العزّية » مدح به صدر الحِلّة عز الدين أبا محمد حسن بن الحسين الأسدى الحلى ، ويكفى القرن الثامن فخرا ظهور صفى الدين الحلى فيه . ومر بنا فى فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى فى العصر العثمانى الأول واسم محمد كاظم الأزرى فى العهد العثمانى الأوسط أو عهد المماليك ، ولهما ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح فى العصر : المتنبى ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفى الدين الحلى .

المتنبى [٣]

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُعْفىّ المذحجية اليمنية ، ولد سنة ٣٠٣ بحىّ كِنْدة فى الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندى . أما أمه فكانت هَمْدانية ، فهو يمنى أبا وأما . وذكر بعض خصومه وهجّائيه أن أباه كان سَقّاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

---

(١) العزاوى ١ / ٣١٦ .

(٢) العزاوى ١ / ٣١٧ .

(٣) انظر فى ترجمة المتنبى اليتيمة للثعالبى ١/١١٠ وتاريخ بغداد ٢/١٠٢ ونزهة الألبا لابن الأنبارى (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ص ٢٩٤ والأنساب للسمعانى ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١/١٢٠ . وألفت قديما كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحاتمى (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الحاتمية فيما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد والواضح فى مشكلات شعر المتنبى للاصفهانى (طبع تونس) والفتح الوهبى على مشكلات المتنبى لابن جنى تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبى الفتح لابن فورجه تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى للبديعى (طبع دار المعارف) وذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبى لطه حسين والمتنبى لمحمود محمد شاكر وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكتابنا فصول فى الشعر ونقده : ما كتب فيه بعنوان العروبة فى شعر المتنبى وكتاب بلاشير عن أبى الطيب المتنبى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جنى وبينه وبين المتنبى مراجعات كثيرة وشرحه نفيس ، ومن شروحه شرح العكبرى وشرح الواحدى وهما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

« عَبْدان » . ولم يُعِرِ ابن خلكان هذه الدعوى اهتماما ، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذّ وحَسَداً . وكل شىء فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف ، ويَبْعُدُ أن ينتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سَقّاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكّرة ، وهو فى نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصِّبْيَة : ما أحسن وَفْرتك وشَعْرك ، وفوجئ الصَّبىُّ بردِّه :

لاتَحْسُنُ الوَفْرَةُ حتى تُرَى منشورةَ الضَّفْرَيْنِ يوم القِتالْ
على فتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّها من كل وافى السِّبال

فالوفرة – أو الشعر المجتمع على الرأس – لايحسن منظره إلايوم القتال حين تشعّث ذوائبه على رأس فتى باسل يَعْتقل صعدة أو رمحا يُعِلُّها أو يرويها من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جمال حسى أو متاع مادى فى الحياة ، مما جعله ينصرف عن الخمر بل ينهى عن احتسائها ، أما ما قيل من حبه للُعْبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب والعِراك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويَسْبُوا النساء ، ويفرُّ الناس منها جزعا وفزعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المتنبى نحو عامين أو ثلاثة يتردد فى القبائل ويتغذّى بلغتها ، وتتغذّى فتوته الجائمة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة فى مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل كان أبوه لايزال حيا أو أنه توفّى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقته وهو لا يزال رضيعا . وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولالأبيه ذكرا فى ديوانه ، بينما نجده يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلاً :

ولو لم تكونى بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لى أُمَّا

وفى تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه فى باكورة حياته وأن جدته هى التى قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقِى شيئا من ظلال الشك على نسبه ، لأنه لم يذكر فى شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأدنين ، وجعله ذلك يبغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرا من شعراء العرب لم يذكروا فى أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس فى ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيعة ، بل إننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سوَّدتْنِى عامرٌ عن وِراثةٍ أَبَى اللهُ أن أسمو بِأُمٍّ ولا أبِ

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر ببأسه وأعماله المجيدة ، بالضبط كما قال المتنبى :

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفوا بى وبنفسى فخرتُ لا بجدودى

وبهم فخرُ كلِّ من نطق الضَّا دَ وعَوْذُ الجانى وَغَوْثُ الطَّرِيدِ

على أن المتنبى يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبى وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبه غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبى كان عربيا صميما وأن العرب لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبى هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعاً ، وشدَّ فى وسطه منطقة وسيفاً ، وفى إحدى يديه رمح مصوَّب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والنزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصياحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصيح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ مَنْ حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صِغارٌ وإن كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عُسْرا .

وستتضح شخصية المتنبى حين نتابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سِنِّه ، ويُكبُّ على كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى لحما ودما ، وتستأثر

به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان البادية ، وأفادته صقلا فى لغته ووقوفا على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صقلا فى فتوته وإحساسه بعروبته ، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات فى عصره ، واقترض منها فى شعره صيغا من النحو الكوفى الشاذ ومن الغرائب اللغويةومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته . وكل ذلك فصّلنا الحديث عنه فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة فى سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن على الأوراجىّ ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمى ولا أحداً من ذوى السلطان ، وكأنما وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُفْعَم صدره بمشاعر العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه :

إلى أىِّ حينٍ أنت فى زِىِّ مُحْرِمٍ ... وحتى متى فى شِقْوَةٍ وإلى كَمْ ؟
وإلا تَمُتْ تحت السيوف مكرَّماً ... تَمُتْ وتُقاسِ الذلَّ غيرَ مكرَّمِ
فَثِبْ واثقاً فى الله وثبةَ ماجدٍ ... يَرَى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

وهو يستحثُّ نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زِىَّ المحرمين بالحج ، يريد زِىَّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازلة لا تُبقى منهم ولا تَذَرُ . وييئس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولّى وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب فى طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يرعون للعرب حُرْمة ولا عهدا ولا ذمة ، ويصيح فى قومه :

وإنما الناسُ بالملوك وما ... تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلّين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العَسْف والقهر . ويمضى فى دعوته وثورته فى بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك ، ويحسُّ فى أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلا وتخاذلا وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدَرة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها :

ما مُقامى بأرض نَخْلَةَ إلا كمُقام المسيحِ بين اليهودِ
عِشْ عزيزا أوْمُتْ وأنت كريمٌ بين طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البنودِ
واطلبِ العِزَّ فى لَظَى ودَعِ الذُّ لَّ ولو كان فى جِنان الخلودِ
أنا تِرْبُ النّدا وربُّ القوافى وسِهامُ العِدا وغيظُ الحسودِ
أنا فى أمةٍ تداركها اللّـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه فى القصيدة بالمسيح وبالنبى صالح سببا فى أن يتهمه بعض معاصريه بادعائه النبوة ، وبالغوا فزعموا أنه ادَّعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فِقَرٍ منه ، وكل ذلك غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين . أما لقبه المتنبى فهو الذى لقب نفسه به ، أولعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة . وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مرِّ التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربى الحرَّ ليفضِّل العز فى الجحيم على الذل فى الفراديس . ويترك قرية نَخْلة إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لايزال فى العشرين من عمره . ويقضى لؤلؤ والى حمص من قِبَل الإخشيد على ثورته ويزجّ به فى غياهب السجن . ويظل به نحو سنتين ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته فى مديح ولاة البلدان الشامية ، وخاصة بدر بن عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه المتنبى أمنيته فى فارس عربى ، فمدحه ونوّه بفروسيته فى تصويره الرائع لفتكه بأسد ، مستهلا له بقوله :

أمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لمنِ ادَّخَرْتَ الصَّارمَ المَصْقولا

يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد بيأسه ومضائه . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستنهضا همم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل يروقُ دفيناً جودةُ الكفَنِ

وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ما لجُـرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نعي جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميميته التي يقول فيها مفاخرا بقومه وأهله :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظْما
فلا عبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني ولا صَحِبَتْني مهجةٌ تَقبَلُ الظُّلْما

وهما بيتان رائعان يصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب في شعر المتنبي جعله محبَّبا لكل عربي ، إذ تتوهج أشعاره بخصال العربي الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنايا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجمان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وبهذه النفس العاتية كان المتنبي ينظم شعره منذ سال على لسانه في الكتَّاب معبرا عن الروح العربية التي لا تُقْهَر ، مهما نزل بها من الكوارث والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يَهْدر ويزمجر ويزأر ، ولا يجد سميعا ولا مجيبا . وتحدِّثه نفسه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدِّم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمداني ، وكان أميرا لحلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعا لها من يد الإخشيديين ، فقدَّم المتنبي مدائحه إلى واليه على أنطاكية أبي العشائر الحمداني ابن عمه ، فأجزل له في العطاء . ومضى في مديحه ، ويَقْدُم سيف الدولة إلى أنطاكية في جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين ، فيمدحه المتنبي ، ويُعْجَبُ كل منهما بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حَلَب وينزل عنده ، ويقول الرواة إن المتنبي اشترط عليه أن لا يقبِّل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدائحه إلا قاعدا ، ويجيبه سيف الدولة إلى شرطيه ، ولعل فيهما ما يشير إلى شعور المتنبي بالعزة والكرامة شأنَ العربي الأصيل . ويظل المتنبي عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا في أميره ، تؤلف ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي ، لا من حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقرَّ حينئذ في نفسه أنه لقي أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذي يمزِّق جموع الروم شرَّ ممزَّق في الشمال ، وغداً يمزِّق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد ، ويردّ للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة بحق بطلا مغوارا وشجاعا مقداما ، حطَّم جيوش الروم مراراً واستنقذ منهم غير ثغر وحصن ، وكان المتنبي يصحبه في غزواته ، حتى إذا عاد معه أنشده بجلب ما نظمه في بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحَدَث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة . وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يستردّه ويعيد بناءه . وأعدَّ جيشا جرَّاراً

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهُزموا هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأُسر منهم آلاف ، وُضعت فى أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبَنى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المتنبى الموقعة فى ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجا بقوله :

وقفتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ　　كأنك فى جَفْن الرَّدَى وهْو نائِمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً　　ووجهُكَ وضَّاحٌ وثغْرُك باسِمُ
ضممتَ جناحيهم على القلب ضَمَّةً　　تموتُ الخوافى تحتَها والقوادِمُ
بضربٍ أتَى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ　　وَصارَ إلى اللَّبّاتِ والنصرُ قادمُ
نثرتَهُمُ فوق الأُحَيْدبِ نَثْرَةً　　كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهِمُ

وهو يصور سيف الدولة فى المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرءوس تتطاير والأشلاء تتناثر ، والموت يحدق من كل جانب ، وكأنه فى جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها مهابة . وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولا ورعبا ، ولم يلبث أن لفَّ جناحى جيشهم على القلب لفَّةً سريعة وحطم رءوسهم حطما إلى اللبَّات والنحور . وولوا الأدبار مندحرين وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيدب كما تُنثَر الدراهم على العروس ابتهاجا ، وكأنه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم . والمتنبى لا يبارَى فى وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسمع فى قصائده السيفية قعقعة السلاح ، وهىَ لا شك القطع الأرجوانية الرائعة فى ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختص المتنبى بالإبداع فى مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظَنَّ أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا » . وتوفِّيت فى نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أمُّ سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة ، وفيها يقول بيتيه المشهورين :

رمانى الدهرُ بالأرْزاءِ حتى　　فؤادى فى غِشاءٍ من نِبالِ
فصرتُ إذا أصابتْنى سهامٌ　　تكسَّرتِ النِّصالُ على النصالِ

ونَفِس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة — وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى الشاعر — منزلته ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسَّ المتنبى بكيدهم ، وأن سيف الدولة يُرهف سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتابا مُراًّ بمثل قوله :

يا أعدلَ الناسِ إلا فى معاملتى　　فِيمَ الخِصامُ وأنت الخصمُ والحكَمُ
إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قَدروا　　أنْ لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظلون يحسدون الأديب ، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبي ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبي ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلن ذلك في غير قصيدة من مثل قوله :

مالى أُكَتِّمُ حبًّا قد بَرَى جَسدِى ‏ ‏ ‏ ‏ وتدَّعى حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ

ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع ، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله :

أعلَى الممالك ما يُبْنَى على الأَسَلِ ‏ ‏ ‏ ‏ والطَّعْنُ عند مُحِبِّيهنَّ كالقُبَلِ

ويصمم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقى فيها بأصحاب كافور وأوليائه ، فيغرونه بلقائه فى الفسطاط وأنه لابد أن سيقيمه واليا على « صيداء » أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأنما زَيَّنَتْ نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة فى إقامة الدولة العربية المنشودة . وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وما رغبتى فى عَسْجَدٍ أستفيدُه ‏ ‏ ‏ ‏ ولكنها فى مَفْخَرٍ أَستجِدُّهُ

ويلوِّح فى غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فيتحفز منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته فى الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هى فى ظاهرها ثناء ولكنها فى باطنها هجاء مُرٌّ من مثل قوله :

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَنْ باتَ حاسدا ‏ ‏ ‏ ‏ لمن باتَ فى نَعْمائه يتقلَّبُ

والبيت يمكن أن يُحْمل على من يُسْبَغُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسْدِى إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانيها دناءة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبي استذلَّ نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمى الحبشى ، وهو الذى طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تخلَّى عن مسئوليته الأدبية . وليس هناك تخل من المتنبي ولا ما يشبه التخلى ، فقد مدح كافورا فى سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ماطله ، سلَّ عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهى لا تضعف ولا تهرم ، مهما تقدمت بالمتنبي السن ومهما اشتعل عذاره شيبا ، بل لكأن شعرات شيبه البيضاء حراب مشرعة لنزال أعدائه ، حراب لن

وراءها نفس تزمجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرا رائعا فى قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول :

وفى الجسم نفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ ولو أنَّ ما فى الوجه منه حِرَابُ
لها ظُفُرٌ إن كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ونابٌ إذا لم يبق فى الفم نابُ

فاليأس المرير الذى ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار . وفى أواخر مقامه بمصر ألمَّت به حُمَّى ، فوصف نزولها به فى الظلام ومبيتها فى عظامه وأثرها فى جسمه وصفا رائعا ، ولها يقول بيته البديع :

أَبِنْتَ الدَّهرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ

وعرَّض فى القصيدة برحيله ، فقد أحسَّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل ، وهو يرمى كافورا بشُواظ من هجائه على نحو ما نرى فى داليته ، وقد مزّق فيها أديمه تمزيقا بمثل قوله :

لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعَصا معَهُ إن العبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ

وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها فى الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل فى ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطيا يوما . ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد وينزلها فى سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الحاتمى — بإيعاز من الوزير المهلبى — ينقد بعض أشعاره ، وتكون فى ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد فى سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا فى زيارته ويقدم عليه فى « أرَّجان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا فى وصفه :

عربىٌّ لسانُهُ فلسفىٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

ففخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويمرُّ ببستان يسمى « شِعْبَ بَوَّان » ويروعه جماله ، غير أنه مع روعته كدَّر نفسه أن لا يرى أثراً للعروبة فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله :

مَغانى الشِّعْبِ طِيباً فى المغانى بمنزلة الرَّبيعِ من الزمانِ
ولكنَّ الفتى العربىَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

وأروع مدائحه فى عضد الدولة هائيته ، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات فى الشام ، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسّمه فى فتاة عربية شامية خلبت لبه ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كلُّ جريحٍ تُرجَى سَلامتهُ إلا فؤاداً دهتْه عيْناها
فى بلدٍ تُضرَبُ الحِجالُ بهِ على حِسانٍ وَلَسْنَ أشباها
فيهنَّ مَنْ تَقْطُرُ السيوفُ دماً إذا لسانُ المحبِّ سمَّاهَا

إنهن عربيات دونهن الموت الزُّؤام . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه ، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفى طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه فى أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبى جهل فى بعض الشذاذ من قطاع الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلمانه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقرى : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الاساسية التى تغنى بها المتنبى ، وهى المديح والهجاء والفخر والرثاء ، وأروع مدائحه كما قدمنا ما نظمه فى سيف الدولة وتصوير معاركه ، وهجاؤه ينبثُّ فى مدائحه ونقصد هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :

فى كل أرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ تُرْعَى بعَبْدٍ كأنهم غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الخزَّ حين يَلْبَسُهُ وكان يُبْرَى بِظُفْرِه القَلَمُ

والبيت الثانى يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا — كما يقول — عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة ، وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون فى النعيم ، يلبسون الإستبرق بل يستخشنونه ، ويملئون ديار العرب بَغْياً وظلما . ومرت بنا أبيات أخرى فى هجائهم ، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر فى شعر المتنبى ، وهو طبيعى لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول :

أمثلى تأخذُ النكباتُ منه ويجزعُ من ملاقاة الحمامِ
ولو برز الزمانُ إلىَّ شخصا لخضَّب شَعْرَ مَفْرِقهِ حُسامى

وفى ديوانه مراث مختلفة ، ولكن أهمها مرثيته فى جدته والأخرى التى نظمها فى أم سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليها ، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير فى الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُدَفِّن بعضُنا بَعْضًا وتَمْشى أواخرُنا على هامِ الأوالى

وفى رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد فى ملتى واعتقادى » . وتَسْرِى فيه روح تشاؤم جعلته ثائرا على الزمن والدهر والناس ، وهى روح تحبّب أشعاره إلى قارئه ، من مثل قوله :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعَناهُمْ من شأنهِ ما عَنانا
وتولّوا بغُصّةٍ كلُّهم منـ ـه وإنْ سرَّ بعضَهم أحيانا

وتكثر فى شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ مايدور من خواطر فى أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها فى شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه ، ولكن من المؤكد أن حِكَمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فيما مرَّ من الحديث . وله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات الجاهلن الفطرى وفى ذلك يقول :

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطْرِيَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ
أفْدِى ظِباء فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبى الفذة ويرد عنها جملة التُّهم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته ، وهو قد فرَّ مع أبيه من وجه القرامطة حَدَثاً ورحل بسببهم عن الكوفة فى باكورة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطى ، ويُلْقَى ظل من الشك على عروبته ، مع أن العروبة لم تجد من يَفْضُله لتختاره تَرْجُماناً لها أروع ما يكون الترجمان .

سِبْط [(1)] ابن التعاويذى .

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مولى لبنى المظفَّر واسمه نُشتكِين ، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله ، وقد وُلد لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ ويبدو أنه توفى وابنه لا يزال صغيراً ، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكُتّاب ، ثم بحلقات العلماء

---

(١) انظر فى ترجمة سبط ابن التعاويذى معجم الأدباء ٢٣٥/١٨ وابن خلكان ٤٦٦/٤ ونكت الهميان ص ٢٥٩ والوافى بالوفيات ١١/٤ وعبر الذهبى ٢٥٣/٤ والشذرات ٢٨١/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٥/٦ وسبط ابن التعاويذى : حياته وشعره لنورى شاكر الألوسى (طبع بغداد) وديوانه طبع قديما بالقاهرة فى مطبعة المقتطف بتحقيق مرجليوث .

فى المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موهبته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ، فقد عُنى به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير ، وكان لهم شأن كبير فى الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فألحقوه بدواوين الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجملته وظيفته فى هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بنى المظفر ، وله مدائح فى الخلفاء وفى غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فَصلَهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التيمى المعروف بابن البلدى لعهد الخليفة المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) إذ نراه يهجوه هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكَّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداد حِدْ عن بلدةٍ ... للجور فيها زَخْرَةٌ وعُبَابُ
إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد ... سُدَّتْ على الرَّاجى بها الأبوابُ
بادتْ وأهلوها معاً فبيوتُهم ... ببقاء مولانا الوزير خَرابُ
وارَتْهمُ الأجْداثُ أحياءً ثُمَّها ... لُ جنادلٌ من فوقهم وترابُ

ونراه فى قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدى ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فُصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذى أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذى قد توفى ورثاه مرثية جيدة ، استهلها بقوله :

لكلٍّ ما طال به الدهرُ أمَدْ ... لا والداً يُبْقِى الرَّدَى ولا وَلَدْ

وليس فى الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل فى ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفَّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) أن ينقل راتبه فى الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده . ويجيبه إلى ملتمسه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجدِّد له راتباً خاصًّا به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويُكْثِر حينئذ من نَدْب بصره بمثل قوله :

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنايةٍ ... يُعَدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ
يُرَوِّعهُ عند الصباح انتباهُهُ ... فطُوبَى له لو طالَ وامتدَّ نَوْمه

ولم يعش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كفِّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول ابن خلكان ، ورتبه فى أربعة فصول ، وكل ما نظمه بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول فى مدائح الخلفاء ، والفصل الثانى فى مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول فى مقدمته ، والفصل الثالث فى مدائح بنى المظفر . يقول : « لأنى نشأت فيهم ، وصحبتهم أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم ، فنظمت فيهم جُلّ شعرى ، وأنفقت معهم طائفة من عمرى » والفصل الرابع متنوعات من مراث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر فى الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها فى لحظة عارضة فى حياته . وقد نوّه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً : « كان شاعر وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتى سنة مَنْ يضاهيه » .

وأول خليفة مدحه سِبْط ابن التعاويذى الخليفة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وليس لأبيه المقتفى ذكر فى الديوان ، وليس له فى المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولى المستضىء (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحَظ فى هذه المدائح ، هى أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التى يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستضىء وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بنى العباس ، واقرأ هذا الاستهلال لمدحة لسِبْط ابن التعاويذى فى المستضىء :

لك النَّهْىُ بعد الله فى الخلق والأمْرُ ... وفى يدك المبسوطة النفعُ والضُّرُّ
وطاعتُك الإيمانُ بالله والهُدَى ... وعِصيانُك الإلحادُ فى الدين والكفْر
ولولاك ما صحَّتْ عقيدةُ مؤمنٍ ... تَقِىٍّ ولم يُقْبَلْ دعاةٌ ولا نَذْرُ
مُرِ الدهرَ يفعلْ ما تشاء فإنه ... بأمرك يَجْرى فى تصرُّفه الدهر

والغلوّ واضح فى البيتين الأخيرين ، بل فى الأبيات كلها ، حتى ليجعله يصرِّف الدهر كما يشاء . ويمضى فى القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبى وإمام هدى عمَّ عدله الرعية ، وقد نطقت بفضله آى الذكر الحكيم يقصد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهرَكم تطهيراً) . ودائماً يردِّد فى مدائحه له أنه جارٍ على سُنن الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سيُعَدُّ يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر فى مديحه لناصرِ خطوات أكثر غلوًّا على شاكلة قوله :

أنت الإمامُ المهديُّ ليس لنا إمامُ حَقٍّ سِواك يُنْتَظَرُ
يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن فى يده النَّفعُ بعدُ والضَّرر
ومَنْ له الليلُ والنهار وما كرَّا عليه والشمسُ والقمر
والبرُّ والبَحرُ والشواهقُ والْـ غُرُّ الغَوادِى والنَّجمُ والشَّجر

ولو لم نعرف اسم الممدوح لظنناه إماماً شيعيا فهو المهدى الذى تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفاسده وشروره ، وهو صاحب العصر والزمان الذى يختفى عن الأعين ومع ذلك يرعى أمور رعيته ويدبِّر شئونها ، بل إنه ليدبر الكون كله بليله ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسمائه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنته وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يملُّ من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله فى أرضه على عباده ، ويقتبس الشاعر هذه الفكرة فى مدحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللهِ أنت والسَّببُ المَمْـ ـدودُ ما بينه وبين الناسِ

ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسْلَكَ سِبْط ابن التعاويذى بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسى ، متعصب لخلفاء بنى العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة فى شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، ولذلك كنت أشك فى أنه نظم مرثية الحسين .

أرقتُ لِلَمْعِ بَرْقٍ حاجِرِىٍّ تألَّقَ كاليَمانِى المَشْرَفِىِّ

ويغلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان فى زمن مبكر .

وحين كاد العماد الأصبهانى يعمل فى دواوين الخلافة ببغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العماد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يراسله ، ويقول ياقوت إن العماد ذكر فى ترجمته بعض ما كان بينهما من مراسلات ، وفى ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العماد يطلب منه فَرْوة . ويبدو أن العماد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضى من جهة ثانية ، وفى ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتى ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنية ، لعل أهمها النونية ، وفيها يقول :

قادَ الجيادَ معاقلاً وإن اكتفى بمعاقلٍ من رأيهِ وحُصونِ
سَهِرتْ جفُونُ عِداه خيفةَ ماجدٍ خُلِقَتْ صَوارِمُه بغيرِ جفُونِ

لو أن لِلَّيْثِ الهِزَبْرِ سُطَاه لم ... يلجأ إلى غابٍ له وعَرِينِ

وغزله فى مفتتح هذه المدحة رائع ، وله فى القاضى الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة ، إذ يقول :

ناءٍ عن الأحْياء فى بَرْزَخٍ ... منقطعٌ من بَيْنِهم ذِكْرِى

ليلُ حِجابٍ لا أرى فَجْرَهُ ... يا مَنْ رأى ليلاً بلا فجر

وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد وفَّاه ابن خلكان حقه من الثناء ، ونحس عنده كأن نبعاً سائغاً شرابه يتدفق عذباً عذوبة حلوة .

صفىّ[1] الدّين الحِلّى

هو عبد العزيز بن سَرَايا الحِلّى الطائى ، ولد بالحِلّة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأسرة على شىء من اليسار وسعة الحال ، فكان طبيعيا أن تُلحقه بكتَّاب يتعلم فيه القراءة وحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار . وكان الغلمان من لداته يتدرَّبون على ركوب الخيل فحاكاهم فى هذا التدرب . وأحسَّ فى نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر ، فأكبَّ على حفظ نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية ، مما جعله فيما بعد يُعْنَى بتضمين كثير من هذه النصوص فى شعره وبعض موشحاته . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة ، إذ يقول فى المقدمة التى صنعها لديوانه : « إنى كنت قبل أن أشبَّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعى الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً » . وهو يقصد بالعلوم علوم العربية وعلوم البيان والمعانى والبديع ، ونراه فيما بعد يؤلف فى الجناس كتاباً سماه « الدر النفيس فى أجناس التجنيس » . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه ألَّف قصيدة بديعية هى مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسِّناً من محسنات البديع . ومن مؤلفاته كتاب الأوزان المستحدثة مثل الدوبيت وغيره ، وأيضاً كتاب العاطل الحالى ، وهو – كما مرَّ بنا – فى فنون الأشعار العامية . ويصرح فى مقدمة ديوانه بأنه لم يفكر فى بدء حياته أن يمدح أحداً أو يهجو أحداً ، بل لقد كان يرى أن يبتعد بأشعاره عن هذين الجدولين ، وجعله ذلك لا ينظم إلا فى موضوعين هما مدح الرسول ﷺ وآله ، والفخر بآبائه . ولم يكد

(١) انظر فى ترجمة صفى الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٤٧٩/٢ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥٧٩/١ والبدر الطالع للشوكانى ٣٥٨/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٨/١٠ وكتاب شعر صفى الدين الحلى للدكتور جواد احمد علوش (طبع ببغداد) . وديوانه طبع فى القرن الماضى طبعتين : طبعة فى دمشق وطبعة فى بيروت وكلتاهما مليئة بالأخطاء وفى دار الكتب المصرية منه أربع مخطوطات

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاظمت الحزازات والثارات بين عشيرته أو أسرته وبعض الأسر أو العشائر فى الحِلّة ، وقُتل خاله ، وبكاه فى غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحِلّة . ولم يكتف بالبعد عنها فى بغداد ، فقد أبعد فى ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين فى الموصل من آل أُرْتُق أصحابها وأحسن لقاءه واستقباله ملكها المنصورُ نجم الدين غازى بن أُرْتُق ، وهو يشيد به وبعطاياه وعطايا ابنه الملك الصالح فى مقدمته للديوان ، وفى استقبال المنصور له يقول :

لاقَيْتَنا مَلْقَى الكريم لضيفِهِ وضَمَمْتنا ضَمَّ الكَمِىِّ لسيفِهِ

وقد أنزله فى دار فخمة نوّه بها فى شعره ، وظل يصحبه فى حِلّه وترحاله ونزهاته ، وفيه نظم مدائح كثيرة فى الأعياد وفى بعض انتصاراته . ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلا سماه « دُرر النُّحور فى مدائح الملك المنصور » وهو ملحق بديوانه المطبوع فى دمشق ، ويحتوى على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ فى كل بيت منها ، ويختمه بنفس الحرف ، وفى إحداها يقول :

رَبُّ النَّوال ومحمودُ الخِصالِ ومِقْـ ـدامُ النَّزال وأمنُ الخائف الحذِرِ
راعى الأنام بعينٍ غير راقدةٍ قد وُكِّلتْ فى أمور الملك بالسَّهرِ
راضٍ مع السخط يُبْدِى عزمَ منتقمٍ للمذنبين ويعفو عَفْوَ مقتدرِ
راحاتُه مُذْ نَشَا فى الملك قد عاهدَتْ يومَ النَّدى والرَّدَى بالنفع والضَّررِ

ولا ريب فى أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمى الذى يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتوفّى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته ، ويظل له راتبه الذى كان يأخذه فى عهد أبيه ، ويصحبه فى نزهاته وخروجه للصيد ، ويتخذه أنيساً له فى مجالس شرابه . ونراه فى أواخر العقد الثانى من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً فى ظلال الدولة الأرتقية يفكر فى زيارة الشام بحجة رغبته فى التجارة ، وكانت تجارته الدارَّة شعره ، فنزل بحماة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل ، وفى أثناء مقامه عندهما يُرسل بمدائحه إلى الملك الصالح . ويفكر فى قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرم فى سنة ٧٢٣ ويزور قبر الرسول ﷺ ، ويفكر فى العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدباء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمدح الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا   اللابساتُ من الحرير جَلابيا

واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر فى معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أسبَلْنَ من فوق النُّهود ذَوائبا   فجعلن حبَّاتِ القلوب ذَوائبا

والجناس فى كلمتى ذوائب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الذوبان ، والجناس كثير فى شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً . ويمضى فى مديح الناصر قائلاً :

الناصرُ الملك الذى خضعتْ له   صِيدُ الملوك مشارقاً ومغاربا
لم تَخْلُ أرضٌ من ثَناه وإنْ خلتْ   من ذكره مُلِئتْ قَنًا وقَواضِبا
تُرْجَى مواهبه وُيرهَبُ بَطْشُه   مثل الزمانِ مسالما ومحاربا
فإذا سَطا ملأ القلوبَ مهابةً   وإذا سَخا ملأ العيونَ مواهبا

ولم يفتتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل . وكأنما سِحْرُ الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملأ عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصف الجمال الماجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلعَ الربيعُ على غُصون البانِ   حُلَلاً فواضِلُها على الكُثْبانِ
والظِّلُّ يَسْرِقُ فى الخمائل خَطْوَه   والغُصْنُ يَخْطِرُ خَطْرَةَ النَّشْوان
وكأنما الأغصانُ سوقُ رواقصٍ   قد قُيِّدتْ بسلاسل الرَّيْحانِ
والشمسُ تنظر من خلال فُروعها   نحو الحدائقِ نظرةَ الغَيْرانِ
والطَّلْعُ فى خَلَل الكِمامِ كأنَّه   حُلَلٌ تفتَّقُ عن نُحور غوانى

وصفىُّ الدين يحيل الطبيعة المصرية نَشْوَى بما يتراءى له فيها من غناء ورقص وغوانٍ وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضى مخموفاً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إذا اكتحلَ الملوكُ بنورِه   خرُّوا لهيبتِه إلى الأذْقانِ
شاهدتُه فشهدتُ لُقْمانَ الحِجَى   ونظرتُ كِسْرَى العَدْلِ فى الايوان
وافى وقد عاد السماحُ وأهلهُ   مَوْتَى فكان له المسيحَ الثانى
لا عيبَ فى نُعماه إلا أنَّها   يَسْلو الغريبُ بها عن الأوطان

ويُشيد بإنعام الناصر عليه فى مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته فى أن يجمع شعره فى ديوان ويبوبه ويرتبه . ولبىّ صفى الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله فى اثنى عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب فى الفخر والحماسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثى والغزل والخمريات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحماض . وكأنما أريد لديوان صفىّ الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع فى عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفى الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعيا إماميا ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته فى بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِغَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة ، يقول فى مديح على :

إمامٌ له عَقْدُ يوم الغَدِيرِ ... بنصِّ النبىِّ وأقوالِهِ

وذكْرُ صفىِّ الدين لهذا العهد لايثْبِتُ أنه شيعى إمامى ، إذ لا نجد فى شعره شيئاً من عقيدة الإمامية : ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده فى نفس باب مديحه للرسول ولعلى يبرئ نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :

ولائى لآل المصطفى عَقْدُ مذهبى ... وقلبىَ من حُبِّ الصَّحابة مُفْعَمُ
وما أنا ممن يستَجيزُ بحبِّهم ... مَسَبَّةَ أقوامٍ عليهم تقدَّموا
ولكننى أُعطِى الفريقين حقَّهم ... وربِّى بحال الأفضليَّة أعْلَمُ

والبيتان الثانى والثالث يخرجانه من العقيدة الإمامية التى تُضْفى على علىٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد فى غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقا يصححون خلافة أبى بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن عليًّا أفضل منهما وأنه نجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وإذن فصفى الدين لا إمامى ولا زيدى ، ومن قوله :

قيل لى : تعشق الصحابةَ طُرًّا ... أم تفَرَّدْتَ منهمُ بفريقِ
فإلى من تَميلُ؟ قلتُ إلى الأرْ ... بع لا سيَّما إلى الفاروقِ

ويكفى أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من على ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد الغَدير فى بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً فى حداثته ، وخاصة أنه نشأ فى الحِلَّة ، وهى بيئة قديمة من بيئات التشيع ، وهو نفسه يقول فى مقدمة الديوان إن شعره فى الرسول وآله نظمه فى باكورة حياته .

وفى الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، ففيه اثنتا عشرة موشّحة وفيه ثلاثة مسمّطات وسبعة مخمّسات وبعض رُباعيات كقوله :

لا تحسبْ زورةَ الكَرَى أجفانى   من بعدك من شواهدِ السُّلوانِ
ما أرسلتِ الرُّقاد إلا شَرَكاً   تصطاد بهِ شواردَ الغِزْلان

وتكثر فى شعره المحسنات البديعية ، وخاصة الجناس بجميع صوره الممكنة ، ومر بنا أن له كتاباً مستقلا فيه ، وفى شعره كل ألوانه : التام والناقص والمقلوب والملفق ، وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلْ سَلْسَلَ الريقِ لِمْ لَمْ يَرْوِ حرَّ ظما   بل بَلْبَلَ القلب لما زاد آلاما

وواضح أن حرفى « سَلْ » كرّرا ثلاث مرات فى الشطر الأول وكرّر حرفا « بل » فى الشطر الثانى ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامى الشطرين فى قصيدة على هذه الصورة :

شديدُ البأس ذو أمرٍ مطاعٍ   مُضاربُ كلِّ قرْمٍ أو مطاعنْ

ومضى فى القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة فى آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمين فى قصائده ، بحيث يصبح له فى القصيدة شطر ولبعض السابقين من مثل امرئ القيس والمتنبى وغيرهما شطرتان . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريرى فى نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصغّرة ، إلى غير ذلك من هذه التمرينات الهندسية التى لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفىُّ الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كى تخمد شاعريتهم وتجف ينابيعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافاتٍ رائعة إلى الشعر العربى .

٤

شعراء المراثى والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وُجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مراثى مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفى

بالإشارة إلى بعض المراثى البديعة ، فمن ذلك مرثية أبى الحسن محمد بن عمر الأنبارى الصوفى الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتله عضد الدولة البويهى وصَلبه فى بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١) :

عُلوٌّ فى الحياة وفى المماتِ   لحقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأنَّ الناسَ حولك حين قاموا   وُفودُ نَداك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خَطيباً   وكلُّهمُ قيامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يَدَيْك نَحْوهمُ احتفاءً   كمدِّهما إليهم بالهِباتِ

ويشبِّه صلبه بصلب زيد بن على زين العابدين فى أواخر العصر الأموى ، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التى طالما رَدَّها عن الناس ثأرت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم عُلاه جعلوا الجوَّقبره كما جعلوا أكفانَه غبارَ الرياح ، ويستنزل عليه أو يستمطر شآبيب الرحمة والرضوان . ويكثر فى العصر رثاء الشعراء ، وفى مقدمتهم المتنبى ، وفى كتاب الدمية للباخرزى مراث مختلفة له ، وممن رثاه أبو القاسم المظفَّر بن على الطَّبَسى ، وفيه يقول (٢) :

لا رَعَى اللهُ سِرْبَ هذا الزمانِ   إذ دَهانا فى مثل ذاك اللِّسانِ
ما رأى الناسُ ثانىَ المتنبِّى   أىُّ ثانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزمانِ
كان من نفسه الكبيرةِ فى جَيْـ   ـشٍ وفى كِبْرياء ذى سُلْطانِ
هو فى شعره نبىٌّ ولكنْ   ظهرتْ مُعْجزاتُه فى المعانى

وكان الشريف الرضى يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى أبا إسحق الصابئ بقصيدته الدالية مفتتحا لها بقوله :

أرأيتَ مَنْ حَملوا على الأعوادِ   أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النَّادِى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفاً من سلالة الرسول ورثى صابئاً ، فقال : إنما رثيتُ فضله . وتوفى الرضى فرثاه مهيار بلامية تأثر فى مطلعها بمطلع داليته آنفة الذكر إذ يقول :

حملوك لو علموا من المحمولُ   فارتاضَ معتاصٌ وخفَّ ثقيلُ

وهذا باب يطول . ونكتفى بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المراثى لأشخاص رثاءُ بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكاها الشعراء بكاء حارًّا ، بكوا أهلها الذين سُفكت

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ٤/١٣٠ وابن خلكان ١٢٠/٥ .
(٢) ابن خلكان ١ / ١٢٤ وانظر الدمية ١ / ١٠٥ ، ١٠٧ ، ٣١٦ .

دماؤهم وقُتِّلوا تقتيلا ، وبكوا تاريخها ومدنيتها وماكان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى مرثية الشيخ تقى الدين التنوخى لها ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفى الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات بطائفة من مراثيه فى ترجمته للخليفة المستعصم ، وفى إحداها يقول [١] :

أين الذين عهدتُهم ولعزِّهم ذُلاًّ تَخِرُّ معاقدُ التِّيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهمُ يبكى الهُدَى وشعائرُ الإيمانِ
لما رأيتُ الدارَ بعد فراقهم أضحتْ معطّلةً من السكّانِ
مازلتُ أبكيهم وللإثمُ وحشةٌ لجمالهم مُسْتَهِمَ الأركانِ

وكان لهذه النكبة صداها المدوى فى جميع البلدان العربية وفى إيران ، حتى لنرى الشيخ سعدى الشيرازى وغيره من شعرائها يندبونها ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل الهجاء كان أكثر ذيوعاً وانتشاراً من الرثاء ، ومرَّ بنا أن المتنبى هجا كثيراً الأعاجم كما هجا كافوراً الإخشيدى ، وتلقانا فى اليتيمة والدمية والخريدة أهاج كثيرة ، بل يلقانا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على الهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصرى المعروف باسم ابن [٢] لنكك المتوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصَّر به جهده عن بلوغ الغاية أو المنزلة التى يأملها لنفسه ، فسلَّ لسانه على معاصريه من الشعراء حتى المتنبى فإنه هجاه ، وهو الذى زعم أنه ابن سقَّاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت فى ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبا رياش ، وفيه يقول :

على القُبْحِ الفظيعِ أبو رياشٍ يُعاشرُنا بأخلاقٍ ملاحِ
يُبيح أكفَّنا أبدا قَفَاهُ فَنصْفَعُه على جهة المزاحِ

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشفَّى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار الهجائين فى العصر ابن الهبَّارية المتوفى سنة ٥٠٤ وسنترجم له فى غير هذا الموضع ، وقد ذكر العماد فى الخريدة أن له قصيدة [٣] فى هجو أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ – ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٥٠٠ .

(٢) انظر فى ابن لنكك اليتيمة ٣٤٨/٢ وتاريخ بغداد ٢٩٩/٣ ومعجم الأدباء ٧٨/٧ والوافى بالوفيات ١٥٦/١ وفوات الوفيات ٥٤/١ وشعر ابن لنكك البصرى بتحقيق زهير غازى زاهد (طبع البصرة)

(٣) الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٨١ .

لى مأتمٌ من سوء فِعْلهمِ ولهم بحسن مدائحى عُرْسُ
ولقد غرستُ المدحَ عندهمُ طمعا فحَنْظَلَ ذلك الغَرْسُ

ويمضى فى ثلبهم واحداً واحداً أقبح ثلب وأشنعه . وعلى شاكلة هـــذه القصيدة سينية[1] للشريف أبى نزار عبد الله بن محمد الكوفى ذمَّ فيها سادات بنى عمه من الكوفة والحِلَّة . ومرَّ بنا تعرض سِبْط ابن التعاويذى للوزير ابن البلدى، وفيه يقول ابن لنكك :

يبدو لراجيه على وَجْهِهِ غِلْظةُ ليثٍ بالشَّرى مُخْدَرِ[2]
لو أنها بالأرض ما أخْصَبَتْ أو بالسَّحاب الجَوْنِ لم يُمْطِرِ

وفى ديوان صفى الدين الحلى باب للهجاء كما أسلفنا ، وإنما نمثل فقط ببعض النصوص .

وطبيعى أن تكثر فى العصر الشكوى من الزمـان ، ونكاد نلتقى بها بعـــد المتنبى على لسان كل شاعر ، ولا يختلف اثنان فى أن أروع قصيدة فى الشكوى من الدهر وتصاريفه قيلت فى العصر قصيدة أبى محمد[3] على بن زريق الكاتب الكوفى وهو من شعراء اليتيمة ، ويقال إنه ألمت به أيام عسيرة ، فرأى الارتحال إلى الغرب ، وارتحل تاركاً وراءه فى بغداد زوجة كان صَبًّا بها مغرماً ، غير أن الأيام لم تسعفه ، ويبالغ بعض الرواة فيزعمون أنه ظل راحلا حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمرائها ، فلم يعطه ماكان يتمناه ، فبكى أمله الضائع فى هذه القصيدة ، وفيها يقول مخاطباً زوجه وباكياً نفسه :

لا تَعْذليه فإن العَــذْلَ يُولِعهُ قد قلتِ حقًّا ولكنْ ليس يَسْمَعُهُ
فاستَعْملى الرِّفْقَ فى تأنيبِهِ بدلاً من عُنْفه فهْو مُضْنَى القلب موجَعُهُ
تأبى المطالبُ إلا أن تكلِّفَــهُ للرِّزقِ سَعْياً ولكنْ ليس يجمعه
والحرصُ فى المرء — والأرزاقُ قد قُسِمَتْ — بَغْىٌ ألا إن بَغْى المرْء يَصْرَعُه
أعطيتُ مُلْكاً فلم أحسِنْ سياسَتَهُ وكلُّ من لا يسوسُ الملكَ يَخْلَعُهُ

ويصوِّر فى القصيدة لوعة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال فى حل وترحال وراء الرزق ، وهو يلمع له كسراب يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً . والقصيدة كلها شكوى وأنين ولوعة ممضة . وسنقف قليلاً عند شاعرين من شعراء الهجاء ؛ أحدهما من شعراء اليتيمة والثانى من شعراء الخريدة ؛ وهما السرى الرفَّاء الموصلى وابن القطَّان البغدادى .

---

(١) الخريدة ٤/١/٢٦٢ .
(٢) الشَّرى : الفيل . مخدر : فى خدره أو غيله .
(٣) انظر فى ابن زريق اليتيمة ٢/٣٧٦ وابن خلكان ٥/٣٣٨ وبسببه مصدرا . وراجع بروكلمان ٢/٦٦ .

السَّرِىّ (١) الرَّفَّاء

هو أبو الحسن السرىّ بن أحمد الكندى الموصلى ، وُلد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبيا للرَّفَّائين ، فكان يَرْفو ويطرِّز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة فى صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رَفَّاء فى باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويجيده . ويبدو أنه أخذ يُكِبّ على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسى المشهورين من أمثال أبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى والمتنبى ، يدل على ذلك بوضوح الفصلُ الذى عقده الثعالبى لسرقاته . وكأنه أحسَّ أنه إنما خُلق لكى يكون شاعراً لا لكى يكون رفَّاء ، ولم تكن حرفته تدرُّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قد كانتِ الإبرةُ فيما مضَى صائنةً وَجْهِى وأشعارِى
فأصبح الرِّزْقُ بها ضيِّقًا كأنه من ثُقْبِها جارِى

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرَّفْو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كُشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نَسْخه .

وكان معه فى الموصل فتيان أخوان ينظمان الشعر ويجيدانه ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسنان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كشاجم ، ليزيد حجمه ويَنْفُق سوقه من جهة ، وليشنِّع عليهما بأنهما يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تخمد أبدا . ويسمع بما ينثره سيف الدولة الحمدانى فى حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فيشدّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بحضرته ، فاشتهر وطلع سعده بعد الأفول ، ويَبْعُدَ صيته بعد الخمول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله فى تصوير فرار الروم بين يديه ومَقْتَلِه فيهم مقتلةً عظيمة :

تركتَهم بين مصبوغٍ ترَائِبُهُ من الدماء ومخضوبٍ ذَوَائِبُهُ
فحائدٌ وشهابُ الرُّمحِ لاحِقُهُ وهاربٌ وذُبابُ السيفِ طالِبُهُ

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفى سيف الدولة انتقل السَّرِىُّ إلى بغداد ومدح

---

(١) انظر فى ترجمة السرى الرفاء اليتيمة ١١٧/٢ وتاريخ بغداد ١٩٤/٩ والأنساب للسمعانى ٢٥٥ ومعجم الأدباء ١٨٢/١١ وابن خلكان ٣٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٦٧/٤ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ، إذ نفق شعره وراج وسار فى الآفاق ، وتهاداه الأدباء فى خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته فى نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الدَّيْرة وكتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب . وقد أنشد الثعالبى من شعره فى اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومديحه ولهوه ومجونه وربيعياته وأوصافه وغزلياته وما يتغنَّى به من أشعاره . ويسوق له الثعالبى طائفة من أهاجيه فى الخالديين مدعياً عليهما أنهما يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أفى كلِّ يومٍ للغبيَّيْن غارةٌ ... تروِّع ألفاظى المحجَّلة الغُرَّا
فهلاً أبا عثمان مهلا فإنما ... يَغار على الأشعار مَنْ عَشِقَ الشِّعْرا
لأطفأتما تلك النجومَ بأسرها ... ودنَّستما تلك المطارفَ والأُزْرا
فوَيْحكما هَلاَّ بشطرٍ قِنعتما ... وأبقيتما لى من محاسنه شَطْرا

ويكثر من اتهام الخالديين بتلك السرقة ، ويردد ذلك فى مدائحه وأنهما يبيعان أشعاره فى العراق ، وليتهما يبيعانها لمن يستحقها ، فإنهما يبيعانها بثمن بخس لكل من لقياه ، غير مقدرَيْن لقيمتها ، ولا واعيَيْن لقدرها ، ويزعم أن غارتهما على شعره غارة عامة للمديح وغير المديح ، يقول :

ذئبان لو ظَفِرا بالشِّعْر فى حرمٍ ... لمزَّقاه بأنيابٍ وأظفارِ
باعا عرائس شعرى بالعراق فلا ... تبعدْ سباياه من عُونٍ وأبكارِ
وما رأى الناس سَبْياً مثل سَبْيهما ... بيعتْ نَفيستهُ ظلما بدينارِ
والله ما مدَحا حيًّا ولا رَثَيا ... ميْتا ولا افتخرا إلا بأشعارى

ولا يزال يصف هذا السَّبْى الشعرى من عُون أو ثيبات وأبكار ، وكيف أن من هذا السبى جرحى لم تُضرب بحد سيف ، وأسرى لم تحمل على ظهور خيل . ويبكى تعبه فى نظم أشعاره ويشبهها بالرياض ويصور إشفاقها على أنفسها من هذين اللصين وسيوفهما التى تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبى فصلاً لأهاجيه لابن العصب الملحى الشاعر وكان يتعصب للخالديين عليه ، وهو فى هجائه له يقذع إقذاعاً شديداً زاعماً مشاهدة أهل الرِّيَب فى منزله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يعيش فى منزل إنما يعيش فى حانة ، يقول فى وصف دعوة دعاه فيها ساخراً :

وطاف الشَّيْخُ بالدَّنِّ ... إلى أن نَزِفَ الدَّنّا
فأدنى كدرَ العيشِ ... بها لا كان ما أدنى

مُدامٌ تجلب الهمَّ ولا تَطْرده عنّا
فلا النفسُ بها سُرَّتْ ولا القلبُ لها حَنّا

وهى سخرية قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والتهتك واطراح الحشمة فى صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سبًّا يؤذى النفوس . وفى رأينا أن هجاءه ينزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة فى فنى المديح والغزل ، وكان يتغنّى بشعره فى بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بنفسى مَنْ أجودُ له بنفسى وَيَبْخلُ بالتحية والسلامِ
وحَتْفِى كامنٌ فى مُقْلتَيهِ كُمونَ الموتِ فى حَدِّ الحسام

والصورة فى البيت الثانى بديعة . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت فى بغداد سنة ٣٦٠ وقيل سنة ٣٦٢ وقيل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له فى أخريات حياته .

ابن القطّان[١] البغدادى

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على دراسة الحديث النبوى فى نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأتقنها ، حتى عُدَّ من أطباء بغداد ، وكان كثير النوادر ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان غاية فى المجون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضى القضاة الزينبى بقصيدة كافية أولها :

يا أخى الشَّرْطُ أملَكُ لستُ للكلْبِ أتْركُ

وهى طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها الألسنة ، فبلغ ذلك القاضى الزينبى ، فأحضر ابن القطان وصفعه وحبسه مدة ، ثم ردَّ إليه حريته . وكان يعرف كيف يخز فى هجائه وَخْزَ الإبر ، من مثل قوله فى الوزير أنوشروان ذامًّا له بالتواضع :

هذا تَواضُعُكَ المشهورُ عن ضَعَةٍ فصرتَ من أجله بالكِبْرِ تُتَّهَمُ
قعدتَ عن أملِ الرَّاجى وقمتَ له فذا وثوبٌ على الطلاَّب لا لَهُمُ

(١) انظر فى ترجمة ابن القطان المنتظم ٢٠٧/١٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٥٣/٦ ولسان الميزان ١٨٩/٦ ومرآة الجنان ٣١٥/٣ والخريدة (قسم العراق) ٢ / ٢٧٠ وفوات الوفيات ٢ / ٦١٧ .

ويكثر مثل هذا الوخز ومايحمل من سخرية فى هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية فى الهجاء ، إذ لم يكن يعمد إلى السب والشتم ، إنما يعمد إلى سموم تفتك بمن تسلَّط عليه كقوله فى ابن المرخَّم قاضى القضاة ببغداد :

يا ابن المرخَّم صرتَ فينا قاضياً   خَرِفَ الزمانُ تُراه أم جُنَّ الفَلَكْ
إن كنتَ تحكمُ بالنجوم فربما   أمَّا بشَرْعِ محمدٍ من أين لَكْ

وهو يُعَدُّ فى الهجاء وهزء ما بعده هزء بقاضى القضاة فى عصره . وله قصيدة طويلة فى هجاء كتَّاب الديوان لزمنه ، وكان بينهم عباسيون ، فتعرض لأحدهم يغمزه فى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جَدِّه ، قائلاً :

نسبٌ إلى العباس ليس نظيرُهُ   فى الضَّعْف غيرَ الباقِلاَّء الأخضرِ

وضعف عود الباقلاء الأخضر معروف . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وأنت تَنْهَى الناسَ عن غِيبَةٍ   فى مثلها تأمُرُ بالرَّدِّ
إما بتخويفٍ من النار أو   بنوعِ تشويقٍ إلى الخُلْدِ
وبعد ذا تفعلُ بى هكذا   زِنْهارُ من سالوسك السَّرْدِ
وهذه العجمةُ مِنْ عندك اقْـ   ـتبستُها ما هىَ من عِنْدى
ارجعْ إلى اللهِ ودَعْنى ولا   تَرْمِ بِسَهْمِ الطَّيْشِ من بُعْدِ

فهو ينهى الناس عن الغيبة ويغتابه ، مع أنه كثيراً ما يلوِّح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس . والشطر الثانى فى البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمى ، وكلمة زنهار كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام المعسول البارد . وهو يستغيث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخراً إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمى اللسان لا تكاد تفصح فى البيان ، ويناديه هازئا به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر فى القصيدة الألفاظ والعبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخريات لاذعة بمن حوله ، كقوله فى وزير كان يستثقل وزارته وظلّه :

يا معشر الناسِ النفيرَ النفيرْ   قد جلس الهِرْدَبُ فوق السَّريرْ
وصار فينا آمراً ناهيـاً   وكنت أرجو أنه لا يَصيرْ
فكلما قلتُ قَذًى يَنْجلى   وظلمةٌ عما قليلٍ تُنيرْ

فتحتُ عينى فإذا الدولةُ الـ ــدولةُ والشيخُ .الوزيرُ الوزيرْ

والمردب : العجوز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، ويراها غُمَّة على صدر الأمة لا تنجلى ، ويفتح عينه فى كل يوم أو فى كل صباح فيراها جاثمة لا تريم . ولعله كان يريد القاضى الزينبى الذى زَجَّ به فى السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنئته ، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقَصَ . فلما رآه الزينبى يرقص أسرَّ إلى بعض خواصه : قبَّح الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة فى أمثالها : « ارقص للقرد فى زمانه » . وبحق ما قاله الزينبى إذ نراه يقول فى هجائه لبعض الرؤساء :

كلُّ من صفَّقَ الزما نُ لــه قتُ أرقصُ

وكان بينه وبين الحَيْصَ بَيْصَ الشاعر بُغْض ومهاترة ، وكانا يصطلحان وقتاً ثم يعودان إلى ما كانا فيه من التنابذ والتهاجى تماجنا وتظرفا ودعابة ، فمن ذلك أن الحَيْص بَيْص خرج ليلة من دار الوزير الزينبى ، فنبح عليه جَرْوُ كلبةٍ ، وكان متقلداً سيفاً ، فوكزه بعقب السيف ، فمات . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابى قتل أخوه ابناً له ، فقُدِّم إليه ليثأر منه وكان بيده سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات فى ورقة وعلَّقها فى عنق كلبة لها جِراء ، ورتَّب معها مَنْ طردها هى وجِراءها أو أولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة ، فأُخِذت الورقةُ من عنقها ، وعُرِضت على الوزير ، فإذا فيها :

يا أهل بغدادَ إن الحَيْصَ بَيْصَ أتى ... بفعلةٍ أكسبته الخزْىَ فى البَلَدِ
هو الجبانُ الذى أبدى شجاعتَهُ ... على جُرَىٍّ ضعيفِ البَطش والجلَدِ
فأنشدتْ أمُّه من بعد ما احتسبتْ : ... دَمُ الأُبَيْلِقِ عند الواحد الصَّمدِ
« أقول للنفس تأساءً وتعزيةً ... إحدى يدىَّ أصابتْنى ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه ... هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى »

وجَلَبُ ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ، فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخرية بالحيص بيص ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها إن أخى الحَيْص بَيْص الذى موقعه منى موقع إحدى يدى جَنى علىَّ سهواً وخطأً لا عمداً ولا قَصْدا لسوء ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود بعوَض عن

فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسللاً إليه من تضمين البيتين فى مقطوعته ، فضلاً عما صوّره به من الجبن والهلع إزاء جَرْوٍ مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت فى ابن القطان دعابة وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه فى يوم حر شديد فى شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : فى مطبخ سيدى النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طبيخ فى رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . ومازال يُطْرِف البغداديين بنوادره حتى توفّى عن سن عالية ببغداد فى عيد الفطر سنة ٥٥٨

٥

شعراء التشيع

مر بنا فى الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية أخذ يعم فى العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب ينتشر فى عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون فى موضوعين أساسيين هما : مناقب على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركى قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خيْبر ، مضيفين إلى ذلك كلَّ مايُروَى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد فى سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثانى فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عامًّا فى كَرْبَلاء وبغداد ، وهيأ لذلك أن حاكم بغداد البويهى معز الدولة ألزم الناس –كما أسلفنا– فى سنة ٣٥٢ بغلق الأسواق فى يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القِباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل فى كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين فى أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ ندبهم فيها شكل هذا المأتم الكبير . على كل حال أعدَّت هذه المآتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسيا فى شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بذكرى مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية فى العصر ،

إنما حسبنا أن نشير إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطَّفّ (كربلاء) لجواد شُبَّر المطبوع فى بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثانى الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيرى كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية ، وفى مقدمتهم الزاهى [1] الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد فى بيان مناقب الإمام على بن أبى طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الخلق بَدْءًا وآخراً وألقيتُ رَحْلى فى حِماهم مُجاورا
أئمةُ حَقٍّ خاتَمُ الرُّسْل جَدُّهم ووالدهم من كان للحَقِّ ناصرا

ومضى يذكر الأئمة الاثنى عشر واحداً واحداً مشيداً بهم إلى أن انتهى إلى مهديِّهم ، ويبكيهم ، ويمنى نفسه بظهور المهدى قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذى لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت فى السَّرِىِّ الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطفّ قصيدة موجودة فى ديوانه يمدح فيها آل البيت ويبكى الحسين قائلاً :

كأنَّ أحشاءنا من ذِكْره أبداً تُطْوَى على الجَمْرِ أو تُحْشَى السكاكينا

ومثله أبو بكر محمد الخالدى الموصلى ، ومرَّ بنا أنه كانت بينه وبين السَّرِىِّ منازعة فى الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعيا إماميا مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطف ، ونرى الثعالبى فى اليتيمة ينشد له قطعة فى ندب الحسين يقول فيها [2] :

عفَّرتمُ بالثَّرى جَبِينَ فتىً جبريلُ بعدَ النبىِّ ماسحُهُ
سيَّان عند الأنام كلُّهمِ خاذلُهُ منكمُ وذابحُهُ

وهو يُسَوِّى فى الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنايتهم واحدة فى رأيه . وكان طبيعيًّا أن تتكون مع هذا الندب والنواح فى بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النَّاحة ، ينوحون على الحسين فى يوم عاشوراء وغيره من الأيام [3] ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى أحمد المزوّق ، وكان يجد أكبر

---

(١) انظر فى ترجمة الزاهى اليتيمة ٢٣٣/١ وابن خلكان ٣٧١/٣ والنجوم الزاهرة ٦٣/٤ وتاريخ بغداد ١١ / ٣٥٠ والمنتظم ٧ / ٥٩ وأدب الطف ٢ / ٥٠ .

(٢) اليتيمة ١٨٧/٢

(٣) فى نشوار المحاضرة للتنوخى (طبعة هندية) بتحقيق مرجليوث ٢١٩/١ أن رجلا يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خُلْب كانا من النَّاحة على الحسين ، ومما كانا ينوحان به قصيدة لشاعر كوفى أولها :

أيها العيْنان فيضا واستهلَّا لا تغيضا

مدد لنواحِه فى شعر الناشئ[١] الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦ ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله فى أهل البيت قصائد كثيرة ، ويقول ياقوت : «كان يعتقد الإمامية ويناظر عليها بأجود عبارة واستنفد عمره فى مديح أهل البيت حتى عُرف بهم» وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه الأشعار كان يناح بها فى مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المزوّق وغيره ، ويُروى أنه ناح يوماً فى أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشئ الأصغر ، وفيها يقول :

بنى أحمدٍ قلبى لكم يتقطَّعُ ... بمثل مصابى فيكمُ ليس يُسْمَعُ
عجبتُ لكم تَفْنَوْن قتلاً بسيفكم ... ويَسْطو عليكم مَنْ لكم كان يَخْضَعُ
كأنَّ رسولَ اللهِ أوصى بقتلكم ... فأجسامُكم فى كل أرضٍ توزَّعُ
فما بُقْعَةٌ فى الأرض شرقاً ومغرباً ... وليس لكم فيها قتيلٌ ومَصْرَعُ

وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشئ قصيدة بائية يدعو فيها للأخذ بثأر الحسين كان الناس ينوحون بها فى أيامه ببغداد وفى مشهد الحسين بكربلاء ، وفيها يقول :

متى تأخذون الثأرَ ممن تألَّبوا ... عليكم وَشَبُّوا الحربَ وهْىَ ضُروبُ
شهيدٌ توزَّعْنَ الصوارمُ جسمَه ... فخرَّ بأرض الطَّفِّ وهْو تَرِيبُ
قتيلٌ على نَهْر الفُراتِ على ظَمًا ... تطوف به الأعداءُ وهْو غَرِيبُ

وأرض الطف : كربلاء . وتريب : معفَّر بالتراب . والناشئ الأصغر يشير إلى سفك دم الحسين بكربلاء ، ويمضى فيشيد بالأئمة الأولين : على والحسن والحسين الذين حوَوا - فى رأيه - علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حوَوْا علمَ ما قد كان أو هو كائنٌ ... وكلٌّ رشادٍ يبتغيه طلوبُ
وقد حفظتْ غَيْبَ العلوم صدورُهم ... فما الغيبُ عن تلك الصدور يغيبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن التعاويذى ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين فى القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم صفات أئمة الشيعة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية بائية للحسين ، إن صح أنها له كما مرَّ بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

---

(١) انظر فى الناشئ الأصغر اليتيمة ٢٣٢/١ ومعجم الأدباء ٢٨٠/١٣ وابن خلكان ٣٦٩/٣ ولسان الميزان ٢٣٨/٤

لعظم المحنة فيه . ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعى فى فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبه ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفى بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنبه شعراء العراق بعد المتنبى ، وهم الشريف الرضى ومهيار وابن أبى الحديد .

الشريف الرضى (١)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبى أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوى ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المنزلة عند خلفاء بنى العباس والبويهيين ، وتولى نقابة الطالبيين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولا الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثمُ ولد له الشريف الرضى سنة ٣٥٩ ولما شبَّا كانا ينوبان عن أبيهما فى النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر فى المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصابىء عهدا بذلك . وكانت تربط الشريف الرضى بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقْبض على الخليفة فى سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعفى والد الشريف الرضى من وظائفه فى سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضى تلك الوظائف جميعا سنة ٣٨٨ وأبوه حى .

وقد تتلمذ الشريف لعلماء عصره فى بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبى على الفارسى وابن جنى والمرزبانى فى اللغة والنحو ، والقاضى عبد الجبار فى الاعتزال ، والشيخ المفيد فى الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يترك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها ، يدل على ذلك كتابه فى التفسير الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع والذى سماه حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ، وبالمثل أقبل على كتب الحديث النبوى يَنْهَلُ منها ، على نحو ما يتضح فى كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذى جمع خطب الإمام على فى الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا فى كتابنا « العصر الإسلامى » لما داخله من وضع .

---

(١) انظر فى ترجمة الشريف الرضى اليتيمة ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والدمية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ وإنباه الرواة ١١٤/٣ والمنتظم ٢٧٩/٧ والوافى بالوفيات ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشذرات ١٨٢/٣ ومرآة الجنان ١٨/٣ وروضات الجنات ص ٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ وراجع فيه عبقرية الشريف الرضى لزكى مبارك والشريف الرضى لإحسان عباس . والديوان مطبوع طبعات مختلفة فى بمباى والقاهرة وبيروت .

وكان ذكيا ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس ، ويُرْوَى أنه أُحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافي النحوى وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو ، وقعد معه يوماً فى حلقته – كما يقول مترجموه – فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمرا » فما علامة النصب فى عمرو ؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص) . فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق فى عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبى ، ويمضى مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلَّى مع مَحْتده الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبيين : من مضى منهم ومن غَبر ، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق ، وسيشهد بما أجريه من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القِدْح ، الممتنع عن القَدْح ، الذى يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جَناها ، ويبعد مداها » . ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه » . وقد توفى ببغداد ودفن فى الكرخ سنة ٤٠٦ وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاته نُقل إلى مشهد الحسين فى كربلاء .

ويدل شعر الشريف الرضى على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبى فقد أكبَّ عليه يقرؤه المرة والمرات ، محبًّا له متعاطفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه مايستحقه ، وكان المتنبى كما مرَّ بنا يريد أن يكوِّن دولة عربية ، والدهر يناهضه ، وكان الرضى يشعر فى أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين ، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر – مثل مديح المتنبى – بالفخر والشكوى من الأيام التى لا تنيله مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عطفاً أميرَ المؤمنين فإننا فى دَوْحةِ العَلْياء لا نتفرَّقُ
ما بيننا يومَ الفَخار تفاوتٌ أبداً كِلانا فى المعالى مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ ميَّزتْك فإننى أنا عاطلٌ منها وأنت مطوَّق

وظل شعوره بأحقيته فى الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطْبع – كما طُبعت أشعار المتنبى – بالتذمر من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلم به شيء من يأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبى فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة ، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُرَبَّى به

الشباب ، إذ يدلع فى أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى فى هذه الأبيات من قصيدة :

لغير العُلا منى القِلَى والتجنُّبُ ولولا العُلا ما كنت فى الحبِّ أرغبُ
وإن تَكُ سِنِّى ما تطاول باعُها فلى من وراء المَجْدِ قلبٌ مُدَرَّبُ
وحسبىَ أنى فى الأعادى مبغَّضٌ وأنى إلى غُرِّ المعالى محبَّبُ
وللحِلْم أوقاتٌ وللجهل مثلُها ولكنَّ أوقاتى إلى الحلم أقرب(١)
ولا أعرف الفَحْشاء إلا بوصفها ولا أنطق العَوْراء والقلبُ مُغْضَبُ(٢)

وتموج أشعاره بمثل هذا الفخر الذى يُضْرم جلوةَ النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعاً إلى النهوض بجلائل الأعمال . وجامعة ثالثة تجمعه بالمتنبى هى استشعار البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربى أصيل ، نفس إحساس المتنبى الذى دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيبه ، كذلك صنع صنيعه الرضىُّ ، فهو دائم التغزل بالبدويات ، دائم الافتتان بهن والتغنى بجمالهن وحسنهن الطبيعى ، وله فى ذلك أشعار بديعة من مثل قوله :

يا ظَبْيَةَ البانِ تَرْعَى فى خَمائلهِ لِيَهْنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مَرْعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربهِ وليس يُرْويك إلا مَدْمَعُ الباكى
سَهْمٌ أصاب وراميه بذى سَلَمٍ مَنْ بالعراق لقد أبعدتِ مَرْماكِ(٣)
حكتْ لِحاظُكِ ما فى الرِّيم مِن مُلَحٍ يومَ اللِّقاء فكان الفَضْلُ للحاكى
أنتِ النعيمُ لقلبى والجحيمُ له فما أمرَّكِ فى قلبى وأحلاكِ

وهو نسيب رقيق كنسيب العذريين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يبثُّ فيه يأسه من آماله فى الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللائى يتعثر فى شباك هواهن ، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبِّه . وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد فى الشريف الرضىِّ ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لرثائه جده الحسين ، وفى الديوان مراث كثيرة لأم الرضىِّ وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأبى إسحق الصابئ ، وله فى جده الحسين خمس مراث ، وهو يتسع أحياناً فى بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتفى بأن نعرض أهمها فى رأينا ، وهى آخر مراثيه لجده ، وأعتقد أنه أراد بها النُّواح عليه وأن ينشدها النَّاحةُ فى بغداد وكَرْبلاء ، وهو يستهلها بقوله :

---

(١) الجهل هنا : الغضب

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة

(٣) ذوسلم : موضع بالحجاز . والسلم : شجر من العضاه .

كَرْبَلا لازلتِ كَرْباً وبَلا ما لَقِى عندكِ آلُ المصطفىَ

ويصوِّر الموقعة وما سال فيها من دماء طاهرة ودموع جارية ، والنساء اللائى كن مع الحسين يمسحن الرمل عن نحرْه الملطَّخ بالدماء ، ولم تلبث الوحوش أن طعمت من أشلاء القتلى أرجلاً طالما قامت إلى الصلاة وأيْماناً طالما رُفِعَتْ إلى السماء ووجوها طالما تَبتَّلَتْ إلى الله ، وينشد :

يا رسولَ الله لو عاينتَهم وهمُ ما بين قَتْلَى وسِبَا
لرأتْ عيناكَ منهم منظراً لِلْحَشَا شَجْواً وللعيْن قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا أمَّةَ الطُّغْيانِ والبَغْيِ جزَا
غارسٌ لم يأْلُ فى الغَرْسِ لهم فأذاقوا أهلَهُ مُرَّ الجنَا
جزَرُوا – جَزْرَ الأضاحِى – نَسْلَهُ ثم ساقوا أهْلَهُ سَوْقَ الإِما[1]

وهو يصوِّر ركْب الحسين ، أما الرجال فسُفكت دماؤهم الذكية ، وأما النساء فسيقوا سبيَّات محمولات على ظهور الإبل دون مهاد أو كساء يَسْترحن عليه ، فيا للظلم ويا للقسوة ، وهن مشعَّثات الشعور مكشوفات الوجوه والأعناق يهتفن باسم رسول الله ، ولا من يُشْفق عليهن أو يرحم . ويقول الرضى : أهكذا يكون جزاء رسول الله فى سبطه وآله ؟ يَغْرس وتُفْتَحُ لدينه الحنيف الأرض ولا يذوق أهله سوى الحنظل ، بل إنهم لَيُذبَحُون ذبح الأضاحى ، يُذْبح الرجال ، وتساق النساء سَبيَّات ، ويتجه الرضى إلى جده الحسين منشداً :

يا قتيلاً قوَّض الدهرُ بهِ عَمَدَ الدينِ وأعلامَ الهُدى
قتلوه بعد علمٍ منهمُ أنه خامسُ أصحاب الكِسا[2]
مرهقا يدعو ولاغَوْثَ له بأبٍ بَرٍّ وجَدٍّ مُصْطفى
وبأمٍّ رَفَع الله لهـا عَلَماً ما بين نِسْوان الوَرَى
مَيِّتٌ تبكى له فاطمـةٌ وأبوها وعلىٌّ ذو العُـلا
لو رسـولُ الله يَحْيَا بعـده قَعَدَ اليومَ عليه لِلْعَـزَا

والقصيدة كلها لوعات وأنات على هذا النحو ، وعُنى الرضى برصف كلماتها بحيث لا تعلو على أفهام العامة ، ولتكون صالحة لكى يردِّدها الناحة . وجعلت هذه السهولة

(١) الأضاحى : ذبائح عيد الأضحى . الإما : الإماء .

(٢) يشير إلى حديث ترويه الشيعة الإمامية : يقولون إن الرسول ﷺ ألقى كساء عليه وعلى السيدة فاطمة الزهراء وعلىٌّ وابنيه الحسن والحسين ، وقال : هؤلاء جِزْئى وأهل بيتى ، ولذلك سموا أصحاب الكساء .

فى ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى ، وليست من الانتحال فى قليل ولا كثير ، إذ هى سهولة مقصودة لتخف على ألسنة النائحة والناس .

مهيار (١)

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْهِ الدَّيْلمىّ الفارسى الأصل ، وُلد على ما يظهر حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة ويغلب أن يكون ميلاده بعدها بقليل ، وليس لدينا معلومات دقيقة عن مسقط رأسه ونشأته ، فهل وُلد ببغداد وبها نشأ ، وكان بها مجوس كثيرون ، أو وُلد فى بلاد الدَّيلم ، وهاجر منها وحده أو مع أبيه ؟ . وأغلب الظن أنه وُلد ببغداد وتربَّى بها وتثقف . ولا نعرف من كانوا أساتذته وتخرَّج على أيديهم ، ويبدو أنه كان فيه ذكاء حادٌّ جعله يحسن العربية سريعاً ، ويُرْوَى أنه كان يسكن فى الكرخ مستقرّ شيعة بغداد الإمامية ، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكى يدرس عقيدتهم ، حتى إذا أسلم انتظم فى سلكها .

ونظن ظنا أنه كان يحضر قبل اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية فى زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يُلْقِى دروسه فى الكَرْخ . ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظنا أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة فى ديوانه ، ونراه يذكر فضل أبى العباس الضبى عليه فى إرشاده وهدايته إلى الإسلام ، إذ يقول فى إحدى مدائحه له :

هو المُنْقذى من شِرْكِ قومى وباعثى على الرُّشْد أن أُصْفِى هواىَ محمَّدا
وأَتْرُكَ بيتَ النارِ يبكى شَرَارُه علىَّ دما إذ صار بيتىَ مسجدا

والمظنون أنه زار أبا العباس الضبى حين كان وزيراً بمدينة الرَّىّ . على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضى . ولكن ليس من الضرورى أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً . ويقال إن الرضى أعانه فى أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة ، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط ، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه ، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب .

وإذا كنا ترددنا فى أن يكون إسلامه على يد الرضى فى سنة ٣٩٤ فما لا يقبل شكا أنه

---

(١) انظر فى ترجمة مهيار تاريخ بغداد ١٣ / ٢٧٦ واليتيمة ١ / ٢٨٤ والمنتظم ٨/ ٩٤ وابن خلكان ٥ /٣٥٩ وعبر الذهبى ٣ / ١٦٧ والشذرات ٣ / ٢٤٢ والنجوم الزاهرة ٥ / ٢٦ والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٥٥ .

هو الذى رعاه أدبيا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، فمضى معه يثقفه ويدربه ، حتى خرّجه شاعراً بارعاً . والرضىُّ بذلك يُعَدُّ استاذه الفنى ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسيج يلاحَظ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غراره . وجهة ثانية لعلها أهم هى تمثُّلُ اتجاهاته الشعرية ، ونقصد اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والتروع إلى التبدّى أو النسيب والغزل بالبدويات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى ، بل يقف حجر عثّرة دون أمانيه .

وكان الرضى يفخر بمحتده الشريف وعروبته العريقة ، فبماذا يفخر مهيار؟ لقد اتجه بفخره فى بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعوبيا ذميماً ، على نحو ما يلقانا فى مثل قوله :

أعْجِبَتْ بى بين نادى قَوْمِها	أمُّ سَعْدٍ فمضتْ تسألُ بِى
قَومِىَ استولَوْا على الدهرِ فَتىً	ومَشَوْا فوق رءوسِ الحِقَبِ
عمَّموا بالشمس هاماتِهمُ	وبنَوْا أبياتَهم بالشُّهُبِ
قد قَبَسْتُ المجد من خيْرِ أبٍ	وقبستُ الدينَ من خيرِ نبى
وضممتُ الفخرَ من أطرافهِ	سُؤْدُدَ الفُرْسِ ودينَ العربِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر فى كتاب العصر العباسى الأول عند بشار ، وأخذ يَخْفُت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية - كما أشرنا إلى ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى - وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعوبيين ومايدّعونه من تفوق الفرس والروم على العرب فى الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبى عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجَيْهانى وزير السامانيين وكان يُظْهر الإسلام ويبطن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبدّيهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنما وجد الجيهانى الفارسى فى مهيار مستجيباً له ، لا فى هذه البائية وحدها ، بل أيضاً فى قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية ، ويملأ شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات ، مستلهماً فى ذلك أستاذه الرضىّ ، بمثل قوله :

يا نسيمَ الصُّبحِ من كاظِمةٍ شَدَّ ماهِجْتَ الجوَى والبُرَحا(١)
الصَّبَا ! إن كان لابُدَّ الصَّبا إنها كانتْ لقلبي أرْوَحا
يا ندامايَ بِسَلْعٍ هل أرى ذلك المَغْبَقَ والمُصْطَبَحا(٢)
اذكرونا مثل ذِكْرانا لكم رُبَّ ذِكرى قَرَّبتْ من نَزَحا
واذكروا صَبًّا إذا غَنَّى بكم شَرِبَ الدَّمْعَ وعافَ القَدَحا
قد عرفتُ الهمَّ من بعدكمُ فكأني ما عرفتُ الفَرَحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار في البناء اللفظي ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التي تحدثت عنها بالتفصيل في كتاب «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية في شعره وأن اللفظة الحادة كانت تضلُّ منه ، فكان يدور حول الفكرة دوراناً يصيب شعره أحياناً بغير قليل من الركاكة والإسفاف ، وكان مع ذلك يُطيل قصائده طولاً مسرفاً ، مما جعل رُقْعَتها تتسع أو قل رُقَعها ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل في ذلك من الحشو والاعتراض . وحين أسلم أخذ يُكثر في شعره من ذكر مناقب أهل البيت ورثاء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضاً من سَبِّ الصحابة رضوان الله عليهم ، ويُرْوَى أن أبا القاسم بن برهان النحوي قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسيا وصِرْتَ تسبُّ أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسي والرافضيُّ في النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث في مطلعها شكواه من الزمن :

لَئِنْ نامَ دهريَ دون المُنَى فلي أُسْوَةٌ بِبَنِي أحْمَدِ
بأكرمِ حَيٍّ على الأرض قامَ ومَيْتٍ توسَّد في مُلْحَدِ
أتاكم على فَتْرَةٍ فاستقام بكم جائرين عن المقصِدِ
ووليٌّ حميداً إلى ربِّهِ ومَنْ سَنَّ ما سَنَّه يُحْمَدِ
وقد جعل الأمرَ من بعده لِحَيْدَرَ بالخَبَرِ المُسْنَدِ
وسَمَّاه مَوْلىً بإقرارِ مَنْ لو اتَّبع الحقَّ لم يَجْحَدِ

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية في مديح الرسول عليه السلام ، وهي تخلو

(١) كاظمة : موضع على الخليج العربي جنوبي العراق في الكويت .
(٢) سلع : جبل متصل بالمدينة .

من أى حرارة ، وكأنها نثر لُفّقت ألفاظه وهو فى البيتين الأخيرين يشير إلى ماتذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلى أو كما يسميه حَيْدَراً بالخلافة يوم غديرخُمّ ، إذ آخاه قائلاً - كما يروون - : علىٌّ منى كهرون من موسى ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . والأبيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تكاد تؤثر فى قارئها أى تأثير . وله فى رثاء على والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته ، وفيها يقول :

وشهيدٍ بالطَّفِّ أبكى السَّموا ت وكادتْ له تزولُ الجبالُ
يا غليلى له وقد حرَّم الما ءُ عليه وهْوَ الشراب الحلالُ
قُطِعَتْ وُصْلَةُ النبىِّ بأن تُقْـ ـطَعَ من آل بيتِهِ الأوصال
لم تُنجِّ الكهولَ سنٌّ ولا الشُّـ ـبَّانَ زُهْدٌ ولا نجا الأطفال
لهفَ نفسى يا آل طه عليكم لهفةً كلُّها جوًى وخَبال

وهو رثاء حار يمتلئ باللوعة والحسرة والنواح على الحسين ومن قُتل معه من آل بيته . ولمهيار مراث أخرى فى الحسين وآله تَجْمد فيها العاطفة فلا نار تتقد فى الأحشاء ولا لهب يستعر فى الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يضل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ فى مهد عربى يمكّنه دائماً من تملك السليقة العربية فى التعبير والصياغة .

ابن أبى[1] الحديد

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبى الحديد ، ولد فى « المدائن » سنة ٥٨٦ لقاضيها وأحد العدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أديبين ، لهما أشعار مليحة » . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيّع جميعا ، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حى الكَرْخ الشيعى

(١) انظر فى ترجمة ابن ابى الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن الفوطى ج ٤ ق ١ ص ١٩٠ وذيل مرآة الزمان (طبع حيدر آباد) ٦٢/١ والتكملة لوفيات النقلة للمنذرى (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد طبعت قصائده السبع العلويات فى إيران وطبعت مشروحة فى صيدا بلبنان وطبعت قصائده المستنصريات ببغداد . وله مؤلفات مختلفة ، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام على والفلك الدائر على المثل السائر

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات ، وهى فى مديح على بن أبى طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيعيا إماميا فى هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضيا غالياً فى الرفض ، إذ يخلع على الإمام علىٍّ صفات الله جل شأنه ، وكأنه حلَّ فيه وامتزج بذاته ، تعالى الله علواً كبيرا عما يلجّ فيه من مثل قوله فى علىّ أو كما يسميه حيدراً[1] :

والله لولا حَيْدَرٌ ما كانت الـ ـدُّنيا ولا جَمَعَ البريَّةَ مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوِّءتْ شُهُبٌ كَنَسْنَ وجَنَّ ليلٌ أدْرَعُ[2]
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافَعٍ والصُّبْحُ أبْيَضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ
وإليه فى يوم المعادِ حسابُنا وهْو المَلاَذُ لنا غَداً والمفزَعُ

فعلىٌّ علة الوجود من أجله خُلقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجُنَّته ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو - يومَ البعث - الذى سيحاسِبُ الناس على ما قدمتْ أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف فى حق الذات العلية ، فعلى ليس علة الكون والوجود ، فمثله مثل البشر جميعاً ، حقا هو صحابى جليل ، ولكن ذلك لا يرفعه على بشريته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (قل لا يعلم مَنْ فى السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ) وقوله : (عالمُ الغيب فلا يُظْهِر على غَيْبِه أحداً) . وبالمثل زعم ابن أبى الحديد أن الناس يعرضون على الإمام على ابن أبى طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جَلَّ شأنه .

ويتمادى فى علوياته الرافضة ، فيتعرض بالبهتان على أول من صدَّق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه فى الهجرة ، على الصديق أبى بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم فى السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم فى مرضه ونرى ابن أبى الحديد يزعم افتراء وبهتاناً أن الرسول أناب أبا بكر كى يقيم للناس الحج ثم عزله[3] ، وهو لم يُعْزَلْ إذ أقام الحج فعلاً للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم سبع

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا بلبنان) ص ١٠١ .

(٢) كنسْنَ : سرن ، جن : دجا . أدرع : مظلم .

(٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص ٤٦ .

عشرة صلاة ، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يُقْبَضْ نبيٌّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين فى الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبى الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة[1] . كما عزله عن الحج .وكل هذا غلو فى البهتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً فى تاريخ غير معروف تماماً ، ويبدو أنه تخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسى ويدبج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها فى السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان أُلحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسيا ضد العلويين يَحْطب فى حبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله فى المستنصر :

يا بنى هاشمٍ بكمْ يغفرُ اللّـ ـهُ الخطايا وَيَقْبل الأعمالا
أنتمُ بالنبىِّ أولى فإنْ شَـ ـكَّ جهولٌ فَلْيقرأ الأنفالا
وإليكم إرثُ النبىِّ تناهى وإليكم سرُّ الإلٰهِ تعالى

وقد يقال إن البيت الأول عام فى بنى هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث فى البيت الثانى أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعالى فى سورة الأنفال : (وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ فى كتاب الله) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام فى الميراث وأن العم وهو العباس يحجب ابن العم وهو على بن أبى طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول فى البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الأبيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشيعه عامة ، حتى لنراه يقول فى المستنصر :

وأنت الدّهْرُ يخفضُ كلَّ عالٍ بقوّتِهِ ويُمْسِكُ كلَّ هارِى[2]
ويُبْرِمُ ما يشاءُ بلا اعتسافٍ وينقض ما يشاء بلا اقتسارِ

وكأنه تمثل فيه ثانية غلوّه السالف فى على بن أبى طالب ، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويبرم الأمور وينقضها نقضاً .

ولا يزال يعمل فى دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمى وزير المستعصم وكان شيعيا فيستحثه على

(١) نفس المصدر والصفحة. (٢) هارى : متصدع يوشك أن ينهدم .

شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه ، وهو فى هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة على للرسول عليه السلام [1] ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل [2] ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغضّ من الشيخين العظيمين أبى بكر وعمر [3] . ومعروف أن لها عند الله الدرجة العظمى بما أدّيا للدين الحنيف من خدمات جلّى ، كُتبت – ولا تزال تكتب – فيها المجلدات الضخام .

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة طبعة أبو الفضل إبراهيم بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٢ /٥٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٥٦ .

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ١٠/٢٢٦ .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يَخْلُ شاعر من شعراء اليتيمة والدُّمْية والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَغَنَّى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التى تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلئ تاريخ الشعر العربى بأبطال لهذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يتَجرَّعون غصصه فى صبر ، مهما ألمَّ بهم اليأس ومايُطوَى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وَجْد لا يشبهه وجد وخطوب لا تدانيها خطوب . وهم دائما من العشاق العذريين الذين يتمعقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقدسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التى يتغنون فيها بسحرها سِحرًا يشغلهم عن كل شىء وعن كل مَتاع فى الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب العذرى العفيف الذى يتحول فى قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، وأصبح ظاهرة عامة فى بوادى نجد والحجاز طوال العصر الأموى ، وظل حيًّا بقوة فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسى الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك بشار و أبو نواس . غير أن الشعراء التالين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث ، بما أشاعوا فى غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبى تمام والبحترى وابن الرومى وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر فى بغداد وغير بغداد جماعات من الغزليين الماجنين . ولعل ذلك هو الذى دفع المتنبى فى أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر فى غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى ببغداد فى أوائل شبابه يتهالكن على اللهو ويُسْرفن فيه ، فصمم -كما مرَّ بنا- أن يتخذ البدويات الأعرابيات موضوعا لغزله ، حتى يردَّ إلى الغزل فى أيامه العفة والسمو والنبل والارتفاع عن الجسد والغريزة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وحتى يذيع فيه أريج الوجدان النقى الأفلاطونى البرىء ، كما يذيع فيه شَذَا الحنان الذى يكتظ به الغزل العذرى عند العرب وما يُطْوَى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر الملتاع الذى شدَّه المتنبى إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره مستخرجا منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك فى ترجمته ، على شاكلة قوله :

خُذِى نَفَسِى يا ريحُ من جانب الحِمىَ ... ولاقِى به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاك الجوِّ حِبًّا عَهِدْتُهُ ... وبالرغم منى أن يطولَ به عَهْدِى
ولولا تداوِى القلب من ألم الجوَى ... بذكر تلاقينا قضيتُ من الوَجْد
وما شَرِب العُشَّاق إلا بَقِيَّتِى ... ولا وَرَدُوا فى الحبِّ إلا على وِرْدِى

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته النجدية ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقى نفسه من جانب الحمى بِقطع من النسيم المعطَّر بِشَذَا صاحبته ، نسيم ربى نجد الذكىّ ، وإنه ليشعر بآلام ثقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء ذكريات لقائها ، ولولا هذا الدواء لمات أسى والتياعا . وياله من عاشق شرب كأس الحب ، حتى لم يُبْق لغيره منها سوى الثمالة ، وكأنه أبُ العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما يَرِدُ على وِرْدِه وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدُّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ، كما مرَّبنا فى ترجمته ، صَابًّا فى أشعاره منه ألحانا كثيرة من مثل قوله :

قُلْ لجيرانِ الغَضَا آهٍ على ... طِيب عيْشٍ بالغَضَا لو كان داما
نَصِلُ العَامَ ولا ننساكُمُ ... وقُصارى الوَجْد أن نَسْلُخَ عاما
حَمِّلوا ريحَ الصَّبا نَشْرَكُمُ ... قبل أن تحملَ شِيحاً وثُماما
وابعثوا أشباحكم لى فى الكَرَى ... إن أَذِنتم لجفونى أن تناما

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيح والثمام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة . والقطعة تفيض بالحنين لصاحبته وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينساهم ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل فى أن تحمل ريح الصبا نَشْرهم العطر حتى يردَّ إليه روحه ،

ويتمنى أن يرى صاحبته ولو خيالا أو شبحا فى النوم حتى تملأ نفسه بهجة وغبطة . ولصُرَّدُر أشعار نجدية أو فى نجد ومحبوباته بها بديعة ، من مثل قوله فى مطلع قصيدته المائية التى أشرنا إليها فى حديثنا عن شعراء المديح :

وقفنا صفوفًا فى الديارِ كأنها … صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها
يقول خليلى والظِّباءُ سوَانحٌ … أهذى التى تَهْوَى ؟ فقلتُ نظيرها
ويا عجبى منها يَصُدُّ أنيسُها … وَيدْنو على ذُعْرٍ إلينا نَفُورها
ووالله ما أدرى غداةَ نَظَرْنَنَا … أتلك سهامٌ أم كئوسٌ تُديرهاُ
فإنْ كُنَّ من نَبْلٍ فأين حَفيفُها … وإن كنَّ من خمرٍ فأينَ سرورُها
أراكَ الحِمىَ قُلْ لى بأىِّ وسيلةٍ … وَصلتَ إلى أن قَبَّلَتْكَ ثغورُها

وتصوير صُرَّدر نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديار كأنهم سطور بديع ، ولا نكاد نمضى معه حتى نشعر بروعة التصوير ودقة المشاعر . فصواحبه والظباء جنس واحد يدنو وحشيُّه مذعورا ويصد أنيسه نفورا ، ولا يدرى ما الذى أودعته ظباء الإنس -حين نظرن اليهم- قلوبهم وأفئدتهم ، هل أودعتها نُبلا قاتلا ، أوكئوسا من خمر تلذ الشاربين . ويظل فى حيرته ويتساءل إنها إن كانت نَبلا فأين حَفيفها ودويُّها ؟ وإن كانت كئوسا فأين سرورها ومتاعها . ويلتفت إلى شجر الأراك وبراهنّ يتخذن منه للسواك ، فيسأله مذهولا كيف وصل إلى ثغورهنّ . وكلها حيرات تصور لوعات هذا العاشق المفتون ، ومن بديع غزلياته قوله :

نُسائل عن ثُماماتٍ بِحزْوَى … وبانُ الرَّمْلِ يعلم مَنْ عنَيْنا
وقد كُشِفَ الغِطاءُ فما نُبالى … أصرَّحْنا بذكركِ أم كنَيْنا
بنفسى رامياتٌ ليس تَفْنَى … نصُولُ سهامهنَّ إذا رَمَينا
وأمسينا كأنّا ما افترَقْنا … وأصبحنا كأنّا ما التقَيْنا

إنه يمشى على استحياء فى ديار صواحبه بحزوى يسأل عن نبات الثمام ، وكل شيىء فى الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيئة سرِّه ، فقد كشف الغطاء وذاع السر المخبوء . وإنه ليفدى بروحه من رمته بسهامها ، ويقول إن سهامها لا تفنى أبدا ، فهى ما تنى ترسلها على المعجبين والمحبين . والبيت الأخير حكمة بديعة تصدق على كل شىء فى الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع .

وهذا الوجد فى شعر الغزل البدوى وما يثير فى النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوى إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبهم للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع فى الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير معبِّر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنىَّ لهم ! ، فمضوا يتغنون به فى حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله فى صفين متقابلين ، ويقف منشد بينهما ، يرتِّل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمه الصوفية وتارة مما نظمه الشريف الرضى ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتهما البدوية النجدية فى الغزل ، لما أحسوا فى هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهى سعة تلاحظ أيضا فى الغزل الصوفى ، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هيأ لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفى ، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجدانى الصافى ، على نحو ما سنرى عند الحاجرى والتَّلَعْفَرِىّ .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوى الذى شدَّه المتنبى إلى قيثارته ظل الشعراء بعده لافى العراق وحده بل فى جميع الأقاليم العربية يشدُّونه إلى قيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووَجْدهم وما يثيران فى القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت ينابيعه تفجرا فى مقدمات المدائح النبوية التى أخذت تجرى على كل لسان منذ القرن السابع الهجرى . ومرَّ بنا فى الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغنى الجوارى والحرائر فى بغداد لزمن أبى حيان التوحيدى ، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعمائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنين بأشعار غزلية تَدْلَع الوجد والحنين واللوعة فى قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتتفتَّت قلوبهم وتنحدر دموعهم ويعلو نحيبهم ، ومنهم مَنْ يسقط مغشيا عليه ،ومَنْ يَلْطم وجهه ويخرِّق ثيابه أو يمزِّقها ، ومن يضرب الأرض بقدمه أو بجسده ويُرْغى ويُزبد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يُعَدّون أو قل لا شك أنهم كانوا يُعَدُّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يزلزلون الأرض – كما يقول أبو حيان – بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودماثتهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبيعى أن يتكاثر شعراء الغزل فى هذا العصر كما تكاثروا فى العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعدَّاهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومَن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة فى القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله (١) لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرف بلهٍ ، وقيل بل لأنه كان غاية فى الذكاء فلقِّب بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بَخْتيار ابن عبد الله المولَّه أى الهائم صبابة وعشقا ، وحرِّفت الكلمة فى بعض الكتب فقيل المولد بدلا من الموله ، وهو تحريف واضح . وذكره العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف يتزيّىٌ بزىّ الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يغنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغانى) القدماء ، فهم يتهافتون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحوَّم على عَذْب المشرب » . ثم قال أنشدنى لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زارَ مَنْ أحيَا بزورتهِ والدُّجَى فى لَوْنِ طُرَّتِهِ
يا لها من زورةٍ قَصُرَتْ فأماتتْ طولَ جَفْوَتِهِ
آهِ من خَصْرٍ له وعلى رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيقَتِهِ
يالَهُ فى الحسن من صَنَمٍ كلُّنـــا من جاهليَّتِهِ

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لخفتها ، والدقة واضحة فى تشبيهاته وطباقاته ، وأيضا فى مراعاته للنظائر فى الكلمات كما فى البيتين الأخيرين . وقد جعل محبوبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جمالها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلهم عابد لها مسحور . والكلمات والأبيات معدَّة حقا للغناء ، إذ كان أستاذا فى زمنه من أساتذة الأغانى ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادى فى شعره بين الصناعة والرقة وله ديوان شعر بأيدى الناس » وقال ابن الجوزى فى المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنه ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله فى مطالع إحدى قصائده :

يا بَرْقُ إن تجفُ العقيقَ فطالما أغنتْه عنك سحائبُ الأجْفانِ
هيهات أن أنسى رُبــاك ووقفةً فيها أُغِيرُ بها على الغَيْران
ومُهَفْهفٍ ساجى اللَّحاظِ حفظتهُ فأضاعنى وأطعتُه فعصــانى
يُصْمِى قلوبَ العاشقين بمقلةٍ طَرَفُ السِّنان وطَرْفُها سِيَّان

(١) أنظر فى ترجمة الأبله للمنتظم والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤/٤٦٣ والوافى للصفدى ٢/٢٤٤ وعبر الذهبى ٤/٢٣٨ والشذرات ٤/٢٦٦ .

ما قام معتدلا يهزّ قوامَهُ إلا وبانَتْ خَجْلَةٌ فى البانِ

وفى الأبيات انسياب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب البرق المختفى مع السحاب عن ديار صاحبته بأن سحائب الأجفان ودموع العيون حرية أن ترويها ويقول إنه حفظ صاحبته فأضاعته ، وأطاعها فعصته ، ويعقد صلة بين طَرْفها وطرف السنان ، فكلاهما يصمى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبته لا يشبه قوام شجر البان فى اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يَسْرى فيه خجل وحياء شديد لحسن قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبابةَ إلا مَنْ يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضى فى عرض أشعار الغزليين لكثرتهم ونكتفى بالحديث عن ابن المعلم والحاجرى والتلعفرى ، إذ هم أهم من نظم الغزل فى العصر ، وقد استطاعوا النفوذ فيه إلى ضرب جديد من الشعر الوجدانى يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرِّح الذى يستأثر بالقلوب والأفئدة .

ابن المعلم (١)

هو أبو الغنائم نجم الدين محمد بن على المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهُرْث من أعمال واسط جنوبى العراق سنة ٥٠١ وتوفى بها سنه ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، فقصد بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سِبْط ابن التعاويذى بعامل التنافس . وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : « متقدم الهُرْث شعره الديباج الملمَّع المعلم ، طرازه المعنَى الممنَّع المحكم ، فلفظُه السِّوارُ ومعناه المِعْصَمُ . . كلامه حُلْو حالٍ ، عالٍ غالٍ ، صَفْو من الرَّنَق خالٍ . . فأين مهيار من أسلوبه ! لو عاش شرب من كوبه » . ويقول ابن خلكان : « كان شاعرا رقيق الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رقته . . وأكثر القول فى الغزل والمدح وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعانى ، يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه السامعون » . وأتاحت له رقة شعره الوجدانى صلة وُثْقَى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

---

(١) انظر فى ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم العراق ٤/٢/٤٣٠ وابن خلكان ٥/٥ والوافى بالوفيات ٤/١٦٥ وعبر الذهبى ٤/٢٧٩ والشذرات ٤/٣١٠ والنجوم الزاهرة ٦/١٤٠ وانظر ص ١٠٢ .

الرفاعى ، فكانوا يتغنون بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبهم الصوفى ، ويقول ابن خلكان : « سمعت جماعة من مشايخ البطائح (يريد أصحاب الرفاعى) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المنتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعى وغنوا بها فى سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجملة فشعره يشبه النَّوح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه » . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النَّوح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقى فى تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التى لا تنطفىء فى فؤاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشقى به المحب ويبكى وينوح ولا مغيث ولا مخلِّص ولا معين ولا أمل فى لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَضَى من أهل نَجْدٍ أَرَبَهْ ... لم يَهِجْ نَشْرُ الخُزَامى طَرَبَهْ
عَلِّلُوا الصَّبَّ بأنفاس الصَّبا ... إنها تَشْفِى النفوسَ الوَصِبَهْ
فَهْى إن مرَّتْ عليه نشرَتْ ... ما انطوى عنه وجلَّتْ كُرَبَهْ
كلفى فيكم قديمٌ عَهْدُهُ ... ما صَباباتى بكم مُكْتَسَبَهْ
عن جفونى النومَ من بَعَّدَهُ ... وإلى جسمى الضَّنَا مَنْ قرَّبَهْ
فصِلُوا الطَّيْفَ إذا لم تصِلوا ... مُسْتَهاماً قد قطعتم سَبَبَهْ

فهو لم يقض أربا من صاحبته ، وذلك هو مصدر لهفته ولوعته ، وإنه ليتمنى أن تمرَّ به أنفاس الصَّبا مَحمَّلة بنشرها علَّها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه لَيكْلَفُ بها أشد الكلف ، كلَفاً كأنما فُطر عليه ، فهو يعذبه ويُشقيه ويسهده ويُضنيه ، وإنه ليتمنى أقل التمنى : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أنَّى له ، وهو لا ينام ، بل يظل ليله – مثل نهاره – يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذى أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيلا . وينشد له العماد قطعة من كلمة له سارت وأنجدت وغارت حتى شدا بها الشادى ، وحَدا بها الحادى ، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوُجْد [1] وأصحاب القلوب الهوى والوَجْد ، وهى مطلع لإحدى مدائحه وفيها يقول :

تَنَبَّهِى يا عَذَباتِ الرَّنْدِ ... كم ذا الكرَى ؟ هبَّ نسيمُ نَجْدِ
مرَّ علَى الروضِ وجاء سَحراً ... يَسْحَبُ بُرْدَىْ أَرَجٍ وبَرْدِ

---

(١) الوجد : اليسار والسعة

حتى إذا عانقتُ منه نَفْحَةً ... عاد سَمُوماً والغرامُ يُعْدِى
واعجباً منىَ ! أستنشق الصَّبا ... وما تُريد النارَ غيرَ وَقْدِ
أُعَلِّلُ القلبَ ببانِ رامةٍ ... وما ينوب غُصُنٌ عن قَدِّ
وأسأل الرَّبْعَ ومَنْ لى لو وَعَى ... رَجْعَ الكلام أو سَخَا بِرَدِّ
أَأَقتضى النَّوحَ حماماتِ اللِّوى ... هيهاتَ ما عند اللِّوى ما عِنْدِى
بانوا فلا دارُ العقيق بعدهم ... دارٌ ولا عَهْدُ الحِمَى بِعَهْدِ

والقطعة تكتظ بحب محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعا بنيرانه ، وبينما هو فى آلامه وغصصه التى يتجرعها محزونا إذا نسيم نجد يهبُّ محملا بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سَموما ، بل سُمًّا . ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحا سموما ساخنا ، وإنه ليزيد نار حبه وَقْدا واشتعالا . ويتلفت يسأل الربع عن محبوبته ، وليس عند الربع من جواب ، وإنه ليئنّ وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتئن معه ، فهو أولى من اللِّوى بالأنين والنواح ، إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام ، فقد رحلت صاحبته ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شىء ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى فى فَنِّها وحلاوتها وحسنها كما يقول العماد الأصبهانى :

أرُقىً وهو المحبُّ المستهامُ ... ما يُداوَى بالتعاويذ الغـــرامُ
قَصُرَتْ عن بُرْئِهِ أيدى الأسَا ... كيف حَسْمُ الداء والداءُ عُقامُ (١)
يا لَدِيغَ الحدَقِ النُّجْلِ متى ... تجدُ البُرْءَ وحاميهِ الحُسامُ
ودواءُ الحب فى شَوْكِ القَنا ... مُتْ لَديغاً كلُّ دِرْياقٍ سِهامُ
قل لِنُوَّام الغضَا عن ساهرٍ ... مَنْ تجافاه الهوى كيف ينام
غِبْتمُ بالشمس عن ناظرِهِ ... والضُّحىَ مثلُ الدُّجىَ كلٌّ ظلام

فحبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويذ والرُّقَى ، وقد عجزت عن برئه وشفائه أيدى الأسا والطب والعلاج ، إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للديغ الحدَق النُّجْل الساحرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم فلا يَدْرى المصاب به أيشرب رَحيقاً شافيا أم سُمًّا قاتلا . ويتجه إلى أهل الغضا يشكو سهاده وجفاء محبوبه ، فقد غابوا بشمسه عن

(١) الأسا : المداواة والعلاج . عقام : لا يشفى منه .

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجاه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وأصبح كل شئ قِطَعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعبثا يرى نور محبوبته فقد أرْخىَ الظلام من حوله سُدوله ولم يعد هناك أمل فى انفراجه ، وهو يئنُّ وينوح نواحا لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل فى ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجدانى كان خليقا أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج فى حنايا صدورها وقلوبها من الحب الإلهى وكل مايُطْوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظمأ لا ينتهى إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته - كما تصوّر شيوخهم - بركةُ أنفاسهم ، أوكما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الربانى الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ فى وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مرّ يوما على ابن الجوزى وهو يعظ الناس وهم مزدحمون فى مجلسه ، وكان عجبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منوها به .

الحاجرى[1]

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سِنْجر بن بَهْرام بن جِبْريل بن خُمار تِكين بن طاشتِكين الإربلى المعروف بلقبه الحاجرى نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها فى شعره ، فنُسب إليها . وهو إربلى الأصل والمولد والمنشأ ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئا عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندى من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شىء من اليسار ، إذ لا نراه فى ديوانه مشغولا بممدوحين مختلفين يُهْديهم أشعاره ، إلا ما كان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا بإربل ، ولعله أراد أن يستلّ من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء فى مقدمة مدحته إنه كان السبب فى مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل فى سنة ٦٢٦ بينما كان الحاجرى معتقلا فى قلعتها لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذى دبّر له هذا الاعتقال ، وله فى ذلك أشعار يشكو فيها من حبسه مثل قوله :

قَيْدٌ أُكابِدُهُ وسِجْنٌ ضَيِّقٌ يا ربَّ شابَ من الهمومِ المَفْرِقُ

ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك

---

(١) انظر فى ترجمة الحاجرى ابن خلكان ٥٠١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ وديوانه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان (١٧/٥) منه مخطوطات كثيرة . وهو حرى بأن يحقق تحقيقاً علمياً .

المعظم مظفر الدين كوكُبوريّ والى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ وتقدم عندَه وتزيّا بزيّ الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠ فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت فى مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدرى أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهيرة ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها فى شوال سنة ٦٣٢ ويقدِّر ابن خِلِّكان عمره بخمسين سنة . ويقول : «له ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والمواليا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قلّ من يجيد فى مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصَّر فى الباقى ، وله أيضاً «كان وكان» واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له فى غير هذا الموضع . وأول ما نقرأ فى ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا ، وفيه يقول :

ما للدموع تسيلُ سَيْلَ الوادى ... أحَدَا بِرَكْبِ العامريَّة حادى
نعم استقلّوا ظاعنين وخلَّفوا ... ناراً لها فى القلب قَدْحُ زِناد[1]
ما كان أطيبَ للوداع عناقَنا ... لو لم يكن منا عناقَ بِعاد
يا سائقَ الوَجْناء غيرَ مقصِّر ... يطوى المفاوز من رُبًى ووهاد[2]
مالى إليك سوى التحية حاجةٌ ... تلقى سُعادَ بها ودارَ سُعاد
عَرِّجْ برامةَ إنَّ رامةَ منتهى ... أملى وغايةُ بُغْيتى ومرادى[3]
يأيها الرَّشأ الذى بلحاظهِ ... دَعَجٌ يصول به على الآسادِ[4]
لله فى كَبِدِى التى أحرقتَها ... عَبَثاً بجمرة خَدِّك الوقّادِ

ويلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفد الديوان جميعه بما فيه من مخمسات ودوبيتات أو رباعيات ، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالبدويات الذى قرأناه عند المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، وكأن الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذى سميناه بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين ثَرٍّ لا يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد فى قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقته صاحبته إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

---

(١) قدح الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين .

(٢) الوجناء : الناقة الشديدة .

(٣) رامة : موضع بالبادية .

(٤) الدعج : اشتداد السواد والبياض فى العين .

بتحية رقيقة ، وإنه ليذكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعطفاً لكبده التى أحرقتها بجمرة خدها الوقاد ، ويحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبته يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو الريق ، يقول :

ويلاه من بَـرْدِ رُضابٍ لهـا　　　أشكو إلى العُذَّال منه الحريقْ

وهو فى أثناء هذا الحريق الذى يأخذ فؤاده من كل جانب يلتاع لوعات ممضة ، كان يروّع منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التى تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبته فى رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إنَّ الأُلى رحلوا غداةَ مُحَجَّرٍ　　　ملئوا القلوبَ لواعجَ الأحزانِ
نزلوا برامةَ قاطنين فلا تَسَلْ　　　ما حلَّ بالأغصان والغِزْلانِ
فلأبعثنَّ مع النسيمِ إليهمُ　　　شكوى تَميل لها غُصونُ البان
يا عاذلى فيمن أحبُّ جهالةً　　　عنى إليك فليس شأنُك شانى
لمْ لا أحِنُّ إلى الحجازِ صبابةً　　　ويجودُ دمعُ العينِ بالهمَلان

فقد رحلت صاحبته عنه وتركته بمحاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت رامةَ فأخجلت بقدِّها وجمال عينيها الأغصان والغزلان ، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقُّ له وتذكره ، ويلتفت إلى عذوله ينهاه أن يتعرض له فليس من دربه ، وليس ذلك من شأنه ، ويتساءل إن كل محب ليصبو قلبه إلى الحجاز ونازليه ، ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هى لغة الشعر الوجدانى الذى ينساب فى النفس انسياباً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صوّر فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبته كأقوى ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً :

أأحبابَنا بِنْتُمْ عن الخَيْف فاشتكتْ　　　لبُعْدكمُ آصَالُها وضُحاها
كأنكمُ يومَ الرحيلِ رحلتمُ　　　بنومى فعينى لا تُصيب كَراها[1]
رعى الله ليلاتٍ بطيب حديثكم　　　تقضَّت وحيَّاها الحَيا وسقاها
فما قلتُ إيهٍ بعدها لمسامرٍ　　　من الناس إلا قال قلبىَ آها
متى تنقضى أيامُ ذلِّى وأجتنِى　　　ثمارَ وصالٍ قد حُرِمْتُ جَناها
وأستصحبُ القومَ الذين بمهجتى　　　لفقدهمُ نارٌ يَشِبُّ لَظاها

---

(١) الكرى : النوم .

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلمُّ ليلا بطرفه ، وهو يذكر ليلات سمره مع صاحبته ويدعو لها مذيبا فى دعائه حنينا حارا ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحيانا لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأ الهموم أحشاءه ، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبته ويقتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التى تستعر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعانى والوجد والصبابة كقوله فى فاتحة مخمس :

خليلىَّ عُوجا بالغُوَيْر وكُثْبِهِ ولا تمنعا المشتاق من لَثْم تُرْبِهِ
هو الصبُّ يُصْبيه الهوى دون صَحبِهِ خُذَا من صَبا نَجْدٍ أماناً لقلبهِ
فقد كاد ريَّاها يطير بلُبِّهِ

والغوير : ماء فى بادية الشام ، والديوان يطفح بأسماء المواضع والمنازل فى نجد والحجاز . وفى ديوانه رباعية يُذيب فيها وجده وحبَّه قائلا :

حيَّا وسَقَى الحِمىَ سَحابٌ هامى ما كان ألذَّ عامَهُ من عامِ
يا علوةُ ما ذكرتُ أيامكمُ إلا وتظلَّمْتُ على الأيام

وقد نوه القدماء طويلا بما فى شعره من انسياب موسيقى رائع . وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفى دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات فى مدح خير البريات » وهى مجموعة من المدائح النبوية ، لم يضمنّ ديوانه منها شيئا .

التَّلَّعْفَرِىّ (١)

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّلَّعْفَرِىّ نسبة إلى « تلّ أعفر » بين سِنْجار والموصل ، ويروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكّام والأمراء على عادة الشعراء فى عصره ، ولم يكتف بأمراء موطنه ، فقد اتجه بمديحه أيضا إلى أمراء الشام ،

(١) انظر فى ترجمة التلعفرى ابن خلكان ٧/ ٤٠ ، ٤٥ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/٥٤٦ والنجوم الزاهرة ٧/٢٥٥ ، ٣٧٢ والقلائد والمفلوكون ص ٢٦٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٥ / ٣٤٩ وديوانه طبع قديماً فى القاهرة وبيروت .

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبي الذى ظل مستولياً على صولجان الحكم فى دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيرا من العطاء الجزل ، غير أن التلعفرى كان مغرّى بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجعه فى ذلك كثيرا ، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر ، وفى ذلك يقول :

أقلعتُ إلا عَنِ العُقارِ وتُبتُ إلا مِنَ القِمارِ
فالكأسُ والقَمْرُ ليس يخلو منهما يمينى ولا يسارى

ولما أعيت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبُها الملك الناصر الأيوبي ، فقرَّبه منه ، وجعله من جُلسائه ، وقرَّر له راتبا ، راجيا أن ينوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة فى دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بثيابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادَى فى حلب من قِبَل السلطان : « مَنْ قامر مع الشهاب التَّلَعْفَرِىّ قطعنا يده » فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفى ، وظل بها يستجدى ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديدا . ورحل إلى مصر فى هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتفى به وأضفى عليه عطاء وفيرا أتاح له بأخرة من حياته عيشا كريما . وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إذا ما باتَ من تُربٍ فِراشى وبتُّ مجاورَ الربِّ الكريمِ
فَهَنُّونى أُصَيْحابى وقولوا لك البُشْرَى قدمتَ على رَحيمِ

وليس فى الديوان مدحة من مدائحه ، إلا ما قد يشير إلى بعضها فى الأبيات التى يختتم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلا ، وهو غزل من طراز غزل الحاجرى ، أو هو بعبارة أدق شعر وجدانى يسيل رقة وعذوبة وسلاسة ، وكأنه الماء النمير حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما ابْتُلى به من القمار ، وهو فيه يجرى على هذا النمط الوجدانى الرائع :

أىَّ دَمْعٍ من الجفون أسالَهْ إذ أتته مع النسيم رِسالَهْ
سَلْ عقيقَ الحِمىَ وقُلْ إذ تراه خالياً من ظِبائهِ المختالَهْ

أين تلك المراشفُ العَسَلِيَّا ... تُ وتلك المعاطفُ العسَّالَهْ (١)
ولـيـالٍ قضيتُهـــا كلآلٍ ... بغزالٍ تغارُ منه الغزالَهْ (٢)
بابليِّ الألحاظِ والرِّيقِ والألـ ... ـفاظِ كلٌّ مُدامَةٌ سَلْسَالَهْ
وسقيمِ الجفون والخَصْرِ والعَهْـ ... ـدِ فكلٌّ تراه يشكو اعتلالَهْ
أوقعَ الوهمَ حينَ يَرْمِى فلمَ نَدْ ... رِ يداهُ أم عينُهُ النبَّالَهْ

والقصيدة كلها تموج بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق ، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعرا ووجدا وهياما ، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر . وكأن كلا منها تجذب صاحبتها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرابة . وتلك الألحاظ والريق والألفاظ لصاحبته جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفتورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخصر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبته فهى تُدِلُّ عليه ولا تفى بوعدها ، وهكذا يشكو كلٌّ سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشعراء سهام العيون وكيف تصمى الأفئدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدى الفاتنة ، فلا يدرى أحد من أين يأتى النبل أمن الأيدى أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبى صاحبته قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوِّبانهما إلى العاشقين المفتونين . وله يصور ألم الفراق .

إنى لأعجبُ من محبٍّ مُشْفَقٍ ... عيْشا له من بعد حَثِّ الأيْنُقِ
يأيُّها الحادى بِعَوْدِك سالماً ... ألا رثيتَ لشملنا المتمزِّقِ
أَرِحِ المطىَّ وها فؤادى فاقتبسْ ... وامْنُنْ علىَّ وها دموعى فاستَقِ
ليسَ التعجبُ من رقادى – إذ مضى – ... فيه ولكنْ من جميعى إذ بَقِى
لدلالهِ ذُلِّى بـهِ ولحبِّهِ ... وهواه ما يَلْقَى الفؤادُ وما لَقِى

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبته ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستقِ من دموعه التى تتدافع سيلا مدرارا . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبته ولا يعجب من سهاده فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، وإنه ليتذلل ويضرع أسى ووجدا . وكل ذلك شعر وجدانى وقف عليه التلعفرى – مثل أستاذه الحاجرى مواطنه – حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العزَّازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) العسليات : المنسوبة إلى العسل ، وأراد بالمعاطف القوام . العسالة : اللينة.
(٢) الغزالة : الشمس .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجدانى ، على نحو ما يتضح من قوله فى مطلعها :

ليس يُروِى ما بقلبى من ظَمَا ... غيرُ برقٍ لائحٍ من إضَمِ(١)

إن تبدَّى لك بانُ الأجرَعِ(٢)

وأثيلاتُ النّقَا من لَعْلَعِ(٣)

يا خليلىّ قِفْ على الدار معى

وتأمَّلْ كم بها من مَصْرَعِ

واحترِزْ واحذَرْ فأحداقُ الدُّمَى ... كم أراقتْ فى رُباها من دَمِ

وللحاجرى موشح فى ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح فى موسيقاه ورصف ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفرى يتفوق على الحاجرى فى روعة شعره ، فالحاجرى هو الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبَّدها للتلعفرى ، وهما جميعا يجلِّيان فى غزلهما تجلية بديعة . ويقول ابن تَغْرى بَرْدى عن التلعفرى إنه كان يتشيع ، ولكنه لم يفسح لنحلته فى شعره .

٢

شعراء اللهو والمجون

مرَّ بنا فى حديثنا عن المجتمع فى الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس فى الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو واحتساء الخمر فى مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد فى بغداد ، وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص ، وفى يد كل منهم طاس مملوء خمرا يعبُّ منه عبًّا . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله فى اللهو والعبث ، ويصور محمد بن أبى المطهر الأزدى فى كتابه «حكاية أبى القاسم البغدادى» — الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع — بعض هذه المجالس فى القرن الخامس الهجرى وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إضم : الوادى الذى فيه المدينة المنورة.

(٢) البان : شجر. والأجرع : الرملة الطيبة المنبت.

(٣) أثيلات : شجر. النقا : القطعة من الرمل. لعلع : ماء بالبادية.

والورود وكيف كانت تهبّ للأنس رياح ، سحابها الأقداح ، وبرقها الراح ، وقد نطقت ألسنة العيدان والنايات تسند غناء الجوارى والمغنين بألحانها الشجية ، ويطيل فى وصف الخمر وأن منها ما كأنه عُصر من خَدّ الشمس ، وما هو أصفى من الماء ، وأرق من دمعة العاشق المهجور [١] . والكتاب إنما كتب فى وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه ، وينبغى آن لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هى صورة حياة طبقة خاصة هى الطبقة المترفة ، وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبّبُ جبينه عرقاً كى تملأ هذه الطبقة بطونها وتملأ مجالسها بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والعبث ، غير أنها قلما تعدّت أعياد المجوس والنصارى مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما كان ببغداد من اللهو والمجون ، وأن نقصر ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحَسْبه منها ما كان يستمتع به من لهو فى بعض الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من لهو البغداديين وخروجهم إلى الرياض وتنزههم فى الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون ويتثالون (كأنهم إلى نُصُب يُوفِضون) فينزلون الجوارى (السفن) فى رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصْده . . ويخترقون أشجاره ويقطفون ثماره ونوّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره وينزلون غيطانه وأنهاره ، ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان ، وتصفّق الغُدْران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما دَسَع (امتلأ) الرَّاوُوقُ (دَنّ الخمر وطاسه) طاب المشوق . . وكلما طرب العود ،زبجرت الرعود، وقد انتظموا فى سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أياما ـ لايطعمون مناما » [٢] ولم تكن حانات بغداد فى الكرخ ولاحانات المتنزهات وحدهما هما اللتان يجد فيهما عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمور بل كانوا يجدونها أيضا فى الأديرة .

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على ألسنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم يحاول أن يأتى فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الخمريات فى مجالس الوزير المهلبى ، ولعل جليسه القاضى أبا القاسم التنوخى كان المجلّى بين ناظميها بمثل قوله فى

---

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهير الدين الكازرونى (طبع بغداد)

إحدى خمرياته[1] .

وراحٍ من الشمسِ مخلوقةٌ بَدَتْ لك فى قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنه جامدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وهو تصوير بديع أن يجعل الخمر شمسا أو قطعة منها وماء غير جار والكأس نهارا وهواء جامدا . وكان كثيرون من أهل بغداد رجالا ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل على ذلك ما حكاه ابن خلكان – فى ترجمة صاحبها – عن الحسن بن عسكر الصوفى الواسطى قال : كنت ببغداد فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالساً على دكة بباب أبْرز للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبى ، فأنشدتُ متمثلا :

هواءٌ ولكنه جامدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وسكتُّ ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماما؟ فقلت : ما أحفظ سواه ، فقالت : إن أنْشَدَكَ أحدٌ تمامه وما قبله ماذا تعطيه؟ فقلت ليس لى شىء أعطيه ، فأنشدتنى الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأمّلتَها وهْىَ فيهِ تأملت نورا مُحيطاً بنارِ
فهذا النهايةُ فى الابيضاضِ وهذا النهاية فى الاحمِرارِ

فحفظت البيتين منها . وإنما روينا ذلك لندل على ظرف الجوارى فى بغداد وأن سوق الخمريات كانت رائجة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعانى المبتكرة الطريفة كقول البَبَّغاء فى عِتْق الخمر[2] :

وعريقة الأنسابِ والشِّيَمِ موجودةٌ والخلقُ فى العَدمِ
هى آدمُ الكَرْم المولَّد فى الـ ـدُّنيا وحَوَّا الخمرِ فى القِدمِ
ظهرتْ ونور الشمس فى فلكٍ من قبل خَلْق الصبح والظُّلَمِ
واشْتُقَّ معنى اسمِ السُّلافِ لها من كونها فى سالف الأمم

وبون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخى فى بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج الشعراء فى الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد أبى حيان التوحيدى غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهى تتشاجى وتتدلل وتتمايل وتتكسَّر متغنية بهذه الخمرية[3] .

---

(١) انظر ترجمة القاضى التنوخى فى ابن خلكان ٣٦٦/٣ والجواهر المضية ومعجم الأدباء ١٦٢/١٤ .
(٢) اليتيمة ٢٦٢/١ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٧٣/٢ .

مجلسُ صَبَّين عَميــــدَيْنِ ليسا من الحبِّ بِخِلْوَيْنِ
قد صيَّرا رُوحيْهما واحدا واقتسماه بين جِسْـــمين
تنازعا كأسا على لذَّةٍ قد مَزَجاها بين دَمْعين
والكأسُ لا تحسنُ إلا إذا أُدرْتَـــهـا بين مُحِبَّيْنِ

ومن قديم أيضا يمزج الشعراء بين النشوة بالخمر والنشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلا كما مر بنا يشربونها على أبسطة الربيع وبين آسه وورده وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلا يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعيا أن يتحدث الشعراء فى خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين فى الربيع ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج فى الشتاء كقول الوزير المهلبى فى إحدى خمرياته[1] :

الوردُ بين مضمَّخٍ ومضرَّجٍ والزهرُ بين مكلَّلٍ ومتوَّجٍ[2]
والثلجُ يهبطُ كالنِّثار فقُمْ بنا نلتذُّ بابنة كرْمةٍ لم تمزَجِ[3]

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت خمريات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضَتْ أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان ، وكثير منه كان يُقْصَدُ به إلى التندر والدعابة فى أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن فى العصر ، وهو – لاشك – وصمة معيبة فى جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحى أصحابها من ذكر العورات والإسراف فى الفحش ، ونعجب الآن أن يُتَّخذ ذلك ضربا من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعياهم أن يُسرُّوا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التى تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادر ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدَّته ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئْ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئاً عن التورط فى الخمر فحسب وإنما أيضاً عن التورط فى وصف الفواحش والتصريح بالآثام فى غير استحياء . وكان الذى دفع إلى ذلك ابن سُكَّرة وابن الحجَّاج فى القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدَّرْك

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٣٧ .

(٢) مضمخ : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ بالحمرة .

(٣) النثار : ما ينثر فى حفلات العرس والسرور من نقود أو حلوى .

الأسفل من التصريح بالمآثم على نحو ما نرى فى خمريات عبد الصمد [١] بن بابك المتوفى بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عُقارٌ عليها من دَم الصَّبِّ نَفْضَةٌ ... ومن عَبراتِ المستهام فَواقِعُ
معوَّدةٌ غَصْبَ العقولِ كأنما ... لها عند ألباب الرجال ودائع
تحيرُ دَمْعُ المُزْن فى كأسها كما ... تحيرُ فى وَرْد الخدود المدامع

وقد أبدع فى تصوير فواقعها فى كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الولهان ، ويقول إنها استردَّتْ منه وديعتها ، ففارقه عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمر المحمرة فى كأسها وبين الدموع وتحدرها على خدود المحبوبة الموردة ، وله من أخرى :

يا صاحبىَّ امزُجا كأسَ المُدام لنا ... كيما يُضِىء لنا من نورها الغَسَقْ
خمراً إذا ما نديمى همَّ يَشْرَبُها ... أخشى عليه من اللألاء يَحترق
لو رام يحلفُ أن الشمس ما غرُبتْ ... فى فيه كذَّبه فى وجهه الشَّفَقُ

وخوفه على نديمه من الاحتراق فى لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس غربت فى فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حمرتها ، وكأنها تركت عليها شفقها أو بصماتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون فى الخمر متفننين فى معانيها محاولين بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن التعاويذى والحاجرى والتَّلَعْفرى وصفى الدين الحِلِّى . وانحصرت موجة المجون والفحش بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالفيهم وكادت تنحصر فى شعر هزلى مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع [٢] الدِّلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل قوله :

مَنْ مضَغ الأحجارَ أدمتْ فَكَّهُ ... فالضِّرْسُ لم تُخْلَق لتليين الحصَى
من قطَع النَّخْلَ وظلَّ راجيًا ... ثمارَها فذاك مقطوعُ الرَّجا

وقد يحاول شاعر من باب الدُّعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف جدا من تماجنه وتعابثه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتفى ببيان عكوفه على الخمر وأنها كل لذته فى دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها فى ليالى رمضان

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الصمد اليتيمة ٣/٣٧٤ وابن خلكان ٣/١٩٦ وعبر الذهبى ٣/١٠٢ والنجوم الزاهرة ٤/٢٤٥ والشذرات ٣/١٩١ . وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان ٥/٢٥ .

(٢) انظر فى ترجمة صريع الدلاء تتمة اليتيمة للثعالبى ١/١٤ وابن خلكان ٣/٣٨٣ وعبر الذهبى ٣/١١٠ والشذرات ٣/١٩٧ وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان ٢/٦٥ .

قبل سحوره ، وفى ذلك يقول ابن السَّوادى (١) من شعراء القرن السادس متماجنا :

الصَّبوحَ الصبوحَ فى شعبانِ لا تُخِلُّوا به مع الإمكانِ
واسْقِنيها يوم الثلاثين فى الشَّـ كِّ وبعد السُّحور قبل الأذانِ

وبعد أن تماجن طويلا فى القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه وأنه بَراء من كل ما يصف به نفسه ، قائلا :

نِيَّتِى غَيْرُ ما سمعتَ وما كا ن لسانى عن نِيَّتِى تُرْجمانى

ومضى يذكر أن عُدَّته فى معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلى وفاطمة الزهراء والحسنين ، وبذلك محا كل ما جاء به فى قصيدته من تماجن ، مصرحا بعقيدته الشيعية وما يعتقده الشيعة فى شفاعة على والسيدة فاطمة والحسن والحسين . وما دمنا بصدد التماجن فحرى بنا أن نتوقف قليلا عند عَلَميه فى العصر : ابن سكرة وابن الحجاج .

ابن سُكَّرة (٢)

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادى الهاشمى ، وهو من سلالة على بن المهدى بن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى المشهور ، ويبدو أنه كان فى يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وتربيته وحياته إلا ما يصفه به الثعالبى فى اليتيمة من قوله : « هو شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الملح والطُّرف ، أحد الفحول الأفراد . جارٍ فى ميدان المجون والسخف ما أراد . . ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت ، منها فى قينة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عُرْضة نوادره ومُلَحه . وحكى بعض معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته – وهى ابنة عمه – أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره فى هجاء خمرةَ ، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم ، فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتاف ذكرها وهجائها . وتدل الأشعار التى أنشدها له الثعالبى على شاعرية خصبة فى الغزل وغير الغزل من مثل قوله :

---

(١) راجع فى ترجمة ابن السوادى وشعره الخريدة (قسم العراق) ٣٦٩/١/٤ وابن خلكان ٤٨١/٣ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/٣ وتاريخ بغداد ٤٦٥/٥ والمنتظم ١٨٦/٧ وعبر الذهبى ٣٠/٣ وابن خلكان ٤١٠/٤ والشذرات ١١٧/٣ ومرآة الجنان لليافعى ٤٢٧/٢ والوافى ٢٠٨/٣ .

حذَارِ من وَصْلِ مَنْ بليتُ بهِ فقد لقيتُ الرَّدَى بِجَفْوتِهِ
دنوتُ منه كيا أقبِّلَهُ فلم تَدَعْنى نيرانُ وَجْنَتِهِ

فقد جعل النيران المشتعلة فى وجنات محبوبته وخدودها تدفعه دفعا وتردّه ردا عنيفا ، ومن هذا النمط قوله متغزلا :

مـنـعـتْنى من مُـقـبَّـلـهِ حين أدنو منه عَقْرَبُهُ
واستـدارتْ فَـهْىَ تَحْرُسُهُ من فمى بُخْلاً وتَرْقُبُهُ

وكانت النساء تلْوِى على أصداغها خُصلة من شعرها فى شكل عقرب تزينا وتجملا ، فاستغل ذلك حتى النهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع فى طرفها ،وكأنها تراقب صاحبتها وتستعد للدغ من يقترب من خدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه فى الغزل ، ونكتفى بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذى الذوق ، من ذلك قوله :

ويومٍ لا يقاسُ إليه يومٌ يلوحُ ضياؤه من غير نارِ
أقمنا فيه للذَّات سُوقاً نبيع العقلَ فيها بالعُقارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهماك فى المجون والعبّ من الخمر وإنه ليقيم للمجون سوقا يبيع فيه عقله بيع وَكْسٍ بِدَنٍّ زهيد من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله :

اشربْ فلليوم فضلٌ لو علمتَ به بادرتَ باللهو واستعجلتَ بالطَّربِ
وردُ الخدودِ وورد الروض قد جُمعا والغيم مبتسمٌ والشمسُ فى الحُجبِ
لاتَحْبِسِ الكأسَ واشْرَبْها مُشعْشَعَةً حتى تموت بها موتاً بلا سبب

وقد جعل كل شيء فى الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر وورد الخدود كما يقول وورود الرياض فى يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعابة مقصودة ، ومن قوله :

قد بدا الصبحُ مؤذناً بسُفورِ وفَرى الفجرُ حُلَّةَ الدَّيْجُورِ(١)
فاسْقِنى قهوةً تترجم بالرِّقَّـ ـةِ عن دمع عاشقٍ مهجورِ

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حبابه المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملكة الشعرية التى رُزقها لحفظ لها حقها ولم يسقط فى شعر الفحش والمآثم ، ولا لطخ أشعاره بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة الوهم على نحو ما نرى فى قوله :

---

(١) فرى : شقّ . الديجور : الظلمة .

قيل ما أعددتَ للبَرْ دِ فقد جاء بشدَّه
قلت : دُرَّاعةُ عُرْيٍ تحتها جُبَّـةُ رِعـدَه

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعرى دراعة وللرعدة من برد الشتاء جُبَّة . وما أظنه كان يصور شيئا من حقيقة حياته ، فقد كان على غبر قليل من اليسار . وكأنه فى البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفاقر وإظهار الخَصاصة ، وكان لها شعراء معروفون هم شعراء الكُدْية ، فجاراهما فى بيتيه تظرفا ودعابة . وقد توفى سنة ٣٨٥ للهجرة .

ابن الحجّاج (١)

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جَدٍّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من العمال ، وعُنِى بتربية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلا عن مجالس الأدب ، والتحق بالدواوين كاتبا ثم أصبح ضامنا لفرائض الصدقات بِسِقْى الفرات مدة ، ثم تولى حِسْبة بغداد فترة إلى أن عُزِل بأبى سعيد الإصطخرى الفقيه الشافعى . وكان أكبر شعراء زمانه فى التهاجن والتماجن ، وهو يخطو فيهما خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه «فرد زمانه فى فنّه الذى شُهِر به وأنه لم يُسْبَقْ إلى طريقته ، ولم يُلْحَق شأوه فى نمطه» وفيه يقول أبو حيان : «سخيف الطريقة بعيد من الجدّ ، قريعٌ (فَحْل) فى الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له فى قَرْضه مثال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار ، عن عادته الجارية فى الخسار ، وهو شريك ابن سكرة فى هذه الغرامة ، وإذا جَدَّ أقْعَى (٢) ، وإذا هزل حكى الأفعى» ويقول صاحب اليتيمة : «هو وإن كان فى أكثر شعره لا يستتر من العقل بِسِجْفٍ (٣) ، ولا يبنى جُلَّ قوله إلا على سُخْف ، فإنه من سَحرة الشعر ، وعجائب العصر . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلْديين (أصحاب الحرف) والمكْدين (أدباتية العامة) والشطار . . وكلامه يمدُّ يد المجون فيعرك بها أذن الحَرَّم ، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل ، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . . وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور

(١) انظر فى ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣٠/٣ وتاريخ بغداد ١٤/٨ ومعجم الأدباء ٢٠٦/٩ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١٣٧/١ وابن خلكان ١٦٨/٢ والشذرات ١٣٦/٣ .
(٢) أقعى هنا : قعد ولم يتم جلده .
(٣) سجف : ستر .

الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصِّلات الجِسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر . تحكمَ الصبى على أهله ، ويعيش فى أكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية » . وإلى ذلك يشير فى شعره مرارا ، وأنه بناه على التماجن والفحش للتفكه والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لو جَدَّ شعرى رأيتَ فيهِ كواكبَ الليلِ كيف تَسْرِى
وإنما هَـــزْلُـــهُ مجونٌ يمشى بهِ فى المعاش أمرى

وقد عاش عيشة رَفَهٍ ويَسارٍ حتى توفى سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع فى حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقاذر قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته بَرْبخ » أى بالوعة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالنا بحكم الناس وراءه فى عصره وبعد عصره . وقد دعا بعض أصحاب الحِسْبة فى كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغى أن نشير إلى ماذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق فى التماجن ، وكأنه كان تماجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسبه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون التردِّى فى بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله فى مديحه لبَخْتِيار الحاكم البويهى لبغداد فى عصره :

فلَيْتُ وجهَ الأميرِ من قمرٍ يجلو القَذَى نورُهُ عن البصَرِ
فَديتُ مَنْ وَجْهُهُ يُشكِّكُنى فى أنَّه من سُلالة البَشرِ
إن زُلَيخا لو أبصرتْك لما ملَّتْ إلى الحشْر لذَّةَ النظرِ

ويستمر فى مثل هذا التماجن . وهو لا يطيق الصبرَ حتى مع بختيار فى تماجنه ، إذ يمضى فيلطخ المدحة فى أواخرها بشىء من قاذوراته . وكان شيعا إماميا ، وكان يشوب تشيعه أحيانا بشىء من الغلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختار من شعره قطعة تخلو من قذره وسخفه . ورثاه حين توفى رثاء حارا ، ومن خمرياته التى تخلو من فحشه وبذاءته قوله :

يا صاحبىَّ استيقظا من رقدةٍ تُزْرِى على عقل اللبيبِ الأكيَسِ

هذى المجرَّةُ والنجومُ كأنها نهرٌ تدفّق فى حديقةِ نَرْجِسِ
قوما اسقيانى قهوةً روميَّةً من عهد قيصرَ دَنُّها لم يُمْسَسِ
صِرْفاً تُضيف إذا تسلَّط حكمُها موتَ العقول إلى حياة الأَنْفُسِ

والصورة فى البيت الثانى جيدة إذ جعل نهر المجرة يتدفق فى حديقة نرجس ، وجعل الخمر فى البيت الأخير تميت العقول فى رأيه ، ولكنها تحيى النفوس . وله خمرية قالها فى عيد المهرجان ، وهى تخلو من مقاذره غير أن فيها تبجحا شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه الخمر مع ما جاء من تحريمها فى الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد فى هذه القصيدة أو الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه السلام والإمام على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين : وتكثر فى أشعاره الكدْية أو الشحاذة الأدبية ، فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلا عن اللحم ، وأنه دائما يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقه من خشونته ، ودائما لا يجد صوفا يقيه برد الشتاء ولا خيّشا يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعابة وفكاهة ، فقد كانت الدنانير والدراهم تنسكب عليه من كل جانب .

٣

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يُعَدّ الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم ، زهد فى طيبات الحياة ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه وتعبده لربه وبين السعى لرزقه ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . وهو يضع ثقته فى الله ويتوكل عليه حق التوكل ، ولا يرى فى سعيه لكسب قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا فى العراق مع العصر الأموى طوائف من النساك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قديمان فى هذه البيئة ، وأخذت تتسع موجة الزهد مع العصرين العباسى الأول والثانى . وظلت حادة فى هذا العصر ، ولا شك فى أنها كانت أحدّ وأكثر اتساعا وجمهورا بل جماهير من موجة اللهو والمجون ، فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة فى الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث . وكان الشعب لا يشترك فى اللهو إلا فى مواسم خاصة كأعياد المجوس والنصارى . أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة ، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلا ونهارا . وكان يغذى هذه الروح فى المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم .

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون [١] المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان : كان وحيد دهره فى الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة » ومن قوله : « سبحان من أنطق باللحم ، وبصَّر بالشحم ، وأسمع بالعظم » إشارة إلى اللسان والعين والأذن ، وإياه عَنَى الحريرى فى المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله فى أوائلها : « رأيت بالرَّىّ ذات بُكرة ، زمرةً فى إثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنُّون [٢] استنان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه ، ويُحلُّون ابن سمعون دونه » ولم يكن له نظير فى زمنه . وكانت تعاصره ميمونة [٣] بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو فى الوعظ . وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات ، وكان بعضهن يعظن وبعضهن يُحْمَل عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزى فى كتابه « صفة الصفوة » لطائفة كبيرة منهن . وفى سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور « وبوعظه حَلَقَ أكثر الصبيان رءوسهم ولزموا المساجد وبدَّدوا الخمور وكسروا الملاهى » [٤] ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلى المارّ ذكره ويقول ابن رجب : « من معانى كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزى » . وفى كل بلدان العراق نلتقى بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارق [٥] المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية ، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه ، وكان يضمنها أشعارا فى الزهد والوجد مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٤ /٣٠٤ وتاريخ بغداد ١ /٢٧٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٢ /١٥٥ وصفة الصفوة ٢ /٢٦٦ والوافى ٢ /٥١ .

(٢) مستنون من استن : جرى .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٠٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ٥/١٨٦ .

(٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك فى الخريدة (قسم الشام) ٢/٤٣١ ومابعدها والمنتظم ١٠/٢٢٩ والوافى ٤/٤٤ .

مَنْ كان فى ظلماء ليلٍ سارياً رَصَدَ النجومَ وأوقدَ المِصْباحا
حتى إذا ما البدرُ أشرق نورُهُ ترك السِّراجَ وراقبَ الإصباحا
حتى إذا انجاب الظلامُ جميعهُ ورأى الضياء بأُفْقِهِ قد لاحا
هجرَ المسارجَ والكواكبَ كلَّها والبدرَ وارتقبَ السَّنا الوضّاحا

وهى قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا فى مطلبه الأسنى من الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بَدْرُ الدراية والمعرفة أشرقَ على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسَّنا الوضاح فرأى عين اليقين ونهل من معين الحب الإلهى ورحيقه المصفى . وربما كان أكبر واعظ عرفته العراق فى هذا العصر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وقد وصف مجلس وعظه ابن جبير سنة ٥٨٠ وصفا مسهبا قائلا « شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر مجلس الشيخ الفقية الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرقى فى آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص فى العلوم بالرتب العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة (يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضىّ الطباع مهْيارى الانطباع ، وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقُسٍّ وسَحْبان ، ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القرّاء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقَراً . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . وحَدِّثْ ولا حرج عن البحر ، وهيهات ليس الخبر عنه كالخُبْر . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج وتردد النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزّها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُغْشَى عليه ، فيُرْفَعُ فى الأذرع إليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكّرها هول يوم القيامة ،

فلو لم نركب ثَبَجَ (وسط) البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة . فالحمد لله على أن مَنَّ بلقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله(١) » .

وطبيعى أن يَنْهَى هذا الوعظ الذى كانت تتدفق جداوله فى المساجد الناسَ عن ارتكاب المعاصى وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد فى متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم . وكما كان للوعاظ فضل كبير فى سريان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل ، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد ، وكثيرا ما كانوا يثورون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النبيذ . وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكبسوا الدور وأراقوا الأنبذة(٢) وكانت الدولة لا ترى بدا من النزول على إرادتهم . وسِيَرُهُم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها ، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع . وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مرَّ بنا آنفا فى مقطوعة واعظ ميَّافارِقين وزاهدها محمد بن عبد الملك . وتمتلئْ كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التى يصورون فيها عشقهم الإلهى ومكابدتهم معطِّلين لحواسهم وعقولهم بينما يتجلى الله فى كل الموجودات ، وهم سابحون فى بحار الوجد وبين أمواجه ، غارقون فى آلام حبهم وأشجانه ودموعه ، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعى صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة فى قوله :(٣)

إذا جَنَّ ليلى هامَ قلبى بذكركم ... أنوحُ كما ناحَ الحمامُ المطوَّقُ
وفوْقِى سحابٌ يُمْطِر الهمَّ والأسَى ... وتحتى بحارٌ بالأسى تتدفَّقُ

وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السُّهْرَوَرْدِىّ البغدادى فى الفصل الأول . وهو إمام صوفية ببغداد ومقدمهم فى القرن السابع الهجرى ، وَوَلِىَ عدة رُبط للصوفية ، وكان فقيها عالما واعظا ، عقد مجلس الوعظ سنين ، ويُرْوَى أنه أنشد يوما فى تضاعيف وعظه(٤) :

لا تسقِنى وحدى فما عوَّدْتَنى ... أنى أَشِحُّ بها على جُلَّاسى
أنت الكريمُ ولا يليق تكرُّماً ... أنْ يَعْبُرَ النُّدَماءَ دَوْرُ الكاسِ

---

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزى مذكورة فى صفحة ٣١٨ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٤/١ .

(٣) ابن خلكان ١٧٢/١ .

(٤) ابن خلكان ٤٤٦/٣ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهى ، ومن غزله الصوفى :

تَصرَّمَتْ وَحْشَةُ الليالى وأقبلتْ دَوْلةُ الوِصالِ
تقاصرتْ عنكمُ قلوبٌ فيالَهُ مورداً حَلاَ لى

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجاب عنه الحجاب ، وأضاءت مِشْكاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفى منذ ابن دريد فى أوائل القرن الرابع الهجرى مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية ، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر ، ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر فى ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه ، وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنُّها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامى محاولين - بكل ما وسعهم - أن يحيلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتى عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفى الوقت نفسه مضوا يمدحون النبى الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرما . ولم يكتف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم فى ذلك ديوانا مثل محمد بن أبى بكر بن رشيد الواعظ البغدادى فقد نظم فى مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوترية فى مدح خير البرية وهى تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم . ونختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السرَّاج البغدادى والمرتضى الشهرزورى والصَّرْصَرِىّ .

ابن السرَّاج البغدادى (١)

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السرَّاج البغدادى المقرئ المحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أو فى أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءاته وأقرأه سنين ، وعُنى بالحديث النبوى ورحل فى طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرَّج له الخطيب البغدادى خمسة أجزاء تسمى

(١) انظر فى ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١٢٣ والمنتظم ٩/١١١ ومعجم الأدباء ٧/١٥٣ وابن خلكان ١/٣٥٧ .

السّراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعرا مطبوعا . واستغلّ موهبته الشعرية فى نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسك الحج وكتاب الخِرَقى وكتاب التنبيه . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو فى أخبار العبّاد والنساك ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح . وكان حَنْبليا حُمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزى « حدثنا عنه أشياخنا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبَرىّ ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها[1] » . وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء ، وكتب على كل جزء أبياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشّاقِ صَرَعَتْهُمُ أيدى نَوًى وفِراقِ
تصنيفُ مَنْ لدغَ الفِراقُ فؤادَهُ وتطلَّب الراقِ فعزَّ الراقىَ

وكان تقيا ورعا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره فى نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفى الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذُرَى الهدى ، والترفع عن اللذات البدنية ،والشهوات الدنيّة ، ومن قوله :

أفلحَ عبدٌ عصى هواهُ وفاقَ فى دينهِ وكاسا[2]
ولم يَرُحْ مُدْمِناً لخمرٍ يَنْهَلُ طاساً يَعَلُّ كاسا[3]

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كيِّسا فلا يقع فى الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقى فى درجات الهدى بقمعه لشيطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجدانى من مثل قوله يصوِّر حنين ناقته لمنازلها فى نجد والحجاز :

قضتْ وطَراً من أرض نَجْدٍ وأمَّتِ عقيقَ الحِمى مُرْخىً لها فى الأزمَّةِ[4]
وخبرَّها الروّادُ أنّ لحاجرٍ حَياً نَوَّرَتْ منه الرياضُ فحنَّتِ[5]
ولاح لها بَرْقٌ من الغَوْرِ مَوْهِناً كشعلةِ نارٍ للطوارقِ شُبَّتِ[6]

---

(١) ابن خلكان ٤٧٧/٢ .

(٢) كاس : أصبح كيِّساً حكيماً حصيفاً .

(٣) النهل : الشرب الأول . الطاس : إناء الخمر ومثله الكاس . العلل : الشرب الثانى .

(٤) أمت : قصدت .

(٥) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : غيثاً .

(٦) الغور : غور تهامة وهو ما انحدر منها غرباً . موهناً : بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف .

وغنىٌّ لها الحادى فأذكَرها الحِمَى   وأيامَها فيهِ وساعاتِ وَجْرةِ (١)
وقد شَرِكَتْنِى فى الحنين ركائبى   وزِدْن علينا رنَّةً بعد رنَّةِ (٢)
ألا ليت شعرى هل تعود رواجعًا   ليالى الصِّبا من بعد ما قد تولَّتِ

والحنين يجرى فى الأبيات كما يجرى الماء والخضرة فى الأغصان النضرة ، وقد جعل ناقته أو دابته نفسها تحنُّ حنينا لا ينقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه فى نفسها ما يلوح لها من برق ليلا صادرا من جانب الغَوْر ، وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنينَ شدوُ الحادى وغناؤه ، فتذكر أيامها فى وجرة وغير وجرة . ويصرِّح بأن ناقته وركائبه تشركه فى الحنين ، بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فيأسى لها ولنفسه ، ويتمنى لو عادت ليالى الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب ، ولم يبق إلا الوجد والحنين الذى يتَّقد فى فؤاده بمثل قوله :

حبَّذا نجدٌ بِلاداً لم نجدْ   راحةً للقلب فى أرضٍ سواها
فـإذا مـا لاحَ منها بارقٌ   هاج أشواقىَ أو هبَّت صَباها
لستُ أنْسَى إذ سُلَيْمَى جارةٌ   تبذل الوُدَّ وتُصْفينا هَواها
أرسلتْ طيفَ كَرًى لكنَّه   زارنا والعين قد زال كَراها (٣)

فنَجْدٌ راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليذكر أيامها وما كان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هبَّ نسيم صَباً هاجت به أشواقه ، وأعادت إليه ذكرى حبه لسليمى حين كانت تبادله الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجده ويحتمل آلامه ، باكيا ذارفا دموعه كما يقول :

بانَ الخليطُ فأدْمُعى   وَجْداً عليهم تَسْتَهِلُّ (٤)
وحَدا بهم حادى الفِرا   قِ عن المنازل فاستقلُّوا (٥)
قُلْ للذين تَرحَّلوا   عن ناظرى والقلبَ حلُّوا
ما ضرَّهم لو أنْهلوا   من ماء وَصْلهمُ وعلُّوا

فأحبابه رحلوا وحبَّات دموعه لا تزال تتساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

---

(١) وجرة : موضع بنجد .
(٢) الركائب : الإبل .
(٣) الكرى : النوم .
(٤) تستهل : تنصب .
(٥) استقلوا : ارتحلوا .

والدموع الغزيرة ، لقد كان فى حلم غمره وملأ عليه فؤاده ، وأفاق منه على فراق أحبابه ، وإنه ليعلن إن كانوا قد رحلوا وبعدوا عن مرأى عينه فسيظل وفيا للعهد ، وسيظلون يحلُّون فى سويداء قلبه . ويفضى إلى اليأس قائلا : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكرهم بل سيظل حبهم فى قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة فى مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفى ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

المرتضى الشَّهْرَ زُورِىّ (١)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفَّر الشهرزورى الملقب بالمرتضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفى بها سنة ٥١١ فى أرجح الأقوال ، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ماكان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقة الصوفية ولا لزم رِباطا من رُبطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا ، صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما تبقى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للعماد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول فى تضاعيفها :

لمعتْ نارُهم وقد عَسْعَسَ اللَّيْـ ... ـلُ وملَّ الحادى وحارَ الدليلُ (٢)
فتأملتُها وفكرى من البيـ ... ـن عليلٌ ولحظُ عينى كليلُ
فتـأمـلـتُـهـا وقلتُ لصَحْبى ... هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا
وهْى تعلو ونحن نَدْنُو إلى أن ... حجزتْ دونها طلولٌ مُحُول (٣)
فدنونا من الطلول فحالتْ ... زفراتٌ من دونها وغَليلُ
قلت : منْ بالديار؟ قالوا جريحٌ ... وأسـيـرٌ مـكَـبَّـلٌ وقَتِيل (٤)
فحَطَطْنا إلى منازلِ قومٍ ... صرَعتْهم قبل المذَاق الشَّمولُ (٥)
قلت : أهلَ الهوى سَلامٌ عليكم ... لى فؤادٌ عنكم بكم مشغولُ
جئتُ كى أصْطَلى فهل لى إلى نا ... رِكـمُ هـذه الغداةَ سبيلُ

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراها من بعيد فى الظلام الدامس وقد كلَّ الحادى

---

(١) انظر فى ترجمة المرتضى وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣٠٨/٢ وابن خلكان ٤٩/٣ والشذرات ١٢٤/٤ ومرآة الزمان ١٢١/٨ والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ .

(٢) عسعس : أظلم .

(٣) محول : مجدبة .

(٤) مكبل : مقيد .

(٥) الشمول : الخمر .

لطول السُّرى وحار الدليل المرشد ، وإذا النار أو قَبَسٌ منها يظهر فجأة . فينادى صحبه : رأيت نار ليلى فيلوا ، وكلما جد فى السُّرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طلول محول ، ويحاول الدنوّ من الطلول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يجد فى الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومغلول فى القيود وقتيل . وينزل بين قوم شغفهم الحب الربّانى ، بل لقد صرعهم قبل أن ينتشوا به ويذوقوا خمره . ويسلّم ، ويقول إنه جاء يصطلى بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طلولها . إنها نار تضيىء للسارى بالليل ولا تُنال ، ومنتهى الحظ أن يتزود اللحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلّف الصوفية على مر الحقب ، وقد أنشدها بكمالها ابن خلكان ، وقال إنما أثبتُّها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهى مطلوبة ، ويقول العماد فى الخريدة : « وجدت من كلام القاضى المرتضى أبى محمد الشهرزورى رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات فى رقة السلسال والشّمول » وكأنه لم ينظم فى التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العماد لم يُعْنَ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عُنى بما جاء فى الرسالة من رقائق الغزل الصوفى من مثل قوله :

وعاودتُ قلبى أسأل الصبرَ وقفةً ... عليها فلا قلبى وجدتُ ولا صَبْرى
وغابتْ شموسُ الوصل عنى وأظلمتْ ... مسالكُهُ حتى تحيَّرتُ فى أمرى

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاع منه قلبه وعزّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يهتدى ولا يجد من ينقذه . إنه محب مهجور قد حُرم وصله وخُطف منه أو أُسر قلبه ، ويقول :

يا لَيْلُ ما جئتكمُ زائراً ... إلا وجدتُ الأرض تُطوى لى
ولا ثنيتُ العزم عن بابكم ... إلا تعثرتُ بأذيالى

فهو دائما على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصل ولا لقاء ، ويملّ الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الإياب ، كأنما شىء يمسك بتلابيبه ، فكلما حاول الانصراف وأعياه الانتظار ورغب فى الرجوع تعثر فى أذياله فتسمّر فى مكانه ، ومن قوله :

شكوتُ إليها ما بقلبى من الجوَى ... فقالتْ : وهل أبقى الفِراقُ له قلْبا

فقلت : فهل لى فى وِصالكِ مطمعٌ — فقالتْ : إذا ما شَمْسُنا طلعتْ غَرْبا
فقلت : فهل من زورةٍ يَجْتَنى بها — ثمارَ المنى ظمآنُ قد مُنِعَ الشُّرْبا
فقالت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ — وخاضَ حِياضَ الموت واستسهلَ الصَّعْبا
وأصبحَ فينا حائرا ذا ضلالةٍ — يُواصلنا بُعْداً ونهجُره قُرْبَا

وهى محاورة بديعة بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الربانى ، فمن يحب الذات العلية يفقد قلبه ولا يصبح له مطمع حقيقى فى وصال ولا فى زورة يقتطف فيها ثمار المنى وينهل معها من الماء ما يطفئْ ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد فى الوجود واقتحم حياض الرَّدَى لايبالى ، وحتّى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريقَ يواصل من بعيد ويُهْجَرُ من قريب .

ومن قوله يشكو آلامه وعذابه فى حبه الإلهى .

بقلبى منهمُ حُرَقُ — لها الأحشاءُ تحترقُ
ولا وصْلٌ ولا هَجْرٌ — ولا نومٌ ولا أرَقُ
فليتَهمُ وقد قطعوا — ولم يَبْقوا علىَّ بَقُوا
فأفنى فى محبّتهم — وريحُ محبّتى عَبِقُ
كمثل الشَّمْعِ يُمْتِعُ مَنْ — ينادمـــه ويَمَّحِـقُ

فأحشاؤه تحترق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا يأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ، ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكتوى بنيران هذا الحب مؤملا – على طريقه الصوفيين – أن تنمحى حَوّاسُّه وأحاسيسه ، حتّى يفنى فناء مطلقا فى الذات العلية ، فناء ينعدم فيه وجوده البشرى انعداماً تاماً ، كما ينعدم الشمع المضيىء ، وينمحق انمحاقاً خالصاً .

الصَّرْصَرِىّ (١)

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرْصرى ، نسبة إلى صَرْصَر : قرية قريبة من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان حنبليا ، ويصفه ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الربانى ، ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبّاد ، كانت له اليد الطولى فى النظم وشعره فى غاية الجودة ، ويقول الصفدى عنه « صاحب المدائح النبوية السائرة فى الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر فى ترجمة الصرصرى ومدائحه النبوية ذيل مرآة الزمان للقطب اليونينى (طبع حيدر آباد) ١/٢٥٧ – ٣٣٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٧/٦٦ والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والشذرات ٥/ ٢٨٤ .

شاعرا أكثر من مدائح النبى ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عليا . . يدخل شعره فى ثمان مجلدات وكله جيد ، ويقول القطب اليونينى وابن تَغرى بَردى : إن مدائحه فى النبى ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غيرمنشور وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدى أن بين مدائحه النبوية قصيدة التزم فى كل حرف منها ظاء وثانية التزم فى كل حرف منها ضادا وثالثة التزم فى كل حرف منها زايا ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدى : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى فى المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وينوِّه بزوجاته أمهات المؤمنين وفى مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يتراءى فى نبوياته سُنِّياً حنبليا حتى ليعرض فى بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تغرى بردى أبياتا من همزية نبوية يقول فيها :

ياهلالَ السرور ياقمرَ الأنْـ ـسِ ونجمَ الهدى وشمسَ البهاء
ياربيعَ القلوب ياقرَّة العيْـ ـنِ وبابَ الإحسان والنَّعْماء

وهو يصدر فى القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغَفت قلبه ، حتى ليراه كل جمال فى الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرة العيون ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نَعْماء ، ويروى له الصفدى قطعة طويلة من مدحة خائية يقول فى تضاعيفها :

يا خاتمَ الرُّسْل الكرامِ وفاتحَ الـ ـخيراتِ يا مُتواضعا شَمَّاخا
يا مَنْ رَستْ وسمتْ قواعدُ دينهِ وبه هَوَى أسُّ الضلال وسَاخا
يا خيرَ مَنْ شَدَّ الرِّحالَ لقصدِهِ حادى المطىِّ وفى هواه أناخا
عَطْفاً على عَبْدٍ تعلّق حبَّكم طفلا وفى صدقِ المحبَّة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفا ومتشفعا به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التى رواها القطب اليونينى أنه كان يصدر أحيانا عن نظرية الحقيقة المحمديه المعروفة ، إذ ذهب إلى أزلية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس فى يدنا الديوان لنحكم على الصرصرى حكما دقيقا فى هذا الجانب غير أن هناك بعض إشعاعات من الفكرة نلتقى بها عند اليونينى مثل قول الصَّرْصَرى عن الرسول :

هو سابقُ الأعيانِ إذ كُتِبَ اسْمُهُ　　بالعَرْشِ ثم استُودِعَ الألواحا

فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمدًّا حينئذ من نظرية الحقيقة المحمدية ، وبالمثل ما نجد عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام ، وأنه تنقل فى صلب آدم والأنبياء من بعده ، إذ يقول :

حَلَلْتَ صُلْبَ أبينا عند مَهْبطِهِ　　وصُلْبَ نوحٍ وقد غَشَّى الوَرَى الزَّبَدُ (١)
وكنتَ فى صلبِ إبراهيمَ مستترا　　ونارُ نُمْرُودَ أشقى الخلقِ تتَّقِدُ (٢)
وحاز نورَكَ إسماعيلُ يُودِعُهُ　　أبناءَهُ الغُرَّ حتى حازهُ أُدَدُ (٣)

ويمضى الصرصرى فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المنزلة الرفيعة ، وما زال النور يتنقل حتى انعقد به على رأس هاشم إكليل فخر لايشبهه إكليل . واتصل النور بعبد المطلب وابنه عبد الله ، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت فى المشارق والمغارب . .

وكانت وفاة الصرصرى سنة ٦٥٦ دخل عليه التتارف اكتساحهم لبغداد ، وكان ضريرا ، فطعن بعكازه بطن واحد منهم فقتله ، وقُتل شهيدا .

٤

شعراء الفلسفة والشعر التعليمى .

يكثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكِنْدى ، وفى الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك أسراب غير قليلة ، وكثيرا ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية . وتلقانا فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبعة بعض وصايا طبية طريفة (٤) ، وكثيرا ماكانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما فى الحياة وبعد الممات ، على شاكلة ما أنشده أبو النفيس (٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجرى :

فى النفس والجسم إنْ فكرتَ معتبِرٌ　　بل دون ذلك ضلَّ الرأىُ والفِكَرُ
وحار كلُّ لَبيبٍ فى اتحادهما　　وتلك عَيْنٌ وهذا حكمهُ الأثَرُ

---

(١) غشى الورى الزبد : يشير إلى الطوفان المشهور زمن نوح عليه السلام .

(٢) النمرود : الملك الوثنى الذى ألقى بإبراهيم الخليل فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

(٣) أدد : أبو قبيلة عربية ، رمزبه إلى العرب .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٩٠ .

(٥) صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى - طبع طهران) ص ٣٥٩ .

يا ليتَ شعرى إذا الأبدانُ أضمرها ... يَدُ البِلَى وحَواها التُّربُ والمدَرُ
هل للنفوس التفاتٌ نحو عالمها ... كما تلفَّتَ نحوَ المركزِ الحجَرُ
ليحصل الفوزُ فى دار الخلود لها ... وتنتفى دونها الآفات والغِيَرُ
أم تضمحلُّ كما قد بان هيكلُها ... ولا يُحَسُّ لها وِرْدٌ ولا صَدَرُ
هذا الذى صَدِئَتْ منه خواطرُنا ... وليس يجلو صَداَها العِلْم والخَبَرُ

والأبيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تفنى كما يفنى الجسد ، أو تنفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهى مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادى محسوس يفنى بموت صاحبه ، وهذه لا تُحَسُّ ولا تُرَى إلا بأثرها وبثِّ الحياة فى الجسم ، حتى إذا فارقته انتقل إلى عالم العدم والفناء ، فهل يكون مصيرها نفس مصيره ، أو أنها تحيا حياة جديدة خالدة فى الملأ الأعلى . إنها مشكلة محيرة فى رأى أبى النفيس يُطبِقُ عليها ظلام غامر لا يرفعه عِلْمٌ ولا خبرة ، والأبيات تمضى فتجعل علْم الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وجدنا به متفلسفين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر : مثل ابن التلميذ[1] المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره فى ابنه سعيد :

حُبِّى سعيداً جوهرٌ ثابتٌ ... وحبُّه لى عَرَضٌ زائِلُ
بِهِ جهاتى السِّتُّ مشغولةٌ ... وهْو إلى غيرى بها مائلُ

والجهات الست هى اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ، يريد أنه مشغول بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتاً بينما حب سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كانتْ بُلَهْنِيَةُ الشَّبِيبة سكرةً ... فصحوتُ واستأنفتُ سيرةَ مُجْمِلِ
وقعدتُ أرتقبُ الفناء كراكبٍ ... عَرَف المحلَّ فبات دون المنزلِ

والصورة فى البيتين بديعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل ، وقعد ينتظر دوره ومماته ، وكأنما هو راكب يعرف منزله ويبيت دونه بقليل ، ولابد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرلابى وهبة الله ابن الفضل ومحمد بن الجلى المعروف بالعنترى وابن هُبَل .

---

(١) انظر فى ابن التلميذ وشعره معجم الأدباء ٦٩/٦ . ٢٧٦/١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ وابن خلكان

ومرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نمط شعرى جديد هو الشعر التعليمى ، فى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذى ترجم كليلة ودمنة شعرا ونظم قصائد طويلة فى الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد فى العصر العباسى الثانى على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دُرَيْد ، حتى إذا كنا فى هذا العصر اتسعت موجته وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرّ بنا فى ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزرى فى كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنه ٤٩٧ نظم كتابا فى القراءات[1] ، ونظم الحريرى صاحب المقامات ملحة الإعراب فى النحو وأبوابه وقواعده وهى مطبوعة . ونظم ابن أبى الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع ، ونظم فخرالدين بن الفصيح مدرس العربية فى المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكنز فى الفقه والسراجية فى الفرائض وقصيدة طويلة فى القراءات[2] ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نُظم من العلوم والمعارف على مر الحقب لهذا العصر ، ونقف قليلاً عند شاعر متفلسف وشاعر تعليمى ، وهما على الترتيب ابن الشّبْل البغدادى وابن الهبّارية .

ابن الشّبْل البغدادى[3]

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشّبْل ، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفى سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسفين فى زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدى ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول ياقوت : «كان متميزا بالحكمة والفلسفة خبيرا بصناعة الطب أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا . . وهو صاحب القصيدة الرائية التى نسبتْ إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وقد دلت على علو كعبه فى الحكمة والاطلاع على مكنوناتها وقد سارت بها الركبان ، وتداولتها الرواة » وهو يستهلها بقوله :

بربِّك أيها الفلكُ المُدَارُ ... أقَصْدٌ ذا المسيرُ أمِ اضطرارُ
مداركُ قُلْ لنا فى أىّ شَىْء ... ففى أفهامِنا منك انبِهارُ

---

(1) غاية النهاية فى طبقات القراء ١/٥٤٨ .
(2) النجوم الزاهرة ١٠/٢٧٧ والعزاوى ١/٣٢٧
(3) انظر فى ترجمة ابن الشبل وشعره الدمية ١/٣٥٢ ومعجم الأدباء ١٠/٢٣ وابن أبى أصيبعة ٣٣٣ . ووفيات الوفيات ٢/٣٩٣ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله ابن الشبل وذكر أن وفاته كانت فى سنة ٤٧٣ وراجع الوافى بالوفيات ٣/١١ .

وفيك نَرَى الفضاء وهل فضاءٌ ... سوى هذا الفضاء به تُدَارُ
وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل ... مع الأجساد يُدْرِكها البَوارُ
وموجٌ ذى المجرّةُ أم فِرِنْدٌ ... على لُجَجِ الدروع له مَدارُ
وَطوْقٌ للنجوم إذا تبدَّى ... هلالُكَ أم يَدٌ فيها سِوارُ
وأفلاذٌ نجومُكَ أم حَبابٌ ... تؤلِّف بينه لُجَجٌ غِزَارُ
وتُنْشَرُ فى الفضَا ليلا وتُطْوَى ... نهارا مثلما يُطْوَى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له . وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيرا بعيدا فى حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هى اضطرارية من قبل الذات العلية أو هى اختيارية ، ويتساءل فى أى شىء مداره وحركته . وهل تُرفع الأرواح إلى عالمه العلوى أو تفنى مع الأجساد فى العالم السفلى ، وهذه المجرة التى تتدفق ليلا فى السماء بالنور هل هى موج من الأضواء كموج البحر أو هى أثر تموجات ضوئية تُلْمَحُ كما يلمح تموج الضوء فى صفحة الفرند أو السيف ، وهل الهلال طوق معلّق للنجوم أو سوار يلمع فى يد على صفحة السماء ، والنجوم هل هى أفلاذ وأرواح أو هى حَباب طافٍ على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تُنْشَرُ ليلا وتُطْوى نهارًا . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألغاز كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا يتملكه الدَّهَشُ وتتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشِّبْل فى عرض هذه الألغاز :

ودهرٌ ينثرُ الأعمارَ نثْراً ... كما للوردِ فى الروضِ انتثارُ
ودنيا كلما وضعتْ جَنِيناً ... غَذَتْهُ من نوائبها ظُؤَارُ [1]
هى العَشْواءُ ما خَبطتْ هَشيمٌ ... هى العَجْماءُ ما جَرحتْ جُبَارُ [2]
فمن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ ... بغير غدٍ إليه بنا يُسارُ

فهذا الدهر . يُسْقط الأعمار كما تَسْقط الورود فى الروض وتذبل وتفارقها النضرة والحياة . وهذه الدنيا كلما وضعت جنينا لم تُرْضعه ، بل تركته لظؤار أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عَشواء لا تبصر ، وكل ما تخبْطه من الأنفس يصبح هشيا ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهْدَرُ ولا يُصْلَحُ أبداً . وما الحياة فى رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(١) ظؤار : المرضعة لابن غيرها . (٢) جبار : هدر لاقصاص فيه ولا غرم .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأُخرج من الفردوس ثم أُهْبط إلى الأرض . ويصوِّر ذلك ابن الشِّبل قائلا :

لقد بلغَ العدوُّ بنا مُناهُ ... وحَلَّ بآدمٍ وبنا الصَّغارُ [1]
فيالكِ أكلةً ما زال منها ... علينا نقمةٌ وعليه عارْ
نُعاقَبُ في الظهور وما وُلدنا ... ويُذْبَحُ في حَشَا الأمِّ الحُوارُ [2]
ونخرجُ كارهين كما دَخلْنا ... خروجَ الضَّبِّ أخرجه الوِجارُ [3]
وكان وجودُنا خيراً لو أنَّا ... نُخَيَّرُ قبله أو نستشارُ
أهذا الداءُ ليس له دواءٌ ... وهذا الكَسْرُ ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ في بني الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحلَّ بآدم وبهم الهوان والصغار ، فيالها أكلةَ إثمٍ وياله ذنبَ جُرْمٍ ! . ويعود ابن الشبل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة في أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومَنْ يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الضَّبِّ من جحره . وهكذا نجيء ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وألغازها لداء يعز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . ويمضي فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتُذْهَل كل مرضعة عن ابنها وتسيَّر الجبال وتسجَّر البحار ، ويقول إن في ذلك كله لعبرة وعظة لأولي الألباب . وله مرثية بديعة في أخيه أحمد يقول في تضاعيفها :

يا أخي عاد بعدك الماءُ سُمًّا ... وسَموماً ذاك النسيمُ الرُّخَاءُ
كيف أرجو شفاءَ ما بي وما بي ... دون سُكْناكَ في ثَرَاك شِفاءُ
شَطْرُ نفسي دفنتُ والشَّطْرُ باقٍ ... يتمنَّى ومن مُناه الفَنَاءُ
إن تكن قَدَّمتْه أيدي المنايا ... فإلى السابقين تَمْضِي البِطاءُ
إنما الناس قادمٌ إثْرَ ماضٍ ... بَدْءُ قومٍ للآخَرين انتهَاءُ

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير في الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبكاء ، مع مايخلِّفون من غُصَصٍ تعترض بالشجى في الحلوق . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها في المساء ما وهبته في الصباح ، وكأن الإنسان يعيش في حلم أو كأنما يعيش بدون عقل ،

---

(١) الصغار : الذل والهوان .
(٢) الحوار : ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين .
(٣) الوجار : جحر الضب وغيره . والضب : من جنس الزواحف ، يكثر في صحراء الجزيرة العربية .

فليست تُعْقَل الدنيا إزاء هذا الفساد الذى يعم كل شىء فى الكون من أحياء وغير أحياء . وفى الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحِسًّا دقيقا مرهفا .

ابن الهَبَّارِيَّة[1]

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهَبَّارِيَّة العباسى ، نسب إلى هبَّار جده لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خبيث اللسان ، فلم يكد يسلم من هجائه أحد ، وفيه يقول العماد الأصبهانى : « من شعراء نظام الملك (وزير ألْب أرْسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبَك فى قالب ابن الحجاج وسلك أسلوبه وفاقه فى الخلاعة والمجون ، والنظيف من شعره فى نهاية الحسن » ويقول ابن تغرى بردى : « كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب » . ومرت بنا فى حديثنا عن الهجاء فى الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له فى هجاء أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى . وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه له أمر بأن يُصرفَ رسمه أو راتبه مضاعفا ، وعُدَّتْ تلك مِنَّة من نظام الملك دالَّةً على مكارم أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعا قائلا :

خُذْ جملةَ البَلْوَى وَدعْ تفصيلَها ... مافى البريَّة كلُّها إنسانُ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة فى أصبهان عاصمة ألْب أرْسلان وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلا بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى بغداد ، بل اتجه إلى كَرْمان وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومديحه ، وإنما نريد الحديث عن شعره التعليمى فقد نهض بعملين كبيرين فيه : أولها نظمه لقصص كليلة ودمنة ، وقد سماه « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج ، فكل بيت فيه يتفق شطراهما فى قافية واحدة . وفى فواتحه ما يدل على أنه نظمه فى كَرْمان ، وقد نوه بنظم أبان للقصص ، وأبان يتفوق عليه فى جودة شعره وإن كان عمله سقط من يد الزمن إلا ما رواه منه الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج الفطنة مطبوع فى بومباى من قديم .

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة القصر (قسم العراق) ٢/٧٠ وابن خلكان ٤/٤٥٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢١٠ والوافى ١/١٣٠ ولسان الميزان ٥/٣٦٧ والشذرات ٤/٢٤ .

والعمل الثانى من شعره التعليمى ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالطرب والباغم خافض الصوت فى لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة . أو قل كثرته قِصَصٌ ثم يليها وعظ خلقى وحكمٌ متعاقبة . وقد طُبع الديوان فى القاهرة وبيروت ولكنو فى الهند . وهو يستهله بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبْ   يفوق أنواع القريض والخُطَبْ
عملتُهُ لسيِّد الملوكِ   وموئل الملهوف والصُّعْلوكِ
فجاء مثل الذهب المسبوكِ   سلكتُ نَهْجا ليس بالمسلوكِ
وضعتُه مخترعاً معناهُ   للملكِ ما خاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدى صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ وقد مضى يمدحه طويلا ، حتى إذا تمّ الديوان سيّره إليه من كرْمان مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته . ويمضى ابن الهبّارية فى الديوان بعد تقديمه لصدقة ومديحه فيذكر مناظرة بين هندى وفارسى استمع إليها فى أحد أسفاره ، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه ، أما الهندى فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة ، وأما الفارسى فافتخر باختراع بلاده للنّرْد . وتتوالى القصص ، وقليل منها الذى يشبه كليلة ودمنه فى جريانه على ألسنه الحيوانات والطير . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعى ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة ، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصى فى الديوان لا يلبث أن ينقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شىء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبارية مربيًا يقدم النصائح فى السياسة ومعاملة الناس وفى الزهد وعلو الهمة والنهى عن الظلم والأمر بالعدل ، وكأن ابن الهبارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصى الأدبى ، ولعل ذلك ما جعل الأدباء بعده ينصرفون عن مجاراته فى هذا العمل الفنى ، وكان حريا أن تأخذ القصص مجرى كبيرا فى الشعر العربى ، غير أن النموذج الذى وضعه ابن الهبارية كان من الضعف — فى رأيى — بحيث لم يمهّد تمهيدا حسنا لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حَسَنُ   نَحار فيه الفِطَنُ
أنفقتُ فيه مُدَّه   عشرَ سنين عِدَّه
بيوتُه ألفانِ   جميعها معانى

ولعل ابن الهبارية بالغ فى قصة السنوات العشر . ومع ذلك كله لابد أن نبقى له على

شيء من الإحسان . فقد كانت ملكته الشعرية خصبة . وساق له العماد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة . وحقا ليست من الأشعار التعليمية . ولكنها تدل على براعته الشعرية .

٥

شعراء شعبيون

قد يُظَنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب . فالمديح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه فى الحاكم العادل ، ويصور الهجاء الأخلاقَ الذميمة التى يرى الشعب تنحيتها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر فى كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان . وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قَصْف الشعب فى أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربى والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسها ومشاعرها ، ويَصْدرون عنها فى أشعارهم . ولابد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربى بشعوبه فى بغداد وغير بغداد وفى مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ؛ إذ كانت تُلْقَى فى المساجد يوميا ، يلقيها كبار العلماء ، والناسُ يتحلَّقون من حولهم ، وكلٌّ يجد ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوى ومن دروس أدبية يُرَوَّى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أى فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين فى مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء فى هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يُشْتَرَطُ فيمن يَحْضر حلقات العلماء والأدباء أى شرط ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين . وأتاح ذلك لنفر منهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمى أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات ، نذكر منهم الخباز الموصلى . وله ترجمة فى كتاب

اليتيمة[١] للثعالبي ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا . وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف » . وانتظامه في اليتيمة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة . وقد أشار إلى أميته في بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بالغتَ في شَتْمى وفى ذَمّى ... وما خشيتَ الشاعرَ الأُمّى
جرَّبتَ في نفسك سُمًّا فما ... أحمدتَ تَجْرِبَكَ للسُّمّ

وكان يحفظ القرآن الكريم ، فاقتبس من آياته مرارا وتكرارا . وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه ، كقوله متغزلا :

كأنَّ يمينى حين حاولْتُ بَسْطَها ... لتوديع إلفى والهوى يذْرِف الدَّمْعا
يمينُ ابن عمرانٍ وقد حالتِ العَصَا ... وقد جُعلتْ تلك العَصَا حيَّةً تَسْعَى
وقائلةٍ هل تملكُ الصبرَ بعدهم ... فقلت لها : لا (والذى أخرجَ المرْعَى)

وهو في البيت الثانى يقتبس قوله تعالى في سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فحالت أو تحولت : « فإذا هى حيةٌ تَسْعى » واقتبس في البيت الثالث آية سورة الأعلى : (والذى أخرج المرعى) . ويقول الثعالبى إنه « كان يتشيع ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعية . ويلقانا في الخريدة شاعر أمى ثان هو نباتة[٢] الأعور الإِبَرى ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوفا بهجو أحد العلويين وفيه يقول :

شريفٌ أصلُه أصلٌ حميدٌ ... ولكنْ فعلهُ غيرُ الحميدِ
ولم يخْلُقْه ربُّ العَرْش إلا ... لتنعطفَ القلوبُ على يزيدِ

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعة . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهين مثل السَّرِىِّ الرَّفاء الذى تقدمت ترجمته في الفصل الماضى ، ومثل الزاهى أبى القاسم على بن إسحق بن خلف البغدادى وكان قطَّانا وكانت دكانه في قطيعة الربيع . وقد عرضنا له بين شعراء التشيع في الفصل الماضى ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين في كتب البلاغة وفيهما يصف البنفسج[٣] :

ولا زَوَرْدِيَّةٍ تزْهو بزُرْقَتِها ... بين الرياض على زُرْقِ اليواقيتِ

---

(١) انظر ترجمة الخباز البلدى وأشعاره في اليتيمة ٢ /٢٠٨ وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف.

(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره في الخريدة (قسم الشام) ٢/٣٠٦.

(٣) ابن خلكان ٣/٣٧٢.

كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْن بها أوائلُ النار فى أطراف كِبْرِيتِ

وقَرْنُ البنفسج الذى ترفُّ أوراقه الرطبة ويترقرق الماء فى غصنه بلهب نار فى أعواد كبريت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . ومما أنشده له ابن خلكان قوله :

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما هَزَزْنَ سيوفا واستَلَلْنَ خناجرا
سَفَرْنَ بدوراً وانْتَقَبْنَ أهلّةً ومِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جآذِرا (١)
وأطلعْنَ فى الأجياد بالدرِّ أنجماً جُعِلنَ لحبّات القلوب ضَرائرا

والتقسيم فى البيت الثانى بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين انتقبن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخترن غصونا وحين التفتن جآذر ، وبذلك ومثله عُدَّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب فى أن مشاركة ذوى الحرف والأميين فى شعر العصر دليل قوى على صلته بالشعب ، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

ولم تقف مشاركة العامة فى الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء لا ينظمون شعرا فصيحا : وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامية ، وأخذ ذلك يظهر بوضوح منذ القرن السادس الهجرى ، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاطل الحالى والمرخّص الغالى لصفى الدين الحلّى ، وفيه يتحدث صفى الدين بالتفصيل عن الفنون العامية ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبدا ، أما المَوَاليَّا فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها «مستفعلن فاعلن مستفعلن فَعْلُنْ» وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صفى الدين إن أهل واسط تغزلوا بها ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغاددة فلطّفوه ولحنوه وسلكوا فيه غاية لا تدرك ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادى فى مديح الصاحب بن الدَّباهى (أحد متولّى الخراج فيما يبدو) :

بِكم قُرى نَهْرِ عيسى أصبحتْ كالمُدُنْ أىْ باذلين القِرَى أى عاقرين البُدُنْ (٢)
ولو تشاموا بأطراف الرماح اللُّدُنْ صَيّرتُمُ الأُسْد تمرحْ فى مكان الفُدُنْ (٣)

(١) سفرن : كشفن عن وجوههن — انتقبن : لبسن النقاب . مسن : تبخترن . الجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق والبقر التى تذبح قرباناً أو للضيوف .

(٣) اللدن : اللينة : كناية عن حدة قطعها . الفدن . الثيران .

ومع أن صفى الدين يعدّ هذه المواليا من الجزل المعرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح فى جزم الفعلين المضارعين « تشاموا وتحرث » . ويتحدث صفى الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره فى الأندلس وكبار أعلامه ويطيل فى بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالى بغداد على رأسها على بن المراغى ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادى أطلقتُ دمعى المَصُونْ
وصرتُ فيكم أغالى جُهْدى ولى تُرْخصونْ

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامى الثالث الذى تحدث عنه صفى الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور فى قافية واحدة مُرْدَفة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول فى كل بيت أطول من الثانى . اخترعه البغداديون كما يقول صفى الدين ثم تداوله الناس فى البلاد . ويذكر أنه سُمّى بذلك لأن البغدايين أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزى فى أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبى بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفى فى القرن السابع . ويقول صفى الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات و الأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُستَحْضَرُ فى المذاكرات ويذاكر بها فى المحاضرات ، وينْشِد من الكان وكان غزلية موجّهة فى الطيور ، وفى تضاعيفها :

طَيْرى الذى كانْ إلفى لو رِدْت مِثْلو ما حَصَلْ
وهُو علَىّ معوّدْ وانا عليه معتادْ
إذا قلعْ من عندى فما تزال عينى مَعُو
واعْرِفْ مطارو وأَقْعُد فى البُرْج بالمرصادْ

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طَيْراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذه إلفاً له . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حطّ فى بُرْج لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من ينزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يسامحه ، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله ، ويقول إن الماضى : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوعا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خير استقبال . والمنظومة طريفة كما هو واضح .

والفن العامى الرابع القُوما ، ويقول صفى الدين إن له وزنين : وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فَعْلن وإما مستفعلن فاعلن . أما الوزن الثانى فيقول صفى الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثانى ، والثانى أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه فى دولة العباسيين برسم السحور فى شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحِّرين فى آخر كل دور منه : « قوما للسحور » ينبهون بذلك ربَّ المنزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علما له . ويذكر صفى الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اختُرع من قبله وكان الناصر يطرب له وجعل لابن نقطة رسما فى كل سنة وحدث أن توفِّى وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباعَ والده فى أول ليلة من ليالى رمضان وتغنّى على مسمع من الناصر :

يـا سـيـد السـادات لَكْ بالكرمْ عادات
أنا بُنَيّ ابْن نُقْطَهْ وابى تعيش انت ماتْ

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذى ذكره صفى الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحتوى أكثر من عشرين دورا . ومثل للنوع الثانى من القوما بقوله .

داوى عُضالَكْ[1] بَعْدنا واتْرُكْ نضالَكْ بالرُّغم كانْ تركَكْ لنا لا بالرِّضا لَكْ
دام العَنا لَكْ إشْ تُرَى فى العشق نالَكْ ما نال احدْ من بَعْد أحبابُو مَنالك

وينبغى أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامية لم يكتب لها أن تكون الترجمان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية فى بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت فى مرتبة دانية ، وظل يُنْظَرَ إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب فى كل مكان ، كما ظل ترجمانا صادقا عن كل ما يأملون ويألمون وكل ما يلم بهم من ابتهاج وابتئاس ، حتى لنجد أصحاب الكُدْية والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامى ، لما له من تأثير بعيد فى نفوس السامعين ، ونقف قليلا عند الأحنف العكبرى كبيرهم فى بغداد .

---

(١) الداء العضال : الذى لا طب له ولا دواء .

الأحنف العكبرى (١)

هو أبو الحسن عَقيل بن محمد الملقب بالأحنف العُكبرى ، ظريف الشعراء المكْدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بنى ساسان الفارسيين تظرفا ، ويعيشون على الكُدْية أو الشحاذة الأدبية ، يطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه يقول الصاحب بن عباد : « لوأنشدتك ما أنشد نيه الأحنف العكبرى لنفسه ، وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام (بغداد) لامتلأتَ عجبا من ظرفه وإعجابا بنظمه » . ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدية والشحاذة :

ألا إنى بحمد اللّـ ـه فى بيتٍ من المَجْدِ
بإخوانى بنى ساسا نَ أهلِ الجِدِّ والجَدِّ (٢)
لهم أرضُ خُراسانَ فقاشانَ إلى الهنــد
إلى الرومِ إلى الزّنْجِ إلى البُلْغارِ والسِّنْد
قَطَعْنا ذلك النَّهْجَ بلا سيفٍ ولا غِمْدِ
ومَنْ خاف أعاديهِ بنا فى الرَّوْعِ يَسْتَعْدى

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بنى ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصوِّر تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان فى إيران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدة حربية ، لأن أحداً لا يعترضهم ، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئا . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير ، فقال : لهذا البيت معنى بديع : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم فى أيدى قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مُكْدٍ (أى لا يملك شَرْوَى نقير) فانظرْ كيف خاص ، وأبرز هذا المعنى المعتاص . ويشكو الأحنف الفقر وتطوافه فى الأرض مراراً فى شعره بمثل قوله :

عشتُ فى ذِلّةٍ وقلة مالِ واغترابٍ فى معشرٍ أنْذَالِ
بالأمانى أقول لا بالمعانى فغِذائى حلاوةُ الآمال

وطبيعى أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقلّ ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغربة ونكدها ومرارتها وما يداخلها من حرمان ، ويحس كأنه يعيش ويتغذى

(١) انظر فى ترجمة الأحنف وأشعاره تاريخ بغداد والبتيمة ١١٧/٣ والنجوم الزاهرة ١٧٣/٤ .

(٢) الجَد بفتح الجيم : الحظ .

بالآمال ، وقد ضُيِّق عليه الخناق . وكثيرا ما يشكو همه وبؤسه وتعاسته حتى ليقول :

العنكبوتُ بنَتْ بيْتاً على وهنٍ تأْوى إليه ومالى مثلهُ وَطَنُ
والخنفساء لها من جنْسِها سكنٌ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنُ

فليس له بيْت حتى ولا بيتٌ واه كبيت العنكبوت ، بيت يجعله يشعر أن له وطنا يأوى إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لها سكن ولها إلف ، وهو لا إلف له ولا سكن . وهذه الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لترقّ له القلوب وتُمَدّ إليه الأيدى بالعطاء . وشعره كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التنميق والمحسنات البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأيى أن شعر الكُدْية والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقاماتُ عند بديع الزمان والحريرى .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع النثر :

رأينا فى العصرين العباسى الأول والثانى كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمى والنثر الفلسفى والنثر الأدبى ، وكانت هناك المناظرات والمواعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبى ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية ، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر فى عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنهما كانا أزهى القرون فى العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربى كل ما كان يرجى له من نضج ، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماؤهم ومتفلسفتهم ، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة فى مطالع هذا العصر.

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهى تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها فى هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة ، حتى لكأن المترجمات توضع فى العربية ابتداء ، فلا عوج ولا أمْت فى صيغة ، بل مع الرونق وحسن الأداء ، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زُرْعَة البغدادى المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقى السجستانى : «هو آخر من يُرْتَضَى نقله لكتب الحكيم أرسطاليس : البسائط والجوامع . . وكتاب جالينوس «منافع الأعضاء وغيره من الكتب» . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسطاليس على هذا النمط (١) :

---

(١) انظر فى الفقرة التالية للترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (طبع طهران) ص ٣٣٣

« الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر إلى مركزه ، إلا أن يكون مؤوفاً (معلولاً) فى طبيعته ، مخلوقاً بأخلاق بهيمية . ومَنْ رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبّله على غاربه ، وسيَّب هواه فى مَرْعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان ليِّن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار أرذل من البهيمة بسوء إيثاره » .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسطاليس ما تنبهنا إلى ذلك لصياغتها العربية المحكمة ، وما يجرى فيها من رونق الصياغة الأدبية كما هو واضح فى مثل قوله : « ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيَّب هواه فى مرعاه » . وهى استعارات وكنايات بيانية . وأرسطاليس فى الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكوّن من طبيعة هى البدن وما يتصل به من الملذات ، وهى تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التى لا تبلى والتى يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقا ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء ، ولذلك تصبح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ – كما لاحظ أبو سليمان المنطقى السجستانى – يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمارة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويُشيد ابن أبى أصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعيات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغةُ المحكمة الفلسفةَ ، ويخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت فى القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاما للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى فى المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا فى الفصل الثانى دليلاً قويًّا على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السرِّيَّة التى كانت تدعو فى البصرة إلى المذهب الإسماعيلى لجأت إلى الفلسفة والعلوم فى صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر فى نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفّتْ عنها ، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدسُّون رسائلهم فى دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل حى على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة ، وسنرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسى والحريرى فى دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين فى بغداد ، تتناول الأسس

والغايات التي من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعة على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى ألممنا بها في فصل الثقافة وهي تدل على أن الفلسفة أصبحت في القرن الرابع الهجري شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ،وهي كثرة المنتديات التي كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني ، وذكرنا من كان يؤمها من عِلْية المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم في الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلْقَى سؤال وتدور حوله محاورة كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدْلي به ، ثم يكون الرأي الأخير لأبي سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدي - كما مرَّ بنا - أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، وسماها المقابسات أي المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابسة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفي إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستا في نحو أربعمائة صفحة كبيرة ، وهي أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة في الإلهيات والطبيعيات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن نُدْخل متفلسفة القرن الرابع في هذه الندوة وغيرها في دائرة الفارابي وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً في إثره يُعنَوْنَ بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التي بثَّها الأفلاطونية الحديثة ، وهي مبثوثة في كلام أبي سليمان وتلميذه النَّوشَجاني ، وقد عرض لها الأخير في المقابسة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعه مما يدل على إيمانهم بها جميعاً .

وفي مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مريديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التي قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهي الوصل بين الفلسفة والشريعة ، كما مر بنا في فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وصوَّر أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة ردَّ أبي سليمان عليهم (١) ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحي ومرد الفلسفة إلى الرأي والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية ، يقول :

« الشريعة مأخوذة عن الله عزَّ وجَلَّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوِّزه

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/٦ - ١٨ وانظر في أبي سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متقنة ، ومراشد تامة مبيِّنة ، وفى أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبعث) ولابد من التسليم للداعى إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط لِمَ ؟ ويبطل كيف ؟ ويزول : هَلاَّ ، ويذهب لو وليت فى الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتياب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلفى . ليس فيها حديث المنجم فى تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك . . ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر فى آثارها . . ولا فيها حديث المهندس . . ولا فيها حديث المنطق . . فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة فى طريق الشريعة . . وكما لم نجد فى هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهى النصارى ، وكذلك المجوس . . فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ . . وبالجملة النبى فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبى ، وعلى الفيلسوف أن يتّبع النبى وليس على النبى أن يتبع الفيلسوف ، لأن النبى مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحى فائدة ولا غَناء ، على أن منازل الناس متفاوته فى العقل وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس . . والنبى يقول أُمرت وعُلِّمت وقيل لى وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، والنبى يقول : معى نور خالق الخلق أمشى بضيائه ، وهذا يقول معى نور العقل أهتدى به ، والنبى يقول : قال الله تعالى وقال المَلَكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط . . » .

وواضح أن أسلحة أبى سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحى والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهى تتفاوت وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنبى فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذى دفع أبا سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا فى مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكأن أبا سليمان أحسَّ أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذى يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى الغالى غلوًّا شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة – كما نقل عنه أبو حيان

فى المقابسات – قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تألُّهٍ وسوء ديانة . ومن المؤكد أن وصفهم بقلة التأله وسوء الديانة فيه مبالغة ، وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغى أن لا يعمِّم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة فى العصر صُبغت بأصباغ أدبية واضحة ، إذ يعرف أبوسليمان كيف يصطفى ألفاظه ، وكيف يجرى فيها ترادفاً بديعاً يحمل لوقعها على الآذان جمالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتى بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ فى المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النَّوْشَجانى الذى نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط[1] :

«إذا كان صنف من أصناف الموجود فى حكم المعدوم لخساسته ، ونقصه وتهافته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقبح صورته ، وانمحاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطُّع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون فى مقابلته وبإزائه صنف آخر من المعدوم فى حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاسة جوهره ، وكمال فضيلته ، وظاهر عفته ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سِنْخه ، وصفاء سُوسِه[2] ، وطهارة ذاته ، وظاهر زينته ، ودوام نضرته ، وتناسب جملته وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . . فإنك متى حويت هذه المعانى . . اكتنفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فنيت ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحيا وإن مت ، وظاهراً وإن بطنت ، وجليًّا وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهدا وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . هنالك تصل إلى غِنًى بلا قُنْية[3] ، وتنطق بلا عبارة ، وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبقى بلا آفة . . وتسعد بلا شَوْب . إلهية ورثتها من البشرية ، وربوبية وصلت إليها بالعبودية» .

ويمضى النوشجانى فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص فى إسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة ، فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حريًّا به أن يباين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذن تكون السعادة غايته ، والأبد نعته ونهايته . وصياغةُ النوشجانى رائعة بما فيها من

---

(١) المقابسات (طبعة بغداد) : المقابسة السادسة والأربعون وانظر فى النوشجانى المقابسات ٢٩ ، ٣٦ ، ١٠٦ .

(٢) السوس والسنخ : الأصل .

(٣) القنية : ما يكتسب من المال ويقتنى .

جمال الجرس فى الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجرى فيها من ترادف بديع وقدرة على التناسق فى الكلمات والصيغ وسيلانها ، بل تدفقها ، بالفكر الصافى الخالى من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفى فى هذا العصر التقى بالأدب والتحم فى أثنائه وعلى حواشيه ، فغدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبيعى فى هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات ، وأن تشيع فى كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبى ببعض مناظرات بين الحاتمى والمتنبى على نحو مايوضح ذلك الحاتمى فى رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البويهى بما كان يُعْقَدُ من مناظرات بين العلماء فى مجالسه ، ويحدثنا القاضى عياض فى ترجمته[1] للباقلانى عن مناظرته بحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف مالا يطاق ، ومناظرته بحضرته أيضاً لأبى إسحق النَّصِيبِينى رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرت لاتزال ناشبة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طبيباً بغدادياً فى القرن الخامس الهجرى هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطبيب المصرى والحوار معه[2] . ومالنا نذهب بعيداً ومتدى أو ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى فى القرن الرابع الهجرى كانت تعج بالحوار والجدال فى كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجرى فى الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقى أصحاب المذاهب والآراء ، فتنشب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التى حكاها أبو حيان بين شخص يسمى الحريرى كان يأخذ بشىء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسى أبى سليمان محمد بن معشر البيستى الرازى مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا فى فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقى السجستانى كما مرَّ بنا ، وكان لا يزال يُرَى ببغداد فى ندوته ، وفى شارع الوراقين . وكان الرأى العام السائد هناك يعارض نظريته فى التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلهم كانوا يعرفون مقصده الذى نبهنا إليه مراراً ، وكانوا يتعرَّضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم — وهو يتجوَّل فى الوراقين — تعرَّضَ له فيه الحريرى غلام ابن طَرَّارة وهيَّجه بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلا[3] الشريعة طِبُّ المرضى والفلسفة طب الأصحاء ، فالأنبياء يُطبِّبون للمرضى حتى

---

(١) انظر هذه الترجمة فى نهاية كتاب التمهيد للباقلانى (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة) ص ٢٤٦ .

(٢) راجع القفطى ص ٢٩٨ ، ٤٤٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢/١١ وما بعدها .

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطبُّون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسْبَ الفضائل التي تؤهلهم للحياة الإلٰهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينهما لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينهما لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريري ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طبيب للمرض وطبيب للصحة ، بل ذلك شيء خارج عن العادة ، فدائماً الطبيب يُعْنَى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة . ونقَض عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفية برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحي ولذلك تستقيم مع أي برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهي التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهي لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريري أشد العجب من جَعْل المقدسي الشريعةَ من باب الظن وهي بالوحي ، والفلسفةَ من باب اليقين وهي من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموَّهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحي من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهي تناقش الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أى جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قَسْراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما فى المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلن إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هى كيد للدين القويم ، حاوله من قبلهم كثيرون فباءوا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسي وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريرى إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسى لندل على مدى ما حَظِىَ به العقل العربى فى القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشعيبها ونَقْضِها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت حِدَّتها تخف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجَّهه أبو نصر السرَّاج الطوسى والقُشَيْرى نحو التصوف السنى ، و يعم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجرى بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ الرفاعى ، ولا يلبث الدراويش أن ينتشروا فى العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالى الذى كان لحملاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر فى انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفيًّا سنيًّا ، فدعم التصوف السنى إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هى الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر فى العصر على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية ، ويكفى أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة ، من ذلك دعاء[1] لمحمد بن عبد الملك الفارقى المار ذكره فى الفصل الماضى . وأخذت توضع كتب كثيرة فى التصوف وفى القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللمع فى التصوف لأبى نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفا المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأعطى رياسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبى طالب[2] المكى الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر[3] الخلدى المتوفى سنة ٣٤٨ ومر بنا فى حديثنا عن ابن السراج البغدادى بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنساك .

---

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٢/٤٣٣ .

(٢) راجع فى أبى طالب تاريخ بغداد ٣/٨٩ وابن خلكان ٤/٣٠٣ والوافى ٤/١١٦ وميزان الاعتدال ٣/٦٥٥ والشذرات ٣/ ١٣٠ ولسان الميزان ٥/ ٣٠ ومرآة الجنان ٢ / ٤٣٠ .

(٣) انظره فى تاريخ بغداد ٧ / ٢٢٦ وبروكلمان ٤/٧٥.

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة ، على نحو ما نرى عند أبى على المحسّن (١) التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هى : كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهو مطبوع ، و «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» وهو أقاصيص وأخبار عن معاصريه وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه «أنس الفريد» سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتّاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ، وفى مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا الذى ذكرناه فى فصل الثقافة بين علماء البلاغة فى القرن الخامس الهجرى ، وهو سابق للحريرى ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو اليشكرى ، ورواتها متعددون ، وتدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وهى مطبوعة من قديم فى إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبى العلاء أحمد بن أبى بكر بن أحمد الرازى من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريرى وأهداها إلى أبى حامد الشهرزورى المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزى الذى مرّ ذكره فى غير موضع ، وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشرى فى مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التى ألفت فى القرن السادس بعد مقامات الحريرى مقامات يحيى بن سعيد بن مارى النصرانى البغدادى المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته ، وهى ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريرى . ونلتقى فى أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزرى المعروف بابن الصّيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهى خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريرى فى الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أى أديب بعده ، وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر فى العصر كتب الأدب التهذيبى ، وتتخذ مَجْرَيَيْن : مجرى فلسفيًّا فكريًّا على نحو ما نرى فى كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجرى عمليًّا تربويًّا مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبى الحسن على بن محمد الماوردى المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب فى فضل العقل وذم الهوى ، وباب فى أدب العلم ، وباب فى أدب الدين . وباب فى

(١) راجع ترجمته فى اليتيمة ٢/٣٤٥ وتاريخ بغداد ١٣/١٥٥ ومعجم الأدباء ١٧/٩٢ والمنتظم ٧/١٧٨ وابن خلكان ٤/١٥٩ والنجوم الزاهرة ٤/١٦٨ والشذرات ٣/١١٢ .

أدب الدنيا ، وباب فى أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفى كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التى تحث على الفضائل وتنهى عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقرراً للمطالعة فى المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب التهذيبى بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه فى النفع والفائدة .

وتموج اليتيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية ، وتتكاثر كثرة مفرطة ، فى الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يتفننون فى تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبّلا تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدّس فيها أكداساً ، وتكدّس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة بجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة باتخاذ حرف واحد تُبْنَى عليه الرسالة . وللحريرى رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحَصْكَفى [1] يحيى بن سلامة خطيب ميَّا فارِقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة ليس فى حروفها حرف منقوط ، وكان شغوفاً بالجناس وصُنْع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

«النفس بعقود التذرُّع حالية ، ولقعود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعى المزعجة مائلة ، وفى بحار الحمدراسية ، وفى رحاب المدح سارية» .

ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة فى السجعة الأولى تعود فى السجعة الثانية مقلوبة معكوسة فى هيئتها وبنيتها وصورتها ، فعقود تتحول إلى قعود والتذرع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهى مهارة تُحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعى الذى يؤدِّيه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . ونلتقى بمعاصر للحصكفى ، هو الحَيْص بَيْص البغدادى المارّ ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهانى : «له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف» يقول : وهى كثيرة ، وسأورد

---

(١) انظر فى الحصكفى الخريدة (قسم الشام) ٢ / ٤٧١ وما بعدها والمنتظم ١٠ / ١٨٣ والسبكى ٧ / ٣٣٠ وابن خلكان ٦ / ٢٠٥ ومعجم الأدباء ٢٠ / ١٨ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص ٣٠٤ وبدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسائله .

منها نبذاً يستدَلّ بها على الباقيات . وتدل النُّبَذُ على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متَقعراً فيها أبعد تقعُّر ، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جمالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكأن الرسالة مجموعة من الألغاز ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السَّمْح [1] سعيد بن سَمُرَة أن يؤلف على نمط الحريرى لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . ونصبح منذ القرن السادس حقا بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بلورها عقداً ، وكأنما فارقتْ كل ماكانت تزدان به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتّاب الرسائل الديوانية .

٢

كتّاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلّة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية ؛ وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعُنِى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ماكان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه فى عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلّبى [2] الذى وزَر لمعز الدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الثعالبى فى يتيمته طائفة من شعره ، أما نثره فاكتفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع فى كتاباته ، والسجع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كتّاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز [3] بن يوسف ،

---

(١) انظر فى ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٢٦٣ .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته اليتيمة ٢ / ٢٢٣ والمنتظم ٩/٧ ومعجم الأدباء ١١٨/٩ والشذرات ٩/٣ وكتب التاريخ العامة فى سنة وفاته .

(٣) راجعه فى اليتيمة ٣١٢/٢ .

وفيه يقول الثعالبى : «كان أحد المقدمين فى الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً فى وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده» . ويورد الثعالبى مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين فى عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصابئ وسنخصه بكلمة عما قليل . وعُنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصَلايا فقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخصه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده فى العصر السلجوقى سديد الدولة أبو عبد الله محمد [1] بن عبد الكريم الأنبارى منشئ ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهى سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيفاً وخمسين سنة ويقال إنه عُمِّر حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العماد ولاصُبْحُ الأعشى للقلقشندى شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد [2] بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفى بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان فى عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى [3] بن زبادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوّه طويلاً قائلاً : «انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته فى الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفى عدة خدمات ، وكان مليح العبارة فى الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة» . وقد احتفظ القلقشندى برسالة [4] له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشى طغرل صاحب إقطاع البصرة ، وقد بلغ الخليفة أنه نزح عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو فى الرسالة يحاول إثناءه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

---

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ١٤٠/١ والمنتظم ٢٠٦/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٥ والشذرات ١٨٤/٤ .

(٢) انظره فى الخريدة (قسم العراق) ١٤١/١ وابن الأثير فى وفيات سنة ٥٧٥ .

(٣) انظر ترجمة ابن زبادة فى معجم الأدباء ١٦/٢٠ وابن خلكان ٢٤٤/٦ ومرآة الجنان ٢٤٤/٦ والشذرات ٣١٨/٤ .

(٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية) ٢٦٩/٨ .

«ولولا أن الأيام صحائفُ العجائب . ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنّكته التجارب ، لم أصدّق هذه الحركة ، وإنى ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر الصائب . . والفائتُ لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الهوى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضح» .

وتمضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتى منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة جَلْبه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زبادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرقى فى السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم نعرض للعماد الأصبهانى ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له فى ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل فى دواوينهما ، فحرى أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية فى الشام ومصر ، مع من عاشوا فى ظل هذين البطلين العظيمين . ونمضى إلى أيام المغول ويلقانا عطا ملك الجُوَيْنى المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظّف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء[١] الدين الإربلى المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف[٢] الدين على بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . ويلقانا فى صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولاكو الذى مرَّ بنا فى الفصل الأول أنه أسلم فى سنة ٦٨١ وحَسُن إسلامه ، وتسمَّى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصلى عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية فى جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتمَّ الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط[٣] :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عُنْفوان الصِّبا ورَيْعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوَّته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبَرِيَّته (فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبةُ الملك ، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ،

(١) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٢/ ١٣٤ وعند العزاوى ١/ ٢٥٩ .

(٢) راجعه فى الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد - طبع بغداد) ص ٤٨٠ وعند العزاوى ١/ ٢٦٠ .

(٣) صبح الأعشى ٨/ ٦٥ .

ما حقّق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه » .

وتمضى الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة . والرسالة مؤرّخة بأواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة وكتب الرد فى رمضان سنة ٦٨١ ناصر[1] الدين شافع بن على بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان أحمد بن هولاكو فى رسالته - كما هو واضح - إسلامه وأيضا أنه حرّم على عساكره الغارات على البلاد ، وتقول الرسالة إن فى اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كتّاب الإنشاء فى القرن الثامن يحيى[2] بن عبد الرحمن الجَعْبَرىّ الملقّب بنظام الدين المتوفى سنة ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأُعيد إلى وظيفته فى كتابة الإنشاء عن حكامها إلى وفاته . ويلقانا فى أواخر القرن التاسع الغياث[3] البغدادى عبد الله بن فتح الله كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم فى هذا العصر ، فسرعان ما دخلت العراق فى حكم الدولة العثمانية ، وكانت لاتهتم بديوان الإنشاء فى بغداد ، فضعف شأنه إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين فى العصر : أبى إسحاق الصابىء والعلاء بن الموصَلايا وضياء الدين بن الأثير .

أبو إسحاق[4] الصابىء

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زَهْرون الصابئ المكنى بأبى إسحاق ، أصل آبائه من حرّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتثقف وتأدب ، ولزم فيها مواطنيه الحرّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول القفطى : له مؤلف فى المثلثات . ويبدو أنه أحسّ فى نفسه مبكراً بنزوع شديد نحو الأدب وأن يصبح من كتابِ الدواوين ، فأخذ يكبّ على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففتحت له الأبواب وتعرّف عليه الوزير المهلبى ، وأُعْجب به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أُنسه ، ولم يلبث أن قلّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

---

(١) صبح الأعشى ٧ / ٢٣٧ .

(٢) ترجمته فى الدرر الكامنة لابن حجر ٥/١٩٢ .

(٣) العزاوى ١ / ٢٧٧ .

(٤) انظر فى ترجمة الصابئ اليتيمة ٢/٢٤١ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢/٢٠ وابن خلكان ١/٥٢ ، ٤٤٥ وصوان الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطى ص ٧٥ والشذرات ٣/١٠٦ والإمتاع والمؤانسة ١/٦٨ والمقابسات لأبى حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى ٦/٤٨٣ و ١٤/ ٣٦٠ (راجع الفهرس) وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

حتى إذا توفّى المهلبى سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهى أمواله قبض على أبى إسحاق الصابئ فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف معز الدولة بقصائد جملته يعفو عنه ويعيده إلى عمله فى ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بَخْتيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهى ، وكان الصابئ فى أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤلمه ، وحدث أن تقرّر الصلح بينهما ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصابئ أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حتى الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بُدًّا من حَلِف اليمين ، وعرف أن أبا اسحاق الصابئ كاتبه ، فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بَخْتيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار فى ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق . وسرعان ما اعتقل الصابئ وزجَّ به فى غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنفْ كتاباً فى أخبار آل بويه ، فأخذ فى تصنيف كتاب «التاجى» وهو فى السجن ، ونُقل إلى عضد الدولة أنه سُئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنمِّقها وأكاذيب ألفِّقها ، فحنق عليه حنقاً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة ليُقْتَلَ أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يتشفعون له ، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً فى أيامه : حتى إذا توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولى ديوان الإنشاء وظل يليه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة فى بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثنى ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله فى الدين الحنيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزراؤهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه فى الكتابة ، يقول الثعالبى إنه «أوحد العراق فى البلاغة ومَنْ به تُثْنَى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة» ويقول أبو حيان التوحيدى : «نظمه منثوره ، ومنثوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبك فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما ماثله فيها إنسان» وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان فى مجلدين ، وهى مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آى القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جِلّة المسلمين ، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

«الحمد لله العلىّ العظيم ، الأزلى القديم ، المتفرد بالكبرياء والملكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لا تحدُّه الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصرُه قرارة مكان ، ولا يغيِّره مرور زمان ، ولا تتمثَّله العيون بنواظرها ، ولا تتخيَّله القلوب بخواطرها ، فاطر السموات وما تظلّ ، وخالق الأرض وما تُقِلّ » .

وهو يستمر فى هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصابئ كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال ، المؤمنين بوحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس بجسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والخواطر لا تتخيله ، مبدع السموات والأرض . وفى هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهايتى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين فى عدد حروفها وحركاتها وسكناتها ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة « العلى العظيم » يليها « الأزلى القديم » وكلمة « المتفرد بالكبرياء والملكوت » يليها « المتوحد بالعظمة والجبروت » وتتوالى السجعات ، فكل سجعة تسمع فى تاليتها جرسها الموسيقى ، مع المهارة فى اصطفاء الألفاظ . واقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينهما من صلة الرَّحِم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تُؤْتَى مراسى أوتاده من ذوائب عروشه ، وأن تدبَّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أراقم المناقشة ، وتتبثّ الدواهى فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محرومة من أضدادهم وعداتهم » .

وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان فى أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليتها ، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصها من تماثل الروى فى نهايتها . ومرَّ بنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شىء من السرور والسعادة على قارئه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها ردًّا على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أهدى إليه جَمَلاً ، وذكر ذلك فى رقعته ، وفيها يقول :

« ذكرت حَمَلاً (كبشاً) جعلته جملاً ، . . فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادم الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور . . فبانت دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيلا ، باديَ الأسقام ، عاريَ العظام . . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً ، قد طال للكلإ فقده ، وبَعُدَ با لمرعى عهده ،

لم يرِ القتّ إلا نائماً ، ولا الشّعير إلا حالما . . وقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال .·. فأنشدنى وقد أُضرمت النار ، وحُدَّت الشِّفار :

أُعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ[1]

ثم قال : وما الفائدة من ذبحى ، ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمى ، ولا ذى جلد يصلح للدّباغ لأن الأيام قد مزقت أَدَمى ، ولاذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حَصَّت (أذهبت) وَبَرِى » .

وليست الفكاهة شيئاً سهلاً ، فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح ، وهى تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجعه فى هذه الرسالة التى يجدر بنا أن ندخلها فى حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقى ، وهو قصير قصراً تَسْرى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما فى السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتاليتها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصابئ رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ستّ[2] صفحات كبيرة، وهى صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير فى عصره كان يسمى عَلَيْكا إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عِرّس الموصلى ، وهو يستهله بأن عليكا عهد إلى تلميذه بإحياء سُنّته وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أرْباضها (ضواحيها) وأكنافها فى سوادها وأطرافها لما توسّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللَّقْم ، وجودة الهضم ، ويأخذ فى سرد وصاياه فى شكل أوامر وفرائض يجب أن يتّبعها ابن عرس ، من ذلك أنه :

« أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمُطَ الأمراء والوزراء بسَراياه . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجّار ، ومجهِّزى الأمصار ، من بنيان الدار ، والعُرّس والإعذار (الختان) . . وربما صَبروا على تطفيل المتطفلين ، وأَغْضَوْا على تهجم الواغلين (الممعنين فى التطفل) ليتحدّثوا بذلك فى محافلهم الرَّذْلة ، ويعدُّوه فى مكارم أخلاقهم النَّذْلة . . وأمره أن يصادق قَهارمة الدور ومدبِّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمّاليها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمَّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم . . وأمره أن يتعهد أسواق المسّوقين ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

---

(١) البيت للمتنبى من قصيدته التى عاتب فيها سيف الدولة الحمدانى . والضمير فى أعيذها يعود إلى نظرات يقول له : أعيذ نظراتك البصيرة أن تخدعك فلا تفرق بين شاعرك وغيره من حاسديه الذين يتظاهرون لك بمثل مودته تمويها وخداعا .

(٢) صبح الأعشى ٣٦٠/١٤ .

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، اتَّبعها إلى المَقْصِد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقاتَ الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأدُبةٍ تعمُّهم . . حَمل عليها حَمْلة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، واللَّيْث الهاصر ، والعُقاب الكاسر . وأمره أن يُروضَ نفسه ، ويخالط حِسَّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صَفْحاً ، ويَطْوِىَ دونه كَشْحاً ، فإن أتته اللَّكزَة فى حلقه ، صَبَر عليها فى الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصَّفْعة فى راسه ، صَبر عليها لموقع أضراسه ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء» .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكُدْية ، وقد تحدثنا عنهم فى غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور فى نفوس سامعيهم . ولا ريب فى أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبى إسحق الصابئ السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقى ، سواء قصَّره أو طوَّله ، إذ يعنى به دائماً أن يلذَّ الآذان ، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء (١) بن الموصَلايا

هو أمين الدولة أبوسعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصَلايا البغدادى ، ولدسنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانيًّا ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعدَّ نفسه مثل أبى إسحاق الصابئ ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة فى عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧ هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢ هـ) حتى توفى سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه فى أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحَسُنَ إسلامه ، واختلف من ترجموا له فى زمن إسلامه ، فالعماد الأصبهانى يقول إنه كان فى زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان فى زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

(١) انظر فى ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه الخريدة (قسم العراق) ١/١٢٣ والمنتظم ٩/١٤١ ونكت الهميان ص ٢٠١ والنجوم الزاهرة ٥/١٨٩ وابن خلكان ٣/٤٨٠ وصبح الأعشى ٦/٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٤٥٣ . ١٠/٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .

ونميل إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفَّ بصر العلاء فى آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضَمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة فى الوزارة وظل يضمها فى عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : «كان بليغ الإنشاء ، سديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه» ويقول الصفدى : «أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل» .

وقد احتفظ كتابُ صبح الأعشى للعلاء فى جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى فى منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُلْبك ، وهى موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غَزْنَة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عيَّنه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتسز . وبالمثل احتفظ صبح الأعشى فى جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس فى سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطنته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس فى عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه فى الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع فى نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يَقْبِس من أضوائه فى رسائله مثل الصابئ . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل فى الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرخ به القلشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق . والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين فى صورة عهد بحياطته هو وأهل ملته فى نفوسهم وأموالهم وبِيَعهم وديارهم ومقارّ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية – وكانت أشبه بضريبة دفاع – من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومَنْ لم يبلغ الحُلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة فى السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة فى بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بَطْرك النصارى العام . ويلفتنا فى العهد لابن تاشفين وفى الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك فى الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلايا يطيل

فى الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجرى الصلاة فى رسالة البساسيرى على هذا النمط :

« الحمد لله الذى اختص محمداً ﷺ برسالته وحَبَاه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحَوَاه ، وبعثه على حين فَتْرة من الرسل ، وخَلاه من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه مَنْ عصاه ، وبلغ فى الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وسلكوا فى نُصْرته جَدَداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدتْ أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فصلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخَبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلَّم تسليماً » .

ولعلى لا أخطئْ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل فى منتصف القرن الخامس حين كُتبت هذه الصلاة فى رسالة البساسيرى لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ . وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء ألفاظه وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى فى الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل فى الرَّعايا قِبَله ، ويُحِلّهم من الأمن هِضابه وقُلَله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويُضفى على المسلم منهم والمعاهَد (الذمىّ) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويُلحق التليدَ منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين فى كنف الصَّوْن ، راجعين إلى الله تعالى فى إمدادهم بالتوفيق وحُسْن الطاعة والعَوْن ، وأن ينظر فى مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر عَلَمَ العدل فى مطاويه . . مُلِيناً لهم فى ذلك جانبه ، ومُبِيناً ما يظل به كاسبَ الأجر وجالبَه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلا أمر الله تعالى فى ذلك متلقًّى بالطاعة الواضحةِ الدليلِ والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القُرْبى وينْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكَّرون) » .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو فى رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفِّى ألفاظه من الشوائب ، ويخليها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستتم تأثيره بما يختم به فقره فى هذا العهد وفى غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التى تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء[١] الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالى العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعْنَى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرَّغه للدراسة كما فرَّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل فى التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى . ولما أحسَّ أنه كملت له أدواته فى الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ ووصله به القاضى الفاضل وزيره ، فعمل فى دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولبَّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذه لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفِّى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلِّف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هَمُّوا بقتله . وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطانا على مصر ، فيلحق به سرًّا فى صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين فى مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويعوِّضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستترًا إلى ولايته الجديدة ، ويقيم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مآب فى سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقى عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله فى سنة ٦٣٧ إلى بغداد فى بعض المهام ، فيدركه بها الموت .

وحَظِىَ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه فى رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، والمختار منها – كما يقول – مجلد واحد . وربما كان أهم منها فى سبب شهرته كتابه : «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» وفيه صوَّر الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعةَ المعنوية وما يتصل بها من

---

(١) انظر فى ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٥/٣٨٩ والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبى ٥/١٥٦ ومرآة الجنان ٤/٩٧ والنجوم الزاهرة ٦/٣١٨ والشذرات ٥/١٨٧ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٣ .

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تامًّا ما يحتاج الكاتب إلى المكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : «إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام» . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم فى حَلِّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى فى الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه فى رسائله الديوانية ، وهو يُعْنَى فيها قبل كل شىء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوى فيها وَحلِّ أبيات الشعر . وعادة يسوق فى الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته فى رسائله ، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصافات ، وهى : (اللهُ الذى رفَع السَّموات بغير عَمَدٍ ترونها) (وفى السماء رِزْقُكم وماتوعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كل جانب) إذ يقول فى إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب :

«وعَقَد العَجاجُ[1] سَقفاً فانعقد ، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمَد ، غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجِياد ، وزُيِّنت بنجوم الصِّعاد[2] ، ففيها ما يُوعَدُ من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق ، ومنها تُقْذَفَ شياطين الحرب لا شياطين الاستراق» .

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوى وألفاظه فى رسائله ، فمن ذلك ما رُوى عن الرسول عليه السلام من أنه فى غزوة حُنَيْن أخذ قَبْضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار قائلاً : «شاهت الوجوه» . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً : «أخذنا بسنة رسول الله ﷺ فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كفًّا من التراب ، وقلنا : شاهت الوجوه» . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبى الذى يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحَدَث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزَّق ، إذ يقول :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ... ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمائِمُ

وقد نثره ضياء الدين فى وصف معركة مماثلة قائلا : «وكأنما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلَّق عليها من رءوس القتلى تمائم» . ومن ذلك بيت البحترى :

(١) العجاج : الغبار. (٢) الصعاد : الرماح.

سُلِبوا وأشرقتِ الدماءُ عليهمُ   محمَّرةً فكأنهم لم يُسْلَبوا

فقد نثره فى فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحقهم محقاً لم يُبْق منهم ولم يَذر . والفصل يجرى على هذا النمط :

« سُلبوا وعاضتهم الدماءُ عن اللِّباس ، فهم فى صورة عارٍ وزِيُّهم زِيُّ كاس ، وما أسرع ما خيط لهم لباسُها المحمَّر ، غير أنه لم يُجَيَّبْ[١] عليهم ولم يُزَرَّ ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقى على الدهر ، وهو شعار نسجه السِّنان الخارق ، لا الصَّنَعُ الحاذق ، ولم يَغِب عن لابسه إلا ريثما غابت البِيض[٢] فى الطُّلَى والهام[٣] ، وأُلِّف الطَّعْنُ بين ألف الخط واللام » .

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين فى السجع ، وهى مهارة كتب بها مجلدات ، كما أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه فى المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التى تحيل الكلام رصفاً لألفاظ وحَشْداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعانى الطريفة المبتكرة ، بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته فى أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة ، منها قوله فى وصف النيل وقت زيادته وفيضانه فى رسالة من رسائله : « وعَذُبَ رُضَابُه فضاهى جَنَا النَّحْل[٤] ، واحمرَّ صَفيحه فعلمتُ أنه قتَل المَحْل[٥] » . ويقول ابن خلكان : « وهذا بديع غريب نهاية فى الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه » . وضياء الدين يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه فى رأيه دماء الجدب ، وهى حقاً صورة رائعة . وجعلته عنايته بالمعانى والصور المبتكرة يؤلف كتابه « المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء » كما جعلته عنايته بحل الشعر والاقتباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : « الوشى المرقوم » .

وفى الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده بكاتب ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى أدباء العصر النابهين : أبى حيان التوحيدى ، وابن مسكويه ، والحريرى .

---

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحته العليا .
(٢) البيض : السيوف .
(٣) الطلى : الأعناق ، والهام : الرءوس .
(٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل : عسله
(٥) المحل : الجدب .

٣

أبو حيان [١] التَّوحيدىّ

هو أبو حيان على بن محمد بن العباس التَّوحيدىّ ، وقد اختُلف فى مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقيل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوبى العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح فى رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيدِ ، وعليه حَمل شُرَّاح المتنبى قوله :

يترشَّفن من فمى رشفاتٍ هنَّ فيه أَحْلَى من التوحيدِ

وكأنه هو وأباه نُسبا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجَر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا ينسُبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذاك غير معتزلى ، وسنرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفى هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه فى عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده فى العقد الثانى من القرن الرابع بين سنتى ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه فى السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه فى شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس فى المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسى ، ومن قائل إنه عربى ، ويرجع عروبته اعترافه – كما جاء فى ترجمه ياقوت له – بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرَّر ما يشير

(١) انظر فى أبى حيان وترجمته معجم الأدباء ١٥/٥ وابن خلكان ٥/١١٢ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازى ٥٣ والمنتظم ٨/١٨٥ والسبكى ٥/٢٨٦ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٢٣ وميزان الاعتدال للذهبى ٢/٣٥٥ ، ٤/٥١٨ ولسان الميزان لابن حجر ٦/٣٦٩ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبت عنه فى العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيى الدين وإحسان عباس وزكريا إبراهيم ومحمد كرد على فى الجزء الثامن من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وأحمد أمين فى تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى وإبراهيم الكيلانى فى مقدمته لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين فى تقديمه لكتاب المقابسات وبروكلمان ٤/٣٣٥ ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى ذلك فى المقابسة الثانية من كتابه «المقابسات» وفى المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل» . وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة – دفاع العربى الأصيل – ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجَيْهانى ، ويرفعهم مكاناً عَلِيًّا ، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا فى الليلة السادسة من ليالى كتاب الإمتاع والمؤانسة .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن طفولة أبى حيان ومرّباه ومنشئه ، وطبيعى أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكُتّاب مثل لداته بحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب ، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره ، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء فى المساجد ، وكانت مفتوحة ومهيّأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة . ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته فى كتاباته ، منهم فى النحو واللغة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ وفى البلاغة والبيان على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ وفى الفقه أبو حامد المرو رُّوذى المتوفى سنة ٣٦٢ وفى الحديث أبو بكر الشافعى صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤ ، وفى التصوف جعفر الخُلْدى تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفى الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابى المتوفى سنة ٣٦٣ وأبو سليمان المنطقى السجتانى الذى مرّ ذكره ، وقد تعرّف به فى مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينهما صداقة وثيقة ، حتى إذا استقل أبو سليمان بندوة أو بمجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من روّاده ، بل من ملازميه ومسجّلى ما يدور بحضرته . وكان من أكبر الأسباب فى اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نَسْخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب فى كل فن وفى كل علم ، وانطبع كثير مما كتبه فى ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً . واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان ، فكان ما يكتبه منه يُعَدّ نسخاً نفيسة فى عصره ويُدِرُّ عليه مكافأة جزيلة ، كما جاء فى مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، بل لا شك فى أن كل ما كان يكتبه كان يُجزّى عليه الجزاء الحسن .

وتظل حياة أبى حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورّاقا ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب إلى الحج فى سنة ٣٥٣ ويتعرف فى مكة على جماعة من الصوفية ، منهم ابن الجلاّء والحرّانى ، وفى كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما . وعاد إلى بغداد فى سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة . ويبدو أنه آنس فى نفسه شيئا من القدرة الأدبية ، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد فى الرّىّ لعله يجد لنفسه عملا عنده ، أو لعله يوصى به أولى الأمر فى خراسان . ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذ عاد إليها خالى الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرّف فى هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعى أن يعود أبو حيان إلى عمله فى الوراقة ونسخ الكتب .

ويحدث فى سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تثور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيّارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدىّ ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه فى الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيّارين لا فى هذا الكتاب وحده ، بل أيضا فى كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول فى الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضَعَةٌ والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أُسرته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجيا لهذه المهنة أشد الهجاء ثالبا لها أشد الثلب حتى ليسميها « حرفة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه فى هذا العصر يرثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها فى عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتفى بالقليل مما ينسخ فى حدود حاجته على نحو ما يروى ياقوت فى ترجمته للسيرافى أستاذ أبى حيان فى النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه فى القضاء بين الناس أو فى محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئونته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتفى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه فى علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى فى ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوّره المعاصرون من شكوى أبى حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسيًّا أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا فى الحياة وهم دونه فى الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملأ قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلازمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضا فإن ذلك لم يَعُدْ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضنى . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء ، ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تتعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرَّىّ وأرّجان وافدا على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بخفى حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطاياه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبو سليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىّ سنة ٣٦٦ راجيا أن يعوضه ما نهبه منه العيّارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكُدية والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائما إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شىء منها على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورّ عنه . وتتطور الحوادث سريعا ، ويفتك مؤيد الدولة البويهى بأبى الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخا له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يُحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتدخّل فيما يكون من حديث ببجاحة وزهو وتعالم مما ملأ نفس الصاحب عليه حَنَقاً وموجدة ، فبرم به الصاحب برما شديدا ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلّ عليه لسانه ، وأن شيئا من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينهما فسادا من الصعب إصلاحه أو رتْقه . وأخذ الصاحب يجفوه ويصدّه عن مجالسه صدا قبيحا . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافأته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبى الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيهما كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليهما تحاملا مسرفا وتجنى عليهما تجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبهما ما اشتهرا به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبى الفضل بن العميد ، لأن جرح أبى حيان منه كان أبعد غَوْراً وأشدَّ إيلاما .

ويعود أبو حيان جريحا كسيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقة ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرَّع من حرمان مرير ، ومدَّ إليه يدَ العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلابد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائبا فى الرَّىّ ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرىَّ زمن أبى الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجىء أبى حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرِّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس بالبؤس واليأس المرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مَساربَ ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسَّ ، أو إلى الصابرين معك وتسلَّ ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك وتبكى على باك ، ففى كل حلق شجىً وفى كل عين قَذًى » . فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقه ما يكاد يغصُّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيانٌ ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شُحًّا شديدا ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرَّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أرعاه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بيمارستان بغداد ، فعيّنوه راعيا لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قرّبه من ابن سَعْدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلّفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعة فى سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر فى صنع رسالة عن الصداقة والصديق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمائة ، وهى أقوال وأشعار مجموعة على طريقته فى كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التى كوّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويبتسم الزمن فترة لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لصمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أدبيا للحوار ليلا فى كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعيات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون فى هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين فى ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سَعْدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكآبة التى كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل فى كتاب أطرف المسائل التى تناولها حواره مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرا فيه على مادار فى سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالا ويأخذ أبو حيان فى الإجابة ، وقد يطلب إليه فى موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت فى سوق الوراقين أو دارت فى عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة فى الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس فى الكتاب ما يدل على أنه ألّف بعد فتك صمصام الدولة البويهى بابن سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتدأ تأليفه فى حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولمجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى فى زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواره مع ابن سعدان فى الإمتاع والمؤانسة سجّل فى كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار فى ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرّح

فى المقابسة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر فى المقابسة الحادية والستين أنه قرأ على أبى سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث فى المقابسة الثانية والخمسين عن شخص توفى سنة ٣٨٦ وهناك مقابسة هى المقابسة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات فى تاريخ إملاء أبى سليمان لها على تلاميذه ، هل هى سنة إحدى وسبعين أو هى سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابسات وإلقائها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

وليست المقابسات جميعها من إملاء أبى سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان فى المقابسات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرَّر كلام أبى سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيْغ التأليف ، ويقول إنه استنفد الطاقة فى تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع فى الظن ، فيقول إن صياغة المقابسات وغيرها من النصوص التى يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هى من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جُلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكِّد ذلك بالقياس إلى أبى سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان فى الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن فى لسانه لُكْنة ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن فى عبارته تقطعا فى السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبى حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعلى لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابسات فى جملتها من كلام أبى سليمان ورفاقه نَصًّا ولَفْظاً . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابسة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمّار المتفلسف يجدها بنَصِّها ولفظها فى كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى ص ٣٣٥ ومثلها المقابسة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص فى صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابسة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجانى موجودة بلفظها ونصها فى صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبى سليمان فى كتابه صوان الحكمة وفى رسائله التى ألحقها به الدكتور بدوى يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفى عن أبى حيان جهده فى تنسيق المقابسات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعنى ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة فى المقابسات له ، والمعنى لأبى سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان فى بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحياناً . وقد طُبع كتاب المقابسات طبعات مختلفة فى بومباى والقاهرة وبغداد .

ونمضى مع أبى حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقة وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع فى القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب فى صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتتخللُ ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوِّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشعره سنوات طوالا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه فى رسالته رقم « يه » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بى منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد – وحقِّك – شددتَ الوَثاق ، وضيَّقت الخِناق ، وأقمت الحرب بينى وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، فى عهود وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نظن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤلف فى عام واحد ولا فى أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر فى السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجرى فى كلامه من هجر للدنيا وترهاتها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه فى طلب العفو والرجاء فى نعيمه ، وعيناه تعتصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبى حيان فى الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأناجيل وأولى من ذلك فى رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوثة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ، فمصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف فى فؤاده وصفاء جوهره الروحى . أما ما ردده ابن الجوزى والذهبى وغيرهما – ونقله عنهم السبكى فى طبقاته – من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكى ، وقال إن الذهبى حَمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة فى الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة . . جَذَّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم » ويفضِّل الأميين عليهم ويقول إنهم أتقى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويَسْلُقُ الباقلانى الأشعرى العظيم

بلسان حاد . وهي طبيعةُ أبي حيان حين يهجو يُسِفُّ في هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لنراه يصف الباقلانى بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين – بجانب أنه سنى – ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهبهم وغلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يجاهرهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أبى بكر وعمر زاعما أنهما وجَّها بها إلى على بن أبى طالب لبيان أنه دون أبى بكر منزلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلانى مع رسالتين أخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أبى حيان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأبى حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها «الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى» وأكبر الظن أنه يقصد بها – إن صحت نسبتها إليه – النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلا . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعمائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظنا أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسَخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها – إن كان قد أحرقها – شيئاً . وكأن هذا الإحراق كان مَعْلَماً قوياً على طريق حياته التى أخذ يمضيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجها بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروى فيها الناسُ عنه – كما ذكر السبكى – الحديثَ النبوى حتى وفاته .

وأبو حيان يُعَدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه – كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة – كثيرا من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعيات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظيا ، قَعْقَعة ولاطِحْن ، بل هو أدب يحمل زادا كبيرا من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يُعْنَى بالألفاظ ، وهو شىء طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً ، وصدر عنها فى كتاباته صدوراً طبيعيًّا ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التى سادت الكتابات الأدبية فى أيامه ، إذ رأى فيها طلبا للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعانى ، بل قل تحيُّفا وانتقاصا ، فازورَّ عنها . وكانت المكتبة العربية قد ألقت بكنوزها بين يديه فى أثناء وِراقته ونَسْخه ، فراعه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتى والمعانى ، مستخدما أسلوب الازدواج الذى عُرف به ، وقد يتخلله فى الحين البعيد بعد الحين السجعُ ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب فى نفس أبى حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتى لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً فى أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتى ، ولنقرأ هذه الفقرة فى فاتحة الرسالة التى توسل بها إلى أبى الفتح بن العميد .

« اللهم هيِّئْ لى من أمرى رشدا ، ووفِّقنى لمرضاتك أبدا ، ولا تجعل الحِرْمانَ علىَّ رَصَداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلا بين كل عبارة وتاليتها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية فى تفريع الجمل بعضها من بعض ، إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهى بالتوفيق . ونحس كثيرا إزاء ازدواجات أبى حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارئه اكتساحا ، دون أن يستطيع تخلصا أو إفلاتا . وكان عجبا له أن هذه الرسالة التى كتبها لأبى الفتح لقيت منه إعراضا ، وعرف أن السبب فى ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصريه ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة فى تقريظ الجاحظ يشيد فيها به وبفنه . ولايروعنا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحيانا إنما يروعنا فيه أيضا ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل فى جميع أوعيته الصوتية ، ونقصد الشراب السائغ الذى تحمله هذه الأوعية من المعانى الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات ، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكفى لبيان ذلك كتابه «مثالب الوزيرين» الذى

يقع فى نحو ثلثمائة وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانبا فيها إلا مزقه تمزيقا ، وخاصة الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلبه وذمه بمثل قوله فى الكتاب :

« رمانى عن قوسه مُعْترقا(١) فأفرغت ما كان عندى على رأسه مغيظا ، وحرمنى فازدريته ، وحقرنى فأخزيته ، وخصّنى بالخيبة التى نالت منى ، فخصصته بالغيبة التى أحرقته ، والبادى أظلم ، والمنتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانى شَهْدُهُ يُشْتَفَى بهِ أَجَلْ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ

ولئن كان منعنى ماله الذى لم يبق له ، فما حَظَر علىّ عِرْضه الذى بقى بعده ، ولئن كنت انصرفتُ عنه بِخُفَّىْ حُنَيْن ، لقد لصق به من لسانى وقلمى كل عار وشَنار(٢) وشَيْن ، ولئن لم يرنى أهلاً لنائله(٣) وبِرِّه ، إنى لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونثِّ(٤) ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إلىّ من ماله ضائع ، إنى لأوقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولى شائع . والمنصف فى الحكم يَعْذر المظلوم ،ويلوم الظالم » .

وواضح فى الفقرة أن أبا حيان يعتمد فى أسلوبه المزدوج على المقابلات ، فهو يقابل بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب فى كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع فى ذلك هنا وفى كثير من جوانب كتاباته ، يرفده فى ذلك ذهن خصب حافل بالمعانى المتقابلة فلا يكاد المعنى يدوّنه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشىء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه فى حديثنا عنه بكتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ الذى نجده عند أبى حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شىء من التعبير ، فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعانى بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رفْدُه ولا مدده .

ونراه فى الإشارات يصور إحساسه فى أواخر حياته بالغربة التى طالما أمضته والتى وصفها فى مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه ليطيل فى الإشارات فى وصفه للغريب إذ يمتد فى ست صفحات لَبّته فيها الألفاظ ولَبّته المعانى بمثل قوله :

« قد قيل الغريب مَنْ جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

---

(١) معترقا : أى حتى تقد السهم من اللحم إلى العظم .
(٢) شنار : شنعة .
(٣) نائل : عطاء .
(٤) نث : نشر .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشَّريب[١] ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذّاله . . والغريب مَنْ إن حضَر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجِر ، وإذا قعد لم يُزَرْ . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسْأَلْ عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرْفع له الحجاب . . الغريب ليله أَسَف ، ونهاره لَهف ، وغَداؤه حَزَن ، وعَشاؤه شَجَن ، وسيره عَلَن ، وخوفه وطن » .

وهى كلمات من سيل الغربة الذى تدفق فى صفحات الإشارات ، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعانى التى صيغت فى أسلوب الازدواج . وغَلَبَ السجع فى هذه الكلمات ، وهو يَكْثُر فى الإشارات كثرة لا نراها فى كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التى لا تغيب أبدا عن كتابات أبى حيان لا فى شبابه ولا فى هرمه . وارجع إلى فكر أبى حيان الخصب فى هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بَثَّ فى كلامه معانى إنسانية عميقة ، وهى تجرى فى كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله :

« دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تهالك فى ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرِّضا لجَدْواه » . فحتى الصوفى غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أَدْعيته ومناجياته لربه فى الإشارات من مثل قوله :

« اللهم روِّح صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمُرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدك ، وأَذِقْنا حلاوة بِرِّك ، وجُدْ علينا بك ، وخَلِّ بيننا وبينك ، وجَلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألسنتا قواطف وصفك ونعتك ، فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عَطِشْنا فَرِوِّنا ، وإذا ضعفنا فقوِّنا ، وإذا اعْوَجَجْنا فسوِّنا ، وإذا اعتللنا فداوِنا ، وإذا كَدِرنا فصَفِّنا ، وإذا دَنِسْنا فنَقِّنا . . وإذا بِنَّا منك فصِلْنا بك » .

وخصائصه التى صورناها واضحة فى هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

(١) الشريب : المشارك فى الشرب .

ومعادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريعات فى المعانى والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن[١] مسكويه

هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطربت المصادر القديمة فى مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت فى ترجمته وكذلك القفطى فى تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان فى ترجمة ظهير الدين الروذراورى إنه أبو على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذى يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسيا وأسلم وكان عارفا بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومرّباه فضلا عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالى سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث فى مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل فى دواوينه وهو فى نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرَّىّ ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتيحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها فى شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولابد أنه اختلف فى بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظنا أنه

---

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تتمة اليتيمة ١/٩٦ ومعجم الأدباء ٥/٥ وابن خلكان ٥/١٣٧ وروضات الجنات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطى ٣٣١ وابن أبى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوارزمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/٣٥ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورس ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د . بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكوية وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د . عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدىّ ومجالسه التى كان يحاضر فيها تلاميذه فى تلك العلوم : كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين فى اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى . ونراه فى كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال فى اللذات إنما كان فى عهد المهلبى الذى مرَّ بنا انهماكه فى الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين فى كل أسبوع . ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولّى ابن مسكويه وجهه نحو الرّىّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه عُرف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذه ابن العميد مشرفاً على مكتبته ينظّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمنه فى مختلف العلوم والفنون . وتعرَّف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ فى قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد فى الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته » وطبيعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحولت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتخذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوَّل معه إليها . وأخذ يُعْنى – منذ هذا التاريخ على الأقل – بمجالس المتفلسفة ومصاحبتهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الخمَّار المتفلسف الذى مرَّ ذكره ، كما كان يلم أحياناً بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته فى الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

فى السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثانى بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذْكَر أنهما خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك فى أوائل القرن الخامس الهجرى . وحدث بينه وبين ابن سينا شىء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره فى مسألة فاستعادها كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفى رأينا أن ابن سينا تجنّى عليه ، كما تجنّى عليه أيضاً أبو حيان فى كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «عَيِىّ بين أَبْيناء» . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عتيًّا ، فقد توفى عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعيًّا إماميًّا يعتقد بعصمة الإمام على نحو ما ذكر ذلك فى خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعَدّ فى الصفوة من فضلاء عصره وأجلائه ، يقول الثعالبى فى وصفه : «إنه فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه فى صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وَكْده وهمّه . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من تراسله مع الخوارزمى وبديع الزمان . وفى رسائل الخوارزمى رسالة يعزيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفى ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتنصّل البديع فى أولاهما من شىء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردّ عليه ابن مسكوية فاسحاً فى تنصله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبى صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف وبرسالة خلقية كبرى جرّد نفسه لها فى معظم كتاباته وتأليفاته ، ويَذْكر له القفطى من كتبه المتصلة بالطب كتاباً فى الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً فى الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه « تجارب الأمم » وهو فى التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذه الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاقى ، وهو المقصد الأسمى الذى ابتغاه فى تآليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجرى وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم فى

بدولتهم عرضا عادلا منصفا دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبى الفضل ابن العميد حين كَفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان فى حماسة بالغة حين جاءهم النبأ المشئوم باستيلاء الروم على ثغرى المصِّيصة وَطَرَسوس فى شمالى الشام ، إذ وفدوا على أبى الفضل بن العميد فى الرىّ سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردًّا منكرا ، وكأنه خشى منهم مكيدة فسلَّط عليهم جنوده ، ففرَّقوا جموعهم . ويأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم – وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً – أعطاهم ابن العميد المال الذى طلبوه لانضمت إليهم فى الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَّلوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه » . فصداقته لأبى الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوَصْمة فى تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخى الذى كان يقع فى ست مجلدات إما فى حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاقى من العبرة والعظة الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخى الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال فى الرىّ بخدمة أبى الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصوِّر فى ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنسانى وما ينتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه فى الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنسانى واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عُدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها فى ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة فى عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى فى إثبات الصانع وأنه واحد أزلى ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعْرَفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شىء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التى تحصل بها الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنّى فى حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع ، إذ لم يخلق خَلْقَ مَنْ يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تم لها حياتها خِلْقة وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاضد فى كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرّمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس فى ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشىء ، وهم بذلك - فى رأيه - جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة فى النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات فى العالم التى تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهى النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع فى هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذى يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يُرى فى أشجار النخيل ففيها المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسِّفاد فى الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان فى القرود وما يماثلها فى الخلقة الإنسانية . وهى تقترب فى التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنسانى وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو فى هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخَصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندى والفارابى وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هى تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ - كما لاحظ الفلاسفة قبله - أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذاتى لا العَرَضى عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة . ويمضى فيما وُضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طَهَّرَتْ نفسه من الشهوات الجسمانية والنزوات البهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ فى بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهى أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أخيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراوهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشرارا أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرِّير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشريعة وأنها هى التى تقوِّم الناشئة وتعوِّدهم الأفعال الخيرة ، ويقول إن كمال الإنسان فى اللذات المعنوية لا فى اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُربَّى الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب فى أنفسها . ويُدْلى بفصل طويل فى تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن و يتحدث عن طائفة من الآداب فى المطاعم وغيرها ، و يطيل فى الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض فى بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفى رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه فى الجماعة ، وبها تفسَّر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلِّف مذهباً خلقيا يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ماهو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس فى أداء فريضة الحج . وهكذاتقوم شريعتنا على الأنس والمحبة ، وفى الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان فى حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدَرَّسُ للناشئة فى كثير من البلدان العربية فى هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم فى المدارس الثانوية ، حتى نمدهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن فى العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها فى أسجاع قلما تحوى غذاء فكريًّا ، بل تمتد فى أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التى أجاب عنها فى الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخفى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح فى هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح فى الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره فى بعض صحفه .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التى تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجّهها إلى الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهى موزّعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية. وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين فى تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبى حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردَّ على هذا السؤال قائلاً :

« ليس يجوز أن تَرِدَ الشريعة من قِبَل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاكّ فى [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبداً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأبىَّ الطباع من شيء هو مخالفة للعقل . والعقل إذا أبى شيئاً فهو أبدىّ الإباء له لا يجوز أن يتغير فى وقت . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التى يأباها العقل وينكرها بل هو من الأشياء التى تأباها بعض الطباع والعادة » .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

فى الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق فى الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألها أبو حيان ، وهى إذاعة الأسرار مهما ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

«وقد تبيَّن فى المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة . فهى بالقوة الآخذة تستثبت (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبِّين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هى انفعال وشوق إلى الكمال الذى يخصُّ النفس . وهى بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعى إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاقت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكتم سِرٌّ بَتَّةً . وهذا تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته» .

ويمضى ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السر ينبغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لنزواتها ، وأن إخراجه من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج مجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها فى أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت فى ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريرى (١)

هو أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، كان أبوه من أثرياء «المشّان» ، وهى قرية قريبة

(١) انظر فى الحريرى وترجمته الأنساب للسمعانى ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٢/٥٩٩ ومعجم الأدباء ١٦/٢٦١ وابن خلكان ٤/٦٣ وإنباه الرواة ٣/٢٣ وتذكرة الحفاظ والسبكى ٧/٢٦٦ وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب ١/٢٩٥ ومرآة الجنان ٣/٢١٣ والعبر فى خبر من عبر ٤/٣٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٥ وروضات الجنات ٥٢٧ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات.

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومرّباه . ثم سكن البصرة فى حى بنى حَرام الفَزارِيِّين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميهم ، ويعدِّدهم ، السبكى فى طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر فى ديوان الخلافة بالبصرة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات فى عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلَّدها ولا متى عُهد إليه بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ هـ وظلت بعده فى أبنائه حتى آخر عهد المتقى بالله (٥٣٠–٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لها ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف «درّة الغوّاص فى أوهام الخواص» وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ فى ذلك حتى عَدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجى شرح عليه طُبع فى إستانبول ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقى تكملة ألحقها بالكتاب وهى مطبوعة . ويؤلف الحريرى أيضاً مُلْحة الإعراب ، وهى منظومة فى النحو شرحها شرحا جيداً ، وهى مطبوعة فى القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله فى البصرة وضياعه فى المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهانى فى مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقى الذى صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكى إنه حدَّث فى بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريرى لا يبارَى فى الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتُعَدُّ مقاماته آية براعته التى ليس لها لاحقة مماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه فى تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشرى قائلاً :

أُقسم بالله وآياتِهِ ومَشْعَرِ الحجِّ وميقاتِهِ
إن الحريرىَّ حرىٌّ بأن تكتب بالتِّبر مقاماتِه

ويقول السمعانى عنه : «لم يكن له فى فنه نظير فى عصره ، ولو قلت إن مفتتح الإحسان فى شعره كما أن مختتم الإبداع فى نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحريرية ، وهو مطبوع فى مصر مراراً ، وهو شرح نفيس وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال مخطوطة . وراجع فيه وفى مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٩٢ .

عِيُّم البحر عند أقلامه ، لما زَلَقَتْ من شاهق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف» .
ويقول العماد الأصبهانى : «طلعت ذُكاء (١) ذكائه فى المغرب والمشرق ، وامتلأت بضائع فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائبُ المشْئِم والمعرق . . حريرىّ الوَشْى ، عراقىّ الوَشْم (٢) ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتميمة النَّحْر ، ودُرَّة الصَّدَف ، ودُرِّى السُّدَف (٣) . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأَبَرَّ (٤) على البلغاء ببراعته» . ويقول الرواة إنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسماع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعمائة طالب أن يرووها عنه ، وفى ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته فى عصره من منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحة لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ، واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صَوْغه لها ما حكاه عن نفسه من أنه كان جالساً فى مسجد بنى حَرام فى البصرة فدخل شيخ رَثّ الهيئة ، كان شحاذاً أديباً فسلَّم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحتُه وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سَرُوج ، وهى بلدة قرب حرَّان شمالى العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ، ونسبها إلى أبى زيد السَّروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها – فيما يقال – أنو شروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢–٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة . . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى بغداد ، فأعجب بها الأدباء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل أربعين يوماً لا يُفْتَحُ عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى بغداد فعرف الأدباء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ، فمات عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً لمغربى من بعض القوافل كانت به هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه ! .

وكل ما قدمنا قِصَصٌ غير صحيحة ، وفى مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(١) ذكاء : شمس .
(٢) الوشم : النقش .
(٣) السدف : الظلم .
(٤) أبر : غلب .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريرى ، وكذّبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريرى نفسه كَتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له فى أول خلافته سنة ٥١٢ وكأنه هو الذى أشار إليه فى مقدمة المقدمات بقوله : «فأشار مَنْ إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع» يريد البديع الهمذانى ومقاماته. وتوقف الشريشى فى شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألفت فى عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألفت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وبدأ الحريرى تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبى زيد ، أديب المقامات الشحاذ ، فقيل إنه نحوى يسمى المطهّر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريرى الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته «ملحة الإعراب» وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السّروجى . ومن المؤكد أن أبا زيد فى المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريرى ليحوك من حولها حِيَلَ أديب متسول . وقد سمى راويته الحارث بن هَمّام يعنى به نفسه أخذا من الحديث النبوى : «كلكم حارث وكلكم همام» أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعَدّ جزّاً ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريرى فى عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبى زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبى زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، ويغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده فى بلدته سَروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً فى عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثا منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريرى يذكر فى مقدمتها مقصده منها إذ يقول : «وأنشأت خمسين مقامة تحتوى على جِدّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورصّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية . والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية». ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القَصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عَمّ فى الكتابة ، فلم يقف الكُتّاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عُقَداً غريبة يصعّبون بها المرور إلى السجع ، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يخلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعْبة غاية فى العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لُمْ أخا مَلّ» فإن العبارة تُقْرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفى المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقْرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلْقَى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقْرأ «الحاجة تلقى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرَّقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «نائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض» . وفى المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة فى المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريرى من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعْبَة الألغاز شاعت فى العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتى عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقه مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعْنَى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنايات وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تَصُكُّ الأسماع ولا تستثقلها الأفواه . وهو يُكثر فى مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسِّنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعى أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابنَ آدم ما أغراك بما يغرُّك ، وأضْراك (أجرأك) بما يضرُّك ، وألهجك بما يُطْغيك ، وأبهجك بمن يُطْريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن ستُتْرَكُ سُدًى ، وأن لا تحاسَب غداً . . كلا والله لن يدفع المنون ، مالٌ ولا بَنون ، ولا ينفع أهلَ القبور ، سوى العمل المبرور ، فطُوبى لمن سمع ووَعَى ، وحقق ما ادَّعى (ونهى النَّفسَ عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعَوَى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعَى وأن سَعْيَه سوف يُرَى)» .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة فى المقامات ، ودائماً تُعرّض فى مثل هذه الأسجاع الخفيفة التى تطير عن الأفواه فى عذوبة ورشاقة . وبينما يلقانا أبو زيد فى بعض النوادى واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجنا مع ندامى يَحْتسى العُقار ويخلع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل فى المقامات ، وقد أراد به الحريرى إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده فى مقامات عدّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكّام على نحو ما نرى فى المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكّر فى زى شيخ هرم خبيث تجرُّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضى وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

« أيّد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إنى امرأة من أكرم جُرْثومة ، وأطهر أُرومة ، ميسَمى الصَّوْن . . وخلقى نعم العَوْن ، وبينى وبين جاراتى بَوْن ، وكان أبى إذا خطبنى بُناة المجد ، وأرباب الجدّ ، سكّتهم وبكّتهم ، وعاف وُصْلَتهم وصِلتَهم ، واحتجّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلْفة ، أن لا يصاهر غير ذى حِرْفة ، فقيّض القدر لنَصَبى ووَصَبى ، أن حضر هذا الخُدَعة نادىَ أبى ، فأقسم بين رَهْطه ، أنه وَفْق شرطه ، وادّعى أنه طالما نظم دُرّةً إلى درّة ، فباعها ببَدْرة (مال كثير) فاغترّ أبى بزخرفة مِحاله (كيده) وزوّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كِناسى (بيتى) ورحّلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسْره (بيته) وحصّلنى تحت أسره ، وجدته قُعَدة جُثَمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضُجَعَة (عاجزاً) نُومة . . . ومزّق مالى بأسره ، وأنفق مالى فى عسره . . ولى منه سُلالة ، كأنه خِلالة ، وكلانا ما ينال منه شُبْعَة ، ولاترقأ له من الطَّوى (الجوع) دَمْعة ، وقد قُدْته إليك ، وأحضرته لديك ، لتَعْجُم (لتختبر) عُودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله » .

وتمضى المقامة على هذا النمط الفكه ، ويردّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشَقّ غُباره فى العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جِيل الكرام ، مما اضطره إلى بَيْع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع – كارهاً والدموع تترقرق فى عينيه – جِهَازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضى على الشيخ وزوجته وفرضه لها فى الصدقات حِصّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العذوبة ، ويخيل إلى قارئ الحريرى فى مقاماته كأنما جمع العربية كلها فى كِنانة أو حقيبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها وينتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة . وكأنما كان يعزفها على قيثارة عزَّفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يجارَى فى غَرْس ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطْوَى فى هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية . ومرَّ بنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن بَرِّىّ اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ ردًّا عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العماد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال االعماد الأصبهانى فى قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيهما واضح لالتزام كلمات بعينها ، وكأنه فيهما يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

«وصل الجواب . . وخلتُه كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقيته كما تتلقى يَدُ الإنسان ، صحفَ الإحسان ، وصِكاكَ العطايا الحسان . لا : بل كما تتلقى أناملُ الرَّاح (الكف) كاسات الرَّاح (الخمر) من أيدى الصِّباح (الفاتنات) فى نسمات الصَّباح ، ومازلت أتمتع بحُلِىٍّ ودُرَر ، ووَشْىٍ وحِبَر (حرير) ومُلَح وزَهَر . . فلله ما جمع فيه من أنوار ونُوَّار (زهر) ونضير (جميل) ونُضَار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومَعين (ماء عذب) ومَعان» .

وواضح ما فى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقيًّا خلاباً يصبّ فى حنايا سجعه ، متاعاً يلذ الآذان والقلوب والأفئدة .

القسم الثالث

إيرَان

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ فى إيران منذ القرن الثالث الهجرى دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التى أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبناؤه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب . وفى سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفّار الدولة الصفّارية فى إقليم بلوخستان شرقىّ إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرّمان جنوبى إيران ، وأفغانستان ، واستولى على خراسان التى كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوى علَى طَبرِسْتان منذ سنة ٢٥٠ ويقيم بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصّفارية . وكُتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسى الثانى إذ بدأت فى سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة فى عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التى سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدّت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق ؛ وكانت تقابلها الدولة الزيارية التى سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدّت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهى حتى يبزغ نجم الدولة الغزنوية . وبذلك كانت تتقابل فى أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزّياريين والغزنويين .

الدولة السامانية[1]

يرجع نسب السامانيين – فيما يذكر البيروني وغيره – إلى بهرام جوبين الذى كان مَرْزُبَاناً لِخسْرُو أَبَرْوِيز (٥٩٠ – ٦٢٧ م) على ولاية أَذْرِبيجان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أى سيد قرية سامان الواقعة فى إقليم بَلْخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٤ هـ .) ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبى مسلم الخراسانى حين نهض بالدعوة للعباسيين فى أواخر العصر الأموى ، وتوفِّى ، فحلَّ ابنه أسد مكانه فى خدمة العباسيين حتى توفِّى لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولِّى أحمد فرغانة ونوحا سمرْقند ويحيى الشَّاش وأُشْروسنة ، كما يولى أخاهم إلياس هَراة فى أفغانستان . ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفَّى سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، ويفزع إليه أهل بُخارى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل ، ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الأخوين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهو يُعَدّ المؤسس الحقيقى للدولة السامانية .

وتلتقى جيوش إسماعيل فى سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كَرْمان والرىّ وبُلوخستان ، وتدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرْسل إليه الخليفة المعتضد بخلعة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه ، ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نُوّاباً عديدين ، وبينما كانوا يقيمون فى بُخارى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم فى نَيْسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكلّل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا فى جيش جرار ، فنادى إسماعيل فى خراسان وبقية إمارته

---

(١) انظر فى الدولة السامانية الآثار الباقية للبيرونى وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب اللبنانى) ٤/٧١٢ وكتاب تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولبر (الترجمة العربية – طبع القاهرة) ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسى لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصى (طبع بغداد) ص ٣٥ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين ببيروت) ص ٢٦٢ .

بالنفير ، وجاءت الجنود من كل فَجٍّ ، وهجم بهم على الترك فى السَّحَر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرّ الباقون لا يَلْوون . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذى نظّم علاقتها بالخلافة العباسية فى بغداد ، فلم يكن يؤدّى لها ضرائب مالية ، بل كان يكتفى بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثمائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفاً كثيرة . وقد منحه الخليفة حقَّ ذكر اسمه معه فى خطبة الجمعة وحق نَقْش اسمه على الدنانير . وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسى عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعيا ، وكانوا تبعاً لذلك سنيين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١ هـ.) وكان شجاعا ، فاستولى على سِجِسْتان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢ هـ.) ومنه اقتطع مرداويج الزِّيارى طَبرستان سنة ٣١٦ واتُّهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلى الشيعى ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣ هـ.) وهو أول سلاطين الدولة فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعا . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣- ٣٥٠ هـ.) وكان ضعيفا . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠- ٣٦٦ هـ.) وأرسل إليه الخليفة المطيع لله بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيرا من أطراف دولتهم فى إيران ، فاستولوا على كَرْمان . غير أن خراسان ظلت فى أيدى السامانيين هى وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قويا فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن فى ربوع بلادهم . ويحكى ذلك ابن حوقل قائلاً : «ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانبا ، ولا أوفر عِدَّة ، ولا أكمل عُدَّة ، ولا أنظم أسبابا ، ولا أكثر أعطية ، ولا أدرُّ طعاما ، ولا أدْوَمَ حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونُزور أخرجتهم ، وقلة الأموال فى خزائنهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبى صالح منصور بن نوح فى وقتنا هذا ، لكل خراج يُقْبَض وضمان يُحْمَل فى كل ستة أشهر، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة فى كل سنة دارّة ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طُعْم منها فى رأس تسعين يوما ، يُخرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرِّفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهى عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة . . ولهذه الحال أعمالهم مشحونة

بالقضاة والجُباة والكفاة والولاة منزّلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال فى المراتب تتدانى ، وذلك أن رزق القاضى وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة (المدن) ووالى الصلاة والمعونة ورواتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض » . وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنيين ، خصوماً لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها فى الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى فى خدمتهم .

وخلف منصورا ابنه نوح الثانى (٣٦٦ – ٣٨٧ هـ) وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأنما كان ذلك نذيرا بتضعضع شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فَرْغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا فى حربهم قبل ذلك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبُطا كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولّى ألبتكين قائد جيوشه أمر غزّنة ، فاستعان بمملوكه سُبُكْتِكين ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولّى نوح الثانى ابنه محمودا الغَزْنوى خراسان ، وتوفّى نوح ؛ واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنيه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجو لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية .

الدولة البُوَيْهِيّة (١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحر قَزْوين موطنهم فقط ، بل تغلغلوا فى إيران ، وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بُوَيْه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا – كما مر بنا فى قسم العراق – مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مَرْداويج الزِّيارى حاكم طَبَرِسْتان وجُرْجان تركوه إلى خصمه قائلين له – كما روى ابن مسكويه – « الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفّ عنك مئونتنا ، ويقع كلُّنا (عبئنا) على غيرك ، فإذا تمكنتَ عاودناك » . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

(١) انظر فى الدولة البويهية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق

فولاه على الكَرَج إلى الجنوب الشرقى من هَمذان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى في السنة التالية على أرَّجان وفى تاليتها على فارس . وقُتل مرداويج فى سنة ٣٢٣ فانتهز على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرَّىّ اللتين كانتا بيده . وكان أخوهما – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – قد استولى على كَرْمان جنوبى إيران فى سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعانى من فوضى شديدة ، فدخل أحمد – كما مر بنا فى قسم العراق – بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفى ولقبه معزّ الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقَّب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرى ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق فى قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سُلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيرونى أنهم انتسبوا إلى الملك الساسانى بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزى فى كتابه المنتظم إلى سابور بن أرد شير . ويُّروى أن بُوَيْه أباهم كان صَيَّادا بائسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلَّغ به . ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتملقين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السِّكَّة تُضْرَبُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماؤهم تُذْكَرُ مع الخليفة فى خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسْول إلى أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدى[1] ، ولعله تأثر فى هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدى قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد فى أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونمىَّ المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثنى عشرية على نحو ما سنوضح ذلك فى حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر فى نقل الخلافة إلى العلويين ، فخوَّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : «متى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه» فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون فى يده وأيدى البويهيين بعده كأنهم أسرى .

وكانت رياسة البيت البويهى للأخ الأكبر عماد الدولة ، فلما توفى سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقبا انتقلت الرياسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حسول (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده ، فجعل – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان ولأخيه مؤيد الدولة الرىّ وأصفهان ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينَوَر . وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، وصدَعا لأمره ، فكانا لا يجلسان فى حضرته ويقبِّلان الأرض بين يديه على عادة الديالمة ، ويخدمانه بالريحان . ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بَخْتيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق ، ونشبت بينهما الحرب وسقط فى ميادينها بختيار ، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ . ووضع فى سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده فى يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده ، فوجه إليهما أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما .

ومرَّ بنا فى قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين ، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرّمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان ، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) فى الإسلام . وبلغ من شعوره بأمجاده واعتداده بنفسه أن فكر يوما فى أن يتقلد خلافة المسلمين ، فقد ذكر ابن حزم فى كتابه «نقط العروس فى تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن على البصرى المعروف باسم الجُعَل أن يؤلف كتابا فى تقليد الخلافة فى غير قريش أملا منه فى أن يتسمَّى بها ، وألّف الجُعَل الكتاب ، وانتشر الخبر إلى خراسان ، فصاح الناس فى مجالس الفقهاء : واإسلاماه ! واحمداه ! . وبلغ ذلك عضد الدولة ، فخشى الثورة عليه ، وسَمَّ الجُعَل ، وقنع الناس بموته وسكن الأمر[1] . وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفا ورعبا ، وبلغ من قسوته أنه خشى على ملكه من تدلهه بفتاة ، فأمر بتغريقها فى غير شفقة ولا رحمة . وكان يضبط أمور دولته ضبطا دقيقا ، فطهَّر الطرق من اللصوص – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – ورفع الجباية عن قوافل الحجاج ، واحتفر لهم الآبار فى الطريق إلى الحرمين ، وبنى كثيرا من المساجد الجامعة فى مملكته وعُنى بالعمران وزَرْع البساتين عناية واسعة .

ويتوفى ويخلفه – كما مر بنا فى قسم العراق – ابنه صمصام الدولة ، وتتوالى الأحداث ، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب ، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور ، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده . ويخرج فى سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة ، ويصبح له الأمر

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الجزء الثانى من المجلد الثالث عشر، عدد ديسمبر ١٩٥١ ص ٧٦ .

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩– ٤٠٣ هـ). وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب، ولم يكتفوا بتلقيب أنفسهم، فقد أكثروا من تلقيب وزرائهم بمثل كافى الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك. ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقيب أنفسهم، ولكنهم تفنَّنوا فى تلقيب قواد جيوشهم. وبلغ من شيوع ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركى حين يثور على الدولة فى سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة.

وكان بهاء الدولة –كما مر بنا فى قسم العراق– ظالما سفاكا للدماء، وهو أقبح ملوك بنى بويه سيرة، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣– ٤١٥ هـ.) وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كَرْمان إلى أن توفى سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦– ٤٣٥ هـ.). ولا يلبث محمود الغزنوى أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الرىّ وأصفهان وبلاد الجبل. وتعظم الفوضى فى عهد جلال الدولة، ويخلفه أبوكاليجار محيى الدولة (٤٣٥– ٤٤٠ هـ.) ويعظم فى عصره شأن السلاجقة، ويستولون على كثير من إيران، ويتوفى أبوكاليجار غمًّا، ويخلفه الملك الرَّحيم، ويدخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة، كما مرَّ بنا فى قسم العراق، وبذلك يتقوَّض سلطان البويهيين فى العراق وإيران نهائياً.

الدولة الزِّيارِيَّة (١)

زعم البيرونى فى كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنْسبُ إلى الملك الساسانى قُباذ الذى حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أوغير صحيح، فإنها ترجع إلى أصل إيرانى، وكان مؤسسها مَرْداويج بن زِيار الديلمى (٣١٦– ٣٢٣هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهروا فى شمالى إيران لذلك العهد، وقد انتظم فى سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أَسْفار بن شيرويه الديلمى المتغلب على قَزْوين وديارها، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله، وملك البلاد، مؤسسا لأسرته إمارة فى طَبَرستان وجُرْجان جنوبى بحر قزوين أوكما يسمى بحر الخَزَر، ومَدَّ أطراف إمارته

---

(١) راجع فى الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيرونى وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الأندلس ببيروت) ٨٢/٤ وما بعدها، وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٣ وآدم ميتز ص ٢٦ وبراون فى مواضع متفرقة من كتابه: تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ترجمة الشواربى.

جنوبا وغربا ، حتى الرىّ وأصفهان وهَمذان وأرمينية وأذْربيجان وخُوزِستان ، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته ، وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبيا شديد الكراهية للعروبة ، فزعم – فيما زعم – أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيعته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فمُثّلت له هيئتها ، فاختار هيئة تاج كسرى أنو شروان ، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلّى بالجواهر ، وصُنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يبطن المجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السَّذَق ، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة . وقد أمر فى تلك الليلة بأن تُجْمَع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حاضرته أصفهان ، ونَصبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعا عظيمة اتُّخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى فى بغيه وعتوه تماديا شديدا ، حتى أوغر صدور بعض غلمانه ، ففتكوا به فى الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة ، ونهبوا خزائنه وأمواله . ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزنا شديدا ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بُوَيْه استولى عقب وفاته على أصبهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط فى يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجُرْجان ، فإنهما ظلتا فى يد خلفاء مرداويج الزياريين ، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣– ٣٥٦ هـ .) ويقال إنه ركب فرسا وشبَّ وهو غافل عنه ، فسقط ميتا . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦– ٤٠٣ هـ .) وكان كاتبا وشاعرا ، ومازال البويهيون يُغيرون عليه حتى فرَّ من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكرَّما حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عتَا وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجمعت حاشيته على خلعه ، واضطرت ابنه منُوجهر (٤٠٣– ٤٢٦ هـ .) أن ينزل على إرادتها ، وحُبس قابوس فى إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوجهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوى استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل فى البلاد متحصنا منه بجبال وعرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفى فخلفه ابنه أنو شروان (٤٢٦– ٤٣٠ هـ .) ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوى على الإمارة ، كأن لم تكن شيئا مذكورا .

الدولة الغزنويه [1]

كانت الدولة السامانية تستعين فى جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم – كما هيأ العباسيون من قبل – أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة فى الجيش ، وأن يقوّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح السامانى (٣٤٣–٣٥٠ هـ.) كان قد عيّن مملوكه التركى : ألبتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفى عبد الملك مضى إلى غَزْنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفى فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكين (٣٦٦– ٣٨٧ هـ .) وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت فى أفغانستان بمنطقة سِجِسْتان القديمة ، وغنم فيما غنم منها الكاتب الفذّ أبا الفتح البستى ، وكان يكتب لأميرها المغلوب ، فأصبح كاتبا للدولة الجديدة . وأخذ سُبُكْتِكين يغزو الهند . وسقط كثير من قلاعها فى يده . وجرّد حملتين كبيرتين لحرب ملك البنْجاب المسمى جَيْبال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلّى له عن إقليم كابُل فى شرق أفغانستان ، وكان يُشْرِف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب . واستغاث به نوح بن منصور فى سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه ، فنكّل بهم ، مما جعله يلقّبه بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفى سُبُكْتِكين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لايزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأبى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غَزْنه وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوى (٣٨٧– ٤٢١ هـ .) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدّه أطْنابَها شرقا وغربا وشمالا ، ولنهضته بالعلوم والآداب فى عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأتراك جميعا سنّيًّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

---

(١) انظر فى الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيرونى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وكتاب تاريخ اليمينى للعتبى مع شرح المنينى (طبعة القاهرة) فى مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى فى أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

على مذهب أهل السنة[1] . وكان الأمير منصور بن نوح الثانى السامانى قد انتهز فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولىّ عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرَّ بنا فى حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافا كاملا بالسلطة الروحية للخليفة العباسى ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة » . ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله فى أرضه » وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب فى الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خُوارزم الصغيرة والكَرج (جورجيا) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبقٍ للبويهيين سوى كَرْمان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه فى الهنـــــد وتمكينه للدين الحنيف فى ديارها . وهو يُعَدّ فاتحها الحقيقى ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفى لها فى عهد الوليد بن عبد الملك فيُعَدّ غزوا أكثر منه فتحا حقيقيا ، ومما فتحه فى الهند المُلْتان وكَشْمير والبَنْجاب . وكان يبتغى بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغانم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة فى عمارة غزنة ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفى إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسى مصورا استئثاره بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه : « عند ما يُفْطم الصبى ويتوقف جريان لبن أمه على شفتيه يكون أول ما ينطق به ويجرى على الشفتين لفظ محمود . إنه كالفيل بجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فمزن هاطل ، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشان ، الذى جعل الشاة تَنْهَل مع الذئب من حوض واحد فى أمان » .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائبا بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه فى حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) وفتح — كما مر بنا — جُرْجان وَطَبرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت فى مَدّها ، ولم يستطع وَقْفها ، فقد هُزم أمامها فى عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمدا مكانه ثانية ، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعودا مكانه ، وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه فى إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم « طُغْرُلْبك » . وأخذ نجم هذه الدولة فى الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازما

(١) فى المنتظم ٨/٤٠ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض .

عادلا بعيد الهمة . وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣ – ٥٠٨ هـ .) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وبهرامشاه (٥١٢–٥٤٧ هـ .) واضطره السلطان السلجوقى سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول فى طاعته ، ودفع إتاوة له صاغرا . وفى سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغورى قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية ، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم فى سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم فى الهند «لاهور» وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتقابلة فى إيران التى كانت تتوزعها فيما بينها والتى كثيرا ما تحاربت وعاشت فى خصام ، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنشر على بلدانها لواءً واحداً ، وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخى ، وجدير بنا أن نلم بها فى إيجاز .

دولة السلاجقة[1]

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسميهم مؤرخو العرب الغزّ تخفيفا ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سَلْجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) فى الهضاب المتصلة بنهرى سيّحون وجيّحون متخذا مدينة «جَنْد» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى فى خراسان . وكانوا يعتنقون المذهب السنى ، وكانوا بَدْوًا فاعتمدوا على الوزراء فى حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوى يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره فى خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسرائيل ، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه ، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزجّ به فى غياهب السجون ، وظل سجينا بإحدى قلاع الهند حتى

(١) انظر فى السلاجقة المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

توفى سنة ٤٢٢ . وكان محمود قد توفى قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طُغْرُلْبَك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوى فى سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان فى سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هزائم متوالية فى السنتين التاليتين ، وأعلن طغرلبك نفسه ملكا على البلاد ، كما مرّ فى قسم العراق . ومضى يستولى على ماكان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية ، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة «القائم بأمر الله» بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طُغْرلبك فى الخطبة وأن يُضْرَب اسمه على النقود . وقضى طغرلبك على البويهيين نهائيا –كما مر بنا فى قسم العراق– ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ فى موكب رسمى ، وأجلسه الخليفة معه على العرش –كما مر بنا– وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرلبك محمد بن منصور الكُنْدُرِىّ . واتخذ طغرلبك مدينة الرىّ حاضرة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندرى هو الذى يصرّف الأمور فى دولته الواسعة وكان أديبا شاعرا ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان فى حقيقته مُعْتزلياً .

وتوفى طُغْرُلْبَك سنة ٤٥٥ وخلفه –كما مر بنا فى قسم العراق– ابن أخيه «ألْب أرْسلان» وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندرى أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندرى ، وأرسل به إلى مَرْو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان ألْب أرْسلان (٤٥٥– ٤٦٥ هـ .) بطلا مغوارا قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء فى هَراة أو فيما وراء النهر أو فى فارس وكَرْمان . وخَضَد شوكة الفاطميين مستوليا منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشا كثيفا قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطى «ديوجينس رومانوس» فأسرع إليهم فى خمسة عشر ألفا من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلاط فى أرمينية ، وعصفت جنوده –كما مرّ بنا فى قسم العراق– بهذا الجيش الضخم منّزلة به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسئا ذليلا ، ونزل على الشروط التى طلبها ألْب أرْسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعَقْد معاهدة لمدة خمسين عاما يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألْب أرْسلان وأن يحرّر جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهرجيحون منزلا بهم هزائم متوالية وافاه القدر . وكان يدبّر له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عنوا للرافضة والإسماعيلية سنى العقيدة ، واشتهر –كما مرّ

بنا فى قسم العراق - بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التى أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها فى أصفهان ومَرْو ونيسابور وبَلْخ وهَرَاة وَطَبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيرا من الضرائب التى كانت ترهق الشعب ، وكان أشعريا شافعيا ، فازدهر المذهبان الشافعى والأشعرى لعهده .

وخلف ألب أرسلان - كما مرَّ فى قسم العراق - ابنه مَلِكْشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وكان فى الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعْجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعض أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعا . وأمر فى سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذى وضع فيه عمر الخيام وجماعة من العلماء التقويم الجلالى ويرجع تاريخه إلى عيد النَّيروز فى سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه مائتى غادية رائحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفى مقدمتها سَمَرْقند ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو فى مدينة «كاشغر» النائية الجزية المفروضة على بلاده . ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهر جيحون أخذوا أجرتهم صُكوكا تدفع لهم فى أنطاكية بديار الشام حتى يروا مَدَى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية ، وخاض به البحر شاكراً ربَّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذى امتدَّ من بلاد التتار والصِّين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعُنى بحفر الآبار فى طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودسَّ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعفاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه فى الظلام ، فطعنته طعنة نجلاء كانت سببا فى وفاته سنة ٤٨٥ ولم يلبث ملكشاه أن توفى بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهى - كما مرَّ بنا فى قسم العراق - عهد السلاجقة العظام .

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بَرْكيارُوق أكبر أولاده (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ .) ولُقِّب بركن الدولة ، وخالفه عمه تُتُش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذْربيجان ، وله معهما وقائع كُتب له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا فى قسم العراق - وقتل منهم فى بعض السنوات مئات . وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ - ٥١١ هـ .) ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ .) وكان شديد الحمق ، فحارب عمه سِنْجَر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر ، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ - ٥٥١ هـ .) واستقل عنه فى سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أتْسِيز . وحاربه الترك فى سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وَسَرَخْس ، وحاربه الغُزّ فى سنة ٥٤٨ وأسروه ، وظل فى أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قضى نَحْبه . واشتهر فى هذه الدولة أربعة من سلاجقة كَرْمان هم تُورانشاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيرانشاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلانشاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية فى سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبدَّ بهم فى كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

الدولة الخوارزمية[1]

مؤسس هذه الدولة أحد مماليك السلطان ملكشاه ، وهو أنوشتكين ، حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أتْسِز (٥٢١ – ٥٥١ هـ .) وله وقائع مع سِنْجر السلجوقى ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مَرْو ونيسابور ، ويقترن باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوَطْواط . وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة فى إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين مَنْكُبِرْتى الذى صمد صمودا باهرا للغزو التتارى من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل فى قلب آسيا على حدود الصين فى الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعى والصيد ، واستطاع جنكزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتتح بها بلاد الصين – كما مر فى القسم الخاص بالعراق – ثم يغير بها على مملكة خوارزم ويقوِّض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرَّىِّ وهمذان ، منزلة لمظالم وحشية ، وبحقٍّ يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار فى بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلَّت بالعالم . وامتدت أيام جنكِزْخان فى إيران

(١) انظر فى الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وزبدة النصرة للبندارى (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى) وذيل الروضتين لأبى شامة فى مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى للنسوى . وراجع تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى لحافظ حمدى (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون .

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهى السنة التى قضى فيها نحبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاما . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التى افتتحوها فى الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم ، واتفقوا جميعا على أن يتولى بعده ابنه أوكدى (أوكتاى) (٦٢٥ – ٦٣٩ هـ) . واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – أوربا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيهما تنكيلا شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياه فى بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفا . وحين توفى خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكو سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئا باستنزال الإسماعيلية الملقَّبين بالحشاشين من معاقلهم فى «ألموت» وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائيا . ولم يلبث أن أرسل إنذارا إلى الخليفة «المستعصم بالله» أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها فى سنة ٦٥٦ فاكتسحها كما مر بنا فى الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقَتَلَ فيه هو وجنوده – كما يقول المؤرخون – نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله – كما مر بنا فى قسم العراق – وحرقوا قصوره ، ونُهبت البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذانا بدمار الحركة العلمية فيها وأفول نَجْمها .

الدولة المغولية[1] الإيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذى ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيهما – تسمى دولة الإيلخانيين ، وأرسل فى سنة ٦٥٨ جيشا كثيفا للاستيلاء على سوريا ومصر – كما مر بنا فى قسم العراق – واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطُز والظاهر بيبَرْس تصدى للمغول فى عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم فى سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفى هولاكو فى عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أبْغا (٦٦٦–٦٨٠ هـ.) وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية ، إذ كانت دائما تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حينئذ تنفصم الصلات التى كانت تربط الإيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى (قراقورم) . وبموت أبْغا ينتهى العهد الوثنى للمغول

(١) راجع فى الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمْض فى الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آثمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ – ٦٩٢) وفى عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كَيْخَتُو لمدة سنتين ، ثم بَيْدو وقُتل سريعا. وولى بعده – كما مرّ فى قسم العراق – غازان (٦٩٣ – ٧٠٣) الذى أتاح لدولة الإيلخانيين فى إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُنى بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبيمارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خُدابَنْدا سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوين سماها السلطانية ، واحتفل فى بنائها والاهتمام بها احتفالاً واسعاً . وتوفى سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية فى كَرْمان التى استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبى من إيران . وتظل البلاد فى فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إلى أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

الدولة المغولية التيمورية[1] وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود – كما مر فى قسم العراق – فى كَش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سَمَرّقند سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكيزخان ، كان أبوه واليا لكش ونواحيها ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه فى بعض الأحيان . ومازال يعمل على أن يجمع زمام السلطة فى يده – كما مر فى قسم العراق – حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ماوراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومدّ سلطانه إلى خراسان فى سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسِجِسْتان وجُرّجان فى سنة ٧٨٤ ولم يلبث فى سنة ٧٨٨ – كما مر فى قسم العراق – أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

(١) انظر فى الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق . وانظر فى الدول التالية تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى ٨٢٥/٢ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالد ولبر ص ٧٦ وما بعدها .

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرُّها وَتَكْرِيت وآمد وحاصر بغداد - كما مر فى قسم العراق - سنة ٧٩٥ ، وسار فى سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دِلْهى . ثم اتجه شرقا فى سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس ومَلَطْيَة فى آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حَلَب وحَمَاة وحِمْص وبعلبك ودمشق . ولم يفكر فى متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكأن ذكرى هزيمة أسلافه التتار فى عين جالوت أمام المصريين كانت لاتزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى فى سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويُهْزَمُون هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعدّ حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة فى وجهتها ، غير أن أجله يوافيه ، فيتوفَّى عن واحد وسبعين عاما بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستا وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالعمائر الفخمة ، وضريحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة. وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمرا من فتوحات جنكيزخان وخلفائه ، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين .

وتوزع ابناه : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريته - كما مر فى قسم العراق - فكان شطرها الشرقى الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه ، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه أُلُغ بك (٨٥١ - ٨٥٣ هـ) وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بو سعيد (٨٥٤ - ٨٧٤ هـ) وكان سلطانه وطيدا فى دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤ - ٩٠٢ هـ) وفى عهده أصبحت سمرقند مركزا مهما من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيبانى قضت على التيموريين فى الشرق ، وفرّ آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام .

وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربى إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربى إيران كما مر بنا فى قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوى (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هى الدولة الصفوية . وفى قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هرّاة وغربا حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذا العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك فى حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين . وظل حكم الدولة

الصفوية فى إيران نحو مائة وأربعين عاما ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء فى إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون ، وخلفهم القاجاريون فى أواخر القرن الثانى عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاما وفى كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبى العربى فى إيران خموداً تاماً .

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيرانى فى هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكّام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفى الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراع والخدم والرقيق ، ويدخل أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفا واسعاً ، وكان فى أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُبَّت الأموال التى تُعَدّ بالملايين فى خزائنهم ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس ، ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامى ، وكان لها فى كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعْطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبقّى إلى ديوان الخراج أو بيت المال فى حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقى منه يصبح رهن حياته المترفة فى القصر دون رقيب . وبجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولابد أن نلاحظ كثرة الحروب فى العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل فى سلطان هذا الحاكم البويهى مثلاً أو الحاكم الغزنوى أو السامانى أو السلجوقى ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم فى عهـــد التتار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضّياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت فى تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعْزَلون أو يموتون ، وكذلك الكتاب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة .

ولعل فى ذلك ما يوضح كيف أن الأموال فى خزائن الأمراء أو على الأقل فى خزائن

بعضهم كانت تُكال كيلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التى نقرؤها فى كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً فى أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفى بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن فخر الدولة البُوَيْهى صاحب همذان والجبل والدِّينور وجُرْجان من أنه خلَّف حين مات مليونى دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر واليواقيت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين ، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل[1] . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق فى عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار[2] . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية فى الرَّىّ وأصفهان لا يعرف لها قيمة ، ولذلك يبذِّرها ويتلفها حسب هواه . وعظم شأن أخيهما عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبى إيران وحتى العراق وعُمان مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام ، وكان دخله – فيما يُرْوَى – ثلثمائة وخمسة وعشرين مليونا من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير ومائة ألف درهم[3] . وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بَذخه ، وخير ما يصور ذلك قصره الذى بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسى بعد موته بفترة قليلة ، وبُهت حين رآه ، وفى ذلك يقول : «بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقَّ فيها الأنهار ونصَب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعُدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلثمائة وستون حجرة ، كان يجلسه كل يوم فى واحدة إلى الحول . . وطُفْتُ فيها ورأيت الأنهار تطَّرد فى البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، وبان بَوْنًا بعيداً وضَلَّ ضلالاً مبيناً»[4] .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمير لا يريد أن يجلس بيته فى حجرة مهيَّأة لجلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا فى عام تال ، وكأن الحُجَر فى القصر أصبحت كأزيائه ، فهو يبدِّلها كل يوم ، وطبعاً لا يهمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمه مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام فى ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

(١) النجوم الزاهرة ١٩٧/٤ والمنتظم ١٩٨/٧ .

(٢) المنتظم ١٢٢/٧ .

(٣) المنتظم ١١٦/٧ .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (طبع ليدن) ص ٤٤٩ وانظر فى قصر بناه فخر الدولة بجرجان اليتيمة ٣/ ٢٧١ .

يُغرق نفسه فى الترف والنعيم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائما يَعُدُّ الإمارة ضَيْعَةً له ، ولعل أميرا لم يَحُزْ من الأموال ما حازه محمود الغزنوى من غنائمه فى الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربى من الهند ، وفى أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويكفى أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذى كان يحج إليه الهنود الوثنيون ، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُحصى العُتْبى فى كتابه اليمينى هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال [١] . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية فى إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال ، غير ما كان يُجْبَى لهم سنويا من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون فى خزائنهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد فى عهد ألّب أرْسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغانم شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين فى آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك فى أسره إمبراطورهم « ديوجينس رومانوس » وافتدى نفسه بمليون دينار – كما مر بنا – ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوّج ابنته من الخليفة المتقى وهو لا يزال ولى عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها فى دهشة وعجب كبير [٢] . ويقال إن خراج خَلّفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار [٣] . ويُروى أنه حين غلب سنجر السلجوقى صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت فى أيديه وأيدى أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان فى جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصّعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة [٤] . وكان السلطان محمود السلجوقى مبذراً متلفاً ، وأتلف فيما أتلفه ما ورثه من

---

(١) اليمينى للعتبى ٢/٩٩ وانظر فى غنائمه من البويهيين المنتظم ٨/٤٠ .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس – طبع دار صادر ببيروت) ١٠/٧٠ – ٧١ وكان صداق الأميرات البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ٩/١٠٥ . ١٠/٤٧١) .

(٣) المنتظم ٩/٧ .

(٤) ابن الأثير ١٠/٥٠٧ .

أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدنانير[١] . واحترقت له دار فى سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته «مالا حد له من الجواهر والحلى والفرش والثياب ، وأقيم الغسالون يخلّصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجوهر جميعه إلا الياقوت الأحمر[٢] » .

وهذه أخبار متناثرة فى كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم فى الترف والنعيم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا فى هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة[٣] . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جَمْعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيرا بنى بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانيا هو نصر بن هرون وكان له النظر فى شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة ، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يُعَدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف[٤] ، فكان إذا سار برز للناس فى موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش فى ترف بالغ . وهيأهم ذلك ليبنوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالبى فى كتابه اليتيمة عن قصر بناه ابن العميد[٥] ، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد فى أصبهان تبارى شعراؤه فى وصفه بالقصائد الطوال[٦] ، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تُفْطر فيها ، وكانت صلاته وصدقاته وقُرُباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطْلَقُ منها فى جميع شهور السنة[٧] . وكان الوزراء يتأنقون فى ملابسهم ، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم ، فقد كانوا يطلبونه فى خدمهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك ما ذكره الثعالبى عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخزّ (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه فى داره ، وألمّ به

(١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى (طبع ليدن) ص ١٤١ .

(٢) ابن الأثير ٥٩٤/١٠ .

(٣) اليتيمة للثعالبى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٢٣٠/٤ .

(٤) ابن الأثير ١٣١/١٠ .

(٥) اليتيمة ١٥٨/٣ .

(٦) اليتيمة ٢٠٣/٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له فى جرجان اليتيمة ٣٦/٤ .

(٧) اليتيمة ١٩٣/٣ .

أبو القاسم الزعفرانى الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الخزوز الفاخرة الملونة ، فأنشده على البديهة[١] :

كسوتَ المقيمين والزائرين كُسًى لم يُخَلْ مثلُها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون فى ضروبٍ من الخزِّ إلا أنا

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله ، حتى أمر له من الخزّ بجبّة وقميص ودُرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطْرَف (ثوب) ورداء وجورب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروى أن أبا جعفر والى سجستان تأنق فى قصر بناه لنفسه كان مكتوباً فى صدر إيوانه[٢] :

من سرّه أن يرى الفردوس عاجلةً فلينْظُرِ اليوم فى بُنْيان إيوانى
أو سرّه أن يرى رِضْوان عن كَثَبٍ بملء عينيه فلينظرْ إلى البانى

وبالمثل كان كبار الموظفين فى الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناقة ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم ، ويلاحظ ذلك على كتّاب السامانيين العبدونىُّ الشاعر فينشد[٣] :

أكتّابَ ديوانِ الرسائلِ ما لكم تجمّلتمُ بل متُّمُ بالتجمُّلِ

وكان كبار القضاة يدخلون فى هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأنما كانوا يشركون الأمراء فى إماراتهم فأوسعوا عليهم فى الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين فى أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التى يهبونها للشعراء والناس ، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قائلاً[٤] :

أكُلُّ مَنْ كان له نعمةٌ أوسعُ من نعمة إخوانِهِ
أم كلُّ من كان له جوْسَقٌ مشرَّفٌ شيد بأركانِهِ[٥]

---

(١) يتيمة ٣/١٩١ .
(٢) يتيمة ٤/٣٣٨ .
(٣) يتيمة ٤/٧٧ .
(٤) يتيمة ٤/٩١ .
(٥) الجوسق : القصر .

أم كلُّ من كان له كسوةٌ   يبذلها فى بعض أحيانهِ
يُرَى بها مستكبراً تائهاً   على أدانيه وخلاَّنهِ

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتى فى مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التى كان يُغدقها الأمراء على الحواشى من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعى معروفاً فى إيران قبل الإسلام ، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول . وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا فى هذا العصر تفاقم أمره ، حتى ليقول المقدسى فى القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقتطعة [١] . وظل ذلك بعد عصر بنى بويه ، بل لقد اتسع فى عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم ، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلِّم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه [٢] . وعُرف بجانب الإقطاع فى هذا العصر نظام الضمان ، وأعدَّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القُرى ، بل أحياناً الولايات ، شخصٌ يفرض على نفسه ما لاً يؤديه عنها ، ويأخذ لنفسه أضعافه . وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتصرة دماء الشعب ، وكان حَسْبُ الشخص ضيعة واحدة ليكون ثريا ، وصور ذلك المعافَى بن هُزَيْم شاعر أَبِيوَرْد قائلاً [٣] .

كفتْنى ضَيْعَتى مَدْحَ العبادِ   وظَعْناً فى البلاد بغير زادِ
غدتْ سكَنِى وخَادمتى وظِئْرِى   وفيها أسرتى وبها تِلادى
صديقُ المرء ضَيْعتُهُ وكَم من   صديقٍ فى الصداقة مستزادِ
يخونك فى المودَّة مَنْ تؤاخى   ومالُكَ لا يخونك فى الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدَّ لنشوء طبقة أرستقراطية واسعة ، كانت تنفق عن سعة ، وكان كثير منها جواداً ممدَّحاً ، ويلقانا ذلك

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى (طبعة محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابى الحلبى) ٤/٢١٧ ويبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين فى العصر السلجوقى أن نرى فى همذان زيداً الحسنى العلوى يدفع إلى السلطان محمد السلجوقى سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع من أجلها ملكاً أو بستانين دينارا (ابن الأثير ١٠/٤٧٤) .

(٣) يتيمة ٤/١٣٢ والنظر : المرضعة .

بوضوح فى كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريدة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمْدَحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الطيرُ حيث ينتثر الحـ ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماء

وكان ذلك سبباً فى أن نلتقى بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء فى كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، فى مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراؤهم . ويدخل فى هذه الطبقة عمال الحِسْبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الحوزى [1] :

وَيْلٌ لمن عَدَّله القاضى والله عنه ليس بالراضى
تَمْضِى القضايا بشهاداتِهِ وهْو إلى النار غَداً ماضى

ويتظم فى هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموالٍ ضخمة ، وعدادهم لذلك فى الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة فى هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُغْدق عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، ودائماً نلقاهم فى كل بلاط وفى كل قصر ، فقد كان الشعب من كبيره إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كانت تعمل فى الصناعات والتجارات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور ، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل فى فلاحة الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّ به رمقه ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها عرقاً وعنتاً ومشقة لكى تملأ الطبقة العليا فى الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس فى أوائل هذا العصر كثيرين فى إيران وخاصة فى قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت فى شيراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين [2] ، ولم تكن الحكومات تتدخل فى شعائرهم ولا فى شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم ، وكانوا يدفعون، نظير ما يتمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطنى إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤديها

---

(١) يتيمة ٣/٤٢١ .

(٢) ابن الأثير فى سنة ٣٦٩ .

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس. وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لمتوسطى الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل ، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثنى عشر درهماً . وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة ، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى : وكان على بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانيا[1] ، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانيا ، وكان اليهود يعملون فى أحقر المهن ، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخرّازون .

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى فى الملبس والمطعم ، فكانوا يلبسون الدّراريع وهى ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسّراويل والحلل المطرزة . وكانوا يلبسون الخزّ صيفاً والفِراء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصوفية والحريرية . وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفنناً فى أناقتهن ، فكن يلبسن الإستبرق والسُّندس والوَشْىَ ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف ، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية .

ومضوا يتفننون فى المطاعم ، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة فى بيوت الأمراء والوزراء ، مما جعل كثيرين يُعنَوْن بالتأليف فى كتب الأطعمة ، مثل ابن مسكويه ، الذى أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن[2] ، ومثل ابن خلاد القاضى الذى أهدى إلى ابن العميد كتاباً فى الأطعمة ، فأجابه بقصيدة طويلة عدّد فيها كثيراً من أنواعها التى ذكرها فى كتابه[3] . وعرفوا حينئذ توالى ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع . وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف .

وكانوا يمكثون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء ، وكانوا يستطيبون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة فى أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب . ومن قديم تقترن الخمر بالغناء فى إيران ، حتى ليروى صاحب الشهنامه فى تربية قورش الملك الإيرانى القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقيا ، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور[4] ، وطبيعى أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر ، بحيث يشترك فى المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة[5]

---

(١) ابن مسكويه ٥/٤٦٤ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٣٢ .

(٣) يتيمة ٣/١٦٨ .

(٤) انظر الشاهنامه نشر د. عزام ١/٣١٣ وتراث فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣ .

(٥) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ وانظر فى عضد الدولة ومجالس شرابه اليتيمة ١/٢١٨ وابن الأثير (طبعة دار صادر - بيروت) ٩/٢٠ .

والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد[1] والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروى[2] . وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب[3] . وكان يحيي بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب ، يقول عبدان الأصبهاني[4] :

سُقيتُ وفي كفِّ الحبيبة وردةٌ وأُتْرجَّةٌ تُغْرِى النفوسَ بِصَوْنها
مُداماً فلما قابلتْنى بوجهها شربتُ فحيَّتنى بلونى ولونها

وبلغ من تفشى الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات[5] . وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة ، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كي يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد[6] المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشّعانين ، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ما كان فيه من لهو وموسيقى وغناء[7] :

سَقْياً لدهرٍ مضى إذ نحن في شُغُلٍ بالعزْفِ والقَصْفِ عن شُغْل السّلاطينِ
إذ يومُنا يومُ عيدٍ طول مُدَّتنا ولَيْـلُـنا كلُّه لَيْلُ الشّعانينِ

وكانوا يُطْلقون لأنفسهم العنان في الأعياد المجوسية من مثل عيد السّذق ، وهو عيد لاشتعال النيران ، وكان يقع في شهر يناير من كل عام ، ويصوِّر البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦ ، فيقول : «اقترب عيد السَّذَق ، فأخذوا يجمعون له الطَّرفاء وعيدان الحطب ، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة ، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجبل ارتفاعاً ، وأتوا بكثير من المعدّات والطيور ومايلزم هذا العيد من الحاجيات ، وحلَّ العيد وجلس السلطان في مخيَّم له ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران ، وكانت تُرَى على بعد عشرة فراسخ ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش ، فكانت تجرى وقد علقت بها النيران»[8] . وكان أهم من هذا العيد عيد النّيروز في أول الربيع ، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب . ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام . ويقول البيهقي : «كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة . . ويجتمع أعيان الدولة

---

(١) ابن الأثير ٦٧٦/٨ .

(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة) ١٦٧/٢ .

(٣) يتيمة ٢٤٤/٣ .

(٤) يتيمة ٣/ ٣٠٠ .

(٥) المقدسي ص ٤٤١ وتحقيق ماللهند من مقولة للبيروني ص ٢٧٩ .

(٦) انظر في احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٥ .

(٧) اليتيمة ١٤٩/٤ .

(٨) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية – نشر مكتبة الأنجلو) ص ٤٧٠ – ٤٧١ .

والأمراء ومجلس الندماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقداح الشراب ، وتعزف آلات الطرب ، ويأخذ المغنون فى الغناء»[١] .

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرد ، وكان فخر الدولة البويهى مولعاً بالصيد[٢] . ومثله ملكشاه السلجوقى ، ويقال إن صيده بلغ فى بعض الأيام سبعين غزالاً[٣] . وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالنّرد والشّطرنج ، وكانوا يُشْغَفون بلعب الصوبجان والكرة وبسماع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهى فى خراسان وإيران عامة أن نجد كيكاوس فى القرن الخامس الهجرى يفرد فى كتابه : «قابوسنامه[٤]» فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهى ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

٤

التشيع[٥]

يقوم التشيع – كما مر بنا فى قسم العراق – على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أو بعبارة أخرى للخلافة ، فهى ليست مفوّضة للأمة ، بل هى خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقة بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى لعلى بن أبى طالب بالخلافة بالقرب من غديرخُمّ بين مكة والمدينة ، وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية – كما مر بنا فى قسم العراق – أقربهم إلى أهل السنة ، وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقِرُّون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوى الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا فى الصحابيين الجليلين : أبى بكر وعمر ولا فى ولايتهما أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفى مثل الإمامية الاثنى عشرية ، ولا بنظرية

---

(١) السبق فى سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ .

(٢) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ .

(٣) براون (ترجمة الشواربى) ص ٢٢٨ .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية .

(٥) بجانب مصادر التشيع المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى والتبصير فى الدين للإسفرايينى وفرق الشيعة للنوبختى ومقدمة ابن خلدون وفضائح الباطنية (الإسماعيلية) للغزالى واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى وبراون (ترجمة الشواربى) فى مواضع متفرقة .

الإمام المستور مثل الإسماعيلية ، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة فى الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرَّ بنا فى قسم العراق حديث مفصَّل عن فرقة الإمامية الاثنى عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين ، وترى أنها تتابعت بعد على فى الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه على زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، وتفترق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرَّ بنا فى العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده فى أبنائه وأحفاده : على الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلى الهادى ، فالحسن العسكرى ، فمحمد المهدى الذى اختفى ، وهو الإمام الثانى عشر ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملأ الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسى ثان فى عقيدة الإمامية عرضنا له فى قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهى عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية فى اعتقادهم إذ تجعله نقيا من الذنوب بريئاً من العيوب ، لا يعتريه خطأ . وعنصر أساسى ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطنى الإلهى الذى يتوارثه الأئمة عن النبى والذى ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعانى الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع فى آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفى فى حياة أبيه كما توفى إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه فى سلسلة متصلة ، وهم مستترون مختفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام فى شخص عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى شمالى إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثنى عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون فى حلقات أو أدوار سبعية ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلِّى الأعظم للعقل الكلى ، وفى ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة فى الفيض ، وهى النظرية التى بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية فى موسوعتهم المشهورة . ومن تتمة نظريتهم أن العقل الكلى الذى يتجلى فى أئمتهم تجلى منذ آدم فى الأنبياء ، وهو الذى يسيِّر الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمى الإسماعيلى يعتقد أن التجسد الإلهى تمثَّل فيه وأنه خليق بعبادته . ومات مقتولاً ، فادَّعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكأن نظرية الرجعة عند الإمامية الاثنى عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية فى شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام الغائب المنتظر .وواضح أن الإسماعيلية غلت فى تشيعها غلوًّا بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكريه يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالى حملات عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » الذى سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادَّة الإسلام ، ولابد أن نشير إلى أن تابعى هذه الفرقة كانوا يصعدون فى سبع مراتب : مرتبة للعامة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة . ومن حق الإسماعيلى والإمامى جميعاً أن يُخفيا عقيدتهما فى البلد الذى يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية ، وقد طبع دعوتهما فى حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن على مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعانق منذ العصر العباسى الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال فى أثناء الجدال الذى كان دائراً بين أعلامها حتى لنجد النظَّام المعتزلى المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصره ثُمامة بن أَشْرس الذى لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون فى حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة فى عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفى رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هى التى جعلت أهل السنة فى العصر ينفرون منه ، ويعتنقون المذهب الأشعرى .

وكانت إيران فى هذا العصر تُعَدّ أكبر مركز للتشيع ، وقد مرَّت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى حركة زيدية قوية غلبت على طَبَرِسْتان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا فى أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلُّدُ البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة فى إيران إيذانا بأن يأخذ المذهب الإمامى طريقة إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة « قُم » باعتناقه وقد ظل منتشرا بها واعتنقه كثيرون فى الحقب التالية ، وقيَّضَ له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة فى مدينة « قم » وخلفه فى مشيخته ، وألَّف كتبا كثيرة فى المذهب ، محتجاله ، داعيا إليه ، ومن كتبه المطبوعة فى طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية فى إيران منذ أوائل هذا العصر ، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا فى عقيدتهم نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ .) مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضا إن أبا على بن سيمجور أحد رجالات الدولة فى خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيليا ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوى يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جَدُّوا حينئذ فى نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوى حين يستولى على الرىّ من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسى ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه[1] :

« وقد أزال الله عن هذه البُقْعَة أيدى الظلمة ، وطهَّرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمبتدعة الفجرة . وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصَر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقَمْع من نَبَغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . وطلعت الرايات بسواد الرّىّ . . وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء فى تعرُّف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون فى أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنفى على مراتب جناياتهم . واعتقادهم فى مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجة تسودّ بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يجاهرون بالقذف وشتم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإباحة فى الأموال والفروج والدماء » .

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية فى إيران من فساد ،

(١) المنتظم ٣٨/٨ .

حتى كان أصحابها لا يؤدّون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التى أحلّ صاحبها «مزدك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات (١) . ونمضى بعد عهد محمود الغزنوى ، فنجد الدعوة الإسماعيلية تنشط فى إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهدها هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قويا الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن يبسط سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية فى منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعاتها ظلوا منبثّين فى أنحاء إيران ، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة ، الذى لقبه أتباعه بلقب «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات ، وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات «سِمِنْجان» . وكان أخطر منه فى الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذى نهض بالدعوة فى أذربيجان وأصفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى «شاه دز» جعله وكراً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصبّاح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعاتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم فى مدينة الرىّ ، ويقال إنه لقى بها فى رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدّمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه . ويقال إنه سأله مَن الخليفة بعده ؟ فأجابه ابنى نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولّى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى ، مما كان سبباً فى انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصبّاح ، حتى ضمت بين جناحيها كَرْمان وَطبَرستان والدّامغان وقَزْوين ، واستطاع الاستيلاء على حصن فى غاية المناعة ، هو قلعة «ألموت» سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العُقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وَكْرٌ له . وجعله استيلاؤه على هذه القلعة يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثيلها فى إيران ،

(١) انظر كتابنا العصر العباسى الأول ص ٨٠ .

فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قاين» و«تون» و«رَوْزن» و«خور» و«خوسَف» فى قُهُسْتان وعلى «شَمْكوه» بجوار أبهر ، وعلى «أُسْتوناوَنْد» فى مازَنْدران ، وعلى «أَرْدَهَن» و«كُردكوه» وقلعة الناظر فى خوزستان ، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أرّجان ، وعلى قلعة «خلاّدخان» فى فارس . وكان تملك الحسن بن الصبّاح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً فى أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسيا ، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لنزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر ، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين . وفى الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم – على الأقل – كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش . ومضوا يدعون سرًّا لعقيدتهم ، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف فى سبيل دعوتها ، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقى المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعتهم «ألموت» على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثيرونه من رعب على مر السنين ، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامى الوزير السلجوقى وللفقيه عبد الواحد الرويانى فى طبرستان والقاضى سعد الهروى فى همذان . وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم ، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ ردا على قتلهم لوزيره معين الملك . وكان الحسن بن الصباح حيا فى أيام هذا السلطان ، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «ألموت» وبها توفى سنة ٥١٨ للهجرة . وخلفه فى رياسة الطائفة كيابزرك حميد ثم ابنه محمد ، وتبعها دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار ، إذ ظلت فى أيديهم مقاليد السلطان والدعوة . وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين ، حتى استطاع المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى دكَّ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ – ٦٥٥ هـ.) وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهى عهد الإسماعيلية بإيران ، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها ، ويعود هذا الفرع الإسماعيلى الشرقى إلى الظهور فى الهند ، ويتخذ أصحابه «آغاخان» رئيساً روحيا لهم ، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذى كان آخر أمراء قلعة «ألموت» .

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجا إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنى ، وينعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصوفى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ – ٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاما فى إيران إذ أعلنه مذهباً رسميا للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفى مقدمتهم الإمامية من قديم – كما مرَّ فى العراق – بعيدين : عيد الغدير ، يريدون غدير خُمٍّ ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعلى بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به فى عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجعه البيرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأوانى والثياب [١] . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يتراءى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاه ظامئة وعيون ساهمة باكية ، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حارًّا مصوِّرين بؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد فى أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء . وصبغ ذلك الحزن العميق فى تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنّات .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم فى العراق سُنَّةً متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يهتمون بها ، ولعل فى هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانو إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، ونُقل إليه جثمانه بعد وفاته فدُفن به ، كما دفن به أيضاً ابناه شرف الدولة وبهاء الدولة [٢] . واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين ، وبنى حوله حضرة

(١) الآثار الباقية للبيرونى (طبعة أوربا) ص ٣٢٩ . . بيروت) ٩/ ١٨ ، ٦١ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة [١]. ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأتماً كبيراً يقام فى كل عام ، يقيمه إمامية إيران والعراق .

٥

الزهد والتصوف [٢]

ظلت نزعة الزهد التى تحدثنا عنها فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى متغلغلة فى نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدِّثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناسَ إلى الزهد فى متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، واقرأ فى كتاب للمحدِّثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبى أو فى كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسُّبكى فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى مَنْ ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدقق فى أحكام الشريعة مبالغاً تحرجاً وخوفاً من الله مثل أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السُّبكى فى ترجمته أنه بلغ من ورعه وتحرجه أنه لم يكن يستند فى داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدقّ فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو فى المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع فى باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف فى شىء من لبنها . ولا ريب فى أن كثرة الوعاظ هى التى أعدت – من بعض الوجوه – لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة ، ويتوقف السبكى مراراً فى طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ فى نيسابور وغيرها ومدى تأثيره فى نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : «صار مجلسه روضةَ الحقائق والدقائق ، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب ، ومواجيده مقطِّرةَ الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومفطِّرةَ الصدور

---

(١) المنتظم ١٤٩/٧ .

(٢) راجع فى الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكى فى مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمى وحلية الأولياء لأبى نعيم والفصل فى الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيرى وإحياء علوم الدين للغزالى وصفة الصفوة لابن الجوزى وقوت القلوب للمكى ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبيه الغافلين للسمرقندى وطبقات الشعرانى ، وانظر جولد تسيهر فى كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام» ونيكلسون فى كتابه «فى التصوف الإسلامى وتاريخه» ترجمة أبو العلا عفيفى والملامتية والصوفية وأهل الفتوة لعفيفى وآدم ميتز فى كتابه الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

بالتخويف والتفزيع »[١] .

وأخذت موجة التصوف فى العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الرُّبط المنظمة منذ القرن الرابع الهجرى ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكأن زوايا المتصوفة كانت تُبْنَى لهم فى هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت . ويقول المقدسى فى أواخر القرن الرابع الهجرى إنه كان فى إسْبِيجاب فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط ، بينما كان فى بيكند ألف رباط [٢] ، وهى ثغر جليل بين بخارى ونهر جَيْحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات فى ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور . ويذكر الهجويرى الأفغانى أنه لقى ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته[٣] .

ويشير المقدسى إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر ، وهى بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيأت هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريديهم خِرَقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفى مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباهجها ونَبْذ مُتَعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويحثُّ أبو الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزبَ[٤] حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينبغى أن لا يهتم به الصوفى فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم فى التوكل على الله حق التوكل ، حتى ليهمل الصوفى كل تصرف شخصى ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر فى رزقه ولا فى قوته ولا فى غده ثقة فى الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم فى صفين متقابلين ، وهى تذكر الله ، متحركة بجسدها دون أقدامها يميناً

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٥/٦٩ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ٢٧٣ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويرى – الترجمة العربية – للدكتورة إسعاد عبد الهادى (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/٣٩١ .

(٤) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧ – ١٩٨

ويسارا، ومنشد ينشد فى أعلى الصفين، وفى أثناء ذلك يهيم نفر منهم ويتشى، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه ، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يَرْوَى رِيًّا مسكراً بجمال الذات الإلهية ، إذ تمتلىء بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية ، فتشعر كأنما تتجرد عن كل إرادة ، لمحبوبها الربانى ، وهو ما يسمونه بالمحبة الإلهية ، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذى يذيب الصوفىَّ فى الجمال الربانى ويجعله يفنى فيه فى وجد لا يماثله وجد .

ومنذ الحلاج الذى تحدثنا عنه فى العصر العباسى الثانى أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله ، معتقدين أنه يتجلّى فيهم كما يتجلّى فى خلقه ، وكأنهم يشاهدونه فى أنفسهم ، أوكأنما يحلُّ فيهم ، مما هيأ لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة ، وكانت هذه الأفكار سبباً فى أن يحدث شىء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسَّع الهوة بين الطرفين أمثال أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ – ٤٤١ هـ) . أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين فى عصره ، وكان يُعلى عمل الصوفى بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه ، وفى ذلك يقول ابن حزم : «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع . . وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبى الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال»[1] . وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة ، فقد أوغل بعضهم فى آراء ضالة ، حتى ليعتنق بعض آراء المزدكية فى العكوف على الخمر واستحلال المحرَّم ، وغلا بعضهم فى تقدير شيوخ الصوفية حتى قدَّمهم على الرسل والأنبياء ، يقول ابن حزم : وطائفة من الصوفية زعمت أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلّت له المحرمات كلها . . وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قُذف فى نفوسنا فهو حق»[2] .

ولم تقف المسألة عند أفراد ، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية فى إيران يضعف عندها الوازع الدينى ويشيع عنها اهمال فرائض الإسلام ، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين ، نذكر منهم جماعة الكِرَامية بخراسان وماوراء النهر ، وكانوا ، أوقل تحولوا ، دراويش يطوفون فى البلدان لابسين أردية من الصوف ، ومدلّين فوطا على رءوسهم تحيط

(١) الفصل لابن حزم ٤/١٨٨ .

(٢) الفصل ٤/٢٢٦ .

بها قلانس طويلة ، ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصبية والذل والكُدْية أي التسول [١] . ومثلهم الملامتية ، وكان مبدؤهم الأساسي الملامة ، فالصوفي الكامل في رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمته ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحّل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأنما أصبح الصوفي هو المتسول ، ولا بأس من أن يُسْقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على ألسنة المتصوفة وفي كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفي بالذات الإلهية ، ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفي لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنن ، مخلصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامتية والكرامية وأمثال أبي سعيد بن أبي الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لابد أن يُرْأب ، حتى لا تنشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقيّض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السرّاج [٢] عبد الله بن علي الطوسي الزاهد صاحب كتاب اللُّمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السُّلَميّ تلميذه في كتابه «طبقات الصوفية» : «كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة» . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفيا يتغلغل في الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنيا يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجوّل في العالم الإسلامي من نيسابور إلى القاهرة ، ووفد على بغداد فأُفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأُعطي رياسة الدراويش . ولا نغلو إذا ذهبنا إلى أنه يُعَدّ مؤسس مدرسة التصوف السني في عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

---

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر في أبي نصر السراج الطوسي طبقات الصوفية للسلمي وكشف المحجوب للهجويري وشذرات الذهب ٣/٩١ وكتابه اللمع (نشره نيكلسون في سلسلة جب التذكارية) .

ويوضح مذهبه الصوفى كتابه اللمع الذى أشرنا إليه ، وفيه يفيض فى الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب فى نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقَّنه بدوره عبد الكريم[1] القُشَيْرى النَّيسابورى ، وتتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبى على الدقَّاق . وكان متصوفاً سنيا ، فوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حماسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفى وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما تُوافى سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التى طوَّفت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية فى البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السنى الحقيقى وما سجله من سِيَر أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصلاً وثيقاً بالشريعة ، وهو يستهلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطُوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رِباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعَدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرَّروا من رِقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحْوٌ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عَتْب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختُطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

وبهذه الرسالة العظيمة التى شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيرى الحواجز التى كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمية ، فالتصوف ليس خصماً للشريعة ، بل هى قِوامه وصِراطه الموصِّل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً ، وهو أيضاً نَيسابورى ، أصله طوسى حقا ولكنه تلقن التصوف السنى فى نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبى نصر السراج والقشيرى ، ونقصد أبا حامد[2] الغزالى المتوفَّى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء

(١) انظر مصادر ترجمة القشيرى فى الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر فى الغزالى المنتظم ٩/ ١٦٨ واللباب ٢/ ١٧٠ والوافى بالوفيات ١/ ٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار =

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكبَّ الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبِّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى ، فعيَّنه أستاذاً للفقه الشافعى فى مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولَّى وجهه نحو الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً فى تأمل الفرق الإسلامية ، واستقر فى نفسه أنه ينبغى تخليص الأمة من الدقائق التى يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة ، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين فى شىء ، وأن من شأنه أن يزعزع العقيدة العامة ويحدث بلبلة فى العقول . وبالمثل حمل على الفَلسفة وأعلن عليها حرباً شعواء فى كتابه « تهافت الفلاسفة » وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ، ووجَّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية فى كتابه « فضائح الباطنية » . وهدته تأملاته فى عزلته إلى أنه لابد من الوصل بين التصوف والسنة كى ينمو الشعور الدينى ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح فى أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطنى ، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسى لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وألَّف على هذا الهدى كتابه « إحياء علوم الدين » محللاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه ، ونقصد التصوف السنى الذى أقام هو والقُشَيْرىّ والسرَّاج بنيانه ، والذى يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس السعى إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه ، وحقا لابد أن تؤدَّى الفرائض والسنن ، ولكن لابد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الدينى وصدقه ، إذ هو جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالى وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجاج فى اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر فى شباك الحلول ، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالى فى

= صادر) ٤ /٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى (٦ /١٩١) ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالى لعبد الرحمن بدوى ومحاضرات مهرجانه فى دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورض ١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر القسم الرابع وفى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة عفيفى ص ١٣٩ وسيرة الغزالى لعبد الكريم العثمان (طبع دمشق) والحقيقة فى نظر الغزالى لسليمان دنيا (طبع دار المعارف بمصر) .

أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهى تبدو واضحة – كما يقول نيكلسون[1] – فى كتابه « مشكاة الأنوار » وكأن الرسول صورة للأمر الإلهى أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد فى متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذى يتمثل فى الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالى هذه النزعة الصوفية فى أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقه أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدّث فيها بكتابه « الإحياء » . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء «وخانقاه» للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشريعة مزاوجة بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف وصولجانه .

وقد ازدهر التصوف السنى فى إيران وغير إيران من العالم الإسلامى ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالى ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفى انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السُّهْرَوَرْدِىّ[2] الإيرانى المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة فى الإقليم الإيرانى المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكبّ على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه فى الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفى بعد السهروردى صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده فى التصوف الإشراقى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأسفار الأربعة » .

ومنذ الغزالى بل قبله منذ السراج والقشيرى ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السنى فى إيران ؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرعى أهلها ، كما مر بنا فى القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست فى التشيع وفى شىء من التصوف الفلسفى . وبدون شك أنتجت إيران فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف فى الفارسية فى مقدمتهم جلال الدين الرومى (٦٠٤ – ٦٧٢ هـ .) والشيخ سعدى الشيرازى المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفى الكبير حافظ الشيرازى المتوفى سنة ٧٩١ وفى الحق أن التصوف ظل مزدهراً فى إيران قروناً متطاولة .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٤٦ ومابعدها .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردى فى ترجمته فى الفصل الرابع من هذا القسم .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى نشاطا عظيما ، فمن تعليم للناشئة فى الكتاتيب إلى تعليم للشباب فى المساجد ، ومضت على هذا النحو فى أوائل عصر الدول والإمارات فى إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ما كان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ويتحلّق الطلاب حوله ، وهو يملى عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون فى بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُسْتَمْلٍ بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدِّثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعَدَّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذى نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم يجهد جهدا بالغا فى أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكى يبعثوا فى شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجْرِى الرواتب والأرْزاق على الفقهاء والأدباء والقرّاء ، فرغب الناس فى العلم ، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم ، ووُجد فى تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبى

على الفارسى النحوى تصدقت بخمسين ألف درهم (١) . ويقول ابن الأثير : «كان يجلس مع العلماء يعارضهم فى المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح فى النحو والحجة فى القراءات لأبى على الفارسى ، والكناش الملكى فى الطب لعلى ابن العباس المجوسى ، وكتاب التاجى فى التاريخ لأبى إسحق الصابئ إلى غير ذلك» . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعْنَون بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنَّة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران فى العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلى من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزِّيارية تُعْنَى فى طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقلّ عنها عناية الدولة الخُوَارَزْمية بأمرائها الثلاثة فى مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم «مأمون خوارزم» ويكفى أن نعرف أنه كان يعيش فى رعاية ثالثهم الذى استولى محمود الغزنوى على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم فى مقدمتهم البيرونى وابن سينا وأبو سهل المسيحى والطبيب ابن الخمَّار والرياضى أبو نصر بن العرَّاق ، وكان محمود الغزنوى قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، ولبَّاها ابن العرَّاق وابن الخمار والبيرونى ، ورفضها أبو سهل وابن سينا ، وولَّى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزِّيارى صاحب طَبَرِسْتان (٢) . وفى هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوى (٣) بجمع الفلاسفة والعلماء فى عاصمته «غَزْنة» التى جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب فى الشرق الإسلامى وعمت النهضة فى دولته مدنا أخرى مثل هَراة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمراء ، وكانوا أحيانا لا يخصُّون بها أميرا واحدا ، بل ينتجعون بها أمراء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبى ، فقد أهدى كتابيه : «المبهج» و «التمثل والمحاضرة» إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : «النهاية فى الكناية» و «نثر النظم» و «اللطائف والظرائف» لمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه «لطائف المعارف» للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابيه «سحر البلاغة» و «فقه اللغة» للأمير أبى الفضل الميكالى راعى العلم والأدب فى نيسابور .

وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية فى العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها فى منتصف القرن الرابع الهجرى مدرسة أبى حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

---

(١) انظر المنتظم ٧/١١٥ وابن الأثير ٧/٢١ .

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ .

(٣) انظر فى ثقافته ابن تغرى بردى ٤/٢٧٣ .

للهجرة [1] ، وفى أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدِّث الكبير ابن فُورَك [2] المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة [3] . وكثر بها بناء المدارس فى النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بنيت بها مدرسة [4] لأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس [5] : هى المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإسترباذى المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعى ، والمدرسة السّعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبى إسحق الإسفرايِنى .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الرىّ حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزر لهم فى عهد سلطانهم أَلْب أَرْسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين فى سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى أَلْب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه ، وكان سياسيا بارعا وله فى السياسة كتاب باللغة الفارسية سمّاه «سياست نامه» . وكان شافعى المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرفت كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نحلة الحشاشين ، ولنشر المذهب الشافعى والنحلة الأشعرية . فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومَرْو وأصفهان وآمل فى طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالى سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدْرَسُ فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعرى علومُ التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدَّرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَغَصُّ بالكتب فى كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين .

والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيَّنّا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب ، وظل الاهتمام بها فى هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الورّاقين التى تُعرَض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر فى المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلا . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التى ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت فى كل جامع كبير مكتبة تضم ما يَقفه العلماء على طلاب العلم فى الجوامع . وكان هناك رعاة للعلم ينون

---

(١) طبقات الشيرازى (طبع بغداد) ١٢١ .
(٢) السبكى ٤/١٢٨ .
(٣) السبكى ٤/١٥٩ .
(٤) السبكى ٤/٢٩٠ .
(٥) السبكى ٤/٣١٤ .

المكتبات لطلابه ، مثل ابن حِبّان البستى صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب . ويُرْوَى أن أبا على بن سِوار الكاتب فى دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب فى مدينة رامَهُرْمُز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها[١] .

وكان طبيعيا منذ أوائل هذا العصر أن يُشْغَف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة ، أولاها مكتبة عضد الدولة ، وقد رآها المقدسى ووصفها بقوله : «حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها ، وهى أَزَج (بناء) طويل فى صُفَّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد أُلصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضَّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوتٌ وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه[٢] » . والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُملت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير[٣] ، واتخذ خازنها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذه خازنا -كما مرّ فى ترجمته- بعد وفاة ابن العميد وابنه أبى الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرَّىّ ، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحْمَلُ على أربعمائة بعير أو أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرَّىّ عشرة مجلدات[٤] .

ولعل فى ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزِّياريين والخوارزميين ، بل امتد أيضا كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذى كانت مجالسه تزدان بالعلماء ، وكان يحضر سماطه القُشَيْرى وإمام الحرمين وأبو إسحق الشِّيرازى ، وكثر تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبى المظفر طاهر بن محمد الإسفرايينى المتوفى سنة ٤٧١ . وقدّم له إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجُوينى كثيرا من كتبه ، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرِّس فيها عشرين عاما إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعمائة طالب

---

(١) المقدسى ص ٤١٣ .

(٢) المقدسى ص ٤٤٩ .

(٣) ابن مسكويه ٦/٢٨٦ وما بعدها .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٦/٢٥٩ .

وأستاذ [١] . وكان الطلاب دائما كثيرين فى حلقات العلماء ، فيُروى أنه كان يحضر دروس أبى الطيب الصعلوكى مفتى نيسابور أكثر من خمسمائة طالب [٢] . وفى هذا ما يدل على إقبال الشباب فى نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالا منقطع النظير ، ولم يكن ذلك فى نيسابور وحدها ، فقد كان عاما فى مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وفَرْغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحا للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضا أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكى فى طبقاته من أن فقهاء الشاش «كتبوا إلى ابن سُرَيْج إمام الشافعية ببغداد يُعْلمونه أن الناس فى ناحيتهم : أرض الشاش وفَرْغانة مختلفون فى فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفُتْيا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعى ومالك وسفيان الثورى وأبى حنيفة وصاحبيه (محمد وأبى يوسف) وداود بن على الأصفهانى (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامىّ ، فكتب القاضى لهم الرسالة» [٣] .

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفا على الفقهاء وتلاميذهم ، بل كانت العامة تشارك فيها وفى دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التى اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعى ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضا تلك التى اختلف فيها معهم سفيان الثورى وداود بن على الأصفهانى . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفى من خلاف مثل ما حدث بين أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وقفت عليه العامة فيما وراء النهر.

وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية فى إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخص الرجال بل تعم النساء ، وهى تتصل بالحديث النبوى وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الأثبات ، ويُذْكَرْنَ فى تراجم بعض المحدثين ويُنَصُّ على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزية ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادى المحدِّث المشهور صحيح البخارى ، وسمع منها أيضا بمكة سعد الأسد آباذى [٤] ، فهى لم تحدث فى موطنها فحسب ، بل حدثت أيضا فى مجمع العلماء بالحرم المكى ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسنادا : صحيح البخارى . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة [٥] بنت عبد الله البوشنجية ، وهى من محدِّثات القرن

---

(١) طبقات السبكى ٥/١٨٤ .
(٢) التهذيب للنووى (طبعة وستنفلد) ص ٣٠٧ .
(٣) السبكى ٣/٤٥٧ .
(٤) السبكى ٤/٣٠ ، ٢٨٣ .
(٥) السبكى ٥/١١٨ .

الخامس الهجرى ، ومثلها فاطمة بنت أبى على الدقاق شيخ القشيرى فى التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون[١] . ومن محدِّثات القرن الخامس أيضا كريمة[٢] بنت محمد ، وُشهدة[٣] بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن تتمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، موزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمى أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو «مفاتيح العلوم» ويهديه إلى أبى الحسن العتبى وزير الأمير نوح السامانى الثانى (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ .) وكان يعيش فى رعايته بنيسابور . والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى فى علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية فى الفلسفة وعلوم الأوائل .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدثنا فى كتابى العصر العباسى : الأول والثانى عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات فى الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات فى الرياضيات والطبيعيات . وسرعان ما شارك العرب فى كل ما ترجموه ، سواء فى النظريات الفلكية أو فى العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا فى نقل كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى وهو فى الفلك والجغرافية ونَقْل كتاب الأصول لأقليدس فى الهندسة وكتب أرسطو فى علمى الحيوان والطبيعة وفى المنطق وكتب جالينوس وبقراط فى الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتبا مختلفة . وقد ذكرنا فى كتابى العصر العباسى أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستفيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة فى جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ فى الرياضيات دوَّت شهرتهم فيما بعد فى عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمى الذى يفتتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائى المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازى ذائع الصيت فى عالم

(١) السبكى ٥/١١ .
(٢) السبكى ٥/٩٥ .
(٣) السبكى ٦/٧١ ، ٧٣ .

الطب الذى اكتشف فى وضوح فرق ما بين مرضى الجُدَرِىّ والحَصْبة ووضع أُسُساً واضحة للطب النفسى . وكان طبيعيا بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون . ويلمع اسم الكندى فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجا رائعا ، مصطفيا لأمته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وندخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الخصبة ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن[(١)] سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولى التصرف للسامانيين بقرية خرميثن ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعُنى بتربيته فأحضر له معلما للقرآن ومعلما للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيليا ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والمجسطى ، ويراه لا يفهمهما حتى الفهم فكان يشرحها لأستاذه . وأكبّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاما فى السابعة عشرة من عمره . واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتابا للفارابى ، حَلّ له مستغلقاتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ويغدق عليه

---

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقى ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ٢/١٥٧ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢/٢٩١ وكتاب لكارادى فو عنه (طبع باريس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجر (أدنبرة ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدوميلى ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنواتى . وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها فى كتابنا «الترجمة الشخصية» طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعيده الألفى .

من أمواله . ويستأذنه ابن سينا فى دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز فى علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها «خيوة» عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيرونى . وسمع محمود الغزنوى بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء فى بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه فى طلبهم ، كما مر بنا ، وأبىَ ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ يتنقل فى بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمذان سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٦م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقَّب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفى ، وله قصص فلسفية كقصة سَلامان وأُبسال وقصة حىّ بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعَدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون فى الطب وكتاب الشفاء فى الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين فى دراساتهم الطبية بجامعاتهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة فى القرن الخامس عشر الميلادى وعشرين مرة فى القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسطاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونَحَا فى كثير من أفكاره نحو الفارابى ، وهو يتفق معه فى تفاريع المنطق وفى الإلهيات وما ذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه منزَّه عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات فى ذاته . وهو - لذلك - لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبِّر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هى جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفعّال الذى تصدر عنه مادة الكائنات فى الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبيعى أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نحَّيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء ، فيقول إن كل ما فى الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته فى القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأمور العقلية والسماوية ، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود

الأرضى والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاها النفوس الكاملة التى تتمسّك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعدّ الموت بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلى ، وسعادتها وشقوتها حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفا . وفى ذلك يكون الثواب والعقاب .

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة ، فيمزجها بالتصوف الذى تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى فى الكون سوى مبدعه وجماله على نحو ما تصور ذلك قصتاه «حى ابن يقظان» و«سَلامان وأبْسال» وسنلمّ بهما فى الفصل الأخير. وفى الأولى يعود حى بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أبسال فى الثانية من أغلال اللذات الحسية موغلا فى اللذات العقلية وما يُطْوَى فيها من لذات الصوفية الروحية . ويوضح ذلك فى كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفى ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لا رهبة من عقابه ولا رغبة فى ثوابه .

والبّيرونى [1] هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحى خيوه عاصمة خوارزم تسمى بيّرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقن معارفه الأولى بخيوه ، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقهما حذقا رائعا ، وشُغف فى أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد يتدرج فى العقد الثالث من عمره حتى بلرح موطنه إلى طَبِرسْتان حيث عاش فى رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدّم أول كتبه : «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذى فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صوّر فيه المناهج التاريخية والتقاويم الحسابية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه سخاو فى ليبزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيرونى وأعماله ومكانته . وكان قابوس متقلبا ، فخشى البيرونى على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه «مأمون خوارزم». وسمع به ويعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيرونى – فيما

---

(١) انظر فى البيرونى تتمة صوان الحكمة للبيهقى ومعجم الأدباء ١٧ / ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٥٩ ومقدمتى سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى فى تاريخ الرياضيات ومادة بيرونى فى دائرة المعارف البريطانية وكتاب العلم عند العرب لألدوميلى ص ١٨٨ وما بعدها ومقالتى بروكلمان وفيدمان عن البيرونى فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ٢٤٥ ومابعدها .

يُرْوَى - رغبته فى الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوى على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيرونى شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيرونى إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته لمحمود . وكان محمود مابنى يغزو الهند على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم فى أثنائها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماؤها ، ودرس فى عمق فلسفاتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها فى التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» وقد أتمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوى بعامين . وفى الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافى مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارهم فى الفلك والتنجيم . ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق فى الديانات وفلسفاتها ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفى كل ذلك ينثر آراءه الأصيلة التى تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين فى قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيرونى كتابه القانون المسعودى فى الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوى عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف فى الفلك والهندسة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفِّى أثر كل كتاب ، صُنِّف فى تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقى إنه غرة فى وجوه تصانيفه . وفى مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذى قدم إليه الكتاب وقد نشر فى حيدر آباد سنة ١٩٥٣ . وللبيرونى كتب أخرى ، منها كتاب فى المعادن سماه الجماهر فى معرفة الجواهر ، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوى ، ومنها كتب فى الطب وكتاب فى الصيدلة نشره ماكس مايرهوف فى برلين وكتب أخرى فى الطبيعيات . وفى الحق أنه شخصية فريدة فى تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر[1] ستانى أبو الفتح محمد بن أبى القاسم

(١) انظر فى الشهرستانى وترجمته ابن خلكان ٢٧٣/٤ بالوفيات ٢٧٨/٣ وشذرات الذهب ١٤٩/٤ ومرآة الجنان ٢٨٩/٣ ولسان الميزان ٢٦٣/٥ وعبر الذهبى - وتذكرة الحفاظ ١٣١٣/٤ والسبكى ١٢٨/٦ والوافى

المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان فى شمالى خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد « الملل والنحل » الذى ألفه فى سنة ٥٢١ وهو فى علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا فى نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فمنذ القرن الثالث الهجرى وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيرونى وألف كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » الذى تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة فى الديانات ، وجاء بعده ابن حزْم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » وخلفه الشهرستانى ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك فى اعتدال وإنصاف وبصر نافذ . وهو لا يبارَى فى دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامى أو عن عالم الفرس القديم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفى مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما فى مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما يصوِّر ذلك ألدوميلى فى كتابه العلم [1] عند العرب ، ومن نابهيهم فى القرن الرابع الهجرى ممن تحدَّث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهانى الذى نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراسانى ، وله كتاب فى الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفى مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو محلًّى بالرسوم ، ويقول ألدوميلى إنه صحَّح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمى فى القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن على بن أحمد النسوى يؤلف بالفارسية كتابا فى اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع فى الحساب الهندى . ويشمل نظام الملك فى الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين ، وفى مقدمتهم [2] عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ فى علم الجبر رتب فيه – كما يقول ألدوميلى – الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان فى مرو وإما فى أصفهان وإما فى نيسابور ، وعيَّن له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم

= ٤/١٣٢ وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) راجع فى عمر الخيام وترجمته القفطى ص ٢٤٣ وآثار البلاد للقزوينى (طبعة وستنفلد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤ وألدوميلى ص ٢١٤ ، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية .

وألف فيه كتابه «التاريخ الجلالى» نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير [1] الدين الطوسى المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقّفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم «ألموت» وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبَّ على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولاكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرَّمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه فى هجومه على بغداد ، وانتهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوَّن منها مكتبة ضمَّت أكثر من أربعمائة ألف مجلد ، كما يقول ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات . وساعده هولاكو فى بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعيَّن معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائما على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ وقد ألف زيجا أو قل تقويما أصلح به تقويم الخيام ، وألف كتبا كثيرة فى التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعيات . ومن أشهر تلاميذه قطب [2] الدين محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضيا فلكيا ، ومن كتبه : «نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك» . ومنهم نجم [3] الدين على بن عمر الكاتبى المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفا فى مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب فى المنطق سماه «الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية» وهى مشروحة مرارا . وظل مرصد المراغة مجهزا بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجرى ، وكانت العربية لا تزال فى إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تزاحمها الفارسية حتى ظفرت بها فى الحقب المتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البيمارستانات تُعَدّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء فى القرن الرابع الهجرى على [4] بن العباس المجوسى صاحب الكناش الملكى فى الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى ، وكان يعاصره أبو [5] سهل المسيحى الذى ألف ما يشبه دائرة

---

(١) انظر فى نصير الدين الطوسى وترجمته فوات الوفيات لابن شاكر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٢/٣٠٧ وروضات الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٥/٣٣٩ وبراون ص ٦١٥ وألدوميلى ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .

(٢) راجع فى قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٤/٣٣٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢١٣ وألدوميلى ص ٢٩٨ .

(٣) انظره فى فوات الوفيات ٢/١٣٤ و ألدوميلى ص ٢٧١ .

(٤) راجع ألدوميلى ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها على بن العباس وانظر القفطى ص ٢٣٢ وبروكلمان ٤/٢٩١

(٥) انظر فيه القفطى ص ٤٠٨ وبروكلمان ٤/٢٩٤ .

معارف طبية فى مائة مقالة . ولزين [1] الدين الجرجانى الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها «ذخيرة خوارزم شاه» وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمى قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالى الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر فى هذا العلم موفق [2] بن على الهروى فى القرن الرابع الهجرى ، كما يشتهر فى الكيمياء الطغرائى الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقى مسعود ، وله كتب كثيرة فى الكيمياء [3] ، منها الجوهر النضير فى صناعة الإكسير . وللقزوينى [4] زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف فى التاريخ الطبيعى سمّاه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أن كتاب بطليموس الجغرافى وجَّه العرب منذ الخوارزمى الرياضى محمد بن موسى إلى التأليف فى علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهجا طريفا فى وصف البلدان أن يُعنَوا بالحديث عن عادات الشعوب ، ويَقُصُّوا بعض ماسمعوه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ماسمعه الجغرافى بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . ويلقانا فى القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزرجى مِسْعر بن مهلهل شاعر الكُدْية الذى سنترجم له بين الشعراء الشعبيين ، وعِداده فى شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكى ، وعُنِى الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتى فى الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربى لإيران . وجاء بعده فى القرن الخامس الهجرى رحالة إسماعيلى ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية فى كتابه المسمى «سفرنامه» واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧ - ٤٤٤ هـ .) طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهى تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربى . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون فى المحيطين الهندى والهادى ،

---

(١) راجع فيه ألدوميلى ص ٣٢٠ .

(٢) ألدوميلى ص ٢٣٩ .

(٣) انظر فى نشاط الطغرائى الكيميائى ألدوميلى ص ٢٣٩ .

(٤) راجع فى القزوينى براون (ترجمة الدكتور الشواربى) ص ٦١٢ وألدوميلى ص ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الادب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١ /٣٦٠ .

ووصفوا رحلاتهم فيهما وفى المحيطين وجزرهما وشواطئهما فى آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور. ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب[1] الهند برّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرك بن شهريار الناخُداه أى الربان. ويدل اسمه على أنه إيرانى، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى، وهو يقص فى كتابه قَصَصا بديعا ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندى والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها. وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصصى نفيس.

وربما كان القزوينى زكريا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقب التالية فى العصر، واسم كتابه الجغرافى: «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم فى آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد فى البلدان الإسلامية، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكى كثيراً من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه فى بعض جوانبه شبيها بكتب الأدب الخيالية المسلية.

ولعل فى كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل فى إيران حتى القرن الثامن الهجرى، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم فى حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفا دقيقا، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب يفى بهذه الحاجة، على نحو ما يلقانا عنده فى كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتّبا لها على حروف المعجم ترتيبا دقيقا.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث فى اللغة نشاطا واسعا لهذا العصر، إذ كثر العلماء الايرانيون الذين تصدّوا للمباحث اللغوية، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم، واهتمامهم به قديم، ولذلك

(١) انظر فى هذا الكتاب كراتشكوفسكى ١ / ١٤٣ وكتابنا «الرحلات» طبع دار المعارف ص ٣٣.

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخيل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع فى العربية ، إنما تنشر–كما ذكر صاحب الفهرست–من خراسان . ومعروف أن المعجم الثانى فى العربية الذى ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشر لأول مرة فى إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس ابنَ دُرَيْدٍ من البصرة لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجمهرة ، وكان ترتيب الكلمات فى هذا المعجم–كترتيبها فى معجم العين–على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتى أى من الحلق واللسان والفم والشفتين . وأول معجم عام وضع فى عصر الدول والإمارات الذى نحن بصدده معجم تهذيب اللغة الذى وضعه أبو منصور محمد[1] بن أحمد الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون فى خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورتّب الأزهرى معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض فى مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضحاً مدى الثقة والتّهمة فى أعمالهم . وكان يعاصر الأزهرىَّ عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع فى اللغة معجمه ديوان الأدب الذى نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هى ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم تبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفهما أبو الحسين أحمد[2] بن فارس القزوينى معلم العربية بهَمَذان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : المجمل ومقاييس اللغة ، أما المجمل فمعجم عام رتبه حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد فى كل حرف إلى ثنائى ويشمل المضاعف والمطابق ، ثم ثلاثى ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتتح حديثه فى كل حرف به مع ما يليه . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المجمل ، عُنى فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلا تُرَدّ إليه أو أصلين . وهو فيه أكثر منه فى المجمل

---

(١) انظر فى الأزهرى ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٤/٣٣٤ ومعجم الأدباء ١٧/١٦٤ وشذرات الذهب ٣/٧٢ والسبكى فى طبقاته ٣/٦٣ .

(٢) انظر فى أحمد بن فارس اليتيمة ٣/٤٠٠ ودمية القصر وابن خلكان ١/١١٨ ومعجم الأدباء ٤/٨٠ وإنباه الرواة ١/٩٢ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة ٤/٢١٢ .

عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو فى المجمل أكثر منه فى المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى [1] معاصره المتوفى سنة ٣٩٥ معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهرى فاراب شرقى خراسان ، رحل فى طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر ، ورجع إلى خراسان فنزل فى الدامَغان ثم ألقى عصاه فى نَيْسابور ، وظل بها يدرس ويصنِّف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذى اتبعه خاله الفارابى فى معجمه ديوان الأدب ، وأوتى المعجم من الشهرة والذيوع ما جعل مؤلفات كثيرة تعنى به عند العلماء فى موطنه وفى غيره . ووضع محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى من أهل القرن الثامن الهجرى مختصرا له سماه « مختار الصحاح » ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع فى عصرنا مراراً وتكراراً . وللزمخشرى [2] محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ معجم عام سماه « أساس البلاغة » وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها ، ويعنى ببيان ما جاء فى كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . ونمضى إلى القرن الثامن فنلتقى بالفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى المتوفى سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه فى الفصل الثانى من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون فى الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبى عبيد الهروى المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهرى ، ولم يُعْنَ مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُنى بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين فى لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما . ووضع الزَّوْزَنى [3] الحسين بن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه

---

(١) راجع فى الجوهرى إنباه الرواة ١/ ١٩٤ ومعجم الأدباء ٦/ ١٥١ وشذرات الذهب ٣/ ١٤٢ واليتيمة للثعالبى ٤/ ٤٠٦ ودمية القصر للباخرزى وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٧ .

(٢) انظر فى الزمخشرى ابن خلكان ٥/ ١٦٨ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٣/ ٢٦٥ واللباب ٢/ ٥٠٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٢٦ وطبقات المفسرين للسيوطى ٤١ وشذرات الذهب ٤/ ١١٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٤ وأزهار الرياض ٣/ ٢٨٢ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والجواهر المضية ٢/ ١٦٠ وكتب التاريخ فى سنة وفاته وبراون فى تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ص ٤٥٨ .

(٣) راجع فى الزوزنى إنباه الرواة ١/ ٣٢٠ وبراون ص ٤٤٩ وبروكلمان ٥/ ٢٠٧ .

ترجمان القرآن . وجاء بعده الراغب (١) الأصبهانى الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له فى بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر فى آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشرى المذكور آنفاً معجما لألفاظ الحديث النبوى سماه الفائق فى غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوى نشط علماء اللغة فى إيران فى دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها فى المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا فى هذا الباب حمزة (٢) الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتّهم بشعوبيته لافتخاره بنسبه إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتابا لعضد الدولة البويهى فى الموازنة بين العرب والفرس ، وينفى عنه بروكلمان هذه التّهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم ! . وله فى الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحنف » وسماه الدرة الفاخرة ، وصنع الصاحب المذكور آنفا أمثال المتنبى ، استخرج من شعره الأبيات التى تجرى مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال (٣) العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مُكْرَم فى إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف ، وله فى الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبه على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألفى مثل . وشرحها شرحا وافياً مبيناً مضاربها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهانى فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميدانى (٤) أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يُسْبَقْ إليه ، مع شرحها شرحا مستفيضاً . وخلفه الزمخشرى الذى ذكرناه آنفا فألف معجمه « المستقصى فى الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميدانى . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

---

(١) انظر فى الراغب بغية الوعاة وطبقات المفسرين وتتمة البيهقى ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٥ / ٢٠٩ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) راجع فى حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٣/٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر فى أبى هلال معجم الأدباء ٨/٢٥٨ – ٢٦٧ ومعجم البلدان فى عسكر مكرم وإنباه الرواة للقفطى باب الكنى وبغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١/١١٢ .

(٤) راجع فى الميدانى كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٥/٤٥ والإنباه ١/١٢١ وابن خلكان ١/١٤٨ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠ .

والدقة . ويُدْخل فى هذا النشاط المعجمى بعضُ اللغويين وضعَ معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب فى ترتيب المعرب لناصر[١] المطرِّزى الخوارزمى المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشرى فى وطنه خوارزم . ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التى يستخدمها الفقهاء .

وحاول اللغويون فى إيران أن يضعوا كتبا تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المارّ ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية ، وأهم منه كتاب الصاحبى فى فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد ، وهو أول كتاب منهجى فى موضوع أصل اللغة العربية وخصائصها . واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء ، وتجرّد لذلك أبو أحمد[٢] العسكرى خال أبى هلال ، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب فى هذا الموضوع .

ولم يقتصر نشاط اللغويين فى إيران على كل ما قدمنا . فقد بذلوا جهودا خصبة فى شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبى وشرح الزوزنى المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مرارا ويتداوله الطلاب فى الجامعات العربية . واشتهر التبريزى أبو زكريا يحيى بن على المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح ، تناول فى بعضها الشعر القديم وفى بعضها الشعر المولد ، وقد تحدثنا عن نشاطه فى هذا الاتجاه بين اللغويين فى العراق ، وشرح الزمخشرى بعده لامية العرب للشنفرى ، وشرح المطرزى خليفته مقامات الحريرى .

ونهض اللغويون بمحاولة أخرى هى جمع الأشعار والكلم البليغة ، وألفوا فى ذلك مصنفات مختلفة ، منها ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، وكتاب نثر الدرر لأبى سعيد منصور بن الحسن الآبى[٣] من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى المذكور آنفا وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمخلاة ، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر .

ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة ، وكثير منهم لهم كتب

---

(١) انظر فى المطرزى معجم الأدباء ١٩/ ٢١٢ وإنباه الرواة ٣/ ٣٣٩ وروضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢/ ١٩٠ وابن خلكان ٧/ ٣٦٩ وابن قطلوبغا ص ٧٩ .

(٢) انظر فى أبى أحمد العسكرى ابن خلكان ٢/ ٨٣ ومعجم الأدباء ٨/ ٢٣٣ وإنباه الرواة ١/ ٣١٠ والمنتظم ٧/ ١٩١ .

(٣) راجع فى أبى الحسن الآبى دمية القصر ١/ ٤٦٧ وتتمة اليتيمة ١/ ١٠٠ ومعجم البلدان فى آبه من قرى أصبهان .

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفى بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسى المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مرّ ذكره بين اللغويين فى العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة فى القرن الرابع الهجرى أبو على الفارسى [1] المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رُحَلة فى تدريسه ، فأيام فى شيراز وأيام فى عسكر مُكْرَم بخوزستان وأيام فى كَرْمان ، وأيام أخرى فى بغداد أو فى حلب أو فى الكوفة أو فى دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبية ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عُنى القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكلة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جنى ، وفى كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة فى الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية ، حتى ليخيَّل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التى سجلها ابن جنى فى كتبه إنما استمدها من إملاءات أبى على الفارسى . وهو فى آرائه النحوية ينتصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية ينتصر للكوفيين ، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يُسْبَقْ إليها ، نافذا بذلك إلى المذهب [2] البغدادى الجديد فى النحو الذى كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستى الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذى مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجى فى المنطق ، سماها مقدمة فى النحو . ومن نحاة إيران فى القرن الخامس عبد القاهر الجرجانى وسنفصل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتابا فى النحو سماه العوامل المائة ، عُنى به الشراح طويلاً .

ويأتى بعده الزمخشرى ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصَّل ، وقد جعله فى أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشترك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شُرح هذا الكتاب مرارا ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش فى عشر مجلدات . وهو فى الكتاب

---

(١) انظر فى ترجمة أبى على الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ١/٢٧٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٢٠٦ وتاريخ بغداد ٧/٢٧٥ ومعجم الأدباء ٧/٢٣٢ ولسان الميزان ٢/١٩٥ وشذرات الذهب ٣/٨٨ وابن خلكان ٢/٨٠ ونزهة الألباء ص ٣١٥ وكتاب د. عبد الفتاح شلبى : أبو على الفارسى .

(٢) راجع فى ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو ينتخب آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة[1] . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجى وثبّته بعدهما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرِّزى كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى[2] الإستراباذى نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه فى إستراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُنى بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والشافية فى الصرف ، فشرحهما شرحاً واسعا ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين بغدادى المذهب ، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصِّلا القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكرى الذى عرضنا له آنفا ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكرى احتفظ منها بكثير من بحوثها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلانى فى كتابه إعجاز[3] القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة[4] أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرقات الشعرية ، وباب سابع للتشبيه ، وباب ثامن للسجع والازدواج ، وباب تاسع لفنون البديع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضى عبد الجبار[5] قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣

(٢) راجع فى الرضا كتابنا المذكور ص ٢٨١ .

(٣) انظر كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .

(٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها .

(٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١/١١٣ ولسان الميزان ٣/٣٨٦ والشذرات ٣/٢٠٢ ومرآة الجنان ٣/٢٩ —

وقد عرض فى موسوعته الكلامية «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» لإعجاز القرآن فى الجزء السادس عشر منها . وأدّاه الحديث فى الإعجاز إلى عرض كلام أبى هاشم الجبّائى فى أن المدار فى الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار فى توضيح معنى الفصاحة ، فيقول – كما قال عبد القاهر الجرجانى من بعده – إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، فالكلمة فى نفسها لا تُعَدّ فصيحة ، بل لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها وحركاتها فى الإعراب ومواقعها فى التقديم والتأخير . وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر فى تفسيره للنظم فى كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير فى صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق فى الكلام ، أو بعبارة أدق يريد – كما أراد عبد القاهر – النظام النحوى للكلام . ويمنع عبد الجبار – كما منع عبد القاهر فيما بعد – أن يكون للفظة صفة أدبية فى الكلام من حيث هى لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له فى الفصاحة ، مع أنهما يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية [1] الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجانى [2] المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فبسطها أعظم بسط وفسّرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعانى المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لَدُن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التى يصورها كتاب دلائل [3] الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعانى وضع علم البيان وضعا نهائيا فى كتابه [4] أسرار البلاغة ، وضمه بتشبيهاته وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية ومجازاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشرى فيطبق فى تفسيره الكشاف مباحثه فى علمى المعانى والبيان تطبيقا حيا خصبا مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات [5] بارعة ، سواء فى

= وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى ٦٦ وميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ والسبكى ٥/٩٧ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .

(١) راجع فى تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر فى عبد القاهر إنباه الرواة ٢/١٨٨ ودمية القصر ٢/١٧ والسبكى ٥/١٤٩ وروضات الجنات ١٤٣ وشذرات الذهب ٣/ ٣٤٠ ومرآة الجنان ٣/ ١٠١ وفوات الوفيات ١/٦١٢.

(٣) انظر فى عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠ – ١٨٩ .

(٤) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور والتاريخ ١٩٠ – ٢١٨ .

(٥) راجع فى هذه الإضافات الكتاب السالف ص ٢١٩ – ٢٧٠ .

المعانى الإضافية التى يصورها علم المعانى عند عبد القاهر أو فى فنون البيان التى يصورها أيضاً عبدالقاهر . وعُنى ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظير والتقسيم والاستطراد والتجريد .

وتتحول البلاغة بعد الزمخشرى وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة ، وأهم من دفَعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر [1] الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل فى دراسة الفلسفة والعلوم الدينية ، وطاف بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هَراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز فى تآليفه الكثيرة بالقدرة على تشعيب الأفكار وتقسيمها وتفريعها ، يمده فى ذلك عقل متفلسف ، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة ، وله كتب مختلفة فى التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام . ويهمنا كتابه فى البلاغة الذى سماه : «كتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» وهو يعلن فى مقدمته [2] أنه سينظِّم ما كتبه عبدالقاهر فى مصنفيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وينوه بصنيعه قائلاً . « ولما وفقنى الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير فى التقرير ، وضَبطتُ أوابد الإجمالات فى كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمعتُ متفرقات الكلم فى الضوابط العقلية ، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل» . وكأنه يعرِّفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلا لا حياة فيه فقد ألقتْ فيها السموم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة . ولم تنفعه إضافات الزمخشرى فقد بثَّ فيها نفس السموم . وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذى وضعه بالفارسية وسماه «حدائق السحر فى دقائق الشعر» . ما ذكره فيه من ألوان البديع ، وأسعفه فى هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر فى كتابه من الأدبين الفارسى والعربى . ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازى من الجفاف الشديد .

ويخلفه السكاكى [3] سراج الدين يوسف بن محمد بن على المولود فى خوارزم سنة

---

(١) انظر فى الفخر الرازى ابن خلكان ٤/٢٤٨ وطبقات السبكى (طبعة عيسى الحلبى) ٨/٨١ وطبقات المفسرين ٣٩ والوافى للصفدى ٤/٢٤٨ وتاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٢١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٥ / ٢١ .

(٢) راجع فى تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٢٧٥ .

(٣) انظر فى السكاكى معجم الأدباء ٢٠/ ٥٩ والجواهر المضية ٢/ ٢٢٥ والفوائد البهية فى تراجم الحنفية للكنوى ص ٣٠١ وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٨١ وشذرات الذهب ٥/ ١٢٢

●●● وقد مضى يعبُّ فى موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظل يعلِّم ويلقى محاضراته إلى أن توفى سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكى بتأليفه فى البلاغة كتابه «المفتاح» وقد جعله فى ثلاثة أقسام (١) : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثان لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما ذيلا تناول فيه مبحثا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثاً ثانياً لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقدَّم لعلوم البلاغة بمبحث واسع فى علم المنطق ، وتلاه بمبحث فى علمى العروض والقوافى ، وبذلك تضمَّن المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ماكُتب فيه عن علوم البلاغة ملخَّصاً ، إذ الكتاب أشبه بمتْن فى كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو متّن استصفاه فيه بالفخر الرازى قبله ، مع تفوقه عليه فى الدقة وضبط الأقسام ، غير أنه يخلو خلوًّا تاماً من تحليلات عبد القاهر والزمخشرى ، ويصبح الكتاب متنا لعلوم البلاغة يُحْصى قوانيها وقواعدها ، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس ، إذ وُضعت تلك القواعد والقوانين فى قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهى قوالب يداخلها غير قليل من الالتواء بسبب كثرة التقسيمات ، مما جعل الكتاب أو قل المتْن فى حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازى وقد تقدَّم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد (٢) الدين مسعود بن عمر التفتازانى المولود فى تفتازان شرق إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفى سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة فى المنطق والنحو . وممن شرح «المفتاح» السيد الشريف (٣) الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذى مر بنا ذكره ، وله أيضاً تأليفات كثيرة فى المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزوينى خطيب جامع دمشق فى سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتْن موجزاً أشد الإيجاز . فتصدَّى له سعد الدين مسعود التفتازانى بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجانى بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة فى إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التى يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشى عليه .

---

(١) انظر فى تحليل المفتاح كتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع فى ترجمة السعد التفتازانى روضات الجنات ص ٣٠٩ والبدر الطالع للشوكانى ٢ / ٣٠٣ والفوائد البهية ص ١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٣/٢٣ - ٨٧ .

(٣) انظر فى ترجمة السيد الشريف حبيب السير لخواندمير ٣/٣ ، ٨٧ والبدر الطالع ١/٤٨٨ وبغية الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية .

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية فى إيران نشطت المباحث النقدية فى هذا العصر ، وأول ما يلقانا منها رسالة الصاحب بن عباد فى الكشف عن مساوى المتنبى ، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا ، وقد يُرَدّ سخطه إلى عامل شخصى هو أن المتنبى أبى أن يمدحه ، وأهم مساوى المتنبى فى رأيه الغموض فى أشعاره على طريقة الصوفيين فى عباراتهم الموهمة ، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة فى الغرابة ، ورداءة المطالع كما يقول ، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة ، والنظم على القوافى الصعبة . ويلقانا فى خراسان لعصر نوح بن منصور السامانى (٣٦٦ – ٣٨٧ هـ .) راوية للمتنبى يسمى المتيم [1] وله فيه وفى شعره كتاب الانتصار المنبى عن فضل المتنبى وهو من الكتب المفقودة . وكان المتنبى قد شغل الناس فى إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل فى شعره ، فألف على [2] بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وكان من قضاة الدولة البويهية فى إيران ، فرأى أن يعرض شعر المتنبى على موازين القضاء العادل ، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغى أن لا يُحْكَم على الشاعر بما أساء فيه ، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته ، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جوَّد فيه ، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين فى معانيهم وألفاظهم ، ليبين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يَخْلُ شعره من هذه الأغلاط ، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره ، ويفيض فى بيان الحسن والقبيح عند الشعراء وخاصة عند أبى نواس وأبى تمام . ويلمُّ بطائفة من أبيات المتنبى التى أُخذت عليه لبعد فى الاستعارة أو غرابة فى اللفظ أو تعقيد فى الكلام . ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبى قليل . ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تخلصه ومعانيه الدقيقة ، ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبينا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا . ولعلى بن عبد العزيز فى ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة ، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة فى الشعر ، ومنها ما يتصل بأثر البيئة فى الشعر والشعراء ، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات [2] . ويأتى بعده الثعالبى [3] المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد فى كتابه اليتيمة فصلا طويلا عن المتنبى فيما له وما عليه ، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة ، وقد استهله بقوله عنه : «نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر فى صناعة

(١) انظر فى المتيم اليتيمة ٤/١٥٧ ومعجم الأدباء ٤/٢٤٤ وفوات الوفيات ١/١٣٣ .

(٢) انظر فى تحليل الوساطة كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء .

(٣) راجع فى الثعالبى دمية القصر وابن خلكان ٣/١٧٨ وعبر الذهبى ٣/١٧٢ وشذرات الذهب ٣/٢٤٦ ونزهة الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ ومرآة الجنان ٣/٥٣ ومعاهد التنصيص ٣/٢٦٦ .

الشعر، ويبدأ بنبذ عن ابتداء أمر المتنبى، ويورد بعض أخباره، ثم يعرض طائفة من معانيه التى استظهرها عِلّية الكتاب فى عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبى إسحق الصابئ وأبى العباس الضَّبِّى والخْوارزمى، كما يعرض طائفة من المعانى التى سرقها الشعراء منه من أمثال أبى الفرج الببَّغاء والمهلبى الوزير والصاحب بن عباد والسَّرِىّ الرفَّاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبى، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمى وأبا الفتح البستى وأبا الحسن السلامى وأبا القاسم الزعفرانى. ويعرض لبعض سرقات المتنبى من غيره وما تكرر من معانيه، ثم يسترسل فى بيان مساوى شعره مستضيئا فى ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد فى رسالته آنفة الذكر، ثم يفيض فى بيان محاسن شعره، مشيدا بنسيبه بالأعرابيات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق، واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب فى أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعانى. وكان يعاصر الثعالبى ناقد يسمى أبا القاسم (١) عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى عاش فى النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس، وقد ألف كتابا نُشر أخيرا فى تونس سماه الواضح فى مشكلات شعر المتنبى، ذكر فى مقدمته نبذة عن المتنبى عرض فيها لنشأته فى الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين، ورماه فى هذه المقدمة بخبث الاعتقاد، وقال إنه وقع فى صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوّسه وأضلّه. ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه، وأن له النادر البِدْع، وفى بعض ألفاظه تعقيد وتعويص. ثم أخذ يناقش ابن جِنّى فى كثير من تفسير شعره مرتبا الأبيات التى ناقشها على الحروف الهجائية، وهو يدل فى نقاشه على قدرة فى فهم الشعر وتحليل معانيه. وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبى:

أأحبُّه وأحبُّ فيه ملامةً   إن الملامةَ فيه من أعدائهِ

وذكر أن ابن جنى زعم أنه ناقض بذلك أبا الشِّيص فى قوله:

أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً   حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

ويعلق على ذلك بقوله: معنى المتنبى بخلاف قول أبى الشيص، وإنما يريد المتنبى: إنى أحب حبيبى واللوّام ينهون عنه فكيف نأتلف، وأبو الشيص يريد بقوله: أحب اللوم لا لنهىٍ عن هواك بل لتكرر ذكرك فى تضاعيف الكلام وأثناء الملام. ومضى الأصفهانى على هذا النحو يرد على ابن جنى بعض تفسيراته لشعر المتنبى حتى نهاية الكتاب. وعُنى بالرد

(١) انظره فى خزانة الأدب ١ / ٣٨٢

على تفسيرات ابن جنى إيرانىٌ ثان هو أبو على بن فُورَّجَة[1] البُروجِرْدِىّ المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب فى ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبى الفتح لابن جنى يقصد كتابه الفتح الوهبى على مشكلات المتنبى وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجه كتاب ثان فى الرد على ابن جنى سمّاه كتاب التجنى على ابن جنى ، والأبيات فى كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جنى ، وفيه أيضاً ردود على القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى وساطته وأبى على الحاتمى فى رسالته الحاتمية والصاحب بن عباد فى كشفه عن مساوئ المتنبى ، وهو يغلظ – كما لاحظ الدكتور غياض – فى ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنياً ! وفيه يقول : «ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوى العقول يذم المتنبى غير هذا الظالم» . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة فى الكتاب وسوّقه لكلامه أنه من أنصار المتنبى وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطّلع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :

وإنى لمن قومٍ كأنَّ نفوسَنا بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

فقد لاحظ أن المتنبى فى فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما فى البيت أو ضمير المخاطب . ثم قال إن ابن جنى سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : «وقد استقريت شعره كله فوجدته لا يتزل عن هذا المذهب فى كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميرا فى ذمٍّ ردَّه إلى الكلام الأول تفاديا أن يخاطب به مواجها أو يرده إلى نفسه مخبرا (أى أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائما مدافعا عن المتنبى وخاصة أمام الصاحب كما قدمنا فإنه ينصُّ على بعض سيئاته ، فيقول فى قصيدته «مُلِثَّ القطر أعطشْها رُبوعا» هذه القصيدة كلها من الشعر الرَّذْل الذى لا يُنْتَفع به ولا بتفسيره . وحرى بنا أن نذكر تتمة لهذا النشاط النقدى الذى عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبى شرح على بن أحمد الواحدى الذى مرّ ذكره[2] لديوان المتنبى ، وقد أُلّفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخيا على حياة المتنبى وأيامه ، وهو ما لم يتح لديوان

---

(١) انظر فى ابن فورجة تتمة اليتيمة ١ / ١٢٣ ومعجم الأدباء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه الرواة ١ / ٣٣٤ وما به من مراجع .

(٢) راجع فى الواحدى دمية القصر ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٥٧ وإنباه الرواة ٢ / ٢٢٣ والسبكى ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة ، بحيث أصبح الديوان مُعَدًّا لكى يستغله الباحثون فى كتابة ترجمة حياة المتنبى على نحو ما صنع بلاشير وطه حسين . وفى الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة فى الأبيات الغامضة التى يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبى جيد .

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران فى تفسير القرآن الكريم ، وانضحت فيه اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشرى ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالى فالآيات الكريمة توجَّه مع فكرة الحرية والاختيار فى أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد فى السحر والكهانة[1] . ويقف الفخر الرازى المار ذكره آنفاً بعده فى الصف المقابل فيدفع فى تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متفلسفا إلى أبعد حد ، وهى فلسفة تظهر فى تفسيره بصور كثيرة ، حين يخوض فى المباحث العقلية ، وحين نرى المسألة عنده تتشعب شعبا كثيرة . وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تتفرع منها فروع ، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعرى العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة فى تفسيره ، وتعقب المعتزلة كما قلنا مُعْليا عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعرى السُّنّى . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازى تفسير البيضاوى[2] عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشرى وتفسيره ، كما يعتمد على الرازى وغيره من المفسرين ، وهو لا يُنْحى فى تفسيره باللائمة – كما يصنع الزمخشرى – على أهل السنة ، وجاء بعده فى هذا الاتجاه أبو البركات النسفى[3] المذكور بين فقهاء الأحناف فى قسم العراق وقد سمى تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

---

(١) انظر فى تأثر الزمخشرى بالاعتزال فى تفسيره كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن لجولد تسيهر ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

(٢) راجع فى البيضاوى السبكى ١٥٧/٨ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ومرآة الجنان ٢٢٠/٤ .

(٣) انظر فى النسفىّ الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ واللكنوى ١٠١ ودائرة المعارف الإسلامية .

وهذا الاتجاه فى التفسير كان يرافقه اتجاه شيعى فى بيئات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن على العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم ، ومن مفسريهم فى أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السُّلمى رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفاسيرهم فى هذا العصر تفسير الطوسى أبى جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ فى طوس ، ثم رحل إلى العراق فى الثالثة والعشرين من عمره ، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه فى القسم الخاص بالعراق . ونلتقى بتفسير الطبرسى[1] أبى على الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسى نسبة إلى طبرستان ، وقد سمى تفسيره مجمع البيان . وهو فى ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفى فمن التفاسير فيه تفسير أبى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ وسماه « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيرى الذى مر ذكره فى حديثنا عن التصوف ، وهو فى تفسيره كعقيدته صوفى سنى ، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلجُّ فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله فى هذا الاتجاه الغزالى فى بعض ما يعرض له من آى الذكر الحكيم ، ولأخيه أبى الفتح أحمد بن محمد الغزّالى الواعظ المذكور بين المفسرين فى العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفاسير العامة تفسير أبى الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ وسماه « بحر العلوم » وتفسير الثعلبى[2] النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدى المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبى ثلاثة تفاسير : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب النزول » واختصر الفرّاء البغوى الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبى وسَمّى مختصره « معالم التنزيل » . ولنظام[3] الدين بن الحسن النيسابورى المتوفى فى أواسط القرن التاسع الهجرى تفسير سماه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازى ويهتم فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضا فى إيران لهذا العصر ، ومرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ما يصور مدى نهضته فى هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخارى وصحيح مسلم

---

(١) انظر فى الطبرسى روضات الجنات ص٥١٢ ومقدمة تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع .

(٢) راجع فى الثعلبى معجم الادباء ٥ /٣٦ وطبقات المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١ /١٠٠ وابن خلكان ١ /٧٩ وإنباه الرواة ١ / ١١٩ وروضات الجنات ٦٨ والسبكى ٤ /٥٨ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٨٣

(٣) انظره فى روضات الجنات ص ٢٢٥.

وسنن النسائى وابن ماجه القزوينى وجامع الترمذى ، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبى داود السجستانى ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوى من صُنْع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يؤتى ثمارا جديدة فى القرون التالية . وأول من نلقاه من كبار المحدثين فى العصر محمد[1] بن أحمد بن حِبّان البُسْتى السجستانى قاضى سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه «الجرح والتعديل» فى نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُمْلى مصنفاته فى الحديث وتُقْرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان[2] الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل فى الجرح والتعديل أوكتاب الكامل فى معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفهما ابن مَنْده[3] الأصبهانى محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا فى طلب الحديث وله مسند أبى حنيفة وكتب فى الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد[4] بن محمد الخطّابى البُسْتى المتوفى سنة ٣٨٦ وألف فى نقد الحديث كتبا منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخارى ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهى : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابورى[5] المعروف باسم ابن البَيِّع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذى جعل أصول الحديث النبوى علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخارى يوفدونه فى سفاراتهم إلى بنى بويه ، وله كتاب المستدرك على الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التى لم يُدْخلاها فى صحيحيهما مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطهما ، والكتاب مطبوع فى حيدرآباد ، مع تعليقات فى الرد على مؤلفه للذهبى . وكان يعاصره ابن فُورك[6] محمد بن الحسن الأصبهانى محدث نيسابور ونزيل غَزْنه المتوفى بها

---

(١) انظر فى ابن حبان الأنساب ٨١ والوافى بالوفيات ٢ /٣١٧ وتذكرة الحفاظ ٣ /١٢٥ والسبكى٣ /١٣١ وميزان الاعتدال ٣ /٥٠٧ وشذرات الذهب ٣ /١٦ ولسان الميزان ٥ /١١٢

(٢) راجع فى ابن القطان تذكرة الحفاظ ٣ /١٤٣ وميزان الاعتدال ١ /٢ ولسان الميزان لابن حجر ١ /٦ وشذرات الذهب ٣ /٥١ .

(٣) راجع فى ابن منده أخبار أصبهان لأبى نعيم ٢ /٣٠٦ وتذكرة الحفاظ ٣ /٢٢٨ ولسان الميزان ٥ /٧٠ .

(٤) انظر فى الخطابى السبكى ٣ /٢٨٢ وإنباه الرواة ١ /١٢٥ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومعجم الأدباء ١٠ /٢٦٨ وابن خلكان ٢ /٢١٤ وتذكرة الحفاظ ويتيمة الدهر ٤ /٣٣٤ .

(٥) راجع فى الحاكم النيسابورى الأنساب ٩٩ ب والسبكى ٤ /١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣ /٢٢٧ وطبقات القراء ٢ /١٨٤ ولسان الميزان ٥ /٢٣٢ والمنتظم ٧ /٢٧٤ وتاريخ بغداد ٥ /٤٧٣ واللباب ٢ /٩٥ وابن خلكان ٤ /٢٨٠

(٦) انظر فى ابن فورك السبكى ٤ /١٢٧ والوافى ٢ /٣٤٤ وابن خلكان ٤ /٢٧٢ والشذرات ٣ /١٨١ والنجوم الزاهرة ٤ /٢٤٠ .

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكِرامية وله كتب كثيرة فى الحديث والفقه الحنفى ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتَب مصنفات أخرى فى نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسِّمة . ومن كبار المحدثين التالين أبو إسحق الإسفرايينى المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهانى المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة « حلية الأولياء » والبيْهقى [1] أبو بكر احمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور ، وبها كان يملى كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث فى عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفرّاء البَغَوى [2] المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة فى الحديث والفقه الشافعى وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوّبه وقسم الأحاديث فى كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيحى البخارى ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده فى القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا فى رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين فى المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران فى القرون التالية .

ولم يكن النشاط فى علم الفقه أقل منه فى علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلى شائعا فى إيران ولا فى أى إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة فى هراة وهمذان [3] من مثل أبى إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة [4] وربما كان المذهب المالكى أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوى الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع وكان شافعيا كان ينزل الرَّىّ ، فصار مالكيا ، كما يقول ياقوت فى ترجمته بمعجم الأدباء ، فسُئل فى

---

(١) راجع فى البيهقى تذكرة الحفاظ ٣/٣٠٩ واللباب ١/١٦٥ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/٧٥ والسبكى ٤/٨

(٢) انظر فى البغوى السبكى ٧/ ٧٥ وابن خلكان ٢/١٣٦ وتهذيب ابن عساكر ٤/٣٤٥ وتذكرة الحفاظ ٤/١٢٥٧ وشذرات الذهب ٤/٤٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٣

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١ .

(٤) السبكى ٤/٢٧٢

ذلك ، فقال : دخلتني الحمية لهذه البلدة ، يقصد مدينة الرى ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهرى أكثر اتباعا فى إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعى ومذهب أبى حنيفة .

وكان لمذهب الشافعى الغلبة وخاصة فى شرقى إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر [١] القفال المعروف بالشاشى والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذى نشر مذهب الشافعى فى تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسى أنه كان غالبا أيضا فى كرّمان [٢] ، وعملت مؤثرات سياسية فى نشره بل فى ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعياً أشعرياً عدوًّا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس ،كما مر بنا ، مدارس فى جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورَصَد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكتبات بها ولمساكن الأساتذة ورواتبهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة فى عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبيعيا أن يزدهر المذهب الشافعى فى إيران ازدهارا عظيما وأن يتألق فى دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون فى الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتْيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد فى الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعى تطورا عظيما . ومن أهم من نلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو [٣] إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعى بنظامية بغداد كما مرّ فى قسم العراق ، وكان يقابله فى نظامية نيسابور إمام الحرمين الجُوَيْنىّ [٤] عبد الملك أبو المعالى إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا فى غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعمائة تلميذ ، ورُزق من التوسع فى العبارة وعلوها مالم يُعْهَد من غيره ، ولهُ بنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقى محاضراته ، وسُلِّم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية فى الفقه الشافعى والشامل ، والبرهان فى أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالى وأجل تلاميذه بعده إلْكِيا الهَرَّاسى [٥]

---

(١) انظر فى ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٣/٤٦ وعبر الذهبى ٢/٣٣٨ والوافى ٤/١١٢ وشذرات الذهب ٣/٢٠٧ والسبكى ٣/٢٠٠

(٢) المقدسى ص ٤٦٨

(٣) انظر فى ترجمة أبى إسحق الشيرازى السبكى ٤/٢١٥ والمنتظم ٩/٧ واللباب ٢/٢٣٢ والأنساب ٤٣٥ب وشذرات الذهب ٣/٣٤٩ وابن خلكان ١/٢٩

(٤) راجع فى الجوينى الأنساب الورقة ١٤٤ والمنتظم ٩/١٨ وابن خلكان ٣/١٦٧ والسبكى ٥/١٦٥ والعقد الثمين ٥/٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/٣٥٨ .

(٥) مرّت مصادر ترجمته بين المفسرين فى العراق .

على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو المحاسن الروياني [1] عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيدا على أيدى الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر فى الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافى ، وصنف فى الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن السادس فخر الدين الرازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له فى البلاغة ، وله كتب كثيرة فى علم الكلام وفى الحكمة وفى الطب ، يقول ابن خلكان : « انتشرت تصانيفه فى البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله فى الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره فى هراة . وبها توفى ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى [2] المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً فى التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه — كما يقول السبكى — عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحرر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير المسمى بالعزيز فى شرح كتاب الوجيز للغزالى ، واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى وحواشيه التى أُلِّفت بعده فى مصر وغير مصر .

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم فى القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصّاص الرازى الذى سبق ذكره فى قسم العراق ومثله مرَّ هناك أبو زيد الدَّبُّوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة فى أصول الفقه . ومنهم البَزْدَوىّ [3] على بن محمد بن عبد الكريم السَّمَرْقَنْدِىّ المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط فى الفقه وكتب مختلفة فى علم

(١) انظر فى الروياني كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمنتظم ٩/١٦٠ وابن خلكان ٣/١٩٨ والسبكى ٧/١٩٣ والنجوم الزاهرة ٥/١٩٧

(٢) انظر فى الرافعى تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٦٤ وشذرات الذهب ٥/١٠٨ وفوات الوفيات ٢/٧ والسبكى ٨/٢٨١ ومراة الجنان ٤/٥٦ .

(٣) انظر البزدوى فى الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص ١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلوبغا ص ٤١ والأنساب ٧٨

الأصول والتفسير . ومنهم السرخسى (١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلما مناظرا أصوليا مجتهدا وله كتاب المبسوط فى أحد عشر مجلدا ، وهو أشبه بدائرة معارف فى الفقه الحنفى ، ومنهم برهان (٢) الدين أبو الحسن الفَرْغَانىّ المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية فى مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفى ، وعليه حواشٍ عدة . ومنهم العميدى (٣) السَّمَرْقَنْدى أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماما فى فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدى الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفى المذكور بين المفسرين والذى مر ذكره بين فقهاء الأحناف فى قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذى يتداوله علماء المذهب الحنفى والذى سماه كنز الدقائق ، وله طبعات كثيرة فى الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشُّرّاح للكتب فى القرون التالية . ولابد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا فى علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافا ولهم مشاركة فى تأليف مصنفات الفقه الحنفى مثل الزمخشرى وناصر المطرزى ونصير الدين الطوسى .

وكان للشيعة بإيران فقهاؤهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الهارونى (٤) أحمد بن الحسين البطحانى المتوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية بجيلانَ وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدى فى التضاؤل أمام المذهب الإمامى الاثنى عشرى حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلى ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية فى منتصف القرن السابع الهجرى قضاء نهائيا ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلى كانوا يتركون – فى عهد الدولة الفاطمية – موطنهم فى إيران وينزلون القاهرة وتذيع منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن يُنْسَبوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ماصنع حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى المتوفى حوالى سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامى فهو الذى كتب له أن يذيع وينتشر فى إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمى للدولة ، ومن فقهائه المبكرين الذين عملوا على تأسيسه فى إيران أبو جعفر القمى المتوفى سنة ٢٩٠ والكلينى الرازى المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافى

---

(١) راجع فى السرخسى الجواهر المضية والفوائد البهية ص ١٥٨ وابن قطلو بغا رقم ١٥٧

(٢) انظر فى الفرغانى الفوائد البهية ص ٤١ والجواهر المضية ١/٣٨٣ وابن قطلو بغا ص ٤٢ وبروكلمان ٦/٣٠٩

(٣) راجع ترجمة العميدى فى الفوائد البهية والجواهر المضية ٢/١٢٨ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٤/٢٥٧ والوافى ١/٢٨٠ والشذرات ٥/٦٤

(٤) انظره فى بروكلمان (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ٣/٣٣٣ .

أهمية كبيرة ، ويعد - كما مرّبنا فى قسم العراق - رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمى نزيل بغداد المذكور فى قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مر بنا رئيس الشيعة فى مدينة قُم مركز المذهب الإمامى ، وبابن بابوَيْه استعان ركن الدولة بن بُوَيْه فى استخدام تعاليم الإمامية فى تدبير سياسته ، وفى ذلك دليل يُضَمّ إلى ماقدمناه من أدلة فى غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمالى واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى وقد تحدثنا عنه فى القسم الثانى الخاص بالعراق .

ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضى عبد الجبار قاضى قضاة البويهيين فى الرىّ المار ذكره فى المباحث البلاغية ، وله كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة فى الاعتزال وأصوله ، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشرى ومر بنا أنه أخذ نفسه فى تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكيم توجيها اعتزاليا ، أساسه تأويل كل الآيات التى قد يفيد ظاهرها تشبيها ، وكذلك توجيه الأخرى التى قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة فى أفعال العباد . وقد عُنِى الشيعة دائما بالاعتزال وعدّوه مؤيدا لهم فى دعواتهم الشيعية ، ولعل ذلك ماساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهلُ السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى ليَصِمونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ينفصل - كما مر بنا فى العصر العباسى الثانى - أبو الحسن الأشعرى عن المعتزلة ، وكان قد تتلمذ لهم ، ويكوّن لنفسه مذهبا جديدا يسمى المذهب الأشعرى ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدّمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوى . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرنُ فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلا تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به ، كما أخذ يقول أهل السنة فى أن الله يُرى بالأبصار يوم القيامة ، واستدل على ذلك بأدلة سمعية فى كتابه الإبانة وبأدلة عقلية فى كتابه اللمع . وكان

المعتزلة يحتكمون دائما فى الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة فى فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كَسْبا وإرادة ، فالإنسان يريدها والله يخلقها . وقال ، فى مسألة خلق القرآن التى أحدثت فتنة بين المحدِّثين وللمعتزلة فى زمن المأمون وللمعتصم والواثق ، إن الألفاظ المنزلة بالوحى دلالات على الكلام الأزلى والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هى عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولاهى أحوال كما قال أبو هاشم الجُبَّائى المعتزلى وإنما هى زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا فى الحديث عن مذهب الأشعرى لأنه المذهب الذى ساد طوال هذا العصر فى أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعى – كما مر بنا – منتشرا فى شرقى إيران ، وكان أصحابه جميعا أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامى وبالمثل لقرينه المذهب الشافعى كراسى فى جميع المدارس التى أنشأها –كما مر بنا – فى إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهارا عظيما ، وانتصر فعلا على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعا ، إذ أصبح المذهب الرسمى آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجوينى الذى ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمى الكلام والفقه الشافعى وبُنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستانى يشرح على لسانه رأيه المتوسط فى أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نفى هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يأباه العقل والحس ، وأيضاً إثباتُ قدرةٍ لا أثر لها بوجه كَنَفْى القدرة أصلا . . فلابد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب ، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى على الإطلاق ، فإن كل سبب مهما استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذى لا حاجة له [1] . وخلف الجوينى تلميذه الغزالى ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا فى إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى (طبعة مصطفى البابى الحلبى وتحقيق الكيلانى) ١ /٩٨

مذهب الأشعرى مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعَلَمٍ من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدى[١] محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التى توجبه هى العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هى الشرع الذى يحتم علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً فى مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرى إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلى . وبينما كان المذهب الأشعرى يسود فى نيسابور كان المذهب الماتريدى يسود فى بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفى فى الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعرى ، ومعروف أنهم كانوا يَغْلُون فى التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعرى تعلو حتى فى بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة فى عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر ، حتى فى نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قبل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندرى حسَّن لسلطانه طُغْرُلْبَك السلجوقى أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزلهم عن الخطابة ، ونشبت بذلك فتنة[٢] فى نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قُتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعرى منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية فى الأخذ بفكرة التأويل المجازى للآيات والأحاديث التى قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها ، ومعروف أن الأشعرى كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما فى قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) إن ذلك يُفْهَمُ ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتنزيه الله عن التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

---

(١) انظر فى ترجمة الماتريدى الأنساب للسمعانى ٤٩٨ والفوائد البهية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ١٣٠/٢ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدى ١٥/٢ ونشر له الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد الذى يصور مذهبه الكلامى ، وهو كتاب نفيس .

(٢) راجع فى هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكى ٣٨٩/٣ و ترجمات عبد الكريم القشيرى والجوينى وأبى سهل بن الموفق .

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة ، فهي ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضا توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يختفى فى القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وأُلِّفت فى ذلك كلّه كتب كثيرة ، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحكى جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستانى المؤلف فى القرن السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين[1] الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية فى إيران كما تنوعت فى كل بلد عربى ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أن أكبر مؤرخى الأمم والدول فى الإسلام كان مؤرخا إيرانيا هو الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من يلقانا فى هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر[2] بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانيا كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ فى مدينة بُست شرقى إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيرانى هو حمزة الأصفهانى المتوفى سنة ٣٦٠ ومرينا حديث عنه فى عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية ، وله تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . ويلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له فى القسم الثانى الخاص بالعراق .

وكان فى عصره المرعشى المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوى كتاب الغرر فى سير الملوك وأخبارهم ، عُنى فيه بِسِيَرِ ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره.

---

(١) انظر فى عضد الدين السبكى ١٠/٤٦ والدرر لابن حجر ٢/٤٢٩ والبدر الطالع ١/٣٢٦ والشذرات ٦/١٧٤ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) انظره فى بروكلمان ٣/٦٢

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب «الآثار الباقية من القرون الخالية» للبيرونى كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية، وكان حرّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيّف العرب فى أحكامه، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية. وهو يدعو فى هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المغرقة فى القدم لما يشوبها من أساطير. ويفوق هذا الكتابَ فى التاريخ العام أهمية كتابُه تحقيق ما للهند من مقولة الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبها. وكان يعاصره العُتْبى[1] محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذى ألفه فى الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوى وقد فصّل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكين وحروبها، وخاصة حروب محمود فى الهند، وسماه اليمينى نسبة إلى لقبه: يمين الدولة الذى منحه له الخليفة تكريما، وألفه فى لغة مسجوعة منمقة، حتى عدّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم «الفتح الوهبى على تاريخ أبى النصر العتبى». وعُنى محمد بن حسين البيهقى المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين، غير أن الكتاب فُقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوى، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودى، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثا إلى العربية وطبع فى مصر باسم تاريخ البيهقى. وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتابا فى تاريخ الدولة السلجوقية، وعليه اعتمد العماد[2] الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فى كتابه عن السلاجقة الذى سماه «نُصْرة الفِطْرة وعصرة القَطْرة». ويدخل فى هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عَرَبْشاه[3] المتوفى سنة ٨٥٤: «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مرارا بمصر وفى أوربا، وحقا ابن عربشاه ولد فى دمشق، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول فى التركستان، وتلقى العلم على الشيوخ هناك، فرباه بإيران، وتولى ديوان الإنشاء هناك، وكانت تصدر

---

(١) انظر مصادر ترجمة العتبى فى الفصل الأخير من هذا القسم.

(٢) راجع فى العماد معجم الأدباء ١٨ /١١ والشذرات ٤ /٣٣٢ وابن خلكان ٥ /١٤٧ وذيل الروضتين لأبى شامة ص ٢٧ والوافى ١ /١٣٣ والسبكى ٦ /١٧٨.

(٣) انظر فى ابن عربشاه الضوء اللامع ٢ /١٢٦ والشذرات ٧ /٢٨٠ والبدر الطالع ١ /١٠٩

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين فى إيران كتب كثيرة خَصُّوا بها البلدان عارضين علماءها عرضا واسعا ، فهى من جهة تاريخ علمى لبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمى لعلمائها النابهين ، ومن السابقين إلى صنع ذلك فى العصر العباسى الثانى ابن منده محمد[1] بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ، فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا فى هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبى بكر محمد بن جعفر النرشخى المتوفى سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر السامانى ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤ وأكمله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر فى باريس . وجاء بعد النرشخى الحاكم النيسابورى الذى مر بنا ذكره بين المحدثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ علماء نيسابور ، ويقول السبكى فى طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف الحسن[2] بن محمد القمى المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع فى طهران . ويؤلف أبو نعيم[3] المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ أصبهان ويقول ابن خلكان فى ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه . ومن كتب القرن الخامس تاريخ الرىّ لأبى سعد الآبى صاحب نثر الدرر الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع . ونلتقى فى القرن السادس بتاريخ مرو للسمعانى[4] المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا وأبيورد للأبيوردى الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُنيت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر فى مقدمة تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن[5] السُّلمى النيسابورى المذكور بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدّم معلومات دقيقة فى عبارات موجزة عن الصوفى الذى يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار . وأوسع منه

---

(١) ابن خلكان ٤/٢٨٩ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ والشذرات ٢/٢٣٤

(٢) انظر فى القمى بروكلمان (الترجمة العربية) ٣/٢٩

(٣) انظر فى أبى نعيم السبكى ٤/١٨ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٧٥ وشذرات الذهب ٣/٢٤٥ والمنتظم ٨/١٠٠ وميزان الاعتدال ١/١١١ وطبقات القراء ١/٧١ وابن خلكان ١/٩١ والعبر ٣/١٧٠ .

(٤) راجع فى السمعانى المنتظم ١٠/٢٢٤ وابن خلكان ٣/٢٠٩ وشذرات الذهب ٤/٢٠٥ ومرآة الجنان ٤/٣٧١ والسبكى ٧/١٨٠ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٤/١٣١٦

(٥) انظر فى السلمى السبكى ٤/١٤٣ وتاريخ بغداد ٢/٢٤٨ واللباب ١/٥٥٤ والمنتظم ٨/٦ وتذكرة الحفاظ وشذرات الذهب ٣/١٩٦ وميزان الاعتدال ٣/٥٢٣

فى طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبى نُعَيم صاحب تاريخ أصبهان الذى ذكرناه آنفا ، وترجماته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى[1] المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمَّى تتمة صوان الحكمة ، ونشر فى مصر بالاسم الأول وفى لاهور بالاسم الثانى .

واهم كتب التراجم التى عنيت بالشعراء كتاب الأغانى لأبى الفرج[2] الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع فى نحـــــو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للنابهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإســـــلام ، ولم يترجم لأنبه الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضا لأنبه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . وعادة يذكر صوتا أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغانى ، ويتلو الأغنية دائما برقيمها الموسيقى قائلا مثلا إنها من الثقيل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغنى أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحيانا إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيرا ، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه ، موردا ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروى وكيف يقصُّ وكيف يسوق الأخبار سوْقا مشوِّقا ، وفى أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحيانا أنك تراهم فى قصورهم وفى مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضى أمامك حاضرا بحذافيره .

ويُعنَى الثعالبى بعده بعمل موسوعته الشعرية التى أشرنا إليها والتى سماها اليتيمة أو «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر» وهى تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، ويبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفذاذ ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر ، فبعض الشعراء النابهين المقيمين ببخارى وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول فى مقدمته إنه أورد فيه لُبَّ اللب ، وحبَّة القلب ،

---

(١) راجع فى البيهقى معجم الأدباء ١٣ /٢١٩

(٢) انظر فى أبى الفرج تاريخ بغداد ١١ /٣٩٨ وتاريخ أصبهان لأبى نعيم ٢ /١١ والمنتظم ٧ /٤٠ ومعجم الأدباء ١٣ /٩٤ وإنباه الرواة ٢ /٢٥١ وابن خلكان ٣ /٣٠٧ وعبر الذهبى ٢ /٣٠٥ وميزان الاعتدال ٣ /١٢٣ ولسان الميزان ٤ /٢٢١ ومرآة الجنان ٢ /٣٥٩ والشذرات ٣ /١٩ والنجوم الزاهرة ٤ /١٥ وروضات الجنات ٤٨٧ .

وناظر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد ، ونَقش الفَصّ ، مع كلام فى الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسرقات ، غير أنه عُنى بأشعار الشعراء ، والاختيار منها ، ولم يُعن ، مثل أبى الفرج فى كتابه الأغانى ، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشفى غُلّة . وأتبع الثعالبى اليتيمة بذيل لها سماه « تتمة اليتيمة » وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التى ذكرها فى اليتيمة ، وبينما تقع اليتيمة فى أربع مجلدات كبار تقع التتمة فى جزءين ، وهى مطبوعة فى طهران . والتتمة واليتيمة تؤرخان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزياريين فى طبرستان والغزنويين فى غزنة . ويليهما كتاب « دُمْيَة القصر وعُصْرة أهل العصر » للباخرزى على بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ وهو يؤرخ لشعراء زمنه ، ويجرى على نفس نظام اليتيمة ، فيؤرخ لشعراء العالم العربى ، ويُعْنَى خاصة بشعراء إيران وأقاليمها كما عُنى الثعالبى . وقد سار على غراره فى العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم ، وكأن الثعالبى هو المسئول عن هذا الاتجاه فى الترجمة للشعراء ، إذ عمّ وشاع لا فى إيران وحدها بل فى أقطار العالم العربى جميعها . ويأتى بعد الباخرزى فى الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهانى الذى سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أى فى القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة ، وتراجمه أوسع ، غير أنها تصطبغ بصبغة اليتيمة ، وخصّ إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن ، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس..

ولعل أهم كتاب فى التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعانى عبد الكريم بن محمد الذى ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع فى مجلد ضخم بالزنكوغراف ، وهو ليس فى الأنساب بمعنى نسب الشخص فى آبائه ، بل هو أعم من ذلك ، إذ يعنى بأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم . ويعرّف أولا بما ينسب إليه الشخص ، وإذا كان بلدة ذكر مكانها ، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة ، وقد يشترك فى النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص ، فيتحدث عن كل منهم ، أو قل يترجم لكل منهم ذاكرا مولده ووفاته . واختصر الكتاب عز الدين ابن الأثير فى مصنفه اللباب فى مختصر الأنساب ، وإلى الكتابين نرجع فى كثير من التراجم ، كما هو واضح فى الهوامش .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا فى حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجرى نزعة قومية قوية كان من آثارها فى أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون فى الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون فى الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون فى خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين فى البعد . وهيأ ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق فى التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التى سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعْمة له ولبنيه ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية فى الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين فى استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسى لهم ينافسون به الشعر العربى . وكذلك الشأن فى إمارة الصفّاريين التى عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيرانى عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجرى ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلفه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقا هو الرودكى السمرقندى جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمديح السامانيين ووزيرهم البَلْعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسيا ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقيقى الطوسى المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعتزم نظم الشاهنامَهْ فى تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسى فى عهد محمود الغزنوى .

ولم يهتم البويهيون أى اهتمام بهذا الاتجاه القومى فى إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانضواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أتقنوا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعالبى يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية فى إيران . وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتهما فى العربية . ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدّما له مدائحهما بالفارسية ، وهما منصوربن على الرازى الملقب بالمنطقى ومحمد بن على السَّرَخْسى الملقب بالكِسْروى ، غير أن ذلك يُعَدُّ شذوذاً فى بيئة البويهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يُعَدّان طارئين عليها . وبالعكس عُنيت الدولة الغزنوية ، وخاصة فى عهد محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفى عهد محمود أنجز الفردوسى نَظْم الشاهنامَهْ فى نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسى[1] ، وكان الفرّخى والعنصرى والعَسْجدى ومنوجهرى يتبارون فى تمجيد فتوحه ومديح أبنائه . وخلَفتْ كل هذه الإمارات السالفة فى إيران الدولة السلجوقية ، وفى عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبى سعيد بن أبى الخير وسنائى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . وتعم هذه الموجة شعراء إيران فى القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغى أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسى وأصحابه لم يكن يُقاس فى شىء إلى نشاط الشعر العربى فى إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما أُلِّفت المجلدات الضخام عن الشعر العربى فى تلك القرون على نحو ما تُصوِّر ذلك مجلدات اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسى كتاب يضم بين دِفَّتيه شعراءه ، وأول كتاب عُنِى بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف فى أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث فى هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية ، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

(١) ترجمت الشاهنامة بمصر فى العصر الأيوبى ، ترجمها أبو الفتح البندارى ، ونشر ترجمته فى القاهرة الدكتور عبد الوهاب عزام .

من الخراب الذى رافق المغول والذى عَمَّ إيران ، فقد حرقوا ودمَّروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أُنزل بها جنكيزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ،

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالى للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالمثل الشعر ، وإن فقدا كثيراً من نشاطهما الهائل القديم . ولابد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فبها كان يكتب علماؤهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزمخشرى والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسى والكاتبى القزوينى المعروف بدبيران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعضد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . ففى كل هذه القرون – وخاصة حتى القرن السابع – لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيّرونى ، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التى يذيع بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتسم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن تحل الفارسية محلها ، ويصوِّر ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وحلَتْ إلى الأفئدة ، وسرَتْ محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . والهجو بالعربية أحب إلىّ من المدح بالفارسية . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية .[فسيرى أنه] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [الفارسية] إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية [١] » .

وظل هذا الشعور ماثلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى للدكتور على الشابى (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلاً عن كتاب الصيدلة للبيرونى .

عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثر فى أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغَوْراً ، فإن ضروب النظم التى صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربى ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربى وأنماطه أولها المَثْنَوِىّ ، وهو نفس الضرب المعروف فى العربية باسم المزدوج الذى أخذ يشيع – كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول – منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد فى ترجمة كليلة ودمنة وما نظم من الشعر التعليمى[1] ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت فى حين تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسى لشاهنامته والترم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثانى القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف فى شىء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو دينا أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزلى أو صوَفى وأبياته لا تزيد عن اثنى عشر بيتاً إلا فى النادر ، وهو بذلك المعروف فى العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهى تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربى ظهر عند بشار وأبى نواس وأبى العتاهية[2] ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنهما فى قسم العراق .

والضرب الخامس المسمَّط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوَّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة . وقد أخذ هذا الضرب يشيع فى العربية منذ أبى نواس قبل نشأة الشعر الفارسى الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسى الذى أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجرى فَصَلَ عن الشعر العربى كما يَفْصل الرضيع عن أمه ، بل لقد ظل الشعر العربى يغذّيه طوال القرون التالية ، ولذلك مظاهر مختلفة فيه . فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هى نفس موضوعات الشعر العربى ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه يُنْظَمُ بنفس الصورة العربية ، فالمدحة مقدمة من النسيب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

---

(١) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها . (٢) العصر العباسى الأول ص ١٩٧ .

عربية مترجمة على نحو مايتضح عند شعراء الدولة الغزنوية : منوجهرى والعسجدى والعنصرى والفرّخى . ونما عندهم – على نحو ماهو معروف – شعر التصوف ، ولكنه يتغذى فى نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربى عند الحلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربى وابن الفارض والسُّهْرَوَرْديّين . ولايوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويترّبى ثقافيا فى مهادها ، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربيا ، وهو يقل عند بعضهم حقا ، ولكنه على كل حال يرمز فى قوة إلى هذا التواصل الوثيق[1] بين شعراء الفارسية وشعراء العربية . وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا فى بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية ، ويسمون ذلك الملمّع ، فالشطر أوالبيت العربى يلمع فى المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق . ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معانى أبيات عربية ، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحادث النبوية . وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان «متنبى وسَعْدى» طبعه فى طهران ، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم فى شعر سَعْدى الشّيرازى ، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة ، ويتلوها ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية فى نحو ثلاثين صحيفة ، ويعرض تضمينه لمعانى أبيات الشعر العربى فى أشعاره فى نحو خمسين صحيفة ، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصوّرة بقوة ثقافة سعدى الشّيرازى بالشعر العربى على مر العصور ، ويلى ذلك تضمين سعدى أشعارَه معانى أبيات المتنبى فى نحو خمسين صحيفة . وبجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة . وسَعْدى أوالشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يُعَدّون أنبه شعراء الفرس فى تلك الحقب ، والاثنان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى ، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه . فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائم الاتجاه إلى الشعر العربى ، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه فى قوة لم نكن مغالين .

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العربى فى تلك القرون ، فإننا نجد أصحابه يُعْنَوْنَ منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية فى إيران وغير إيران ، وأكبر مثل يوضح ذلك «كتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر» لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة ، وقد أورد فيه ستة وخمسين فنًّا

(١) من يرجع إلى كتابات الثعالبى والباخرزى يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن اللسانين وينظم بهما . انظر اليتيمة ٤ / ٨٨ ودمية القصر ٢/٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦٢ .

من فنون البديع ، ونراه فى كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربى وأمثلة أخرى من الشعر الفارسى تحاكيها جرت على ألسنة الرودكي والعنصرى والفرُّخي والعَسْجدى ومنوجهرى والمنطقى وأضرابهم ، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه ، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف ، فمن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » فى القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفا قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التى يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطَّع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته فى الكتابة ، والموصَّل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع فى الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذى يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذى تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة فى قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيرا اللغز ، والتضمين ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل فى هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسى كان يتبع خطوات الشعر العربى الماضى والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه فى الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة ، وكان الشعر العربى هو الأكثر شيوعا ، وهو الذى يدور على كل لسان ، أما فى القرون الرابع والخامس والسادس فليس فى ذلك شك ، حتى لنرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربى ، مثل بديع الزمان الهمذانى إذ تُرْوَى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستى ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وبقى له ديوانه العربى ، ومثلهما الباخرزى ضاع شعره الفارسى إلا ما احتفظ به محمد عوفى فى كتابه اللباب ، وظل ديوانه العربى تتناقله الأجيال حينا من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال ، فكثر من ينظمون بالفارسية ، وأصبح المعوَّل فى شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن فى سعدى الشيرازى الذى مرَّ بنا حديث عنه ، أما قبل ذلك فكان الشعر العربى هو الأكثر ذيوعاً ، وكأنه العملة الشعبية المتداولة فى بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء ، ويعدُّون بالمئات .

٢

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربى بإيران فى القرن الرابع الهجرى رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التى أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفى مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما يقول صاحب اليتيمة ، وقد أنشد له أبياتاً طريفة فى الشراب والطرب من مثل قوله [١] :

ليس شُرْبُ الكأسِ إلا فى المطَرْ وغِناء من جَوارٍ فى السَّحَرْ

وكان الشعراء يفدون عليه ويُجْزل لهم فى صِلاتهم ومكافآتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يُلْقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثالاً : أن بعض الوافدين حيَّاه بأُتْرُجَّةٍ حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها[٢] ، وابتدأ بقوله : « وأترجّةٍ فيها طبائعُ أربعُ » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنونُ اللهو للشَّرْب أجمعُ » فقال أبو القاسم : « يشبِّهها الرائى سَبيكةَ عَسْجدٍ » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من فأْرة المسك أَضْوَعُ » فقال أبو عبد الله الطبرى : « وما اصفرَّ منها اللونُ للعشق والهوى » فقال أبو الحسن البديهى : « ولكنْ أراها للمحبين تجمَعُ » . وبذلك تكوَّنت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات فى مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبى فى كتابه اليتيمة : « احتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، مَنْ يُرْبِى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصِّرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ومِلْك رِقِّ المعانى ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبى نواس وأبى العتاهية والعتَّابى والنَّمرى ومسلم بن الوليد وأبى الشِّيص ومروان بن أبى حفصة ومحمد بن

---

(١) اليتيمة ٢/٢١٨ .
(٢) اليتيمة ٣/١٧٦ وما بعدها .

مناذر ، وجمعتْ حضرة الصاحب بأصبهان وبالرىّ وجُرْجان مثل أبى الحسين السَّلامىّ وأبى بكر الخُوَارَزْمِىّ وأبى طالب المأمونى وأبى الحسن البديهىّ وأبى سعيد الرُّستمىّ وأبى القاسم الزَّعْفرانىّ وأبى العباس الضَّبِّىّ وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن وأبى هاشم العلوى وأبى الحسن الجوهرى وبنى المنجم وابن بابَك وابن القاشانى وأبى الفضل الهمذانى وإسماعيل الشاشى وأبى العلاء الأسدى وأبى الحسن الغُوَيْرِىّ وأبى دُلَف الخزرجى وأبى حفص الشَّهرزورىّ وأبى معمر الإسماعيلى وأبى الفياض الطبرى وغيرهم ممن لم يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . وللذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدم أو متأخر . ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُحْصَى ، ومع كل مدحة كان يأمر بصلة . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته . وكثيراً ما كان يعرض موضوعٌ ، فيتنافس فيه الشعراء ، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبهان ، فتبارى نحو عشرين شاعراً فى وصفه[1] ، منهم أبو سعيد الرُّستمى ، وفيه يقول[2] :

وسامية الأعلام تلحظ دونها ... سَنا النجم فى آفاقها مُتضائلا
نسختَ بها إيوانَ كسرى بن هُرْمُزٍ ... فأصبحَ فى أرض المدائن عاطلا
متى ترها خلتَ السماء سُرادقاً ... عليها وأعلامَ النجوم موائلا
وماءٍ على الرَّضْراض يجرى كأنه ... صفائحُ تِبْرٍ قد سُبِكْنَ جداولا[3]

ولما حصل الصاحب ، وهو بجُرْجان ، على فيل ضخم كان فى عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه فى تشبيب قصيدة على وزن قافية قول عمرو ابن معد يكرب الزُّبَيْدى :

أعددتُ للحَدَثان سا ... بغةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى[4]

وأنشد أبو الحسن الجوهرى فى هذه المباراة قصيدة استهلَّها بمديح الصاحب ، ثم أخذ فى وصف الفيل وصفاً مَرِحاً بمثل قوله[5] :

يُزْهَى بخرطومٍ كمثـ ... ـل الصَّوْلجان يردّ رَدَّا
أو كُمِّ راقصـةٍ تشـ ... ـيرُ به إلى النُّدْمان وَجْدَا

---

(١) اليتيمة ٣/ ٢٠٣ .
(٢) اليتيمة ٣/ ٢٠٦ .
(٣) الرضراض : الحصى الصغار فى مجارى المياه .
(٤) اليتيمة ٣/ ٢٢٩ والسابغة الدرع . والعلندى : الغليظ ، وأراد به الفرس .
(٥) اليتيمة ٣/ ٢٣١ .

وكـأنــه بوقٌ تُحَـ ـرِّكه لتنفخ فيـه جدَّا
أذناه مِرْوَحَتان أُسْـ ـندتا إلى الفَوْدين عقْدا

ونفق بِرْذَوْن (بَغْل) أبى عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعَزّوا أبا عيسى فيه ويبكوه له ، ونظم منهم عشرةٌ قصائدَ فكاهية سُمِّيت بالبِرْذَوْنيات منها برذونية أبى القاسم ابن أبى العلاء وفيها يقول [١] :

لقد أنصفتْه الخيلُ ماذُقْن بَعْدَهُ شَعيراً ولا تِبْناً ومُتْنَ غَليلا
وفى كل إِصْطَبْلٍ أنينٌ وزفرةٌ تردَّدُ فيه بُكْرَةً وأصيلا
ولو وفَّت الجُرْدُ الجِياد حقوقَهُ لما رجَّعتْ حتى المماتِ صَهيلا

وفى هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربى فى أصْبهان والرّى لعهد بنى بويه ، وبالمثل كان الزِّياريون وفى مقدمهم قابوس بن وَشْمكير يشجعون الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، ويذكر الباخَرْزى فى دُمْيته أبا بكر الخُسْروىَ الذى كان ينظم باللسانين العربى والفارسى ، ويقول : « كانت له وظائف كل سنة من الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير والصاحب أبى القاسم بن عباد تُدَرّ عليه ، وتتسابق إليه [٢] » . وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين ، وكذلك من الدولة السامانية ، وفى عاصمتها بخارى يقول الثعالبى : « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض ومَوْسم فضلاء الدهر [٣] » ويذكر مجلساً من مجالسها ضَمَّ أبا الحسن اللَّحّام وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبى الثياب وأبا النصر الهَرْثَمى وأبا نصر الطريفى ورجاء بن الوليد الأصبهانى وعلى بن هرون الشيبانى وأبا إسحق الفارسى وأبا القاسم الدينورى وأبا على الزَّوْزَنى إلى غيرهم ممن ينتظم فى سلكهم من الشعراء . وليست الحواضر وحدها هى التى اختصت بالنشاط الشعرى ، فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجُرْجان وَطَبرستان وخُوارزم وفارس والأهواز ونَيْسابور وهَرَاة . وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبى فى يتيمته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً ، وزادوا عن المائتين فى الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهانى فى الخريدة وترجمات ضافية ،

(١) اليتيمة ٣/٢١٨ .
(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربى) ٢/٢٥٩ .
(٣) اليتيمة ٤/١٠١ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر فى كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال فى نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبى : « القول فى آل ميكال وقِدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقْرامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وَجَمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريفه يستغرق الكتب ويملأ الأدراج ويُحْفى الأقلام ، وما ظنك بقوم مدَحهم البحترى وخدمهم ابن دريد وألّف لهم معجم الجمهرة وسيَّر فيهم المقصورة التى لا يُبْليها الجديدان ، وانخرط فى سلكهم أبو بكر الخوارزمى وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر[1] » . ويدل أكبر الدلالة على ماكان ببلدان إيران من نشاط أدبى وشعرى أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يفد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة فى العراق وغير العراق ، على نحو ما يلقانا فى نيسابور ، فقد ترجم الثعالبى لطائفة من الشعراء الطارئين عليها من بلدان شتى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

ونَيْسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهى صالحة لأن تكتب فى شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا فى عهد السامانيين وحكمهم بل أيضاً فى الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والرىّ والجُرْجانية عاصمة الزياريين وخوّارزم وهَراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمذانى وغَزْنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها فى اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكى ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يخيَّل إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورُعاته فى كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يعيِّنون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُغْدقون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأبِيوَرْدِىّ الشاعر السلجوقى من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبى فى عصره ولابن هانئ فى مصره . فلا عجب أن يتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رَغْدة ، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التى ترجم لها الثعالبى فى اليتيمة والباخرزى فى الدُّمْية والعماد الأصبهانى فى الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم .

---

(١) اليتيمة ٤/٣٥٤ .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط فى إيران ، فقد كان يُعَدّ جزءاً لا يتجزّأ من الثقافة العربية التى كان الناس يعكفون عليها فى شغف ، وهذا هو السر فى أنك قلما تجد فقيها أو فيلسوفاً فى تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذه أداته فى التعبير عن مشاعره ، تجد ذلك عند البيرونى فى ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يَعُدُّون الشعر من آلات عملهم ، وارجعْ إلى السُّبكى فى طبقاته فإنك تجده من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة فى الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن تراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النِّيلى أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالُ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ ما حالُ من كَسَرَ التصابِى بابَهُ
نادى الهوى أسماعَه فأجابه حتى إذا ما جازَ أغلق بابَه
أهْوَى لتمزيق الفؤاد فلم يجد فى صدرِهِ قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية فى العصر القفّال الشاشى ناشر مذهب الشافعى فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صاح فى قومه لغزو الروم عام النَّفير ، وذلك أن نِقْفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغوركمُ لم يبقَ فيها لوَهْنكم وضعفكمُ إلا رُســـومُ المعالمِ

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه فى كريت (إقريطش) وسَروج وعلى أبواب سُمَيْساط والحدَث ومَرْعش والمصِّيصة وَطَرسوس . وردَّ عليه فخره ونقَضه نقضاً الشيخ القفَّال بقصيدة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاولة وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وماسَبَّوْا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده ، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك السامانى منصور بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) التى تزحف بقَضِّها وقضيضها ورُعودها وبُروقها المميتة ، يقول :

أتتْك خُراسانٌ تجرُّ خيولَها مُسوَّمةً مثلَ الجرادِ السَّوائمِ

---

(١) السبكى ٤/١٧٩

(٢) السبكى ٣/٢٠٥ وما بعدها

كهولٌ وشبانٌ حماةٌ أحامِسٌ ... ميامنُ فى الهيْجاء غيرُ مَشائِمِ (١)
ونرجو بفضلِ الله فتحاً معجَّلاً ... ننالُ بِقُسْطَنْطِينَ ذاتِ المحارمِ
هناك نرى نِقْفورَ والله قادرٌ ... ينادَى عليهِ قائماً فى المقَاسمِ
ويجرى لنا فى الرومِ طرًّا وأهلِها ... وأموالِها جَمْعاً سِهامُ المغانمِ
فيضحك منا سنُّ جذْلان باسمٍ ... ويُقْرَعُ منه سِنُّ خزْيانَ نادمِ

ووراء القفال أئمة فى الفقه الشافعى كثيرون أنشد لهم السُّبكى أشعاراً فى الزهد، وسنترجم منهم للقُشَيْرى بين شعراء الزهد والتصوف. وأنشد السبكى أيضاً أشعاراً لقاضيين هما على بن عبد العزيز الجرجانى والأَرَّجانى وسنترجم لها بين شعراء المديح، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأَبِيوَرْدِىّ وسنترجم له بين شعراء الفخر: وله ديوان كبير مثل الأرَّجانى، وكان لعلى بن عبدالعزيز ديوان سقط من يد الزمن. وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدِّثون ينظمونه أيضاً، مثل حمد بن محمد الخطابى البُسْتِى الذى مرَّ حديثنا عنه بين المحدِّثين، وقد ترجم له صاحب اليتيمة فى جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره، وكان ينظمه أيضاً المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشرى، وله ديوان شعر لما ينشر، وهو زاخر بالأدعية والابتهالات. وتَرْوِى كتب التراجم للفخر الرازى أشعارا مختلفة، وكان كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر، منهم الجوهرى إسماعيل بن حماد صاحب معجم الصحاح، وله ترجمة فى الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبى طائفة من أشعاره، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمى المجمل ومقاييس اللغة، وقد ترجم له الثعالبى فى الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من شعره من مثل قوله (٢):

مرَّتْ بنا هَيْفاءُ مَقْدودةٌ ... تركيَّةٌ تُنْمَى لتُرْكِىٍّ
ترنو بطَرْفٍ فاتنٍ فاترٍ ... أضعفَ من حُجَّة نَحْوِىٍّ

ومنهم ابن فورَّجة البُرُوجِرْدِىّ، وله ترجمة فى الجزء الأول من تتمة اليتيمة وكذلك فى الجزء الأول من دمية القصر، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذى أنشده الثعالبى (٣):

ألم تطربْ لهذا اليوم صاحِ ... إلى نغمٍ وأوتارٍ فِصاحِ

(١) أحامس: أشداء
(٢) اليتيمة ٣/٤٠٢
(٣) تتمة اليتيمة ١/١٢٤.

كأنَّ الأيْكَ يوسعنا نِثاراً من الوَرقِ المكسَّر والصِّحاح
تَميدُ كأنها علَّتْ براحٍ وما شربتْ سوى الماء القَراحِ
كأن غُصُونها شَرْبٌ نَشَاوَى تصفِّق كلُّها راحاً براحِ

ومرَّ بنا أنه كان ناقداً بصيراً ، كما كان شاعراً فَذًّا ، وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر فارسي معاصر له يسمَّى المعروفى على هذا النمط .

يظنون ما تَذْرِى جفونى أدْمُعاً بل الدم منها يستحيلُ فيقطرُ
تُعيد بياضاً حمرةَ الدمِ لَوْعتى كما ابيضَّ ماءُ الورد والوردُ أحمرُ

ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال العسكرى صاحب كتاب الصناعتين ، وقد ضمَّنه كما ضمَّن كتابه ديوان المعانى طائفة من أشعاره ، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره . ومثله الثعالبى صاحب اليتيمة ومرَّ بنا حديث عن بعض نظرات نقدية له ، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها فى كتاب لطائف المعارف وفى كتبه الأخرى . ومثلهما عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وفى ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره . وهو باب يطول إذا أخذنا نحصى شعراء العلماء من كل صنف ، إنما هى أمثلة فحسب ، أردنا بها أن نُصوِّر تفتح ينابيع الشعر العربى على ألسنة المثقفين من كل لون . وكان من أقربهم إلى هذه الينابيع كُتَّاب الدواوين ، ولا تكاد نجد كاتباً كبيراً يترجم له الثعالبى فى اليتيمة والباخرزى فى الدمية والعماد فى الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب نثره . بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على مالهم من أشعار ، حتى إنه يكاد يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتَّابها وآثارهم النثرية عند السامانيين والخوارزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتى عفواً . وكثير من كتَّاب هذه الدول والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبى بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ومثل بديع الزمان وأبى الفتح البُسْتى والباخرْزىّ وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم ، ومثلهم الصاحب بن عباد والعماد الأصبهانى ، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن الشعر هو العملة العربية المتداولة التى تَحوز لصاحبها الشهرة الأدبية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعر المديح فى هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسى أن ينظم فى المديح ، وهو شىء طبيعى إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش ، ومرّت بنا كثرة الأعطيات التى كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا - أو كان كثير منهم - يأخذ رواتب من الوزراء والحكام . وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدّمون لأصحابها المدائح والتهانى فى المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يَرُوحون عليه ويَغْدون بالمدائح الرائعة ، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نُظم فى عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلا ، إذ لم يكد ينبغ شاعر فى إيران إلا قصَده ، وقدّم له مدائحه ، وقصده المتنبى بشيراز فى سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفى مقدمتهم السَّلامىُّ الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخُوارَزْمى [١] :

غريبٌ على الأيام وجْدانُ مثلِهِ وأغربُ منه بعد رؤْيته الفقرُ
عجبتُ له لم يلبس الكِبرَ حُلّةً وفينا لأنْ جُزْنا على بابِهِ كِبْرُ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال فى مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمى فى البيت الأول . ونُظمت فى مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبى سعيد الرُّسْتمى مدائح بديعة فى أولها من مثل قوله [٢] :

بقيتَ مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرُ
يَرُدُّ سَناك البدرُ والبدرُ زاهرٌ ويقفو نَداك البحرُ والبحرُ زاخر

وبالمثل كان وزراء بنى بويه ممدَّحين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبى الذى وفد عليه بمدينة أَرَّجان ومدحه بقصائد

---

(١) اليتيمة ٤/٢٢٢ . (٢) اليتيمة ٣/٣٠٢ .

رائعة ، ومثل ابنُ نباتة السَّعْدى الشاعر العراق ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله فى قدومه إلى أصبهان (١) :

قَدِمَ الرئيسُ مقدَّماً فى سَبْقِهِ فكأنما الدنيا جَرَتْ فى طَرْقِهِ
وكأنما الأفلاك طوعُ يَمينِهِ كالعبد منقاداً لمالكِ رِقِّهِ
قد قاسمتْه نجومُها فنحوسُها لعدوِّه وسعودُها فى أفْقِهِ

ولعل وزيراً بُوَيْهِيًّا لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه . وكان وراءهم كثيرون يفدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية ، وعقد لهم الثعالبى فى يتيمته الباب السادس من جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمى ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله (٢) :

وَرِثَ الوزارةَ كابراً عن كابرٍ موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ
يَرْوِى عن العباس عبادٌ وزا رتَه وإسماعيلُ عن عَبَّادِ

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة فى حجرها ودرج إلى الناس من وَكْرِها إذ ورثها عن آبائه ، وكان أبو سعيد يبالغ مبالغة مفرطة فى مديحه أحياناً على عادة الشعراء فى العصر ، من مثل قوله فيه (٣) :

لو كان غيرُ الله يُعْبَدُ ما انثنتْ إلا إليــك أعنَّةُ العُبَّادِ

وهى مبالغة تمجُّها الآذان . ونراه فى نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبّر ومن يقولون بأن كل شىء قدر مقدور مُلْغين حرية الإرادة فى الإنسان ، يقول :

ونصبتَ للإسلام أكرمَ رايةٍ وقَصَمْتَ أهل الجَبْر والإلحادِ

وكان الصاحب إماميا معتزليا ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صحّ ما يقول أبو سعيد الرستمى . ويقول له أبو بكر الخوارزمى من قصيدة فيه (٤) :

ومَنْ نصرَ التوحيدَ والعدلَ فعلهُ وأيقظ نُوَّامَ المعالى شمائلُهْ

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهى لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهى قيمة

(١) اليتيمة ٣/١٥٨ .
(٢) يتيمة ٣/١٩٠ ، ٣٠٧ .
(٣) يتيمة ٣/٣٠٧ .
(٤) يتيمة ٤/٢١٤ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان فى العصور السابقة ملقا ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد فى كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البلعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطرانى الشاشى(١) :

بلوناك حين يرجّى الولـ ... ـى عُرْفا ويَخْشى العدوُّ النكيرا
فلم تك إلا اختيارا نَفوعا ... ولم تك إلا اضطراراً ضَرورا

وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدَّحاً ، وللمأمونى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفى مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيثاً مدرارا ، فأكثروا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بَنى القوم من قصور مشيدة ، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمه الشعراء فى دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان . وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسيب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً فى مقدمات المدائح بعيد النيّروز . واطّرد ذلك فى مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية فى مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه فى إيران وما وراء النهر وفى الهند ، ومن رائع ما مُدح به قصيدة لبديع الزمان الهمذانى يقول فيها(٢) :

تعالى اللهُ ما شاء ... وزاد اللهُ إيمانى
أأفْرِيدونُ فى التاجِ ... أم الإسكندرُ الثانى
أم الرجعةُ قد عادتْ ... إلينا بسليمانِ
أطلّتْ شمسُ محمودٍ ... على أنْجمِ سامانِ
وأمسى آلُ بَهْرَامٍ ... عَبيداً لابن خاقان
إذا ما ركبَ الفيلَ ... لحربٍ أو لميدانِ
رأتْ عيناك سلطاناً ... على مَنْكِبِ شيطانِ

(١) يتيمة ٤/١١٦ وضروراً : مضرا .
(٢) اليتيمة ٤/٢٩٦ .

فمن واسطةِ الهندِ إلى ساحةِ جُرْجانِ
ومن قاصيةِ السِّندِ إلى أقصى خُراسانِ

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذى قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركى ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليمى فارس وكرّمان ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك ، ومُدّاحه يتعاقبون فى كتاب دُمْية القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها الباخَرْزِىّ توفى قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، وممن ذكرهم بين مُدّاحه الفَيّاض الهَرَوِىّ ، وله فيه وفى فتوح سلطانه ألْب أرْسلان فى آسية الصغرى وأسْره لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة ، يذكر فيها جيش رومانوس الجرّار ومُناه فى احتلال ديار السلطان السلجوقى ، وكيف رَدَّ الله كيده فى نحْره ، فسُحق جيشه سحقاً ، وقُتل منه ما لا يُحْصَى ، وأُسِرَ الإمبراطور ووقف بين يدى ألب أرسلان ذليلاً خانعاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصوِّر ذلك كله الفياض الهروى مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً[1] :

إذا ما ملوكُ الأرض عُدُّوا فإنما لكم كاهلُ المجد الأشمّ وغاربُهْ
أحاسدَه مَهْلاً فهذِى سُيوفُه وهاتيك يومَ المكْرُمات مواهبُهْ

ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتوالى مديحهم عند الطُّغْرائى والأرَّجانى وغيرهما من معاصريهما . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من علية القوم يخصُّهم الشعراء بمدائحهم ، وقد دُبّجت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهنّئون كثيراً لا بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفى اليتيمة والدُّمْية من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثر فى العصر مديح الفقهاء والعلماء يمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده الباخرزى لأبى المطهَّر الأصفهانى فى أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية فى نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة[2] :

يا أيها المولى الأجلُّ ومَنْ به أصبحتُ آمنَ مَنْ تحصَّن فى الذُّرَى
أنبتّنى ورعيتَنى وسموتَ بى غُصْناً بأبكار البيان منوَّرا

ولابن عُنَيْن قصيدة رائعة سيَّرها من نيسابور إلى الفخر الرازى بهراة ، وفيها يشيد بفضائله على البِدَع فى عصره ، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

(١) الدمية ٢/٢٨٦ وما بعدها .
(٢) الدمية ١/٤٣٤ .

فى الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشقى . وعلى كل حال هو تكملة لهذه الظاهرة التى رآها فى إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيوخهم وأساتذتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح فى تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم على بن عبد العزيز الجرجانى والطُّغرائى والأَرَّجَانىّ .

على[1] بن عبد العزيز الجُرْجانى

من جُرْجان ، وفد على نَيْسابور فى صباه ، وسمع على شيوخها ، وتخرّج بهم فقيهاً شافعيا نابهاً ، وولى قضاء موطنه جُرْجان ثم ولّاه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرَّىّ ، ثم جعله قاضى القضاة بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى أن توفى سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جُرْجان فدُفن بها ، وترجم له الثعالبى فى يتيمته فقال : « هو فَرْد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حَدَقة العلم ، ودُرَّة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مُقْلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . ومرَّ بنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتازٍ ، بل لعله أهم ناقد ظهر فى عصره . وهو فى الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شعريا مصفى . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره فى المديح وغير المديح ، وقد روى له الثعالبى طائفة من مدائحه فى قوّاد عصره وولاة جرجان وفى شمس المعالى قابوس بن وَشْمكير صاحب طَبَرِسْتان ، وللصاحب بن عباد القِدْح المعلى من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القَرْمُ الذى بعلوِّهِ   نال العَلاءُ من الزمانِ السُّولا
قسمتْ يَداك على الوَرَى أرزاقها   فكَنَوْك قاسمَ رزقها المسئولاَ

وهى مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُسْتَحبّ فى عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتى منها بمعنى طريف . وكان الصاحب بحراً فياضاً أغدق الصلات على زوّاره وقاصديه ، وله يصف بلاغته التى عُرف بها فى النثر والشعر جميعاً :

سَبَقْتَ بأفراد المعانى وأَلِّفتْ   خواطرُك الألفاظَ بعد شِرادِها

---

(١) انظر فى ترجمة على بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ واليتيمة ٤/٣ وما بعدها وابن خلكان ٣/٢٧٨ والسبكى ٣/٤٥٩ والمنتظم ٧/٢٢١ وشذرات الذهب ٣/٥٦ ومرآة الجنان ٢/٣٨٦ والنجوم الزاهرة ٤/٢٠٥ .

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنا على مسروقها ومُعادها

وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمده بالمعانى الغريبة النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها فى مدائحه من مثل قوله للصاحب :

لا وجفونٍ يغضُّها العَذَلُ عن وجَناتٍ تذيبها القُبَلُ
ما عاش من غاب عن ذَراك وإن أُخِّر ميقاتَ يومِه الأجَلُ[1]

وله فى عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى فى تهنئته حين يُبِلّ من مرض ألمَّ به أو حُمَّى نزلت بجسده ، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله فى تهنئة له بالشفاء :

بك الدهرُ يَنْدَى ظلُّه ويَطيبُ ويُقْلِع عما ساءنا ويتوبُ

وأنشد له الثعالبى قصيدة طويلة فى وصف دار الصاحب التى بناها بأصبهان وتبارى الشعراء فى وصفها على نحو ما مر فى حديثنا ، كما أنشد له أيضاً قصيدة فكهة فى رثاء بِرْذَون أبى عيسى بن المنجم ، استهلها بقوله :

جَلَّ والله مادَهاك وعَزَّا فعزاءً إن الكريمَ مُعَزَّى
هىَ ما قد علمتَ أحداثُ دهرٍ لم تدع عُدَّةً تُصان وكَنْزاً

وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدِّمة للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءاً من الممدوح ومن عمله وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أوكأنها مرآة له ، يقول فى وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبى مضر محمد بن منصور والى جرجان :

أباتتْ يَدُ الأستاذ بين رياضها تدفَّقُ أم أهدتْ إليها سَحائبا
أألبسَها أخلاقَه الغُرَّ فاغتدتْ كواكبُها تَجْلو علينا كواكبا
أوشَّتْ حواشيها خَواطِرُ فكرِهِ فأبدتْ من الزَّهْر الأنيق غرائبا
أخالته يَصْبُو نحوها فتزيَّنَتْ تؤمِّل أن يختار منها ملاعبا

ولعل فى ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهى قدرة تلقانا فى غزله كما تلقانا فى مديحه ، على نحو ما نقرأ فى قوله يصف بعض ليالى أنسه مع مُنى قلبه :

ولـيـالٍ كـأنهن أمـانٌ من زمانٍ كأنه أحلامُ
وكأن الأوقات فيها كئوسٌ دائراتٌ وأنْسُهُنَّ مُدَامُ

---

(١) الذرا : الكنف والظل .

زمنٌ مُسْعِدٌ وإلْفٌ وَصولٌ ومُنًى تَسْتَلِذُّها الأوهام

وواضح ما فى الأبيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش فى حلم ، يتعاطى خمر الأنس المسكرة ، ومن قوله فى الغزل :

قد بَرَّح الشوق بمشتاقِكْ فـأولِهِ أحسنَ أخلاقكْ
لا تَجْفُه وارْعَ له حَقَّهُ فـإنـه آخـر عُشَّاقِكْ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة لا تعدلها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة فى منزله ، وفى ذلك يقول :

ما تطعمتُ لذّة العيش حتى صرتُ للبيتِ والكتابِ جَليسا
ليس شىءٌ أعزَّ عندى من العِلْـ ـم فما أبتغى سواه أنيسا

فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة . وكانت نفسه أبيَّة شديدة الإباء ، لا يُهينها ولا يُذلها فدون الذل والهوان الموت ، وفيم يذل الإنسان ويهون أفى سبيل المال والغنى ؟ بؤساً لها وله إن هو اقترف فى نفسه هذه الجناية الكبرى ، وفى ذلك يقول :

كأنى ألاقى كلَّ يومٍ يَنُوبنى بذنبٍ وما ذَنْبى سوى أننى حُرُّ
وقالوا تَوَصَّلْ بالخضوع إلى الغِنَى وما علموا أن الخضوعَ هو الفقرُ
وبينى وبين المال شيئانِ حرَّما علىَّ الغِنَى : نَفْسى الأبيّةُ والدَّهْرُ

إن مثل هذا الغنى الذى يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقى الذى يدمِّر حياة الإنسان ، فتَعْساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتبًّا له. وله أبيات رائعة فى عزة النفس ، وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، وهو يمضى فيها على هذا النمط :

يقولون لى : فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلا عن موقفِ الذلِّ أحْجَما
إذا قيل : هذا مَنْهَلٌ قلتُ : قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظَّما
ولم أقْضِ حقَّ العلم إن كان كلما بدا طمعٌ صَيَّرْتُه لىَ سُلَّما
ولم أبتذلْ فى خدمة العلم مُهْجتى لأخْدُمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخْدَما
أأشْقَى به غَرْساً وأَجْنيه ذِلَّةً إذنْ فاتِّباعُ الجهل قد كان أحْزَما
ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانَهم ولو عظَّموه فى النفوس لعُظِّما
ولـكنْ أهانوهُ فهانَ ودنَّسُوا محيَّـاه بالأطماعِ حتى تجهَّما

وهو يصور فى الأبيات نفس العالم الحر الذى يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى حد ، وإنه ليأبى فى شمم ما بعده شمم أن يتَروَّى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

ونه ليردى الطمع فى الدنيا الذى يتحول بالعالم إلى ما يشبه دوّارة الريح فهو يدور مع المهين . ناسياً ما من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً . وإلا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائدة على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنّسوه ولطخوه بهوان أليم .

الطُّغرائى [1]

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد ، الكاتب الشاعر الذى غلب عليه لقب الطُّغرائى لعمله فى دواوين الطُّغراء . وهى الطُّرّة التى يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء فى أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذى يصدر الكتاب باسمه . وقد وُلد بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنتسب إلى أبى الأسود الدؤلى . ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدى جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنفات مختلفة [2] ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، فسال الشعر على لسانه ، ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان . وأعجب به وبشعره . فعينه كاتباً فى الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه . ورحّب به . وحدث أن اشترك الفضل فى مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة . وأُلقى به فى غياهب السجون . وظل الطغرائى يحفظ له صنيعه معه ويواسيه فى محنته ببعض أشعار يدبّجها فى مدحه . وكان نظام الملك حصيفاً . فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه . وظل الطغرائى يعمل فى دواوينه . كما ظل على صلته به يمدحه فى المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان ، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة فى الشرق وفى الغرب على شاكلة قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة الطغرائى وشعره معجم الأدباء ١٠/٥٦ وابن خلكان ٢/١٨٥ والأنساب للسمعانى ٥٤٣ والشذرات ٤/٤١ ومقدمة الصفدى لشرحه على قصيدة الطغرائى : لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطغرائى للدكتور على جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى . وديوان الطغرائى مطبوع قديماً بإستانبول وطبعت لاميته مع شروح لها وأهم شروحها شرح الصفدى (طبع القاهرة) .

(٢) العلم عند العرب لألدومييلى ص ٣٠٧ - ٣١٠ وكتاب الشعر العربى السالف للدكتور على جواد الطاهر ٢/١٥٥ .

خَمِيسٌ أقاصى الشرق تَرْزمُ تحته ... وترتجُّ منه أُخْرياتُ المغاربِ[1]
يلفُّهمْ بالرُّعب قبل طِرادهمْ ... ويهزمهم بالكُتْب قبلَ الكتائبِ

وفى هذه الأثناء يتزوج ، وما تلبث زوجته أن تتوفَّى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد فى نفسه منه شجى عميقاً عليها . ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله :

بنفسىَ من غاليتُ فيها بمهجتى ... وجاهى وما حازتْ يداىَ من الوَفْرِ
وفُزْتُ بها من بين يأسٍ وخيبةٍ ... كما استخرج الغوّاصُ لؤلؤةَ البَحْرِ
فجاءتْ كما جاء المُنى واشتهى الهوى ... كمالاً ونُبلاً فى عفافٍ وفى سِتْرِ
فيا موتُ ألحقْنى بها غيرَ غادرٍ ... فإن بقائى بعدها غايةُ الغَدْرِ

وهى مرثية بديعة . فقد أظلمت الدنيا فى عينى الطغرائى بعد زوجته الشابة الجميلة . ولم يعد له منها سوى الأنين والدموع والزفرات . وإنه ليشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه ، إذ تركت بين جوانحه ناراً لا تنطفئ ، ويتوجه إليها بالخطاب نادباً لحظه العاثر ، منشداً :

لآنسْتِنا حتى إذا ما بَهرْتِنا ... سنًا –وسناءً غِبْتِ غيبوبةَ البَدْرِ
وقد كان رَبْعِى آهلا بكِ مُدّةً ... أحِنُّ إليه حَنّةَ الطَّيْرِ للوَكْرِ
وآوِى إليه وهْوَ روضةُ جَنَّةٍ ... بدائعُها يَخْتَلْنَ فى حُلَلٍ خُضْرِ
فمذ بِنْتِ عنه صار أو حَشَ من لَظًى ... وأضيق من قَبْرٍ وأجْدَبَ من قَفْرِ

لقد غاب عنه بدره وانقضَّ وكره ودُمِّرت جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم فى لَظى الجحيم ، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً . ويظل يبكيها وتمر به الأيام . فيسلو عنها ويتزوج وُيرْزَقُ الولد ، وهو فى أثناء ذلك يعمل فى دواوين السلاجقة . ويتوفَّى نظام الملك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح والثناء . وتتوثق صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩ - ٥١٢ هـ) ويصبح فى عهده نائباً فى ديوان الطُّغْراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء . ونراه فى مدحة له يتحدث عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تُلْقى فى قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خيلٌ بأرض الرَّقّتين وراءها ... نَقْعٌ كمرْتَكِم الغَمام مُثَارُ
رِيعَ العدوُّ وقد أحسَّ بِقُرْبها ... فالجنبُ نابٍ والرقادُ غِرارُ[2]
وعلى خليج الرُّوم منك مهابةٌ ... من خوفها يتطامنُ التيّار .
ولقد دَرَى الروميُّ أنَّ وراءه ... خطراً تقاصَرُ دونه الأخطارُ

(١) ترزم : تسقط إعياء .

(٢) غرار : قليل

ويتحدث فى نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المُبرم على ابن عطاش فى حصن « شاه دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويتولى السميرمى الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائى والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبو به المقام فيذم فى بائية مقامه فى العراق مستهلا ذمه بقوله :

ملَّت ثَوائى بالعراق وملَّنى رفاق وكانوا بالعراقِ طِرابا

وينظم حينئذ لاميته التى اشتهرت خطأً باسم لامية العجم ، وقائلها عربى كما مر بنا فى نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سُمِّيت بذلك لأن قائلها كان يعيش فى بلاد العجم وجعلها على رويّ لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحهـا الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله ، شكوى لا تتكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التى يفخر بها ، وهو يَسْتهِلُّها بقوله :

أَصَالَةُ الرأىِ صانتْنى عن الخَطَلِ وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانَتْنى لدى العَطَلِ

وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ ، أوربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف :

فِيمَ الإقامةُ بالزَّوْراء لا سَكَنِى بها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِى

ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حَىٍّ إِضَم بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التى ضرب إليها أكباد الإبل ، ولكن دونها الحُماة بالسهام والبيض والسُّمْر ، أو السيوف والرماح ، والأُسْد رابضة حول الكِناس . ويتمنى إلمامة بالحى تُبْرئه من علله ، بل ليتمنى الموت فى سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التى لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرِّح بأن طالب المجد لابد له أن يغامر وأن يركب الأخطار ، فإن لم يتحقق له فى بلدة طلبه فى أخرى ، ويصيح :

إن العُلا حَدَّثَتْنى وهْى صادقةٌ فيما تحدِّث أن العِزَّ فى النُّقَلِ

ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعورغير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأدعياء قبل الأعداء . ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، وسننشد قطعة من هذه اللامية فى حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة . ولا ندرى كيف رغب ثانية فى العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعيّنه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود وتدور الدوائر فى سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطُّغرائى ويقتل بتهمة الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ، واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة فى أشعار الطُّغرائى وتكفى منها لاميته السالفة . وفى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف الرضى ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما ... طابَ السلوُّ وأقْصَرَ العُشّاقُ

أوَ ما بدا لك فى الإفاقة والأُلى ... نازعْتَهم كأسَ الغرامِ أفاقوا

يا حبَّذا نَجْدٌ وأعراقُ الثَّرى ... لُدْنٌ وأنفاسُ النعيم رِقاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثالث والمثانى والانتشاء بالخمر فى مباهج الربيع . وطبيعى أن يتردَّد الفخر فى أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات فى لاميته ، وله يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ بِبُغْيتى ... منها فما أحتاجُ أنْ أتعلَّما

وعرفتُ أسرارَ الخليقةِ كلِّها ... عِلْمًا أنار لِىَ البَهيمَ المظلما

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة [١] تصور هذا الضرب من شعره العلمى أو التعليمى . ويكثر عند الطغرائى ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضى ومهيار فى بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقها من الشعراء ، وربما كانت لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدى فى شرحه لها جاهداً أن يرد معانى أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقيه . وكان الطغرائى كشعراء عصره يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودى فى لامية له مشهورة .

---

(١) انظر الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/١٥٥ .

الأرّجانى [1]

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرّجانى نسبة إلى أرّجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خوزستان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول العماد الأصفهانى فيه : « منبت شجرته أرّجان ، وموطن أسرته تُستَر وعسكر مُكرَم من خوزستان ، وهو وإن كان فى العجم مولده فمن العرب محتده ، سلفه القديم من الأنصار » فهو عربى النجار، فارسى الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق ، فظل بها ، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيا ، يُحْسن الحكم بين الخصوم والفُتْيا . وتفجر الشعر على لسانه . فقصد به الوزير السلجوقى المشهور نظام الملك ، منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بتُستَر سنة ٥٤٤ وكأنه مات عن سن عالية . وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفى ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافَعٍ　　فى العصر ، بل أنا أفقهُ الشعراء

وأعدّته معرفته العميقة بالفقه لكى يشتغل بالقضاء فى موطنه ببلاد خوزستان ، تارة بتستر ، وتارة بعسكر مُكْرَم عن قاضيها ناصر الدين أبى محمد ومن بعده عن عماد الدين أبى العلاء ، وفى ذلك يقول :

ومن النوائبِ أننى　　فى مثل هذا الشغل نائبْ
ومن العجائبِ أنَّ لى　　صبرا على هذِى العجائبْ

وكان يُحْسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُّباعيات . وأكثر شعره فى المديح . ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :

كم موقفٍ دون العلاء وقفتَه　　والخيلُ بالأسَل الطِّوال تصُولُ

ونراه يمدح وزراء بَركياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه . وفى مقدمتهم الوزير الدهقانى وفيه يقول :

فأتى به العصرُ الأخيرُ وقصَّرتْ　　عن شأوِهِ وزراءُ كلِّ الأعْصُرِ

ويظلُّ على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة ، يروح إليهم ويغدو بالمدائح ، وله فى السلطان محمود مدائح مختلفة ، من مثل قوله :

---

(١) راجع فى ترجمة الأرجانى ابن خلكان ١/١٥١ والسبكى ٦/٥٢ وشذرات الذهب ٤/١٣٧ ومرآة الزمان ٣/٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٠٦ والمنتظم ١٠/١٣٩ . والنجوم الزاهرة ٥/٢٨٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان فى أرجان . وديوانه مطبوع قديماً ببيروت .

أعلى السلاطينِ فى يَوْمَىْ نَدًى ووغًى رأْيًا وأفضلُهم سرًّا لإعلانِ

ويمدح وزيره السميرمى الذى يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس سيىء السيرة ، ولعله اضطُرَّ إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالطُّغْرائى ، وله يقول فى بعض مديحه .

وأنقذتَ دينَ الله من شرِّ مارقٍ وكان كِشِلْوٍ بين نابَيْه ناشبِ

وخصَّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد ، وله يقول :

أحلَّك سلطانُ السلاطين رتبةً يَضيق بها ذَرْعُ الحسود المساجلِ

وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها ، وله فى الخليفة المستظهر (٤٨٥ - ٥١٢ هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيما لجج فيه قديماً مروان بن أبى حفصة وغيره من شعراء العصر العباسى الأول حين كانوا يتحدثون عن شرْعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم، ويزعم الأرَّجانى أن الرسول عليه السلام بشَّر بها عمه وأنها تكوْن فى أبنائه ، يقول :

بكم قديماً رسولُ الله بشَّرنا كما به بشَّرتنا سالفُ النُّذُرِ

وقال مِنْ بَعْدُ للعباس فى ملإٍ الفخرَ فأنت أبو الأملاك فى مُضَرِ

وولى المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفاً له بالبأس والشجاعة والإقدام محذِّراً أعداءه من جيوشه وما تدمِّر وتحطم وتَسْحق كل من يقف فى طريقها سَحْقاً . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفى مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :

لله دَرّ بنى جهيرٍ إنهم جَهَّروا بدين المجد حتى أُعْلِنا

ونوَّه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد ، وله فيه نحو عشرين مدحة يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواكبه . كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد الدولة محمد بن عبد الكريم ، وله يقول فى بعض مدائحه :

أمينَ أميرِ المؤمنين الذى اصْطَفَى وسَهْمَ أميرِ المؤمنين المسدَّدا

وله غزليات رقيقة ، وهى مطبوعة مثل غزليات الطغرائى بطوابع الشريف الرضى ومهيار ، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته :

أأحبَّتى الشاكين طولَ تغيُّبى والذاهبين على الهوى فى مَذْهبى

ما جُبْتُ آفاق البلاد مطوِّفا إلا وأنتم فى الورَى مُتَطلَّبى

سَبْنِى إليكم فى الحقيقة ، والذى تجدون منى فهو سَبْىُ الدَّهْرِ لى

أتحوكم وبردَ وجهى القَهقَرَى ... سيّرى ، فسيرى مثلُ سَيْرِ الكوكبِ
فالقصدُ نَحْوَ المشرق الأقصى له ... والسير رأىَ العينِ نحو المغربِ
تالله ما صدق الوشاةُ بما حكَوْا ... أنى نسيتُ العهد عند تغرّبى

والأبيات تحمل معانى وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجانى وأنه كان يعرف كيف يُطْرِف بصوره ومعانيه ، مما جعل القدماء يشيدون به ، ومن معانيه الغريبة :

رَثَى لى وقد ساويتُه فى نُحوله ... خيالىَ لمَّا لم يكن لىَ راحمُ
فدلَّس بى حتى طَرَقتُ مكانه ... وأوهمتُ إلْفى أنه بىَ حالمُ
وبِتْنا ولم يشعر بنا الناسُ ليلةً ... أنا ساهرٌ فى جَفْنِهِ وهْو نائمُ

وهو بعد فى الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم . وكان مثل الطغرائى يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلما نجد شاعراً فى هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلبُ عندهم ... أخا ثقةٍ عند اعتراض الشدائدِ
تطلعتُ فى حالَىْ رخاءٍ وشدّةٍ ... وناديتُ فى الأحْياءِ هل من مساعدِ
فلم أر فيما ساءنى غيرَ شامتٍ ... ولم أر فيما سرَّنى غيرَ حاسدِ
تمتعتما يا ناظرىَّ بنظرةٍ ... وأوردتما قلبى أمرَّ المواردِ
أعينىَّ كُفَّا عن فؤادى فإنه ... من البَغْى سَعْىُ اثنين فى قَتْل واحدِ

فحتى عيناه لا ترحمانه بما تدلعان فى قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم فى مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته فى نظم بيت يُقْرأ طرداً وعكْساً مثل قوله :

أحبُّ المرء ظاهرُهُ جميلٌ ... لصاحبه وباطنهُ سليمُ
مودّته تدومُ لكلِّ هولٍ ... وهل كلٌّ مودّته تدومُ

فالبيت الثانى يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند الأرجانى أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهى تدل على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يوضح شخصية الأرجانى الشعرية .

٤

شعراء المراثى

نشط الرثاء طوال هذا العصر ، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء ، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة ، وانضم إلى ذلك كرم فياض ، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذى كان غيثاً مدراراً للشعر والشعراء ، فأتوه من كل فَجٍّ ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات ، ونرى الثعالبى فى يتيمته يتوقف مراراً ليذكر لنا بعض الأشعار التى قيلت فى مديحه ، وبالمثل الأخرى التى قيلت فى رثائه ، من ذلك قول أبى سعيد الرستمى [1] .

أبعدَ ابنِ عبَّادٍ يهشُّ إلى السُّرَى ... أخو أملٍ أو يُستَماحُ جوادُ
أبى اللهُ إلا أن يموتا بموتِهِ ... فما لهما حتى المعادِ مَعَادُ

وحُمل تابوته من الرَّىِّ إلى أصفهان ، ودُفن فى محلة تُعرَف بباب دُرَيه ، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه ، وتقدَّم أبو منصور أحمد بن محمد اللُّجَيْمِىّ يُنْشد معبراً عنه بلقبه : «كافى الكفاة [2]» :

ثَوَى الجود والكافِى معاً فى حُفَيرةٍ ... ليأنس كلٌّ منهما بأخيهِ
هما اصطحبا حَيَّيْن ثم تعانقا ... ضجيعين فى قبرٍ بباب دُرَيهِ

ومرَّ بنا الحديث عن محمود الغزنوى وفتوحه فى إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام ، وكان مثقفاً وطلب - كما مر بنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء ، وأقبلوا عليه يصنِّفون له كثيراً من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده الشعراء من جميع البلدان فى إيران ، فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطاياه ، فلما توفى بكاه غير شاعر ، وفى مقدمتهم أبو على الحسن بن محمد الدامَغانى ، وفيه يقول [3] :

مضَى الأقحوان الصِّلُّ والأَسَدُ الوَرْدُ ... وتاجُ ملوكِ الأرض والفارسُ النَّجْدُ
ولم أدْرِ أن الشمسَ يَسْترها ثَرَى ... ولا الفَلَكُ الأعلى يُغَيِّبه لَحْدُ

وأحسَّ الشعراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، الذى عَمَّ العلماء والشعراء ببرِّه ، وأُلِّفت باسمه مصنفات كثيرة ، وكان مجلسه

---

(١) اليتيمة ٣/٢٨٠

(٢) اليتيمة ٤/٤٠٩

(٣) تتمة اليتيمة ١/١٥٣ والأقحوان الصل : الذى لا تفيد معه الرقية ، والورد : الفاتك

يَغَصُّ دائماً بالفقهاء والقرّاء والأدباء ، فلما توفى أكثر الشعراء من رثائه ، ومن جيِّد ما قيل فيه قول خَتَنه شِبْل الدولة مقاتل بن عطية (١) :

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ
عزَّتْ فلم تَعْرف الأيامُ قيمتَها فردَّها ، غَيْرةً منه ، إلى الصَّدَفِ

وظاهرة جديدة فى الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات فى العصر العباسى ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء فى كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه فى رثائه ، فمن ذلك رثاء أبى الحسن عبد الرحمن البُوشَنْجِيّ لأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول (٢) :

أَوْدَى الإمامُ الحَبْرُ إسماعيلُ لَهْفِى عليه فليس منْه بديلُ
بكتِ السما والأرضُ يومَ وفاته وبكى عليه الوَحْىُ والتَّنْزِيلُ
والشمسُ والقمرُ المنيرُ تناوَحا حَزَناً عليه وللنُّجوم عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكى سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدِّثين وأئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل اليتيمة ودُمْية القصر وكتب التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خلِّكان ومعجم الأدباء لياقوت ، من ذلك قول أبى الفرج حَمْد بن محمد الهمذانى فى رثاء الشيخ الإمام أبى محمد الجُوَيْنيّ (٣) :

علومٌ علتْ أعلامَها غَبَراتُها وأعينُ أعيانٍ طفتْ عَبَراتُها
وأفلاذُ أكْبادٍ من الفضل فُتِّتَتْ فدلَّتْ على تَفْتيتها زَفَراتُها
تداعتْ مبانى الدين وانهدَّ رُكْنُه وهُدِّمَ من أطْواده صَخَراتُها

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مَادةٍ وتفننا فى العلوم من الأصول والفروع . ولما توفى أُغلقت الأسواق فى نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكُسِر مِنْبَره فى الجامع وقعد الناس لعزائه ، كما يقول ابن خلكان ، وأكثروا فيه من المراثى ، كقول بعض تلاميذه (٤) :

قلوبُ العالمين على المَقالى وأيامُ الوَرَى شِبْهُ الليالى
أيُثْمِرُ غُصْنُ أهْلِ العلم يوماً وقد مات الإمامُ أبو المعالى

ونجد بين أساتذة الزمخشرى أستاذاً مغموراً درس عليه النحو ، يسمى أبا مضر

(١) ابن الأثير ١٠/٢٠٦
(٢) السبكى ٤/٢٨٣
(٣) اليتيمة ١/٥٥٧
(٤) ابن خلكان ٣/١٧٠

منصوراً ، ومع ذلك نراه – حين يلبىِّ نداء ربه – يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ، فيرثيه بقوله [١] :

وقائلةٍ : ما هذه الدُّررُ التى تساقَطُ من عينيكَ سِمْطَيْن سِمْطَيْنِ
فقلتُ هو الدرُّ الذى كان قد حَشا أبو مُضَرٍ أُذْنى تساقَطَ من عينى

وهى صورة بديعة ، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه ، أودعها الزمخشرى فى سمْعِهِ فجرت من مَدْمعه .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوهم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم وآبائهم وللباخرزى رثاء لأبويه ، ولأبى الحسن الحسينى البلخى رثاء جيد لأمه [٢] . ومرَّ بنا عند الطغرائى رثاؤه لزوجته التى ماتت فى ريعان الشباب ، وفى ديوانه مرثية لها قافيَّة ، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مُطْرِقتان . وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموتُ يقبض كفَّها ويبسُطها والعينُ تَرْنو وتُطرِقُ
هلالٌ ثَوى من قبل أن تمَّ نورُه وغُصْنٌ ذَوَى فَيْنانُه وهو مُورِقُ

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد يصدِّق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهلُّ على خديه ، وكلُّه حسرات ولوعات .

ومرَّ بنا فى كتابَى العصر العباسى الأول والثانى بكاء الشعراء للمدن ، حين تنزل بها صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين هجم عليها الزنج فى أواسط القرن الثالث ودمَّروا مساكنها وفتكوا بأهلها . وكانت كارثة هذا العصر أعظم وأطمَّ ، ونقصد تدمير المغول لبغداد فى سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحرائق وأعملوا النهب حتى فى الكتب والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية ، أو قل كان ذلك أفولاً لنجمها الذى طالما تألق فى سماء البلاد العربية جميعاً . وطبيعى أن نجد من شعراء إيران من يبكون المدينة العظيمة ، وفى مقدمة من بكاها منهم الشيخ سعدى الشيرازى المتصوف الفارسى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة ، وهو يشتهر بكتاباته الصوفية الفارسية التى يمثلها كتاباه : جلُسْتان وبوستان ، غير أشعار فارسية وعربية

(١) ابن خلكان ٥/١٧٢

(٢) اليتيمة ٢/٢٠٨ .

كثيرة ، وقصيدته [1] فى دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله :

حبستُ بجفنىَّ المدامعَ لا تَجْرِى   فلما طغى الماء استطال على السُّكْر [2]

ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على علمائها الراسخين فى العلم وكيف تبكى المحابر أئمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى ويذرف الدموع ، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلا :

أيا ناصحى بالصَّبْر دَعْنى وزَفْرتى   أموضعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجَمْرِ

ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثى الخليفة الشهيد : المستعصم والشهداء الأبرار ويهنئهم بالفردوس ، ويتحدث عن سبايا المسلمين ، والمغول يسوقونهن فى الصحراء . والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربى المجيد وكيف وقعت فريسة لذئاب المغول الكاسرة .

ولم نتحدث حتى الآن عن مراثى الشيعة للإمام على بن أبى طالب والحسين ، ولا ريب فى أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع فى إيران منذ عصر بنى بويه ، واعتاد الشيعة أن يعقدوا سنويا مأتماً كبيراً فى يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين فى تلك الذكرى القائمة مراثى كلها أنين وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة فى رثاء الحسين ، ونراه يألم ألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة ، التى مُثّل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر فى مراثيه الأنين والبكاء والدمع المدرار . وله شعر كثير فى فضائل على بن أبى طالب يدخل فى الشعر الشيعى بعامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلى بن أبى طالب المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته فى الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه فى الخلافة . ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدى المختفى ورجعته ليرد حق أسرته الضائع ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تغرق لا فى الرثاء ، بل فى المديح ، مثل الأشعار المتصلة بالإمام على ، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان ، وخير قصيدة تصوره قصيدة بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته وظله [3] . ونتوقف قليلاً عند شاعر شيعى من شعراء الرثاء .

---

(١) متنبى وسعدى للدكتور حسين محفوظ (طبع طهران) ص ٧٣

(٢) السكر : ما سُدَّ به النهر .

(٣) انظر الكشكول للعاملى (طبعة الحلبى) ١/١٧٦ .

أبو الحسن[1] على بن أحمد الجوهرىّ الجُرْجانىّ

نشأ بجُرْجان ، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبهم من أدباء عصره وشعرائه ، ونراه يقرّبه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذه فى ندمائه . وتستهل ترجمته فى اليتيمة برسالة كتبها إلى أبى العباس الضبى نائب الصاحب فى أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر فى اللسانين العربى والفارسى كما يحسن النثر. ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبى ، حتى يلبّى نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفى سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبى شيئاً من شعره الشيعى ولا من رثائه للحسين ، ومما يُرْوَى له فى بكاء الحسن قوله :

أهلَ الكِساء صلاةُ الله نازلةٌ عليكمُ الدهرَ من مَثْنىً ووُحْدانِ
أنتم نجومُ بنى حوّاء ما طلعتْ شمسُ النهار وما لاح السِّماكانِ

ويشير الجوهرى بفكرة الكساء إلى ما يُرْوَى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام على والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . ويشير الجوهرى فى القصيدة إلى مقتل الحسين وسباء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يبدؤها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكياً نادباً قائلاً :

يا أهل عاشورَ يالهفى على الدينِ خذوا حدادكمُ يا آلَ ياسينِ
اليوم قام بأعلى الطَّفِّ نادبهُم يقول مَنْ ليتيمٍ أو لمسْكينِ
يا عينُ لا تَدَعى شيئاً لغاديةٍ تَهْمِى ولا تَدَعى دَمْعًا لمحزونِ
يا آل أحمدَ إنَّ الجوهرىَّ لكم سيفٌ يقطِّع عنكم كلَّ مَوْضونِ[2]

والأبيات تصور المأساة تصويراً محزناً ملتاعا . والطف هو الموضع الذى استشهد فيه الحسين ، والجوهرى لا يرقأ دمعه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكفّ ولا تجفّ ، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوى الطاهر .

وينشد الثعالبى للجوهرى أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبى العباس الضبى ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وبتصوير بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص ، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة ، كقوله فى

(١) انظر فى الجوهرى اليتيمة ٤/٢٧ وأعيان الشيعة ج ٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شبر (طبع بيروت) ٢/١٣٠ وما بعدها

(٢) الموضون : الدرع المنسوج .

دعوة بعض أصدقائه إلى الصَّبوح :

شجرٌ مُدْنَفٌ وجوٌّ عليلٌ وصباحٌ يميل كالنَّشْوانِ
صاحِ إن الزمان أقصرُ عمراً أن يُراعَ المُنى بصَرْفِ الزمانِ
رَقَّ عنى ملاحفُ الليل فانْهَضْ برقيقٍ من صَوْب تلك الدِّنانِ
كعصيرِ الخدود فى يَقَقِ الأو جه أو كالدموع فى الأجفان[1]

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة فى التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتى بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :

صَكَّ النَّسيمُ فِراخَ الغَيْث فانزعجتْ يَنْفُضْنَ أجنحةً من عَنْبَرِ الزَّغَبِ

ويقول الثعالبى : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشُعَيْرات الريش المتطايرة .

٥

شعراء الهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يَريشون سهام الهجاء فى هذا العصر كما كانوا يريشونها فى العصور السابقة ، تارة يسدِّدها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً ، لمجرد أنه تأخر فى جائزة شاعر ، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأى سبب من الأسباب . ومرَّ بنا أن الصاحب بن عباد وزير بنى بويه كان ينهال عليه المديح انهيالاً لكثرة ما كان يُغْدقه على الشعراء ، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبى العلاء الأسدى ، وكان كما يقول الثعالبى قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد الغُرَّة والتحجيل فى شعرائه وصنائعه وندمائه . وكان يودّه ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتّها العِهاد (الأمطار) . . وأين كتبك التى هى ألذ من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين فى إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً ، فأسرع يهجوه بقوله[2] :

---

(١) اليقق : شدة البياض .
(٢) اليتيمة ٣/٢٧٧

إذا رأيتَ مُسَجّى فى مرقّعةٍ   يأوى المساجدَ حرًّا ضُرُّه بادى
فاعلمْ بأن الفتى المسكين قد قذفتْ   به الخطوبُ إلى لؤم ابن عبّادِ

وهو يصفه باللؤم ، ويصغّر من جوده الذى شاع عنه فى سخرية مرة . وانتقم للصاحب من أبى العلاء الأسدى زميل له من الشعراء يسمّى عبدان الأصبهانى جعله عُرْضة وهدفاً لأهاجيه ، ومن قوله فيه[1] :

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤْذنا   بِشَيْنِ هذا النسبِ الباردِ
وتدَّعى فى أسَدٍ نِسْبَةً   لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدِ
أقِمْ لنا والدةً أوّلاً   وأنت فى حِلٍّ من الوالدِ

وهى سخرية لاذعة . ومن كبار المجانين فى أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن اللّحام ، وفيه يقول الثعالبى : لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه ، وكان لا يهجو إلا الصدور ، وفى مقدمتهم البَلْعمى وزير السامانيين وفيه يقول[2] :

وزارةُ البلعمىِّ منقلبهْ   وهْو كقُفْلٍ غدا على خرِبَهْ
لم يَرْعَ للأولياء حُرْمَتَهم   فيها ولا للوجوه والكَتَبَه
فهْو أحقُّ الورى بداهيةٍ   تضحى لها رأسُه على خَشَبه

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مُثْلةً للناظرين ، وكان عبدان آنف الذكر يستثيره كثيراً فما زال يفكر فى أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه[3] :

عبدانُ هامتُه للصَّفْع معتاده   لاسيَّما من أكفِّ السادةِ القاده
كأنَّ أيدى النَّدامَى فى تناولها   أيدى صِيامٍ إلى كيزانِ بَرَّاده

والبَرَّادة : إناء يبرِّد الماء . وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً عند بعض الشعراء حدًّا يجعلهم يعمّونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد ، فإذا هم يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودى الرازى فى قوله[4] :

لا يصحبنَّ ملوكَنا إلا امرؤ   لِصٌّ مغنٍّ مُفْلِسٌ قَوّادُ
فلهُ لديهمْ زُلْفَةٌ ومنالةٌ   ولمن تحرَّج واستعفَّ كسادُ

والبيتان يمسخان الملوك حينئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها ، ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلّطوا عليها سهام هجائهم ، وقد يتعرضون لصفة فى

---

(١) اليتيمة ٣/٢٩٨
(٢) اليتيمة ٤/١٠٨
(٣) اليتيمة ٤/١١٢
(٤) تتمة اليتيمة ١/١٢٣ .

الشخص ذميمة ، فيهجونه بها ، كصفة الحمق ، ولابن حَسُول يهجو المتكبرين عليه [١] :

دخلتُ على الشيخ فيمن دَخَلْ ... فغربَل عُصْعُصَهُ وانتحَلْ [٢]
وأظهر من نخوة الكبريا ... ء مالم أُقدِّر ومالم أخَلْ
فقلتُ له مؤثراً نُصْحَهُ ... وقد يُقْبَلُ النُّصحُ ممن نَخَلْ
إذا كنتَ سيدنا سُدْتَنا ... وإن كنت للخال فاذهبْ فَخَلّ
أخلّ بحقٍّ دُهاةِ الرِّجالِ ... فمازال يُصْفَعُ حتى أُخَلّ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ، وكأنما همَّ أن يرفع نفسه وعصعصه أو مؤخرته ، ثم تخلّى عن ذلك وتمكّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعاظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من نخّل القول وعرف صوابه وخطأه ، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقا سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلِّ عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فمازال يُصْفَعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر فى هذا العصر يرافق الهجاء كما رافقه فى العصور السابقة ، وقلما يحسن الشعرَ أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفى كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بنى بويه ، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . ويلقانا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول على بن عبد العزيز الجرجانى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح [٣] :

ألا إننى أرْمى بكلِّ بديعةٍ ... يَبِتْنَ بألباب الرِّجالِ لواعبا
تسيرُ ولم ترحَلْ ، وتدنو وقد نأتْ ... وتُكْسب حُفَّاظَ الرجالِ المراتبا
ترى الناس إما مُسْتَهاما بذكرها ... وَلُوعًا وإما مُسْتعيرا وغاصبا

فأشعاره كلها - فى رأيه - بدائع وطرائف ، تنتشر فى الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة رواتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة . وكثر الفخر فى العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق فى الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهى شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت فى هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك فى حياة

---

(١) دمية القصر ١/٤١٥ .
(٢) العصعص : نهاية العمود الفقارى ، وغربلة العصعص : تمكنه فى الجلوس . انتحل : ادعى لنفسه ما ليس له .
(٣) اليتيمة ٤/٢٠

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا تصله الجوائز الكبيرة ، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا فى عينيه ، ويراها سواداً فى سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذى يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبّل الأبواب ، فبؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صُنّف فى البيان العربى ، وكان مقصد الطلاب فى عصره من كل فجّ ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه فى نعم الحياة مخلّفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيـ ـهِ سوى النَّذالةِ والجهالَهْ
لم يَرْقَ فيهِ صاعِدٌ إلا وسُلَّمُه النَّذالَهْ

واقرأ فى اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأمير أن يُسْلَب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودِعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وَشْمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به فى غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لَوْعَة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فمضى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ للذى بِصُروف الدَّهْرِ عيَّرنا ... هل حاربَ الدهرُ إلا مَن له خَطَرْ
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيَفٌ ... وتَستقِرّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
فإن تكن عبثتْ أيدى الزمان بنا ... ومسَّنا من تمادى بؤسه ضَرَرُ
ففى السماء نجومٌ مالها عَدَدٌ ... وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله بؤس وتعاسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم ، بل كلهم أخسّاء أنذال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى (٣) :

ما فى زمانك ماجدٌ ... لو قد تأمّلتَ الشواهدْ
فاشْهَدْ بصِدْقِ مقالتى ... أولا فكذِّبنى بواحدْ

---

(١) الدمية ٢/١٨
(٢) اليتيمة ٤/٦١ وابن خلكان ٤/٨٠
(٣) الدمية ٢/٢٨

فهو لا يرى فى الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمى والأبِيوَرْدى .

أبو بكر[1] الخُوارِزمىّ

أصله من طَبَرِسْتان ومولده ومنشؤه خُوَارِزْم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه فى ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجيدين فى عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيسابور وسجستان ، ثم قصد الصاحب بن عباد ، فأكرمه وأعلى منزلته ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عَقَارا وضياعا ، وكان لايزال يأتيه رسم أو راتب من قبل الصاحب منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً فى أن يتعصب تعصباً شديداً للبويهيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط الصاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعيًّا وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمَذانى على بلدتهم ، فعقدوا مناظرة بينهما انتصروا فيها للبديع ، وتصادف أن توفى الخُوارزمى عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه . وقد خلَّف الخوارزمى ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن فى كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره فى النسيب والغزل والمديح والمراثى وفى فنون مختلفة فى مقدمتها الهجاء ، وكان طبيعيا أن يصبَّه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وَزجّوا به فى سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عنى أهلَ سامانَ ما أتَوْا ... وفى الله للثأر المضيَّع طالبُ
همُّ زوّجونى الهمَّ بعد طَلاقه ... وذلك عُرْسٌ للمآتم جالبُ
وأنحوا لزرعى بالحصاد وأنْصَبُوا ... مياهاً لها أيدى سِواهمْ مَذانبُ
أتحصُد أيديكم وَيزرع غَيْرُكم ... فأنتم جَرادٌ والملوكُ سحائبُ

فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزراؤهم ، ويأكلونه ناراً ، وكأنهم جراد منتشر

(١) انظر فى الخوارزمى وشعره اليتيمة ٤/١٩٤ وابن خلكان ٤/٤٠٠ والوافى بالوفيات ٣/١٩١ والشذرات ٣/١٠٥ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢٣٠ وما بعدها

يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة . تروى من يعيشون فى بقاعهم القريبة وفى بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين ، غير أنه اكتفى فى هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ فى توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :

مالى رأيتُ بنى العبَّاسِ قد فتحوا ... من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا
قَلَّ الدراهمُ فى كَفَّىْ خَليفتِنا ... هذا فأنفقَ فى الأقوام ألقابا

ولا شك فى أنها تدل على ما أصاب المجتمع فى إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يغيظ الخوارزمى الشيعى المتعصب لتشيعه الغالى فى تعصبه أن يرى أحياناً فقيها يلقن ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتشيعة ناصبية فيدَّعى عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف :

مُجْبِرٌ صيَّر ابنه ناصِبيًّا ... مجبراً مثله وتلك عجيبَهْ

والمجبر الذى يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له فى فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة فى يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستانى ، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله :

لله فى كل ما قضـاهُ ... لطائفٌ تحتهـا بدائعْ
سُبْحانَ من يُطْعِم ابن شارٍ ... ويترك الكَلْب وَهْوَ جائع

وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقلّ منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذى طالما أسبغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يصله فى نيسابور ، نجده يخدشها بل يعضّها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه ، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمًّا قبيحاً قائلاً :

لا تحمدنْ ابنَ عبادٍ وإن هَطَلَتْ ... يَداه بالجود حتى أَخْجَلَ الدِّيَما
فإنها خطراتٌ من وَسَاوِسهِ ... يُعْطى ويمنع لا بُخْلا ولا كَرما

فعطاياه التى طبَّقت الشعراء فى إيران وغير إيران إنما هى وساوس وهواجس تُلمُّ به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمى أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره ، ويحيله سوط عذاب ينزل به حتى على ولىّ نعمته . ونراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله فى رثاء صديق ، حدث بينهما ما يوجب شيئاً من العتاب ، فإذا هو يضخم عتابه ويحيله هجاء قائلاً :

بكيتُ عليك بالعين التى لم ... تزلْ من سوء فعلك بى تجودُ

فها أنا ذا المهنَّا والمعزَّى ... وها أنا ذا الشقىُّ بك السعيدُ
وما أصبحتَ إلا مثل ضِرْسٍ ... تآكلَ فهو موجودٌ فقيدُ
فنى تركى له داءٌ دَوِىٌّ ... وفى قَلْعى له ألمٌ شديدُ

وطبيعى لمثل الخوارزمى الذى كان ينشب أظفاره فى الحكام والأصدقاء والناس أن يتبرم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر ، حتى ليقول :

لا تشكرِ الدهرَ لخيرٍ سبَّبَهْ ... فإنه لم يتعمَّدْ فى الهِبَهْ
وإنما أخطأ فيك مَذهَبَهْ ... كالسَّيْل إذ يَسْقى مكانا خرَّبَهْ

وله وراء ذلك كله مدائح فى البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها . وفتح الثعالبى له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته أشعارَ غيره فى شعره ، وهم يمتدّون على الحقب من العصر الجاهلى حتى عصره .

الأبيوَرْدِىّ(١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عَنْبَسة بن أبى سفيان بن صَخْر بن حرب الأموى ، مولده ومنشؤه بأبِيوَرْد فى خراسان ، وقد تفقه على إمام الحرمين الجُوَيْنى بنَيْسابور ، وله فيه مدائح بديعة . وسمع عبد القاهر الجرجانى ، ولعل له أثراً فى رهافة ذوقه الأدبى . وأكبَّ على المعارف يحصّلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد يصنف كتباً مختلفة فى الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل فى دواوين السلاجقة فى بغداد وأصفهان وغيرهما من بلدانهم . ويبدو أنه ظل فى بغداد طويلاً ، إذ يُرْوَى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرّن طبعى على العربية ، وبعدُ أنا أرتضخ لُكْنَةً أعجمية . وفى بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادى هذا الوزير عميد الدولة بن منوجهر هجاه الأبيوردى ، فدسَّ عليه عند الخليفة أنه هجاه ومدح صاحب مصر الفاطمى . وخشى الأبيوردى على نفسه فترك بغداد إلى همذان حتى سكن جأشه وهدأ روعه . وتدل على الحقبة التى أمضاها ببغداد قصائده فى الخليفة المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

(١) انظر فى الأبيوردى وشعره معجم الأدباء ١٧/٢٣٤ وابن خلكان ٤/٤٤٤ والوافى بالوفيات ٢/٩١ والسبكى ٦/٨١ والمنتظم ٩/١٧٦ والنجوم الزاهرة ٥/١٥١ ، ٢٠٦ وابن الأثير ١٠/٢٨٤ ومرآة الجنان ٣/١٩٦ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ٤/١٢٤١ وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ٤/١٨ وإنباه الرواة ٣/٤٩ وديوانه مطبوع بالمطبعة العثمانية بلبنان .

لأنه كان يَرْشَحُ من كلامه نوع تشبيب بالخلافة التى كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطُرّ إلى مفارقته بغداد إلى همذان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنّف . وقال العماد فى الخريدة : تولى فى آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ – ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانته قدماه وتوفى على الأثر ، فحُمل إلى منزله بأصفهان ، ويقال : بل لم يُسْقَ السم ، وكل ما فى الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

وُيَعُدّ الأبيوردى من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات . وله شعر كثير فى الفخر بنسبه الأموى وبيان فضله وحقه فى الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملّكنى مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد ، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُساجِلُنى وليس بمدركٍ   شأْوى وأينَ له جلالةُ مَنْصِبى
لا تتعبنَّ فدونَ ما أمّلْتَه   خرْطُ القَتادة وامتِطاءُ الكوكبِ[١]
والمجدُ يعلم أيّنا خيرٌ أبًا   فاسأْله تعلمْ أىَّ ذى حسَبٍ أبِى
جَدّى معاويةُ الأغرُّ سمَتْ به   جُرْثومةٌ من طِينِها خُلِقَ النَّبِى
وورثْتُه شرفاً رفعتُ منارَهُ   فبنو أميّة يفخرون بهِ وَبِى

وهى صورة جامحة من الاعتداد بالآباء ، وأين بنو أمية فى القرن الأول الهجرى منه فى القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بنى هاشم ؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد فى فخره العريض ، إذ يسوقه فى شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

الناس من خَوَلِى والدهرُ من خَدَمى   وقِمّةُ المجد عندى مَوْطِئُ القَدَمِ
والنَّسْرُ يَتْبع سَيْفِى حين يَلْحظُهُ   والدهرُ يُنْشد ما يَهْمِى به قلمى
لو صيغتِ الأرضُ لى دون الوَرَى ذهباً   لم تَرْضَها لِمُرَجَّى نائلى هِمَمى
وعن قليلٍ أُرَى فى مأزقٍ حرجٍ   به تُشام السُّرَيْجِيّاتِ فى القِمَمِ[٢]
والبِيضُ مُرْدَفَةٌ تبدو خلاخِلُها   فى مسلكٍ وَحِلٍ من عَبْرةٍ ودمٍ

---

(١) القتادة : نبات له شوك كالإبر ، وفى المثل : «من دونه خرط القتاد» يضرب للشىء لا ينال إلا بمشقة شديدة .
(٢) تشام : ترى . السريجيات : ضرب من السيوف

فالمجدُ فى صهوات الخيل مطلبُه والعزُّ فى ظُبَةِ الصَّمْصامة الخَذِمِ (١)

وهو يحلم حلماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسْبَى فيها النساء النادبات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن ، وتجول وتصول فيها الخيل مردية للأقران ، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قَتْلاه ، والدهر ينشد بجده الحربى شعراً حماسيا ملتهباً . وطبيعى أن يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذى لا ينيله مطامحه ، وهى شكوى تمتزج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله :

تنكَّر لى دهرى ولم يَدْرِ أننى أُعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تَهونُ
فبات يُرِينى الخطبَ كيف اعتداؤه وَبِتُّ أُريه الصَّبْرَ كيف يكون

وهذا الجانب فى الأبيوردى واعتزازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس ، وهو استشعار يُحْمَدُ له ، فإنه أحسَّ الكارثة التى نزلت بالإسلام وأهله ، حين دنَّس الصليبيون بأقدامهم الحرمَ القدسىَّ ، فصاح بأعلى صوته يُهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حماهم المستباح فى قصيدة طويلة يقول فيها :

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجمِ فلم يبق منا عُرْضَةٌ للمَراجم (٢)
وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانكم بالشام يُضْحِى مَقِيلُهُم ظهورَ المذاكى أو بطون القَشاعم (٣)
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ ومن دُمًى تُوارِى حياءً حُسْنَها بالمعاصمِ
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ويُغْضِى على ذلٍّ كُماةُ الأعاجمِ
فليتهمُ إذ لم يذودوا حَمِيَّةً عن الدين ضَنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ

والقصيدة استنفارٌ قوى للمسلمين من العرب والأعاجم كى يقفوا سدًّا منيعاً دون حماهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يُذيقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كيْدهم إلى نحورهم ، وهى أولى القصائد التى أخذت طوال قرن تصوِّب أبياتها ، بل سهامها ، إلى صدور أعداء الإسلام ، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام ، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم ، وكان حقًّا على الله نَصْرُ المؤمنين .

وللأبيوردى وراء ذلك مدائح كثيرة فى الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها ،

---

(١) الصمصامة : السيف . الخذم : القاطع (٣) المذاكى : الخيل . القشاعم : النسور .

(٢) المراجم : القبيح من الكلام .

وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها فى مطالع الفصل التالى ، وكانت له مرثية بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مرثيته للغزالى ، التى أشار إليها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان فى هجاء أبى النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغى ، وكان شاعراً ، ويستعمل فى شعره لزوم ما لا يلزم الذى اشتهر به أبو العلاء فى لزومياته ، فقال فيه :

شعر المراغىّ - وحُوشيتمُ - كمَقْلِهِ أسْلَمُهُ أسْقَمُهْ
يَلْزَمُ ما ليس له لازماً لكنَّه يترك ما يَلْزمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع ، بينما يُغرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء فى الشعر بروىٍّ واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً فى صنع الشعر ونظمه .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حارًّا متدفقا طوال هذا العصر ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يَشُذَّ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه ، لا يشذّ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد . وظل للغزل لوناه المتقابلان على مر العصور : الغزل المادى والغزل العُذْرى العفيف ، وكان طبيعيا أن تنظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجوارى وكان كثيرات منهن يحسنَّ الغناء ، فلأن قلوب الرجال شغفا وهياما . واقرأ فى تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائما مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمالَ معنى وجمالَ صورة وجمال صوت ، على شاكلة قول ابن العميد (١) .

ظَلَّتْ تُظَلِّلنى من الشَّمْسِ ... نَفْسٌ أعزُّ علىَّ من نَفْسِى
فأقول واعجبــاً ومن عجبٍ ... شمسٌ تُظَلِّلُنى من الشَّمْسِ

وهى صورة بديعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبته ، وكان خليفته فى وزارته الصاحب بن عباد أشعر منه ، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبى طائفة من المقطوعات ، من ذلك قوله (٢) :

قــال لى إنَّ رَقـيبى . سَــيِّئُ الخُلْق فَــدَارِهْ
قلتُ دَعْنى وَجهُك الجنَّـــةُ حُفَّتْ بــالمكـاره

وواضح أنه عمد فى البيت الثانى إلى الاقتباس من الحديث النبوى : « حُفَّت الجنة بالمكاره » وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله . وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية .

وكانوا يتورَّطون أحيانا فى الغزل بالغلمان ، وهو وصمة فى جبين العصر ، تضاف إلى

(١) اليتيمة ١٧٨/٣ (٢) اليتيمة ٢٥٤/٣

مثيلتها فى العصر العباسى ، وربما كانوا ينظمونه تندراً ودعابة ، أو تقليداً لأسلافهم ، وهو تقليد بغيض . ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نَحَّوْا هذا النوع المقيت عن غزلهم ، مؤثرين أن يَطْبعوا أشعارهم بطوابع الغزل العفيف الطاهر الذى لا يعرف المتاع المادى للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق وغير العناق ، إنما يعرف نيرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامئ الذى لا يُرَوِّى صاحبه أبدا ، فدائماً فراق ودائماً حنين واشتياق ، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدى (١) :

شَتَّتوا بالفراق شَمْلى ولكنْ جَمَعَ الله شَمْلهم أين كانوا

وكثيرٌ من هذا الغزل العُذْرىّ كان يصوغه العلماء والفقهاء صورةً لطهارة نفوسهم ونقائها وما يتجشَّمون فى الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيىء من الغريزة النوعية ، فقد تساموا عن الحسِّ وكل ما يتصل بالحس . ويكثر فى هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العذريين ، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحسرات من الفراق والشوق إلى اللقاء . وربما لم يكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبِيوَرْدى ، فقد جعل للنجديات أو الغزل النجدى العذرى قسما مستقلا من أقسام ديوانه الكبير ، ومن نجدياته :

نزلنا بِنَعْمان الأراكِ ، وللنَّدَى سَقِيطٌ به ابتلَّت علينا المَطَارفُ (٢)
فبتُّ أُعَانى الوَجْدَ والركبُ نُوَّمٌ وقد أخذتْ منى السُّرَى والتَّنائفُ (٣)
وأذكر خَوْداً إن دعانى على النَّوى هواها أجابتْه الدموعُ اللوارفُ
لها فى مغانى ذلك الشِّعْبِ منزلٌ لئن أنكرتْه العينُ فالقلبُ عارِفُ
وقفتُ به والدمعُ أكثره دمٌ كأنىَ من جَفْنى بنَعْمانَ راعفُ (٤)

وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممنَّعة ، فحولها أُسْدٌ يحمونها ، بحيث لا يستطيع المحب الولهان أن يلقاها أو يقرب من حماها ، فدونها الموت الزُّؤام ، وفى ذلك يقول الطُّغْرائى فى لاميته (٥) :

إنى أريد طُروقَ الحىِّ من إضَمٍ وقد حَمَاهُ رُماةُ الحىِّ من ثُعَلِ
يحمون بالبيض والسُّمْر اللِّدانِ به سودَ الغدائر حُمْرَ الحَلْىِ والحُلَلِ
فالحبُّ حيث العِدا والأُسْدُ رابضةٌ حول الكِناسِ لها غابٌ من الأَسَلِ

فهوْ يريد الإلمام بحى معشوقته فى إضم ، فيرى دون ذلك أهوالا ، فقد حماه رماة من

---

(١) اليتيمة ٣/٣٣٦ .
(٢) نَعْمان : واد بين عرفات والطائف . الأراك : من أشجار البادية ، المطارف : الثياب.
(٣) التنائف : المفازات . السرى : السير ليلا .
(٤) راعف : من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف .
(٥) ديوان الطغرائى ص ٥٤ .

عشيرة ثُعل المشهورون منذ امرىء القيس بحذقهم فى رمى السهام ، وهم مسلحون بالسيوف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتنات ، الرابضات فى الخدور وكأنهن ظباء فى كِناس تحوطه غابة ضخمة من الرماح ، والأسد جُثُومٌ ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب .

ونقف عند شاعرين من شعراء الغزل فى العصر .

أبو الفرج[1] بن هندو

هو على بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة على من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبى فى تتمتها . وكان من النابهين فى الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة فى المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تتلمذ فى الفلسفة والطب على يد أبى الخير بن الخمّار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على الصاحب بن عباد ، فقرّبه إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء فى ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بجرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبى : «هو مع ضربه فى الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رِقَّ البلاغة والبراعة ، فَرْدُ الدهر فى الشعر وأوحد أهل الفضل فى صيد المعانى الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : (أفسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون) » . وينشد له كثيراً من غزلياته وخاصة فى التتمة ، من ذلك قوله :

تقول : لو كان عاشقاً دَنِفاً   إذنْ بدتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيهِ
لأُنْكريهِ فإن صُفْرَته   غطَّتْ عليها دماءُ عَيْنَيهِ

وهو برهان بديع ، وطبيعى لمن درس الفلسفة أن يحسن التعليل ، فصفرته متوارية فى خَدَّيه ، تُواريها دماء عينيه . وتكثر هذه العلل الطريفة فى غزله على شاكله قوله :

عارضَ وَرْدُ الغصون وَجنَتَهُ   فاتفقا فى الجمال واختلفا
يزداد بالقَطْف وَرْدُ وَجنَتِهِ   وينقصُ الورد كلما قُطِفا

فوجنة صاحبته وردها غريب ، ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدها به خجلا واحمرارا ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبدا ولا تغيض حمرته ، بل لا يزال يولّد فيه

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الفرج بن هندو اليتيمة ٣/٣٩٤ وتتمة اليتيمة ١/١٣٤ والدمية ٢/٥٧ ومعجم الأدباء ١٣/١٣٦ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة مكتبة الحياة – بيروت) ص ٤٢٩ وفوات الوفيات ٢/٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ٩٣ – ٩٥ .

القطف وردا لا ينتهى ، ويتلطف لصاحبة له قائلا :

أيا بـدرا بلا كَلَفٍ به دونَ الوَرَى كلفى
أبِنْ لى دُرَّ ثَغْرِك ما بهاءُ الدُّرِّ فى الصَّدَفِ

وواضح أنه يطلب إليها فى رقة أن تبتسم له ، حتى تنفتح له أبواب النعيم على مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قُولا لهذا القَمر البادى مالِكَ إصلاحى وإفسادى
زَوِّدْ فؤادا راحلاً قُبْلَةً لابُدَّ للرَّاحل من زادِ

فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قبلة من محبوبته ، تظلُّ تغذِّى مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول فى غزله دائما أن يأتى بصور مبتكرة ، فيجلب كثيرا من الصور الغريبة كقوله :

ليس بى من أذَى الفراق اكتئابٌ قد كفتنى عَيْنى جميعَ اكتئابى
كلما شئتُ أسبلتْ دمَ قلبى فأرى فيه صورةَ الأحباب[1]

فهو لا يكتئب للفراق كغيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتئبوا ، إذ تردُّ عينه عنه اكتئابه بدموعها التى تنزف فيها دماء قلبه ، تلك التى يرى من خلالها صورة الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجى فإنه يناقضهم قائلا :

ليت أن الليل دامتْ ظُلَمُهْ فلقد جلَّتْ لدينا نِعَمُهْ
مثَّلتْ صُدْغَيْكِ لى ظُلْمتُهُ وأرتْ خَدَّيْكِ عينى أنجُمُهْ

فهو يتمثل فى الليل محبوبته ، إذ يرى فى ظلمته خُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها ، ويرى خديها فى نجومه المتألقة ، وهو يُغْدُّ فى الوهم والتخيل ، وله :

قالوا اشتغلْ عنهمُ يوماً بغيرهمُ وخادعِ النفسَ إن النفس تنخدعُ
قد صِيغَ قلبى على مقدار حُبِّهمِ فما لحبٍّ سواهم فيه مُتَّسَعُ

وهو ردٌّ طريف على من يطلبون إليه السُّلوى عن بعض أحبابه بحبٍّ سواهم ، فقلبه مشغول دائما بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معان طريفة كثيرة فى موضوعات الشعر المختلفة ، من ذلك قوله فى بخيل :

لو ماتَ لم يأكل الطعامَ إذا ما كان ذاك الطعامُ من كِيسهِ
ان لم نشاهد دُخانَ مَطْبخهِ فقد شَهِدْنا دخانَ تَعْبيسهِ

---

(١) أسبلت : أسالت .

فهو لا يأكل من كيسه ، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا فى خزنه ، ولم يشاهد أحد له دخانا يعلو مطبخه ، فدخانه دائما يعلو وجهه ، تعبيس ما بعده تعبيس . ويقول فى النهى عن اتخاذ الأولاد والاقتناع بالوحدة :

ما لِلْمُعِيل وللمعالى إنما يسمى إليهنّ الوحيدُ الفاردُ
فالشمسُ تجتابُ السماءَ وحيدةً وأبو بنات النّعْش فيها راكدُ

وبنات النعش نجوم معروفة فى السماء لا تكاد تريم ، تشاهد بالقرب من القطب الشمالى ويدعوه أباها . وله فى الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرّىّ دون طائل :

ضِعْتُ بأرض الرّىِّ فى أهلها ضياعَ حرّف الراء فى اللُّثْغَه
صِرْتُ بها بعد بلوغِ المُنَى يعجبنى أن أبلغَ البُلْغَه (١)

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبى الفرج بن هندو وبراعته فى نظم الشعر والإتيان فيه ، وخاصة فى الغزل ، بالصور والمعانى الطريفة المبتكرة .

أبو الفضل (٢) الميكالى

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وُجَهاء نيسابور ، وطالما عملوا مع السامانيين فى دواوينهم وولاةً لهم على بعض البلدان ، ومرّ بنا تنويه الثعالبى بهم ، وفى أبى الفضل يقول : « الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبى قول بعض الشعراء فى وصف بلاغته وحسن بيانه على هذا النمط :

لك فى المحاسن معجزاتٌ جَمّةٌ أبداً لغيرك فى الوَرَى لم تُجْمَعِ
بحران : بحرٌ فى البلاغة زَانَهُ شِعْرُ الوليد وحُسْن حِفْظ الأصمعى (٣)
وإذا تَفَتّق نَوْرُ شِعرك ناضرا فالحسنُ بين مرصَّعٍ ومصرَّعِ
أَرْجلْتَ فُرْسان القَرِيض ورُضْتَ أَفْـ ـراسَ البديع وأنت أمجدُ مبدعِ (٤)

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبى الفضل ، ويذكر ابن خلكان أنه دخل

---

(١) البلغة : ما يكفى لسدّ الحاجة .
(٢) انظر فى أبى الفضل اليتيمة ٣٥٤/٤ وفوات الوفيات ٥٢/٢ وابن خلكان ٢٠٢/٣ ، ١٠٩/٥
(٣) الوليد : البحترى
(٤) أفراس : ج فرس ، فرسان : ج فارس .

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفا يسمى المتنخل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبي له شعرا قاله فى نكبة ، ويبدو أنه حُبس فى عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها نُبَذ فى الغزل من مثل قوله :

لقد راعنى بَدْرُ الدُّجى بِصدودهِ ووكَّل أجفانى بِرَعْىِ كواكِبهْ
فياجَزَعى مَهْلاً عساه يعود لى ويا كبدى صَبْراً على ما كواكِ به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصدا فى قافيتى البيتين ، فكلمه « كواكبه » فى البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمه « كواك به » . وهذا هو البديع الذى يشير إليه مادحه . إذ شُغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس ، حتى ليروى الثعالبي فى يتيمته أن شاعرا يسمى أبا حفص عمر بن على المطَّوعى ألف فى أجناس التجنيس كتابا ، ويقول الميكالى :

أنكرتِ من أدمعى تَتْرَى سوَاكبُها
سَلِى جُفونىَ هل أبكى سواكِ بها

والبيتان خفيفان فى موسيقاهما ، ولكنه أثقلهما بهذا الجناس المتعمد فى القافيتين : « سواكبها » و « سواك بها » . وقد يحمل الجناس بين كلمتين فى البيت الواحد كقوله :

وأصْداغهُ يَلْسَعْنَنِى كالعَقاربِ وألحاظُه يَفْعَلْنَ فعلَ العُقَّارِ بى

وقوله :

ألا ليت الجوابَ يكون خيْراً فَيَشفِى ما أحاط من الجوَى بى

والعقارب الأولى فى البيت الأول : جمع عقرب ، والعقار فى نهاية البيت : الخمر ، والجوى فى نهاية البيت الثانى : حُرقة الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة « بى » ليتم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب فى أوائله ، ويقول :

ظَبْىٌ يَحارُ البَرْقُ فى بَريقهِ غَنِيتُ عن إبريقهِ بريقهِ
فلم أزل أرْشُفُ من رَحِيقهِ حتى شفيتُ القلب من حَريقهِ

وقد أدخل على كلمة « ريقه » وهو رُضاب الفم الباء ليتم له الجناس بين نهايتى الشطرين المتقابلين ، والجناس فى البيت الثانى أكثر قبولا إذ جانس بين « رَحيقه » و « حريقه » لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاما ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلا ، ويقول :

شاقَهَ كَفِّى رَشاً بقبلةٍ ما شَفَتِ
فقلتُ إذ قَبَّلها يا ليت كفِّىَ شَفَتِى

والجناس مقبول فى البيت الثانى ، وربما الذى جعله مقبولا أن كلمة «كفى» هيأت له واستدعته ، فخفّ التكلف فيه ، ولم تمجّه النفس ، ومثله قوله :

ماذا عليه لو أباحَ رِيقَهُ   لقلبِ صَبٍّ يَشْتكى حَرِيقَهُ

والجناس هنا بين «ريقه» و«حريقه» مقبول لأنه ليس جناسا تاما يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعى استدعاه الكلام ، وقارنْ ذلك بقوله :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلِهِ   فجَفَا رُقادى إذ صَدَفْ
ونثرتُ لُؤْلُؤ أدمـــعٍ   أَضْحَى لها جَفْنِى صَدَفْ

فقد جانس بين قافيتى البيتين باستخدامه كلمة «صدف» الأولى بمعنى أعرض ، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه فى هذا الجناس الثقيل الذى كثيرا ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه فى هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد[1] بن المؤمل ، وقد روى له منه الثعالبى أبياتا كثيرة فى الغزل وغير الغزل . وللميكالى وراء غزله أشعار فى وصف الطبيعة وفى الإخوان ، وله مداعبات ، ولا يخليها أيضا من تصنعه ، كقوله :

فَتىً سَخِطَ النَّصْبَ فى قِدْرِه   كما رَضِىَ الخَفْضَ فى قَدْرِهِ

وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين فى النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئا يطبخ ، كما رضى بالدون فى قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له الثعالبى قوله :

كم والدٍ يَحْرِمُ أولادَهُ   وخيْرُهُ يَحْظَى به الأبْعَدُ
كالعَيْنِ لا تبصِرُ ما حولها   ولَحْظُها يُدْرِك ما يَبْعُدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبى الفضل الميكالى ، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خِصْبُها واضحا ، إذ كان غزير المعانى والصور . وليس من ريب فى أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذى جعله يبالغ فى ذلك ويغلو فيه .

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرا فى إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون فى الملاهى والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروبا من مآسى الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته فى اليتيمة ١٤٨/٤ .

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا أبيات لعضد الدولة فى غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب فى المطر وغناء الجوارى فى السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها فى أشعارهم من مثل قول الصاحب بن عباد فى وصف كأس مملوءة بالخمر(١) .

رَقَّ الزجاجُ ورقَّتِ الخمرُ وتشابها ، فتشاكلَ الأمْرُ
فكأنما خمرٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قدحٌ ولا خَمْرُ

وكان كثيرا ما يحاكى الصَّنَوْبرى فى ثلجياته أو بعبارة أخرى فى ذكره الخمر مع الثلج ونزوله فى الشتاء القارس وفى ذلك يقول(٢) :

أقبلَ الثلجُ فانْبَسِطْ للسرورِ ولشُرْبِ الكبيرِ بعد الصغيرِ
أقبلَ الجوُّ فى غلائلِ نُورٍ وتهادى بلؤلؤٍ منثورِ
فكأنَّ السماءَ صاهرتِ الأرْ ضَ فصار النِّثارُ من كافورِ

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر ، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها فى أيام الثلج وزَمْهريره ، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم فى إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزبارى(٣) :

ما لابنِ هَمٍّ سوى شُرْبِ ابنةِ العِنَبِ فهاتِها قهوةً فرّاجةَ الكُرَبِ
أدْهِقْ كُئوسَكَ منها واسْقِنى طرباً على الغيوم فقد جاءتْك بالطَّرَبِ(٤)
نِثارُ غيْثٍ حكى لونَ الجُمانِ لنا فاشربْ على منظرٍ مستحسنٍ عَجَبِ
جاد الغمامُ بدمعٍ كاللُّجَيْنِ جرى فجُدْ لنا بالتى فى اللون كالذهبِ

فهى فرحتهم ومسرتهم فى دنياهم ، وهم يعبُّون منها أرطالا تلو إرطال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث فى النفوس من طرب فى أيام الشتاء المفضَّضة ، التى تتناثر فيها الأمطار ، وكأنها نِثار عرس مفرح ، نثار فضىّ مبهج ، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البُسْتى المعروف بالغزّال(٥) :

وإذا الهمومُ تطاولتْ فاطلبْ لها عَيْشاً هنيئاً بانتزاعِ مُدَامِ
صَهْباءَ تَسْطَعُ فى الكئوس كأنها نارٌ تجيشُ بوقدةٍ وضِرامِ
من كفِّ ساقٍ لو سقاك بكفِّه سَماً لكان شِفاً لكل سَقامِ

(١) النجوم الزاهرة ١٧١/٤ .
(٢) اليتيمة ٢٦١/٣ .
(٣) اليتيمة ٤١٦/٣ .
(٤) أدهق : املأ .
(٥) الدمية ٣٥٨/٢ .

وكأنها معصورةٌ من خَدِّهِ إذ ظَلْتَ تَرمقهُ بِلَحْظٍ سام

وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التى تلهب فؤاده ، من كف ساق يقدم له بها ما يشفى سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة ، وهو يكبّ عليها غير محتشم ولا مفكر فى رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما يكون ! ودائما تلقانا هذه الخمريات فى تراجم الشعراء ، إذ كان يتورّط فيها كثيرون من مثل عمر المرندى القائل [1] :

لا أحبُّ المُدامَ إلا العَتيقا ويكونُ المزاجُ من فيكِ رِيقا
إنَّ بين الضلوع منىَ ناراً تتلظّى فكيف لى أن أُطيقا
بحياتى عليك يا مَنْ سقانى أرحيقاً سقيتنى أم حريقا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدرى أحريق هى أم رحيق لأنها تدفعه دائما إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها ، إذ تأخذ عليه طريقه . وإنها لتظل تملؤه حبًّا لها وشوقا لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدرى أيرتشف رحيقا أو نارا أو قل أيرتشف شرابا هنيئا أو سُمًّا زعافا ، وهو ممعن فى الشرب متعلق به ، لا يستطيع فكاكا منه ولا خلاصا . وكانت للخمر مواسم عندهم هى الأعياد الفارسية والمسيحية ، فنى عيد الشّعانين وفى أعياد النّيروز والمهرجان والسُّذَق أو النار المجوسية يشربون منها ويعبّون فى احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيرا وسط الرياض ، ولذلك يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج . وتلقانا فى أثناء ذلك أبيات طريفة من مثل قول أبى منصور قَسم بن إبراهيم ، وكان ينظم باللسانين العربى والفارسى [2] :

وحُجِّبَ فى الثلج الربيعُ وحُسْنُهُ كما اكتنَّ فى بَيْضٍ فِراخُ الطَّواوس

وكانوا يخرجون أحيانا للصيد والطَّرْدِ . ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديعة [3] . ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التى نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه فى العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٩١ ومواطنه ابن سكرة . و يلاحظ ذلك صاحب الدمية حين يترجم للمشطّب الهمَذانى ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها على منوال ابن الحجاج [4] » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى الصاحب بن عباد الوزير الوقور تجرى أمثلة من هذا الفحش على لسانه فى أشعاره [5] . وهى وصمة لا

(١) اليتيمة ٣ / ٤١١ .
(٢) تتمة اليتيمة ٢ / ٤٥ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٢٢١ .
(٤) الدمية ١ / ٥٧٢
(٥) اليتيمة ٣ / ٢٧٢ - ٢٧٥

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون فى العصر هما أبو بكر القُهُستانىّ وأبو الحسن الباخرزىّ .

أبو بكر[1] القُهُسْتانىّ

هو على بن الحسن القُهُسْتانى من قرية رُخَّج من قرى كابُل ، بزغ نجمه فى دولة السلطان محمود الغزنوى ، إذ سلكه بين ندمائه ووظفه فى دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيسا لديوانه فى أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان ممدَّحا ، مدحه كثيرون منهم الباخرزى والفَرُّخى السجستانى الشاعر الفارسى المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوى ، بمثل قوله :

محمدُ بنُ محمودٍ أبو أحـ ـمَدٍ مَوْلَى أميرِ المؤمنينا
جلالُ الدولةِ العَلْياء دُنْيا جمالُ المِلَّة الغَلْباء دينا
ولىُّ العهدِ عهدِ المُلْك طُوبَى لنا إذ ظَلَّ ظِلُّ الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتُعَدُّ الفترة التى قضاها معه أزهى فترات حياته ، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصه حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه فى ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما ينى يمزح فيها وفى مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعمَّاة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقةُ الساقِ لا عروقَ لها تَدوسُ رزقَ الوَرَى بهامَتِها

وهو لغز أراد به مغرفة الباقلاَّنى يغرفُ بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى . وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر ، ونراها مبثوثة فى كتاب اليتيمة فى أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعابات كانت تطفو فى مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ونرى القهستانى يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفه القادر بالله (٣٨٢ - ٤٢٤ هـ) قائلا :

ولم يرنى ذو مِنَّةٍ غيرُ خالقى وغيرُ أميرِ المؤمنين ببابهِ

ويمدح وزيره وكاتبه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

---

(١) انظر فى القهستانى تتمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر ٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدائق السحر فى دقائق الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .

ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوى على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده فى أيديهم إلى أن توفى . ولا تُعرَفُ بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُنى بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمه بعض معاصريه بالمروق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المُزاح ، راغبا فى اللهو والمِراح ، وله فى ذلك خاطرٌ وَقّاد وحكايات متداولة . وله خمريات بديعة ، كان يتغنى فيها المغنون بحضره الأمير محمد الغزنوى من مثل قوله :

قُمْ يا خليلى فاسْقِنِى كشُعاع خَدِّك من شرابِ
فلقد يَمُرُّ العيش مُنْـ ـقَرِضاً ولا مرَّ السَّحاب
فانعَمْ بعيشك ما استطَعْـ ـتَ ولا تُضِعْ شرْخَ الشبابِ
فلكم أضعتَ من الشبا ب وما استفدتَ سوى اكتئابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفنى عمره الذى يمر مُسْرِعاً مرَّ السحاب ، وقبل أن تذبل زهرة شبابه ، وكم أضاع من أيام الشباب ، ولم يفد - كما يقول - سوى الاكتئاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تمتَّعْ من الدنيا فأوقاتُها خُلَسْ وعُمْرُ الفتى - مُلِّيتَ - أطولُه نَفَسْ .
وسارعْ إلى سَهْمٍ من العيش فائزٍ فما ارتدَّ سَهْمٌ قَطُّ يوما ولا احتبَسْ
ولا تتقاضَ اليوم هَمَّ غَدٍ ودَعْ حديثَ غَدٍ فالاشتغالُ به هَوَسْ
هىَ الرُّوحُ كالمصباح والرَّاحُ زَيْتُها فدونك عَنىِّ إنما الرَّأْىُ يُقْتَبَسْ

وهى دعوة ملحّة لانتهاز فرصة الشراب ، فليس فى الدنيا وراءه - فى رأيه - نعيم ولا متاع ، ودَعْك من الهموم كما يقول ، ودع التفكير فى الغد . وهى نفس النغمة التى نجدها فى رباعيات الخيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهى سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التى هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونه تنطفئ وتظلم ، وبه تضيىء ضوء الفرح والبهجة والمرح . ودائما تلقانا هذه الخمريات البهيجة عند القهستانى وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلن دائما أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج فى الوزير الميمندى كاتب السلطان محمود الغزنوى وبعض معاصريه ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تمتَّعْ بيومٍ مُسْعِدِ النُّجْحِ مُسْعِفِ ودَعْ قولَ لاحٍ مُعْنِتِ النُّصْحِ مُعْنِفِ

وهى مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضا كان يقتبس كثيرا بعض

الآيات القرآنية كقوله فى بعض مديحه :

سما بك من فوق السموات رُتْبَةً ... أبٌ لك يدعو اللهَ فى السِّرِّ والجَهْرِ
كما قد دعَا موسى لهرون ربَّهُ ... أن (اشْدُدْ به أَزْرِى وأَشْرِكْهُ فى أمرِى)

ولا ريب فى أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتبا نابها دوّنت رسائله كما دوّنت أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

أبو الحسن [١] الباخرْزِىّ

له كنيتان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه على بن الحسن بن على بن أبى الطيب ، من باخَرْز ، من نواحى نَيْسابور ، ونراه يُعْنَى فى شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء بنيسابور . ويكِبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ويختص بملازمة دروس الفقيه المشهور لعصره أبى محمد الجُوَيْنى والد إمام الحرمين . ويتجه إلى فن الكتابة . ويوظَّف فى ديوان الرسائل لدى الغَزنويين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه يرحل إليهم ويشتغل فى دواوينهم ، إذ يصبح كاتبا للسلطان « طُغْرُل » وله فيه مدائح بديعة من مثل قوله :

سِرْنا ومرآة الزمانِ بحالها ... فالآن قد مُحِقتْ وصارتْ مِنْجَلاَ
تَخِدُ الرِّكابُ فلا تعوجُ بنا على ... طَلَل الحبيب ولا تُحَيِّى المنزلا [٢]
وتحرِّكُ الأعطافَ تَشْمِيرا بنا ... تتيمَّم الملكُ المظفَّرَ طُغْرُلا

وقرّبه منه الوزير الكُنْدرى ، وكانا يتعارفان فى شبابهما ، ويبدو أنه هو الذى وصله بطغرل ، وكان يلازمه فى حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صحبه معه ، وفيها مدح الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التى صدَّر بها ديوانه مفتتحاً لها بقولـه :

عِشْنا إلى أن رأينا فى الهوى عجباً ... كلُّ الشهور وفى الأمثال عِشْ رَجَبا
أليس من عجبٍ أنى ضُحَى ارتحلوا ... أو قدتُ من ماء دمعى فى الحشَا لهَبا
وأنَّ أجفان عينى أمطرتْ وَرِقاً ... وأن ساحة خَدِّى أنبتتْ ذَهَبا
وإنْ تَلهَّبَ بَرْقٌ من جوانبهم ... توقَّد الشوق فى جَنْبَىَّ والتهبا

ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

---

(١) انظر فى الباخرزى كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة ٩٩/٥ والسبكى ٢٥٦/٥ واللباب ٨٣/١ ومرآة الجنان ٩٥/٣ وشذرات الذهب ٣٢٧/٣ وبراون (ترجمة الشوارب) ص ٤٥١ .

(٢) تخد : تسرع . تعوج : تميل

وتصنع ، على نحو ما نرى فى البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : «عِشْ رَجَبا تَرَ عَجَباً» فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة ، ومضى فى تصنعه ، فماء دموعه يوقد جحيما فى حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهبا . وحين رأى البغداديين يستبردون أشعاره انتقل إلى الكَرْخ وسكنها وخالط فضلاءها وسُوقَتها مدة ، واقتبس من لغتهم وظَرْفهم ، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله :

هَبَّتْ علىَّ صَباً تكاد تقولُ ... إنى إليك من الحبيب رسولُ
سَكْرَى تجشَّمتِ الرُّبَى لتزورنى ... من عِلَّتى وهُبُوبُها تعليلُ

فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورقَّ طبعه . وظلَّ ملازما الكندرى فى مدينة الرَّىِّ عاصمة طغرل عاملا فى دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض السلطان ألْب أرسلان على الكندرى وأمر بقتله ، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعْنَى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذى نرجع إليه كثيرا ، مذيِّلا به على يتيمة الدهر للثعالبى ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . واستقال من عمله فى دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله فى إحدى ليالى أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربى والفارسى ، وله فى الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها «طرب نامه» أو رسالة الطرب ، وهى مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائى للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره .

كم مؤمنٍ قَرَصَتْهُ أظفارُ الشِّتا ... فغدا لسُكَّان الجحيم حَسُودا
وترى طيورَ الماء فى وُكناتها ... تختار حَرَّ النار والسَّفُّودا
وإذا رميتَ بفضل كأسك فى الهوى ... عادتْ عليك من العقيق عُقودا
ياصاحبَ العودين لا تُهملْهما ... حَرِّق لنا عودا وحَرِّكْ عودا

والصور فى الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالمؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشْوَى على السفود . ولو رميتَ فى الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا . وينادى على المغنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصِّلاء . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قالتْ وقد ساءلتُ عنها كلَّ مَنْ ... لاقيتُهُ من حاضرٍ أو بادِى
أنا فى فؤادك فارْمِ طَرْفك نحوه ... تَرَنى فقلتُ لها وأين فؤادى

ففؤاده ليس عنده ، بل هو عندها ، إذْ ضاع منه ، وهى التى تعرف مكانه ، وماذا

عليها لو ردته إليه . وله من جملة أبيات :

بصورة الوَثَن استعبَدْتِنِي وبها فَتَنْتِنِي وقديما هِجْتِ لى شَجَنا
لا غَرْوَ أن أحرقتْ نارُ الهَوى كبدِى فالنارُ حَقٌّ على من يَعْبُدُ الوَثَنا

والصورة طريفة غير أنه يداخلها شيىء من التكلف ، إذ حاول أن يعلل لحرق نار الهوى لكبده بأن صاحبته استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عَبَد وَثَناً وحقَّت عليه النار ، ولم يكن فى حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو ، فنار الهوى تحرق أكباد الشعراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفا إذ يقول فى غزله :

زكاةُ رءوسِ الناس فى عيدِ فِطْرِهم يقول رسولِ الله -صاعٌ من البُرّ
ورأسُكِ أغلى قيمةً فتصَدَّقى بفيك علينا فهْو صاعٌ من الدُّرّ

فقد وضع صورة الزكاة فى عيد الفطر ومايجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البُرّ أو القمح فى هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبته ينبغى أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من البر وإنما بصاع من الدُّرّ ، يريد ثغرها وما فيه من دُرّ الأسنان . والصورة فى غاية التكلف . وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر ، وكأنما أخذ يُعْيِى الشعراء أن يأتوا بصور طبيعية أوكأنما أحسُّوا أن أسلافهم استنفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة المبعدة فى الغرابة من مثل قول الباخرزى أيضا لبعض صواحبه :

وأبكى لدُرّ الثَّغر منكِ ولى أبٌ فكيف يُديم الضَّحكَ وهْو يتيمُ

فهو يبكى لأنها لا تنيله شيئا ، ويعجب أن يبكى وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو يتيم . والتورية واضحة ، فالمعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظير حسنا . والتكلف فى البيت أو قل فى الصورة شديد الوضوح .

٣

شعراء الزهد والتصوف

لا شك فى أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا ما يستتبعه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى الله والاستماع إلى الوعاظ فى المساجد بنيسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم فى الدار الآخرة . وكان هؤلاء الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمُّون مجالس وعظهم مجالس التذكير ، يذكرون

الناس بالحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان ، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيمانا وتقوى وورعا . وكانت العامة تُشْغَفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منية إلى الله مغذِّيةً مشاعرها وعواطفها بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية[١] ، وطبيعي أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على ألسنة الوعاظ والفقهاء والنسَّاك ، فهو الشعر الذى تهوى إليه أفئدة الشعب ، وللملك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا فى العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبي الفرج الساوى حين توفى السلطان فخر الدولة البويهى ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله[٢] :

هىَ الدنْيا تقولُ بملء فيها ... حَذارِ حذارِ من بَطْشِى وفَتْكى
فلا يغرركمُ حُسْنُ ابتسامى ... فقولى مضحكٌ والفعلُ مُبكى
بِفَخْرِ الدولة اعتَبِروا فإنى ... أخذتُ الملْكَ منه بسيفِ هُلْك
وقد كان استطالَ على البَرايا ... ونظَّم جمعهم فى سِلْك مُلْكِ
فلو شمسُ الضُّحَى جاءتْه يوماً ... لقال لها عتوًّا : أُفٍّ منكِ
ولوزُهْرُ النُّجومِ أبتْ رِضاه ... تأبى أن يقول : رضيتُ عنكِ
فأمْسَى بعد ما فَرَعَ البرايَا ... أسيرَ القَبْر فى ضِيقٍ وضَنْكِ
وظنِّىَ أنه لو عاد يَوْماً ... إلى الدُّنْيا تَسَرْبَلَ ثَوْبَ نُسْكِ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغى عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبريائه وعتوِّه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة النُّسَّاكِ . وفى كِتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمديح الأعيان والوجهاء ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويُورد الثعالبى أطرافا من شعره الزاهد[٣] من مثل قوله :

عَبْدٌ عَصَى ربَّه ولكنْ ... ليس سوى واحدٍ يقولُ
إن لم يكن فِعْلُهُ جميلا ... فإنما ظنُّه جَمِيلُ

---

(١) انظر ترجمته فى الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين للسيوطى وتتمة اليتيمة ١١٥/٢ والسبكى ٢٧١/٤ .
(٢) اليتيمة ٣٩٣/٣ .
(٣) اليتيمة ٤٣٢/٤ .

وهو يصوِّر فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه فى لطفه ، ويذكر الثعالبى أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :

أتيتك راجلا ووَدِدْتُ أنى ملكتُ سوادَ عيْنى أمْتطيهِ
ومالى لا أسيرُ على المآقى إلى قبرٍ رسولُ اللهِ فيه

ومن شعراء كِتاب اليتيمة الذين شاركوا فى هذا الشعر الزاهد الذى يفوح بالتقوى أبو جعفر البحَّاث الزُّوزَنى أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله ، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كئوس شراب هنئ وشراب بغيض مرير ، ويفيض فى الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح فى شغل بميراثه ، يقول[1] :

سباعٌ حَواليه زُرْقُ العيونِ كلابٌ وأُسْدٌ وذئبٌ أزَلُّ[2]
فهذا يجاذب ما قد حواهُ وهذا يُخالسهُ ما فضَلْ
إذا وضعوه على نعْشِهِ أشاعوا البُكا وأسرُّوا الجَذَلْ[3]
وإن دفنوه نَسوهُ مَعاً وكلٌّ بميراثه مُشْتَغِلْ

ويبكى أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب فى رأسه ، ويتوب إلى ربه منيبا مستغفرًا . ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من الشعراء فى كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القُصَّاص الوعاظ ، وكان طبيعيا أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدِّثين والفقهاء . وللزمخشرى ديوان لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو مليء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللغزالى بدوره أشعار زهدية كثيرة وقد يترع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله[4] :

سَقَمى فى الحبِّ عافيتى ووجودى فى الهَوى عَدَمى
وعذابٌ يرتضون بهِ فى فَمى أحلَى من النِّعَمِ
ما لضُرٍّ فى محبتكم عندنا واللهِ مِنْ ألَمِ

(١) اليتيمة ٤/٤٤٥ .
(٢) ذئب أزل : ذئب يتولد بين الضبع والذئب .
(٣) الجذل : الفرح .
(٤) انظر ترجمة الغزالى فى السبكى ٦/٢٢٢ .

وللفخر الرازى المار ذكره أشعار زهدية طريفة . وكان علامة فى علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل . وله فى جميعها مؤلفات كثيرة . وكان فى الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات فى هراة ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد فى الوعظ ويكثر من البكاء . ويشتهر له قوله[1] :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ   وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضَلالُ
وأرواحُنا فى وَحْشةٍ من جُسومنا   وحاصلُ دُنْيانا أَذًى ووَبالُ
ولم نَسْتَفِد من بَحْثنا طولَ عُمْرنا   سوى أنْ جَمَعْنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ   فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جِبالٍ قد علتْ شُرُفاتِها   رجالٌ فزالوا والجِبالُ جِبالُ

فكل ما فى الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال ، وما الدنيا ؟ إننا لا نجنى منها سوى الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذى يحيط بالناس جميعاً وبالدول مها عظم سلطانها . فمآلها إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعى القزوينى الفقيه الشافعى المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس فى قزوين لسماع الفقة والتفسير والحديث النبوى . ومن قوله فى الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله فى اليسر والعسر دائما أبدا[2] :

إنْ كنتَ فى اليُسْر فاحْمَدْ مَنْ حَباك بهِ   فليس حقًّا قضَى لكنّه الجودْ
أو كنْت فى العُسْرِ فاحمَدْه كذلك إذ   ما فوقَ ذلك مصروفٌ ومَرْدود
وكيفما دارتِ الأيامْ مقبلةً   وغيرَ مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ

وكان يقول : « اعلم أن الناس فى الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسُّون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم حبالله تعالى . لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى . وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة . وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَستعذبون بَلاياهمْ كأنهمُ   لا ييأسون من الدنيا إذا قُتِلوا

تسُرهم البلية كما تسرهم النعمة . وقوم يتركون الاختيار ، ويوافقون الأقدار ، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب » . وفى ذكر الرافعى لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان ينزع بزهده نزعة صوفية . والتصوف كثير فى العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

(1) ابن خلكان ٢٥٠/٤ والسبكى ٩٦/٨ .   ٢٨٦/٨ وما بعدها
(2) انظر فى الأبيات وكلام الرافعى التالى السبكى

شعراء اللسان العربى ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسى ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازى ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله[١] .

يا نديمى قم بليلٍ واسقِنى واسقِ النّدامَى
خَلِّنى أَسْهَرُ ليلى ودَعِ الناسَ نيامًا
فى أوانٍ كشفَ الوَرْ دُ عَنِ الوجه اللّثاما
قُلْ لمن عيَّر أهل الـ ـحبِّ بالحبِّ ولا ما
لا عرفتَ الحبَّ هيها تَ ولا ذُقْتَ الغَرامَا

وهى خمرية صوفية طريفة . ومرَّ بنا فى الفصل الأول أن المتصوفة فى إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنيًّا واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين ، هما عبد الكريم القشيرى ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ .

عبد الكريم[٢] القُشَيْرِىّ

ولد فى قرية أُسْتُوَا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نَيْسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفى الكبير أبى على الدقّاق ، فأُعجب به وسلكه بين مريديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبى بكر الطُّوسى الفقيه الشافعى ، ثم اختلف إلى دروس ابن فُورك حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبى إسحق الإسفرايِنى الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ، ونظر فى كتب القاضى الأشعرى أبى بكر بن الطيب الباقلانى . وسرعان ما أصبح علامة فى الفقه الشافعى وفى التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعرى . وزوّجه الدقاق ابنته حبًّا له ، حتى إذا توفى خلفه فى مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد . وأخذ فى التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه « التيسير فى علم التفسير » وهو – كما يقول ابن خلكان – من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج فى رفقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجُوَيْنى والد إمام الحرمين وأحمد

---

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملى (طبعة الحلبى) ٢٦٣/١

(٢) انظر فى ترجمة القشيرى كتاب الأنساب للسمعانى ٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣ ودمية القصر والسبكى ١٥٣/٥ والمنتظم لابن الجوزى ٢٨٠/٨ وإنباه الرواة للقفطى ١٩٣/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٣١٩/٣ واللباب ٢١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٩١/٥ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبى ٢٥٩/٣ .

ابن الحسين البيهقي وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد لنفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صَوْب . وذكره الخطيب البغدادى ، فقال : «قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحدَّث ببغداد وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقصّ ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة» ويقول الباخرزى واصفاً وعظه : «لو قَرع الصَّخْر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس في مجلسه لتاب» .

وكان يعتنق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعرى في علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو – كما مر بنا في الفصل الأول – من أوائل من رأبوا الصدع الذى كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك في رسالته المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور ، والتي وجّهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني . ولا ريب في أن له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينهما من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهى إلى النسك والمحبة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هي صورة التصوف السني الذى رفع عماده القشيرى ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة ، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وإذا سُقيتُ من المحبة جرْعةً ... ألقيتُ من فَرَطِ الخُمار خِمارى
كم تبتُ قصداً ثم لاحَ عِذارُهُ ... فخَلَعْتُ – من ذاك العِذار – عِذارى

والخُمار بضم الخاء بقية السكر والخِمار بكسر الخاء الحجاب . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهى ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تتراءى له شواهده . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول بخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول :

ومَنْ كان في طول الهوى ذاق سَلْوةً ... فإنىَ من لَيْلَى لها غيرُ ذائقُ
وأكثرُ شىء نلتُه من وِصالها ... أمانىُّ لم تَصْدُقْ كخَطْفةِ بارقِ

فهو لا يسلو هواه ولا يكفُّ عنه ، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطيع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعثر في شباكه ، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب . ويقول :

سَقَى اللهُ وقتا كنت أخلُو بوجْهكم ... وثَغْرُ الهَوَى فى رَوْضة الأُنس ضاحكُ
أقمْنا زماناً والعيونُ قريرةٌ ... وأصبحتُ يوماً والجفونُ سوافكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذى يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزى . فقد كان ينعم به زماناً أو قل كان يخيَّل إليه أنه ينعم به ، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حلماً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع ، بكاء كله جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يا مَنْ تقاصَر شُكْرى عن أياديهِ ... وكَلَّ كُلُّ لِسانٍ عن معاليهِ
وجودُه لم يزل فَرْداً بلا شَبَهٍ ... عَلاَ عن الوقت ماضيهِ وآتيهِ
لا دَهْرَ يُخْلِقُه لا قَهْرَ يَلْحَقُهُ ... لا كَشْفَ يُظْهِره لا سِتْرَ يُخْفيه
لاعَدَّ يجْمَعُه لاضِدٌّ يَمْنعه ... لاحَدٌّ يَقْطعه لا قُطْرَ يَحْويهِ
لاكَوْنَ يَحْصُره لاعَوْنَ يَنْصُره ... وليس فى الوهم معلومٌ يُضاهيه
جلالُه أزلىٌّ لازوالَ لـه ... ومُلْكه دائمٌ لا شىء يُفْنيه

والتبتُّل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبيه له ، سما عن كل زمن ماض وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود فى كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حَصْر ، ودون حَدٍّ يطيف به أو مكان يحتويه ، ليس كمثله شىء ، أزلى لازوال لجلاله ولا فناء لملكه . وهو تجريد قوىّ للذات العلية ينفصل به القُشَيْرى وأصحاب التصوف السنى عن أصحاب التصوف الفلسفى وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جنِّبانى المجونَ يا صاحِبيَّا ... واتْلُوا سُورَةَ الصَّلاحِ عَلَيَّا
قد أجبْنا لزاجرِ العقل طَوْعاً ... وتركنا حديثَ سَلْمَى ومَيَّا
ومنَحْنا لموجِب الشَّرْع نَشْراً ... وشرَعْنا لموجب اللَّهْوِ طَيَّا
ووجدنا إلى القناعة باباً ... فوضَعْنا على المطامع كَيَّا
كنتُ فى حَرِّ وَحْشَتى لاختيارى ... فتعوَّضْتُ بالرِّضا منه فَيَّا[1]
والذين ارتَوَوْا بكأسِ مُناهم ... فعلى الصَّدِّ سوف يَلْقَون غَيَّا

وهو يعلن فى الابيات سلوكه فى الطريق ، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً أو يشبه المجون ، وقد لبى عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه ، فهو يعيش للشريعة المحمدية قانعاً ، زاجراً مطامعه فى متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضى أيامه قبل تصوفه فى فيافٍ

---

(١) فيا : ظلا

وحْشَةٍ شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كئوس المنى . ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرّة أو يصدّ عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . ومازال القشيرى غارقاً فى هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفى سنة ٤٦٥ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبى على الدقّاق .

يحيى[1] السُّهْرَوَرْدِىّ

وُلد يحيى بن حبَش حوالى سنة ٥٤٥ للهجرة بِسُهْرَوَرْد فى الإقليم الإيرانى المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة ، ثم إلى أصْفهان حيث درس الفقه وأكبَّ فى أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم فى الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة . ومدّ تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفى ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد — كما يقول دارسوه — على غنوصية آسيوية ، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التى بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنَّفه : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خصَّ به المنطق الذى يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات . وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراهما ضروريين للمتصوف ، حتى يتعانق فى داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجَّ السهروردى فى نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها فى ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفى رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثَمَّ كان يقول بوحدة الوجود وبالحلول الإلهى فى الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى المتوغل فى تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبيعياً أن يكفِّره الفقهاء فى « حلب » وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة . ولما تحقق القتلَ كان يُنْشد :

(١) انظر فى ترجمة يحيى السهروردى معجم الأدباء لياقوت ٣١٤/١٩ وابن خلكان ٢٦٨/٦ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أصيبعة بينه وبين الشهاب عمر السهروردى المتصوف البغدادى السنى ، وانظر مرآة الجنان ٣ /٤٣٤ ولسان الميزان ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة ١١٤/٦ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمى على ترجمته فيها وفتاوى ابن تيمية ٩٣/٥ والفلسفة الصوفية فى الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربى) ص ٤٤٠ وما بعدها .

أرى قَدمى أراقَ دَمى وهانَ دَمى فها نَدمى

ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات ، فوحِّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عرّيان ، ولو كان فى الوجود شمسان لانطمست الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير ما كان :

وخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعَتى على الأكْوانِ

والبيت يشير بقوة إلى فكرتى الحلول والاتحاد فى الذات العلية وكان يكثر من ترداد قوله :

لو علمنا أننا ما نلتقى ما قضينا من سُلَيْمَى وَطَرَا

والسُّهْرَوردى يشير فى وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفى كثير من مثل قوله :

أقول لجارتى والدمعُ جارِى ولى عَزْمُ الرحيل عن الديارِ
ذَرِينى أن أسيرَ ولا تَنُوحى فإن الشُّهْبَ أشْرَفُها السَّوارى
وإنى فى الظلام رأيت ضوءاً كأن الليل بُدِّل بالنهارِ
ويبدو لى من الزَّوْراء بَرْقٌ يذكّرنى بها قُرْبَ المزارِ
إذا أبصرتُ ذاك النور أفْنَى فما أدرى يَمينى من يسارى

وهو يذكر فى الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإلهه وما أنعم عليه – كما يتصور – بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائية رائعة يستهلها بقوله :

أبداً تحنُّ إليكمُ الأرواحُ ووِصالُكم رَيْحانُها والرَّاحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاحُ
وارَحْمتا للعاشقين تكلّفوا سَتْرَ المحبة والهوَى فضّاح

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلا إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تتمنى وصالها لتجد فيه ريحانها وراحها ونشوتها التى لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب لتحن إليها دائما مشتاقة مولعة شاعرة بنعيم ما بعده نعيم . ويأسى لعاشقى الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم ولا كتمانه ، لدموعهم التى تقطر دائما على خدودهم سَحاً وتسكابا ، ويتضرّع إلى المحبوب قائلا :

عودوا بنور الوَصْل من غَسَق الجَفَا فالهَجْرُ لَيْلٌ والوصالُ صَباحَ
صافاهمُ فصفَوْا له فقلوبُهم في نورها المِشْكاةُ والمِصْباح
وتمتَّعوا فالوقتُ طاب بقربكم راقَ الشرابُ ودارتِ الأقداحُ

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام داجٍ ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : (الله نورُ السموات والأرض مثلُ نوره كمشْكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زَيْتونة لا شرْقية ولا غربية يكاد زَيْتُها يضيئ ولو لم تَمْسَسْهُ نارنورٌ على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس والله بكل شىء عليم) وكأن فى قلوب الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يَعْنى السكر والنعيم بنشوة هذه الخمر الربانية التى راقت وأخذت كئوسها وأقداحها تدور على المحبين كما يقول ، أقداح من شرابٍ روحىٍّ مصفىٍّ ، ويقول مصورا لهم فى حال سكرهم :

لا يَطْربون بغير ذِكْرِ حَبِيبهم أبداً فكلُّ زمانهم أفراحُ
حَضَرُوا وقد غابتْ شواهد ذاتهم فتهتَّكوا لمَّا رأوه وصَاحوا
أفناهمُ عنهم وقد كُشِفَتْ لهم حجبُ البَقا فتلاشَتِ الأرواحُ

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذواتهم وأجسادهم بل هم فانون فعلا ، لا يدركون حِساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا فى الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسُّون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصيحون ويعلو صياحهم فرحا وابتهاجا بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من الحجب والأستار. وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان ينكرها – كما قدمنا – أصحاب التصوف السنى ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحادا ، ولا يدَّعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيرى آنفاً لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثله شىء ، ولا كم له ولا كيف (لا تُدْركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليحيى السهروردى قصيدة فى النفس حاكى فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التى صور فيها النفس سابقة للجسد ، وهى تحل فيه ودائما متشوقة إلى عالمها المثالى الأول ، وفى ذلك يقول السُّهْرَوَرْدِىّ :

خَلَعَتْ هياكلَها بِجَرْعاء الحِمىَ وصَبَتْ لَمغْناها القديم تَشوُّقا

فهى تشتاق عالمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذى حلت فيه راضية مرضية ، ولعل فى هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردى بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ونجدها متراصّة فى مطوّلة زهير وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطّرون خِبْراتهم شعرا ، ليستنفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل مبثوثة فى الشعر العربى طوال العصر الإسلامى ، وتكثر فى العصر العباسى وتتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التى عرفها العرب والتى نُقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وما فيه من أمثال وحكم فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج فى ترجمته بكتابه الأغانى منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسى التى ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفى شعر أبى نواس بعض أمثال فارسية نصّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسى الأول والعباسى الثانى يسلكون فى أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا فى هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة فى لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد تصّدى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية ، هى ترجمات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبى عبد الله الضرير الأَبِيوَرْدِىّ ، فقد ذكر له الثعالبى قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله [1] :

صِيامى إذا أفطرتُ بالسُّحْتِ ضَلّةٌ ... وعلْمى إذا لم يُجْدِ ضربٌ من الجَهْلِ [2]

وتركيَى مالاً جمعتُ من الرِّبا ... رِياءٌ وبعض الجود أخزَى من البُخْلِ

كسارقةِ الرُّمّان من كَرْم جارها ... تعود به المَرْضىَ وتطمع فى الفَضْلِ

ألا رُبَّ ذِئبٍ مرَّ بالقوم خاوياً ... فقالوا علاه البُهْرُ من كثرة الأكل [3]

---

(١) اليتيمة ٤/٩٠

(٢) السحت : الكسب الحرام .

(٣) البهر : تتابع النفس

وكان الشعراء يضمّنون قصائدهم وأشعارهم كثيرا من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطُّغرائى فى لاميته المسماة لامية العجم ، وهى تَغصّ بالحكم والأمثال منذ مطالعها ، ونكتفى بسرد طائفة من طرائفها على هذا النمط :

حبُّ السلامة يَثْنى هَمَّ صاحبه ... عن المعالى ويُغْرِى المرءَ بالكسلِ
أعلِّلُ النفسَ بالآمال أرقبُها ... ما أضيقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأملِ
تقدّمَتْنى أناسٌ كان شَوْطُهمُ ... وراء خَطْوِىَ إذ أمشى على مَهَلِ
وإن عَلانىَ مَنْ دونى فلا عجبٌ ... لى أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ
أعْدَى عدوِّك أدْنَى مَنْ وثِقْتَ بِهِ ... فحاذرِ الناسَ واصحبْهم على دَخَلِ [1]
وإنما رجلُ الدنيا وواحِدُها ... مَنْ لايعوِّل فى الدنيا على رَجُلِ

وأكبر الظن أن الطغرائى لم ينقل شيئا من هذه الحكم عن الفرس إنما هى ثمرة تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله .

ونمت الفلسفة فى هذا العصر نمواً واسعا ، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل الثانى ، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تَتَّشح بشىء من تفلسفه قليلا أو كثيرا وأُثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية فى الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية . وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن النفس ، وهى تصوِّرها فى عالمها العلوى الذى كانت تَحْيى فيه قبل اتصالها بالبدن حين يَتَخلّق فى الرحم ، وفى عالمها السُّفْلى حين تمَّ هذا الاتصال بالجسد . وهو اتصال تُقْدم عليه وهى كارهة ، وتظل فى أثنائه متشوقة إلى عالمها العلوى ، مع ما حدث لها فيه من ألفة ، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة ، يقول [2] :

هبطتْ إليك من المحلِّ الأرْفعِ ... وَرْقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ ناظرٍ ... وهىَ التى سَفَرتْ فلم تتبرقَعِ
وصلتْ على كُرْهٍ إليكَ وربما ... كرهتْ فراقَكِ وهْىَ ذات تفجُّعِ
أنفتْ وما ألفتْ فلما واصلتْ ... ألفتْ مجاورةَ الخرابِ البَلْقَعِ
وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحِمَى ... ومنازلاً بفِراقها لم تقْنعِ
حتى إذا اتصلتْ بهاء هُبوطها ... من ميم مَرْكزها بذاتِ الأجْرعِ
علقتْ بها ثاءُ الثَّقيلِ فأصبحتْ ... بين المعالم والطُّلول الخُضَّعِ

---

(١) دخل : خبث ومكر

(٢) انظر العينية فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٤٦ وقارن بابن خلكان ١٦٠/٢

والورقاء : الحمامة كنى بها عن النفس . وهو يصوّرها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى يجد فيه سعادتها وكمالها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حسٍّ ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقته توجعت له وتفجعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر . وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقته ، عشقت مشخصّاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدت تحنُّ إلى دياره ومعالمه وطلوله حنين الشعراء لمعشوقاتهم ، ويمضى قائلا :

تبكى وقد نسيتْ عهوداً بالحِمَى بمدامعٍ تَهْمِى ولما تُقْلِعِ
وتظل ساجعةً على الدِّمَنِ التى دَرَسَتْ بتكرار الرياحِ الأربَعِ
حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمَى ودَنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغدتْ مفارقةً لكلِّ مخلَّفٍ عنها حَليفِ التُّرب غيرِ مشيَّع
هجعتْ وقد كُشِفَ الغطاء وأبصرتْ ما ليس يُدْرَكُ بالعيون الهُجَّعِ
وغدتْ تغرِّد فوق ذِرْوةِ شاهقٍ والعلمُ يرفع كلَّ مَنْ لم يُرْفَعِ

فهى تحنُّ الى عهودها القديمة وتبكى بدموع غزارٍ الدِّمَنَ أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى ، بل حتى فارقته فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكينتها واستراحت ، إذ كُشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألمَّ بها النوم ، وغدت تَغرِّد فرحة ، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسيته فى سُكناها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأىِّ شَىءٍ أُهبِطَتْ من شاهقٍ سامٍ إلى قَعْرِ الحضيض الأَوْضَعِ
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ طُويتْ عن الفَطِنِ اللبيب الَّلوْذَعى
إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيفُ فصدَّها قَفَصٌ عن الأَوْجِ الفسيح الأَرْبَعِ
فهبوطها -لاشكَّ- ضربةُ لازبٍ لتكون سامعةً لما لم تسمع
وتعود عالمةً بكل خَفِيَّةٍ فى العالمين فَخَرْقُها لم يُرْقَعِ
وهى التى قَطَعَ الزمانُ طَرِيقَها حتى لقد غَربتْ بغير المطلعِ
فكأنها بَرْقٌ تألَّقَ بالحِمَى ثم انطَوَى فكأنه لم يَلْمَعِ

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السُّفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت ؟ ويجيب إن كان فى ذلك حكمة لله جَلَّ شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسراره ، بجانب ما كانت تعالم من العالم العلوى ، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت ، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى . عادت وقد تمَّتْ رحلتها فى الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب ، وكأنها فى هذه الرحلة القصيرة برق لمع ، ثم طوّته السحب طيا . وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها ، متصلة فى الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة فى الأرض وخلال البدن ، ومع ذلك فهى فى هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ماتضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى. وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد . ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال ، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها فى أشعاره ، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البُستى .

أبو الفضل(1) السكرى المَرْوَزىّ

هو أحمد بن محمد بن زيد ، يقول فيه الثعالبى : « شاعر مَرْو وظريفها ، وله شعر مليح خفيف الروح كثير المُلَح والأمثال » ويورد بعض أشعاره ، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس ، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خَصَّ به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه ، حتى يتلافوا ما فى هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر ، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر . فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات ، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول فى الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت ، مع الاحتفاظ بها فى كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر فى واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة ، فهى تتألف من شطرين شطرين ، وكل شطرين يتحدان فى قافيتهما . ويقف الثعالبى عند مزدوجة لأبى الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس ، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الفضل السكرى اليتيمة ٨٧/٤ وما بعدها

من مُثل الفُرْس ذوى الأبصارِ الثوبُ رَهْنٌ فى يَدِ القَصَّارِ[١]
نال الحمارُ بالسقوط فى الوَحَلْ ما كان يَهْوَى ونجا من العمَلْ
والعَنْزُ لايَسْمَنُ إلا بالعَلَفْ لايَسْمَنُ العَنْزُ بقولٍ ذِى لَطَفْ[٢]
البحر غَمْرُ الماء فى العِيانِ والكلبُ يُرْوَى منه باللسانِ[٣]
من لم يكن فى بيته طعامُ فماله فى مَحْفِلٍ مقامُ
كان يقال : من أتى خِوَانا من غير أن يُدْعَى إليه هانا[٤]

ويعلّق الثعالبى بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله : « وكان أبو الفضل السكرى مولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية » وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجماته الأخرى غير مزدوجة ، من ذلك قوله :

إذا لم تُطِق أن تَرْتَقِى ذِرْوَةَ الجبَلْ لعجزٍ فقِفْ فى سَفْحه هكذا المثَلْ

وقوله :

فى كلٍّ مستحسنٍ عَيْبٌ بلارَيْبِ مايَسْلَمُ الذهب الإبريزُ من عَيْبِ

وقوله :

ادَّعَى الثعلبُ شيئا وَطَلَبْ قِيلَ هَلْ من شاهدٍ؟ قال : الذَّنَبْ

وقوله :

تَبَخْتَرَ إخفاءً لما فيه من عَرَجْ وليس له فيما تكلّفه فَرَجْ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال ، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان فى عصور طويلة ، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التى تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل ، وهى لذلك تدخل فى باب الآداب الشعبية ، لأنها تتداول على ألسنة الشعب ، وكأنها عُمْلات لغوية عامة ، كلٌّ يستخدمها ، وكل يلفظ بها عند مناسبتها . وكأنما يُلْقِى بها الكلمة التى لا تُرَد ، ولذلك سميت حكمة ، فهى حكمة الشعوب وخبرتها مركزة فى قطرات أوكلمات .

(١) القصار : صابغ الثياب
(٢) لطف : رفق .
(٣) الماء الغمر : الكثير العميق .
(٤) الخوان : مائدة الطعام .

أبو الفتح(١) البُستىّ

هو على بن محمد ، ويُعَدّ من كبار الأدباء الإيرانيين فى زمنه ، وكان يُحْسن الكتابة والشعر باللسانين العربى والفارسى وعرف له أمير بُسْت مكانته ، فاتخذه كاتبا له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكين قرَّبه منه وقلَّده الكتابة فى ديوانه ، وحَلَّ عنده محل الثقة الأمين فى مهات شئونه . ونعم بجواره ، واشتهر بما صوَّر فى كتبه وأشعاره من فتوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوى ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعى المذهب معتزلىّ العقيدة .

ويعرِّف به الثعالبى فيقول : «صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتى فيه بكل طريفة لطيفة» . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا فى أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه فى كتاباته ونثره . ويورد الثعالبى طائفة من جناساته وسجعاته فى رسائله ، يدل بها على قدرته فى التجنيس البديع الصيغة ، فمن ذلك قوله :

«مَنْ أصلح فاسده ، أرغم حاسده . مَنْ أطاع غضبه ، أضاع أدبه . عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سعادة جَدِّك ، وقوفُك عند حَدِّك . الخيبة ، تهتك الهيبة . الدَّعة ، رائدة الضَّعة . أجهلُ الناس مَنْ كان للإخوان مُذِلا ، وعلى السلطان مُدِلاًّ . إذا بقى ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . المنيَّة ، تضحك من الأُمْنيَّة . حَدُّ العَفاف ، الرضا بالكَفاف . ظِلُّ الجفاء ، يكْسِف شمس الصفاء» .

ويأخذ الثعالبى فى عرض أغراض شعره بادئا بملحه فى الغزل والخمر ، وهى ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعانى بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد فى قوله متغزلا :

وغزالٍ كلُّ مَنْ شَبَّهَهُ ... بهلالٍ أو ببدرٍ ظَلَمَهْ
قال إذ قَبَّلْتُ بالوهم فَمَهْ ... قد تعدَّيْتَ وأسرفتَ فمَهْ

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الفتح البستى وشعره اليتيمة ٤/٣٠٢ وما بعدها والمنتظم ٧/٧٢ وتاريخ الحكماء للبيهقى : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكى ٥/٢٩٣ وابن خلكان ٣/٣٧٦ وشذرات الذهب ٣/١٥٩ وعبر الذهبى ٣/٧٥ والأنساب ٨٠ ب وروضات الجنات ٤٨٢ والنجوم الزاهرة ٤/١٠٦ وديوانه مطبوع

ومَه فى آخر البيت الثانى اسم فعل أمر بمعنى اكففْ . وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة « فمه » فى آخر الشطر الأول . وعلى نفس الشاكلة قوله فى الخمر لصاحبه :

أوانِ أنت فى هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروَّق فى الأوانى

فقد جانس بين « وان » فى أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليتم له جناس كامل بينها وبين كلمة « الأوان » فى آخر الشطر الأول بمعنى الزمان ، ثم بينهما وبين كلمة « الأوانى » فى آخر البيت جمعا لإناء . وبالمثل معاتباته وأهاجيه ومدائحه كقوله فى مديح كاتب وكتابته :

لم تَرَ عينى مثلَه كاتباً لكل شىء شاء وشَّاء
يُبْدع فى الكُتْب وفى غيرها بدائعا إن شاء إنشاء

والجناس الناقص واضح بين « شىء » و « شاء » و « وشّاء » أو منمق ، وأتى بجناس تام فى البيت الثانى بين كلمتى « إن شاء » و « إنشاء » . ويعترف بأنه سمع وهو صبى شاعرا من موطنه « بُسْت » يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته[1] . وكان هو نفسه عاملا مهما فى إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين فى زمنه[2] وبعد زمنه . وعُنى غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعى الذى مرَّ بنا ذكره . وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا فى شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظهرا مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لى لمـــا رآنى طالبا مالاً ورفْدًا
إن مالى يا حبيبى لازمٌ لا يتعدَّى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع فى زمنه ، ومما لا شك فيه أن البُسْتى كان من عوامل إذاعته وانتشاره فى الأوساط الأدبية الإيرانية . على أنه ينبغى أن لا نَحْمل على تصنع أبى الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة ، فقد كان ينفذ فى أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه ، وكان يدَّعى سَعة الفكر والمنطق العميق :

يبْنى على الفكرة أعمالَهُ وذاك فى التحقيق أعْمَى لَهُ
فقيِّض الرَّحْمَنُ أفْعَى لَهُ تُريهِ فى الخَلْوة أفعالَهُ

---

(١) اليتيمة ٣٢٧/٤ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك (٢) اليتيمة ١٥١/٤ .

وواضح جناسه التام بين « أعماله » و « أعمى له » فى البيت الأول ، وبين « أفعى له » و« أفعاله » فى البيت الثانى . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال فى أشعاره ، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله فى هذا الجانب نونيته ، وهى طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المرء فى دنياه نُقْصانُ   وربْحُهُ غيرَ مَحْضِ الخيرِ خُسْرانُ
ياعامراً لخراب الدّارِ مجتهداً   باللهِ هل لخرابِ العُمْرِ عُمْرانُ
وياحريصاً على الأموال يَجْمَعُها   أَقْصِرْ فإنّ سرور المال أحزانُ
أَحْسِنْ إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ   فطالما استَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ
وكُنْ على الدهر مِعْواناً لذى أَمَل   يرجو نَداك فإن الحرَّ مِعْوانُ
واشْدُدْ يَدَيْك بحبْلِ اللهِ معتصماً   فإنه الرُّكْنُ إن خانتْك أركانُ
مَنْ جاد بالمال مالَ الناسُ قاطبةً   إليه والمالُ للإنسان فَتّانُ
والناسُ أعوانُ مَنْ واتَتْه دولتُه   وهم عليه إذا عادتْه أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكمية منذ حياته وانتشرت فى العالم العربى ، وأخذت الاجيال العربية تردِّدها فى كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس فى كل مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها فى مقاهى القاهرة . ولعل فى هذا ما يدل – من بعض الوجوه – على ما يمتاز به الشعر العربى الفصيح من شعبيته ، فقصيدة تنظم فى أقصى بيئاته فى الشرق فى « بُسْت » بأفغانستان الحالية تُنْشَدُ فى قلب العالم العربى بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظهرونها فى المغرب كما يستظهرونها فى المشرق . ويعقد الثعالبى فصلا طويلا لحكم البُسْتى ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة فى ديوانه ، ومن طرائفه الحكمية قوله :

لا تَحْقِرِ المَرء إنْ رأيت بهِ   دمامةً أو رثاثةَ الحُلَلِ
فالنَّحْلُ شىءٌ على ضؤولتهِ   يَشْتارُ منه الفتى جَنَا العَسَلِ [1]

وقوله :

لا يَسْتخِفَّنَّ الفَتى بعدوِّهِ   أبدا وإن كان العدوُّ ضَئيلا
إن القَذَى يُؤْذِى العيونَ قليلُه   ولربما جَرح البعوضُ الفيلا

وقوله :

ألم تَرَ أنَّ المرءَ طولَ حياتهِ   مُعَنًّى بأمرٍ لا يزالُ يُعالجُهْ

(١) يشتار : يجنى

يدور كدودِ القزّ ينسجُ دائما ويهلك غمّاً وسْطَ ما هو ناسِجُهْ

وعلى هذا النحو لانزال نقرأ عند أبى الفتح البُستى حكما طريفة . مما يدل على بعد نظره واتساع خبرته . وكان يحليها من الجناس عادة ، حتى تخفّ على ألسنة الناس وتدور فى أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعرا خصب القريحة ، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ بديعة .

٥

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربى انفصل فى عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ كان دائما ترجمانا عن عواطفها ومشاعرها ، حتى فى المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون الحكام بالمثل العليا التى تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملا قدّموه لشعوبهم دون أن يحمدوه لهم حمدا كثيرا ، سواء أكان فى الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم فى الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرةُ الشعراء كانت من عامة الشعوب العربية ، فكان طبيعيا أن تتضح فى أشعارهم روحها ومشاعرها وكل ما يجرى فى خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد الذى يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريرا ، لكى تثرى وتنعم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطيّباتها ، وهى لذلك تُقبل على شعر الزهد ، ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك فى أن شعبية هذا الشعر هى التى جعلته يَسْهُلُ فى لغته سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوى ، بل تحب الأساليب السهلة المبسّطة الخفيفة التى تفهمها بمجرد أن تقرع أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبيا فى لغته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذيوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقُصّاص والفقهاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعونه فى كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المجون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب ونقصد أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق فى بعض منه آثارَ الشعبيةِ ، غير أنها هذه المرة لا تأتى من سهولة الألفاظ وإنما تأتى مما كان يقترن به أحيانا من دعابة ، مما يجعله أقرب إلى النوادر المضحكة ، وتأتى أيضا من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية التى تشيع على ألسنة العامة ، ويلقانا منهم كثيرون فى اليتيمة وتتمتها وفى دمية القصر

والمزيدة . وطبيعى أن يشيع شعر شيعى كثير على ألسنة الشيعة ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثى الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية ، مما تزخر به كتب الطبقات .

ونجد فى اليتيمة شاعرا من الأهواز يسمى محمد [1] بن عبد العزيز السوسى ، يقول فيه الثعالبى إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تربى على أربعمائة بيت فى وصف حاله وتنقله فى الأديان والمذاهب والصناعات ، أولها :

الحمدُ لله ليس لى بَخْتُ ولا ثيابٌ يضمُّها تَخْتُ [2]
سِيَّان بَيتِى لمن تأمَّلَهُ والمَهْمَهُ الصَّحْصَحَان والمَرْتُ [3]
أمِنتُ فى بيتِىَ اللصوصَ فما للصِّ فيهِ فوقٌ ولا تَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صِوان ، فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أى شىء يكون فى البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعى أن يأمن اللصوص ، فليس فى بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولاحرس له . ويمضى فيما رواه الثعالبى من القصيدة ، فيذكر أنه اضطرَّ إلى أن يتخذ مظهرَ مُتَسَوِّلةِ الصوفية فقصَّرَ ثيابه ، وأحْفَى شاربه مستقصياً ، وحَمَلَ سَجَّادة ، وذهب إلى الحج دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلَّى فى مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفى حقا . حتى يعطفوا عليه ويحسنوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلا على هذا النمط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكُدْية أو التسول الأدبى ، ويعرفون أيضا باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسى يسمى ساسان حرمه أبوه من الملك ، فهام على وجهه محترفا للكُدْية ، وتُشْبه هذه الجماعة طائفة الأدباتية التى كانت معروفة بمصر فى أواخر القرن الماضى والتى كانت تظهر فى موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية فى أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حِيَلها وخُدَعها ، ويتلوه البيهقى فيصور فى كتابه المحاسن والمساوى ألوانا من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها فى العصر : أبى دلف الخزرجى .

---

(١) اليتيمة ٣/٤٢٦ .
(٢) التخت : الصوان .
(٣) المهمه : الفلاة . الصحصحان : المستوى الواسع . المرت : الفلاة لانبات فيه .

أبو دُلَف الخزرجي : مِسْعر بن مُهَلْهِل[1]

شيخ هذه الجماعة بإيران فى العصر ومقدَّمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجرى وقد عاش فى بلاط نصر بن أحمد السامانى (٣٠١-٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية فى عودتها إلى الصين ، وفى عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهى كما يوضح ذلك الثعالبى ونراه يعقد له ترجمة طويلة فى اليتيمة ، ويعرِّف به على هذا النحو : « شاعر كثير المُلَحِ والطرف ، مشحوذ الـمُدية فى الكُدْية ، خَتق التسعين فى الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضَرْب صفحة المحراب بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب . . وكان ينتاب حضرة الصاحب [بن عباد] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سوادغاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتزق فى جملته ، ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) فى أسفاره فتجرى مجرى السُّفاتج (الحوالات المالية) فى قضاء أوطاره . وكان الصاحب يحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بنى ساسان حفظا عجيبا ، ويُعْجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ومن قول أبى دُلَف :

وَيْحَكَ هذا الزمانُ زورُ ... فلا يغرَّنْك الغَرورُ[2]
زَوِّقْ ومَخْرِقْ وكُلْ وأَطْبِق ... واسْرِقْ وَطَلْبِقْ لمن يزور
لاتلتزمْ حالةً ولكنْ ... دُرْ بالليالى كما تدورُ

والأبيات تصور حياة أبى دلف وأنها تقوم على المخرقة والتحامق والخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالبى ، وهى فى ذكر المُكْدين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استهلها بالتعريف ببنى ساسان الأدباتية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعُسْر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات ،. ثم يقول :

فنحن الناسُ كلُّ النا ... س فى البَرِّ وفى البَحْرِ
أخذنا جِزْيَةَ الخلقِ ... من الصِّين إلى مِصْرِ

---

(١) انظر أبا دلف فى اليتيمة ٣/٣٥٢ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١/١٨٨ وفى دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبى دلف نشر مينورسكى بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى (نشر عالم الكتب بالقاهرة) .

(٢) الغرور : كل ماغرَّ الإنسان من شيطان أوجاه أو مال أو متاع .

إلى طَنْجَةَ بل فى كـ ـلّ أرضٍ خَيَّلْنا تَسْرِي
إذا ضاق بنا قُطرٌ نَزَلْنا عنه إلى قُطْر
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكُفْر
فَنصْطافُ على الثَّلْجِ ونَشْتُو بلدَ التَّمْر

وطريف أن يَعُدّ أبودلف مايأخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخُدَعهم وحِيَلهم الأدبية جزية . ويصوِّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها دارا لهم من الصين على المحيط الهادى إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، يصطافون فى أقاليمها الباردة ، ويشتون فى أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف فى وصف حِيَلهم وصفا مسهبا ، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويذ وأحْراز ، وكيف أن القاصّ منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قَصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه مايجودون به ، ثم إذا تفرّقوا عنه تقاسما ما أعطوه . ويصورهم يتباكون فى البرد القارس خداعا للناس ، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلمُّون بحوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرة أوتينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البَيْض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف يَعْصبون جباههم ليوهموا الناس أنهم مَرْضَى ، وكيف يعقرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يَطْلون أجسادهم بالزيت حتى تسودّ جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهمين الناس أن الروم قطعوها فى جهادهم ، محاولين أن يبتزُّوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دود الجُبْن بين أسنانهم ثم استخراجه ، وكيف يروون للناس كذبا الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى فى ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إيهاما بأنها مقطوعة ، وكيف يخيِّلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهمونهم بأنهم عُمْىٌ لايبصرون ، وكيف يدورون بين العِشائين منادين : رحم الله من عَشّى الغريب الجائع ، آخذين من كل دار كِسْرة ، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم ، وكيف يحتالون على الشيعة خاضبين لحاهم بالحِنَّاء مع حملهم الألواح والسُّبَح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحهم عليه ورواية الأشعار فى فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة فى الزيت و إمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويُكْدون أو يشحذون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت السُّبحات وأقراص الحلوى ، وكيف يرّقون المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يموّهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجُّون عن الناس ، وكيف يعبِّرون للناس رُؤاهم ، وكيف يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السِّلال فيها الحيَّات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدَّعون الطبَّ ومداواة المرضى ، وكيف يشحذون أو يُكْدون على الدِّببة والسباع والقردة ، وكيف يرّعَدون رَعَدات شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصطكّ أسنانهم ، وكيف أنهم يشدُّون أيديهم مجموعة الأصابع حتى يُظَنّ أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقَّعات حتى يُظن أنهم من الصوفية . وما يزال أبودلف فى وصف خُدَع القوم وحِيلهم ، حتى يُوفى على نهاية القصيدة قائلا :

ألا إنى حلبتُ الدّهـ ـرَ من شَطْرٍ إلى شَطْرِ
وجُبتُ الأرضَ حتى صر تُ فى التَّطواف كالخضْرِ
فإنْ أظفَرْ بآمالى تَشَفَّتْ غُلَّةُ الصَّدْرِ
وألمت بأوطـــــانى قَوِىٌّ النَّهْى والأمر
وقد تَخفق فوقى عـ ـزَّةً ألويةُ النَّصْرِ
وإما تكن الأخرى وعِزٌّ جائزُ الكسرِ
فلا أُبْتُ مع السَّفْرِ غداً فى أوبةِ السَّفْرِ
ولا عُدْت متى عُدْتُ بلا عِزٍّ ولا وَفْرِ

ويقول إن له أسوة فى غربته بالسادة الطُّهر آل البيت كما تشهد قبورهم فى الكوفة وكربلاء وبغداد وسامرًا وطوس وباخمرا بالقرب من الكوفة . وفى ذلك مايدل على أنه كان شيعيا ، وأكبر الظن أنه كان إماميا مثل الصاحب بن عباد . وقد صوَّر فى قصيدته كل أفانين المكدين وحيلهم مستخدما مصطلحاتهم فى هذه الحيل ، مما جعله يُعْنَى بشرح القصيدة بيتا بيتا ، وعنه نقل الثعالبى الشرح ، ولخصناه فى إيجاز . والمصطلحات كلها شعبية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شعبية ، ولاشك فى أن أبادلف يُعَدّ خير شاعر فى عصره عبَّر عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأبى دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دوَّن اقتباسات كثيرة منها ياقوت فى « معجم البلدان » والقزوينى فى كتابه « آثار البلاد » وُوجدت له رسالتان حلل أولاهما المستشرق الألمانى روز صوير موضحا أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين : ونشر الرسالة الثانية المستشرق مينورسكى (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان

روسيان وعنى الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه فى نشرتها والتعليق على الرسالة تعليقات علمية نافعة ، تذلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف رحلته فى أواسط آسيا من جنوبى أذربيجان إلى مدينة باكو فتفليس فأردبيل فهمذان فالرىّ فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور ، فهراة ، فأصفهان ، فدن خوزستان . ويعنى بوصف المدن والقلاع التى شاهدها وصفا دقيقا ذاكراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

الفصل الخامس

النثر وكتّابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النثر العربي حتى وَعَى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الخصبة المثمرة في ميادين العلم والفلسفة . ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية في الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صوّرنا ذلك في غير هذا الموضع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمي ونوع فلسفي ، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ويحدثنا المطهر المقدسي المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمي ومايبذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلا[١] :

« يأبى العلم أن يضع كَنَفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لمتجرِّد له بكلِّيته ، ومتوفِّر عليه بأنِّيته ، مُعانٍ له بالقريحة الثاقبة ، والرَّويَّة الصافية ، مقرَّن به التأييد والتسديد ، قد شمَّر ذَيْله ، وأسهر ليله ، حليف النَّصب ، ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرِّجا ، ويتلقَّاه متطرِّفا ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبْطَ العَشْواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والنزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ، ونبْذ المماحكة واللَّجاجة ، وإجالة الرأى عند غموض الحق ، والتأنى بلطيف المأتى ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد » .

وبهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسي ١/٤ .

لذلك آثار كثيرة فى تنوع فنون الكتابة والنثر ، مما نراه واضحا لا فى الكتابات العلمية والفلسفية فحسب ، بل أيضا فى الكتابات الأدبية ، ولنأخذ جانبا واحدا هو جانب القَصص ، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبى الخالص قصص صوفى وقصص فلسفى . ومعروف أن المترجمين عُنوا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسى والهندى وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة . ومحاكاةً له ألّف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابا قصصيا مماثلا يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم . ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهانى المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة فى أيامه بلغت سبعين كتابا[١] ، وكانت العامة تلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أوحول الجن. وطبيعى أن تكثر كتب النوادر ، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين ، وتكثر أيضا كتب الندماء وأخبارهم .

ومرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أنه أخذت تتكوّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة ، تصوِّر جهادهم فى نسكهم جهادا مضنيا ، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم . وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية ، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبى وألفاظه ولغته[٢] . وكلما مضينا فى عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة ، لما كانت تلقى من رواج عند العامة ، ويكفى أن نعرض أطرافا من هذه الحكايات عند القشيرى مؤسس التصوف السنى ، فقد فتح فى رسالته بابا لكرامات الأولياء ، وقصّ حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة فى إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام . ومما حكاه أنه كان فى قصر سهل التسترى المتصوف بيت يسمى بيت السباع ، يقول : فسألنا عن ذلك ؟ فقالوا كانت السباع تجىء إلى سهل ، وكان يُدْخلهم هذا البيت ويُضيفهم ويُطْعمهم اللحم ثم يخليهم ! وحكى عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التسترى صومعته ، فوجد فيها سَفَطًا (وعاء) فيه قارورتان ، فى واحدة منها شىء أحمر ، وفى الأخرى شىء أبيض ، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة ، فرمى بالشوشقتين فى دجلة ، وخلط ما فى القارورتين بالتراب ! وكان على إسحق دين ، قال ابن سالم : قلت لسهل إيش كان فى القارورتين ، قال : إحداهما لو طُرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٠ .

(٢) انظر العصر العباسى الثانى (طبع دار المعارف) ص ٢٥٩ .

صارت ذهبا ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له : إى دوست (يا صاحبى) خاف على إيمانه . وحكى عن الخوّاص أنه قال : كنت فى البادية مرة ، فسرت فى وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا أنا بسبع عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى ، إذا هو يعرج ، فحَمْحم وبرك بين يدى ، ووضع يده فى حجرى ، فنظرت ، فإذا يده منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشددت على يده خرقة ، ومضى ، وإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان لى وحملا إلىّ رغيفا ! . وحكى عن ذى النون فى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى فى البادية ، فنزلنا تحت شجرة أم غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رُطَب ، فتبسم ذو النون ، وقال : أتشتهون الرطب ، وحرّك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرةً إلا نثرت علينا رُطَباً جَنِيًّا ، ثم حرّكها ، فنثرت رطبا جَنِيًّا ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ، وانتبهنا وحركنا الشجرة ، فنثرت علينا شوكا ! . ومما حكاه عن الخضر فى رواية أبى عمران الواسطى قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة صبية ، فصاحت بى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفعت رأسى ، فإذا رجل فى الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال : عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عَوارى الدنيا لمرضاته ، فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب عنى ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات فى كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون السببية ، وإنما رويناها لندل على ذيوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة ، وكانت تُرْوَى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحى قريبة من أفهام العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع فى أوساطهم وتنتشر ، عاملة – إلى حد – فى الإبقاء على الفصحى ، لغةً متداولة على ألسنة الإيرانيين فى ذلك العصر ، خاصة أنهم كانوا يُشْغَفُون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص ، لا تتناول الكرامات فحسب ، بل أيضا تتناول جوانب أخرى كرؤيا الرسول ﷺ فى الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا الحور العين . وفى رسالة القشيرى من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل فى كتب المتصوفة ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق فى المواعظ والرقائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفى قصص فلسفى رمزى عند ابن سينا ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هى حَىّ بن يَقْظان وسَلامان وأُبْسال ، ورسالة الطير . وتستهل أقصوصة حَىّ بن يقظان بأن رفقاء (هى شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتنزهون ، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخا بهيًّا هو حى بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حى بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التى توقع الإنسان فى الشر ، وأن الإنسان تحفّه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القذرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها فى ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز ، ولكن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة . ويقول حى بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يحوزه الخافقان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الهيولى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون فى عين فوّارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتزكيهم ، إذ تضيئ لهم الحقائق . ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التى تتسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهى الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رتِّب على سكك خمس كسكك البريد ، ويريد بها الحواس الخمس ، ويقول إن فى الأرض أمة بَرَرَة رامزا بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنتهى الأقصوصة .

وأقصوصة سَلامان وأُبْسال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أُبْسال أصغرهما سِناًّ وتربىَّ فى كَنف أخيه ، ونشأ جميلا عفيفا ، شجاعا عالما أديبا . وسلامان فى الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان ، وكانت لسلامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أبسال ، فقالت لزوجها أخلطه بأسرتك ، ولما خلت به أظهرت له عشقها ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرتْ به فزوجته بأختها ، وقالت لها إننى لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفى ليلة الزفاف جاءته بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق فى السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشَّرَكُ لعين أُبْسال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . وينتظم جنديا فى الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسَّان لأبسال السم و يموت . ويثأر الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزى القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية) . وسلامان نفسه فى قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلُّها بدعوة إخوانه الفلاسفة الى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، و يتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنصبوا لها الشِّباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير ونشبت بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشُغل كل طائر عن أخيه بأمره وكَرْبه ناسيا حريته الضائعة كما نسيت الأرواحُ الإنسانية عالمها الذى هبطت منه ، وأصبحت سجينة البدن . وتخلَّص بعض الطيور رؤسها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عالقة به ، ويمِّم جبل الملك رجاء أن يفكها عنه ، ويرى من دونه سبعة جبال مايزال يقطع ودبانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك فى مدينة وراءه فينفذ إليه و يبهره جماله ، ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك . ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه . وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان فى سبيل تخلص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة فى بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذى يفكّ الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعيد يحيى بن حبَش السهروردى كتابة أقصوصة حى بن يقظان متخذا لها اسما جديدا هو الغربية الغربية ، وحى بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنسانى كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوصة السهروردى بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أُسِرا وقُيِّدا فى السلاسل وألقى بهم فى بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التى تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراق . ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) هدهدا فى ليلة قمراء فى منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادى الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حُمل إليهما من الذات العلية يدعوهما إلى السفر (رمز الجهاد الصوفى) بغية الوصول ، ويأمرهما بركوب سفينة تجرى بهما فى موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء ، ليريا صومعة (الله) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا فى الطريق جماجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويطلب إلى ربه أن يخلّصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه المجئ إليه كلما شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفى لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستتخلص يوما (يوم الموت) من سجن القيروان ولا تعود إليه . ويلقاه فى الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيتان ربما كانت رمزا للشهوات .وكانت الرحلة شاقة . واتخذ السهروردى من مشاقها رمزاً للعناء الصوفى فى الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجّانا الله من قيد الهيولَى والطبيعة » .

وإذا كان القصص نما فى العصر هذا النمو على أيدى الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفى مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهى أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس فى المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ ماينبغى أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول[١] : إن أول مايحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا فى نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولافظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء ، وأن لا يحدّث الناس إلا بما صحّ عنده من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لا يسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلابأس من أن يقبل هديته ، وينبغى أن يمزج فى مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلّوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا فى أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

ونلمّ على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فمنهم أبو عثمان الصابونى شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل – كما مرّ بنا – يعظ الناس فى مجالس تذكيره ستين سنة ، وإنه كان

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٥ وما بعدها .

يعظهم بالعربية والفارسية[١] ، ومنهم إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورُزق من التوسع فى العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلعثم فى كلمة[٢] . ومنهم القشيرى الإمام الصوفى الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومرَّ بنا ما قيل فى وعظه من أنه « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس فى مجلسه لتاب » . ومنهم الغزالى الإمام المشهور وأخوه أحمد الذى قيل فيه : « كان واعظا تنفلق الصخور الصمّ عند سماع تحذيره ، وتَرْعَدُ فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره[٣] » . ومنهم فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوى ، فصاح به وهو على المنبر ، ياسلطان العالم ! لا سلطانُك يبقى ، ولا تلبيسُ الرازى يبقى ، وإن مردَّنا إلى الله[٤] .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية فى العصر عاملا مهما فى كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدَّره كتّاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون فى كتاباتهم صورا من التأنق حتى يُرْضوا أمراءهم ، وكانت كتبهم لاتخلو من حِلية السجع ، فهى حلية مشتركة فى الرسائل جميعها وتضاف لها حِلًى مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحِلْيات والتنميقات . وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيُختبَرونَ ، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحينئذ يَلْزَمُ كاتبا من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يخرّجه كاتبا ماهرا . وكان بعضهم يظل فى حضرة الدولة أوعاصمتها ، وبعضهم يُرسل إلى الولايات للعمل بين أيدى الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يُظهر منهم نبوغا يرتقى سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدبر أمور الدولة كلها ، وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة فى القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لاتزال صالبة ولايزال سلطانها نافذا فى الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت فى

---

(١) السبكى ٤/٢٧١

(٢) ابن خلكان ٣/١٦٨

(٣) السبكى ٦/١٩١

(٤) السبكى ٨/٨٩ وما بعدها وابن خلكان ٤/٢٤٩ .

تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالأدباء يصوِّرون فى رسائلهم الشخصية عواطفهم فى التهادى والاستمناح والثناء والذم والتهانى والعتاب والاستعطاف والتعزية ، مظهرين فى هذا المجال براعة فى طرافة التفكير وجمال التعبير ، وسنُعنَى فى الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وَشْمكير ومحمد بن عبدالجبار العتّبى ورشيد الدين الوطواط من كتّاب الدول والإمارات ثم نلمُّ بابن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل فى العصر وتلميذه الصاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

٢

كتّاب الرسائل

من أهم ما يلاحَظ فى مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا فى جَمْع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادى مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم نَنْسَ مامرَّ بنا من كثرة الإمارات الفارسية فى القرن الرابع الهجرى ، فقد كان السامانيون فى بُخَارى بخراسان والبويهيون بالرِّىِّ والزياريون فى طَبَرِسْتان وجُرْجان ، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا فى هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كاتبا كبيرا ليتولى شئون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته ، فلا نعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب فى الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبى فى كتابه اليتيمة ، فإنه عرض فى حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وماكان بها من نشاط أدبى واسع ، وبالمثل عرض فى حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى فى الرِّىِّ لأصبهان والجبل وفارس والأهواز.

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية فى القرن الرابع فضلا عما وراءه من قرون ، ولذلك سنكتفى ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولى أو التتارى فى القرن السابع الهجرى . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبى الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد[1] الإسكافى النيسابورى وأسرة بنى ميكال من أهل نيسابور وفى مقدمتهم أبو الفضل الميكالى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقتطف الثعالبى فصولا طريفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو فى الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طرأ عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسنفرد له حديثا ، ومثل أبى بكر الخوارزمى ، وقد ترجمنا له فى شعراء الهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية فى العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابى وبراعته الأدبية فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » .

ويُفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة فى ذكر كتّاب الدولة البويهية فى الرىّ وأُصْبهان والجبل وفارس والأهواز وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، وسنخص كلامنهما بحديث ، ويشيد الثعالبى بأبى العباس[2] الضبى المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره ، ويجرى فى طريقه ، ترسما وترسلا . وكان لجرجان وطبرستان حظها من الكتاب والشعراء ، ولعل كاتبا فيهما لم ينبغ نبوغ قابوس بن وَشْمكير فى الترسل والكتابة ، وسنلم به وبكتابته عما قليل . ونلتقى فى الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفى مقدمتهم أبو الفتح البُسْتى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه فى الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتْبى ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كُتّاب الدولة الغزنوية أبو بكر القُهُسْتانى الذى ترجمنا له بين شعراء اللهو والمجون وكان على رأس كتّاب الأمير محمد بن محمود الغزنوى . ويذكر الثعالبى فى تتمة اليتيمة بعض أسجاعه فى رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضا القاضى أبو أحمد منصور[3] بن محمد الأزدى الهروى المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتاباته وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونمضى إلى الدولة السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى ونجد على رأس كتّابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكُنْدُرِىّ المارّ ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعميد المُلك الكُنْدُرِىّ طريقة فى الترسل محمودة ، وموافقة فى البلاغة مشهودة »[4] ويذكر نموذجا من كتاباته . ومن كتّاب هذه الدولة أبو الحسن[5] الحسينى

---

(١) انظر فى الإسكافى اليتيمة ٤/ ٩٥ ومعجم الأدباء ١٤/ ١٥٧ .

(٢) راجع فى الضبى اليتيمة ٣/ ٢٨٧ ومعجم الأدباء ٢/ ١٠٥ .

(٣) انظر القاضى منصور الهروى فى تتمة اليتيمة ٢/ ٤٦ والدمية ٢/ ١٥٣ والسبكى ٥/ ٣٤٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٩١ وبروكلمان ٢/ ١٢٢ .

(٤) راجع الكندرى فى الدمية ٢/ ٢٣٠ وابن خلكان ٥/ ١٣٨ والشذرات ٣/ ٣٠١ وابن الأثير فى مواضع متفرقة .

(٥) انظره فى الدمية ٢/ ١٧٧ .

البلخى ، وكان ألب أرسلان يرسله فى مهامّه إلى بغداد ، ويسوق الباخرزى فى الدمية نموذجا من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضا الباخرزى صاحب الدمية ، ومرت ترجمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطغرائى ومرت ترجمته بين شعراء المديح ، والأبيوردى وعمل فى دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومرت ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطا أدبيا وعلميا عظيما استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكفى أن هذا النشاط أنتج العالم المعتزلى الكبير الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتبا كبيرا يُعَدّ آخر كتاب الدواوين النابهين فى إيران ، وهو رشيد الدين الوطواط ، وسنخصه بكلمة ، بعد إلمامنا بقابوس بن وَشْمكير وأبى النصر العُتبىّ .

قابوس [1] بن وَشْمكير

هو أحد أمراء الدولة الزِّيارية فى طَبَرِسْتان وجُرْجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى « آل قارن » إحدى الأسر السبع الرفيعة – فيما يُقَال – لعهد الساسانيين . وينسبه البيرونى هو وأسرته إلى « قُباذ » الملك الساسانى . ولى الحكم فى إمارته بعد أبيه وَشْمكير ابن زِيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسى بلقب « شمس المعالى » واشتبك مع البويهيين فى سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرَّما ، حتى استردّ ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد الهمة ، غير انه كان – كما يقول ابن خلكان – على ما خُصّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، مُرّ السياسة لا يساغ كأسه ، ولا تُؤْمَنُ بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلّة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع فى جرجان . وكان ابنه منوجهر بطَبَرِسْتان فاستحثُّوه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأسرع فى الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل فى سجنه حتى توفى سنة ٤٠٣ على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

---

(١) راجع ترجمة قابوس فى اليتيمة ٤/٥٩ واليمينى للعتبى مع شرح المنينى (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) . ٢/١٤ – ١٧ ، ٢/١٧٢ – ١٧٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢١٩ وابن خلكان ٤/٧٩ والمنتظم ٧/٢٦٤ والنجوم الزاهرة ٤/٢٣٣ وابن الأثير فى مواضع متفرقة وديوان المعانى للعسكرى ١/٨٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥ .

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يجزل الصلات لهم ، وقدّم له البيرونى كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبى كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب فى الإسطرلاب كتابا كان يعجب به الصاحب . وكان أديبا بارعا ، وهو يُعَد من كبار الكتاب فى عصره ، وفيه يقول الثعالبى : « جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحُكْم ، وإنى أتوِّج هذا الكتاب (اليتيمة) بِلُمَع من ثمار بلاغته . . وأكتب فصولا من عالى نثره » . ويقول العتبى فى كتابه اليمينى : « إن رسائله موجودة فى البلاد عند الأفراد ، لكنى أكتفى منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكرى على رسالة له اقتبسها فى كتابه « ديوان المعانى » بأنها لانظير لها فى الافتخار والعتاب . وقد جمع رسائله فى عصر قريب منه عبدالرحمن بن على اليزدادى باسم « كمال البلاغة » ونُشرت فى القاهرة ، ونراه يحلل فى مقدمته لها بلاغته ، وقد ردَّها إلى أربعة عشر نوعا فى طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهو وتسليته على نحو ما يتضح فى المطلع التالى لإحدى رسائله :

« الإنسان خُلق ألوفا ، وطُبع عطوفا ، فما لسيدى لايُحتَى عُوده ، ولايُرْجَى عَوْده ، ولايُخال لفيئة مَخيلة ، ولايُحال تنكره بحيلة ، أمِنْ صَخْر تَنَمُّر قلبه ، فليس يُلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس فى سجعاته إذ يجانس بين « عُوده » و « عَوْده » ملتمسا جناسه فى اختلاف حركة العين فى الكلمتين ، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما فى « يخال » و « مخيلة » وفى « يحال » و « بحيلة » . وقد يلتمسه فى تغاير بعض الحروف فى الكلمة كما فى « مخيلة » و « بحيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته فى تضييق مراته إلى أسجاعه . وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » بيان واف لهذا الجانب عنده .

أبو النصر[1] العُتْبى

هو محمد بن عبد الجبار العُتبى ، مولده ومرباه فى الرَّىِّ ، وقد فارقها فى شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبى نصر العتبى وكان من وجوه العمال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

(١) انظر فى ترجمة العتبى اليتيمة ٤/٣٩٧ والسبكى فى ترجمة محمود بن سبكتكين الغزنوى ٤/٣١٩ وبروكلمان (الترجمة العربية) ١/٦ .

عند الوالد الحانى إلى أن وافاه القدر . وتتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال فى الدواوين إلى أن استقر أمره فى العمل مع أبى الفتح البستى فى ديوان أبى منصور سُبُكْتِكين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سُبُكْتكين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف - كما مربنا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسى ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبنجاب فى الهند . وعُنى أبو النصر العتبى بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه صنفه فى وقت متأخر ، وأنه لم تتح له الفرصة لتكملته . ويقول السبكى : « وأهل خُوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريرى » وهو مطبوع فى القاهرة مع شرح المنينى له فى القرن الماضى ، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوى ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبى منصور سُبُكتكين ، مَلك الشَّرْقِ بِجَنْبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس فى حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة فى قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته ، وجبايته ، واستدرائهم « دفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياعهم بفائض هيبته ، واحترامهم - على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ ركضته » .

والعتبى بكتابته تاريخ محمود الغزنوى بهذه اللغة المسجوعة يحاكى الصابئ فى كتابه « التاجى فى ملوك بنى بويه » الذى كتبه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجى » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين . ويبدو أن كتاب العتبى كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم فى البلاغة . وعلى شاكلته فى خفة السجع وعذوبته رسائله ، فإن الفصول التى حكاها الثعالبى منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله فى رقعة كتبها فى الإنكار على من يذم الدهر :

« عتبُكَ على الدهر داعٍ إلى العَتْب عليك ، واستبطاؤك إياه صارفٌ عِنانَ اللّوم إليك ، فالدّهْرُ سَهْمٌ من سهام الله منزعه عن مقابض أحكامه ، ومطلعه من جانب

ما حرَّرته مجارى أقلامه ، والوقيعة فيه ، تمرد بحكم خالقه وباريه . ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قُواها وأوضاعها ، ومَنْ ذا الذى يلوم الأراقم على النَّهْش بالأنْياب ، والعقارب على اللسْع بالأذناب ، وأنىَّ لها أن تُذَمّ ، وقد أُشْرِبَتْ خِلْقتها السم وحكم الله فى كل حال مطاع ، وبأمره رِضاً واقتناع » .

ولغة العتبى سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه يترلق عن الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس ، مما يتعثّر فى الأفواه .

رشيد الدين[1] الوَطْواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العُمَرى الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضآلة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، وُلد ببِلْخ وبها نشأ وتربى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتبا ، وله مصنفات عدة ، منها : «غرر الخصائص الواضحة» وهو من كتب الأدب التهذيبى ، ومنها : «حدائق السحر فى دقائق الشعر» وهو فى علم البديع والصناعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثلته فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أتْسِز (٥٢١ — ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتيًّا ويَهِن عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أتسز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه فى محفّة ، فلما مثل بين يديه نظم رُباعية فى مديحه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقيل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلا : «كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشىء فى حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا » ويقول ياقوت : من مؤلفاته

---

(١) راجع فى الوطواط وترجمته معجم الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الوعاة للسيوطى ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع ذكر مراجعه فى الفارسية . وانظر بروكلمان ١٤٢/٥ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصِّدِّيق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأُنس اللَّهفان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام على بن أبي طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر فى جزءين ، وهى موزَّعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خُوارزم ، وفيه يقول :

« أن أولى الأمور بأن تُصْرَفَ أَعِنَّةُ العناية إلى ترتيب نظامه ، وتُقْصَر الهمم على مهمَّة إتمامه ، أمرٌ يتعلَّق به ثباتُ الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإنَّ فيه تثبيت الزائغين عن الحق ، وتأديب المنهمكين فى الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغى أنّ يكون متقلد هذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الرِّيَب (التهمة) بعيداً عن مواقف التُّهم والعيب ، لابساً مَدارع السَّداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام - أدام الله فضله - متحلٍّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل المشهورة ، ومستظهر فى دولتنا للحقوق الفَرْضِيَّة ، ومستشعر للصفات المَرْضِيَّة ، فقلَّدناه هذا الأمر . . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والزُّهد دثاره ، والعلم مَعْلمه والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . . وأمرناه أن يبالغ فى تعديل المكاييل والموازين ، على وَفْق أحكام الشَّرع والدين ، فإن وجد تفاوتاً فى شيء منها سوَّاه وعدَّله ، وغيَّره وبدَّله ، وأدَّب صاحبه على رءوس الأشهاد ، لينزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد » .

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشُّرطى ، بل كان أيضاً ينظر فى كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضى ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطى والقاضى فى وقت معاً ، فهو ينظر فى الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء فى التقليد ، إذ لابد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة فى الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطى ، فيراقب المكاييل والموازين ، فإن وجد فى مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدَّله على رءوس الأشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى ينزجر غيرهم فلا تحدِّثهم نفوسهم بخيانة فى ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق فى سجعه ، وكأنه ينساب من معين زاخر دون أى عائق أو حائل . ويمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهى تجرى سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشرى يستأذنه فى حضور دروسه ومجالسه :

«أنا منذ لفظتْنى الأقدار من أوطانى ، ومعاهد أهلى وجيرانى ، إلى هذه الخِطَّة (خوارزم) التى هى اليوم بمكان جار الله – أدام الله دولته – جَنَّةٌ للكرام ، وجُنَّةٌ (سِتْرا) من نكبات الأيام ، كانت قُصْوَى مُنْيتى ، وقُصارى بُغْيتى ، أن أكون أحد الملازمين لسُدَّته الشريفة التى هى مخيمٌ السيادة ، ومقبِّل أفواه السادة ، مَنْ ألقى فيها عصاه ، حاز فى الدارين مُناه ، ونال فى المحلَّين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمنى تلك الخدمة ، وحرَّم علىَّ هذه النعمة . والآن أظن – وظَنُّ المؤمن لا يخطئ – أن آفل جَدِّى (حظى) همَّ بالإشراق ، وذابلَ إقبالى أقبل على الإيراق ، فقد أجد فى نفسى نوراً مجدِّداً يَهْدينى إلى جنَّته ، ومن شوق داعياً موفَّقاً يدعونى إلى حضرته» .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من السجع الطبيعى . وكان يفسح فى شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . ونتركه للحديث عن ثلاثة هم فى الذروة من أدباء العصر فى مختلف حقبه الماضية : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

٣

ابن العميد (١)

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسى الأصل ، من مدينة قُم الشيعية الإمامية ، فيها منشؤه ومرباه ، مما أعدَّه ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين . وكان أبوه كاتباً فَذًّا ، كتب لما كان بن كاكى ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يُلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركنَ الدولة الحسن بن بويه صاحب الرَّىِّ ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

---

(١) انظر فى ابن العميد وترجمته اليتيمة ١٥٤/٣ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه فى مواضع متفرقة وابن الأثير ٥١١/٨ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ وابن خلكان ١٠٣/٥ والشذرات ٣١/٣ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ٦٦/١ وكتابه «مثالب الوزيرين» وفيه تحامل شديد عليه وانظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٠٥ .

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور : «كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة ، حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة . . أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدّعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم» . ويقول ابن الأثير : «كان عالماً فى عدة فنون ، منها الأدب ، فإنه كان من العلماء به ، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله ، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها ، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل ، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه ، وشجاعة تامة ، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات ، وبه تخرّج عضد الدولة ، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء» . ويقول ابن خلكان : «كان متوسعاً فى علوم الفلسفة والنجوم» .

وكان – كما لاحظ ابن الأثير – يحسن قيادة الجيوش ، وحقق للدولة انتصارات عظيمة ، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراسانى سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها ، فقد اعترضه فى طريقه إلى الرى وهزمه هزيمة ساحقة . ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥ . وخرج فى سنة ٣٦٠ لقتال حسنويه الكردى ، ولكن المنية أدركته دون غايته ، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً . وظل وزيراً ثلاثا وثلاثين سنة . وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلات ، وقصده أبو الطيب المتنبى بأرّجان . فاستقبله استقبالاً حافلاً ، وفيه يقول :

عربىٌّ لسانُه فلسفىٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

ويشيد كل مَنْ ترجموا له ببلاغته ، وفى ذلك يقول الثعالبى : «أوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس . يُضْرب به المثل فى البلاغة ، ويُنْتَهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعانى ونفاستها . وكان يقال : بُدِئت الكتابة بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد» . ومَنْ يقرأ ما اقتبسه الثعالبى من كتاباته يؤمن بأنه هو الذى أعطى الكتابة فى عصر الدول والإمارات صيغتها التى ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها ، وهى صيغة قامت على أساسين كبيرين : أولهما السجع ، وكان السجع معروفاً من قبله فى

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجرى ، على نحو ما مرّ بنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وسنراه يُدخل عليه ضروباً من الموازنة فى السجعتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثانى لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفى ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثالاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتتحاً كتابه بقوله :

« كتابى إليك ، وأنا متأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلّ بسابق حُرْمه ، وتَمُتّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حقًّا ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غُلُولٍ[1] وخيانة ، وتتبعهما بِآنِفٍ[2] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبط أعمالك ، ويُسْقِطُ كلّ ما يُرْعَى لك » .

وهذه النغمات الأولى فى الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذى التزمه ابن العميد فى كتابته ، فهو يلتزم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة « تدلّ بسابق حُرْمة » توازنها فى دقة السجعة التالية لها : « تمتّ بسالف خدمة » . ومثلها السجعتان : « ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية » . وهو لا يلتزم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل « طمع ويأس » و « إقبال وإعراض » كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتصاوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه :

« ألم تكن فى ظلّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بَليل ، وهواء عَذِىّ[3] وماء رَوِىّ ، ومهادٍ وَطِىّ (لين) وكِنّ[4] كَنِين[5] ، ومكان مكين ، وحِصْن حصين » .

وكل هذه كنايات واستعارات لما كان فيه هذا العاصى لركن الدولة حين كان يضع يده فى يده ، فقد كان فى سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعيم كان فيه يتحول بؤساً وشقاء .

وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً :

« قد يعدّ أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مُدَدها ، وانتقاض مِرَرِها

---

(١) غلول : خيانة

(٢) آنف : أشد

(٣) عذى : خالص

(٤) الكن : ما يردّ الحر والبرد من الأبنية .

(٥) كنين : مستور

(قُواها) . . الطوفان بالنار والماء ، والمَوتان العارض من عموم الأوباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء . . وليس عندي الخَطْبُ في جميع ذلك يقارب ما يولِّده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحلّه الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهي نُوَرٌ(١) نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشُرَّد نوازع حيث حلّت حتى تقع عليه ، تتلفَّت إليه تلفُّت الوامق ، وتتشوَّف نحوه تشوُّف الصبِّ العاشق » .

والفصل طريف في دلالته على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله ، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه . والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقصيره ، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول . وفي أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلاسة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى . وهي كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه .

٤

الصاحب(٢) بن عباد

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد ، من أهل الطَّالَقان : ولاية بين قزوين وأَبْهر . وُلد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني ، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالري ، وعُني به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوي ، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد ، فكان يصحبه دائماً ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علماً عليه ، وقيل بل صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به .

---

(١) نور : جمع نَوُور : شاردة

(٢) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله اليتيمة ١٨٨/٣ والمنتظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومرآة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير في مواضع متفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤ ، ومثالب الوزيرين لأبي حيان ، يريد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في النفس منهما كما أشرنا إلى ذلك . ورسائل الصاحب منشورة في دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب ، وكذلك للدكتور بدوي طبانة (طبع القاهرة) . وانظر المدخل بين يدي الرسائل وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢١٢ وما بعدها .

ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفي سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقرَّه على وزارته ، وكان مبجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤْذَنُ له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار وأذنَ له في الدخول إلى مجلسه قبَّل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطمع أحد منه في ذلك » . ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفي سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفي أغلقت له مدينة الريّ ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيَّروا لباسهم . ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياماً . وفيه يقول الثعالبي : « ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرّده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ؛ وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ولكني أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محطُّ رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يرْبي عددهم على شعراء الرشيد ؛ ولا يقصِّرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، ومِلْك رِقِّ المعاني » . ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ رُوى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمذاني ، حين مرَّ ببابه ، في الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدي الشيعي والمعتزلي ، فقد كان شيعيا إماميا كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مرَّ بنا ، وهو يموج بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :

قالت : فما اخترتَ من دينٍ تفوز به   فقلت إنىَ شيعىٌّ ومُعْتزلى

وقوله :

ومن كان بالتَّشْبيه والَجبْر دائناً   فإنىَ فى التوحيد والعَدْل أوحدُ

وهو يحمل على المشبِّهة والمجبرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه   كلامٌ له فانظرْ إلى أين صعَّدُوا

وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها – فيما مرَّ – أطرافاً . وصنَّف فى اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة فى الإمامة وفى فضائل على ابن أبى طالب وفى أسماء الله وصفاته وله رسالة فى الكشف عن مساوى المتنبى وكتاب فى المقصور والممدود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع فى عشر مجلدات ، وأنها كانت حِمْل أربعمائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهى فى عشرين بابا وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها فى الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل ، والثانى فصول قصيرة وتوقيعات موجزة . وقد ذُكرت فى مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها . وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعَدُّ وثائق قيمة عن الدولة البويهية ، وخاصة أن الصاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقُضاتهم كما يعرض معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وَشْمكير ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وَهْسوذان . وفى كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء فى معاهدة لهم مع السامانيين من أنه «لا يُقْبَلُ فى جهة من الجهتين أُبَّاق العساكر ، ولا يمهَّد فى جنبة من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحَامَى على مَنْ عصا فشَرد ، وشق العصا وانفرد» . ومن الطريف أن نتعقب ما جاء فى الباب الثانى من العهود للقضاة والولاة والمحتسبين ، وخاصة عهود القضاة ، لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حينئذ فى القضاء ومصادره ؟ . وفعلاً يؤكد ذلك ما جاء فى الرسالة الأولى من الباب الثانى الخاصة بعهد القاضى عبد الجبار .

وفيها أيضا أن التركة لا تُرَدُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . ويلقانا عهد فى الحِسْبة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئولياته . وتلقانا عهود فى معاملة الرعية وفى قسمة الماء فى بعض الأودية ، كما يلقانا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفى الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كُتبتا بمناسبة نشوب ثورة فى قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى الصاحب يدعو فيهما إلى أن تحل الألفة والوئام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفى ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيَّزوا إلى مذهبهم الشيعى فى أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبيعى أن نحسَّ فى بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزليًّا ، وفى الباب السابع عشر رسالتان صريحتان فى أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول فى نحلة الاعتزال . ومن قوله فى إحداهما : «كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعده ووعيده ، هذا وفى فقهائه وفور ، وفى الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بثِّ كلمة الحق ، وسمِعَ الأكثرُ على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متآخيين حينئذ ، فعمل على نشره لينتشر من ورائه التشيع مبتغاه . وفى الرسائل – من حين إلى آخر – ما يدل على نزعته الشيعية وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا فى الباب التاسع عشر رسالة هى عهد لعلوى ولىَّ النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذى كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل فى الدولة ، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة ، ويأمر النقيب بتعقبهم وإشهار أمرهم ، وفى الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التى كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التى وصلتنا عن كتَّاب البويهيين فى القرن الرابع الهجرى ، وهى دائماً تبتدىء بالتحميد والتمجيد للنبى ﷺ أو بالدعاء . ويُعقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذى يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذى خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة فى فتح عظيم أطال فى الدعاء تنويها بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذى يقوم على السجع والبديع ، ويروى معاصروه طُرَفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرىِّ متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : «كتابي هذا من النّوبهار ، يوم السبت في نصف النهار» . وقالوا إن سجعة اضطرته إلى عزّل قاضي مدينة قُمْ ، فقد كان في حضرته ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجعة ، فأعياه إكمالها ، فقال : قد عزلناك فَقُمْ . ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبي حيان ، وفي تكلفه للسجع يقول : «كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد . . قلت لابن المسيّبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عُروة الملك ، ويضطرب بها حبْل الدولة ، ويُحتاج من أجلها إلى غُرْمٍ ثقيل ، وكلفةٍ صعبة ، وتجشّم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفرج عنها ويُخليها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها» . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد الصاحب يترك نفسه على سجيتها ، فإن واتاه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامها تفننا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجاياه . وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجرى على هذا النمط :

«أحسنُ نعم الله تعالى غُرَراً وأَوْضاحاً ، وأَبْيَنُها فَلَقاً وصباحاً ، وأُولاها إذا تُصُفِّحَتِ المواهب أخذا بحظ السابق ، وأَوْلاها إذا اتُّبِعت المتائح فوزاً بالعز الشاهق ، وأحراها بأن تُثْنى عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُثْنَى إليها أعناق المحامد والمعالي ، نعمةٌ صادفتْ حمداً وشكراً . وجمعت فتحاً ونَصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستذلّت ممتطياً للجحود لاهياً عن غَوْره ، مُسْتَشْرِياً في الغموط عادياً لطَوْره . وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عَضَد الدولة ، وتوّج الملّة ، وحرس الأمّة ، وزحزح الغُمّة ، ورَفَدَ الخلافة ، وبَسَط العدل والرّأفة ، وطهّر البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدّ الثغور ، فشهدتْ فتوحه بأنه مؤيّد من عند الله ، ومحوطُ الملك بيد الله ، لا ينازع رآيه منازعٌ إلا تُلَّ لجبينه[1] ، وعوجل بقطع وَتينه[2] . ولا يمانع رايتَه ممانع إلا غُلّتْ يده دون مطلبه ، وانقطع أمده عن مَهْربه ، ولم يَعِزّ بالتحصن عليه مارق ، والتمنّع دونه مشاقٌّ مفارق ،

---

(١) تل لجبينه : صرع على وجهه (٢) الوتين : الشريان الرئيسي للقلب

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سَمْحاً فاستُنْزِل عن معاقله وصَياصيه (١) » .

وواضح أنه تمثّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته فى هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعْنَى بأسجاعه ، فهى تتقابل وتتوازن مهما طالت ، كقوله : « وأولاها إذا تُصُفّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأَوْلاها إذا تُتبِّعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق » وكل كلمة فى العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأيدى مع قرينتها فى العبارة الأولى . ومثلها السجعة التالية : « وأحراها بأن تُثْنِى عليها ألسنة الأيام والليالى ، وتُثْنَى إليها أعناق الحامد والمعالى » وكأن الكلمات فى العبارتين تتعانق . واستمر فى قراءة الأسجاع الطويلة فى هذا الفصل وفى رسائل الصاحب ، فستجد دائماً هذا التعانق والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقًّا ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولابد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع ، فالنعم ذات غُرَر وأوضاح كخَيْل الحرب الظافرة ، بل هى كالصباح الجميل البهيج : وتتوالى الأخيلة والصور فى المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غُرّره وطوره ، والأمّة والغُمّة ، وينازع ومنازع ، ويمانع ومُمانع . ويحاول أن يأتى بغرائب فى الجناس تخلب ألباب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا فى بعض الحروف ولكن فى بعض الحركات كما فى « أُولاها ، وأَوْلاها » و « تُثْنِى وتُثْنَى » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يُكْثِر من الجمل الاعتراضية فى رسائله على نحو ما يتضح فى مطلع هذا المقطع ، فقد بدأه بمبتدأ هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكرا » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبو حيان ، وقال إن هذا يُحْدث تعاظلاً فى أساليبه (٢) . وفى رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طولاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب فى أساليبه شاع فيما بعد بين كتّاب العصور التالية وخاصة عند العماد الأصفهانى والقاضى الفاضل . وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هى تطول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما فى هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحًا وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة فى رسائله الإخوانية ، كقوله فى عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً نحريراً : « للفجائع اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها لذعاً ، وأعظمها

---

(١) الصياصى : الحصون

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٤

وقعاً ، فجيعة أحرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خصّت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبى عثمان – رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه فقد كان للإسلام جَمالاً ممتداً ، وللدين ركناً مشتداً ، وللعلم شهاباً لا يَخْبو ، وللأدب سَهْماً لا يَنْبو ، يذبُّ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، عاشَ عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر ، التقوى شعاره ، واليقين دِثاره ، وحجج الله مَفْزعه ، وآياتُ الله مرجعه ، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحِّدين ، وأسرَّه إلى الملحدين ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار » .

ويمضى فى مثل هذا السجع القصير موشَّياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه ، كما نرى فى مثل « مأواه ومثواه » ، و « ممتداً ومشتداً » و « لا يخبو ولا ينبو » و « لومة لائم » . وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى فى مثل « الموحدين والملحدين » . وله تهنئة طريفة ببنت ولدت لبعض أصحابه تمضى على هذه الشاكلة :

« أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمِّ الأبناء ، وجالبة الأصْهار ، والأولاد الأطْهار ، والمبشِّرة بإخوة يتناسقون ، نُجباء يتلاحقون :

فلو كان النساءُ كمثل هَذِى لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمس عَيْبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ[(١)]

فادَّرِعْ يا سيدى اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خُلقت البريَّة ، وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زُيِّنت بالكواكب ، وحُلِّيت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عُرِف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وُعِد المتقون ، ولها بُعِث المرسلون . فهنيئاً هنيئاً ما أُوليت ، وأوزعك الله شكر ما أُعطيت ، وأطال بقاءك ما عُرِف النسل والولد ، وما بقى الأمد ، وكما عُمِّر لُبَد »[(٢)] .

والرسالة مؤلفة من السجع القصير ، ويحلِّيها الصاحب بالجناس من مثل « الأصهار والأطهار » وهو قليل فيها ، وكأنه لم يكن يتأنق فى الرسائل الإخوانية تأنقه فى الرسائل الديوانية الطويلة . وفى الرسالة ظاهرة ينبغى الالتفات إليها ، ونقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهنئة بالبنت – وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها – بست

---

(١) البيتان للمتنبى .

(٢) لبد : نسر ، وفى الأساطير العربية أنه عمر أربعمائة عام

حجج أو ستة أدلة ، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء فى القرآن «ومنها خلقناكم» والسماء مؤنثة وروعتها فى كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهى قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، والجنة مؤنثة ولها بُعث المرسلون وبها وُعد المتقون . أدلة لا تُنقض . وكأننا بإزاء مناظرة كلامية فى تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ فى أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم فى التعليل والتدليل . وهى تتضح فى جدال المنحرفين عن الدولة وفى تعليله العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة . ومن قوله فى إهداء أُترجّة :

«ما زلت يا سيدى أفكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وَتَنْتظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأترجّة كأن لونها لونى وقد مُنيت ببعدك ، وبُليت بصدّك ، وكأن عَرْفها [١] مستعار من عَرْفك ، وظَرْفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا أسمّيه ، وأنا أفديه ، فأنفذتها وقلت :

مولاىَ قد جاءتْك أُتْرجَّةٌ من بعض أخلاقِكَ مخلوقَهْ
ألبسَها صانعُها حُلَّةً من سَرَقٍ أصفرَ مسروقه [٢]

والرسالة تصور أناقته فى اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين فى قوله : «معشوق وعاشق» و «مشوق وشائق». وهى تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم نتوقف عند تصاويره وهى كثيرة فى رسائله الإخوانية والديوانية كقوله فى وصف الورود السوداء فى احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارنجات الصفراء :

«قابلتنى شَقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى ذَماؤها [٣] ، وسامتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتنى نارنجات ككُرات ذهّبت أو ثُدِىّ أبكار خُلّقت [٤] » .

وله رسالة لم يُعْنَ فيها بالسجع ، وإنما عُنى بالتصوير وحده ، وهى فى استدعاء صديق لبعض مجالس أنسه ، وتطّرد على هذا النمط :

«نحن يا سيدى فى مجلس غَنِىٍّ إلا عنك ، شاكرٍ إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(١) العرف : الرائحة الطيبة .
(٢) السرق : شقق الحرير .
(٣) الذماء : بقية الروح .
(٤) خلقت : طُيِّبتْ .

النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترجّ ، وفُتقت فأْرات[1] النارنج ، وأُنطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبّت رياح الأقداح ، ونَفقت[2] سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء النَّدّ[3] فبحياتى لما حضرت لنحصل بك فى جنة الخُلْد ، وتتصل الواسطة بالعقد » .

والرسالة مغموسة غَمْساً فى صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك الصاحب نفسه على سجيتها ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل فى ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع وغرامه به ، حتى لو كلفه ذلك خَللاً فى الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقالاً ما بعدها أهوال ، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما فى هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديهته حاضرة ، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فمن ذلك أن ضَرّابين للنقود من دار الضَّرْب رفعوا إليه رقعة فى مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضَّرّابين ، فوقّع تحتها « فى حديد بارد » . واستمع إلى ابن سمعون الواعظ ببغداد فى أثناء درس له فسأله متخابثا عن قَدْ سَكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام ، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب : « هذا الذى تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله » ! .

٥

بديع[4] الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمَذان ، ولذلك يقال له الهمذانى ، ولقّبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ، وهى أسرة تغلبية مضرية ، ومن قوله فى بعض رسائله : « همذان المولد ، وتَغْلب المورد ، ومُضَر المحتد » فهو ليس فارسى الأصل ، بل هو عربى مضرى تغلبى . وعُنى به أبوه ، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بحلقات العلماء ، وخاصة حلقة أبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى المشهور صاحب كتاب المجمل ، وله يقول فى بعض رسائله متلطفاً :

---

(١) فأرة المسك : وعاؤه .

(٢) نفقت : راجت .

(٣) الند : الطيب .

(٤) انظر فى بديع الزمان وترجمته وأخباره اليتيمة ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٣٤٦/٢ وابن خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديما ببيروت ومقاماته طبعت مرارا ، وديوانه مطبوع بمصر قديماً وانظر فيه كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ٢٣٨ وأيضا كتابنا (المقامة) طبع دارالمعارف ص ١٣ وما بعدها

لا تَلُمْني على ركاكة عَقْلي   أَنْ تيقَّنتَ أنني همَذانى

وكان محبًّا للرحلة ، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد ، وكان – كما مرَّ بنا فى ترجمته – راعياً كبيراً من رُعاة الأدب فى عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يُلْقى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها فى سرعة عجيبة .

ويرحل عن حضرة الصاحب مولّياً وجهه شَطْر جرّجان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهى أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلى ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلى الشيعى ، وهو اتفاق فى الاسم جرَّ إلى هذا الخطأ(١) . ويؤكد ذلك أن ياقوت فى ترجمته له يقول : «إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة» فلم يكن إسماعيليًّا ، ولا كان أيضاً إماميًّا شيعيًّا ، بل كان سُنّياً أشْعَرياً .

ولا يمكث فى جُرجان طويلاً ، بل يتركها إلى نَيْسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهنالك يصطدم بأبى بكر الخُوارزمى ، وهو اصطدام طبيعى ، فقد كان الخوارزمى شيعيًّا إماميًّا ، وكان يدعو لبنى بويه الشيعة الإماميين فى نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمى انتصروا فيها للبديع ، فعَلا صيته ، وتألق نجمه ، إذ كان الخوارزمى يُعَدّ فى الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفى سريعاً ، فخلا الجو للبديع ، وطارت شهرته ، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابهون . وسرعان ما فارقها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد فى خراسان بينما الجوائز والمكافآت تُغْدَقُ عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولّى وجهه نحو سِجِسْتان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ – ٣٩٩ هـ) وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان ، ويقول الباخرزى إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك فى إحدى رسائله . وله فيه خمس مقامات أنشأها فى مديحه وقصائد ورسائل مختلفة .

ويترك سِجستان إلى هَرَاة بأفغانستان ، ممنّياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوى ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة فى مديحه على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان الهمذانى لمارون عبود (طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك فى اسمه واسم إبيه وعروبته دون دليل .

ويُصْهر إلى سَرِىٍّ من سَراة هَراة يسمَّى الخُشنامى ، وينجب أولاداً ، ويقتنى عَقاراً وضِياعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول فى بعض رسائله : «وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قِبَلى تدور» غير أنه لم يلبث أن توفى وهو لا يزال فى الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة .

وللبديع رسائل كثيرة ، وهى رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتقريع ، ومنها ما هو موجَّه إلى الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبى نصر الميكالى النيسابورى :

«كتابى – أطال الله بقاء الأمير – وبودِّى أن أكونه ، فأسْعَد به دونه ، ولكن الحريص محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاَّه قفاه ، وبعد فإنى فى مفاتحته بين ثقة تَعِد ، ويد ترتعد ، ولِمَ لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثره ، وإذ لم آلَفه ، فلم أجهل إلا خَلْقه ، وما وراء ذلك من تالِد أصلٍ ونَشَبٍ ، وطارف فضل وأدبٍ ، فعلومٌ تشيد به الدَّفاتر ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواسِّ إدْراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً» .

وفى هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجعه ، وأنه يُعْنَى فيه بتقصير العبارات ، تواتيه فى ذلك ملكة فياضة ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتى تنثال عليه العبارات ، وحتى يخيل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجرى ولا ينقطع إلا أن يتوقَّف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمَّلْ فى سجع هذه الرسالة فستجده موشى بالجناس الناقص فى مثل : «تَعِد وترتعد» و «أره وخبره» و «أثره وأكثره» و «آلَفه وخَلْقه» . وهو دائماً يَغْمس رسائله فى الجناس غَمْساً ، تارة يأتى به كاملاً ، وتارة يأتى به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله فى الأمير خلف بن أحمد فى إحدى رسائله : «لو أن البحر عُدده ، والسحاب يده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه . بينا المرْءُ فى سِنَة من نومه ، وقصاراه قوتُ يومه ، إذ يُقْرَعُ الباب عليه قَرْعاً حَفِيًّا ، ويُسْأل به سؤالاً خَفِيًّا ، ويُعْطَى ألفاً خلفيًّا» . والجناس الناقص واضح فى هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامًّا دائماً النظير فى الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظير كقوله من فصل فى إحدى رسائله :

«أرانى أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أوهبت الريح أو نجم النجم أولمع البرق

أو عرض الغيث أو ضحك الروض . إن للشمس محيّاه ، وللريح ريّاه ، وللنجم حِلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤه وسناه ، وللغيث يداه ونَداه ، وللروض سجاياه » .

وواضح أنه لما ذكر عنصراً من الطبيعة وهو الشمس أردفه بالريح والنجم والبرق والغيث والروض . والجناسات كثيرة فى القطعة . وبجانب ذلك نراه يكثر من الاكتباس من القرآن ، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور فى تضاعيف رسائله . ونراه يجنح كثيراً إلى سرّد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جمله ففقده ، فلما طلع القمر وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى القمر فقال : إن الله صوّرك ونوّرك ، وعلى البروج دوّرك ، . . ولئن أهديت إلى قلبي سروراً ، لقد أهدى إليك نوراً . والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره ، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه » .

ويضرب مثلاً لمن يذهب فى البحث بعيداً عن أمنيته ، وهى مَدُّ يده ، بالبخارى الذى ضاع حماره فذهب يبحث عنه فى البلاد النائية ، بينما هو فى مَرْبضه ، يقول :

« لم يكن مَثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه ، حتى عبر نهر جيْحون بسببه ، يطلبه فى كل مَنْهلة ، وينشده فى كل مرحلة ، وهو لا يجده حتى جاوز خُراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده وأَيِس عاد وقد طالت أسفاره ، ولم يحصّل حماره ، حتى إذا وصل إلى بلده ، بين أهله وولده ، أحب الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى إصطبله ، فإذا الحمار بسرجه ولجامه ، وحزامه ، قائماً على المَعْلف ينشّ » .

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة ، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره وبعد عصره . وجعلته موهبته القصصية التى رأيناها فى رسائله يبتدع فنّا جديداً ، هو فن المقامة ، وهى حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبى الفتح الإسكندرى وراوية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام . والمعروف أنه أملى أربعين مقامة فى أثناء مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمساً ، كما أسلفنا ، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير سجستان ، ثم أضاف إليها ستا أخرى . والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التى احتفظ بها كتاب الأمالى لأبى على القالى ، وهى حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب ، وبعد أن أنهاها رأى أن يعرض على طلابه ثانياً أربعين مقامة له . ومعنى كلمة مقامة حديث . ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُدْية أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكْدين فى أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهقى عنهم فى كتابه «المحاسن والمساوى» ويعرض الجاحظ والبيهقى لأساليبهم وحيلهم فى استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماؤهم فى عصر بديع الزمان ، ومرَّ بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم فى هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً فى القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه فى أولاها يتمثل بأبيات كبير المكْدين أبى دلف الخزرجى ، وقد أنشدناها فى حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيْحَكَ هذا الزمانُ زورُ فلا يغرنَّك الغَرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو - كما أسلفنا - أمير فارسى هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكُدْية .

وتنقَّل بديع الزمان بأبى الفتح الإسكندرى بطل مقاماته فى بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التى ألمّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفى أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذى وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التى طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَضِيرية نسبة إلى طعام المَضيرة ، وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء . وسمى مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع الملئ بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُدْية ، إذ هى مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاصح البيانى وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس . وفى تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأوانى فى بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض فى المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء فى بعض البلدان . وقد حمل فى المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعريًّا ، وكانت

الخصومة مستعرة فى زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولتكن المقامة البصرية نسبة إلى البصرة فى العراق ، وهى تجرى على هذا النمط :

وحدَّثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وأنا من سِنِّى فى فَتاء (شباب) ومن الزِّى فى حِبَر ووِشاء (ثوب مطرز) ومن الغِنى فى بَقَر وشاء (غنم) فأتيت المِرْبَد (سوق البصرة) فى رفقة تأخذهم العيون ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتنزَّهات ، فى تلك المتوجَّهات ، وملكتنا أرضٌ فحللْناها ، وعَمَدْنا لِقداح اللَّهو فأجَلْناها ، مطَّرحين للحشمة إذ لم يكن فينا ، إلا مِنَّا ، فما كان بأسرع من ارتداد الطَّرْف ، حتى عنَّ (ظهر) لنا سواد (رجل) تَخْفِضه وِهاد ، وترفعه نِجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه يهمُّ بنا ، فأتْلَعْنا (مددنا أعناقنا) له حتى أدّاه إلينا سيره ولَقِينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ، ثم أجال طَرْفه فينا وقال : يا قوم ما منكم إلا مَنْ يلحظنى شَزَراً (بمؤخر عينه) ويوسعنى حَزْراً (تخمينا) وما ينبئكم عنى ، أصدق منى . أنا رجل من أهل الإسكندرية ، من الثغور الأموية ، قد وطّأ (مهد) لى الفضل كَنَفه ، ورحَّب بى عَيْش ، ونمانى بيت ثم جعجع بى (أهاننى) الدهر ، وأتلانى (أتبعنى) زغاليل حُمْر الحواصل . . . ونشَرَتْ علينا البيض (الدراهم) وشَمَسَتْ (نفرت) منا الصُّفْر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالى) وحطَّمتنا الحُمْر (السنوات الجدبة) . . وهذه البصرة ماؤها هَضُوم (مهضم) وفقيرها مهضوم : فكيف بمن :

يطوِّف ما يطوِّف ثم يأوى   إلى زُغْبٍ محدَّدة العيونِ(١)
كَساَهنَّ البِلى شُعْثاً فتُمْسى   جياعَ النَّابِ ضامرَة البطون(٢)

ولقد أصبحن اليوم وسرَّحن (أجَلْنَ) الطَّرْف فى حَىٍّ كميْت (يقصد نفسه) وبيت كلا بيت ، وقَلَّبْن الأكفَّ على ليت ، ففَضَضْنَ عُقَد الضلوع ، وأفَضْن ماء الدموع ، وتداعيْن باسم الجوع :

والفَقْرُ فى زمن اللئا   مِ لكل ذى كرمٍ علامَهْ
رَغِبَ الكرامُ إلى اللِّئا   م وتلك أشراطُ القيامه(٣)

ولقد اخترتكم يا سادة ، ودلَّتنى عليكم السعادة ، وقلت : قَسَماً ، إن فيهم لَسِمًا ، فهل من فتى يُعَشِّيهن ، أو يُغَشِّيهن (يكسوهن) وهل من حرٍّ يُغَدِّيهن أو يُرَدِّيهن (يلبسهن

---

(١) زغب : من الزغب : صغار الريش والشعر   (٢) شعثا : مغبرّة ، كناية عن أن أحدا لا يرعاهم . والكتابة واضحة .   (٣) أشراط : علامات

ثياباً) . قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على حجاب سمعى كلامٌ رائع أبرع ؛ وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمحنا الأوساط (يريد الأحزمة وما فيها من نقد) ونفضنا الأكمام ، ونحّينا الجيوب ونُلْته (أعطيته) أنا مُطْرِف (ثوبى) وأخذت الجماعة إلحذى ، وقلنا له : الحقْ بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاه ، ونَشْر (ثناء) ملأ به فاه » .

وواضح ما يمتاز به البديع فى مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة ، حتى يدخل السرور على سامعيه وترتسم البسمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر فى المقامات ، ومن حَلّ بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : «وأتلانى زغاليل حمر الحواصل» يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قريبة عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الحطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرَخٍ   زُغْبِ الحَواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ[1]

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها فى مقاماته بالمقدار الذى كان يُظَنّ ، إذ لم يضع فى ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره فى صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية ، وعدُّوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافلين بعمل قصص طويلة أو حتى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات فى إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع - كما رأينا فى رسائله - ألوان البديع من الأخيلة والتصاوير ومن الجناس ومراعاة النظير ، وألهاه الحوار القصصى عن المبالغة فى ذلك . ولا ريب فى أن سجعه فى مقاماته - كرسائله - سجع رشيق ، لما يمتاز به من قِصَر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة ، على نحو ما نقرأ فى المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمى ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة فى الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى فى المقامات التى سميناها وفى الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعَدُّ عيباً فى أساليبه التى تطبعها - كما قلنا - الرشاقة ، وأيضاً الحفة والعذوبة وروح الفكاهة المرحة المحببة لكل إنسان .

---

(١) ذو مرخ : موضع بنجد

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه فى كتابنا المقامة من أن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هى التى أوحت لابن شهيد الأندلسى وأبى العلاء المعرى رحلتهما فيما وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور فى مقامته عيسى بن هشام يلتقى بإبليس فى واد من وديان الجن ، إذ ضلت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل فى واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حواليه إذ رأى شيخاً جالساً فسلّم عليه وردّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجرير ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس «ما أحَدٌ من الشعراء إلا ومعهُ معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبومُرّة» . ويغيب عنه ، ويجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة فى رسالته «التوابع والزوابع» أى الجن والشياطين ، وهو فيها يلقَى شياطين الشعراء فى وادى الجن ، وكلما لقى شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيبدى إعجابه به ويجيزه اعترافاً بروعة شعره ، ولقى شياطين الكتاب كما لقى شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسائله . ولقى شيطان بديع الزمان الذى سمّاه «زبدة الحقب» ، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التى يحاكيه فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويجيزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبليسية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء فى وادى الجن موضوعاً لها ، ويلقَى ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبليسية بتوابعه وزوابعه . ويجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذى ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صَوّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفى الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذى ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة فى وادى الجن ؟ . ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذى استغلّ لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء فى مقامته الإبليسية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعرى فى القرن الخامس الهجرى ، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة . ويتضح أثر البديع بقوة فى ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع فى وادى الجن ، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادى ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية فى القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى العراق وإيران فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسى لأقاليمها حينئذ ، وهى الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوت وظَفار وعُمان والبَحْرين ، وفصلنا القول فى إمارتى مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز فى حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل فى نجد وتكوينها لإمارات متعددة فى شرقى الجزيرة وظهور آل فضل وآل مِرا فى بوادى الشام ثم ظهور آل سعود فى نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة فى زَبيد وصَنْعاء وصَعدة وعَدن ودخولها فى حكم الأيوبيين ثم الرسوليين فالطاهريين، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتداول الدول اليمنية حَضرمَوت ، وكذلك ظفار إلى أن تبعت عُمان نهائيا . وكان الخوارج فى عمان يتخذون « نَزْوَى » فى الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربى قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها فى القرن العاشر الهجرى . وسيطر القرامطة على البحرين فى أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العُيونية ودولة بنى عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقَطيف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحَضر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا فى بعض القرى وبعض العواصم التى اتخذتها إماراتهم . وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل فى مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهّل لشئ بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نَزْوى » بعمان مركزا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبهم فى حضرموت . وما ينتصف القرن الثانى عشر الهجرى حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدِّرْعية

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده فى يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها فى الجزيرة ، وهى نداء يدعو إلى اتباع الحنابلة من أهل السنة . ويلقانا كثير من كبار المتصوفة فى مكة واليمن وحضرموت ، وكان النساك متشردين فى كل مكان .

وكان يجرى فى كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى فى قرى نجد وقد تحولت – منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب – إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيهما من العلماء والأدباء ، وبما كان يفد عليهما سنويا من أدباء العالم العربى وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالا . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، ونشط معها البحث فى علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العمانى . وفى كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء فى كل الأقاليم ، وكثر ما أنتجوه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجرى على كل لسان فى أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامية تزاحم الفصحى فى نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجرى ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حُمَيْنى فى اليمن وحضرموت وشعر نبطى فى بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا . وقد ترجم الباخرزى لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن فى القرن الخامس الهجرى وترجم العماد الأصبهانى لطائفة من شعراء بنى عُقَيل فى الموصل وشعراء بنى مزيد فى الحِلّة وأيضا لطائفة من شعراء الحجاز واليمن فى القرن السادس . وتلقانا بعده فى كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة فى حقب العصر التالية ، غير ما طُبع ونشر من دواوين النابهين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفى مقدمتهم القاسم بن هتّيمل اليمنى وأحمد بن سعيد الخُروصى السّتالى العُمانى وعلى بن مقرّب العُيونى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحَضْرمى ، كما يكثر شعراء المراثى من أمثال النهامى المكى وجعفر الخطى البَحْرانى ، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميرى اليمنى وسليمان النبهانى العُمانى .

وتتكاثر فى الجزيرة طوائف الشعراء ، ونلتقى منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفى طليعتهم ابن القمّ والسلطان الخطّاب وعُمارة اليمنى ، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بَهْران وعلى بن محمد العنسى فى اليمن ، وبشعراء الخوارج من أمثال أبى إسحق الحضرمى الإباضى وابن الهَبِّيَى اليمنى . ونلتقى بشعراء الدعوة الوهابية السلفية ، وفى مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسنى الصَّنعانى اليمنى وابن مشرف الأحسائى ، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البُرَعى اليمنى وعبد الرحمن العَيْدَرُوس الحضرمى . وجميعهم رُسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية .

ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبدالوهاب ، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نموا واسعا . وكان فى مكة والمدينة كتّاب إنشاء من قديم ، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريظ الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة فى اليمن طوال العصر ، وظلت ناشطة فى حضرموت وعمان والبحرين . وتحتفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك . وكانت الرسائل الديوانية ناشطة فى اليمن منذ زمن الدولة الصليحية فى القرن الخامس . وتحتفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المماليك فى مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج فى عمان ، و بالمثل بين الأئمة الأخيرين وعمالهم . وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتلقانا محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة .

٢

وفى القسم الثانى من هذا الجزء تحدثنا عن العراق ، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسى وبيان الدول التى تعاقبت على حكمه ، وهى الدولة البويهية ، ويليها الدولة السلجوقية ، ويسترد الخلفاء منها فى منتصف القرن السادس الهجرى صولجان الحكم ، ويقضى التتار بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم فى منتصف القرن السابع . وتتعاقب على العراق وبغداد دولتان تتاريتان : دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان ، ويظل العراق فى قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع فى بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشىء من سعة العيش ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة ، وكانت تتجرّع الضنك والبؤس ، فتحوّل كثيرون منها إلى عيّارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين – فيما يبدو – فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع فى العراق المذهب الشيعى الإمامى الاثنا عشرى ، وكان بجواره مذهب شيعى مارق هو مذهب النُّصَيْرية ،

ومذهب شيعى معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادّة طوال العصر ، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقى الجيلانى والرفاعى وما شاع بعدهما من طريقى النقشبندية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية فى بغداد ناشطة وكذلك الشأن فى العراق عامة إذ عُنى بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء فى كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث رواجا هائلا فى الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم فى كتابه « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتتكاثر الندوات الفكرية فى بغداد ويتكاثر المتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتارى ، وتظل منهم بقية فى الحقب التالية . وتنشط فى العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية ، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتنفذ بغداد فى النحو إلى مدرسة جديدة هى المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط فى الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل فى الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبى وشعره . ويُعْنى صفى الدين الحِلّى بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامى . وتنشط بغداد والعراق فى دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة فى التاريخ العام والخاص وفى تراجم العلماء من كل صنف .

ويتكاثر الشعراء فى العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا فى اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون فى الرباعيات والموشحات ، ويفسحون فى أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى فى المحسنات البديعية . ويلقانا مع كل دولة بل فى كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفذاذ المتنبى أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفى الدين الحِلّى . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والهجاء والشكوى من أمثال السَّرِىّ الرَّفاء ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفى مقدمتهم الشريف الرضى ، ومهيار ، وابن أبى الحديد .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حنينا وشوقا وظمأ للقاء محبوباتهم لا ينتهى ، مما أعدّ لظهور ضرب من الشعر الوجدانى عند ابن المعلم والحاجرى والتَّلَعْفَرِىّ . ويتغنّى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سُكَّرة ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادى ، والمرتضى الشَّهرَزُورِىّ ، والصَّرْصَرِىّ . ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفى والتعليمى من أمثال ابن الشِّبل البغدادى وابن الهبَّارية ، كما يلقانا شعر شعبى عامى كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبى الأحنف العُكْبرى .

ويتنوع النثر فى العصر ، فكان هناك النثر الفلسفى والنثر العلمى والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبى والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية ونلتقى بأبى إسحق الصابىء والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير . ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدى بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبى بالفكر الإسلامى العربى مع حسن الأداء ، والحريرى بمقاماته الرائعة التى خلبت ألباب معاصريه وخالفيه حتى العصر الحديث .

٣

وفى القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتقابلة بها ، وهى الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التى تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجرى ، وهى دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة ، وطبقة متوسطة تعيش فى غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة . ونشط الشيعة فى نشر عقيدتهم، وفى مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم فى القرن الثالث دولة فى طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون فى نشر عقيدتهم ، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم فى أواخر القرن التاسع الهجرى فجعلوا المذهب الإمامى المذهب الرسمى لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا فى منتصف القرن السابع الهجرى . وكانت تعم فى إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رأب الصدع أبو نصر السراج ، والقشيرى ، والغزالى .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة فى القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعُنوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتى النساء ، وأخذوا يفردون كتبا لشرح المصطلحات فى العلوم والفنون . ونشطت نشاطا عظيما دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفى مثلا لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيرونى ، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف فى التفسير كما نشط التأليف فى الحديث النبوى ، وفى الفقه ، وفى علم الكلام وخاصة فى المذهبين : الأشعرى والماتريدى . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تتناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تتناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء فى كل فن .

ويزدهر الشعر العربى بإيران فى القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التى شغلها فى اليتيمة وتتمتها وفى الدمية والخريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسى وشعرائه كتاب عوفى فى القرن السابع الهجرى . ونفس الشعر الإيرانى صيغ صياغة على أنماط الشعر العربى ؛ وتناولَ نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربى حيًّا فى إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفى مقدمتهم على بن عبد العزيز الجرجانى والطغرائى والأرَّجانى ، وبالمثل شعراء المراثى من أمثال أبى الحسن على بن أحمد الجوهرى الجرجانى ، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبى بكر الخوارزمى ، والأبِيوَرْدىّ .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلقاهم شعراء الغزل وفى مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالى . ويليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبى بكر القُهُسْتانى ، وأبى الحسن الباخرزى ، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القُشَيرى ، ويحيى السُّهرَوَرْدِىّ ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفى مقدمتهم أبو الفضل السكرى المَرْوَزِىّ ، وأبو الفتح البُسْتى ، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبى دُلَف الخزرجى .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر فى كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وَشْمكير والعُتْبِىّ ورشيد الدين الوطواط ، ومن أنبه كتاب إيران فى العصر على توالى حقبه ابن العميد الذى أرسى قواعد الكتابة على ركنين

أساسيين من السجع والمحسنات البديعية ، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التى كانت تنتظرها من التجويد والتنميق . وينشئ بديع الزمان الهمذانى لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعَدُّ أَبْرَعَ كتّاب إيران الذين ظهروا فى عصر الدول والإمارات غير منازَع ولا مدافَع .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة